

« روضة الناظر ونزهة الخاطر »

في

الجزاء من جنس العمل

تأليف

الدكتور سيد حسين العفاني

قدم له

أبو بكر جابر الجزائري

الشيخ محمد صفوت نور الدين — الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ أبو إسحاق الحويني — الشيخ عائض بن عبد الله القرني

الناشر

مكتبة ابن تيمية

القاهرة ت: ٥٨٦٤٢٤٠



الدكتور سيد حسين العفاني

الجزاء من جنس العمل

[كلمة تقريظ]

بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه أقول لقد تفضل عليّ الدكتور العلامة الشيخ سيد حسين العفاني بإهدائه نسخة من كتابه: الجزاء من جنس العمل. وتصفحت الكتاب وهو جزآن، أو اثنان. وغمرتني أنوار هذا الكتاب، وكانت تحجبني عن مطالعة وقراءة كل كتاب سواه من مؤلفات علماء الأمة الماضين والحاضرين. وبدا لي أن أسميه: روضة الناظر، ونزهة الخاطر، بدلاً من الجزاء من جنس العمل لو كان ذلك لي. وعلى كل حال فإن من يقرأ هذا الكتاب سيجد نفسه في رياض المعارف ونزهات الخواطر أراد ذلك أو لم يرده، وذلك لما حوى هذا الكتاب من العقائد السلفية الصحيحة، والعظات والعبر العجيبة، والأحكام الشرعية العديدة، والحكم البالغة المفيدة. ومن تصفح هذا الكتاب سوف يجد كلمتي هذه في تقريظه كقطرة ماء في بحر زاخر، لا أهمية لها ولا وزن.

إذاً فإنه لا يسعني هنا إلا أن أدعو لمؤلفه المحب الصادق بأن يزيده الله من علمه ويبارك في ثمرته، وينفع بكتابه وكتبه، وأن يجمعنا وإياه في مقعد صدق عند مليك مقتدر، اللهم آمين، اللهم آمين، اللهم آمين

وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين

كتبه

أبو بكر جابر الجزائري

في ٢٠/١١/١٤١٦هـ

أبو بكر الجزائري

المدرس بالمسجد النبوي الشريف

□ تقريظ بقلم فضيلة الشيخ / أبي بكر الجزائري □

للطبعة الثانية من « الجزاء من جنس العمل »

كلمـــة تقْرِيظ

بعد حَمْد الله تعالى ، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه ، أقول :

لقد تفضَّل عليّ الدكتور العلّامة الشيخ سيد حسين العفّانيّ بإهدائه نسخةً من كتابه « الجزاء من جنس العمل » ، وتصفَّحتُ الكتاب وهو جُزْءان ، أول وثانٍ . وغمرتْني أنوار هذا الكتاب ، وكادت تحجبني عن مُطالعة وقراءة كلِّ كتاب سواه من مؤلفات علماء الأُمَّة الماضِين والحاضرين ، وَبَدَا لي أن أُسمِّيه : « رَوْضَة الناظِر ، ونُزهة الخاطر » ، بَدَل : « الجزاء من جنس العمل » ؛ لو كان ذلك لي . وعلى كلِّ حال ، فإن مَنْ يقرأ هذا الكتاب سيجد نَفْسَه في رياض المعارف ونزهات الخواطر ، أراد ذلك أو لم يُرِدْهُ ؛ وذلك لِمَا حوى هذا الكتاب من العقائد السلفيَّة الصحيحة ، والعِظات والعِبَر العجيبة ، والأحكام الشرعيَّة العديدة ، والحِكَم النافعة المفيدة . ومَنْ تصفَّح هذا الكتاب ، سوف يجد كلمتي هذه في تقريظه كقطرة ماءٍ في بحرٍ زاخِرٍ لا قيمة لها ولا وَزْن .

ولذا فإنه لا يسعني هنا إلا أن أدعو لمؤلِّفه المُحِبّ الصادق ، بأن يزيد الله في علمه ، ويُبارك في عمره ، وينفع بكتابه وكُتُبه ، وأن يجمعني وإياه في مقعدِ صدقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِر . اللَّهمَّ آمين ، اللَّهمَّ آمين ، اللَّهمَّ آمين . وسلامٌ على المرسلين ، والحمد لله ربِّ العالمين .

وكتبهـــا

المدرس بالمسجد النبوي الشريف

أبو بكر جابر الجزائري

في ١٤/١١/١٤١٦ هـ

لقد أتيْتنا بنهر النيل :

قال الشيخ أبو بكر الجزائري لحامل هذا الكتاب إليه :

« لقد أتيتنا ببحرٍ من العلم ... لقد أتيتنا بنهر النيل » .

○ مقدمــة ○

بقلم فضيلة الشيخ / محمد صفوت نور الدين

الرئيس العام لجمعيات أنصار السنة

الحمد لله الذي قال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾، وقال : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ والصلاة والسلام على رسوله الذي بَلَّغَ فقال : « قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » فبلَّغ وعْدَ ربه ووعيده، وأَنْذَر وبَشَّر، وترك الناس على طريق ناصع البياض، فجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمته، ورسولًا عن قومه .

وبعــد :

فإن مُنْزِلَ الشَّرع هو صاحب الأمر، وهو المَلك، والكون كله ملكه يحكم فيه ما يشاء ويُقَدِّرُ فيه ما يريد ولقد جعل الله سبحانه قَدَره خادمًا لشرعه، وذلك أمرٌ واضحٌ للعيان، فلما كان الإنسان هو المكلَّف بالشَّرع، ولما كان الوالد هو المكلَّف بتربية ولده على الشرع هيَّأ الله الولدَ فجعله محتاجًا لأبيه سنوات عديدة؛ في مطعمه ومشربه وملبسه، وسائر أمره، حتى يجعله بذلك عند والده يسمع ويطيع فيبلغه شرع الله كما أمره. وكذلك هَيَّأ الله بقَدَره مكة والمدينة وجزيرة العرب وسكانها، بل وسائر الأرض، لاستقبال الرسالة الخاتمة؛ لأنه صاحب الشرع وهو رب الكون. بل إنه سبحانه هَيَّأ السماء وأبوابها وجعل عليها حراسًا؛ حماية لشرعه ودينه أن تتلقفَه الشياطين ﴿ **وأنَّا لمسنا السماءَ فوجدناها مُلئت حرسًا شديدًا وشهبًا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا** ﴾.

فالملكُ الذي حمى شرعه في نُزوله، وهيَّأ الأرضَ له في استقباله هو الذي يحرس شرعه بنفسه في خلقه، فيُثبِّت الطائعين ويثيبهم، ويخذل العصاة والكافرين ويعاقبهم، ولذا قال سبحانه : ﴿ **قال اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدوٌّ فإمَّا**

يأتينكم مني هُدىً فمن اتَّبعَ هدايَ فلا يضلُّ ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ .

والله سبحانه الملك القدوس قد جعل الدنيا دار اختبار، والآخرة دار جزاء، ومع ذلك فلم يَخْلُ كل واحدة منهما من نصيب الأخرى؛ فكم من ظالم في الدنيا قد أخذه سبحانه أَخْذَ عزيز مُقتدر، وجعله عبرة ونَكالًا لمن بعده، وكم من مؤمن طائع كرَّمه في الدنيا ورفعه وكافأه وأعلاه، وكذلك في الآخرة يَختبر رب العزة سبحانه أقوامًا؛ كمن مات صبيًّا، أو من مات في فترة، فيقولون: ياربنا، لم يأْتنا رسولك. فيقول : أنا رسول نفسي إليكم، ويُخرج لهم عُنقًا من النار فيأمرهم أن يدخلوه. ومن دخله كان عليه بَردًا وسلامًا .

لكن ما في الدنيا من اختبار هو الغالب الأعظم. وكذلك ما في الآخرة من جزاء هو الأكبر، ولا يقاس عليه الاختبار الذي يُحْدِثُهُ الله سبحانه لبعض خلقه، فلا تُصبح الدنيا بما فيها من جزاء دار جزاء، ولا الآخرة بما فيها من اختبارٍ دار تكليف، ولكنّ الله سبحانه ينصر رسله وجنده، ويخذل أعداءه في الدنيا، ويُبقي في الآخرة الجزاء الأوفى، فهو القائل سبحانه : **﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآلِ فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾** .

وليس ما يقع في الدنيا هو الجزاء، بل ولا يعد جزءًا منه يُخفِّف من عذاب الآخرة، إنما هي المبشرات . لكنَّ الجزاء الأوفى في الآخرة، ولذا قال الله سبحانه في شأن أصحاب الأخدود ومن قتلوهم : **﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعَّالٌ لما يريد هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط ﴾** .

وهذا كتاب الأخ الفاضل البَارّ، صاحب القلم السيَّال الدكتور / سيد حسين ، قد تناول وقوع الجزاء في دار الاختبار ودار الجزاء، وقد فصّل فأحسن، ومَثَّل

فَوَضَّح .

فتذكرْ أيها القارىء الكريم وأنت تُقلِّب صفحات الكتاب عن سير الظالمين أن العذاب باق رغم ما نالوا في الدنيا .

والكتاب ذَكَر في فصوله فصولًا عن الآخرة، والجزاء الأوفى، وذكر أعمالًا تؤدي بأصحابها إلى النعيم المقيم، وأخرى تُلقي بأصحابها في العذاب الأليم. وإن كان الوصف عن ما بعد الموت وعن يوم القيامة والجنة والنار لا نملك منه إلا ما جاء وصفًا في القرآن والسنة؛ لأن هناك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر . والوصف فقط تنخلع له القلوب، فما بالنا بالحال عند وقوع الأمر من ذلك الجزاء .

والكتاب قد بُسِطَ بسطًا جميلًا، والمدوَّن في الكتب من الجزاء من جنس العمل أقل مما لم يدون فيها، فما بالنا بما استخرجه الدكتور بجهده الطيب وعمله الجميل. فالكتاب بذلك من عَاجِلِ البُشْرَىٰ للمؤمنين، ومن التحذير لمن تُسوِّل له نفسُه أن ينصرف عن منهج رب العالمين .

والمكتبة الإسلامية الزاخرة العامرة محتاجة لذلك الكتاب، والمسلم والكافر والطائع والعاصي كلهم محتاجون لمطالعة ذلك الكتاب حاجة بالغة، ونحن إذ نقول للأخ الفاضل الدكتور سيد حسين:جزاك الله خير الجزاء على هذا التصنيف البديع؛ نأمل أن يُوفِّقه الله تعالى للمزيد، وأن ينفع بها من قرأ وطالع، وأن يهدينا سواء الصراط، إنه لما يشاء قدير .

وكتبـــه

محمد صفوت نور الدين

○ مقدمــة ○

بقلم فضيلة الشيخ / محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على محمدٍ رسوله وعبده، وعلى آله وصحبه، وأوليائه من بعده .

أما بعـد :

فبين يديك - أخي المسلم - هذا المجموع القيم، الذي حفل بدروس وعبر، تُدَنْدِنُ حول سُنَّةٍ إلٰهية، وتحوم حول قاعدة عَدْلية، ألا وهي: أن جزاء العاملِ يكون من جنس عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ﴿جزاءً وِفاقًا﴾، وهي قاعدة شريفة، مستقاة من نصوص كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ثم من وحي (أيام الله) التي انقضت أحداثها، لكنها بقيت - على مَرِّ الزمان - تهتف بلسان حالها :

(هل من مُعتَبِرٍ ، أم على قلوبٍ أقفالها ؟)

لقد أودع الله العليم الحكيم هـذا الكـون سننًا ثابتة ، لا تتغير ولا تتبدل، وقاعدة : (كما تَدِينُ تُدان) سنة من هذه السنن، لو وضعناها نُصبَ أعيننا لَزَجَرتْنا عن كثير من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، ولو أَحْلَلْنَاها في قلوبنا المحل الرفيع اللائق بها لأشهدتْنا أماراتٍ تُخيِّل لنا ما ينتظرنا من عاقبة أعمالنا، فقد قال ﷺ : « كما لا يُجْتَنى من الشوك العنبُ، كذلك لا يَنْزِلُ الفُجّارُ منازلَ الأبرار، فاسلكوا أيَّ طريق شِئْتم، فأيَّ طريق سَلَكْتم وَرَدتم على أَهْله » رواه أبو نعيم في الحلية، وقال ﷺ: **«مَنْ أراد أن يَعْلَمَ ما له عند الله، فلينظر مَا لله عِندَهُ» رواه الدارقطني** في الأفراد، وأبو نعيم في الحلية، وزاد الحاكم في روايته : « فإن الله يُنزل العبدَ منه حيث أَنزَلَه من نفسه » .

ولهذه القاعدة المباركة آثار عظيمةُ النفع في إصلاح الدين والدنيا، وهذا الانتفاع وَقْفٌ على أولي الألباب، الذين يَحكمون على الأمور بمآلاتِها، وَيَزِنُونَ الأفعال بعواقبها، وهي في المقام الأول دافعة للأعمال الصالحة، ناهية عن الظلم، زاجرة للظالمين، مُوَاسية للمظلومين .

فلو استحضر الظالمُ الباغي عاقبةَ ظُلمِهِ، وأن الله سَيُسْقِيه من نفسِ الكأس، عاجلًا أو آجلًا، لَكَفَّ عن ظلمه، وتاب إلى الله وأناب، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه سعيد بن جبير – رحمه الله تعالى – لما قال له الحجاج : اخْتَرْ يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك. فقال سعيد : « بل اخْتَرْ لنفسكِ ياحجاج، فوالله، ما تقتلني قَتْلةً، إلا قَتَلَكَ الله مثلها يوم القيامة » .

ولو أن هذا الذي يَهْدِمُ بنيان الله، ويَهْدر الدمَ الحرام بغير حق، تَدبَّر الحكمة القائلة: (بَشِّرِ القاتلَ بالقتل)، لأحجم عن فِعلةٍ عَاقبتها الهَلكة. وَلَعَذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى .

ولو أن هذا الفاجرَ المستهتر، الذي يعبث بحرمات الناس، وينتهك أعراضهم، عَلِمَ أن عدل الله قد يقضي بأن يسلط على عِرض أمه أو زوجته أو ابنته أو أخته من لا يتقي الله فيه، فينال منه كما نال هو من عرض غيره، لَارْعَوى وانزجر :

من يَزْن في قومٍ بألفيْ دِرْهمٍ ... في أهله يُزنَى بربعِ الدِّرهمِ
إن الزِّنا دَيْنٌ إذا استقرضتَه ... كان الوَفَا من أهلِ بيتكِ فاعْلَمِ

ولو أن الوصيَّ على مال اليتامى سَوَّل له الشيطانُ أَكْلَه بالباطل، فاستحضر قولَه جلَّ وعلا : ﴿ وليخْش الذين لو تركوا من خلْفهم ذريةً ضِعَافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولًا سَدِيدًا ﴾ لاتقَى الله فيهم ، وقال قولًا سديدًا ؛ كي يحفظ الله ذريته من بعده ﴿ جزاءً وفاقًا ﴾ .

وفي هذه القاعدة الشريفة أعظم مواساة للمظلوم المستضعف، والمقهور المغلوب، حيث تؤزه على الصبر والثبات، وُثُوقًا بمَوْعود الله الذي يُمهل ولا يُهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته، ويمده إيمانه بأن (الجزاء من جنس العمل) بوقودٍ إيماني يدفعه للمُضيِّ في طريقه صابرًا مُحتسبًا .

وقد طوَّفتُ بأبواب هذا المجموع، وبكثير من فصوله، طوافًا سريعًا ، كأشواط الرَّمَل في طواف القدوم، فلمحتُه قد ضَمَّ إلى هاتيك المطالب العالية ، ثمارًا يانعةً، دانيةَ القطوف، مع فوائد واستطرادات يندر فيها المُنْكَر ، ويكثر المعروف .

والله تعالى أسأل أن يجعل عمل جامعه لوجهه خالصًا، ويجعل ظِلَّ الفائدة به ممدودًا لا قَالصًا، وأن يجعل أَجْره على العَنَاء فيه كاملًا لا ناقصًا، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم .

.. وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين ..

وكتب

محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم

الإسكندرية في ٢ جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ

الموافق ٦ / ١١ / ١٩٩٤ م

○ مقدمة بقلم فضيلة الشيخ / أبي إسحاق الحويني ○

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

إن الحمد لله تعالى نحمده ، ونستعين به ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهدِ الله تعالى فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأحسن الهدي هديُ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشرَّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثةٍ بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

فقد أهداني صاحبنا النبيل الشيخُ سيد بن حسين العفَّاني - حفظه الله تعالى - نسخة هذا الكتاب بخط يده ، لأبدي فيه رأيًا ، ظنًّا منه أنَّ وراء الأكمة ما وراءها ، وتحسُّبًا منه أنَّ في الزوايا خبايا ، على عادته في هضم حظ نفسه ، ولستُ ممن يصلحُ لهذا الأمر إلَّا مجازًا ، وأعوذُ بالله من خشوع النفاق ، لكنني استفدت من مطالعته ، وحمدتُ لمؤلفه وجامعه جهده في ترتيبه ، وتنسيق مادته ، مع تحرِّيه - ما أمكنه - الاحتجاج بما صحَّ من الأحاديث ، ونقل الاستدلال عن ثقات العلماء ، وأساطين الفقهاء . وكنت قد زورت في نفسي كلامًا يصلح تقدمةً لمادة هذا الكتاب ، وجعلتُ أرجئ الكتابة لكثرة مشاغلي ، حتى فاجأني السفر ، فكتبتُ هذه الكلمات على عجلٍ مني ، مع تكدر الخاطر ؛ لأنَّ السفر قطعة من العذاب كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ، فليعذرني الشيخُ النبيل على قصوري وتقصيري . والله أسأل أن ينفع به كما نفع بصاحبه ، وأن يهبه غُنمه ، ويتجاوز له برحمته عن غرمه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وآله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبــه / راجي عفو ربِّه الغفور

أبو إسحاق الحويني الأثري

حامدًا الله تعالى ، ومصليًا على نبينا محمدٍ وآله وصحبه

السبت ١٤١٥/٦/٨ هـ

□ مُقدِّمة بقلم فضيلة الشيخ عائض القرني □

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الفتَّاح العليم ، العليّ العظيم ، المُقدِّر الحكيم ، والبَرِّ الرحيم .
والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ، وصفوة الأصفياء ، وقدوة الأولياء ، صاحب الشريعة السمحاء ، والمحجَّة البيضاء ، والمِلَّة الغرَّاء ، وعلى آله وصحبه وأتباعه ومُحبِّيه .

وبعد :

فليست هذه بأول مرَّة يُتحفنا أخونا الدكتور سيد حسين العفَّاني بما لذَّ وطاب ، فإن له سوابقَ مشكورةً ، وتآليفَ مشهورةً ، فيها آياتٌ بيِّنات من الجدِّ والمثابرة ، والجمع والصياغة ، والتحرير والمتابعة .

وهذا كتاب « الجزاء من جنس العمل » عشتُ معه ، فسُرِرتُ به ، وسعدتُ بمطالعته ، فإذا هو طرحٌ راقٍ يُزيِّنه الوحي ، وتصنيفٌ رائع يُجمِّله الصِّدق ، إنه وثيقة جادَّة من الأصالة ، فحْواها إظهارُ سُننِ الله – تقدَّست أسماؤه – في مُجازاته لمن أحسن ولمن أساء ، وهي سُنَنٌ ثابتة ، وقواعد راسخة ، ولكنَّ أخانا الدكتور سيِّد جمع فأوعى ، ورتَّبَ فأبدع ، وشرح فأحسن ، ووعد فوفَّى .

حيَّا الله هذاَ القلم الذي دبَّج هذه الأسْطُرَ ، فكانت أكاليلَ على هامات القراطيس ، ونجومًا في سماء الصُّحُف . زدْنا – زادك الله – من هذا العطاء الطّيب المبارك ، الذي طالما جذب قلوبَ الكسالى ، وعيون النّعاسىٰ ؛ لأنه طرد المَلَلَ ، وشرَّد الكسلَ ، وأذهب الضّجَرَ ، فهو كالماء المعين النمير البارد الرقراق ، نحسوه ولسان الحال يُنادي : ذهب الظمأ ، وابتلَّتِ العروق ، وثبت الأجرُ إن شاء الله .

سَقَوني وقالوا لا تغنِّ ولو سَقَوْا ... جبالَ سُلَيْمىٰ ما سُقيتُ لغنَّتِ

عائض بن عبد الله القرني

الرياض ٢/ ١/ ١٤١٧هـ

« رَوْضَة النَاظِر ونُزهة الخاطر »

الجزاء من جنس العمل

الجزء الأول

تأليف

الدكتور سيد حسين العفاني

قدّم له

أبو بكر جابر الجزائري

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ أبو إسحاق الحويني

الشيخ عائض بن عبد الله القرني

الناشر
مكتبة ابن تيمية
القاهرة
هاتف ٥٨٦٤٢٤٠

توزيع
دار ماجد عسيري
للنشر والتوزيع - جدة

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ

الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

هذا البحث على طوله لو كُتبت فيه مجلدات لكانت قليلة .
والموضوع في منتهى الجلالة عن طريق إيضاحه بالأمثلة .

الشيخ عبد الرحيم الطحان .

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديدًا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

فإن هذا الموضوع الذي أكتب فيه بإذن الله وعونه وهو : (الجزاء من جنس العمل) كما يقول الشيخ الطحان : هذا البحث على طوله لو كُتبتْ فيه مجلدات لكانت قليلة . ويقول أيضًا : الموضوع في منتهى الجلالة عن طريق إيضاحه بالأمثلة . فمن صفّى صُفي له ، ومن كدّر كُدِّر عليه ، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله ، وإنما يكال للعبد كما كال ، ومن صحت بدايته صحت نهايته .

وكنت قد شرعت منذ وقت في جمع أقوال السادة علماء السلف ، ومن سار على دربهم من رجالات الخلف ، من أقوال علماء التفسير ، وشراح الكتب الحديثية ، وعباد هذه الأمة وزهّادها ، قدر طاقتي وجهدي الضئيل ، وعزوتُ الأقوال إلى قائليها ما أمكنني ؛ فإن من بركة العلم عزوه إلى قائله ، ثم

استمعت بعد ذلك لتسجيل للشيخ الطحان في نفس الموضوع ضمنت الكثير منه في جمعي هذا ، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله ، والفضل لله أولًا وآخرًا ثم لمشايخنا وعلمائنا ، واعتمدت في التصحيح والتحسين على كتب مجدد العصر في الحديث محدث ديار الشام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - حفظه الله -.

فاللهم ضع له القبول بين الصادقين ، وتقبل ولو حرفًا منه ، وتجاوز عن زلاتي وجرأتي ، ولا تجعل حظي من ديني لفظي ، وارزقني الصدق في نيتي وقولي وعملي ، واشغلني بك عن غيرك ، واجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم المزيد ، وارزقنا لذة العيش بعد الموت ، وحسن النظر إلى وجهك الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *



تمهيد



◻ تمهيد ◻

اعلم يا أخي ، أن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته ، ويجمع قلبه على محبته ، شرح صدره لقبول صفاته العلى ، وتلقيها من مشكاة الوحي ، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول ، وتلقّاه بالرضا والتسليم ، وأذعن له فاستنار به قلبه ، واتسع له صدره ، وامتلأ سرورًا ومحبة ، وأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة ، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليها حاجة ، فاشتد بها فرحه ، وعظم بها غناؤه ، وقويت بها معرفته ، واطمأنت إليها نفسه ، وسكن إليها قلبه ، فجال من المعرفة في ميادينها ، وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها ؛ لتيقنه أن شرف العلم تابع لشرف معلومه ، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته ، وأن شرفه أيضًا بحسب الحاجة إليه ، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها ، ومحبته وذكره والابتهاج به ، وطلب الوسيلة إليه ، والزلفى عنده ، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف ، وله أطلب ، وإليه أقرب ، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل ، وإليه أكره ، ومنه أبعد .

والله تعالى ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه ، فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضًا ، وعنها نافرًا ومنفرًا ، فالله له أشد بغضاً ، وعنه أعظم إعراضاً ، وله أكبر مقتاً . حتى تعود القلوب إلى قلبين .

فالقلب الأول :

قلب ذكر الأسماء والصفات قوته وحياته ، ونعيمه وقرة عينه ، لو فارقه ذكرها ومحبتها لحظة لاستغاث .

فلسان حاله يقول :

يُراد من القلب نسيانكـمْ ... وتأبى الطبـاع على الناقـلِ

ويقول :

وإذا تقاضيتُ الفؤاد تناسيًا ... ألفيت أحشائي بذاك شِحاحَا

ويقول :

إذا مرضنا تداوينا بذكركمُ ونتركُ الذكر أحيانًا فننتكسُ

فليس القلب الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى ، وصفاته وأفعاله وأسمائه ، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك ، وكفى بالعبد عمىً وخذلانًا أن يضرب على قلبه سرادق الإعراض عنها ، والنفرة والتنفير ، والاشتغال بما لو كان حقًا لم ينفع إلا بعد معرفة الله ، والإيمان به وبصفاته وأسمائه .

والقلب الثاني :

قلب مضروب بسياط الجهالة ، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود ، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود ، قد قمَّش شُبهًا من الكلام الباطل ، وارتوى من ماء آجن غير طائل ، تعجُّ منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجًا ، وتضج منه إلى منزلها ضجيجًا ، بما يسومها تحريفا وتعطيلًا ، ويؤول معانيها تغييرًا وتبديلًا[1].

وهذا البحث على طوله يدور حول ثلاثة من أسماء ربنا عز وجل وهي : الحَكَمُ ، والحكيم ، والعدل .

والجزاء من جنس العمل يرتبط بهذه الأسماء الثلاثة ، ويجازي الله عباده على حسب ما يصدر منهم من أعمال[2].

أما الحكم :

فقد قال ﷺ : « إن الله هو الحَكَم ، وإليه الحُكم »[3].

[والحَكَمُ والحاكم بمعنى واحد ، قاله الزجاج .

وقال الراغب الأصفهاني : الحكم أبلغ من الحاكم ؛ فالحكم هو المتخصص بالحكم ؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿**فابعثوا حكما من أهله ...**﴾ الآية [النساء:٣٥]

---

(١) النونية لابن القيم ص١٠-١٢.

(٢) شريط : الجزاء من جنس العمل للشيخ الطحان .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، والنسائي ، والحاكم في المستدرك وابن حبان عن هانىء بن يزيد وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٨٤١ .

أي حكمًا متخصصًا ذا دراية به .

والله حكم وحاكم في الدنيا والآخرة][١].

والله حكم في الدنيا بحكمه الكوني ، وحكمه الديني الشرعي .

وحكمه الكوني متعلق بربوبيته وخلقه ، قال تعالى : ﴿ **قال رب احكم بالحق** ﴾ [الأنبياء : ١١٢] فالعباد في قبضته ، والله عز وجل يتصرف فيهم بمشيئته ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن .

وحكمه الديني الشرعي متعلق بإلاهيته قال تعالى : ﴿ **ذلكم حكم الله يحكم بينكم** ﴾ [الممتحنة : ١٠] وقوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾[٢] [المائدة : ٥٠] وقوله تعالى : ﴿ **إن الله يحكم ما يريد** ﴾ . وقد يرد بالمعنيين معا كقوله : ﴿ **ولا يشرك في حكمه أحداً** ﴾ [الكهف : ٢٦] .

والله تعالى هو الحكم في الآخرة فيوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

وهو المنفرد بالحكم :

قال تعالى : ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾ [القصص : ٧٠] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ [القصص : ٨٨].

وقال تعالى على لسان يعقوب : ﴿ **وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ [يوسف : ٦٧].

وهو خير الحاكمين ، وأحكم الحاكمين :

قال تعالى : ﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ [هود : ٤٥] .

---

(١) كلام الشيخ الطحان .

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ٢٨٠ .

وقال تعالى على لسان شعيب : ﴿**وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين**﴾ [الأعراف : ٨٧].

وقال تعالى : ﴿ ... **فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين** ﴾ [يوسف : ٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ [التين : ٨] .

وهو الحكيم :

[وهو إما أن يكون فعيل بمعنى فاعل ، فيكون الحكيم بمعنى الحاكم أيضًا ، وإما أن يكون الحكيم بمعنى المحكم المتقن لأمره الكوني والشرعي .

فأوامره الكونية في غاية الإحكام قال تعالى : ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ [الملك : ٣] .

وأوامره الشرعية في غاية الإحكام والإتقان قال تعالى : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾ [النساء : ٨٢] .

فحكم الله جلّ وعلا على حسب حكمته ، وهي إصابة الحق قولًا واعتقادًا وعملًا، فالله جل وعلا ليس في وعده ريب ، وليس في فعله جل وعلا عيب][1].

قال ابن القيم رحمه الله في نونيته :

وهُو الحكيمُ وذاك من أوصافهِ	نوعان أيضًا ماهما عدمانِ
حُكمٌ وإحكامٌ فكل منهما	نوعان أيضًا ثابتا البرهانِ
والحُكمُ شرعي وكوني ولا	يتلازمانِ وما هما سيّانِ
بل ذاك يُوجدُ دون هذا مفردًا	والعكس أيضًا ثم يجتمعانِ
لكنما الشرعي محبوبٌ لـه	أبدًا ولن يخلو من الأكوانِ
هو أمره الديني جاءت رسْلُه	بقيامه في سائر الأزمانِ
لكنما الكوني فهْـو قضاؤهُ	في خلقه بالعدلِ والإحسانِ
والحكمة العليا على نوعين أيـ	ضاً حُصّلا بقواطعِ البرهانِ

(١) شريط الشيخ الطحان : الجزاء من جنس العمل .

إحداهما في خلقه سبحانه	نوعان أيضًا ليس يفترقانِ
أحكام هذا الخلق إذ إيجادُهُ	في غاية الإحكام والإتقانِ
وصدوره من أجل غايات له	وله عليها حمد كلّ لسانِ
والحكمة الأخرى فحكمة شرعهِ	أيضًا وفيها ذانك الوصفانِ
غاياتها اللائي حُمدن وكونها	في غاية الإتقان والإحسان[١]

قال ابن القيم :

وأنه سبحانه : كما أنه البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العدل ، **فلا تناقض حكمته رحمته ، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه ، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم ، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته ، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله : إن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء ولا فرق أصلًا ، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة[٢] .**

---

(١) شرح النونية (٢ / ٨١ / ٨٣) .

(٢) ينفي الأشاعرة قطعًا أن يكون لشيء من أفعال الله تعالى علة مشتملة على حكمة ، تقتضي إيجاد ذلك الفعل أو عدمه ، وهذا نص كلامهم تقريبًا ، وهو رد فعل لقول المعتزلة بالوجوب على الله ، حتى أنكر الأشاعرة كل لام تعليل في القرآن ، وقالوا : إن كونه يفعل شيئًا لعلة ينافي كونه مختاراً مريداً . وهذا الأصل تسميه بعض كتبهم : نفي الغرض عن الله . ويعتبرونه من لوازم التنزيه ، وجعلوا أفعاله تعالى كلها راجعة إلى محض المشيئة ، ولا تعليق لصفة أخرى - كالحكمة مثلًا - بها ، ورتبوا على هذا أصولًا فاسدة كقولهم بجواز أن يخلد الله في النار أخلص أوليائه ، ويخلد في الجنة أفجر الكفار ، وجواز التكليف بما لا يُطاق ونحوها. وسبب هذا التأصيل الباطل ؛ عدم فهمهم ألا تعارض بين المشيئة والحكمة ، أو المشيئة والرحمة . ولهذا لم يثبت الأشاعرة الحكمة مع الصفات السبع ، واكتفوا بإثبات الإرادة ، مع أن الحكمة تقتضي الإرادة والعلم وزيادة حتى إن من المعاصرين من أضافها مثل سعيد حوى . وقد أطال ابن القيم في رد شبه الأشاعرة في شفاء العليل ، حيث رد عليهم من ٣٦ وجهًا ، وانظر منهاج السنة (١ /١٢٨) ، والنبوات ص ١٦٣ - ٢٣٠ ، =

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلًا بالرد على هذه المقالة ، وإنكارها أشد الإنكار ، وتنزيه الرب عنها ، كقوله تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون** ﴾ [القلم : ٣٥ ، ٣٦] . فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيىء ، ونزَّه نفسه عنه .

فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلهيته ، لا إله إلا هو ، تعالى عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا .

وقد فطر الله عقول عباده ، على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ، ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة . فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار ، واستهجنته أعظم الاستهجان .

وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام ، في موضع العقوبة والانتقام ، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء ، من أموالهم وحريمهم ، فأكرمه غاية الإكرام ، ورفعه وكرمه . فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا ، وتشهد على سفه مَنْ فعله . هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها .

فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة ، وعزته وعدله في وضع عقوبته في أَوْلى المحالّ بها ، وأحقها بالعقوبة ؟ وأنها لو أدليت بالنعم لم تحسن بها . ولم تَلِقْ ، ولظهرت مناقضة الحكمة كما قال الشاعر :

نعمةُ الله لا تعابُ ولكن ربما استُقبحَتْ على أقوامِ

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادِّين عن سبيله ، الساعين في خلاف مرضاته .

ولا تستطل هذا البسط ، فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ، ونزولها منه منازلها في الدنيا ، لتنزل في جوار ربها في الآخرة ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا** ﴾ [النساء : ٦٩] .

قال ابن القيم : الحكيم الذي إذا أمر بأمر كان حسنًا في نفسه ، وإذا نهى

= ومجموع الفتاوى (١٦ /٢٩٩) ، والمواقف ص٣٣١ ، وبحث الشيخ سفر الحوالي : منهج الأشاعرة في العقيدة . المنشور ضمن مجلة البحوث الإسلامية .

عن شيء كان قبيحًا في نفسه ، وإذا أخبر بخبر كان صدقًا ، وإذا فعل فعلًا كان صوابًا ، وإذا أراد شيئًا كان أوْلَى بالإرادة من غيره . وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده(١) .

وهو العدل :

قال ابن القيم في النونية :

والعدلُ من أوصافِهِ في فعله ومقاله والحُكْمِ في الميـزانِ
فعلى الصراط المستقيم إلهنـا قولًا وفعلًا ذاك في القـرآنِ

قال الهراس : من أسمائه سبحانه العدل ، وهو في الأصل مصدر وصف به للمبالغة ، وأصل العدل والمعادلة المساواة ، يقال : هذا عدل ذلك ، وعديله ، أي نظيره ، ومساويه .

وهو سبحانه موصوف بالعدل في فعله ، فأفعاله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة . ليس فيها شائبة جور أصلًا ، فهي كلها بين الفضل والرحمة وبين العدل والحكمة ، وما ينزله سبحانه بالعُصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا ، وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة ، فإنما فعل بهم ما يستحقونه ، فإنه لا يأخذ إلا بذنب ، ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة .

وأقواله كلها عدل ؛ فهو لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ، ولا ينهاهم إلا عمّا مضرته خالصة أو راجحة .

وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ، ووزنه لأعمالهم لاجوْرَ فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله وحكمه(٢) .

[وقال ﷺ : « عَدْلٌ فيَّ قضاؤك » ، فالله عدل في جميع أقضيته في عبده ؛ قضائه السابق فيه قبل إيجاده ، وقضائه فيه المقارن لحياته ، وقضائه فيه بعد

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٤٦٠) .
(٢) شرح النونية (٢ / ١٠٤ ، ١٠٥) .

مماته ، وقضائه فيه يوم معاده ، ويتناول قضاءه فيه بالذنب وقضاءه فيه بالجزاء عليه ، ومن لم يثلج صدره لهذا ويكون له كالعلم الضروري لم يعرف ربه وكماله ونفسه وعينه ، ولا عدل في حكمه ، بل هو جهول ظلوم .

وقال الله على لسان نبيه هود : ﴿ **إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابَّة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** ﴾[هود : ٥٦] . فقوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ مثل قوله ﷺ : « عدل فيّ قضاؤك » وأخبر في النحل أنه يأمر بالعدل ويفعله . وهو أعدل العادلين فما قضى في عبده قضاء إلا وهو واقع في محله الذي لا يليق به غيره ، إذ هو الحكم العدل الغني الحميد][١].

[والله سبحانه وتعالى كما أخبر عن نفسه : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط** ﴾[آل عمران : ١٨] . والقسط هو العدل ، فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده ، وبالوحدانية في عدله ، والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال ، فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولًا وفعلًا ، حيث شهد بها ، وأخبر وأعلم عباده ، وبين لهم تحقيقها وصحتها ، وألزمهم بمقتضاها ، وحكم به وجعل الثواب والعقاب عليها ، فالدين كله من حقوقها ، والثواب كله عليها ، والعقاب كله على تركها ، وقيامه بالقسط مختص به ، كما أنه مختص بالإلهية ، فهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل فالشرع والقدر والخلق والأمر ، والثواب والعقاب قائم بالعدل ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلًا** ﴾[الأنعام : ١١٥] .

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها ، وأنه لم يخص شيئًا منها إلا بمخصص اقتضى ذلك ، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ، ولا يمنع من يستحق العطاء ، وإن كان هو الذي جعله مستحقًا][٢] .

[والله يفعل ما يريد ، وحكمه ماض في العبيد ، على النهج السديد][٣]

---

(١) شفاء العليل ص ٢٧٤ – ٢٧٧ . (٢) مدارج السالكين (٣/٤٥٧-٤٦٠).

(٣) الشيخ الطحان من شريط : الجزاء من جنس العمل .

﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ [الكهف : ٤٩] . وهذا الكمال عدل ، فإن النفي هنا لإثبات كمال الضد .

يقول الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ [النساء : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئًا** ﴾ [يونس : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ [هود : ١٠٠ ، ١٠٢].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ النبي ﷺ : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أَخْذَهُ أليم شديد** ﴾ [هود : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾ [الكهف : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ **فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

وقال تعالى في شأن أصحاب السبت : ﴿ ... **وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾ [الأعراف : ١٦٥] .

فالله لا يظلم الناس شيئا في دنياهم ، وإنما يؤاخذهم بظلمهم .

ولا يظلمهم في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ [الزخرف : ٧٦ ، ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون**﴾ [الصافات : ٢٢-٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا**

يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى : ﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [يس : ٥٤] .

وقال تعالى في آخر آية أنزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٨١] . ومن تمام عدله أنه لا يحاسب الناس إلا بعد قيام الحجة عليهم، فالتكليف منتفٍ إذا لم تبلغهم الدعوة بمجيء الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ [الأنعام : ١٣١] . فمع ثبوت الظلم لهم ، إلا أن الله لا يحاسبهم ؛ فأهلها غافلون لم تبلغهم الدعوة ، فالتكليف مُنتَفٍ .

ويوم القيامة هو يوم الدين ، والله مالك يوم الدين وملكه ، والدين هو الجزاء والحساب والقضاء ، على حسب ما عمله العباد من أعمال ، والمعاني مترادفة ، كما قال القرطبي :

حصادُك يومًا ما زرعتَ وإنَّما يُدانُ الفتى يوما كما هُو دائنُ

يقول القائلُ :

إذا ما رمَوْنا رميناهُمُ ودنَّاهمُ مثل ما يقرضونا

والدِّين هو الجزاء في الخير والشر ، كما تدين تدان .

ومن أسماء الله الديّان :

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله ، عن عبد الله بن أنيس ، قال : قال النبي ﷺ : « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه مَنْ قرب : أنا الملك أنا الديّان »[١].

قال الحافظ في الفتح : قال الحليمي : هو مأخوذ من قوله : ﴿ **ملك يوم الدين** ﴾ [الفاتحة : ٤] . وهو المحاسب المجازي لا يضيع عمل عامل.انتهى .

وقال الكرماني : المعنى : لا ملك إلا أنا ، ولا مجازي إلا أنا[٢]. اهـ .

---

(١) كتاب التوحيد : باب : قول الله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

(٢) فتح الباري (١٣ / ٤٦٦) .

وعن عمر بن الخطاب قال : ويل لديّان الأرض من ديّان السماء ، إلا من عدل[١] .

وفي مرسل أبي قلابة : البر لا يبلى ، والإثم لا يُنسى ، والديّان لا يموت كن كما شئت ، كما تدين تدان[٢] .

والديّان يطلق على الله كما يطلق على المخلوق ، ولكل موصوف معنى يناسبه من ذلك الاسم ، فقد سمى الأعشى الحرمازي به النبي ﷺ وأقره ، في قصة امرأته عندما هربت منه ، فأتى النبي ﷺ وقال له :

يا سيد الناس وديّان العربْ
إليك أشكو ذِرْبة من الذِّرَبْ
خَرَجْتُ أبغيها الطعام في رجبْ
فَخلَفَتْني بنـزاعٍ وحَـرَبْ
أخلفَتِ العهدَ ولَطَّتْ بالذَّنَبْ
وتركتني وَسْطَ عِيصٍ ذي أشَبْ
تَكُدُّ رِجْلَيَّ مساميرُ الخَشَبْ
وَهُنَّ شرُّ غالبٍ لمنْ غلَبْ[٣]

فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم : « وهنَّ شرُّ غالبٍ لِمَنْ غَلَب » .

---

(١) سنده صحيح : ورد في كتاب الرد على الجهمية وفوائد سموية ، ورواه البخاري معلقًا ، قاله الشيخ الطحان ، ونسبه إلى أحمد والطبراني في الكبير وأبي يعلى بسند صحيح ، والبزار ورجاله ثقات .

(٢) قال ابن حجر: أخرجه البيهقي في الزهد ، ورجاله ثقات . انظر الفتح (٤٦٦/١٣).

(٣) نسب صاحب لسان العرب هذه الأبيات إلى أعشى بني مازن ، وقال أيضًا عن ابن الأعرابي : إن هذا الرجز للحرمازي ، أعشى بني حرماز . والذربة : امرأته ، كنى بها عن فسادها وخيانتها إياه في فرجها ، وقيل : أراد سلاطة لسانها ، فخلفتني أي : خالفت ظني فيها . وقوله : لطّت بالذنب . يقال : لطّتِ الناقة بذنبها ؛ أي : أدخلته بين فخذيها لتمنع الحالب . انظر لسان العرب (١٤٩٢/٣) .

قال مالك بن دينار: مكتوب في التوراة : كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد[١].

فتب إلى مولاك من قريب ، فوالله ما ظلمك من جعلك حسيب نفسك .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد يوم القيامة : يا رب ، ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني ، فيقول : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا ﴾ ، وبالكرام الكاتبين شهودًا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لَكُنّ وسُحقا ، فعنكنّ كنت أناضل »[٢].

تباركَ من أجرى الأمورَ بحكمه ... كما شاءَ لا ظلمًا أراد ولا هضمَا

أخي ، فحاسب نفسك لنفسك ، وأخلص تخلص ، فالناقد بصير .

العمر ينقصُ والذنوب تزيدُ ... وتُقال عثراتُ الفتى فيعودُ

هل يستطيعُ جحودَ ذنبٍ واحدٍ ... رجلٌ جوارحه عليه شهودُ[٣]

والآن تعال معي لترى مصداق القول المبارك لابن القيم : دل الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل .

* * *

(١) اقتضاء العلم العمل .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أنس .. وفي رواية : « ثم يختم على فيه » .

(٣) الكثير مما قلناه في هذا التمهيد من الجمع المبارك للشيخ المبارك الشيخ الطحان من شريطه الجزاء من جنس العمل نقلناه تبركًا بكلامه ، وما بعد ذلك من فصول وأبواب يظهر فيها جهدي الضعيف القاصر .

الجزاء من جنس العمل في القرآن الكريم



□ الجزاء من جنس العمل في القرآن الكريم □

○ آيات في الجزاء من جنس العمل ○

[الآية الأولى]

قال تعالى : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ [البقرة : ٩] .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا** ﴾ أي : بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان ، مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ [المجادلة : ١٨] ، ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : ﴿ **وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ يقول : وما يَغُرّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون بذلك من أنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . ومن القراء من قرأ : ﴿ **وما يخادعون إلا أنفسهم** ﴾ وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد[١] اهـ .

قال القشيري : ثبتوا على نفاقهم ، ودأبوا على أن يلبِّسوا على المسلمين ، فهتك الله أستارهم وقال : عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه إلى أنفسهم ، فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم ، فما استهانوا إلا بأقدارهم ، وما استخفوا إلا بأنفسهم ، وما ذاق وبال فعلهم سواهم ، وما قطعوا إلا وتينهم ، ومن كان عالمًا بحقائق المعلومات ، فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه[٢] اهـ .

قال الرازي: ثم ذكروا في قوله تعالى: ﴿**وما يخدعون إلا أنفسهم**﴾ وجهين:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٧٣،٧٤).
(٢) لطائف الإشارات (١/٦١) .

الأول : أنه تعالى يجازيهم على ذلك ، ويعاقبهم عليه ، فلا يكونون في الحقيقة خادعين إلا أنفسهم ، عن الحسن .

الثاني : ما ذكره أكثر المفسرين : وهو أن وبال ذلك راجع إليهم في الدنيا ؛ لأن الله تعالى كان يدفع ضرر خداعهم عن المؤمنين ويصرفه إليهم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] و ﴿ **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً** ... ﴾[1] [النمل : ٥٠] اهـ .

قال سيد قطب: إنهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور ، إن الله بخداعهم عليم ، والمؤمنون في كنف الله ، فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم ، أما أولئك الأغفال ، فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها ، يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق ووقوها مغبة المصارحة بالكفر بين المؤمنين ، وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة بالكفر الذي يضمرونه ، والنفاق الذي يظهرونه .. وينتهون بها إلى شر مصير[2] اهـ .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **وما يخدعون إلا أنفسهم** ﴾ نفي وإيجاب ؛ أي ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم ، ومن كلامهم ، من خدع من لا يُخدع ، فإنما يخدع نفسه[3] . اهـ .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالًا ، فسروا مخادعتهم لله بأنه خداع في الصورة لا في الحقيقة ؛ وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ، ولكنهم لا يجزون جزاءهم في الآخرة ، بل يكونون في الدرك الأسفل من النار ، كما أن عملهم الظاهر غير كفرهم الخفي في أنفسهم ، فالجزاء من جنس العمل[4] اهـ .

[الآية الثانية]

قال الله تعالى : ﴿**إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم**﴾ [النساء:١٤٢].

---

(١) مفاتيح الغيب (١ / ٤٣٩) .

(٢) الظلال (١ / ٤٣) .

(٣) تفسير القرطبي (١ / ١٧١) .

(٤) تفسير المنار (١/ ١٥٠) .

قال ابن كثير :

ولا شك أن الله تعالى لا يخادع ، فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس ، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله ، وأن أمرهم يروج عنده . كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد .

وقوله : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا ، وكذلك في القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وبئس المصير** ﴾ [الحديد : ١٣ - ١٥] . وقد ورد في الحديث : « من سمَّع سمَّع الله به ، ومن راءى ، راءى الله به »[١].

قال ابن جرير :

إن المنافقين يخادعون الله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم ، والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان ، مع علمه بباطن ضمائرهم ، واعتقادهم الكفر ، استدراجًا منه لهم في الدنيا حتى يلقوه في الآخرة ، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم[٢].

قال الرازي :

قوله تعالى : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : مجازيهم بالعقاب على خداعهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه تعالى خادعهم في الآخرة ، وذلك أنه تعالى يعطيهم نورًا كما يعطي المؤمنين ، فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم وبقوا في الظلمة[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٣٨٩) .
(٢) جامع البيان للطبري (٤ / ٣٣٤) .
(٣) مفاتيح الغيب (٥ / ٤٩٦) .

قال القرطبي :

والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله . قال الحسن : يُعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نورًا يوم القيامة ، فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا ، فإذا جاءوا إلى الصراط طُفيء نور كل منافق ، فذلك قولهم : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾[1] [الحديد : ١٣] .

قال القاسمي :

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ أي : يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، والله يفعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع ، حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا ، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة[2] .

قال البقاعي :

وما أضلهم حيث خادعوا من لا يجوز عليه الخداع ؛ لعلمه بالخفايات ، فقال معللًا لمنعهم السبيل : ﴿ إن المنافقين ﴾ لإظهارهم لكل من غلب أنهم منه ، ﴿ يخادعون الله ﴾ أي : يفعلون بإظهار ما يسر وإبطان ما يضر ، فعل المخادع مع من له الإحاطة الكاملة بكل شيء ؛ لأنه سبحانه وتعالى يستدرجهم من حيث لا يشعرون ، وهم يخدعون المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر ، ﴿ وهو ﴾ الذي أمر المؤمنين بما أمرهم فكأنهم يفعلون ذلك معه ، وهو ﴿ خادعهم ﴾ باستدراجهم من حيث لا يعلمون ؛ لأنه قادر على أخذهم من مأمنهم ، وهم ليسوا قادرين على خدعه بوجه[3] .

قال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله ﴾ أي : يعملون عمل المخادع ،

---

(١) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٩١) .
(٢) محاسن التأويل (٥ / ١٦١٨) .
(٣) نظم الدرر (٥ / ٤٤١) .

وقيل : يخادعون نبيه ، ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ أي : مجازيهم على خداعهم ، وقال الزجاج : لما أمر بقبول ما أظهروا كان خادعاً لهم بذلك[١].

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وأما قوله تعالى : ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ فقد قيل : إن معناه يجازيهم على خداعهم ، وأنه عبَّر عن ذلك بالمخادعة للمشاكلة ، كما قال في آية أخرى : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ .

وقال : أي : هو تعالى يغلبهم في الخديعة بجعل خداعهم عليهم لا لهم[٢] .

قال سيد قطب : ويقرر عقب هذه اللمسة ، أنهم يخادعون الله . ﴿ **وهو خادعهم** ﴾ .. أي : مستدرجهم وتاركهم في غيهم ، لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ، ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم .. تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا ، وذلك هو خداع الله سبحانه لهم[٣] ..

قال القشيري : خداع المنافقين إظهار الوفاق في الطريقة ، واستشعار الشرك في العقيدة ، وخداع الحق إياهم ما توهموه من الخلاص ، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص ، فإذا كشف الغطاء أيقنوا أن الذي ظنوه شراباً كان سرابا ، قال تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[٤] [الزمر : ٤٧] .

[الآية الثالثة]

قال تعالى : ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ [البقرة : ١٠] .

---

(١) زاد المسير (٢ / ١٢٣١) .

(٢) المنار (٥ / ٤٦٩ ، ٤٧٠) .

(٣) الظلال (٢ / ٧٨٤) .

(٤) لطائف الإشارات (١ / ٣٧٧) .

قال ابن كثير :

عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وأناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : شك . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : شكًا .

وعن عكرمة وطاووس : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ يعني : الرياء

وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : نفاق . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : نفاقًا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ قال : هذا مرض في الدين ، وليس مرضا في الأجساد ، وهم المنافقون ، والمرض : الشك الذي دخلهم في الإسلام . ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : زادهم رجسًا ، وقرأ : ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم ..** ﴾[التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] . قال : شرًّا إلى شرهم ، وضلالة إلى ضلالتهم . وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله ، حسن ، **وهو الجزاء من جنس العمل** ، وكذلك قاله الأولون ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾[محمد : ١٧] [١] اهـ .

قال ابن جرير :

القول في تأويل قول الله عز وجل : ﴿ **فزادهم الله مرضًا** ﴾ :

قد دللنا آنفا على تأويل المرض الذي وصف الله جل ثناؤه أنه في قلوب المنافقين ؛ هو الشك في اعتقادات قلوبهم وأديانهم ، وما هم عليه في أمر محمد رسول الله ﷺ ، وأمر نبوته وما جاء به – مقيمون .

فالمرض الذي أخبر الله جلّ ثناؤه عنهم أنه زادهم على مرضهم هو نظير ما كان في قلوبهم من الشك والحيرة قبل الزيادة . فزاد الله بما أحدث من حدوده وفرائضه التي لم يكن فرضها قبل الزيادة التي زادها المنافقين ، من الشك والحيرة ،

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٤) .

إذا شكوا وارتابوا في الذي أحدث لهم من ذلك إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السالف ، من حدوده وفرائضه التي كان فرضها قبل ذلك ، كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود ، إذ آمنوا به إلى إيمانهم بالسالف من حدوده وفرائضه ، إيمانا . كالذي قال جلّ ثناؤه : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **وهم كافرون** ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة هو ما وصفنا ، والزيادة التي زيّدها المؤمنون إلى إيمانهم هو ما بينا ، وذلك هو التأويل المجمع عليه .

وقال عن ابن عباس ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ قال : شكا .

وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ فزادهم الله ريبة وشكًّا[(١)] .

قال القشيري :

في قلوب المنافقين مرض الشك ، ويزيدهم الله مرضا بتوهمهم أنهم نجوا، لما لبَّسوا على المسلمين ، ثم لهم عذاب أليم مؤلم ، يخلص وجعه إليهم في المآل .

وقال : ثم العقوبات العاجلة لهم تشتتُ همومهم ، ثم تُنغصُّ عيشهم ، فيبغون بها عن مولاهم ، ولم يكن لهم استمتاع وراحة فيما آثروه من متابعة هواهم ، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه ، وفي معناه قيل :

تبــدلتْ فتبدلنــا واحسرتــا لمن ابتغى عوضًا عنها فلم يجد[(٢)]

قال سيد قطب :

﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ في طبيعتهم آفة .. في قلوبهم علة ، وهذا يحيد بهم

---

(١) تفسير ابن جرير (١ / ١٢٢) .

(٢) لطائف الإشارات للقشيري (١ / ٦١ - ٦٢) .

عن الطريق الواضح المستقيم ، ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما فيه ﴿ **فزادهم الله مرضا** ﴾ .

فالمرض ينشىء المرض ، والانحراف يبدأ يسيرًا ، ثم تنفرج الزاوية في كلّ خطوة وتزداد ، سنة لا تتخلف[1]

[الآية الرابعة]

قال الله تعالى : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [البقرة : ١٤- ١٥] .

قال ابن كثير : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا . أي : أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة ، غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا وتقية ، وليَشْركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم .

﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم** ﴾ يعني : وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم و ﴿ **شياطينهم** ﴾ يعني سادتهم وكبراءهم ، ورؤساءهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين .

وقال مجاهد: ﴿**وإذا خلوا إلى شياطينهم**﴾ إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقوله تعالى : ﴿ **قالوا إنا معكم** ﴾ ، روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس : أي : إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ أي إنما نستهزىء بالقوم ، ونلعب معهم .

وقوله تعالى جوابًا لهم ومقابلة على صنيعهم : ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ .

قال ابن جرير : أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة ، في قوله تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة**

---

(١) الظلال للشيخ سيد قطب (١ / ٤٣) .

وظاهره من قبله العذاب ﴾ الآية [الحديد : ١٣].

قوله تعالى: ﴿**لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين** ﴾ [آل عمران : ١٧٨]. قال : فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره ، وسخريته ومكره وخديعتَه للمنافقين وأهل الشرك ، عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل .

وقال آخرون قوله : ﴿ **إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم** ﴾ وقوله : ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقوله : ﴿ **فيسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾ [التوبة : ٧٩] . و ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ [التوبة : ٦٧] وما أشبه ذلك – إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم جزاء الاستهزاء ، ويعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم – مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان ، كما قال تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] . و ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه** ﴾ [البقرة : ١٩٤] . فالأول ظلم ، والثاني عدل ، فهما وإن اتفق لفظاهما قد اختلف معناهما .

قال : وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك[1].

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ أي : ينتقم منهم ، ويعاقبهم ويسخر بهم ، ويجازيهم على استهزائهم ، فسمى العقوبة باسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء . والعرب تستعمل ذلك كثيرًا في كلامهم ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلــنْ أحــدٌ علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينـا

فسمى انتصاره جهلًا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ، وإنما قاله ليزدوج

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١ /٧٦ –٧٨) .

الكلام ، فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما ، وكانت العرب إذا وضعوا لفظًا بإزاء لفظ جوابًا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه ، وإن كان مخالفًا له في معناه ، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة ، وقال الله عز وجل : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] . وقال : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ [البقرة : ١٩٤] . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء ؛ لأنه حق وجب ، ومثله ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ [آل عمران : ٥٤] . و ﴿ **إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا** ﴾ [الطارق : ١٥،١٦] . و ﴿ **إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم** ﴾ وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ، وكذلك : ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . ﴿ **فيسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾(١) [التوبة : ٧٩] اهـ .

قال ابن جرير :

وقال آخرون : إن معنى ذلك أن الله عز وجل أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا : إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد - ﷺ - وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم : صدقنا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وما جاء به - مستهزءون ، يعنون أنا نظهر لهم ما هو عندنا باطل لا حق ولا هدى ، قالوا : وذلك هو معنى من معاني الاستهزاء فأخبر الله أنه يستهزىء بهم ، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، كما أظهروا للنبي - ﷺ - والمؤمنين في الدين ما هم على خلافه في سرائرهم .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ قال : يسخر بهم للنقمة منهم(٢) .

---

(١) تفسير القرطبي (١ / ١٨٠) .
(٢) جامع البيان للطبري (١ / ١٣٣) .

قال ابن الجوزي :

والرابع : أن المراد به : يجازيهم على استهزائهم ، فقوبل اللفظ بمثله لفظا وإن خالفه معنى ، فهو كقوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾[1] [الشورى : ٤٠] .

قال البقاعي :

ثم استأنفوا في موضع الجواب لمن قال : ما بالكم تلينون للمؤمنين ؟ قولهم : ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ أي : طالبون للهزء ، ثابتون عليه ، فيما نظهر من الإيمان ، والهزء : إظهار الجد وإخفاء الهزل قاله الحرالي ، فأجيب من كأنه قال : بماذا جوزوا ؟ بقوله : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ . أي : يجازيهم على فعلهم بالاستدراج ، بأن يظهر لهم من أمره المرذي لهم ، ما لا يدركون وجهه فهو يجري عليهم في الدنيا أحكام أهل الإيمان ، ويذيقهم في الدارين أعلى هوان مجددًا لهم ذلك بحسب استهزائهم ، وذلك أنكأ من شيء دائم توطن النفس عليه[2] .

قال الرازي :

إن ما يفعله الله بهم جزاءً على استهزائهم سماه بالاستهزاء ؛ لأن جزاء الشيء يسمى باسم ذلك الشيء قال تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وقال :وفيه أن الله تعالى هو الذي يستهزىء بهم استهزاء العظيم الذي يصير استهزاؤهم في مقابلته كالعدم .

وفيه أيضًا أن الله تعالى هو الذي يتولى الاستهزاء بهم ؛ انتقاما للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم باستهزاء مثله[3] .

---

(١) زاد المسير (١/ ٣٦) .

(٢) نظم الدرر (١ / ١١٥ ، ١١٦) .

(٣) مفاتيح الغيب (١ / ٤٤٨ ، ٤٤٩) .

قال سيد قطب :

هؤلاء المنافقون كانوا : ﴿ **إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾ ؛ أي بالمؤمنين ، بما نظهره من الإيمان والتصديق .

وما يكاد القرآن يحكي فعلتهم هذه وقولتهم ، حتى يصب عليهم من التهديد ما يهد الرواسي . ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ وما أبأس من يستهزىء به جبار السموات والأرض وما أشقاه !!....

وهنا كذلك تبدو الحقيقة التي أشرنا من قبل إليها ، حقيقة تولي الله سبحانه للمعركة التي يراد بها المؤمنون ، وما وراء هذا التولي من طمأنينة كاملة لأولياء الله ، ومصير رعيب بشع لأعداء الله الغافلين ، المتروكين في عماهم يخبطون المخدوعين بمد الله لهم في طغيانهم ، وإمهالهم بعض الوقت في عدوانهم والمصير الرعيب ينتظرهم هنالك وهم غافلون[1] .

قال القشيري :

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عشرة الكفار وصحبة المسلمين ، فإذا برزوا للمسلمين قالوا : نحن معكم ، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم ، فأرادوا الجمع بين الأمرين فَنُفُوا عنهما : قال الله تعالى : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ [النساء : ١٤٣] . وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك ؛ فالضدان لا يجتمعان ، والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم ، وإذا ادلهم الليل من هاهنا ، أدبر النهار من ها هنا ، ومن كان له في كل ناحية خليط ، وفي زاوية من قلبه ربيط ، كان نهبا للطوارق ، ينتابه كل قوم فقلبه أبدًا خراب ، ولا له في التحقيق رزق من قلبه قال قائلهم :

أراكِ بقيةً من قوم موسى فهم لا يصبرونَ على طعام

---

(١) الظلال (١ / ٤٥) .

ولما قال المنافقون : ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ **الله يستهزىء بهم** ﴾ أي : يجازيهم على استهزائهم ، كذلك لما ألقى القوم أزمّتهم في أيدي الشهوات ، استهوتهم أودية التفرقة ، فلم يستقر لهم قدم على مقام ، فتطوحوا في متاهات الغيبة .

وكما يمد المنافقين في طغيانهم يعمهون ، يطيل مدة هؤلاء في مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم ، أطول ما كانوا أملا ، وأسوأ ما كانوا عملًا ، ذلك جزاء ما عملوا ؛ ووبال ما صنعوا وتحسين أعمالهم القبيحة في أعينهم من أشد العقوبات لهم ، ورضاؤهم بما فيه من الفترة(١) أجلّ مصيبة لهم(٢) .

[الآية الخامسة]

قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ [البقرة : ١١ -١٢] .

قال ابن كثير : عن ابن عباس ، وعن مُرّة الطيب الهمداني ، عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ أما ﴿ **لا تفسدوا في الأرض** ﴾ قال : الفساد هو الكفر ، والعمل بالمعصية .

وعن أبي العالية : ﴿ **لا تفسدوا في الأرض** ﴾ لا تعصوا في الأرض . وكان فسادهم ذلك معصية الله .

وعن ابن عباس : ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ : أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب .

يقول الله : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ يقول : ألا إن هذا الذي يتعمدونه ، ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ، ولكن من

---

(١) رجوع عن الإرادة وخروج منها ، أو سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل .

(٢) لطائف الإشارات (١ / ٦٤ ، ٦٥) .

جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً[١] .

قال ابن جرير :

﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ وهذا القول من الله جل ثناؤه تكذيب للمنافقين في دعواهم ، إذا أمروا بطاعة الله فيما أمرهم به ، ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه ، ﴿ **قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ لا مفسدون ، ونحن على رشد وهدى فيما أنكرتموه علينا دونكم لا ضالون . فكذبهم الله عز وجل في ذلك من قيلهم فقال : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون** ﴾ المخالفون أمر الله عز وجل ، المتعدون حدوده ، الراكبون معصيته ، التاركون فروضه ، وهم لا يشعرون ولا يدرون أنهم كذلك[٢] .

قال القشيري :

ويقال : كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال في وجهه : كذبت . فهم لمّا قالوا : إنما نحن مصلحون ، أكذَبهم الحق سبحانه فقال : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾ أنا نعلمهم فنفضحهم[٣] .

يقول سيد قطب :

﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا ...** ﴾ .

إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض** ﴾ لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد ، بل جاوزوه إلى التبجح والتبرير ﴿ **قالوا إنما نحن مصلحون** ﴾ ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** ﴾[٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٥) .

(٢) تفسير الطبري (١ / ١٢٧) .

(٣) لطائف الإشارات (١ / ٦٣) .

(٤) الظلال (١ / ٤٤) .

[الآية السادسة]

قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ [البقرة : ١٣] .

قال ابن كثير : يقول تعالى : ﴿ **وإذا قيل** ﴾ للمنافقين ﴿ **آمنوا كما آمن الناس** ﴾ أي : كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، والجنة والنار وغير ذلك ، مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر ، وترك الزواجر ، ﴿ **قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله - ﷺ - رضي الله عنهم . قاله أبو العالية والسدي في تفسيره ، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود ، وغير واحد من الصحابة ، وبه يقول الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم يقولون : أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة ، وعلى طريقة واحدة ، وهم سفهاء ؟!

والسفهاء جمع سفيه ، كما أن الحكماء جمع حكيم ، والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضارّ .

وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها ، فقال : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم .

﴿ **ولكن لا يعلمون** ﴾ يعني : ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى[١] .

قال ابن جرير :

﴿ **وهم[٢] يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾ [الكهف : ١٠٤] . وذلك هو عين السفه ؛ لأن السفيه إنما يفسد من حيث يرى أنه يصلح ، ويضيع من حيث يرى أنه يحفظ ، فكذلك المنافق يعصي ربه من حيث يرى أنه يطيعه ، ويكفر به من حيث يرى أنه يؤمن به ، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يحسن إليها ، كما وصفهم ربنا جل ذكره ، فقال : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٧٧) .

(٢) المنافقون

﴿ **ألا إنهم هم السفهاء** ﴾ دون المؤمنين المصدقين بالله ، وبكتابه وبرسوله ، وثوابه ، وعقابه . ﴿ **ولكن لا يعلمون** ﴾[١] .

قال القشيري : إن المنافقين لما دعوا إلى الحق ، وصفوا المسلمين بالسفه ، وكذلك أصحاب الغنى إذا أمروا بترك الدنيا ، وصفوا أهل الرشد بالكسل والعجز ، ويقولون : إن الفقراء ليسوا على شيء ؛ لأنه لا مال لهم ولا جاه ، ولا راحة ، ولا عيش .

وفي الحقيقة هم الفقراء ، وهم أصحاب المحنة ، وقعوا في الذل مخافة الذل ، ومارسوا الهوان خشية الهوان ، وشيدوا القصور ، ولكن سكنوا القبور ، زينوا المهد ، ولكن أدرجوا اللحد ، ركضوا في ميدان الغفلة ، ولكن عثروا في أودية الحسرة ، وعن قريب سيعلمون ، ولكن حين لا ينفعهم علمهم ، ولا يغنيْ عنهم شيء .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفــــرسٌ تحتك أم حمارُ[٢]

يقول سيد قطب : وواضح أنهم كانوا يأنفون من هذا الاستسلام للرسول - ﷺ - ويرونه خاصًا بفقراء الناس ، غير لائق بالعلية ذوى المقام !

ومن ثم قالوا قولتهم هذه : ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ ؟!.. ومن ثم جاءهم الرد الحاسم والتقرير الجازم :

﴿ **ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾[٣] .

[الآية السابعة]

قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾ [النساء : ١٤٥] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم شر أهلها ، بما جمعوا بين الكفر والنفاق ، ومخادعة الله والمؤمنين وغشهم ، فأرواحهم أسفل الأرواح ، وأنفسهم أخس الأنفس ، وأكثر الكفار قد أفسد فطرتهم التقليد ، وغلب عليهم

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٢٩) .
(٢) لطائف الإشارات (١/٦٣-٦٤).
(٣) الظلال (١ / ٤٤) .

الجهل بحقيقة التوحيد ، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره ، باتخاذهم شفعاء عنده ، ووسطاء بينهم وبينه قياساً على ملوكهم المستبدين وأمرائهم الظالمين ، وهم لا يرضون لأنفسهم النفاق في الدين ، ومخادعة الله والمؤمنين ، والإصرار على الكذب والغش ومقابلة هذا بوجه ، وذاك بوجه . فلما كان المنافقون أسفل الناس أرواحًا وعقولًا ، كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل من النار .

﴿ **ولن تجد لهم نصيرًا** ﴾ ينقذهم من عذابها ، أو يرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها[1] .

يقول سيد قطب :

﴿ **في الدرك الأسفل** ﴾ إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب ، فلا ينطلقون ولا يرتفعون ، ثقلة المطامع والرغائب ، والحرص والحذر ، والضعف والخور ، الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ، ومداراة المؤمنين.. فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين ﴿ **في الدرك الأسفل من النار** ﴾ بلا أعوان هنالك ولا أنصار .. وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا فأنى ينصرهم الكفار[2]؟!

قال القشيري :

لما أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين ، كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر بكفره ...

ويقال : نقلهم في آجلهم إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم ..

فالمنافق اليوم في الدرك الأسفل من الهجر ، فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار ، والدرك الأسفل من الهجر اليوم - لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية ، وهذا هو البلاء الأكبر .

ويقال : استوجبوا ذلك ؛ لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بألسنتهم

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا (٥ / ٤٧٤) .

(٢) الظلال سيد قطب (٣ / ٧٨٥) .

وسوء الأدب يوجب الطرد[١] .

قاعدة هامة :

قال الشيخ محمد الصالح العثيمين حفظه الله :

إذا كانت الصفة كمالًا في حال ، ونقصًا في حال ، لم تكن جائزة في حق الله ، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق ، فلا تثبت له إثباتًا مطلقًا ، ولا تنفى عنه نفيًا مطلقًا ، بل لابد من التفصيل ، فتجوز في الحال التي تكون كمالًا ، وتمتنع في الحال التي تكون نقصًا ، وذلك كالمكر والخداع ونحوها ، فهذه الصفات تكون كمالًا إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها ؛ لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد ، وتكون نقصًا في غير هذه الحال ؛ ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق ، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها ، كقوله تعالى : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [الأنفال : ٣٠] وقوله : ﴿ **إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا** ﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦] . وقوله : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾ [الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣] . وقوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقوله : ﴿ **إنما نحن مستهزءون . الله يستهزئ بهم** ﴾ [البقرة : ١٤ ، ١٥] .

ولهذا لم يذكر الله أنه خان من خانوه فقال تعالى : ﴿ **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم** ﴾ [الأنفال : ٧١] . فقال : ﴿ **فأمكن منهم** ﴾ ولم يقل : فخانهم ؛ لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان ، وهي صفة ذم مطلقًا[٢] اهـ .

---

(١) لطائف الإشارات (١ / ٣٧٨ - ٣٧٩) .

(٢) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد الصالح العثيمين ص٢٠ دار الكتب السلفية .

وقال الشيخ عمر سليمان الأشقر :

قد ورد في القرآن أفعال أطلقها الله – عز وجل – على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة ، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال ، ولكن لا يجوز أن يشتق لله تعالى منها أسماء ، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقوله : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ [آل عمران : ٥٤] . وقوله: ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ [التوبة : ٦٧]. وقوله: ﴿**وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزىء بهم** ﴾ [البقرة : ١٤ ،١٥] . فلا يطلق على الله أنه مخادع ماكر ناسٍ ، مستهزىء ، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه ، ولا يقال : الله يستهزىء ، ويخادع ويمكر ، وينسى على سبيل الإطلاق ، وقد أخطأ الذين عدوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأً كبيرًا ؛ لأن الخداع والمكر يكون مدحًا ويكون ذمًا ، فلا يجوز أن يطلق على الله إلا مقيدًا بما يزيل الاحتمال المذموم عنه ، كما ورد مقيدًا في بعض الآيات[1] .

فالله لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، والمجازاة على ذلك يعتبر حسنة من المخلوق فكيف من الخالق[2] اهـ .

[الآية الثامنة]

قال تعالى : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [التوبة : ٧٩] .

قال ابن كثير: قوله: ﴿**فيسخرون منهم سخر الله منهم**﴾، وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم ، واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم

---

(١) معارج القبول (١ / ٧٦) .

(٢) العقيدة في الله للدكتور عمر سليمان الأشقر ص ١٨٧ ، ١٨٨ مكتبة الفلاح ودار النفائس .

معاملة من سخر بهم ؛ انتصارًا للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابًا أليمًا[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

قال تعالى في بيان جزاء هؤلاء اللامزين الساخرين : ﴿ **سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ هذا التعبير يسمى مشاكلة ، وما هو إلا العدل في جزاء المماثلة ، أي جزاهم بمثل ذنبهم فجعلهم سخرية للمؤمنين ، وللناس أجمعين ، بفضيحته لهم في هذه السورة ببيان هذا الخزي وغيره من مخازيهم وعيوبهم ، ولهم فوقه عذاب أليم ، تقدم بيانه في هذا السياق بهذا اللفظ وغيره[٢] .

قال القرطبي :

ومعنى : ﴿ **سخر الله** ﴾ مجازاتهم على سخريتهم[٣] .

قال الرازي :

وقال الأصم : المراد أنه تعالى قبل من هؤلاء المنافقين ما أظهروه من أعمال البر ، مع أنه لا يثيبهم عليها ، فكان ذلك كالسخرية[٤] .

قال سيد قطب :

﴿ **سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ ويا لهولها سخرية .. ويا لهولها عاقبة .. فمن شرذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين .. وسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم ، وعذابه يترقبهم ؟! ألا إنه للهول المفزع الرهيب[٥] .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

أسرّوا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفلتات

---

(١) تفسير القرآن الكريم (٤ / ١٢٨) .
(٢) تفسير المنار (١٠ / ٥٦٤) .
(٣) تفسير القرطبي (٥ / ٣٠٥٤) .
(٤) تفسير مفاتيح الغيب (٨ / ١١٣) .
(٥) الظلال (٣ / ١٦٨١) .

اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقّاد ، كيف ؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ **ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾ [محمد : ٣٠] . فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق ، وتجلى الله – جلّ جلاله – للعباد وقد كشف عن ساق؟ ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون. أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم ، وهو أدق من الشعرة ، وأَحَدُّ من الحسام . وهو دَحَض مزَلَّة ، مُظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطىء الأقدام . فقُسِّمت بين الناس الأنوارُ . وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب وأُعْطوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام . كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام . فلما توسطوا الجسر عَصَفَت على أنوارهم أهوية النفاق . فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح . فوقفوا حيارَى لا يستطيعون المرور . فضُرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب . ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح ، باطنه – الذي يلي المؤمنين – فيه الرحمة ، وما يليهم من قِبَلهم العذاب والنقمة . ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان ، ومشاعلُ الركب تلوح على بعد كالنجوم . تبدو لناظر الإنسان ﴿ **انظرونا نَقْتَبِس من نوركم** ﴾ [الحديد : ١٣] . لنتمكن في هذا المضيق من العبور . فقد طفئت أنوارنا . ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور ﴿ **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا** ﴾ [الحديد : ١٣] . حيث قسمت الأنوار . فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار ! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق ؟ فهل يلوي اليومَ أحد على أحد في هذا الطريق ! وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق ؟ فذكَّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار . كما يذكِّر الغريب صاحبَ الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿ **ألم نكن معكم** ﴾ [الحديد : ١٤] . نصوم كما تصومون ، ونصلي كما تصلون . ونقرأ كما تقرؤن ، ونتصدق كما تصدقون ونحج كما تحجون ؟ فما الذي فرق بيننا اليوم ، حتى انفردتم دوننا بالمرور ﴿ **قالوا بلى** ﴾ [الحديد : ١٤] . ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل

ملحد، وكل ظلوم كفور ﴿ **ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربَّصْتُم وارتبتم وغرَّتكم الأماني حتى جاء أمرُ الله وغرَّكم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فِدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير** ﴾ [الحديد : ١٤ ، ١٥] .

لا تستطل أوصاف القوم . فالمتروك والله ، أكثر من المذكور . كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم ؛ لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور . فلا خَلَت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات . وتتعطل بهم أسباب المعايش ، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات . سمع حذيفة رضي الله عنه رجلا يقول : اللهم أهلك المنافقين . فقال : « يا بن أخي ، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك » .

زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب ، وساقية الرياء . ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة ، وعين ضعف العزيمة . فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحكم نبات النفاق وبنيانه . ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرُف هار . فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلَى السرائر ، وكُشف المستور ، وبعثر ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور . تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق أن حواصله التي حَصَّلها كانت كالسراب ﴿ **يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾ [النور : ٣٩] .

فهذه والله ، أمارات النفاق ، فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية ، إذا عاهدوا لم يفوا ، وإن وعدوا أخلفوا ، وإن قالوا لم ينصفوا ، وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسول صَدَفوا ، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا ، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان ، والخزي والخسران ، فلا تثق بعهودهم ، ولا تطمئن إلى وعودهم ، فإنهم فيها كاذبون ، وهم لما سواها مخالفون ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لَنَصَّدقن ولنكوننَّ من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله**

ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾[1] [التوبة : ٧٥ -٧٧] .

[الآية التاسعة]

قال تعالى : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءًا يُجز به ولا يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا** ﴾[النساء : ١٢٣] .

قال ابن كثير : قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ، فأنزل الله : ﴿ **ليس بأمانيكم** ...﴾ ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ [النساء : ١٢٥] . فأفلج[2] الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[3] .

قال القرطبي :

عن ابن عباس قال : قالت اليهود والنصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان منا، وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله: ﴿**ليس بأمانيكم** ..﴾[4] الآية.

قال القاسمي :

﴿ **ليس بأمانيكم** ﴾ أي : ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون ، أن تنفعكم الأصنام ﴿ **ولا أماني أهل الكتاب** ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا : ﴿ **نحن أبناءُ الله وأحباؤه** ﴾ [المائدة : ١٨] . ﴿ **لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة** ﴾ [البقرة : ٨٠] . ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ أي:

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٥٦ - ٣٥٩) .

(٢) نصرها وأعلاها .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٣٦٩) .

(٤) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٦٦) .

من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله : ﴿ **ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرًا** ﴾ وهذا وعيد للكفار؛ لأنه قال بعده: ﴿**ومن يعمل من الصالحات...**﴾[١] الآية [النساء : ١٢٤].

قال ابن الجوزي :

عن مجاهد : ... فأخبر الله عز وجل أن دخول الجنة والجزاء بالأعمال لا بالأماني[٢] .

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ السوء هنا الشرك . قال الحسن : هذه الآية في الكافر وقرأ : ﴿ **وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [سبأ : ١٧] .

وقال الضحاك : يعني اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب .

وقال الجمهور: لفظ الآية عام، والمؤمن والكافر مجازًى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار ؛ لأن كفره أوبقه.وأما المؤمن فبنكبات الدنيا ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : لما نزلت : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ **بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا ، فقال رسول الله - ﷺ -: « قاربوا وسددوا،** ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة ، حتى النكبة يُنكبها ، والشوكة يُشاكها »[٣] .

قال البقاعي :

ولما كانت أمانيهم أنهم لا يُجازون بأعمالهم الخبيثة ، أنتج ذلك لا محالة قوله : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ أي : بالمصائب من الأمراض وغيرها عاجلًا ، إن أريد به الخير ، وآجلًا إن أريد به الشر[٤] .

---

(١) محاسن التأويل (٥ / ١٥٧٣ ، ١٥٧٤) .
(٢) زاد المسير (٢/ ٢٠٩) .
(٣) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٦٦) .
(٤) نظم الدرر (٥ / ٤١٠) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

ليس شرف الدين وفضله ولا نجاة أهله به ، أن يقول القائل منهم : إن ديني أفضل وأكمل وأحق وأثبت ، وإنما عليه إذا كان موقنا به أن يعمل بما يهديه إليه ، فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمني والغرور[١] .

وقال :

﴿ من يعمل سوءًا يجز به ﴾ . والمعنى أن كل من يعمل سوءًا يلْق جزاءه ؛ لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف في أتباع بعض الأنبياء وينزل في غيرهم - كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون[٢] .

قال سيد قطب :

ثم يعقب السياق بقاعدة الثواب الكبرى في العمل والجزاء .. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولًا إلى الأماني .. إنه يرجع إلى أصل ثابت وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابي ، قانون تستوي أمامه الأمم ، فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر ، وليس أحد تخرق له القاعدة وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون .. إن صاحب السوء مجزي بالسوء وصاحب الحسنة مجزيّ بالحسنة ، ولا محاباة في هذا ولا مماراة[٣] .

قال القشيري :

من زرع الحنظل لم يجْتَن الورد والعبهر[٤] ، ومن شرب السم الزعاف لم يجد طعم العسل ، كذلك من ضَيَّع حق الخدمة ، لم يستمكن على بساط القربة ، ومَنْ وُسِمَ بالشقوة ، لم يُرزق الصفوة ، ومن نفته القضية ، فلا ناصر له من البرية .

قوله : ﴿ ومن يعمل من الصالحات ... ﴾ مَنْ تَعنّى في خدمتنا ، لم

---

(١) المنار (٥ / ٤٣٢) .
(٢) السابق (٥ / ٢٣٤) .
(٣) الظلال (٢ / ٧٦٢) .
(٤) العبهر : الياسمين وقيل : النرجس .

يبق عن نيل نعمتنا ، من عنَّيناه في طلبنا ، أكرمناه بجودنا ، بل من جرَّعناه كأس اشتياقنا ، أنلناه أنس لقائنا[(١)] .

قال البقاعي :

ولما أبدى جزاء المسيء تحذيرًا ، أولاه أجر المحسن تبشيرا ، فقال . ﴿ **ومن يعمل** ... ﴾[(٢)] [النساء : ١٢٤] .

○ ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ [النساء : ١٢٣] ○

يا معرضًا عن الهدى لا يسعى في طلبه ، يا مشغولًا بلهوه مفتونًا بلعبه ، يا من قد صاح به الموت عند أخذ صاحبه : ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ ..

جُز على قبر الصديق ، وتلمح آثار الرفيق ، يخبرك عن حسنه الأنيق ، أنه استُلب بكف التمزيق ، هذا لحده وأنت غدًا بهْ .. ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

كم نُهي عن الخطايا وما انتهى ، وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها ، هذا ركنه القويم قد وهى ، وها أنت في سلبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

أين من عتا وظلم ، ولقي الناس منه الألم ، اقتطعه الردى اقتطاع الجلم ، فما نفعه ما جمع ، لا والله ، لم يدفع عنه عز منصبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

بات في لحده أسيرًا ، لا يملك من الدنيا نقيرًا ، بل عاد بوزر ذنبه عقيرا ، وأصبح من ماله فقيرا ، على عز نسبه ، وكثرة نشبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

اللذات تفنى عن قليل وتمرّ ، وآخر الهوى الحلو مرّ ، وليس في الدنيا شيء يَسُرّ ، إلا يغرّ ويضرّ ، ثم يخلو ذو الزلل بمكتسبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾.

الكتاب يحوي حتى النظرة ، والحساب يأتي على الذرة ، وخاتمة كأس

---

(١) لطائف الإشارات (١ / ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

(٢) نظم الدرر (٥ / ٤١١) .

اللذات مرة ، والأمر جلي للفهوم ما يشتبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾

تقوم في حشرك ذليلًا ، وتبكي على الذنوب طويلًا ، وتحمل على ظهرك وزراً ثقيلًا والويل للعاصي من قبيح منقلبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

يجمع الناس كلهم في صعيد ، وينقسمون إلى شقي وسعيد ، فقوم قد حل بهم الوعيد ، وقوم قيامتهم نزهة وعيد ، وكل عامل يغترف من مشربه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يُجز به** ﴾ .

إنما يقع الجزاء على أعمالك ، وإنما تلقى غدًا غبّ أفعالك ، وقد قصدنا إصلاح حالك ، فإن كنت متيقظًا فاعمل لذلك ، وإن كنت نائمًا فانتبه ، ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ .

[الآية العاشرة]

قال تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالًا من الله والله عزيز حكيم** ﴾ [المائدة : ٣٨] .

قال ابن كثير : ﴿ **جزاء بما كسبا** ﴾ أي : مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك .

والجزاء من جنس العمل[1] .

قال سيد قطب :

وعلة فرض عقوبة القطع للسرقة ؛ أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه بكسب غيره ، فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن ينميه عن طريق الحرام ... وهو لا يكتفي بثمرة عمله ، فيطمع في ثمرة عمل غيره . فالدافع الذي يدفع إلى السرقة هو زيادة الكسب ، أو زيادة الثراء ... وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع ؛ لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الكسب ، إذ اليد أو الرجل كلاهما أداة

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ١٠٣) .

عمل أيًّا كان . ونقص الكسب يؤدي إلى نقص الثراء ، وهذ يؤدي إلى نقص القدرة على الإنفاق والظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل ، والتخوف على المستقبل(١) .

[الآية الحادية عشرة]

قال تعالى : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

قال ابن القيم : هذا عطف على قوله : ﴿ **أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ [الأنعام : ١٠٩]. أي: تحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله : ﴿ **كما لم يؤمنوا به أول مرة** ﴾ فقال كثير من المفسرين : المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ، قال ابن عباس في رواية عطاء عنه : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي . قال : وهذا كقوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

وقال آخرون : المعنى ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾ لتركهم الإيمان به أول مرة ، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم . وهذا معنى حسن . فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل ، كقوله : ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ [القصص : ٧٧] . وقوله : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم** ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] . والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر(٢) .

فهذا نص من شيخ الإسلام في تفسيرها بأن الجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٢ / ٨٨٤) .

(٢) التفسير القيم ص ٢٢٦ .

[الآية الثانية عشرة]

قال تعالى : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

قال ابن كثير :

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس؛ تلك الطائفة التي أغْوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم ببعضهم من بعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم(١) .

قال البقاعي : ولّى الكفرة من ظالمي الجنّ ظالمي الإنس ، وسلطهم عليهم ، هذا عمله مع كل ظالم من أي قبيل ، يجمع بين الأشكال في الأوصاف الباطنة والخصال ، ويسلط بعضهم على بعض في الضلال والإضلال والأوجاع والأنكال ، بما كانوا بجبلاتهم يكسبون ، بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبعناهم عليها يجتمعون ، وينقاد بعضهم لبعض ، حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها ، فيظلم بعضهم بعضًا ، ويهلك بعضهم بعضًا .

يولي بعض الظلمة بعضا ليهينهم؛ بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوي الأعمال، ورديء الخلال، وغث الخصال، فيؤديهم إلى مهلك الأوجاع والأوجال(٢).

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

روى أبو الشيخ عن الأعمش عن قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا** ﴾ قال : سمعتهم يقولون : إذا فسد الناس أمّر عليهم شرارهم . والأعمش تابعي فهو إنما يسأل عن أقوال الصحابة وكبار التابعين(٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٣٣٢) .

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٧ / ٢٧٠ - ٢٧١) .

(٣) تفسير المنار (٨ / ١٠٢) .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

هو من قبيل قوله: ﴿نوله ما تولى﴾ [النساء: ١١٥] أي: نلزمه ما ألزم نفسه.

قال المفسرون : يجوز أن يكون معنى ﴿ نولي بعض الظالمين بعضًا ﴾ نجعل بعضهم ولاة على بعض ؛ أي نسلط بعضهم على بعض ، والمعنى أنه جعل الجن وهم ظالمين مسلّطين على المشركين ، والمشركون ظالمون ، فكل يظلم بمقدار سلطانه ، والمراد بالظالمين في الآية المشركون .

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم ، فتدلّ على أن الله سلّط على الظالم من يظلمه ، وقد تأوّلها على ذلك عبد الله بن الزبير أيّام دعوته بمكة ؛ فإنه لمّا بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عَمْرو بن سعيد الأشدق ، بعد أن خرج عمرو عليه ، صعد المنبر فقال : ألا إن ابن الزرقاء - يعني : عبد الملك بن مروان ؛ لأن مروان كان يلقب بالأزرق وبالزرقاء ، لأنه أزرق العينين - قد قتل لَطِيم الشيطان[1] ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ .

ومن أجل ذلك قيل : إن لم يقُلع الظالم عن ظلمه سُلّط عليه ظالم آخر .

قال الفخر : إن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم .

وقد قيل : وما ظالم إلا سَيُبْلى بظالم[2] .

[الآية الثالثة عشرة]

قال تعالى : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ [الأنعام : ١٣٩] .

قال الرازي :

هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة ، كانوا يقولون في أجنة البحائر

---

(١) كلمة يُنبَز بها عمرو بن سعيد ؛ لاعوجاج في شدقه فلقبوه الأشدق . وقالوا : لطمه الشيطان .

(٢) التحرير والتنوير (٨ / ٧٣ - ٧٤) .

والسوائب : ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور ، لا تأكل منها الإناث ، وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والإناث . ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ والمراد منه الوعيد . ﴿ **إنه حكيم عليم** ﴾ ليكون الزجر واقعًا على حد الحكمة ، وبحسب الاستحقاق(١) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم** ﴾ يقال : جزاء كذا ، وبكذا ؛ أي جعله جزاء له على عمله ، قال تعالى : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا** ﴾ [الفرقان : ٧٥] . وقال : ﴿ **فذلك نجزيه جهنم** ﴾ [الأنبياء : ٢٩] . وقال : ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ [يونس : ٥٢] . وقال : ﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [النمل : ٩٠] وجعل الجزاء عين العمل ، وقد تكرر في سورةٍ أخرى ، وقدروا له كلمة جزاء ، أو ثواب أو عقاب بناء على أن العمل هو ما يجازى عليه ، لا ما يجازى به(٢) .

[الآية الرابعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ [الأعراف : ٥١] .

قال ابن جرير : يقول الله جلّ ثناؤه : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : ففي هذا اليوم ، وذلك يوم القيامة ننساهم ، يقول : نتركهم في العذاب المبين جياعًا عطاشًا ، بغير طعام ولا شراب ، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ، ورفضوا الاستعداد له بإتعاب أبدانهم في طاعة الله ..

عن مجاهد ﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ قال : نُسوا في العذاب ،.. وعنه : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا(٣) .

---

(١) مفاتيح الغيب (٥ / ٥٩٧) .

(٢) تفسير المنار (٨ / ١٢٩) .

(٣) تفسير الطبري (٥ / ٢٠٢) .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : نعاملهم معاملة من نسيهم ؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿ **في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى** ﴾ [طه : ٥٢] .

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ، كما قال : ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وقال : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه : ١٢٦] . وقال تعالى : ﴿ **اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا** ﴾[1] [الجاثية : ٣٤] .

قال الرازي :

إن معنى ﴿ننساهم كما نسوا﴾ أي : نعاملهم معاملةَ مَنْ نسيَ، فنتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض بآياتنا ، وبالجملة فسمى الله جزاء نسيانهم بالنسيان ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ [الشورى : ٤٠] ، والمراد من هذا النسيان أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم . ثم بين تعالى أن كل هذه التشديدات إنما كان لأنهم كانوا بآياتنا يجحدون[2] .

قال القرطبي :

﴿ **فاليوم نناسهم** ﴾ أي : نتركهم ﴿ **كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي : تركوا العمل به وكذبوا به و« ما » مصدرية ، أي : كنسيهم ﴿ **وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ عطف عليه ، أي : وجحدهم[3] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ هذا من قول الله عز وجل ، مرتب على ما قبله ترتب المسبب على السبب ، والمراد باليوم : يوم الجزاء ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٢٠) .

(٢) مفاتيح الغيب (٧ / ٩٠) .

(٣) تفسير القرطبي (٤ / ٢٦٥٢ - ٢٦٥٣) .

وهو محدود بالعمل الذي هو الجزاء ، وإن لم يعرف له مقدار ، والمراد نعاملهم معاملة المنسي الذي لا يفتقده أحد ، كما جعلوا هذا اليوم منسيا ، أو كالمنسي بعدم الاستعداد والتزود له ، والظاهر أن الكاف هنا للتعليل ، كقوله : ﴿ **واذكروه كما هداكم** ﴾ [البقرة : ١٩٨] . أي : لهدايته لكم - لا للتشبيه - على أنه يصح في هذه الجملة على حد المثل : الجزاء من جنس العمل[١] .

قال القشيري :

كما تركوا أمره وضيعوه تركهم في العقوبة ، فتأتي عليهم الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا بَرْد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرامٌ بخطاب ، ذلك جزاءٌ لمن لم يعرف قَدْر الوصلة في أوقات المهلة[٢] .

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما - قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له : ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك مُلاقي يومك هذا ؟ فيقول : لا . فيقول الله : اليوم أنساك كما نسيتني »[٣] .

[الآية الخامسة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ [النساء : ٨٥] .

قال القاسمي :

﴿ **من يشفع شفاعة حسنة** ﴾ أي : يتوسط في أمر ، فيترتب عليه خير ، من دفع ضر أو جلب نفع ؛ ابتغاء لوجه الله تعالى ، ومنه حمل المؤمنين على قتال الكفار .

﴿**يكن له نصيب منها**﴾ وهو ثواب الشفاعة، والتسبب إلى الخير الواقع بها.

---

(١) تفسير المنار (٨ / ٤٤٠) .

(٢) لطائف الإشارات (أ / ٥٣٩) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي ، ورواه أحمد ومسلم وابن خزيمة .

﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة** ﴾ وهي ما كانت بخلاف الحسنة ، بأن كانت في أمر غير مشروع .

﴿ **يكن له كفل منها** ﴾ أي : نصيب من وزرها الذي ترتب على سعيه ، مساوٍ لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء[1] .

قال ابن كثير :

وقوله : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** ﴾ أي : من سعى في أمر ، فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها** ﴾ أي : يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء » .

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض .

وقوله : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ قال ابن عباس : ﴿ **مقيتا** ﴾ أي: حفيظًا ، وقال مجاهد : شهيدا ، وفي رواية عنه : حسيبا .

وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن رواحة - وسأله رجل عن قول الله : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ قال : يقيت[2] كل إنسان على قدر عمله[3] .

قال الرازي :

فبين تعالى في هذه الآية أن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، والغرض منه بيان أنه عليه الصلاة والسلام لما حرضهم على الجهاد ، فقد

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٥ / ١٤١٩) .

(٢) ومعنى المقيت في الحديث: يعطي قوت كل منهم، من أقاته يقيته إذا أعطاه قوته أو المعنى: يحفظ كلا منهم .

(٣) ابن كثير (٢ / ٣٢٤) .

استحق بهذا التحريض أجرًا عظيمًا[١] .

قال ابن جرير :

عن الحسن قال : من يشفع شفاعة حسنة كتب له أجرها ، ما جرت منفعتها[٢].

قال القرطبي :

وقيل : المعنى من يكن شفعًا لصاحبه في الجهاد يكن له نصيبه من الأجر ، ومن يكن شفعا لآخر في باطل يكن له نصيبه من الوزر . وعن الحسن أيضًا: الحسنة ما يجوز في الدين ، والسيئة ما لا يجوز فيه ، وكأنّ هذا القول جامع ..

وقال : والشافع يؤجر فيما يجوز وإن لم يُشفّع ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ **من يَشْفَع** ﴾ ولم يقل : يُشَفّع[٣].

وقال سيد قطب :

فالذي يشجع ويحرض على القتال في سبيل الله ، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها ، والذي يبطىء ويثبط ، تكون له تبعة فيها وفي آثارها .. وكلمة كفل توحي بأنه متكفل بجزائها[٤] .

قال القاسمي :

اختيار النصيب في الحسنة والكفل في السيئة ، ما أشرنا إليه ، وذلك أن النصيب يشمل الزيادة ؛ لأن جزاء الحسنَات يضاعف ، وأما الكفل فأصله المركب الصعب ، ثم استعير للمثل المساوي ، ولذا اختير إشارة إلى لطفه بعباده إذ لم يضاعف السيئات كالحسنات[٥] .

قال الألوسي

في قوله تعالى : ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾ :

عن الجبائي : أنه المجازي ؛ أي : يجازي على كل شيء من الحسنات

(١) مفاتيح الغيب (٥/٣٤٨) .
(٢) تفسير الطبري (٤ / ١٨٦) .
(٣) تفسير القرطبي (٣/ ١٨٦٥) .
(٤) الظلال (٢/ ٧٢٥) .
(٥) محاسن التأويل (٢/ ١٤٢٢) .

والسيئات(١) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

وحاصل معنى الجملة : وكان الله - وما زال - على كل شيء مقيتا ؛ أي : مقتدرًا ومقدّرا ، فهو لا يعجزه أن يعطي الشافع نصيبًا ، أو كفلا من شفاعته ، على قدرها في النفع والضر ؛ لأن سننه الحكيمة مضت بأن يكون هذا الجزاء مرتبطًا بالعمل .

أو : شهيدًا حفيظًا على الشفعاء لا يخفى عليه أمر محسنهم و مسيئهم ، فهو يعطي الجزاء على قدر العمل(٢). اهـ .

يعطي الجزاء على قدر العمل ، ومن جنسه ﴿ **يكن له نصيب منها** ﴾ ﴿ **يكن له كفل منها** ﴾ .

قال القشيري :الشفيع يخلِّص للمشفوع له حالَه ، ويستوجب الشفيع - من الله سبحانه - على شفاعته عظيم الرتبة ، ومن سعى في أمرنا بالفساد ، تحمّل الوزر واحتقب الإثم(٣) .

[الآية السادسة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

قال ابن جرير : ويعني بقوله : ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾ فله عشر حسنات أمثال حسنته التي جاء بها .

﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ يقول : ومن وافى يوم القيامة منهم بفراق الدين الحق ، والكفر بالله ، فلا يجزى إلا ما ساءه من الجزاء ، كما وافى الله به من عمله السيىء ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ يقول: ولا يظلم الله الفريقين : لا فريق الإحسان،

---

(١) روح المعاني (٥ / ٩٨) .

(٢) المنار (٢ / ٣١١) .

(٣) لطائف الإشارات (١ / ٣٥٠) .

ولا فريق الإساءة ، بأن يجازي المحسن بالإساءة ، والمسيء بالإحسان ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له ؛ لأنه جلّ ثناؤه حكيم ، لا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه ، ولا يجازي أحدًا إلا بما يستحق من الجزاء[1] .

قال القرطبي :

والحسنة هنا : الإيمان ؛ أي من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله ، فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب .

﴿ **ومن جاء بالسيئة** ﴾ يعني : الشرك ﴿ **فلا يجزى إلا مثلها** ﴾ وهو الخلود في النار ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **جزاء وفاقا** ﴾ يعني : جزاء وافق العمل .. ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ أي : لا ينقص ثواب أعمالهم[2] .

قال القاسمي :

قال القاشاني في قوله تعالى : ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾:هذا أقل درجات الثواب ، وذلك أن الحسنة تصدر بظهور القلب ، والسيئة بظهور النفس ، فأقل درجات ثوابها أنه يصل إلى مقام القلب ، الذي يتلو مقام النفس في الارتقاء ، تلو مرتبة العشرات للآحاد في الأعداد .

وأما في السيئة فلأنه لا مقام أدون من مقام النفس ، فينحط إليه بالضرورة ، فيجزى جزاءه في مقام النفس بالمثل[3] .

قال سيد قطب :

وبمناسبة الحساب والجزاء ، قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة في حساب عباده ، فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن - فليس مع الكفر حسنة - ﴿ **فله عشر أمثالها** ﴾ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴿ **ولا يظلم ربك أحدًا** ﴾[الكهف : ٤٩] ولا يبخسه حقه .

---

(١) تفسير الطبري (٨ / ١٠٧) .
(٢) تفسير القرطبي (٤ / ٢٥٨٧) .
(٣) تفسير القاسمي محاسن التأويل (٦ / ٢٥٨٨) .

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ أي : ومن جاء ربه يوم القيامة بالصفة السيئة التي يطبعها في نفسه الكفر ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، فلا يجزى إلا عقوبة سيئة مثلها ، بحسب سنته تعالى في تأثير الأعمال السيئة في تدسية النفس وإفسادها ، وتقديره الجزاء عليها بالعدل[٢] .

قال القشيري :

قوله: **﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾** .

ويقال : الحسنة من فضله تعالى تصدر ، وبلطفه تحصل ، فهو يجري ، ثم يقبل ويُثني ، ثم يُجازي ويُعطي .

ويقال : إحسانه – الذي هو التوفيق – يوجب إحسانك الذي هو الوفاق .

وإحسانه – الذي هو خلق الطاعة – يوجب لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة فالعناء منك فعله ، والجزاء لك فضله .

وقوله جلّ ذكره : **﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾** .

يعني : يُكال عليه بالكيل الذي يكيل ، ويوقفُ حيث يرضى لنفسه أن يكون له موقفا[٣] .

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٣ / ١٢٤٠) .

(٢) تفسير المنار (٨ / ٢٣٤) .

(٣) لطائف الإشارات (١ / ٥١٣ ، ٥١٤) .

[الآية السابعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ أي : إن رحمته تعالى الفعلية ، التي يعبر عنها بالإحسان قريبة من المحسنين في أعمالهم المتقنين لها ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن في العبادة نال حسن الثواب ، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح ، ومن أحسن في الدعاء استجيب له ، أو أعطي خيرًا مما طلبه ...

والإحسان مطلوب في كل شيء بهدي دين الفطرة، الداعي لحسنتي الدنيا والآخرة.

وجزاؤه الإحسان في كل شيء بحسبه ، قال الله عز وجل : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن : ٦٠] كما أن الإساءة محرمة في كل شيء ، وجزاؤها من جنسها ، قال عز وجل : ﴿ **ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[1] [النجم : ٣١] .

[الآية الثامنة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ [التوبة : ٨٢] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

والمعنى على هذا فليكونوا بقدرتنا وتقديرنا قليلي الضحك ، كثيري البكاء ؛ لأن سبب سرورهم وفرحهم بتخلفهم ونفاقهم قد زال ، وأعقبهم الفضيحة والنكال ، ويؤيد كونه تكوينًا قدريًا ، لا تكليفًا شرعيًا ، جعله عقابا جزائيا لهم على عملهم بقوله : ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ فإن جزاء كل عمل من جنسه ، وكما يدين المرء يدان[2] .

---

(١) تفسير المنار (٨ / ٤٦٢) .

(٢) تفسير المنار (١٠ / ٥٧١) .

[الآية التاسعة عشرة]

قال تعالى : ﴿ **فإن رجَعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معيَ أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ [التوبة : ٨٣] .

قال ابن كثير : ﴿ **فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا** ﴾ أي تعزيرًا لهم وعقوبة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة** ﴾ [الأنعام : ١١٠] . فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها ، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ..

وقوله تعالى : ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ قال ابن عباس : أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة[1] .

والجزاء من جنس العمل ، فكما رضوا بالقعود أول مرة فليقعدوا ولا يخرجوا أبدًا .

[الآية العشرون]

قال تعالى : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

قال القرطبي : ﴿ **ويمكرون** ﴾ . والمكر : التدبير في الأمر في خفية .

﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ .. والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون[2] .

قال ابن جرير : عن ابن إسحاق قوله : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ : أي فمكرت لهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ١٢١ - ١٢٢) .

(٢) تفسير القرطبي (٤ / ٢٨٣٣) .

(٣) تفسير الطبري (٦ / ٣٢٠) .

والجزاء من جنس العمل .

قال القشيري :

والمكر إظهار الإحسان مع قصد الإساءة في السر ، والمكر من الله الجزاء على المكر[١] .

قال سيد قطب : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ . صورة عميقة التأثير .. ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون ، والله من ورائهم محيط يمكر بهم ويبطل كيدهم .. وهم لا يشعرون ...

فأين هؤلاء البشر .. الضعفاء المهازيل .. من تلك القدرة القادرة .. قدرة الله الجبار القاهر فوق عباده الغالب على أمره .. وهو بكل شيء محيط[٢]؟..

[الآية الحادية والعشرون]

قال الله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين** ﴾ [الأنفال : ٥٣ ، ٥٤] .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه ، بأن الله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال** ﴾ [الرعد : ١١] ، وقوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ أي : كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات ، وعيون ، وزروع ، وكنوز ، ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين[٣] .

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري (١/٦٢٠). (٢) الظلال لسيد قطب (٣/١٥٠١).

(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٢١) .

[الآية الثانية والعشرون]

قال الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢] .

قال العلامة ابن كثير : هذا مثل أريد به أهل مكة ؛ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها آمن لا يخاف ، كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا** ﴾ [القصص : ٥٧] ، وهكذا قال ها هنا : ﴿ **يأتيها رزقها رغدا** ﴾ هنيئًا سهلًا ﴿ **من كل مكان فكفرت بأنعم الله** ﴾ أي : جحدت آلاء الله عليها ، وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾ [إبراهيم: ٢٧،٢٨]. ولهذا بدّلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿**فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع ، بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، وذلك لما استعصوا على رسول الله - ﷺ - وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العِلْهِز[1]؛ وهو وبر البعير، يجعل بدمه.

وقوله : ﴿ **والخوف** ﴾ وذلك بأنهم بُدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه ، حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوة سراياه وجيوشه ، وجعلوا كل ما لهم في سفال ودمار ، حتى فتحها الله عليهم ، وذلك بسبب صنيعهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم ، وامتن به عليهم في قوله : ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم** ﴾ .

---

(١) في النهاية لابن الأثير : « العلهز » هو شيء يتخذونه في سني المجاعة ، يخلطون الدم بأوبار الإبل ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه . وقيل : العلهز شيء ينبت ببلاد بني سليم ، له أصل كأصل البردي .

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ، ورزقهم بعد العَيْلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم ، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم .

وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة ، قاله العوفي ، عن ابن عباس ، وإليه ذهب مجاهد، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله[1] .

يقول الشيخ سيد قطب : ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ؛ لأن الذوق أعمق أثرا في الحس من مساس اللباس للجلد ، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس ، فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ، ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس .

يقول البقاعي في نظم الدرر :

صار الجوع بشموله لهم لباسا ، وبشدة عركهم ذواقا ، فكأن النظر إلى المستعار له ، وهو هنا أبلغ لدلالته على الإحاطة والذوق ، ولو نظر إلى المستعار لقال : فكساها ، فكان يفوت الذوق ، فبانت فضيحة ابن الراوندي في زندقته حين قال لابن الأعرابي : هل يذاق اللباس ؟. فقال له : لا بأس أيها النسناس ! هب أن محمدًا ما كان نبيًّا أما كان عربيًّا[2] .

[الآية الثالثة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين** ﴾ [الحجر : ٧٥] .

قال ابن القيم : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة ، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ [النور : ٣٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٥٢٧ - ٥٢٨) .

(٢) نظم الدرر (١١ / ٢٦٥ - ٢٦٦) .

وسر هذا ، أن الجزاء من جنس العمل ، فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه تعالى من جنسه ، ما هو خير منه ، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات ، أطلق الله نور بصيرته وقلبه ، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى .

قال أبو شجاع الكرماني : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وكف نفسه عن الشهوات ، وغض بصره عن المحارم ، واعتاد أكل الحلال لم تخطيء له فراسة .

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾[1] [النور : ٣٥] .

قال ابن القيم :

وسببها : نور يقذفه الله في قلب عبده ، يفرق بين الحق والباطل ، والحالي والعاطل والصادق والكاذب .

وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضادّه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : العزيز في يوسف ، حيث قال لامرأته : ﴿ **أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ [يوسف : ٢١] ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها : ﴿ **استأجره** ﴾ [القصص : ٢٦] ، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه . وفي رواية أخرى : امرأة فرعون حين قالت : ﴿ **قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾[2] [القصص : ٩] ، وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة . وبعده عمر رضي الله عنه ، ووقائع فراسته مشهورة . فإنه ما قال لشيء : أظنه كذا . إلا

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٤٨) .

(٢) رضي الله عن ابن مسعود . بل أفرس الناس خديجة رضي الله عنها في رسول الله عند بدء نزول الوحي .

كان كما قال . ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة .

كان الجنيد يومًا يتكلم على الناس ، فوقف عليه شاب نصراني متنكرًا . فقال : أيها الشيخ ما معنى قول النبي ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله »[(١)] فأطرق الجنيد ، ثم رفع رأسه إليه . وقال : أسلم . فقد حان وقت إسلامك . فأسلم الغلام[(٢)] .

[الآية الرابعة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [النمل : ٩٠] .

قال القرطبي : هل تجزون إلا جزاء أعمالكم .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

ومقتضى الظاهر أن يقال : هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون . فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم ؛ وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم ، وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة[(٣)] .

[الآية الخامسة والعشرون]

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ [التحريم : ٧] .

[الآية السادسة والعشرون]

وقال تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون** ﴾ [الطور : ١٩] .

قال الفخر الرازي : إن قيل: قال في حق الكفار: ﴿ **إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ وقال في حق المؤمنين : ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ فهل بينهما فرق ؟

قلت : بينهما بون عظيم من وجوه :

---

(١) حول الحديث كلام كثير في نسبته له ﷺ . وهو ضعيف.

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٤ - ٤٨٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠ / ٥٣) .

الأول : كلمة ﴿ **إنما** ﴾ للحصر ؛ أي لا تجزون إلا ذلك ، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ما عمل ، ويزيده من فضله ، وحينئذ إن كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالأكل والشرب .

الثاني : قال هنا : ﴿ **بما كنتم** ﴾ وقال هناك : ﴿ **ما كنتم** ﴾ أي تجزون عين أعمالكم إشارة إلى المبالغة في المماثلة ، كما تقول : هذا عين ما عملت .

وقال في حق المؤمن : ﴿ **بما كنتم** ﴾ ، كأن ذلك أمر ثابت ، مستمر بعملكم هذا .

الثالث : ذكر الجزاء هناك ، وقال هاهنا : ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ ؛ لأن الجزاء ينبىء عن الانقطاع فإن من أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئًا آخر .

فإن قيل : فالله تعالى قال في مواضع : ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [الواقعة : ٢٤] في الثواب .

نقول : في تلك المواضع لما لم يخاطب المجزي لم يقل نجزي ؛ وإنما أتى بما يفيد العلم بالدوام وعدم الانقطاع[١] اهـ .

قال البقاعي في نظم الدرر : ولا يبعد على الله في أن يصور لكل إنسان صورة عمله ، بحيث لا يشك أنها عمله ، ثم يجعل تلك الصورة عذابه الذي يجد فيه من الألم ما علم سبحانه أنه بمقدار استحقاقه[٢] اهـ .

والجزاء من جنس العمل .

[الآية السابعة والعشرون]

قال تعالى: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا﴾** [الأحزاب: ٧٢].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤ / ٥٧٠ - ٥٧١) .

(٢) نظم الدرر (٢٠ / ١٩٩ - ٢٠٠) .

قال القشيري : ويقال : لمّا حمل آدم الأمانة وأولاده ، قال تعالى : ﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ [الإسراء : ٧٠] .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان[(١)] ؟.

وقال أيضًا :

ويقال : لمّا حمل بنو آدم الأمانة ، حملناهم في البر ، فحملٌ هو جزاء حملٍ ، حملٌ هو فعل من لم يكن ، وحملٌ هو فضلُ مَنْ لم يزل[(٢)] .

[الآية الثامنة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** ﴾ [الروم : ١٠] .

قال ابن كثير : أي كانت السوءى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون[(٣)] .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

والمعنى : ثم عاقبة كل من أساءوا السوءى مثلهم ، فيكون تعريضًا بالتهديد لمشركي العرب كقوله تعالى : ﴿ **دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾ [محمد : ١٠] فالمراد بالذين أساءوا السوءى كل مسيء من جنس تلك الإساءة وهي الشرك ..

وقال : أي أن سبب عاقبتهم السوءى هو إساءتهم . وأصل الكلام : ثم كان عاقبتهم السوءى[(٤)] .

---

(١) لطائف الإشارات (٥ / ١٧٣) .

(٢) من لم يكن هو الإنسان ، ومن لم يزل هو الرب سبحانه ، لطائف الإشارات (٤ / ٣٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١٣) .

(٤) التحرير والتنوير (٢١ / ١٥) .

قال البقاعي :

﴿ **ثم كان** ﴾ أي : كونا تعذر الانفكاك عنه ، وهو في غاية الهول ﴿ **عاقبة** ﴾ أي : آخر أمر ﴿ **الذين أساءوا السوءى** ﴾ أي الحالة التي هي أسوأ ما يكون ، وهي خسارة الأنفس بالدمار في الدنيا ، والخلود في العذاب في الآخرة ، جزاءً لهم بجنس أعمالهم ، فإنهم كما أساءوا الرسل ساءهم الملك ؛ لأجل تكذيبهم الرسل ، مستهينين بآيات الله المنسوبة إلى الملك الأعلى ، الذي له الكمال كله ، الدالة على عظمها بعظمه ﴿ **وكانوا** ﴾ أي : كونا كأنه جبلة لهم ﴿ **يستهزئون** ﴾ بها مع كونها أبعد شيء عند الهزء ، ويستمرون على ذلك بتجديده مع كل حين حتى كان استهزاؤهم بغيرها كأنه عدم .

إنهم لما أساءوا زادتهم إساءتهم عماوة حتى ارتكسوا في العمى ، فوصلوا إلى التكذيب والاستهزاء ، الذي هو أقبح الحالات ، عكس ما يجازى به المؤمن مع أنه يزداد بإيمانه هدى[1] .

قال الفخر الرازي :

في هذه الآية لطائف :

إحداها : قال في حق الذين أحسنوا ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى** ﴾ [يونس : ٢٦] وقال في حق من أساء ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى** ﴾ إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر ؛ فإن الحسنى اسم للجنة ، والسوءى اسم للنار ، فإذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شيء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ؛ لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين .

وأما الذين أساءوا فالسوءى وهي جهنم في العاقبة مصيرهم إليها .

الثانية : ذكر الزيادة في حق المحسن ، ولم يذكر الزيادة في حق المسيء ؛

---

(١) نظم الدرر (١٥ / ٥٣ - ٥٤) .

لأن جزاء سيئة مثلها .

الثالثة : لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر في المسيء أن له السوءى بأنه كذب ؛ لأن الحسنى للمحسنين فضل ، والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ .

وأما السوءى للمسيء عدل ، والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلًا ، فذكر السبب في التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب في الثواب[1] .

[الآية التاسعة والعشرون]

قال تعالى : ﴿ **استكبار في الأرض ومكر السيىء ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلًا ولن تجد لسنت الله تحويلًا** ﴾ [فاطر : ٤٣] .

قال ابن كثير :

﴿ **استكبارًا في الأرض** ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله .

﴿ **ومكر السيىء** ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله .

﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾ ، أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم[2] .

قال ابن جرير : وقوله : ﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾ يقول : ولا ينزل المكر السيىء إلا بأهله ، يعني : بالذين يمكرونه ، وإنما عني أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم[3] .

قال القرطبي :

﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾ أي لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن

---

(١) مفاتيح الغيب (١٢ / ٤٤٣) .

(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٥٤٥ .

(٣) تفسير ابن جرير ١٠ / ١٤٦ .

أشرك ، وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر .

وعن ابن عباس أن كعبا قال له : إني أجد في التوراة : من حفر لأخيه حفرة وقع فيها . فقال ابن عباس : فإني أوجدك في القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال : فاقرأ : ﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾ وفي أمثال العرب : من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا ...

وقال بعض الحكماء :

يـا أيها الظـالم في فعلـه والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تحصي المصائب وتنسى النعم[1]

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

ولهذا قيل في المثل : وما ظالم إلا سيبلى بظالم .

وقال الشاعر :

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المِبْرد

ومن كلام عامة أهل تونس : يا حافر حفرة السّوْء ، ما تحفر إلا قياسك .

فيكون موقع قوله : ﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله - ﷺ - مكرهم ، ويحيق ضر مكرهم بهم .

وقال : والمعنى أنه لا تقع الكرامة في موقع العقاب ، ولا يترك عقاب الجاني ، وفي هذا المعنى قول الحكماء : ما بالطبع لا يتخلف ، ولا يختلف[2] .

قال سيد قطب :

﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾ .

فما يصيب مكرهم السيىء أحدًا إلا أنفسهم ، وهو يحيط بهم ويحيق

---

(١) تفسير القرطبي (٨ / ٥٥٤١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٢ / ٣٣٥) .

ويحبط أعمالهم ، وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظرون إذن ؟. إنهم لا ينتظرون إلا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم ، وهو معروف لهم ، وإلا أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا يحيد .

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلًا ولن تجد لسنة الله تحويلًا ﴾[١] .

[الآية الثلاثون]

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم .. ﴾ [المجادلة : ١١] .

قال ابن كثير : ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة » . وفي الحديث الآخر : « من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة »[٢] .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

﴿ يفسح الله لكم ﴾ وهو وعد بالجزاء على الامتثال لأمر التفسح من جنس الفعل ، إذ جعلت توسعة الله على المتمثل جزاءً على امتثاله الذي هو إفساحه لغيره[٣] .

قال الفخر الرازي :

أما قوله تعالى : ﴿ يفسح الله لكم ﴾ .

واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة[٤] .

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٤٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨ / ٣٨) .

(٤) مفاتيح الغيب (١٥ / ٤٥١) .

[الآية الحادية والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

قال ابن كثير : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ سر بديع ، وهو أنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم والفضل العميم(١) .

يقول ابن القيم في الرضا :

رضا العبد عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه .

فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق ، رضي ربه عنه بالقليل من العمل .

وقال :

إن الرضا عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضا الله عنه ، فإن الجزاء من جنس العمل .

وقال أيضًا :

إن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها ؛ لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه ، قال الله تعالى : ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ [التوبة : ٧٢] بعد قوله : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال(٢) اهـ .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢٩) .

(٢) مدارج السالكين (جـ٢ / ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٧) .

[الآية الثانية والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ [الحشر : ١٩] .

قال ابن كثير : أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل الصالح الذي ينفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **أولئك هم الفاسقون** ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم(١) .

قال محمد الطاهر عاشور :

وأشعر فاء السبب بأن إنساء الله إياهم أنفسهم مسبب على نسيانهم دين الله ؛ أي لمّا أعرضوا عن الهدى بكسبهم وإرادتهم ، عاقبهم الله بأن خلق فيهم نسيان أنفسهم(٢) .

قال القرطبي :

وقيل : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ، قاله سفيان(٣) .

قال ابن جرير : يقول تعالى جلّ ذكره : ولا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم ﴿ **فأنساهم أنفسهم** ﴾ يقول : فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات(٤) .

قال سيد قطب :

يحذرهم في الآية التالية من أن يكونوا ﴿**كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ . وهي حالة عجيبة .. ولكنها حقيقة .. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٤٢) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٨ / ١٣) .
(٣) القرطبي (٩ / ٦٥٢٢) .
(٤) تفسير ابن جرير (١١ / ٥٢) .

وفي هذا نسيان لإنسانيته ، وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى ، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادًا للحياة الطويلة الباقية ، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد(١) .

[الآية الثالثة والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **إنهم يكيدون كيدًا . وأكيد كيدًا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا** ﴾ [الطارق : ١٥ - ١٧] .

قال القاسمي :

﴿ **إنهم** ﴾ أي المكذبين به الجاحدين لحقه .

﴿ **يكيدون كيدًا** ﴾ أي يمكرون مكرًا ؛ لإبطال أمر الله ، وإطفاء نوره .

﴿ **وأكيد كيدًا** ﴾ قال ابن جرير : أي وأمكر مكرًا . ومكره جل ثناؤه بهم ، إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم(٢) .

قال سيد قطب : فهذا كيد ، وهذا كيد ، وهذه هي المعركة ، ذات طرف واحد في الحقيقة وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزء(٣) .

قال البقاعي : ﴿ **إنهم** ﴾ أي الكفار .

﴿ **يكيدون كيدا** ﴾ بما يعملون في أمره من الحيل ، في إبطاله ، وإطفاء نوره ، بإثباتك أو إخراجك أو قتلك أو تنفير الناس عنك ، والحال أنه لا قوة لهم أصلًا على ذلك ، ولا ناصر لهم بوجه من الوجوه ، وسمي جزاؤه لهم سبحانه كيدا : مشاكلة ؛ ولأنه خفي عنهم ومكروه إليهم فهو على صورة الكيد ، فقال : ﴿ **وأكيد** ﴾ أي : أنا بإتمام اقتداري كيدا باستدراجي لهم إلى توغلهم فيما يغضبني ؛ ليكمل ما يوجب أخذي لهم من حيث لا يشعرون(٤) .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٥٣١) .
(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٧ / ٦١٢٦) .
(٣) الظلال (٦ / ٣٨٨١) .
(٤) نظم الدرر (٢١ / ٣٨٤ -٣٨٥) .

[الآية الرابعة والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ [مريم : ٨١، ٨٢] .

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة ؛ لتكون لهم تلك الآلهة عزا ويعتزون بهم ، ويستنصرونهم .

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا ، فقال : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أي : يوم القيامة : ﴿ **ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ أي : بخلاف ما ظنوا فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [الأحقاف : ٥، ٦] .

وقال السدي : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أي : بعبادة الأوثان .

وقوله : ﴿ **ويكونون عليهم ضدا** ﴾ أي : بخلاف ما رجوا منهم[1] .

والجزاء من جنس العمل ، خذلوهم أحوج ما كانوا إليهم .

[الآية الخامسة والثلاثون]

قال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الإمام ابن القيم: قول الله تعالى ذكره: ﴿**وجعل على بصره غشاوة**﴾

الغشاوة هي الغطاء ، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب ؛ **فإن ما في القلب من الخير والشر يظهر على العين ، فالعين مرآة القلب ، تظهر ما فيه ، وأنت إذا أبغضت رجلًا بغضًا شديدًا أبغضت كلامه ومجالسته ، فتجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته ، فذلك أثر البغض والإعراض عنه .**

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٥٦ - ٢٥٧) .

وغلظت الغشاوة على الكفار ؛ عقوبة لهم عن إعراضهم ونفورهم عن الرسول ﷺ ، وعما جاء به من الهدى ومن الحق .

وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحتها كالغمامة ، ولما غشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك الغشي غشاوة على أعينهم ، فلا تبصر مواقع الهدى(١) اهـ .

[الآية السادسة والثلاثون]

قال تعالى: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾ [محمد: ١٧].

قال ابن كثير :

﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ أي : والذين قصدوا الهداية ، وفقهم الله لها ، فهداهم إليها ، وثبتهم عليها ، وزادهم منها ، ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾ أي ألهمهم رشدهم(٢) .

قال الألوسي :

قال الطيبي : ومن كان في الهداية منهما ، يزيد الله تعالى هدايته ، فيجمع سبحانه له خير الدارين ، وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم(٣) .

قال سيد قطب :

فالذين اهتدوا بدءوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿ **وآتاهم تقواهم** ﴾(٤) .

قال ابن القيم :

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء ، فيهتدي بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى ، يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده كما أن من عقوبة الضلالة ، الضلالة بعدها ، قال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا**

---

(١) شفاء العليل ص ٩١ .

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٢٧٠) .

(٣) روح المعاني (١٦ / ١٢٨) .

(٤) الظلال (٦ / ٣٢٩٤) .

زادهم هدى ﴾ فهداهم أولًا فاهتدوا ، فزادهم هدى ثانيًا ، وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم[١] .

وقال ابن القيم : وللهداية مرتبة أخرى – وهي آخر مراتبها – وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة ، وهو الصراط الموصل إليها . فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم ، الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم ، الموصل إلى جنته ودار ثوابه ، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم . وعلى قدر سيره على هذا الصراط ، يكون سيره على ذاك الصراط ، فمنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالطّرف ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الركاب ، ومنهم من يسعى سعيًا ، ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبو حبوا ، ومنهم المخدوش المسلَّم ، ومنهم المكردس في النار[٢] .

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا ، حذو القذة بالقذة ، جزاء وفاقا ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [النمل : ٩٠] .

[الآية السابعة والثلاثون]

قال تعالى : ﴿ من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧] .

قال ابن كثير : هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا ، وهو العمل المتابع لكتاب الله وسنة نبيه ، من ذكر أو أنثى من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ، بأن يحييه حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣١٣) . (٢) السابق (١ / ١٠) .

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت ، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعنه أنها السعادة .

وقال الضحاك : هي العمل بالطاعة ، والانشراح بها .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة ؛ يعطى بها في الدنيا ، ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنة يعطى بها خيرًا » . انفرد بإخراجه مسلم[1] .

وقال ابن كثير :

من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة[2] .

[الآية الثامنة والثلاثون]

وقال تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ [النحل : ٣٢] .

طيبة نفوسهم بلقاء الله معافين من الكرب وعذاب الموت ، يقولون سلام عليكم طمأنة لقلوبهم ، وترحيبا بقدومهم ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ تعجيلًا لهم بالبشرى ، وهم على أعتاب الآخرة جزاء وفاقا على ما كانوا يعملون[3] .

قال ابن كثير : أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ؛ أي مخلَّصون من الشرك والدنس وكل سوء[4] .

وقال الفخر الرازي :

﴿ **طيبين** ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة ، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أُمروا ، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ، ويدخل فيه كونهم مبرئين

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٢٠-٥٢١) .
(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٨٧) .
(٣) الظلال (٤ / ٢١٦٩) .
(٤) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٨٧) .

من العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح ، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة ، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها .

وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح ، وأنه الحشر يقول : إنه وفاة الحشر(١) .

وقال الألوسي: قال مجاهد: المراد- بطيبين- زاكية أقوالهم وأفعالهم.

وقال الراغب : الطيب من الإنسان من تعرّى عن نجاسة الجهل والفسق ، وقبائح الأعمال ، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال(٢) .

[الآية التاسعة والثلاثون]

وقال تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ [الزمر : ٧٣].

قال ابن كثير :

طابت أعمالكم وأقوالكم ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم(٣) .

وقال سيد قطب : فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب ، وبيان السبب طبتم وتطهرتم ، كنتم طيبين ، وجئتم طيبين ، فما يكون فيها إلا الطيب . وما يدخلها إلا الطيبون ، وهو الخلود في ذلك النعيم(٤) .

[الآية الأربعون]

قال تعالى : ﴿ ويدخلهم الجنة عرّفها لهم ﴾ [محمد : ٦] .

على أحد قولي علماء التفسير قال ابن عباس : عرّفها ؛ أي طيبها ؛ أي جعل فيها عرفًا ؛ أي ريحًا طيبًا ، والتطييب من تمام حسن الضيافة(٥) .

---

(١) مفاتيح الغيب (٥١٨/٩) .
(٢) روح المعاني للألوسي (١٣٣/١٤) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤ / ٦٨) .
(٤) الظلال (٥ / ٣٠٦٣) .
(٥) التحرير والتنوير (٢٦ / ٨٤) .

﴿ **فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي** ﴾ [الفجر : ٢٩ ، ٣٠] .

كحالة من يهدي العروس إلى بيتها ، فإذا أبلغها بابه خلّى بينه وبين بيتها ، كأنهم يقولون : هذا منزلكم فدونكموه .

طابت وزكت منهم الأعمال ، والأخلاق والأحوال ، فكانوا في دار الدنيا طيبين ، وخدموا الطيب عز وجل ، وأنهكوا الأبدان ، طاعة للجميل الرحمن ، فطاب نزعهم وموتهم ، فروح وريحان ، وجنة نعيم ، تخرج منهم رائحة كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض .

وطاب حشرهم ونشرهم ، وطاب زفهم إلى ديارهم ، وفدا وركبانا ، بل تقرب إليهم الجنة ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ [ق : ٣١] .

وطاب دخولهم الجنة ، لايدخلونها إلا وعلى رؤوسهم التيجان ، تحفهم الملائكة ، وطُيبت الجنة لهم ، طاب مأواهم لما طاب عملهم ومسعاهم .

والجزاء من جنس العمل .

إن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر :

أحدها : أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله ، وعرف أن ربه محسن كريم كان راضيا بكل ما قضاه وقدّره ، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبدا في الحزن والشقاء .

ثانيها : أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله ، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا .

ثالثها : أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة ، فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمّه بفقدانها ، أما الجاهل فإنه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها ، فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمّه بفقدانها .

رابعها : أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا سريعة التَّقلب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره إليه ، بخلاف الجاهل ، فإنه يكون غافلًا عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ، ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه ، فعند فوته وزواله

يحترق قلبه ، ويعظم البلاء عنده ، هذا إذا فسرنا الحياة الطيبة بأنها في الدنيا .

قال السدي : إن هذه الحياة الطيبة ، إنما تحصل في القبر .

وقال الحسن وسعيد بن جبير : إن الحياة الطيبة لا تحصل إلا في الآخرة في الجنة ؛ لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا مرض ، وملك بلا زوال ، وسعادة بلا شقاء[1] اهـ .

والأولى أنها في كل أحواله وأوقاته .

قال ابن القيم : قد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته ، فقال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ الآية ، وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا ، والرزق الحسن وغير ذلك ، والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه ؛ فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها ، ولا نعيم فوق نعيمه ، إلا نعيم الجنة ، كما كان بعض العارفين يقول : إنه لتمر بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال غيره : إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وقال غيره : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف .

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث ، والمعيشة الضنك تكون أيضًا في الدور الثلاث : دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ، فالأبرار في النعيم هنا وهناك والفجار في الجحيم هنا وهناك ، قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير** ﴾ [النحل : ٣٠] .

[الآية الحادية والأربعون]

وقال تعالى : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا**

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٩ / ٦٣١ - ٦٣٢) .

إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ [هود : ٣] . فذكر الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة .

وأطيب الحياة على الإطلاق حياة هذا العبد فإنه محب محبوب ، متقرب إلى ربه ، وربه قريب منه إن سمع سمع بحبيبه ، وإن أبصر أبصر به ، فإن صعب عليك فهم هذي المعاني :

خل الهوى لأناس يعرفون به قد كابدوا الحبّ حتى لان أصعبُهم

وأعلى أنواع التقرب ، تقرب العبد بجملته بظاهره وباطنه وبوجوده إلى حبيبه ، فمن فعل ذلك قد تقرب بكله ، قد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جُوزي على ذلك بقرب هو أضعافه ، وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطي أضعاف أضعاف ما تقرب به ، فما الظن بمن أعطى حال التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته وهمته وأقواله وأعماله ؟. وعلى هذا فكما جاء لحبيبه بنفسه ، فإنه أهل أن يجاد عليه ، بأن يكون ربه هو حظه ونصيبه عوضًا عن كل شيء ، جزاءً وفاقًا فإن الجزاء من جنس العمل ، وشواهد هذا كثيرة ، فهذه الحياة هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة ، فمن فقدها ، ففقده لحياته أولى به ، هذي حياة الفتى ، فإن فقدت ففقده للحياة أليق به .

ووراء هاتيكَ الستورِ محجَّبٌ بالحسنِ كل العزِّ تحت لوائِهِ
لو أبصرتْ عيناك بعضَ جماله لبذلت منك الروحَ في إرضائِهِ
ما طابتِ الدنيا بغير حديثه كلا ولا الأخرى بدون لِقائِهِ
يا خاسرًا ، هانت عليه نفسه إذ باعها بالغبن من أعدائِهِ
لو كنت تعلم قدر ما قد بعته لفسختَ ذاك البيعَ قبل وفائِهِ
أو كنت كفوًا للرشاد وللهدى أبصرت لكن لست من أكفائِهِ[١]

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٥٨ - ٢٩٠)

جزاء النبيين والمرسلين



جزاء النبيين والمرسلين

سيد ولد آدم رسول الله ﷺ

إن القلم ليعجز في هذا المقام ، وإن قميصًا نسج من ثمانية وعشرين حرفًا عن وصفه يقصر .

وعلى تفنن مادحيه بمدحهِ يفنى الزمانُ وفيه ما لم يُوصَفِ

تسلّينا عنه بالحلم فجهلنا قدره .

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلقِ الله كلِّهِمِ

وهل يستطيع قلم أن يعدد جزاء رسولنا ﷺ على عملة وجنس عمله ؟! فاللهم عذرًا .

إن النبي ﷺ إمام الزاهدين ، عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردّها ، وقال : « بل أشبع يومًا ، وأجوع يومًا »[1] .

وراودته الجبالُ الشمُّ من ذهبٍ عن نفسه فأراها أيما شَمَمِ

وروى الإمام أحمد عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : دخلت عليّ امرأة من الأنصار ، فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنيَّة ، فرجعت إلى منزلها ، فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف ، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا ؟ ». فقلت : فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك ، فبعثت إليَّ بهذا ، فقال : « ردّيه » . فلم أردَّه ، وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : « يا عائشة ، ردّيه ، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذَّهب والفضة » . فرددته[2] .

وقال ﷺ : «لو أن لي مثل أحد ذهبا ما سرّني أن تأتي عليَّ ثلاث ليال

---

(١) رواه مسلم وأبو داود . (٢) صحيح : رواه أبو داود .

وعندي منه شيء ، إلا شيء أرصده لدين »[١] .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : تُوفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي ، بثلاثين صاعًا من شعير[٢] .

ونبي الله ﷺ ما أكل على خوان قط ، وما رأى شاة سميطًا قط ، وما رأى منخلا منذ أن بعثه الله إلى يوم قبض . ما أخذ من الدنيا شيئًا ، ولا أخذت منه شيئًا .

وصدق ﷺ إذ يقول : « ما لي وللدنيا ، إنما أنا كراكب استظل بظلّ شجرة ، ثم راح وتركها » .

وروى ابن كثير من حديث أبي مويهبة - مولى رسول الله ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا مويهبة ، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فَخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة » . قال : فقلت : بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال : « لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربي والجنة »[٣] .

وقال ﷺ في مرضه : « يأيها الناس ، إن عبدًا من عباد الله قد خيّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله » . ففهمها أبو بكر - رضي الله عنه - مِنْ بين الناس فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا[٤] .

فماذا كان جزاؤه ؟ وهل هو من جنس عمله ؟

قال ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول : ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلي عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ،

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .
(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي .
(٣) البداية والنهاية (٥ / ١٩٧) .
(٤) البداية والنهاية (٥ / ٢٠١) .

فمنْ سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة »[١] .

وقال ﷺ : « الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة » .

لما كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا كان جزاؤه أن يكون أول قارع للجنة ، وأعلى الناس فيها منزلة .

قال ﷺ : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ . فأقول : محمد ، فيقول : بك أُمرت ألا أفتح لأحد قبلك »[٢] .

وقال ﷺ : « أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأُقعقعها »[٣] .

وقال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذٍ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي ، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّع ولا فخر »[٤] .

فجزاؤه من جنس عمله .

احفظ الله يحفظك :

كذّبه قومه فسلّمت عليه الأشجار والحجارة والجمادات بالنبوة .

قال ﷺ : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم عليّ قبل أن أبعث »[٥].

لما كذّبه الكذابون كان أكثر الأنبياء تصديقًا من الصادقين .

---

(١) رواه مسلم وأحمد في مسنده وأبو داود والنسائي والترمذي .

(٢) رواه مسلم وأحمد في مسنده عن أنس .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده والترمذي عن أنس .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد ، وورواه ابن حبان عن عبد الله بن سلام .

(٥) رواه مسلم وأحمد والترمذي عن جابر بن سمرة .

قال ﷺ : « أنا أول شفيع في الجنة ، لم يُصدق نبي من الأنبياء ما صُدِّقت ، وإن من الأنبياء نبيًّا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد »[1] .

ادّعوا خيانته ، وأنه يأتي بالقرآن مِنْ قبل نفسهِ ، فأتى خبر السماء ﴿ **وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

وقال ﷺ : « أما والله ، إني لأمين في السماء ، وأمين في الأرض »[2] .

لمّا قالوا : إن له رئيًّا من الجنّ ، يأتي إليه بالقرآن ، فقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا : وإياك ؟ قال : « وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »[3] .

وقال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا ومعه شيطان » . قالوا : وأنت يا رسول الله ؟. قال : « وأنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم »[4] .

وانظر أخي ، كيف يكون الجزاء العاجل في الدنيا لأطهر قدمين وطىء بهما ثرى الأرض ؟؟ وكيف نالهما الأذى في ذهابه ﷺ إلى الطائف ؟؟.

فيما رواه الإمام ابن كثير عن موسى بن عقبة :

وقعد أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مرّ جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه ، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء ، فعمد إلى ظل نخلة وهو مكروب ، وفي ذلك الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة . فماذا يكون الجزاء ؟.

سلوا عدّاسا عن أطهر قدم دميت في سبيل الله ، والكل يعلم ما جرى

---

(١) رواه مسلم عن أنس .

(٢) رواه مسلم وأحمد في مسنده عن ابن مسعود .

(٣) رواه مسلم عن عائشة .

(٤) رواه مسلم عن عائشة .

بين عدّاس مولى ابن ربيعة وبين النبي ﷺ ، فقد [أكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه . قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمّا غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء عداس قالا له : ويلك يا عدّاس ، مَالَكَ تُقَبِّلُ رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟.][١] إنه ما يفعل هذا بسيده أبدا . فهذه القدم التي أصابها ما أصابها ، وسالت منها الدماء تُقَبل ، والجزاء من جنس العمل .

عذابه فيك عـذبُ — وبعده فيك قـربُ
وأنت عندي كروحي — بل أنت منها أُحَبُّ
حسبي من الحب أني — لما تـحب أحبُّ

وفي السنة السادسة من الهجرة رجع رسول الله ﷺ من الحديبية ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ؛ ليقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة منهم عمر رضي الله عنه .

يقول ابن كثير :

لما كان أطوع خلق الله لله ، وأكثرهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » . ثم قال : « والذي نفسي بيده ، لا يسألوني اليوم شيئًا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها » . فلما أطاع الله في ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله له : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك** ... ﴾ [الفتح : ١ ، ٢] . أي في الدنيا والآخرة ﴿ ... **ويهديك صراطًا مستقيمًا** ﴾ [الفتح : ٢] ، ﴿ **وينصرك الله نصرًا عزيزًا** ﴾ [الفتح : ٣] بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله

---

(١) البداية والنهاية (٣ / ١٣٤) .

وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح : « وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » . فرسولنا ﷺ لما منعوه من دخول مكة وحبسوه عنها ، وأجابهم للصلح تعظيمًا لحرمات الله ، سمى الله هذا الصلح فتحًا ؛ مع أن الفتح يكثر إطلاقه على النصر المقترن بدخول أرض المغلوب ، ولم يطلق على انتصار كانت نهايته غنيمة وأسر دون اقتحام أرض ، فيقال : فتح خيبر ، وفتح مكة . ولا يقال : فتح بدر ، وفتح أحد .

قالوا عنه : **إنه الأبتر** : **ولنا هنا معهم وقفة** :

قال تعالى : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ١ -٣] .

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة ؟ . فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[1].

والكوثر : صيغة من الكثرة ، وهو مطلق غير محدود ، يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه السفهاء ﴿ **إنا أعطيناك** ﴾ ما هو كثير فائض غزير ، غير ممنوع ولا مبتور ، فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه ، فهو واجده حيث نظر أو تصور .

هو واجده في النبوة ، في هذا الاتصال بالحق الكبير ، وماذا فقد من وجد الله ؟.

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه ، وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته ، وينبوع ثرٌّ لا نهاية لفيضه وغزارته .

---

(١) البخاري تفسير سورة الكوثر ، وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضًا .

وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه ، ويصلي على من يصلي عليه في الأرض ، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء .

وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون في أرجاء الأرض ، وفي الملايين بعد الملايين على أثره ، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه ، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة .

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه ؛ سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به ، ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض .

وهو واجده في مظاهر شتى ، محاولة إحصائها ضرب من تقليلها وتصغيرها .

إنه الكوثر الذي لا نهاية لفيضه ، ولا إحصاء لعوارفه ، ولا حد لمدلوله ، ومن ثم تركه النص بلا تحديد يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد .

ونهر رسول الله ﷺ هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول ، فهو كوثر من الكوثر ، وهذا هو الأنسب في هذا السياق وفي هذه الملابسات[1] .

فانظر يا أخي ، كيف جازى الله نبيه بنقيض ما وسمه به الكافرون .

وانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قال تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ [الكوثر : ٣] .

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر ، بل هو صاحب الكثير ، وفي هذه الآية يرد على كائديه ويؤكد سبحانه أن الأبتر ليس هو محمد ﷺ . إنما هم شانئوه وكارهوه .

قال تعالى لنبيه : ﴿ وإن لك لأجرًا غير ممنون ﴾ [القلم : ٣] أي غير

---

(١) الظلال (٦/ ٣٩٨٧ - ٣٩٨٨) .

مقطوع عنهم .

قال ابن كثير :

إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ، ولا يبيد ؛ على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم .

قال سيد قطب :

إن مبغضك يا محمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأزل المنقطع ذكره .

قال ابن عباس ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة : نزلت في العاص بن وائل . كان العاص إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك ، انقطع ذكره ، فأنزل الله هذه السورة .

وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي مُعَيط .

وقال ابن عباس أيضًا وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش .

روى البزار بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبَر[1] المنبتر عن قومه ؟. يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ وهذا يعم جميع من اتصف بذلك .

وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذِكْره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرًّا على دوام

---

(١) نبت في جذع النخلة ، إذا قلع انقطع ؛ وكذا محمد إذا مات فلا عقب له .

الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد[١].

يقول الشيخ سيد قطب معلقًا على كيد الكافرين لرسول الله ﷺ ، ووسمه بأنه الأبتر :

كان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقعًا ، وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله - ﷺ - وشانئيه ، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ، ومسّته بالغم أيضًا .

ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى ، وتقرر حقيقة الخير والباقي الممتد الذي اختاره له ربه ، وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

ولقد صدق فيهم وعيد الله ، فقد انقطع ذكرهم وانطوى ، بينما امتد ذكر محمد ﷺ وعلا ، ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم ، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون .

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر ، فهو ممتد الفروع ، عميق الجذور ، وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر ، مهما ترعرع وزها وتجبر .

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر ، ولكن البشر ينخدعون ويغترون ، فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور ، وأمامنا هذا المثل الخالد ، فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة ، وينالون بها من قلوب الجماهير ، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد ، وقطعوا عليه الطريق ؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥٢٤ -٥٢٥) .

أين هم ؟ وأين ذكراهم ؟ وأين آثارهم ؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء ، ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه الأبتر[١]؟! .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ [الشرح : ٤].

قال مجاهد : لا أذكر ، إلا ذكرت معي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها ..

ورفعناه في الملأ الأعلى ، ورفعناه في الأرض ، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا .

رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله ، كأنما تحركت به الشفاه : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة ، وهو المقام الذي تفرد به ﷺ دون سائر العالمين .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ في اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والحب العميق العظيم .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع . وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر ، لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود[٢] .

قال حسان :

ضمَّ الإله اسمَ النبي إلى اسمه إذ قال في الخمسِ المؤذنُ أشهدُ

---

(١) الظلال (٦ / ٣٩٨٩) .

(٢) الظلال (٦ / ٣٩٣٠) .

وشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وقال الشاعر :

ألم تر أنّا لا يصح أذاننا ولا فرضنا إن لم نكرره فيهما

○ نوح عليه السلام ○

قال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ [الصافات : ٧٨ - ٨٠] .

قال جماعة من المفسرين ، منهم مجاهد وغيره : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾ الثناء الحسن ، ولسان الصدق للأنبياء كلهم . وهذا قول قتادة أيضًا ..

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : أبقى الله عليه ثناءً حسنًا .

قال ابن القيم : معلوم أن هذا السلام فيهم هو سلام العالمين عليه ، كلهم يسلم عليه ، ويثني عليه ، ويدعو له .

وأما سلام الله عليه فليس مقيدًا بهم ، فالله سبحانه وتعالى أبقى على أنبيائه ورسله سلامًا وثناءً حسنًا فيمن تأخر بعدهم ، جزاءً على صبرهم وتبليغهم رسالات ربهم ، واحتمالهم للأذى من أممهم في الله . وأخبر ان هذا المتروك على نوح هو عامٌّ في العالمين ، وأن هذه التحية ثابتة فيهم جميعًا ، لا يخلون منها ، فأدامها عليه في الملائكة والثقلين طبقًا بعد طبق ، وعالمًا بعد عالم ، مجازاةً لنوح عليه السلام بصبره ، وقيامه بحق ربه ، وبأنه أول رسول أرسله إلى أهل الأرض . وكل المرسلين بعده بُعثوا بدينه ، كما قال تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ...** ﴾[1] [الشورى : ١٣] الآية . كذبه المشركون وسخروا منه ، وهو

---

(١) التفسير القيم جمع محمد أويس الندوي ص ٤١٢ - ٤١٦ ، مكتبة السنة المحمدية .

يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فكان هذا الجزاء مقابلًا لسخرية هؤلاء . شتم وسخرية واستهزاء تقابل بثناء وسلام ومدح ودعاء .

○ خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ○

قال ابن عباس : ما قام أحد بدين الله كله إلا إبراهيم عليه السلام قدّم بدنه للنيران ، وطعامه للضِّيفان ، وولده للقُربان .

قال الله تعالى : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٨ -٦٩] .

احفظ الله يحفظك :

﴿ **قالوا حرقوه** ... ﴾ ولكن كلمة أخرى قد قيلت فأبطلت كل قول ، وأحبطت كل كيد ؛ ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد .. ﴿ **كوني** ﴾ هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] [يس : ٨٢] .

سبحان من أخرج هذا السيد من آزر ، ثم أعانه بالتوفيق وآزر ، ثم بعث إليه البيان فأعان وَوَازر ، فلما رأيناه قد رحل عن المنجنيق وسافر ، ولم يتزود إلا التسليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

عبد بذل نفسه لنا ، فبلَّغناه منا المُنَى ، وعرَّفناه المناسك عند البيت ومِنى ، ولما رمي في النار لأجلنا ، قلنا لها بلسان التفهيم : ﴿ **كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

قدَّم ماله إلى الضِّيفان ، وسلَّم ولده إلى القربان ، واستسلم للرمي في النِّيران ، فلما رأينا محبًّا في بيداء الوجد يهيم ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على**

---

(١) الظلال (٤ / ٢٣٨٧) .

إبراهيم ﴾ .

ابتليناه بكلماتٍ فأتمهنّ ، وأريناه قدرتنا يوم ﴿**فَصُرْهُنَّ** ...﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، وكسّر الأصنام غيرة لنا منهنَّ ، فلما أُججَتِ النَّار ذهبت بلطفنا حرارتُهنَّ ، وغرسنا شجر الجنة في سواء الجحيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

بنوا له بُنيانا إلى سفح جبل ، واحتطب من أجله من شرب وأكل ، وألقوه فيها ، وقالوا : قد اشتعل ، فخرج نمروذُ ينظر ماذا فعل ، وقد خرج توقيع القِدَمِ مِن العليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

اعترضه وتعرّض لحوائجه المَلَك ، حين قطع بيداء الهوى وسلك ، فقال له بلسان الحال : مَعِي مَنْ مَلَك ، إياك والتعريض بما ليس لك ، فلمّا لم يتعلَّق بخلْقٍ دوني إذْ أُضيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

تعرضت له الأملاك فكّفها كفًّا ، فلما رأيناه لا يمدُّ إلى غيرنا كفًّا ، مدحناه ويكفي في مدحنا له ﴿ **الذي وفّى** ﴾ [النجم : ٣٧] ، واجتمع الخلائق صفًّا ، ينظرون من صفًّى ، فلما أتانا بقلب سليم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

تنحَّ يا جبريل فماذا موضعُ زحمة ، وخلِّني وخليلي فإليه الرحمة ، وهل بذلتُ له إلا لحَمْةً تَبْلَى أو شَحْمة ، فلمّا وطّن نفسه على أن يصير فحمة ، وحُوشي من ذاك الكريم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ .

كانت الأملاك تدّعي الفناء بالطاعة ، فخرج هاروت وماروت فخسرت البضاعة ، وشاهدوا يوم الخليل ما ليس لهم به استطاعة ، رأى ما رأى وما أزعجه ولا راعه ، رأيناه ساكنًا والأملاك في مُقعد مقيم ، ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾[1] .

---

(١) التبصرة (١ / ١١٦ - ١١٨) .

جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا ، إذ لمّا كان سليمَ القلب من الأغيار ، وجد سلامة النفس من البلايا والأعلال ، ومن كان مشغولًا بالله لم يتول الانتقام له إلا الله .

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « أول من يكسى من الخلائق إبراهيم »[1] .

قال ابن حجر :

يقال : إن الحكمة في خصوصية إبراهيم بذلك ، لكونه ألقي في النار عريانا ، وقيل : لأنه أول من لبس السراويل[2] .

قال المناوي :

أول من يكسى يوم القيامة من الخلائق على اختلاف أنواعها وطبقاتها ، وتباين أممها ولغاتها ، بعد ما يحشر الناس كلهم عراة أو الغالب ، أو بعد خروجهم من قبورهم بثيابهم التي ماتوا فيها ، ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر ، فيحشرون عراة ، ثم يكون أول من يكسى من ثياب الجنة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه جرّد في ذات الله حين ألقي في النار ، ولأنه لم يكن أخوف لله منه فتعجّل كسوته؛ إيناسًا لَهُ ليطمئن قلبه ، أو لأنه أول من استنّ السراويل؛ مبالغة في الستر وحفظًا لفرجه ، فلما اتخذ هذا النوع الذي هو أستر للعورة من جميع الملابس جوزي بأنه أول مَنْ يكسى ، ثم يكسى المصطفى ﷺ حلة أعظم من كسوة إبراهيم عليه السلام ؛ لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة .

وجزاء إبراهيم عليه السلام من جنس عمله .

قال علي – رضي الله عنه – : أول مَنْ يكسى إبراهيم قبطيتين ، ثم

---

(١) صحيح : رواه البزار وابن عساكر عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٥٨١ و السلسلة الصحيحة رقم ١١٢٩ .

(٢) فتح الباري (٦ / ٤٤٩) .

يكسى النبي ﷺ [حلة] حبرة وهو عن يمين العرش[1] .

ويقول الله تعالى عن إبراهيم : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ [الصافات : ٨٤].

سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير .. صورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة والإخلاص .. فقال الله تعالى : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم** ﴾ [الصافات : ٧٨] سلام على إبراهيم من ربه .. سلام يسجل في كتابه الباقي .. ويرقم في طوايا الوجود الكبير .

يقول الله تعالى عن خليله : ﴿ **وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين** ﴾ [الصافات : ٩٩] .

ويقول الله تعالى عن إبراهيم : ﴿ **ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين** ﴾ [الأنبياء : ٧١ - ٧٢] .

[إنها الهجرة .. وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية ، هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته .. يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه ، وكل ما يربطه بهذه الأرض ، وبهؤلاء الناس . ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل ، ويهاجر إلى ربه متخففًا من كل شيء ، طارحا وراءه كل شيء ، مسلمًا نفسه لربه لا يستبقي منها شيئًا ، موقن أن ربه سيهديه وسيرعى خطاه .

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومِنْ أواصر شتّى إلى آصرة واحدة ، لا يزحمها في النفس شيء - إنه التعبير عن التجرد

---

(١) صحيح الإسناد موقوف على علي : أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والبيهقي في الأسماء وأخرجه أحمد ، والذهبي في العلو وصححه ، وصححه الألباني في مختصر العلو ص ١٢٥ ، وهناك حديثان مرفوعان يشهدان للحديث الموقوف ، ويدلان على أنه في حكم المرفوع والله أعلم . وقال الألباني أيضًا : وله عند الحاكم شاهد آخر عن عبد الله بن سلام وصححه .

والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين .

وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى هذه اللحظة وحيدا لا عقب له ، وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى .. وكل ما يشده إلى الأرض التي نشأ فيها][١] .

[لقد ترك إبراهيم عليه السلام وطنًا وأهلًا وقومًا ، فعوّضه الله الأرض المباركة وطنًا خيرًا من وطنه ، وعوّضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلًا خيرًا من أهله ، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قومًا خيرًا من قومه ، فنعم العوض ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لإبراهيم .

لقد ابتلاه بالضَّراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل][٢] .

لما آيس من أصله ، آنسه الله بما أكرمه من نسله .

وانظر يا أخي ، كيف كان جزاء الخليل عليه الصلاة والسلام ، من جنس عمله ، لمّا هان عليه ولده وذَبْح ولده ، وهو الشيخ الكبير الطاعن في السن ، وعزم على ذلك واستعد ، وقال لابنه : ﴿ **إني أرى في المنام أني أذبحك ...** ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فلما وفّى لله وفّى الله له وقال الله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ [الصافات : ١٠٧] كما قرت عينك بنا سنقر عينك بولدك جزاءً وفاقًا .

من اختار الله على من سواه اختاره الله على من سواه ، تتعلق شعبة من قلب إبراهيم بحب ابنه البكر ، والله غيور أراد أن يطرد المزاحم من قلب خليله ، فلما تحقق المقصود ، وهمّ بالذبح عوضه الله بذبح عظيم .

هان عليه ولده[٣] في الله فقال الله تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب**

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٩٤) .

(٢) الظلال (٤ / ٢٣٨٨) .

(٣) الذبيح هو : إسماعيل عليه السلام .

كُلًّا هدينا ﴾ [الأنعام : ٨٤] وقال الله تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحٰق يعقوب** ﴾ [هود : ٧١] .

قال ابن كثير :

بشروه مع وجوده(١) بنبوته وبأن له نسلًا وعقبًا ، ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد ؛ لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب - لضعفه - وقعت البشارة به وبولده ، باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوّضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه ، تقر بهم عينه كما قال : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكُلًّا جعلنا نبيًّا** ﴾ [مريم : ٤٩] وقال هاهنا : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب كُلًّا هدينا** ﴾(٢) [الأنعام : ٨٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ **والبيت المعمور** ﴾ [الطور : ٤] .

قال ابن كثير :

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء ، بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم » . يعني يتعبدون فيه ويطوفون به ، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم . كذلك ذاك البيت ، هو كعبة أهل السماء السابعة . ولهذا وجد إبراهيم الخليل - عليه السلام - مسندًا ظهره إلى البيت المعمور ؛ لأنه باني الكعبة الأرضيّة ، والجزاء من جنس العمل ، وهو

---

(١) الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٩٠ - ٢٩١) .

بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ، ويصلون إليه ، والذي في السماء الدنيا يقال له : بيت العزة ، والله أعلم[1] .

○ إسماعيل عليه الصلاة والسلام ○

قال الله تعالى : ﴿ **قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ [الصافات : ١٠٢].

يتلقى إسماعيل عليه السلام الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب ، ولكن في رضًا كذلك ، وفي يقين !!. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده ، بل لا يفقده أدبه ومودته ، لبَّى بغير لجلجة وبغير تمحل وارتياب.... نبل طاعة وعظمة تسليم ... الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية . لا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه ، لا تستبقي لنفسها في نفسها شيئًا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه ، إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم !

لم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه ، وهذا أمر لا يعني شيئًا في ميزان الله ، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما .

لما جاء إسماعيل بأعز شيء تلبية لأمر الله فناب ذبح عن ذبح ، يفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت يفديها بذبح عظيم، يليق بعظمة إسماعيل ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٤٠٤) .

○ يوسف عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

قال ابن كثير :

ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ [يونس : ٢٦] اهـ[١] .

قال الطبري :

هل ثواب خوف مقام الله عز وجل لمن خافه ؛ فأحسن في الدنيا عمله وأطاع ربه إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربه ؛ بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف .

قال قتادة : عملوا خيرًا فجوزوا خيرًا .

وقال ابن زيد : حين أحسنوا في هذه الدنيا أحسنا إليهم ، أدخلناهم الجنة .

قال ابن المنكدر : هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا الجنة .

وقال محمد بن الحنفية ، هي مسجلة للبر والفاجر[٢] .

قال الزمخشري :

مسجلة للبرّ والفاجر ؛ أي مرسلة يعني أن كل من أحسن أحسن إليه ، وكل من أساء أسيء إليه . اهـ[٣] .

وقال الألوسي :

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٨٠) .

(٢) تفسير الطبري (١١ / ٨٩) .

(٣) الكشاف (٤ / ٥٤) .

ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب[١] .

قال القرطبي :

قال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد[٢] .

قال تعالى : ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغَلَّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنَّا لنراها في ضلال مبين** ﴾ [يوسف : ٣٠] .

إن من يهتك الستر الذي بينه وبين الله يهتك الله الستر الذي بينه وبين الناس . قد بلغت السرية كمالها عند إغلاق الأبواب ، والتي كانت سبعة أبواب ، حيث الإرادة أن يتم المنكر معها وحدها ، لكنَّ إرادة الله شاءت أن يطلع على ذلك الشهود وزوجها ونساء المدينة بصورة علنية وعامَّة .

وقال تعالى : ﴿ **قالت فذٰلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننَّ وليكونا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ [يوسف : ٣٢ -٣٤] .

ويقول الله تعالى : ﴿ **ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** ﴾ [يوسف : ٣٥] .

يقول ابن كثير :

ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى مدة ، وذلك بعدما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات على صدقه في عفته ونزاهته . فكأنهم - والله

---

(١) روح المعاني (١٢٠/٢٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٦٣٥٣/١٠) .

أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أن هذا راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك ، ولهذا لمّا طلبه الملك الكبير في آخر المدة ، امتنع من الخروج حتى تتبيّن براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقيّ العرض .

قال تعالى : ﴿ **فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بالِ النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم** ﴾ [يوسف : ٥٠] .

قد وردت السنة بمدح يوسف عليه السلام على ذلك ، والتنبيه على فضله وشرفه ، وعلوّ قدره وصبره .

ففي المسند والصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ **رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ : « عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه ، والله يغفر له ، حيث أرسل إليه ليُستفتى في الرؤيا ، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت لصبره وكرمه ، والله يغفر له ، أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله عز وجل »(١) .

صَبَر يوسف ، والمرأة التي اتهمته بالمراودة هي التي تعلن أمام الجميع : ﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ [يوسف : ٥١] شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه ، لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي ويلحق بأردانها .

لقد تبينت للملك براءة يوسف ، كذلك تبينت له كرامته ، وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك ، وأي ملك ؟

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير وابن مردويه عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٧٩ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ١١٤١ .

ملك مصر . ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته ، المسجون ظلمًا ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله ، قبل أن يطلب الحظوة عند الملك ، كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام يوسف عليه السلام وحبه ، فقال : ﴿ **ائتوني به أستخلصه لنفسي** ﴾ [يوسف : ٥٤] .

فيا ليت رجالًا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام ، وهم أبرياء مطلقو السراح – فيضعون النِّير في أعناقهم بأيديهم ، ويتهافتون على حظوة الأتباع لا مكان الأصفياء ، فياليت رجالًا من هؤلاء يقرءون القرآن ؛ ليعرفوا أن الكرامة والإباء تُدِرُّ من الربح – حتى المادي – أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء .

وفي الصحيح في مسند أحمد عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم »[(١)] .

قال المناوي :

وأي كريم أكرم ممن حاز مع كونه ابن ثلاثة أنبياء متراسلين شرف النبوة ، وحسن الصورة ، وعلم الرؤيا ، ورئاسة الدنيا ، وحياطة الرعايا في القحط والبلاء ؟؟.

قال الشاعر :

إن السريّ إذا سرى فبنفسه وابن السريّ إذا سرى أسراهما[(٢)]

قال تعالى : ﴿ **وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٥٦] .

قال ابن جرير :

يتخذ منها منزلًا حيث يشاء ، بعد الضيق والحبس والإسار[(٣)] .

وقال ابن كثير :

---

(١) رواه البخاري من حديث عمر .

(٢) فيض القدير للمناوي (٥ / ٦٤) .

(٣) تفسير الطبري (١٦ / ١٥١) .

وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ؛ فلهذا يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ .

والغرض أن يوسف عليه السلام ولّاه ملك مصر الرَّيَّان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر ، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام ، قاله مجاهد .

وقال محمد بن إسحاق : ولّاه فيما ذكروا عمل إطفير عما كان عليه ، فذكر لي - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي ، وأن الملك الرّيَّان بن الوليد زوّج يوسف امرأة إطفير : راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال : أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين ؟ . قال : فيزعمون أنها قالت : يأيها الصديق ، لا تلمني ، فإني كنت امرأة كما ترى ، حسناء ، جميلة ، ناعمة ، في ملك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك ، على ما رأيت . فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف ، وميشا بن يوسف . وولد لأفرائيم نون والد يوشع بن نون ، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام .

وقال الفضيل بن عياض : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق ، حين مرّ يوسف ، فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته ، والملوك عبيدًا بمعصيته[١] .

قال سيد قطب :

على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض ، وثبتنا قدميه ، يتخذ منها المنزل الذي يريد ، والمكان الذي يريد ، والمكانة التي يريد ، في مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود ...

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة في الأرض ، وهذه

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢١) .

البشرى في الآخرة جزاءً وفاقًا على الإيمان والصبر والإحسان .[١] .

يقول ابن القيم :

من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه ، ومن جِنسه ، لما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء اهـ[٢].

عفّ يوسف عنْ شهوة فمكنه الله منها ، ترك شهوة واحدة فنال شهوات الأرض بأسرها .

إن الذي يستلفتْ النظر كثرة تكرار صفة الإحسان ، فكان محسنا مع ربه وأيضًا مع الناس - وهما متلازمان - فقد سمى الله قصته ﴿ **أحسن القصص** ﴾ [يوسف : ٣] أي من أحسنه ، ورتب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم مع الشباب ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ [يوسف : ٢٢] ووصفه السجناء بذلك ﴿ **نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ [يوسف : ٣٦] وبه مكنه الله تعالى في الأرض ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٥٦] وقال له إخوته وهم لا يعرفونه : ﴿ **فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين** ﴾ [يوسف : ٧٨] وقال عن نفسه وأخيه : ﴿ **قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ [يوسف : ٩٠] ثم أثنى على ربه بإحسانه إليه ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿ **وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن** ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

والجزاء من جنس العمل .

يقول ابن القيم :

﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [الأعراف : ٥٦] وإنما اختص أهل

---

(١) الظلال (٤ / ٢٠١٤) .

(٢) روضة المحبين لابن القيم ص٤٤٣ .

الإحسان بقرب الرحمة منهم ؛ لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين ، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته . وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدًا ببعد وقربًا بقرب ، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومَنْ تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته[1].

فائدة :

قال تعالى : ﴿ **ولقد هَمّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ...** ﴾ الآية.ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام همّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همّت هي به منه ؛ ولكن القرآن العظيم بيّن براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي ، حيث بيّن شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته ، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به .

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم يوسف ، والمرأة ، وزوجها والنسوة والشهود .

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية ، فذكره تعالى في قوله : ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ [يوسف : ٢٦] وقوله : ﴿ **قال رب السجن أحبّ إلي مما يدعونني إليه** ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة : ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ [يوسف : ٣٢] .

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله : ﴿ **يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ [يوسف : ٢٩].

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين**﴾ إلى قوله: ﴿**قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾ [يوسف : ٢٦-٢٨] .

---

(١) التفسير القيم ص ٢٥٨ .

وأما شهادة الله عز وجل ببراءته ففي قوله : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وقد شهد الله على طهارته أربع مرات :

أولها : ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني : قوله : ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث : قوله : ﴿ **إنه من عبادنا** ﴾ وقد قال له في صفة عباد الرحمن : ﴿ **ولا يزنون** ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

والرابع : قوله : ﴿ **المخلصين** ﴾ وفيه قراءتان : قراءة باسم الفاعل . وأخرى باسم المفعول . فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص . ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه ، واصطفاه لحضرته . وعلى كِلَا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه . اهـ من تفسير الرازي .

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ، ففي قوله تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] . فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ، ويوسف من سادات المخلصين بنص القرآن الكريم .

أما شهادة النسوة، فقد قال الله تعالى : ﴿ **قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ [يوسف : ٥١] .

قال الفخر الرازي[1] :

هؤلاء الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ، إن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ؛ ولَعَلّ منهم من يقول : كنا في أول الأمر تلامذة إبليس ، إلى أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة عليه ، كما قال الخوارزمي :

وكنت امرأً من جند إبليس فارتقى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

---

(١) كلامه بتصرف من تفسيره مفاتيح الغيب .

فلوْ مات قبلي كنتُ أحسن بعده طرائقَ فسقٍ ليس يحسنها بعدي

ولكن ماذا نقول في قوله تعالى : ﴿ **وهَمَّ بها** ﴾ [يوسف : ٢٤] .

الجواب من وجهين :

الأول : أن المراد بهمِّ يوسف بها خاطر قلبي صرفه عنه وازع التقوى .

وقال بعضهم : هو الميل الطبيعي ، والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى ، وهذا لا معصية فيه ؛ لأنه أمر جِبِلِّي لا يتعلق به التكليف ، كما في الحديث عنه ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « **اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك** » . يعني ميل القلب الطبيعي .

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد ، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم . وقد قال ﷺ : « مَنْ همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة » ؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من الله وامتثالًا لأمره ، كما قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] وهَمُّ بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد ، كهمِّ يوسف هذا ، بدليل قوله : ﴿ **إذْ همَّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما** ﴾ [آل عمران : ١٢٢] لأن قوله : ﴿ **والله وليهما** ﴾ يدل على أن ذلك الهمّ ليس بمعصية ؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله للعاصي – لو كان هذا الهم معصية – إغراء على المعصية .

بخلاف همّ امرأة العزيز ، فإنه همّ عزم وتصميم ، بدليل أنها شقت قميصه من دبر . ومثل هذا التصميم على المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها ، بدليل الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » . قالوا : يا رسول الله ، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟. قال : « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه » . فصرح ﷺ بأن تصميمه وعزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار .

وأما تأويلهم همّ يوسف بأنه قارب الهم ولم يهمّ بالفعل ، وتأويل الهم بأنه همَّ بضربها ، أو همّ بدفعها عن نفسه ، فكل ذلك غير ظاهر ، بل هو بعيد عن الظاهر ، ولا دليل عليه .

الثاني : وهو اختيار الشيخ أبي حيان : أن يوسف لم يقع منه همّ أصلًا .

قال الشنقيطي :

هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية ؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه ، كقوله : ﴿ **فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ [يونس : ٨٤] أي إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه .

فالأول : دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب ؛ لأن جواب الشروط وجواب لولا لا يتقدم ، ولكن يكون المذكور قبله دليلًا عليه ، كالآية المذكورة ، وكقوله : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة : ١١١] أي إنْ كنتم صادقين فهاتوا برهانكم . وعلى هذا القول : فمعنى الآية : وهَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه . أي لولا أن رآه همَّ بها ، فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف ، كما هو الغالب في القرآن واللغة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ [القصص : ١٠] أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به .

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب لولا في قوله : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ هو ما قبله من قوله : ﴿ **وهمّ بها** ﴾ وإلى جواز لتقديم المذكور ذهب الكوفيون ، ومن أعلام البصريين : المبرد ، وأبي زيد الأنصاري .

قال الشيخ أبو حيان في البحر المحيط ما نصه : والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها ألبتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك الله .

يقول الشيخ الشنقيطي :

وأما أقوال السلف : فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ؛ لأنها أقوالٌ متكاذبة يناقض بعضها بعضًا ، مع كونها قادحة في بعض فسّاق المسلمين فضلًا عن المقطوع لهم بالعصمة .

ويقول مرة أخرى - يرحمه الله -:

هذه الأقوال منقسمة إلى قسمين :

قسم: لم يثبت نقله عمّن نقل عنه بسند صحيح ، وهذا لا إشكال في سقوطه.

وقسم : ثبت عن بعض من ذكر ، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك ، فالظاهر الغالب على الظن ، المزاحم لليقين : أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات ؛ لأنه لا مجال للرأي فيه ، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ[1] .

يا لمكانة نبي الله يوسف حين يقول في حقه : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ [يوسف : ٧٦] . كاد له إخوته فعوقبوا بكيد .. كادوا فكِيد لهم .

والجزاء من جنس العمل .

يقول ابن كثير :

وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه ؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في قوله تعالى : ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ [يوسف : ٧٦] .

إن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام ، بأن جمع بينه وبين أخيه ، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم ، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره .

وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي ، **فقالوا** : ﴿ **يأيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين** ﴾ [يوسف : ٨٨] ، فهذا الذُّلّ والخضوع في مقابلة ذلّه وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد .

وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي من أجلها سجدوا له ، هم وأبوه وخالته ، في مقابلة كيدهم له ، حذرًا من وقوع ذلك ، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم ، فكادوه خشية

---

(١) أضواء البيان (٣ / ٤٩-٦٠) .

ذلك ، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك ، كما رآه في منامه .

وهذا كما كاد فرعون بني إسرائيل ﴿ **يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم** ﴾ [القصص : ٤] خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه ، فكاده الله سبحانه ، بأن أخرج له هذا المولود ، ورباه في بيته ، وفي حجره ، حتى وقع به ما كان يحذره ، كما قيل :

وإذا خشيت من الأمور مقدّرا وفررت منه فنحوه تتوجَّهُ[1]

لقد حسّن الله خُلُق يوسف عليه السلام وخَلْقَه .

قال رسول الله ﷺ : « أعطي يوسف شطر الحسن »[2] .

وقال ﷺ : « أعطي يوسف وأمه شطر الحسن »[3] .

ففي موقفه مع امرأة العزيز كان مثالًا للعفة ؛ فكل الظروف من حوله كانت تدفعه دفعاً إلى الفاحشة ، ولكنه يوسف المحسن المخلص عليه السلام .

فقد كان شابًّا عزبًا ، وقد كان غريبا والغريب لا يستحي من الناس ؛ لأنهم لا يعرفونه .

وأنه كان عبدًا لها ، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر .

وهي سيدته ، وهي الآمرة ، فدافع الشهوة أكبر حين تكون المرأة طالبة .

وهي حسناء جميلة ، وقد غاب الرقيب ، وغلّقت الأبواب .

وهي تهدّده بالسجن إن لم يفعل .

وتكرّر الطلب منها أكثر من مرة .

---

(١) إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان (٢ / ١١٧) .

(٢) صحيح : رواه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو يعلى في مسنده ، والحاكم في المستدرك ، عن أنس ، وكذا رواه ابن عدي في الكامل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٧٣ ، والصحيحة رقم ١٤٨١ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، ورواه ابن عدي في الكامل وابن عساكر ، وزادا : يعني سارة .

فياليت أناسًا ينزجرون ويكفون ، يقول الواحد منهم :
لو خلوت بالحور العين لعففت ، وهو لو خلا بجارية سوداء لفعل وفعل ، وكأنه قد أشهد على صداقها أبا هريرة .

○ نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام ○

قد لاقى نبي الله موسى في سبيل الدعوة إلى الله ما لاقى .

وبعد قتله القبطي خرج من مصر خائفًا يترقب ، وحيدًا فريدًا مطاردًا ، في قلب المخافة بعد فترة من الأمن ، وحيدًا مجردًا من قوى الأرض الظاهرة جميعا ، يبحثون عنه في كل مكان ؛ لينالوا منه اليوم مالم ينالوه منه طفلًا ، ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ألم يقل له ربه : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ [طه : ٤١] .

قال تعالى : ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من النَّاس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولّى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير** ﴾ [القصص : ٢٣ - ٢٤] .. حتى نهاية القصة .

لم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح في وقت القيظ والحر. عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن موسى - عليه السلام - لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم[١] .

قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافيًا ، فما وصل مَدْيَن حتى سقطت نعل قدمه . وجلس

---

(١) رواه ابن أبي شيبة ، وقال ابن كثير في التفسير (٦ / ٢٣٧) ، إسناده صحيح .

في الظل وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال : حثثت على جمل ليلتين ، حتى صبحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي آوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جملي - وكان جائعا - فأخذها جملي فعالجها ساعة ، ثم لفظها ، فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت(١) .

﴿ **فسقى لهما** ﴾ يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله .

﴿ **ثم تولى إلى الظل** ﴾ . مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحرّ ، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر .

﴿ **فقال رب إني لما أنزلت إلّي من خير فقير** ﴾ إنه يأوي إلى الظل المادي البليل بجسمه ، ويأوي إلى الظل العظيم ظل الله الكريم المنّان بروحه وقلبه ﴿ **رب إني لما أنزلت إلّي من خير فقير** ﴾ رب إني في الهاجرة ، رب إني فقير ، رب إني وحيد ، رب إني ضعيف ، رب إني إلى فضلك ومنّك وكرمك فقير محووج .

رفرفة ومناجاة قريبة ، وهمس موحي ، وانعطاف رفيق ، واتصال عميق ، ويسارع مولاه بالاستجابة لقلبه الضارع ، دعوة من الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير ، دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان ﴿ **إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ...** ﴾ الآية [القصص : ٢٥] .

﴿ **فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٢٥] . فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ، كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد ، ومن ثم كان أول لفظ للشيخ الوقور : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ . فلا سلطان لهم على مدين .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٣٧) .

خرج خائفًا فأمّنه الله ، وكان جائعًا فرزقه الله ، وكان وحيدًا فريدًا فآواه الله إلى ابنة الرجل الصالح .

ويا لله .. هذه الغنم التي شربت بسقي موسى ، وهو لا يبتغي على ذلك أجرا يكن له منها النصيب الوافر بعد أن قضى الثماني حجج في خدمة الشيخ .. يالكرم الله وفرجه ونداه .

إشكال :

إن موسى سقى أغنامهما تقربًا إلى الله تعالى ، فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه ، فإن ذلك غير جائز في المروءة ولا في الشريعة ؟

والجواب : أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب إليهم طلبًا للأجرة ، بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ ، وروي أنها لما قالت : ليجزيك كره ذلك ، ولمّا قدّم إليه الطعام امتنع ، وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا ، حتى قال شعيب(١) عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا .

وأيضًا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق تحمله ، فقبل ذلك على سبيل الاضطرار .

وقال الرازي أيضًا :

إنما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ، ولم يكره ذلك

(١) قد اختلف المفسرون في هذا الرجل والد الفتاتين من هو ؟ على أقوال :
أحدها : أنه شعيب النبي – عليه السلام – وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد .
وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى بمدة طويلة لأنه قال لقومه : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما ذكره غير واحد ، ثم من المُقَوِّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا . وما جاء في بعض الأحاديث من ذكر اسمه فلا يصح إسناده . اهـ .

مع الخضر حين قال تعالى : ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجرًا** ﴾ [الكهف : ٧٧] والفرق أن أخذ الأجرة على الصدقة لا يجوز ، وأما الاستئجار ابتداءً فغير مكروه[١] .

كما لاقى الكريم الذي صُنع على عين الله من اللئيم الذي استخفه الشيطان وأغواه .

يقول تعالى عن شخرية فرعون من موسى : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين** ﴾ [الزخرف : ٥٢] .

﴿ **مهين** ﴾ أي حقير ، ﴿ **ولا يكاد يبين** ﴾ لا يكاد يفصح عن كلامه ، فهو عيي حصر .

قال ابن كثير :

وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب .

وقوله : مهين : كذب ، بل هو المهين الحقير خلقة وخُلقًا ودينًا ، موسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد .

وقوله : ولا يكاد يبين افتراء أيضًا ، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله أن يحل عقدة لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله له في قوله : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[٢] [طه : ٣٦] .

بل لم يسلم موسى - عليه السلام - من أذى بني إسرائيل ، وهو الذي

---

(١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (١٢ / ٢٧٠ - ٢٧١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٢١٨ - ٢١٩) .

أخرجهم الله على يديه من ظلمات الكفر والحبس والذبح .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى عليه السلام كان رجلا حييًا سِتّيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص ، وأما أدرة[1] ، وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أنْ يُبرِّئه مما قالوا لموسى عليه السلام ، فخلى يومًا وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حَجَر ثوبي حجر[2] .. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عُريانًا أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون، وقام[3] الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، فوالله إن بالحجر لنَدَبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا** ﴾ .

والنبي ﷺ لما قسم ذات يوم قسمًا ، فقال رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... فقال ﷺ : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر »[4] .

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في قوله : ﴿ **فبرأه الله مما قالوا** ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته . كان ألين لنا منك وأشد حياءً ،

---

(١) الأدرة : نفخة في الخصية ، ويقال للرجل : آدر .

(٢) معناها : أي ثوبي يا حجر .

(٣) أي وقف وثبت .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته ، فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم[1] .

بل نسبوا إلى موسى عليه السلام أشد من ذلك ، فقد روى ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حُوّلت من موسى إلى يوشع بن نون في آخر عمر موسى ، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله : ما أحدث الله من الأوامر والنواهي . حتى قال له : يا كليم الله ، إني كنت لا أسألك عمّا يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداءً من تلقاء نفسك . فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت ... وفي هذا نظر ؛ لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه في جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ، ولم يزل معززًا مكرمًا مدلّلا وجيهًا عند الله ، كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثوره ، فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال : ثم ماذا ؟ . قال : الموت . قال : فالآن يا رب.. وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أجيب إلى ذلك - صلوات الله وسلامه عليه - فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق : إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان[2] .

صبر موسى على « لن » :

قال له الله تعالى : ﴿ **لن تراني** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] عند سؤاله الرؤية في الطور .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٧٥) نقلًا عن تفسير ابن أبي حاتم ، والطبري .

(٢) البداية والنهاية (١ / ٢٩٨) .

وقال له الخضر عليه السلام : ﴿ **لن تستطيع معي صبرًا** ﴾ [الكهف : ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥] .

وقال له قومه : ﴿ **لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ..** ﴾ الآية [المائدة : ٢٤] .

وقال له قومه : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ [البقرة : ٥٥] .

جزاء موسى على صبره :

قال الله تعالى : ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾ [طه : ٣٩] وأي شرف فوق هذا ؟.

وقال الله تعالى : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ [طه : ٤١] .

قالوا عنه : إنه مهين فأخبر الله تعالى بوجاهته : ﴿ **وكان عند الله وجيهًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٩] .

عيّروه بالعي في لسانه ، فاختاره الله كليمًا له ، وأي شرف فوق هذا ؟.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلوني على موسى ؛ فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » .

قال ابن كثير :

« لا أدري أصعق فأفاق قبلي » أي كانت صعقته خفيفة ؛ لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق ، أو جوزي بصعقة الطور ، يعني فلم يصعق بالكلية ، وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هٰرون نبيًّا** ﴾ [مريم : ٥٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٢٦٦) .

قال ابن كثير :

أي وأَجَبْنا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبيًّا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **وأخي هٰرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءًا يصدقني إني إخاف أن يكذبون** ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقال : ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾ [طه : ٣٦] ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيا[١] .

وقال أيضًا :

ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم مِنّة على أخيه من موسى على هارون – عليهما السلام – فإنه قد شفع فيه حتى جعله الله نبيًّا ورسولًا معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال في حق موسى : ﴿ **وكان عند الله وجيهًا** ﴾[٢] [الأحزاب : ٢٦٩] .

قال الهروي في كلامه على منزلة المُراد :

الدرجة الثانية : أن يضع عن العبد عوارض النقص ، ويعافيه من سمة اللائمة ، ويملكه عواقب الهفوات ، كما فعل بسليمان – عليه السلام – حين قتل الخيل ، فحمله على الريح الرخاء ، فأغناه عن الخيل ، وفعل بموسى – عليه السلام – حين ألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه ، ولم يعتب عليه كما عتب على آدم – عليه السلام – ونوح ، وداود ، ويونس – عليهم السلام – .

يقول ابن القيم :

إذا عرضت له أسباب النقيصة ، التي يستحق عليها اللائمة ، لم يعتبه عليها ولم يلمه ، وهذا نوع من الدلال ، وصاحبه من ضنائن الله وأحبابه فإن الحبيب يُسامح بما لا يسامح به سواه ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه . وإذا هفا هفوة ملكه

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٣٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٤٦) .

عاقبتها ، بأن جعلها سببًا لرفعته ، وعلوّ درجته ، فيجعل تلك الهفوة سببًا لتوبة نصوح ، وذلٍّ خاصٍّ ، وانكسارٍ بين يديه ، وأعمال صالحة تزيد في قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة ، فتكون تلك الهفوة أنفع له من حسناتٍ كثيرة ، وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد ، وكونه من أحبابه وحزبه .

قال ابن القيم :

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : وكذلك لطم موسى عين ملك الموت ففقأها ، ولم يعتب عليه ربه ، وفي ليلة الإسراء عاتب ربه في النبي - ﷺ - إذ رفعه فوقه ، ورفع صوته بذلك ، ولم يعتبه الله على ذلك ، قال : لأن موسى - عليه السلام - قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال ، فإنه قاوم فرعون أكبر أعداء الله تعالى ، وتصدى له ولقومه ، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة ، وجاهد في الله أعداء الله أشد الجهاد ، وكان شديد الغضب لربه ، فاحتمل له ما لم يحتمل لغيره .

وذو النون لما لم يكن في هذا المقام : سجنه في بطن الحوت من غضبة ، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدرًا[1] .

والجزاء من جنس العمل .

○ داود عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أوّاب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ [ص : ١٧-٢٠] .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٤٥٥ - ٤٥٦) .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلًا يا جبال أوّبي معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغاتٍ وقدّر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير** ﴾ [سبأ : ١٠ – ١١] .

وقال تعالى : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلّمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾ [الأنبياء : ٧٩ – ٨٠] .

﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : الأيد : القوة في الطاعة ، يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . وقال قتادة : أعطي قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام .

وعن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « كان داود أعبد البشر »[١] .

وقال ﷺ : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا[٢] ... ولا يفر إذا لاقى »[٣] .

كان الله تعالى قد وهب داود – عليه الصلاة والسلام – من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدًا بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجِّع بترجيعه ويردد ، ويسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه ، كلما سبح

---

(١) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك ، والبخاري في تاريخه ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٣٢٩) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة عن ابن عمرو .

(٣) ثابتة في الصحيحين .

بكرة وعشيا .

وقال عبد الله بن عامر : أعطي داود من حسن الصوت ما لم يُعط أحد قط ، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا ، وحتى أن الأنهار لتقف .

وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجّل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعًا[1] .

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّفَ على داود القراءة فكان يأمر بدوابه فتُسرج ؛ فيقرأ القرآن من قبل أن تُسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده »[2] .

والمراد بالقرآن هاهنا الزبور الذي أنزل عليه وأوحي إليه .

داود البكاء الأواب ، الذي ما أكل طعامًا إلا بلَّله بدموعه ، وما شرب قدحًا إلا مزجه بدموعه ، داود - عليه الصلاة والسلام - الذي كان يقول : أوه من عذاب الله ، أوه قبل ألَّا تنفع أوه ، يارب إني لا أستطيع حر شمسك فكيف أستطيع حر نارك ؟ يارب إني لا أستطيع سماع صوت رحمتك وهو الرعد فكيف أستطيع سماع صوت غضبك؟.

عن ابن شهاب قال : قال داود : الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله . فأوحى الله إليه : إنك أتعبت الحفظة يا داود .

يقول الله تعالى : ﴿ **وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب**

---

(١) البداية والنهاية (٢ / ١٠ - ١١) .

(٢) رواه البخاري وأحمد في مسنده .

فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ [ص : ٢٤ -٢٥] .

قال تعالى : **﴿ يا داود إنَّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾** [ص : ٢٦] .

قوله تعالى : **﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾** [ص : ٢٥] .

أي إنَّ له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ، ويُدنيه من حظيرة قدسه بسببها ، كما ثبت في حديث : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يُقْسِطُون في أهليهم وحكمهم وما ولوا » .

قال مالك بن دينار : **﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾** يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، فيقول الله : يا داود ، مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا . فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول : إني أرده عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

كما كان أعبد الناس في الدنيا ، وكما كان يمجده في الدنيا ، فكذا اليوم يمجده على منبر من نور مع نعيم القرب والزلفى .

والجزاء من جنس العمل .

صوت الأوّاب مزامير فلتصغ جبال البلدان
والطير بأجمعه سبح ويرجع ذكر الرحمن

○ سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ○

قال تعالى : **﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب إذ عرض عليه**

بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحًا بالسوق والأعناق ﴾ [ص : ٣٠-٣٣] .

عرض على سليمان – عليه السلام – في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات .

قال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد : السراع .

وروى ابن جرير عن إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرسًا ذات أجنحة .

وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي : كانت الخيل التي شغلت سليمان – عليه الصلاة والسلام – عشرين ألف فرس فعقرها .

قال ابن كثير : وهذا أشبه ، والله أعلم .

قال ابن كثير :

ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدًا بل نسيانًا ، كما شُغِل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه .

ويحتمل أنه كان سائغًا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والخيل تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعًا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة ، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود ، كما فعل الصحابة – رضي الله عنهم – في فتح تُستَر ، وهو منقول عن مكحول ، والأوزاعي ، وغيرهما . والأول أقرب ؛ لأنه قال بعدها : **﴿ ردوها عليّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾** .

قال الحسن البصري : قال : لا ، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر

ما عليك . ثم أمر بها فعقرت . وكذا قال قتادة .

وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : جعل يمسح أعراف الخيل ، وعراقيبها حبًّا لها .

وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة ، ويهلك مالًا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر لها ، ولا ذنب لها ، وهذا الذي رجّح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضبًا لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة[1] .

وقال ابن كثير :

قد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها؛ لئلا يتقووا بها، وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤتة[2] .

قال تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها** ...﴾ [الأنبياء : ٨١] .

وقال تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر** ... ﴾ الآية [سبأ : ١٢] .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر ، فيتغدى بها ، ويذهب رائحا منها ، فيبيت بكابل ، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٥٦ - ٥٧) .

(٢) البداية والنهاية (٢ / ٢٣) .

وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر .

وقال تعالى : ﴿ **فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب** ﴾ [ص : ٣٦] حيث أراد ؛ قاله مجاهد .

وهذه الريح عاصفة في بعض الأوقات ، ولينة رخاء في بعضها ، بحسب الحاجة ؛ كأن تعصف ويشتد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده ، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب .

ما ذكره الزمخشري قال :

فإن قلتَ : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟

قلتُ : كانت في نفسها رخيّة طيبة كالنسيم ، فإذا مرّت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة ، على ما قال : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** .. ﴾ [سبأ : ١٢] . فكان جمعها بين الأمرين : أن تكون رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم اهـ .

وقوله : ﴿ **حيث أصاب** ﴾ يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض .

وقوله : ﴿ **تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها** ... ﴾ لأن مسكنه فيها ، وهي الشام ، فترده إلى الشام . وعليه فقوله : ﴿ **حيث أصاب** ﴾ في حالة الذهاب . وقوله : ﴿ **إلى الأرض التي باركنا فيها** ... ﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٥٦ - ٥٧) .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٤ / ٦٧٦ - ٦٧٧) .

وفي مسند أحمد عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علّمه الله عز وجلّ وقال : « إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرًا منه »(١) .

فكيف كان جزاء سليمان – عليه السلام – من جنس عمله ؟

قال الحسن البصري – رحمه الله – : لمّا عقر سليمان الخيل غضبًا لله عز وجلّ ، عوّضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر(٢) .

وقال ابن القيم : عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئا عوضه الله خيرًا منه .

لمأ عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التني شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح ؛ يسير على متنها حيث أراد(٣) .

قال البقاعي : ذلّلنا بمالنا من العظمة له الريح ؛ لإرهاب العدو وبلوغ المقاصد ، عوضًا عن الخيل التي خرج عنها لأجلنا ، تجري رخاء لينة غاية اللين منقادة ، يدرك بها ما لا يدرك بالخيل : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾ وكل من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرا منه(٤) .

○ نبي الله أيوب عليه السلام ○

الصالح الصابر الأوّاب .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٦٤) .

(٣) روضة المحبين ص ٤٤٣ .

(٤) نظم الدرر للبقاعي (١٦ / ٣٨٤) .

كان من ذرية إبراهيم عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهٰرون** ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

والمشهور أن زوجه بنت منشا بن يوسف بن يعقوب عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنّي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾ [الأنبياء : ٨٣ - ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسّني الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ [ص : ٤١ - ٤٤] .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب - عليه السلام - وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مَغْرز إبرة سليمًا سوى قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه ، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه ، وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة . وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسُلب جميع ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته - رضي الله عنها - فإنها كانت لا تفارقه صباحًا ومساءً إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه قريبا . فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر المقدور ، وتم الأجل المقدر ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، قال : رب ، إني مسني الشيطان بنصب وعذاب ، قيل : بنصب في بدني ، وعذاب في مالي وولدي ، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ، ففعل فأنبع الله عينًا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت

جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر ، فأنبع له عينًا أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا .

فماذا كان جزاء صبره ؟

قال ابن عباس : رد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم .

وقال الحسن وقتادة : أحياهم الله بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم .

وقيل : آجره فيمن سلف ، وعوّضهم عنهم في الدنيا بدلهم ، وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة[1] .

صحة ظاهرة وباطنه وجمال تام والله ، ما مُدّ سجاف ﴿ **نعم العبد** ﴾ على قبة ﴿ **ووهبنا له** ﴾ حتى جرب في أمانة ﴿ **إنّا وجدناه صابرًا** ﴾ .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عريانًا ، خرّ عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثو في ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك »[2] .

انظر إلى أدب أيوب – عليه الصلاة والسلام – ﴿ **مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ ولم يقل : فعافني واشفني[3] .

يقول ابن القيم :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ جمع في هذا الدعاء بين : حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة

---

(١) البداية والنهاية (١ /) ، وتفسير ابن كثير (٧ / ٦٦) .

(٢) رواه البخاري وأحمد .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٨٠) .

إلى ربه ، ووجود طعم المحبة في التملق له ، والإقرار له بصفة الرحمة ، وأنه أرحم الراحمين .

والتوسل إليه بصفاته سبحانه ، وشدة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلي هذا كشف عنه بلواه .

يقول الشيخ سيد قطب :

قصة ابتلاء أيوبْ من أروع قصص الابتلاء .. وأيوب هنا في دعائه لا يزيد وصف حاله : ﴿ **أني مسني الضر** ﴾ ووصف ربه بصفته : ﴿ **وأنت أرحم الراحمين** ﴾ ثم لا يدعو بتغيير حاله ، صبرًا على بلائه ، ولا يقترح شيئًا على ربه ، تأدبا معه وتوقيرا ، فهو نموذج للعبد الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء ، ولا يتململ من الضرّ الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار ، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه ، فيدع الأمر كله إليه ؛ اطمئنانًا إلى علمه بالحال وغناه بالسؤال ، وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة وكانت الرحمة وكانت نهاية الابتلاء .

إن في بلاء أيوب لمثلًا للبشرية كلها ، وإن في صبر أيوب لعبرةً للبشرية كلها ، وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار .

العابدون معرضون للابتلاء والبلاء ، وتلك تكاليف العبادة والعقيدة وتكاليف الإيمان[1] .

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي المؤمن ، فلم يشكني إلى عُوّاده أطلقته من إساري ، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ، ودمًا خيرًا من دمه ، ثم يستأنف العمل »[2] .

---

(١) الظلال (٤ / ٢٣٩٢) .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٧٧ ، والصحيحة رقم (٢٧٢) .

والجزاء من جنس العمل – نعم العبد إنه أواب .

○ ذو الكِفْل عليه السلام ○

قال تعالى : ﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين** ﴾ [الأنبياء : ٨٥ – ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر إسمٰعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ [ص : ٤٨] .

الظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه ، مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبيّ – عليه من ربه الصلاة والسلام – وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًّا ، وإنما كان رجلًا صالحًا وحكمًا مُقْسِطًا عادلًا ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلًا على الناس ، يعمل عليهم في حياتي ، حتى أنظر كيف يعمل . فجمع الناس فقال : من يتقبل لي بثلاثٍ أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب . قال : فقام رجلٌ تزدريه العين ، فقال : أنا . فقال : أنت تصوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟! قال : نعم . قال : فردّهم ذلك اليوم ، وقال مثلها اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل ، فقال : أنا . فاستخلفه ... فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفّل بأمر فوفّى به[1] .

من وفى لله وفى الله له ، وألبسه رداء عمله ، والجزاء من جنس العمل .

غلب عليه ما وفى به ، وسماه الله به ، وجعله قرآنًا يُتلى ، فأي شرفٍ وجزاء فوق هذا ؟ فكيف بجزاء المتهجدين الصائمين المقسطين في حكمهم ؟ .

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٢١٠ – ٢١١) .

○ يونس بن متَّى عليه الصلاة والسلام ○

قال تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ [الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** ﴾ [القلم : ٤٨ - ٥٠] .

وقصة ذي النون يونس بن متى عليه السلام رواها جمع من علماء التفسير .

قال ابن كثير :

إن يونس بن متّى - عليه السلام - بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث . فلما تحققوا من ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرّقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفصْلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحُمْلانها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا**

ومتعناهم إلى حين ﴾ [يونس : ٩٨] .

وأما يونس - عليه السلام - فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة ، فَلَجَّجَت[١] بهم وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضا ، فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا ، قال الله تعالى : ﴿ **فساهم فكان من المدحضين** ﴾ ، أي وقعت عليه القرعة ، فقام يونس - عليه السلام - وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى بنفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتًا يشق البحار ، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحما ، ولا تهشم له عظما ؛ فإن يونس ليس لك رزقًا وإنما بطنك له يكون سجنًا .

﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت ، يروى نحو هذا عن ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روي عن ابن عباس ، وعمرو بن ميمون ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة .

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها ، حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره ، فعند ذلك وهنالك قال : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك** ﴾ .

وقال عوف : لما صار يونس في بطن الحوت ، ظن أنه قد مات ، ثم حرك رجليه ، فلما تحركت سجد مكانه ، ثم نادى : يارب ، اتخذت لك مسجدًا في موضع ما اتخذه أحد[٢] .

---

(١) خاضت اللُّجَّة ، ولجة البحر : حيث لا يدرك قعره .
(٢) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٦٠ - ٣٦١) .

واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت ، فقيل : ثلاثة أيام ، قاله قتادة . وقيل : جمعة ، قاله جعفر الصادق . وقيل : أربعين يوما ، قاله أبو مالك . وعن الشعبي : التقمه ضحىً ، وقذفه عشية . والله أعلم بمقدار ذلك .

وفي شعر أمية بن أبي طالب :

وأنت بفضل منك نجيّتَ يونسا وقد بات في أضعاف حوتٍ لياليًا

وقوله : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء . قاله الضحاك بن قيس ، وأبو العالية ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، وغير واحد . واختاره ابن جرير .

وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحّاك ، وعطاء بن السائب ، والسدي ، والحسن ، وقتادة : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ يعني المصلين .

وقيل المراد : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ هو قوله : ﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ قاله سعيد بن جبير وغيره .

وصرّح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك(١) .

سمع تسبيح دواب البحر ، فصلى وسبح وهو في بطن الحوت ، فسمع الملائكة تسبيحه ، فقالوا : يا ربنا ، إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة . قال : ذلك عبدي يونس ، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح ؟ . قال : نعم . قال : فشفعوا فيه عن ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **وهو سقيم** ﴾ .

قال أبو هريرة : طرح بالعراء ، وأنبت الله عليه اليقطينة . قلنا

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٣ - ٣٤) .

يا أبا هريرة ، وما اليقطينة ؟ . قال : شجرة الدّباء . قال أبو هريرة : وهيّأ الله له أُرْوِيَّة[١] وحشية تأكل من خشاش الأرض - أو هشاش الأرض - قال : فتتفشح[٢] عليه ، فترويه من لبنها كل عشية وبُكرة حتى نبت .

قال تعالى : ﴿ **فنبذناه** ﴾ أي ألقيناه ﴿ **بالعراء** ﴾ قال ابن عباس : وهي الأرض التي ليست بها نبت ولا بناء .

و ﴿ **سقيم** ﴾ أيْ ضعيف البدن . قال ابن مسعود - رضي الله عنه - كهيئة الفرخ ليس عليه ريش . وقال السدي : كهيئة الصبي حين يولد ، وهو المنفوس . وقاله ابن عباس ، وابن زيد أيضًا .

﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وسعيد بن جبير ، ووهب بن منبه ، وهلال بن يَسَاف ، وعبد الله بن طاووس ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد قالوا كلهم : اليقطين هو القرع .

﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ عن مجاهد : أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت .

قال ابن كثير :

ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولًا ، أُمر بالعودة إليهم بعد خروجه من الحوت ، فصدقوه كلهم وآمنوا به . وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ **أو يزيدون** ﴾ : بل يزيدون ، وكانوا مائة وثلاثين ألفا . وعنه : مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفا . وعنه : مائة ألف وبضعة وأربعين ألفا .

---

(١) الأروية : بضم فسكون ، فواو مكسورة ، فياء مشددة : الشاة الجبلية ، وخشاش الأرض : هوامها وحشراتها .

(٢) أي تفرج ما بين رجليها ، ويقال بالجيم والحاء المهملة .

وقال ابن جبير : يزيدون سبعين ألفا .

وقال مكحول : كانوا مائة وعشرة آلاف .

فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس جميعهم ، فمتعناهم إلى وقت آجالهم(١) اهـ .

فكيف كان جزاء يونس من جنس عمله ؟ .

إن يونس – عليه السلام – لم يصبر بدايةً على تكاليف الرسالة ، فضاق صدره بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضبًا ، ضيق الصدر ، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين . ﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ أي مستحق للوم .

والجزاء من جنس العمل .

عن ابن مسعود بإسناد صحيح : فانطلق مغاضبا حتى ركب سفينة ، فقال لهم يونس إن معهم عبدًا آبقًا من ربه ، وأنها لا تسير حتى تلقوه ، فقالوا : لا نلقيك يا نبي الله أبدًا ، قال : فاقترعوا ، فخرج عليه ثلاث مرات ، فألقوه ، فالتقمه الحوت ، فبلغ به قرار الأرض .

أصحاب الدعوات لابد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذء من أجلها .

وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقا . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولابد أن يثابروا ويثبتوا ، ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدءوا فيها ويعيدوا .

إن طريق الدعوات ليس هينًا لينًا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة ، فهناك ركام من الباطل و الضلال والتقاليد والعادات ، يجثم على القلوب ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٣ – ٣٦) .

ولا بد من إزالة هذا الركام .

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب ؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس ، إنه عمل مريح ، قد يفثأ الغضب ، ويهدىء الأعصاب .. ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟.

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية ، فليكظم ويمضي ، والله أرعى لدعوته وأحفظ ، فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والبقية على الهدى ، والهدى هدى الله[١] .

تَعَرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة :

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ .

﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ .

احفظ الله يحفظك .

فيونس صاحب الصلاة والتسبيح قبل التقام الحوت له .. ويونس المسبح المصلي في الظلمات في مسجد – بطن الحوت – ما اتخذه أحد قبله .. فنجّاه الله من شدته .

والجزاء من جنس العمل .

○ يحيى بن زكريا الشهيد ابن الشهيد عليهما الصلاة والسلام ○

قال تعالى : **﴿ وزكريا إذْ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون**

---

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٣٩٣ – ٢٣٩٤) .

في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾ [الأنبياء : ٨٩- ٩٠].

وقال تعالى : ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين** ﴾ [آل عمران : ٣٨- ٣٩] .

قال تعالى : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداءً خفيًّا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًّا ، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهب لي من لدنك وليًّا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًّا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا** ﴾ [مريم : ٢ - ٧] .

وقال تعالى : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا . وحنانًا من لدنا وزكاة وكان تقيًّا . وبرًّا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًّا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا** ﴾ [مريم : ١٢ - ١٥] .

في شرف مناجاة ولذاذة انفراد بالخلوة يقوم زكريا عليه السلام ، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه ، يقول خفية : يارب ، يارب ، يارب . فقال الله : لبيك ، لبيك ، لبيك[1] .

لأنهم ﴿ **كانوا يسارعون في الخيرات** ﴾ فسارع الله في استجابة الدعاء .

مسارعة بمسارعة والجزاء من جنس العمل .

يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء » . فماذا يطلب زكريا وهو الشيخ الكبير ، وقد وهن العظم منه ، واشتعل رأسه شيبًا ، وكانت امرأته عاقرًا ، لا تلد وهي في شبابها ، عقيمًا وهي في شبابها ، ولكن

---

(١) انظر ابن كثير (٣ / ٢٠٦) .

زكريا لم يكن بدعاء ربه شقيًّا ، قد عوّده الله أن يستجيب إليه إذا دعاه فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو في فتوته ، وقوته ، فما أحوجه الآن في هرمه وكبرته أن يتم الله عليه نعمته .

إن زكريا سأل الولد ، وهو مطلب عجيب غريب ، يسأله وقد بلغ من الكبر ما بلغ ، وامرأته عاقر لم تلد له في فتوته وصباه ، فكيف الآن ؟ سأل الولد ليكون عونًا له على الطاعة ووارثًا من نسله في النبوة ؛ ليكون قائمًا بحق الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ لأن السؤال إذا كان لحق الحق لا لحظ النفس لا يكون له الرد .

يقول الشنقيطي :

خفت أقاربي وبني عمي وعصبتي أن يضيعوا الدين بعدي ، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام ، فارزقني ولدًا يقوم بعدي بالدين حق القيام ، فهو إرث علم ونبوة ودعوة إلى الله والقيام بدينه[1] .

إن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها ، أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها ، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم من الزهاد لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدًا يكون وارثًا له فيها ، والله إن النبي أعظم منزلة وأجلّ قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، أن يأنف من وراثة عصباته له ، وإنما يريد ولدًا يكون نبيًّا من بعده ، ليسوسهم بنبوته وما يُوحى إليه .

لما سأل زكريا عليه السلام السؤال الفذ ، ولازم الباب أتته الإجابة ، إنّ منْ له إلى المملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة ، ما يطلب للدنيا والحظ شيئًا ، إنما يطلبه للدين والعقيدة ، فاستجاب الله له ، فانظر

---

(١) أضواء البيان (٤ / ٢٠٦) .

إلى يحيى .

﴿ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًا ﴾ .

[إن الله هو الذي سمّاه ، ولم يكل تسميته إلى أبيه . وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى][(١)] ما أظن أن أحدًا من البشر حازها سواه .

قال ابن عباس : لم يسم يحيى قبله غيره . وقال أيضا : هل تعلم له مثلًا أو شبهًا ، يحيى مسمى بصيغة الدوام أما ترى إلى أنه مات شهيدًا .

﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ والكتاب هو التوراة . يبدأ بهذا النداء العلوي ليحيى قبل أن يتحدث عنه بكلمة ؛ لأن مشهد النداء رائع عظيم يدل على مكانة يحيى ، وعلى استجابة الله لزكريا ، فها هو ذا أول موقف ليحيى موقف انتدابه لحمل الأمانة الكبرى .

﴿ وآتيناه الحكم صبيًا ﴾ فهمًا وعلمًا ، وجدًّا وعزمًا وإقبالًا على الخير ، وانكبابًا عليه ، واجتهادًا فيه وهو حدث صغير .

قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . قال : ما للعب خلقنا .

وقال أبو حياة : النبوة .

آتاه الحكم صبيًا ، فكان فذًّا في زاده ، كما كان فذًّا في اسمه وفي ميلاده ، فالحكمة تأتي متأخرة ، ولكن يحيى قد زُوِّد بها صبيًا .

﴿ وحنانا من لدنا ﴾ قال ابن عباس : رحمةً من عندنا . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وزاد : لا يقدر عليها غيرنا . موهبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه ، إنما هو مطبوعٌ عليه ومطبوع به .

وقال عكرمة : محبةً عليه . وكذا قاله ابن زيد ، وقال مجاهد : وتعطفًا من ربه عليه . وقال عطاء بن أبي رباح : تعظيمًا من لدنا .

---

(١) أضواء البيان (٤ / ٢١٤) .

﴿ وزكاة ﴾ قال ابن عباس : طَهُر فلم يعمل بذنب .

وقال ابن كثير : الطهارة من الدنس والآثام والذنوب .

وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح .

بل قالوا : إنه لم يهم بمعصية أبدًا ، والله أعلم .

﴿ وكان تقيا ﴾ قال مجاهد : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإن كان ليبكي من خشية الله ما لو كان القار على عينيه لخرقته دموعه ، ولقد كانت الدموع اتخذت مجرًى في وجهه[١] .

وقد ذكروا أن يحيى - عليه السلام - كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البراري ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ، ويقول : من أنعم منك يا يحيى .

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه ، فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديدًا ؛ لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام ، فخرج يلتمسه في البرية ، فإذا هو قد احتفر قبرًا ، وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال : يا بني ، أنا أطلبك من ثلاثة أيام ، وأنت في قبر قد احتفرته قائمًا تبكي فيه . فقال : يا أبت ، ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين . فقال له : ابك يا بني . فبكيا جميعًا . وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد نحوه .

وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصديقين ألَّا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل[٢] .

---

(١) زيادات الزهد لابن المبارك .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير (٢ / ٤٩) .

﴿ **وبرًّا بوالديه** ﴾ كثير البِرِّ لهما ، محسنًا إليهما ، لطيفًا بهما ، لين الجانب لهما .

لقد كان ميلاد يحيى برا بوالديه أيضًا والله ، فقد أصلح الله لزكريا زوجه ، فجعلها ولودًا بعد العقم ، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد أو جعلها حسنة الخُلق كما قال عطاء . وهذه سنة الله في إكرام أنبيائه وأوليائه .

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشن

﴿ **إن الله يبشرك بيحيى** ﴾ قال قتادة : إنما سمي يحيى ؛ لأن الله تعالى أحياه بالإيمان .

﴿ **مصدقًا بكلمة من الله** ﴾ أي بعيسى بن مريم . قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو الشعثاء ، والسدي ، والربيع بن أنس ، والضحاك .

قال الربيع بن أنس : هو أول من صدّق بعيسى بن مريم . وقال قتادة : على سنته ومنهاجه .

﴿ **وسيدًا** ﴾ قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، وسعيد بن جبير : الحكيم .

وقال قتادة : سيدًا في العلم والعبادة .

وقال ابن عباس والثوري : الحكيم المتقي .

وقال مجاهد : هو الكريم على الله .

﴿ **وحصورًا** ﴾ حصر نفسه عن النساء مع القدرة على إتيانهن ؛ تبتلًا وانقطاعًا لعبادة الله ، وكان ذلك جائزًا في شريعته .

أما إنه محصور عن النساء ؛ لأنه عِنِّين ، لا يقدر على إتيانهن فليس بصحيح ؛ لأن العنة عيب ونقص في الرجال ، وليس من فعله حتى يثني الله عليه بها .

﴿ **ونبيا من الصالحين** ﴾ هذه بشارة ثانية بعد البشارة بولادته ، وهي أعلى من الأولى ، كقوله تعالى لأم موسى : ﴿ **إنّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ [القصص : ٧] ، بشر بولد ، وبشر بنبوته .

﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا** ﴾ قال سفيان بن

عيينة : أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن : يوم ولد ، فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه ، ويوم يموت ، فيرى قومًا لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشرٍ عظيم . قال : فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا ، فخصَّه بالسلام عليه .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا** ﴾ .. أي أمان له .

قال ابن عطية : والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة ، فهي أشرف من الأمان ، فالأمان مُتَحَصَّل له بنفي العصيان عنه ، إنما الشرف في أن سَلَّم الله عليه ، وحيّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف وقلة الحيلة والفقر إلى الله .

لم يذنب قط ، ولم يهمّ يحيى بذنب .

خاف الله خوفًا جعله ينفرد في البراري ، حتى ضرب بخوفه المثل ، فأمنه الله في مواطن الخوف .

والجزاء من جنس العمل .

ما همّ بخطيئة ، وكان حصورًا .. وكان فذًّا كاسمه ، ومولده ، وحياته .

سلم لله ، فسلم الله عليه .

والجزاء من جنس العمل .

ما كان للدنيا طرفة عين ، فسلم الله عليه .

عن الحسن قال : إن يحيى وعيسى - عليهما السلام - التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي ، أنت خير مني . فقال له : استغفر لي فأنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خير مني ، سلّمت على نفسي ، وسلّم الله عليك ، فعُرِف والله فضلهما[1].

قد كان سلام الله على يحيى خيرٌ من سلام عيسى على نفسه .

وعيسى نبي ورسول من أولي العزم خير من يحيى ، ولكن السلام الذي

---

(١) تفسير الطبري (١٦/٤٥) .

خصّ به يحيى أفضل ، فسلام عليه يوم ولد ، وسلام عليه يوم مات ، وسلام عليه يوم يبعث حيا .

○ عيسى عليه الصلاة والسلام ○

قال الله تعالى : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ...** ﴾ الآية [المائدة : ٧٥] .

سمي المسيح ؛ لمسحه الأرض ، وسياحته فيها ، وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان ؛ لشدة تكذيب اليهود له ، وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام .

سمي المسيح ؛ لمسحه الأرض سياحة في الله ، وفرارا بدينه ، وسجل هذا الاسم في كتاب الله فكان جزاءً عاجلًا في دار الدنيا من جنس عمله .

وقال تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ...** ﴾ [الحديد : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾ [البقرة : ٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ **قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا . وجعلني مباركًا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا . وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًّا . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون** ﴾ [مريم : ٣٠- ٣٤] .

ما نطق ببراءة أمه أول ما نطق ، وقد قذفوها وهي الطاهرة العفيفة ، وإنما نطق بعبوديته لله ، فصلاة الله وسلامه عليه .

وقال تعالى في حقه : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلًا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون .**

ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولًا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقًا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾

[آل عمران : ٤٥ - ٥١] .

اليهود عليهم لعائن الله أعداء نبي الله عيسى وأمه الذين قال الله فيهم :

﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ وما قتلوه يقينًا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا ﴾ [سورة النساء : ١٥٦ -١٥٩] .

كانوا يبصقون عليه، ويلقون عليه الشوك، وهو الوجيه عند الله في الدنيا والآخرة ، وَوَشَوْا به إلى بعض الملوك الكفرة - داود بن نورا - فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه في دار ببيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورفع عيسى من روزنة[1] ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرط ، فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه ، فأخذوه ظانين أنّه عيسى فصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلّم لليهود عامّة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب ، وضلوا بسبب ذلك ضلالًا مبينًا فاحشًا بعيدًا .

قال ابن عباس : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه ،

---

(١) الكوة .

وفي البيت اثنا عشر رجلًا منهم من الحواريين يعني : فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماءً. فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم أيكم يلقى عليه شبهي ، فيقتل مكاني ، فيكون معي في درجتي ، فقام شاب من أحدثهم سنًّا ، فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك . فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه فقتلوه ، ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ؛ فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله . وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدًا ﷺ . قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى : ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾[1] [الصف : ١٤] .

نزول عيسى - عليه الصلاة والسلام - آخر الزمان

في حديث النوّاس بن سمعان الطويل في ذكر خروج الدجال ، ثم نزول عيسى - عليه السلام - قال ﷺ : « إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين[2] ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطَر ، وإذا رفعه تحدّر منه جُمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه » -

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٢ / ٨٥ - ٨٦) : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائي ، نحوه .

(٢) المهرودتان : لابس مهرودتين ؛ أي ثوبين مصبوغين بورس ، ثم زعفران .

أي يطلب الدجال - « حتى يدركه بباب لُدٍّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى بن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه ، فيمسح وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة »[١] .

قال الله تعالى : ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ [الزخرف : ٦١] .

روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية : ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ قال : هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة[٢] .

عن ابن عباس : ﴿ **وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته** ﴾ .

قال : قبل موت عيسى بن مريم .

قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح[٣] .

قال الحسن : قبل موت عيسى ، والله إنه الآن حي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون .

روى الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل ابن مريم حكمًا عدلًا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ .

وروى الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذ أنزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال (٤ / ٢٢٥٠) .

(٢) مسند أحمد ، قال الشيخ أحمد شاكر ، وقال : إسناده صحيح حديث رقم ٢٩٢١ .

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١ / ١٣١) . وأثر ابن عباس صححه الحافظ في الفتح (٦ / ٤٩٢) .

وروى مسلم عن جابر – رضي الله عنه – قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى بن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم : صل لنا . فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ؛ تكرمة الله لهذه الأمة » .

وقال ﷺ : « الأنبياء إخوة لعَلّات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه »[1] .

فائدة :

أنكر قوم نزول المسيح في آخر الزمان ، وردّوا الأحاديث الواردة في ذلك ، وقالوا : إنه لا حجة فيها ؛ لأنها أحاديث آحاد ، وأنكروا أيضًا رفع عيسى ببدنه.

ومسألة رفع عيسى وهل هو ببدنه أو بروحه ؟ مسألة خلافية بين العلماء ولكن الحق أنه رفع ببدنه وروحه ، كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين كالطبري ، والقرطبي ، وابن تيمية ، وابن كثير .

أما الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام فمتواترة .

صرّح بذلك الطبري في تفسيره (٣ / ٢٩١) ، وابن كثير في تفسيره (٧ / ٢٢٣) ، وابن حجر ، وصديق حسن خان في الإذاعة ، والشيخ صاحب عون المعبود في شرح سنن أبي داود والشيخ أحمد محمد شاكر في حاشية تفسير الطبري (٦ / ٤٦٠) ، وحاشية مسند الإمام أحمد (١٢ / ٢٥٧) ، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وقد رواه أكثر من خمسة وعشرين صحابيا ، رواه عنهم أكثر من ثلاثين تابعيًا ، والشيخ محمد أنور شاه الكشميري في كتابه التصريح بما تواتر في نزول المسيح .

---

(١) الحديث صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وصححه الشيخ شاكر في هامش عمدة التفسير (٤ / ٣٦) ، وصدر هذا الحديث . رواه البخاري ، ورواه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

ما الحكمة في نزول عيسى عليه السلام ؟

الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - فبيّن الله تعالى كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم ، ويقتل رئيسهم الدجال ، ورجح هذا الحافظ ابن حجر[1] على غيره .

أساء اليهود إلى نبي الله عيسى ما وسعهم ذلك ، وآذوه ، ولما أراد اليهود قتله لم يمكنهم الله من قتله ، بل إنه الذي يقتلهم آخر الزمان .

والجزاء من جنس العمل .

عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال من يهودية أصبهان ، معه سبعون ألفًا من اليهود »[2] .

وروى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة »[3] . وفي رواية للإمام أحمد : « سبعون ألفًا عليهم التيجان » .

« يلحق عيسى عليه السلام بالدجال عند باب لد ، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح ، فيقول له عيسى عليه السلام : إن لي فيك ضربة لن تفوتني ، فيتداركه عيسى ، فيقتله بحربته ، وينهزم أتباعه ، فيتبعهم المؤمنون ، فيقتلونهم ، حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي ، تعال فاقتله . إلا الغرقد ؟ فإنه من شجر اليهود » .

وروى الإمام أحمد عن جابر - رضي الله عنهما - أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في خفقة من الدين وإدبار من العلم .. » فذكر الحديث ، وفيه : « ثم ينزل عيسى بن مريم ، فينادي من السَّحَر : أيها الناس ! ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذّاب الخبيث . فيقولون : هذا رجل جني . فينطلقون ، فإذا

---

(١) انظر فتح الباري (٦ / ٤٩٣) .

(٢) مسند أحمد ، قال ابن حجر : صحيح ، فتح الباري (١٣ / ٣٢٨) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفتن باب : في بقية من أحاديث الدجال .

هم بعيسى بن مريم ﷺ ، فتقام الصلاة ، فيقال له : تقدم يا روح الله . فيقول : ليتقدم إمامكم ، فليصل بكم . فإذا صلى صلاة الصبح ، خرجوا إليه . قال : فحين يرى الكذاب ينماث[1] كما ينماث الملح في الماء ، فيمشي إليه فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادي : يا روح الله ! هذا يهودي . فلا يترك ممن كان يتبعه أحدًا إلا قتله »[2] .

كانوا يبحثون عن المسيح في كل مكان لقتله .. فالآن ينطق كل حجر وشجر إلا الغرقد .. ينادي على المسيح ليقتلهم .

ويقتل المسيحُ الصديق المسيحَ الضِّلِّيل .

يقتل مسيح الهدى مسيحَ الضلالة .

ينزل مكذبًا للنصارى ، فيظهر زيفهم في دعواهم صلبه ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل من الناس إلا الإسلام .

عظموا ما ادعوا أنه صلب عليه فيكسره المسيح .

قال ابن حجر : « يكسر الصليب » أي يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه[3] .

« ويقتل الخنزير » « والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا ، فليكسرنَ الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية»[4] .

روى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « ... وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وأنه لنازل ... فيهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل،

---

(١) ماث الملح في الماء : أي أذابه .

(٢) رواه أحمد ، قال الهيثمي : رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح . الفتح الرباني (٢٤ / ٨٥ - ٨٦) .

(٣) الفتح (٦ / ٥٦٧) .

(٤) رواه مسلم ، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام حاكمًا .

والنِّمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم »[١] .

أما حجه : فقد روى مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ؟ ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو لَيَثْنِيَنَّهُمَا »[٢] .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ليس بيني وبينه نبي – يعني عيسى – وإنه لنازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، بين ممصرتين[٣] ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها ، إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى فيصلي عليه المسلمون »[٤] .

بماذا يحكم عيسى عليه السلام ؟

يحكم بالشريعة المحمدية ، ويكون من أتباع محمد ﷺ ، فإنه لا ينزل بشرع جديد ؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام الساعة ، لا ينسخ ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة ، ومجددًا لأمر الإسلام ، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ ، أما وضع عيسى للجزية عن الكفار – مع أنها مشروعة قبل نزوله عليه السلام – فليس هذا نَسْخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا ؛ فإن مشروعية أخذ الجزية مقيد بنزول عيسى – عليه السلام – بإخبار

---

(١) مسند أحمد ، قال الحافظ : سنده صحيح . فتح الباري (٦ / ٤٩٣) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب جواز التمتع في الحج والقران (٢٣٤/٨) شرح النووي .

(٣) ثياب فيها صفرة خفيفة .

(٤) رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم ٣٦٣٥ .

نبينا ﷺ ، فهو المبيِّن للنسخ بقوله لنا : « والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية » .

فمرحى بأمة رسول الله ﷺ نبيها أعظم الأنبياء ، وآخر مجدديها نبي على ملة رسول الله وشريعته ، بل آخر صحابي نبي .

قال الذهبي :

عيسى ابن مريم عليه السلام : صحابي ، ونبي ، فإنه رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء ، وسلم عليه ، فهو آخر الصحابة موتا[1] .

* * *

(١) تجريد أسماء الصحابة (١ / ٤٣٢) .



ذلك جزيناهم بما كفروا



◻ ذلك جزيناهم بما كفروا ◻

سبحان الحكم العدل الحكيم ، القائل في محكم التنزيل : ﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون** ﴾ [الروم : ٩ - ١٠] .

قال ابن كثير :

كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ، هذا توجيه ابن جرير ، ونقله عن ابن عباس وقتادة وهو الظاهر[١] .

إنما أوتوا من قِبل أنفسهم كما قال : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** ﴾ [المائدة : ٤٩] .

من زرع الشوك لا يحصد الورد ، ومن استنبت الحشيش لم يقطف الثمار ، ومن سلك طريق الغيّ لم يحلل بساحة الرشد ، في الدنيا الهلاك والبوار ، وفي الآخرة مصيرهم إلى النار .

إنّ السَّفاهةَ صِيغتْ من خلائقهمْ   لا بارك الله في القوم الملاعينِ

كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم أساءوا ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

قال تعالى : ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [سبأ : ١٧] .

يقول الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في كتابه القيم أضواء البيان :

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١٢ - ٣١٣) .

أغرق الله فرعون وقوم نوح ، وأخذ ثمود بالصيحة ، وعادًا بريح ، وقوم لوط بقلب قُراهم ، كما أخذ جيش أبرهة بطير أبابيل ، فهل في ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها ، أم أنه للتنويع في العقوبة لبيان قدرته تعالى وتنكيله بالعصاة لرسل الله، والواقع أن أي نوع من العقوبة فيه آية على القدرة ، وفيه تنكيل بمن وقع بهم ، ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلًا[١] .

فهل كان نوع العذاب لكل قوم من جنس عملهم ؟

هذا الذي سنحاول توضيحه بعون الله تعالى في هذا الفصل .

○ قوم نوح ○

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[٢] .

قال الحافظ :

وقصة الصالحين كانت مبدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك[٣] .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، وتَنَسَّخ العلم عُبدت[٤] .

فأرسل إليهم نوحًا أول رسول للبشر ، وهو أحد أولي العزم من الرسل ، ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وسلك إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل ، في دأب طويل ، وفي صبر جميل ، وفي جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عامًا .

---

(١) أضواء البيان (٨/٤٤١ - ٤٤٢) .

(٢) رواه الحاكم عن ابن عباس موقوفًا ، وصححه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي .

(٣) فتح الباري (٨ / ٥٣٧) . (٤) فتح الباري (٨ / ٥٣٥) .

وقد كان نوح مفصحًا مع هذا عن نذارته ، مبينًا عن حُجته ، لا يتمتم ولا يجمجم ، لا يتلعثم في دعوته ، ولا يدع لبسًا ولا غموضًا في صفة ما يدعو إليه ، وهم لا يواجهونه إلا بإعراض واستكبار واستهزاء : ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** ﴾ [العنكبوت : ١٤] وكان كلما انقرض جيل وصوا مَنْ بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح ما عاش ، ودائمًا ما بقي .

بعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناء ، وبعد كل هذا التوجيه ، والتنوير ، والإنذار ، والإطماع ، والوعد بالمال والبنين والرخاء ، بعد هذا كله كان العصيان ، وأوحى الله إلى نبيه نوح ما قصه في كتابه : ﴿ **وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ [هود : ٣٦] . فدعا نوح على قومه : ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون** ﴾ [الصافات : ٧٥] .

وأوحى الله إلى نبيه نوح: ﴿**وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ [هود : ٣٦] حتى ما تحمله أرحامهم إن قُدِّر لهم الخروج إلى الدنيا ، لا يسوءنك فإن النصر قريب ، والنبأ عجب عجيب .

وهنا دعا على قومه : ﴿ **وقال نوحٌ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفَّارًا** ﴾ [نوح : ٢٦ - ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ [هود : ٣٨ - ٣٩] .

قال العلامة الألوسي - رحمه الله :

استهزءوا به لعمله السفينة ؛ إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها ، فتعجبوا من ذلك ، وسخروا منه ، وإما لأنه - عليه السلام - كان

يصنعها في برية بعيدة عن الماء وكانوا يتضاحكون ، ويقولون : يا نوح ، صرت نجّارًا بعد ما كنت نبيًّا .

قال : إن تسخروا منا لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص من العذاب ، فإنا نسخر منكم لما أنتم فيه من الإعراض . إنها منه - عليه السلام - لمّا كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح[١] .

وقال ابن جريج :

إن تسخروا منا في الدنيا ، فإنا نسخر منكم في الدنيا والآخرة ، في الدنيا عند الغرق ، وفي الآخرة عند الحَرَق .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا :

نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدًا لما يحل عليكم ، فإن كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل ، وبما سيكون من عاقبة أمرنا، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يذله ، ويجلب له العار والتبار في الدنيا ، ويحل عليه عذاب مقيم بعد ذلك في الآخرة[٢].

اليوم لكم فرح وغدًا ترح ، اليوم حبرة وغدًا عبرة ، اليوم لطف وغدًا أسف ، اليوم لقاء وغدًا بكاء ، يوم ينكشف المستور عن المحذور !

يقول الشيخ الشنقيطي :

لما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وأصبحوا لا يلدوا[٣] إلا فاجرا كفارا ، فلزم تطهير الأرض منهم ، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان[٤] .

وقال الشيخ سيد قطب :

قد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص ، الذي انتهى إليه القوم في زمانه ؛ ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ، وجرف العواثير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير ﴿ **وقيل بعدًا للقوم الظالمين** ﴾ [هود : ٤٤] بُعدًا لهم من

---

(١) روح المعاني (١١ / ٥٠ - ٥١) .
(٢) تفسير المنار (١٢ / ٧٤) .
(٣) هكذا في الأضواء ، وصوابها يلدون .
(٤) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

الحياة فقد ذهبوا ، وبعدًا لهم من رحمة الله فقد لُعنوا ، وبُعدًا لهم من الذاكرة فقد انتهوا وما عادوا يستحقون ذكرًا ولا ذكرى[١] .

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدًا للقوم الظالمين ﴾ [هود : ٤٤] .

قال ابن كثير :

الجودي : قال مجاهد : هو جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت ، وتواضع هو لله عز وجل ، فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح[٢] .

والجزاء من جنس العمل .

قال القرطبي :

لما تواضع الجودي وخضع عزّ ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذلّ ، وهذه سنة الله في خلقه ، يرفع من يخشع ، ويضع من ترفّع ، ولقد أحسن القائل :

وإذا تذللتِ الرقابُ تخضُّعًا ... منّا إليك فعزها في ذلك[٣]

يذكر الله مصرع هؤلاء الملاعين بآية بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، واستذلت مصافع العرب فسفعت بنواصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنها نطاق البيان ، وكانت من سمهري البلاغة مكان السنان ، عذبة على العذبات ، سلسة على الأسلات المؤمنة .

والعجيب أن هذه الآية كانت كطوفان نوح على أهل الفصاحة ومن أرادوا أن يعارضوا القرآن .

---

(١) الظلال (٣٧١٧/٦) ، (١٨٧٩/٤) .

(٢) ابن كثير (٢٥٦/٤) ، الطبري (٣٣٧/١٥) .

(٣) القرطبي (٥ / ٣٢٧٠) .

يروى أن كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن ، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يومًا ؛ لتصفو أذهانهم ، فلما أخذوا فيما قصدوه ، وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض : هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين ، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا .

ويروى أيضًا أن ابن المقفع - وكان كما في القاموس فصيحًا بليغًا ، بل قيل : إنه أفصح أهل وقته - رام أن يعارض القرآن فنظم كلامًا ، وجعله مفصلا ، وسماه سورا ، فاجتاز يوما بصبي يقرؤها في مكتب ، فرجع ومحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبدا وما هو من كلام البشر[1] .

لطيفة :

لمّا عمّ أهل الأرض العمى عمّا خُلقوا له ، بُعث نوح بجلاء أبصار البصائر فمكث يداويهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فكلهم عن المحجة تعامى ، فلاح للاحي عدم فلاحهم ، وناله اليأس من صلاحهم ، وبعث شكاية الأذى في مسطور : ﴿ **رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا** ﴾ [نوح : ٢١] فأذن مؤذن الطرد : ﴿ **أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ [هود : ٣٦] ، فقام نوح في محراب : ﴿ **لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا** ﴾ [نوح : ٢٦ ، ٢٧] .

فات النور ﴿ **وفار التنور** ﴾ [هود : ٤٠] ، وقيل : يا نوح قد حان الحين : ﴿ **احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ [هود : ٤٠] ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾ [القمر : ١١ - ١٢] .

أتى الماء في موج كالجبال ، يغسل ويطهر الأرض من جبال الخطايا ودنس الشرك ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) روح المعاني (١١ / ٦٣) .

○ قصة عاد ○

وقد كانوا عربًا يسكنون الأحقاف - وهي جبالِ الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر ، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد** ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧] وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وقد أعطاهم الله بسطة في الجسم .

قال تعالى : ﴿ **وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منَّا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ [فصلت : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة** ﴾ [الأعراف : ٦٩] فجعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش .

قال تعالى : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون** ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ، ١٢٩] أرسل الله إليهم نبيه هودًا ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فلما أبوْا إلا الكفر بالله - عز وجل - أهلكهم الله .

أما تفصيل إهلاكهم : فقد قال ابن إسحاق : لما أبوْا إلا الكفر بالله - عز وجل - أمسك عنهم المطر ثلاث سنين ، حتى جهدهم ذلك ، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه ، إنما يطلبونه منه بحرمه ومكان بيته - وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون - ، وكان سيدهم[1] إذ ذاك رجلًا يقال له : معاوية بن بكر ، وكانت أمه من قوم

---

(١) أي سيد العماليق .

عاد واسمها : جلهذة بنة الخيبري - قال : فبعثت عاد وفدًا قريبا من سبعين رجلًا ؛ ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه ، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر . فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة على قومهم ، واستحيى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرًا يعرِّض لهم بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنيهم به ، فقال :

ألا يا قيلُ ويحكَ قمْ فَهَيِّمْ ... لعلّ اللهَ يمنحنا غمامَا
فيسقي أرض عاد إنّ عادًا ... قد امسوا لا يُبِينُونَ الكلامَا
من العطشِ الشديدِ فليس نرجو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلامَا
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ ... لقد أمستْ نساؤهمُ أيامَا
وإن الوحش يأتيهم جهارًا ... ولا يخشى لعاديٍّ سهامَا[1]
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتمْ ... نهارُكُمُ وليلكُمُ تمامَا
فَقُبِّحَ وفدكُمْ من وفد قومٍ ... ولا لُقُّوا التحيةَ والسلامَا

قال : فعند ذلك تنبه القوم لِمَا جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرم ودعَوْا لقومهم فدعا داعيهم - وهو قيل بن عنز - فأنشأ الله سحابات ثلاثًا : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثم ناداه منادٍ من السماء : اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب . قال : فاخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً . فناداه : اخترت رمادًا رمددًا ، لا تبقي من عاد أحدًا ، لا والدًا تترك ولا ولدًا إلا جعلته همدًا ، إلا بني اللودية الهمدا . قال : وهو بطن من عادٍ كانو مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم ، قال : ومَنْ بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة . وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له : المغيث ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ﴿ **فلمَّا رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم**

---

(١) والجزاء من جنس العمل .

قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ، ٢٥] ، أي كل شيء أُمرت به ، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها : فهد ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا : ما رأيت يا فهد ؟ قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار ، أمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا ، فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك ، قال : واعتزل هود عليه السلام فيما ذُكر لي ، هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلّا ما يلين عليهم الجلود ويلذ الأنفس ، وإنما تمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض . قال تعالى : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾ [الحاقة : ٦] لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن : ﴿ **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ [الحاقة : ٧] كوامل متتابعات ، ﴿ **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ [الحاقة : ٧] مصروعين مجدلين متناثرين ، كأنهم أعجاز نخل بجذوعها وأصولها فارغة ، تآكلت أجوافها ، فارتمت ساقطة على الأرض هامدة ، كانت الريح تجيء إلى أحدهم فتحمله ، فترفعه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقى جثة بلا رأس ، كما قال : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ [القمر : ١٩ ، ٢٠] وقال تعالى : ﴿ **وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [الذاريات: ٤١ ،٤٢]. هذه الريح ما أنتجت خيرًا ، ما نثرت سحابًا ولا لقحت شجرًا .

وقال ابن حجر في قوله تعالى : ﴿ **فهل ترى لهم من باقية** ﴾ [الحاقة : ٨] قال البخاري : بقية ، ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ويراد به القتل الشديد القوي ، إشارة إلى أنهم موصوفون بالشدة والقوة[1] اهـ .

وفي الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدبور » .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٣٥) .

وعن عليّ موقوفًا ، فيما أخرجه ابن أبي حاتم ، قال : « لم ينزل الله شيئًا من الريح إلا بوزن على يدي ملك ، إلا يوم عادٍ فإنه أُذن لها دون الخزّان فعتت على الخزّان »[1].

قال الحافظ في الفتح : كانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرها جنانا فلما سخط الله - جل وعلا - عليهم جعلها مفاوز[2] .

عن أبي وائل عن رجل من ربيعة قال : قدمت المدينة ، فدخلت على رسول الله ﷺ فذكرت عنده وافدَ عاد ، فقلت : أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد. فقال رسول الله ﷺ : «وما وافد عاد؟» قال: فقلت: على الخبير بها سقطت ؛ إن عادًا لما أقحطت بعثت قيلًا ، فنزل على بكر بن معاوية ابن وائل ، فسقاه الخمر ، وغنته الجرادتان ، ثم خرج يريد جبال مهرة ، فقال : اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه ، ولا لأسير فأفاديه ، فاسق عبدك ما كنت مسقيه ، واسق معه بكر بن معاوية - يشكر له الخمر الذي سقاه - فرفع له سحابات ، فقيل له : اختر إحداهن ، فاختار السوداء منهن ، فقيل له : خذها رمادًا رمددًا ، لا تذر من عاد أحدًا . وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة - يعني حلقة الخاتم - ثم قرأ : ﴿ **إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ [الذاريات : ٤١ ، ٤٢] .

قال ابن حجر في حديث : « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » أي قتلًا فلا يبقي منهم أحدًا .

لطيفـة

لمّا تجبر قوم عاد ، في ظل ظلل ضلالهم ، حين أملى الأمل وطول البقاء ، وزوي ذكر زوالهم . ومرّوا في مشارع عذاب الملاهي . ناسين مرّ عَذابها ، رافلين في حلل الغفلة عن المنية وآدابها ، أقبل هود يهديهم ، ويناديهم في ناديهم

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٣٤ - ٤٣٥) ومن طريق قبيصة بن ذؤيب أحد كبار التابعين ، نحوه بسند صحيح .

(٢) فتح الباري (٦/٤٣٤) .

﴿ **اعبدوا الله** ﴾ [الأعراف : ٦٥] فبرزوا في عتو ﴿ **من أشد منا قوة** ﴾ [فصلت : ١٥] ، فسحب سحاب العذاب ذَيلَ الإدبار بإقباله إلى قبالتهم ، فظنوه لما اعترض عارض مطر ، فتهادوا تباشير البشارة ، بتهادي بشارة ﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ [الأحقاف : ٢٤] فصاح بلبل البلبال فبلبل ﴿ **بل هو ما استعجلتم به** ﴾ [الأحقاف : ٢٤]، فكان كلما دنا وترامى ، ترى ما كان كأن لم يكن ، فحنظلت شجرات مشاجرتهم هودا ، فجنى مَنْ جنى من جنا ما جنى[1] ، في مغنى ﴿ **فما أغنى عنهم سمعهم** ﴾ [الأحقاف : ٢٦] فراحت ريح الدبور ، لكي تَسِمْ الأدبار بكيِّ الأدبار ، فعجّوا منها عجيج الأدبر . فلم تزل تكوى تكوينهم بميسم العدم ، وتلوى تلوينهم إلى حياض دم الندم . وتكفأ عليهم الرمال فتكفى تكفينهم . وتبرزهم إلى البراز عن صون حصون كن يقينًا يَقِينَهم[2] .

فإذا أصبحت أخذت تنزع في قوس ﴿ **تنزع الناس** ﴾ [القمر : ٢٠] وإذا أمست أوقعت عريضهم في عرض ﴿ **كأنهم أعجاز نخل** ﴾ [الحاقة : ٧] فما برحت بارحهم[3] عن براحهم حتى برّحت بهم ، ولا أقلعت حتى قلعت قلوع[4] قلاعهم ، فدامت عليهم آفة وداء ، لا تقبل فداء ﴿ **سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ [الحاقة : ٧] فحسوا ما أذاقهم من سوء ما سوما ، ونسفوا في قفر ﴿ **ألا بعدًا** ﴾ [هود : ٦٠] إلى يمٍّ ﴿ **وأتبعوا** ﴾ [هود : ٦٠] . فلو عبرت في معبر الاعتبار ، لترى ما آل إليه مآلهم لرأيت التَّوى[5] كيف التوى عليهم ، وكفّ النّوى كيف نوى الدنوّ إليهم ، فانظر في عواقب الخلاف ، فإنه شافٍ كافٍ[6] .

فانظر كيف كان عقاب عاد من جنس أعمالهم .

فعاد لطغيانهم كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ [الفجر : ٦ - ٨] وسواء عماد بيوتهم وقصورهم فهو كناية عن طول أجسادهم ووفرة أموالهم ، وتوافر القوة عندهم ،

---

(١) جنى : من جنى الثمر، ما جنى: من الجناية. (٢) يمنعنهم .

(٣) الريح الحارة . (٤) الشراع . (٥) الهلاك . (٦) المدهش ص٧٧-٧٨.

فأخذوا بالريح وهو أرق وألطف ما يكون ، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة[١] .

﴿ وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كلّ جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة ألا إن عادًا كفروا ربهم ألا بعدًا لعادٍ قوم هود ﴾ [هود : ٥٩ - ٦٠] .

○ ثمــود ○

وهم قوم نبي الله صالح - عليه السلام - وكانوا عربًا من العاربة ، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك ، بعث الله فيهم رجلًا منهم وهو صالح عبد الله ورسوله ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ، ولا يشركوا به شيئًا ، فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وقد بلغت قلوبهم من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر بشاشة قول نبي الله صالح **﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾** [هود : ٦٢] .

إنها للقاصمة ! فكل شيء يا صالح إلا هذا ! وما كنا لنتوقع أن تقولها ! فيالخيبة الرجاء فيك[٢]

قال ابن كثير :

ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح ﷺ فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم ، ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك[٣]- ناقة من صفتها كيت وكيت[٤] ، وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها ، وأن تكون طويلة من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم النبي صالح - عليه السلام - :

---

(١) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) . (٢) الظلال (٤ / ١٩٠٧) .

(٣) قال ابن كثير (٣ / ٤٣٦) : يقال لهذه الصخرة : الكاتبة .

(٤) قال ابن كثير (٣ / ٤٣٦) : ناقة عشراء تمخض أي يأخذها الطلق .

أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم ، على الوجه الذي طلبتم أتأمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ . قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله - عز وجل - ما قدر له ، ثم دعا ربه - عز وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا ، فلمّا عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيمًا ، ومنظرًا هائلًا ، وقدرة باهرةً ، ودليلًا قاطعًا ، وبرهانًا ساطعًا فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ، ولهذا قال : ﴿ **فظلموا بها** ﴾ [الإسراء : ٥٩] وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو ، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة ، وكان من أشرافهم ، فهمّ بالإسلام ، فنهاه المشركون فمال إليهم ، وفي هذا يقول رجل من المسلمين يقال له : مهرش بن غنمة بن الذميل - رحمه الله - :

وكانت عصبةٌ من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابَا
عزيـز ثمود كلهـم جميعـا ... فهَمَّ بأن يجيب ولو أجابَا
لأصبح صالحٌ فينا عزيـزًا ... وما عدلوا بصاحبهمْ ذُؤابَا
ولكنَّ الغواة من آل حجـر ... تولوا بعد رشدهمُ ذئابَـا[1]

وقال لهم صالح - عليه السلام - : ﴿ **هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ [هود : ٦٤] ، فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يومًا بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم ، ويقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، ولهذا قال : ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ [الشعراء : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** ﴾ [القمر : ٢٨] ، فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم ، واتفق رأيهم على أن

---

(١) وفي بعض الروايات ذبابا .

يعقروا الناقة ؛ ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم[١] .

قال قتادة : بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها ، حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان .

قال ابن كثير :

وهذا هو الظاهر ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها** ﴾ [الشمس : ١٤] وقال : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** ﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال : ﴿ **فعقروا الناقة** ﴾ [الأعراف : ٧٧] فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة فدلّ على رضى جميعهم بذلك ، والله أعلم[٢] .

قال ابن كثير :

ذكر الإمام ابن جرير - رحمه الله - وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة أن امرأة منهم ، يقال لها : عنيزة بنة غنم بن مجلز ، وتكنى أم غنم ، كانت عجوزًا كافرة ، وكانت من أشد الناس عداوةً لصالح - عليه السلام - ، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل ،وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود ، وامرأة أخرى يُقال لها : صدوف بنة المحيا بن دهر بن المحيا ، ذات حسب وجمال ، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته ، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة ، فدعت صدوف رجلًا يقال له : الحباب . وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة ، فأبى عليها ، فدعت ابن عم لها يقال له : مصدع بن مهرج ابن المحيا ، فأجابها إلى ذلك . ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جُندع وكان رجلًا أحمر أزرق قصيرًا ، يزعمون أنه ولد زنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه - وهو سالف - وإنما هو من رجل يقال له : صهياد[٣] ،

---

(١) البداية والنهاية بتصرف (١ / ١٢٦ - ١٢٧) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٣٧) .

(٣) في البداية والنهاية (١ / ١٢٧) : صبيان .

ولكن ولد على فراش سالف ، وقالت له : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة ! فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستفزا غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون** ﴾ [النمل : ٤٨] ، وكانوا رؤساء في قومهم ، فاستمالوا القبيلة الكافرة ، فطاوعتهم على ذلك ، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى ، فمرّت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهًا لقدار وذمرته[١] ، فشد على الناقة بالسيف ، فكسف عرقوبها[٢] ، فخرّت ساقطة إلى الأرض ، ورغت رغاة واحدة تحذر سقْبها[٣] ، ثم طعن في لبتها فنحرها ، وانطلق سقبها - وهو فصيلها - حتى أتى جبلًا منيعًا ، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا . ويقال : إنه رغا ثلاث مرات ، وإنه دخل في صخرة فغاب فيها ، ويقال : بل اتبعوه فعقروه مع أمه ، والله أعلم[٤] .

فلمّا فعلوا ذلك ، وفرغوا من عقر الناقة بلغ الخبر صالحا - عليه السلام - فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى ، وقال : ﴿ **تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ [هود : ٦٥] .

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح ، وقالوا : إن كان صادقًا عجّلناه قبلنا ، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته : ﴿ **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥١] فلما عزموا

(١) ذمرته : شجعته وحثته وحرضته .
(٢) كسف عرقوبها : أي قطعه .
(٣) السّقب : ولد الناقة .
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨) .

على ذلك وتواطئوا عليه ، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح ، أرسل الله - سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله - عليهم حجارة فرضختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم ، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح - عليه السلام - وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة ، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة . فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ، عياذًا بالله من ذلك ، لا يدرون ماذا يفعل بهم ، ولا كيف يأتيهم العذاب ، وأشرقت الشمس ، فجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح ، وزهقت الأنفس في ساعة واحدة ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٧٨] صرعى لا أرواح فيهم ، ولم يفلت منهم أحد ، لا صغير ولا كبير ، ولا ذكر ولا أنثى - قالوا : إلا جارية كانت مقعدة - واسمها : كلبة ابنة السلْق . ويقال لها : الزريقة . وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالح - عليه السلام - فلما رأت ما رأت من العذاب أُطلِقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شيء ، فأتت حيًا من الأحياء ، فأخبرتهم بما رأت وما حلّ بقومها ، ثم استسقتهم من الماء ، فلما شربت ماتت .

وفي مسند أحمد عن جابر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفجّ ، وتصدر من هذا الفجّ ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يومًا ، ويشربون لبنها يومًا ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله » . فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رِغال ، فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه »[1].

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦ / ٤٣٩) : رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن عن جابر يرفعه . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٣٦) : هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم .

عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بأشقى الناس رجلينِ ؟ أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذه ، حتى يبلَّ منها هذه »[١] .

قال تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ [القمر : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ﴾ [القمر : ٣١] .

قال الشنقيطي :

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية ؛ لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فلما كان نداؤهم صاحبهم سببًا في عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية[٢].

والجزاء من جنس العمل .

لم تبق منهم باقية ، خمدوا وهمدوا كما يهمد ييبس الزرع والنبات .

قال تعالى : ﴿ فقالوا أبشرًا منا واحدًا نتبعه إنا إذًا لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾ [القمر : ٢٤- ٢٥].

إنها الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة ، ولكن إلى الداعية ، فتستكبر من اتباع فرد من البشر ؛ مخافة أن يكون في اتباعها له إيثار وله تعظيم ، ومِنْ ثم يقولون لأنفسهم : ﴿ أبشرًا منا واحدًا نتبعه إنا إذًا لفي ضلال وسعر ﴾ [القمر : ٢٤] أي لو وقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم في سُعُر - لا سعير واحد - إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن عمار بن ياسر ، وأحمد في مسنده والنسائي في الخصائص ، والطحاوي ، والبزار ، وقال الهيثمي : رجال البزار موثقون ، غير أن التابعي لم يدرك عمارًا ، وصححه السيوطي والألباني انظر صحيح الجامع ٢٥٨٦ ، والصحيحة ١٧٤٣ .

(٢) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

قال صاحب المنار :

في عذاب ثمود ومدين من سورة الأعراف أنهم أخذتهم الرجفة كما في آيتي ٧٧/٩٠ .

وفي مدين من سورة العنكبوت الآية ٣٧ ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ .

وفي فصلت في ثمود : ﴿ **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾ [فصلت : ١٧].

وفي سورة الذاريات : ﴿ **فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون** ﴾ [الذاريات : ٤٤].

والرجفة هي الهزة والاضطرابة الشديدة ، وهي تصدق باضطراب أبدانهم وأفئدتهم كأرضهم ، فالجامع بين هذه الألفاظ أن الله تعالى أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد ، فرجفوا أو رجفت أرضهم ، وزلزلت من شدتها وخروا ميتين[1] .

قال القاسمي :

قال الرازي : زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت ، وهي الرجفة ، والطاغية ، والصيحة .

والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيوانًا أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة ، ويقال : طغى طغيانًا ، وهو طاغٍ وطاغية وقال في غير الحيوان : ﴿**إنا لما طغا الماء**﴾ [الحاقة : ١١] . أي غلب وتجاوز الحد.

وأما الرجفة : فهي الزلزلة في الأرض ، وهي حركة خارجة عن المعتاد . فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها .

وأما الصيحة : فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة .

وأما الصاعقة : فالغالب أنها الزلزلة وكذلك الزجرة ، قال تعالى : ﴿ **فإنما**

---

(١) المنار (١٢ / ١٥٠) .

هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] **فبطل ما زعمه** ذلك البعض[١] .

ما ألطف قول عمادة اليمن :

لا تعجبًا لقدار ناقة صالح فلكل عصر ناقة وقـدار[٢]

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [الأعراف : ٧٨] .

قال القاسمي :

﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ [الأعراف : ٧٨] أي الصيحة التي يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها ، وبدل حركتها عند نزوع الروح .

﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [الأعراف : ٧٨] أي ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها .

يقول الشيخ سيد قطب في لفتة طيبة ، رابطًا بين العمل والجزاء ، مبينًا أن الجزاء مِن جنس العمل :

﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

إنه التبجح الذي يصاحب المعصية . ويعبر عن عصيانهم بقوله : **﴿ عتوا ﴾** لإبراز سمة التبجح فيها ؛ وليصور الشعور النفسي المصاحب لها ، والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير .

ولا يستأني السياق في إعلان الخاتمة ، ولا يفصل كذلك : **﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾** [الأعراف : ٧٨] .

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح ؛ فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك ، وما أجدر العاتي أن يرتجف ، وما أجدر المعتدي أن يعجز . جزاءً وفاقًا في المصير . وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير .

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٧ / ٢٧٩٦) .

(٢) روح المعاني للألوسي (١٦٨/٧)، (١٦٨/٨) .

ويدعهم السياق على هيئتهم : ﴿ **جاثمين** ﴾ ليرسم لنا مشهد صالح الذي كذبوه وتحدوه : ﴿ **فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ [الأعراف : ٧٩] إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح ؛ والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب ...

وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين . ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين(١) .

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة** ﴾ [القمر : ٣١] وإن كانت في موضع آخر في سورة فصلت توصف بأنها صاعقة ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ [فصلت : ١٣] وقد تكون كلمة صاعقة وصفًا للصيحة ، فهي صيحة صاعقة ، وقد تكون تعبيرًا عن حقيقتها فتكون الصيحة والصاعقة شيئًا واحدًا . وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة ، أو تكون الصاعقة أثرًا من آثار الصيحة .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، فعلت بهم ما فعلت ، مما جعلهم ﴿ **كهشيم المحتظر** ﴾ [القمر : ٣١] والمحتظر صانع الحظيرة ، وهو يصنعها من أعواد جافة ، فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيمًا . أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشيمًا تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف .

وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الخامدة !

وهو مشهد مفجع مفزع ، يعرض ردًّا على التعالي والتكبر ، فإذا المتعالون المتكبرون هشيم . وهشيم مهين كهشيم المحتظر(٢)!

وقال تعالى : ﴿ **ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ [النمل : ٥٠ - ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ **وكانو ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين . فأخذتهم الصيحة**

---

(١) في ظلال القرآن (٣ / ١٣١٤) .
(٢) الظلال (٦ / ٣٤٣٣) .

مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ [الحجر : ٨٢ - ٨٤] .

هذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال ، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقي لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئاً يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف .. هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة ، فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور ، وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع ، فإذا كل شيء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصن موهوب ، صيحة تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين[1] .

لطيفة :

لما أعرضت ثمود عن كل فعل صالح ، بُعث إليهم للإصلاح صالح ، فتعنت عليه ناقة أهوائهم بطلب ناقة ، فخرجت من صخرة صماء تقبقب[2] ثم فصل منها فصيل يرغو ، فأرتعت حول نهي نهيهم منها ، في حمى حماية : ﴿ **ولا تمسوها** ﴾ [هود : ٦٤] ، فاحتاجت إلى الماء ، وهو قليل عندهم ، فقال حاكم الوحي : ﴿ **لها شرب** ﴾ [الشعراء : ١٥٥] ، فكانت يوم ورودها ، تقضي دَيْن الماء بماء درها . فاجتمعوا في حلة الحيلة ، على شاطىء غدير الغدر ، فدار قدار حول عطن[3] ﴿ **فتعاطى** ﴾ [القمر : ٢٩] ، فصاب عليهم صيب صاب صاعقة العذاب الهون ، فحين دنا وديدن ، دمغهم دمار ﴿ **فدمدم** ﴾ [الشمس : ١٤] فأصبحت المنازل لهول النازل : ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ [يونس : ٢٤] صيحة كانت البداية . وصيحة كانت جزاء ونهاية .

اعتبروا إخواني بهؤلاء الهالكين ، وانظروا سوء تدبير الخاسرين ، لا بالناقة اعتبروا ، ولا لتعويضهم اللبن شكروا ، وعتَوْا عن النِّعَمِ وبطروا ، وعَمُوا عن الكرم فما نُظِروا ، وأُوعدوا بالعذاب فما حذروا ، كلما رأوا آية من الآيات كفروا .

---

(١) الظلال (٤/٢١٥١-٢١٥٢) . (٢) تقبقب : تصوت. (٣) مناخ .

الطبع الخبيث لا يتغيّر ، والمقدَّر ضَلَالُه لا يزال يتحير ، خرجت إليهم ناقة من أحسن النَّعَم ، ودرّ لبنها لهم فتواترت النِّعَم ، فكفروا وما شكروا ، فأقبلت النقم .

أعاذنا الله وإياكم من الكفران ، وحفظنا من موجبات الخسران إنه إذا لطف صان[1].

○ قوم إبراهيــــم ○

يقص الله تعالى ما كان بين إبراهيم وقومه ، بعد علمهم بتكسيره كبير أصنامهم : ﴿ **قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم . وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [الأنبياء : ٦٨ - ٧٠].

وقال تعالى : ﴿ **قالوا ابنوا له بنيانًا فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ [الصافات : ٩٨] .

قال ابن كثير - رحمه الله -:

شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له ، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم ، ثم عمدوا إلى جوبة[2] عظيمة ، فوضعوا فيها الحطب ، وأطلقوا فيه النَّار ، فاضطرمت ، وتأججت ، والتهبت ، وعلا لها شرر لم ير مثله قط[3] ، ثم وضعوا إبراهيم - عليه السلام - في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد ، يقال له : هزن[4].

فماذا كان جزاؤه ؟

قال الألوسي :

---

(١) التبصرة ١ / ٩٥ -٩٦ . (٢) حفرة .

(٣) حتى إن الطير تمر بها فتحترق من شدة وهجها .

(٤) البداية والنهاية (١ / ١٣٧ - ١٣٨) .

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر فقال : أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم - عليه السلام - بالنار ؟ قلت : لا . قال : رجل من أعراب فارس يعني : الأكراد . ونص على أنه من الأكراد ابن عطية ، وذكر أن الله تعالى خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، واسمه على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي : هيون[1].

وقال ابن كثير :

وجعلوا إبراهيم في كفة المنجنيق ، بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد - قال شعيب الجبائي : اسمه هيزن - فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[2] .

وهكذا كان جزاؤه من جنس عمله : أراد وضع إبراهيم عليه السلام في المنجنيق ؛ ليرفعه إلى أعلى ويهوى به إلى أسفل فخسف به إلى أسفل جزاءً وفاقًا .

﴿ قالوا حَرِّقوه ﴾ [الأنبياء : ٦٨] .

يُروى أنهم بنوا لإبراهيم بنيانًا وألقوه فيه ، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ، ثم أطبقوا عليه ، ثم فتحوا عنه فإذا هو غير محترق يعرق عرقًا ، فقال لهم حارث أبو لوط : إن النار لا تحرقه ؛ لأنه سحر النار ، ولكن اجعلوه على شيء ، وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله ، فجعلوه فوق شيء وأوقدوا تحته ، فطارت شرارة فوقعت في لحية أبي لوط فأحرقته[3] .

وروى نفس القصة الألوسي في روح المعاني وغيّر اسم أبي لوط إلى هاران.

وزاد : أخرج عبد بن حميد عن سليمان بن صرد وكان قد أدرك النبي ﷺ أن أبا لوط قال - وكان عمه - : إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني ،

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٧/٦٧-٦٨). (٢) تفسير ابن كثير (٥/٣٤٥) .

(٣) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة القمي النيسابوري ، مطبوع على هامش تفسير الطبري (٩ / ٣٦) طبعة دار الريان للتراث .

فأرسل الله تعالى عنقا من النار فأحرقه(١) .

والجزاء من جنس العمل .

وانظر - رحمك الله - كيف يبدو لك بجلاء أن الجزاء من جنس العمل من هذه الآية : ﴿ فأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأسفلين ﴾ [الصافات : ٩٨] .

قال العلامة القمي :

أججوا نارًا عظيمة وبنوا بناءً عاليًا ، ورفعوه إليه ورموا به إلى أسفل ، فرفعه الله وجعلهم في الدنيا من السافلين ، وفي العقبى من السافلين(٢) .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ [الأنبياء : ٧٠] أي : المغلوبين الأسفلين ؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيدًا فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك(٣).

وقال الألوسي :

فأرادوا به كيدا بسوء احتيال ، فإنه - عليه السلام - لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك ؛ لئلا يظهر للعامة عجزهم : ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ [الصافات : ٩٨] الأذلين بإبطال كيدهم ، وجعله برهانًا ظاهرًا ظهور نار القِرى ليلًا على علم ، على علوّ شأنه - عليه السلام - حيث جعل سبحانه النار عليه بردًا وسلامًا(٤).

جزاء الوزغ من جنس عمله :

حتى الوزغ كان جزاؤه من جنس عمله ؛ إذ كان مشاركًا لهم ، فقد روى البخاري عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ(٥) ، وقال : « وكان ينفخ على إبراهيم »(٦) ووقع في حديث عائشة : أن إبراهيم لما ألقي في

---

(١) روح المعاني (١٧ / ٦٩) .
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٩ / ٣٦) .
(٣) ابن كثير (٥ / ٣٤٧) .
(٤) روح المعاني (٢٣ / ١٢٦) .
(٥) سام أبرص .
(٦) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

النار لم يكن في الأرض دابة إلا أطفأت عنه ، إلا الوزغ ، فإنها كانت تنفخ عليه ، فأمر النبي ﷺ بقتلها[1] .

وجزاؤها من جنس عملها .

لا بارك الله أرواح الملاعين من قوم إبراهيم .

قال ابن كثير :

أرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يَغْلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ **الأسفلين** ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا وسلاما ، ولا يلقّون فيها تحية ولا سلاما ، بل هي كما قال تعالى : ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾[2] اهـ .

النمرود بن كنعان :

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

قال ابن جرير :

قال مجاهد : ﴿ **أنا أحيي وأميت** ﴾ أقتل من شئت وأستحيي من شئت أدعه حيّا فلا أقتله ، وقال : ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران : بختنصر ، ونمرود بن كنعان لم يملكها غيرهم .

قال زيد بن أسلم : أول جبار كان في الأرض نمرود ، فكان الناس يخرجون

---

(١) فتح الباري (٦ / ٤٥٥) ، والحديث عند ابن ماجة وأحمد .

(٢) البداية والنهاية (١ / ١٣٨) .

فيمتارون من عنده الطعام ، فخرج إبراهيم يمتار مع مَنْ يمتار ، فإذا مرّ به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا : أنت حتى مر إبراهيم ، فقال له : من ربك ؟ قال : ﴿ الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ﴾ قال : فرده بغير طعام . قال : فرجع إبراهيم على أهله فمر على كثيب من رمل أعفر ، فقال : ألا آخذ من هذا فآتي به أهلي ، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم . فأخذ منه فأتى أهله ، قال : فوضع متاعه ثم نام ، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هي بأجود طعام رأته فصنعت له منه ، فقربته إليه وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام ، فقال : من أين هذا ؟ قالت : من الطعام الذي جئت به . فعلم أن الله رزقه فحمد الله .

ثم بعث الله إلى الجبار مَلَكًا أن آمن بي وأتركك على ملكك . قال : وهل رب غيري ؟ فجاءه الثانية : فقال له ذلك ، فأبى عليه ، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه ، فقال له الملك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع الجبار جموعه ، فأمر الله الملك ففتح عليه بابًا من البعوض ، فطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم ، فأكلت من لحومهم ، وشربت دماءهم ، فلم يبق إلا العظام والملك كما هو لم يصبه من ذلك شيء ، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه ، وكان جبارًا أربعمائة عام ، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته الله ، وهو الذي بنى صرحًا إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد ، وهو الذي قال الله : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾[1] [النحل : ٢٦] .

قال ابن كثير :

مكثت في منخره أربعمائة سنة ، عذبه الله تعالى بها ، فكان يضرب رأسه بالمزارب في هذه المدة حتى أهلكه الله عز وجل بها[2] .

---

(١) تفسير الطبري (٣ / ١٨) .

(٢) البداية والنهاية (١ / ١٤١) .

هذا خذلان لرأس الطاغين فكيف بالأذناب الأرذلين .

انظر إلى الذي جادل إبراهيم فجَدَّ لَهُ فجدله[١] ، وأبرز نور الهدى في حجة ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ ، فقابله نمرود يسهى السهو في ظلام ﴿ أنا أحيي ﴾، فألقاه كاللقا على عجز العجز بآفات : ﴿ فأت بها ... فبهت .. ﴾ .

لما استكبر وادّعى الربوبية عاقبه الله بأضعف شيء ؛ بالبعوضة في منخره الذي هو علامة العزة ، فانظر كيف أذله الله ، ونفس مدة ملكه عذبه الله .

والجزاء من جنس العمل .

حكاية سارة - رضي الله عنها - مع جبار من الجبابرة :

روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله - عز وجل - قوله : ﴿ إني سقيم ﴾، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ » وقال : « بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة ، فقيل له ، إن هاهنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فسأله عنها ، فقال : مَنْ هذه ؟. قال : أختي . فأتى سارة قال : يا سارة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأُخِذَ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق ، فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلي ، فأومأ بيده : مَهْيَم ؟ . قالت : رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره ، وأخدم هاجر ».

قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بني ماء السماء[٢].

---

(١) غلبه في الجدل .

(٢) رواه أيضًا مسلم ، والبخاري ، وقد صرّح برفعه في النكاح ، والنسائي ، والبزار ، وابن حبان ، وأحمد .

قال ابن حجر :

اسم الجبار المذكور عمرو بن امرىء القيس بن سبأ ، وأنه كان على مصر ، ذكره السهيلي ، وهو قول ابن هشام في التيجان ، وقيل:اسمه : صادوق ، وحكاه ابن قتيبة وكان على الأردن ، وقيل : سنان بن علوان حكاه الطبري ، ويقال : إنه أخو الضحاك الذي ملك الأقاليم[١].

وعند مسلم : فلما دخلت عليه - أي على الملك - لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقبضت يده قبضة شديدة .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دُعي إلى آلهتهم فقال : ﴿ **إني سقيم** ﴾ ، وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ ، وقوله لسارة : « إنها أختي » ، ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك ، أو جبار من الجبابرة ، فقيل دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك أو الجبار : من هذه معك ؟. قال:أختي . قال : فأرسل بها . فأرسل بها إليه ، وقال : لا تكذبي ، قولي فإني قد أخبرته أنك أختي ، إنه ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم ، إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط عليَّ الكافر ، فغُطّ[٢] حتى ركض برجله ، قال أبو هريرة : إنها قالت : اللهم إن يمت يقال هي قتلته ، قال فأُرسل ، قال : ثم قام إليها ... وكذا في الثانية والمرة الثالثة أو الرابعة . فقال : ما أرسلتم إليّ إلا شيطانًا ، ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر ، فرجعت فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين ، وأخدم وليدة[٣].

قال ابن حجر :

---

(١) الفتح (٤٥١/٦) .

(٢) أي : كُبِس وعُصِر عصرة شديدة حتى ليكاد يختنق .

(٣) تفرد به أحمد ، وهو على شرط الصحيح ، انظر البداية والنهاية (١٤٣/١) .

ويمكن الجمع بأنه عوقب تارة بقبض يده وتارة بالصراعة[1] .

فانظر لمّا مدّ الجبار يده قبضت يده ، ولما خطا برجله غُطَّ ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

○ قـوم لـوط ○

وقوم لوط هؤلاء هم سكان مدينة سدوم وما حولها من القرى بالأردن ، بطريق الشام مكان البحر الميت الآن ، وكانوا أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوّية ، وأردأهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ، ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين ، فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات ، والفواحش المنكرات ، والأفاعيل المستقبحات ، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحلَّ الله بهم من البأس الذي لا يُرَدّ ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم ، وجعلهم مُثلة في العالمين ، وعبرة يتعظ بها الألِبَّاء من العالمين ، ولهذا ذكر الله – تعالى – قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين ، فقال تعالى : ﴿ **ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ [الأعراف : ٨٠ – ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون . قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسرِ بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** ﴾ إلى أن قال تعالى :

---

(١) فتح الباري (٦/٤٥٣) .

﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم﴾ [الحجر : ٦١-٧٦].

وقال تعالى : **﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبًا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر ﴾** [القمر : ٣٤ - ٣٩] .

لنقف مع هؤلاء القوم وتصوير القرآن لجرمهم وقفة .

قال المفسرون : لما فصلتِ الملائكة من عند إبراهيم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان ؛ اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط ، وإقامة للحجة عليهم ، فاستضافوا لوطًا - عليه السلام - وذلك عند غروب الشمس ، فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره ، وحسبهم بشرًا من الناس **﴿ سيىء بهم وضاق بهم ذرعًا وقال هذا يوم عصيب ﴾** [هود : ٧٧] .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق : شديد بلاؤه . وذلك لما نعلم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه ألا يضيف أحدًا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه ، وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا ، فاستحى منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرّض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية ، وينزلون في غيرها ، فقال لهم فيما قال : يا هؤلاء ، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلًا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أُمِروا ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك[1].

وانظر كيف يصور القرآن الكريم مجيء الظالمين إلى بيت نبيهم لوط ، قال تعالى : **﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾** [الحجر : ٦٧] .

لقد تسامعوا أن في بيت لوط شبابًا صباحَ الوجوه ، ففرحوا بأن هناك

---

(١) البداية والنهاية ابن كثير (١ / ١٦٨) .

صيدًا ، والتعبير على هذا النحو يكشف مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور ، في الفاحشة الشاذة المريضة ، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعةً يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية ، هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر - فوق المنكر - شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع ، فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، أو يتخفى بمرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء ، وهو يخجل أن يطلع عليه الناس ، وإن الفطر السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية ، بل حين تكون شرعية ، وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك ، بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ؟ إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير .

وفي موقف آخر يقول الله تعالى : ﴿ **وجاءه قومه يهرعون إليه** ﴾ [هود : ٧٨] . رأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد المندفعين إلى داره ، يهددونه في ضيفه وكرامته ، قال تعالى : ﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذر ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر** ﴾ [القمر : ٣٦ - ٣٧] بلغ بهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه - من الملائكة - قد حسبوهم غلمانًا صباحًا فهاج سعارهم الشاذ الملوّث القذر ، وساوروا لوطًا ، يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي أنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض .

ولقد حاول نبي الله لوط أن يوقظ فيهم الفطر السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال : ﴿ **قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم** ﴾ [هود : ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم - وهن بناته شرعًا ؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، وهو الذي نص عليه مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن إسحاق ، وقتادة ، وهو الصواب - أطهر بكل معاني الطهر : النفس ، والحس ، فهن يلبين الفطرة النظيفة ، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة : نظافة

فطرية ، ونظافة أخلاقية ، ودينية . ثم هن أطهر حسيا ، حيث جعلها الله بقدرته للحياة الناشئة مكمنا كذلك طاهرًا نظيفًا .

﴿ **فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي** ﴾ [هود : ٧٨] قالها يلتمس نخوتهم ، وتقاليد البدو في إكرام الضيف ، وقف يستثير النخوةَ الآدمية فيهم ، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يستجاش ، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع .

﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ [هود : ٧٨] فالقضية قضية رشد وسفه ، إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة ، ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميتة الآسنة ، ولا العقول المريضة المأفونة ، وظلت الفورة المريضة في اندفاعها المحموم .

وبدلًا من أن يثير هذا في نفوسهم رواسب المروءة والحياء ، إذا هم يَتَبَجَّحُون ، فيؤنبون لوطًا على استضافة الرجال ، كأنما هو الجاني الذي هيأ لهم أسباب الجريمة ، ودفعهم إليها ، وهم لا يملكون له دفاعا !! ﴿ **قالوا أولم ننهك عن العالمين** ﴾ [الحجر : ٧٠] .

﴿ **قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ [هود : ٧٩] وهي إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث .

وأُسقط في يد لوطٍ وأحس ضعفه ، وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيدٍ ، لا عشيرة له تحميه ﴿ **قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد** ﴾ [هود : ٨٠] وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوي إلى ركن شديد ، ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه ، كما قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد » .

قال ابن كثير في البداية والنهاية[1] :

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطا – عليه السلام – جعل يمانع قومه الدخول، ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم ،

---

(١) (١ / ١٦٩) .

وينهاهم من وراء الباب ، وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم ، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه ، فطمست أعينهم ، حتى قال : إنها غارت بالكلية ، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون الحيطان ، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شأن . فتقدمت الملائكة إلى لوط ، آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ، ولا يلتفت منكم أحد عند سماع صوت العذاب إذا حلّ بقومه ، إلا امرأتك سيصيبها ما أصابهم .

فلما جاء الأوان اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهنّ - وكُن سبع مدن - بمن فيهن من الأمم ، فقالوا : إنهم كانوا أربعمائة نسمة ، وقيل : أربعة آلاف نسمة ، وما معهم من الحيوانات ، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات ، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ [الحجر : ٧٤] ، [هود : ٨٢] وهو الشديد الصلب القوي ﴿ **منضود** ﴾ [هود : ٨٢] أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء ، ﴿ **مسومة** ﴾ [هود : ٨٣] يعني معلمة ؛ مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه .

فكيف كان جزاؤهم من جنس عملهم ؟

قال تعالى : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ [النمل : ٥٦] .

تهكموا منهم بالتطهر من هذا الرجس القذر ، وقد يكون إنكارًا عليه أن يسمى هذا تطهرًا فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة ، وقد يكون ضيقًا بالطهر والتطهر ، إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ !!.

لمّا عميت بصيرتهم أعمى جبريل أبصارهم ﴿ **فطمسنا أعينهم** ﴾ [القمر : ٣٧].

لمّا قلبوا الفطرة ، قلب الله قراهم ﴿ **فجعلنا عاليها سافلها** ﴾ [هود : ٨٢]، [الحجر : ٧٤] .

يقول الشنقيطي :

قوم لوط لكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث ، فكان الجزاء من جنس العمل قلب الله عليهم قراهم ، والعلم عند الله تعالى . اهـ[1].

قال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [النجم : ٥٣] يعني المنقلبة أهوى بها منكسة عاليها سافلها .

﴿ وجعلنا عاليها سافلها ﴾ [هود : ٨٢] .

يقول الشيخ سيد قطب :

هي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها ، وهذا القلب ، وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة ، المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان ، بل أحط من الحيوان ، فالحيوان واقف ملتزم عند فطرة الحيوان[2] .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين ﴾ [النمل : ٥٨] .

يقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله -:

ولكننا نلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر ، وهو الماء المحيي المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف - في غير ما جعل له ، وهو أن يكون مادة حياة وخصب ، والله أعلم بقوله ومراده ، وأعلم بسننه وتدبيره ، إن هو إلا رأي أراه في هذا التدبير[3] .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الشيخ سيد قطب :

وقد أمطروا مطرًا مهلكًا ، مع ما صاحبه من عواصف ، ترى كان هذا

---

(١) أضواء البيان (٨ / ٤٤٣) .
(٢) الظلال (٤ / ١٩١٥) .
(٣) الظلال (٥/٢٦٤٨) .

المطر المغرق والماء الدافق ؛ لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه ، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه[١] .

وقال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل ﴾ [هود : ٨٢] .

حجارة ملوثة بالطين ، وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام .

﴿ منضود ﴾ [هود : ٨٢] متراكم متتابع ، مثل تتابعهم على بيت لوط .

﴿ مسوّمة عند ربك ﴾ [هود : ٨٣] كما تسوم الماشية أي تربى وتطلق بكثرة ، فكأنما هذه الحجارة مرباة ومطلقة ؛ لتنمو وتتكاثر لوقت الحاجة .

قال الشنقيطي : السجيل هو الطين الشديد القوي يصدق ذلك : ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ [الذاريات : ٣٣] وقال الراغب : حجر وطين مختلط .

﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ [الحجر : ٧٦] .

من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم ، كيف غيّر الله تلك البلاد وأهلها ؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة[٢] ؟ . وجعل مكانها بحيرة منتنة .

لما أعرضوا عن الطهارة ماذا كان جزاؤهم ؟

يقول ابن كثير :

جعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة ، لا ينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها ؛ لرداءتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة وعظة ، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته ، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره ، وكذّب رسله ، واتبع هواه ، وعصى مولاه .

فناسبت نتانة البحيرة نتنهم .

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الظلال (٣ / ١٣١٦) .

(٢) البداية والنهاية (١/١٧١).

قال القاسمي :

قال المهايمي : ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم في صورة عذاب .

لطيفة :

نهى لوط قومه عن تعاطي الفواحش التي ذكر الله عنهم ، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا حتى ولا رجلٌ واحد منهم ، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون ، إلا أن قالوا : ﴿**أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾.

فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج ، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج ، فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم في محلتهم خالدين ، لكنْ بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج ، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأججّ ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أُجاج .

ولهذا صاروا مُثْلَة فيها ، وعبرة لمن عليها ، كانوا يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، يأتون في ناديهم المنكر ، حتى قيل : إنهم يتضارطون في مجالسهم ، ولا يستحيون من مجالسهم .

أمرهم لوط بقربان نسائهم ، وحذرهم من طريقتهم وسيئاتهم ، وهم في ذلك لا ينتهون ، ولا يرعوون ، بل كلما نصح لهم يبالغون ويحرضون ، لم يعلموا ما حمّ به القدر وما هم إليه صائرون ، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قال تعالى:

﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ [الحجر : ٧٢] .

عن أبي جعفر – محمد الباقر – قال : قلت لمحمد بن علي – بن الحنفية – : أعذّب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم ؟. قال : الله أعدل من ذلك ؛ استغنى النساء بالنساء ، والرجال بالرجال ، قال حذيفة – رضي الله عنه –: إنما حق القول على قوم لوط حين استغنى النساء بالنساء ، والرجال بالرجال[1].

فالعاقل اللبيب يقبل ما أرشده إليه الرسول الحبيب ، من إتيان ما خلق

---

(١) تفسير المنار (٥٢٢/٨) .

من الزوجات الحلال ، والجواري من السراري ذوات الجمال ، ولا يتبع كل شيطان مريد ، فيحق عليه الوعيد ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ [هود : ٨٣] .

لطيفة :

لما تنادى قوم لوط جهات جهلهم : ﴿ **أخرجوا آل لوط** ﴾ بُعثت الأملاك لانتزاع مِلاك الحياة من أيديهم ، فنزلوا من منزل لوط منزل التنزيل ، وهم في أفسح بيت بني من الكرم ، غير أن حارس حذره ينادي ﴿ **وضاق بهم ذرعا** ﴾ ، فخاف من قومه أذاهم ، لما تهاووا في هُوّة هواهم ، لا يرعوون ، جاءه ضيف ﴿**وجاءه قومه يهرعون إليه**﴾ فدافع بمشورة: ﴿**هؤلاء بناتي**﴾ وتارة بتقاة : ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ ، وتارة بسؤال : ﴿ **ولا تخزون** ﴾ وتارة بتوبيخ : ﴿ **أليس منكم** ﴾ فلما كَلّ كل سلاحه ، وأعيته جهات جهاده ،أَنَّ برمز ﴿ **لو أنّ** ﴾ ، فحجبهم جبريل بحجاب : ﴿ **فطمسنا** ﴾ ، وانتاشه مِنْ أَسْرِ الغم بلفظ : ﴿ **فأسر** ﴾ ، فلما علم أن الملأ ملائكة ، تشوق إلى تعجيل التعذيب ، فنادت عواطف الحلم : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ ، فسار بأهله على أعجاز نجائب النجاة ، إلا عجوز العَجْز عن عرفان المعجز فإنها لحقت بالعجزة ، فلما لاح مصباح الصباح ، احتمل جبريل قُرى مَنْ جَنَى على قَرَا[1] جناحه ، فلم يُكسَّرْ وقتَ رفعهم إناء ، ولم يُرق وقت صعودهم ماء ، فلما سمع أهل السماء نُباح كلابهم ، أسرعت كفّ القِلى بهم في انقلابهم .

فتفكر بالقلب ، كيف جوزوا على قَلْب الحكمة بالقلب ، ثم بعث إليهم سحاب : ﴿ **وأمطرنا** ﴾ فاستقل لهم سد ، سد جرمه الأفق على وفق جرمهم ، فأجيل على الجيل سجل السجيل ، فما برح حتى برح ، ودار هاتف العبرة على دارس دارهم ينادي : ﴿ **ولقد تركنا منها آية ...** ﴾ [العنكبوت : ٣٥] .

قولوا لمن خرج عن الشرع في طلب هذه الفاحشة وشَرَد ، قد رمى القوم

---

(١) القَرَا : الظهر .

بالحجارة وخوفهم بالبَرَد . فليحذر العازمون على طروق طريقهم من وعيد : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ .

○ مدين قوم شعيب ○

كان أهل مدين قومًا عربًا ، يسكنون مدينتهم مدين ، التي هي قرية من أرض معان في أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط ، وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، وكان بها غيضة من الأشجار فأرسل الله إليهم أخاهم شعيبًا .

وعن أبي ذر الغفاري قال رسول الله ﷺ : « أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر »[1] .

قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ [الأعراف : ٨٥ - ٨٧] .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [هود : ٨٤ - ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ، وهو صحيح .

ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفًا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ [الشعراء : ١٧٦ - ١٨٩] .

كان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ، ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ، وهي شجرة من الأيك ، حولها غيضة[١] ملتفة بها ، وكانوا من أسوإ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون[٢] فيهما ، يأخذون بالزائد ، ويدفعون بالناقص ، فبعث الله إليهم شعيبًا ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفعال القبيحة ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، حتى أحل الله بهم البأس الشديد .

ونهاهم عن الظلم **﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾**[٣] .

قال ابن عباس : كانوا قومًا طغاة بغاة ، يجلسون على الطريق ، يبخسون الناس يعني يعشرونهم ، وكانوا أول من سن ذلك .

﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾ نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية .

وذكّرهم بنعمة الله عليهم في تكثيرهم بعد القلة : **﴿ واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾** وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم ، وعذابه الأليم في أخراهم .

﴿ بقية الله خير لكم ﴾ القليل من الحلال خير لكم من الكثير من

---

(١) مجتمع الشجر . (٢) الطفيف : القليل .

(٣) أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك ، وتخيفون السبل .

الحرام ، فإن الحلال مبارك وإن قلّ ، وإن الحرام ممحوق وإن كثر .

﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ [هود : ٨٩] معناه في الزمان ، أي ما بالعهد من قدم ممّا بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعتوهم .

وقيل : معناه ما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان .

وقيل : في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية ، بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن ، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفات .

فماذا كان موقف أهل مدين :

في تبجح تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه ، يقولون قولة فاجرة : ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا** ﴾ [الأعراف : ٨٨] .

وقالوا أيضًا : ﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ [هود : ٨٧] .

وهو رد واضح التهكم ، بيّن السخرية في كل مقطع من مقاطعه ، وإن كانت سخرية الجاهل المطموس والمعاند بلا معرفة ولا فقه ، يتوقّح القوم بالسخرية فيقولون : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ وهم يعنون عكس معناها ، فالحلم والرشد عندهم ما يعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق .

وقالوا أيضًا : ﴿ **يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ [هود : ٩١] فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ، لا يريدون أن يدركوه ، وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة ﴿ **وإنّا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك** ﴾ [هود : ٩١] ففي حسابهم عصبية العشيرة لا عصبية الاعتقاد ، وصلة الدم لا صلة القلب ، ثم هم يغفلون عن غيرة الله على

أوليائه ، فلا يضعونها في الحساب .

﴿ **وما أنت علينا بعزيز** ﴾ [هود : ٩١] . حين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة ، فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ، فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ، ولا تتحرج عن البطش بالداعية ، إلا أن تكون عصبة تؤيده ، وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه ، أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية .

يقول لهم نبيهم شعيب : ﴿ **يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا** ﴾ [هود : ٩٢] أهؤلاء أشد قوةً ورهبة في نفوسكم من الله ، لا تلتفون إليه : ﴿ **واتخذتموه وراءكم ظهريا** ﴾ ترك وإعراض وشناعة فعل .

وقالوا له أيضًا : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ [الشعراء : ١٨٥] فهو عندهم من المسحورين يخلط ويهذي ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا**[1] **من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ [الشعراء : ١٨٦، ١٨٧] في تحدي المستهتر الهازىء المستهين ، طلبوا منه أن يسقط عليهم جانبا من السماء ، أو كما يقول قتادة : قطعا من السماء إن كان من الصادقين .

قال ابن حجر :

جاء عن قتادة : أنه – أي شعيب – أرسل إلى أمتين : أصحاب مدين ، وأصحاب الأيكة ، ورجّح بأنه وُصف في أصحاب مدين بأنه أخوهم بخلاف أصحاب الأيكة ، وقال في أصحاب مدين ﴿**أخذتهم الرجفة**﴾ و ﴿**الصيحة**﴾ وفي أصحاب الأيكة ﴿ **أخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ .

والجمهور على أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة ، وأجابوا عن ترك ذكر الأخوة في أصحاب الأيكة ؛ بأنه لما كانوا يعبدون الأيكة ، ووقع في صدر الكلام بأنهم أصحاب الأيكة ناسب ألا يذكر الأخوّة ، وعن الثاني بأن المغايرة في أنواع العذاب إنْ كانت تقتضي المغايرة في المعذبين فليكن الذين عُذبوا بالرجفة

---

(١) يقول أبو عبيدة : الكَسْف جمع كِسْفَة ، والكِسْف والكِسَف جمع كِسْفَة .

غير الذين عذبوا بالصيحة ؛ والحق أنهم أصابهم جميع ذلك ، فإنهم أصابهم حر شديد ، فخرجوا من البيوت فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ، فرجفت بهم الأرض من تحتهم ، وأخذتهم الصيحة من فوقهم[١]. اهـ .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: إن الله سلّط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله أنشأ سحابة فانطلق إليها أحدهم واستظل بها ، فأصاب تحتها بردًا وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعا ، فاستظلوا تحتها فأُجّجت نارًا ، وهكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة .

وقال محمد بن كعب القرظي : إن أهل مدين عُذِّبُوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلّا أطيب ولا أبردَ من هذا ، هلمّوا ، أيها الناس ، فدخلوا جميعًا تحت الظلة ، فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعا ثم تلا محمد بن كعب : ﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ .

وسُئل ابن عباس عن هذه الآية فقال : بعث الله عليهم وَمَدَة[٢] وحرًّا شديدًا ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية ، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها بردًا ولذة فنادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله على الناس ، قال ابن عباس : فذلك : ﴿ **عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾[٣] .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٥١٨ - ٥١٩) .
(٢) ندي من البحر يقع على الناس في شدة الحر وسكون الريح .
(٣) ابن كثير (٦ / ١٧٠ - ١٧١) .

فكيف كان الجزاء من جنس العمل ؟

قال ابن كثير :

قد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات ، وصنوفًا من المثلات ، وأشكالًا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ؛ سلّط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدتِ الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار في سائر أرجائها والجهات ، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ، ويوافق طباقها :

في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم ، أو ليعودنّ في ملتهم راجعين ، فقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ ، فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ، ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة ﴿ **فأصبحوا في ديارهم جاثمين** ﴾ [هود : ٩٤] ؛ وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ [هود : ٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح ، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم ، مع رجفة أسكنتهم .

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا ، وتقريبا إلى ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا : ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ [الشعراء : ١٨٦- ١٨٧] .

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف ، وإنما عمدتهم شيئان :

أحدهما: أنه قال: ﴿**كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب**﴾

[الشعراء: ١٧٦-١٧٧] و لم يقل:أخوهم كما قال: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا﴾ [هود: ٨٤].

والثاني : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجواب عن الأول أنه لم يذكر الإخوة بعد قوله : ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين** ﴾ [الشعراء : ١٧٦] لأنه وصفهم بعبادة الأيكة ، فلا يناسب ذكر الأخوة هاهنا ، ولمَّا نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم ، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة .

وأما احتجاجهم بيوم الظلة ، فإن كان دليلًا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعدد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلًا على أنهما أمتان أخريان ؛ وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن .

قال ابن كثير :

وقال تعالى : ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٠ – ٩٢] وهذا في مقابلة قولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾[1] .

والجزاء من جنس العمل .

ولننظر إلى عبارات المفسرين التي تدور حول هذا المعنى .

قال الألوسي :

﴿ **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا[2] فيها** ﴾ [الأعراف : ٩٢] أي لم يقيموا في دارهم ، عوقبوا بتوعدهم السابق بالإخراج ، وصاروا هُم المخرجين من القرية إخراجًا لا دخول بعده دون شعيب[3] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ١٧٧ – ١٧٨) .

(٢) قال البخاري : يغنوا : يعيشوا .

(٣) روح المعاني للألوسي (٩ / ٦ – ٧) .

وقال الألوسي: في قوله تعالى : ﴿ **الذين كذّبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] .

الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بقولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾ [الأعراف : ٩٠] فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لتكذيبهم ، لا المتبعون لشعيب عليه السلام ، الرد عليهم بعين ما تلفظوا به ، ما جعلوه نصيحة صار فضيحة[1] .

قال القرطبي :

﴿ **الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] ولما قالوا : من اتبع شعيبًا خاسر ، قال الله: الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول[2] .

قال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٩١] .

يقول الشيخ سيد قطب :

الرجفة والجثوم جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدي بالأذى والفتنة ، ويرد السياق على قولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون** ﴾ [الأعراف : ٩٠] وهي التي قالوا مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ، فيقرر – في تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا ، إنما كان من نصيب قوم آخرين .

﴿ **الذين كذبوا شعيبًا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩٢] ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين ، لا حياة ولا حراك كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار .

ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال ، من رسولهم الذي كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن

---

(١) روح المعاني (١٩ / ١٢٠) .

(٢) القرطبي (٤ / ٢٦٨٨) .

مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم في الغابرين ﴿ **فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾ [الأعراف : ٩٣][1] .

خلت منهم الدُّور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكأنْ لم يعمروها حينًا من الدهر ، مضوْا مشيعين باللعنة ، طُويت صفحتهم السوداء في الوجود ، وصفحتهم في القلوب ﴿ **ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ [هود : ٩٥] .

يقول ابن كثير :

لما قالوا : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ [الأعراف : ٩١] أرجفوا بنبي الله ومَنْ اتبعه ، فأخذتهم الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها .

وفي قوله تعالى : ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا .....** ﴾ [هود : ٨٧] .

قال ابن كثير :

لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ، وتهكموا به ، فجاءت الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم .

وقال رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ **فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ...** ﴾ [الشعراء : ١٨٧ - ١٨٩] وكذلك وقع بهم كما سألوا جزاءً وفاقًا ، فقال تعالى : ﴿ **فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة** ﴾ [الشعراء : ١٨٩] وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكسف عليهم ، قالوها على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه .

---

(١) الظلال (٣ / ١٣٢٢) .

وقال ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى : ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ .

كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بدارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ، ثم قال مقابلًا لقيلهم : ﴿ **الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٩١] .

وقال - رحمه الله- :

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن في الأعراف ، وهود ، والشعراء ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة ، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا[1] .

يقول الألوسي :

في إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها ؛ إيذانًا بأن لهم عذابًا آخر غير عذاب الظلة ، وفي ترك بيانه تعظيم لأمره[2] .

نكت بلاغية :

قال تعالى في سورة هود في قصة ثمود ﴿ **فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا** ﴾ [هود : ٦٦] وقال في هود ومدين ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هودًا** ﴾ [هود : ٥٨] ، ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا** ﴾ [هود : ٩٤] .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا :

من دقيق نكت البلاغة في الآيات في قوله تعالى في إهلاك مدين هنا ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا** ﴾ فعطف لمّا على ما قبلها بالواو ، ومثله في قوم هود ، ولكنه عطفها بالفاء في قصة ثمود وقصة قوم لوط ، ووجه هذا الأخير أن الآيتين جاءتا عقب الإنذار بالعذاب ، واستحقاقه وحلول موعده ، فعطفتا بالفاء الدالة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣ / ٤٤٥) ، (٤ / ٢٧٧) ، (٥ / ١٧٠) .

(٢) روح المعاني للألوسي (١٩ / ١٢٠) .

على التعقيب ، وأما عطف مثلهما في قوم هود ، وقوم شعيب فليس كذلك ، فعطف بالواو على الأصل ، أما الأول فظاهر ؛ لأنه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب ، وأما الثاني ففيه وعيد مسوّف فيه مقرون بالارتقاب لا الاقتراب ، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التي تفيد التعقيب بدون انفصال ، فهلْ تَصَادَق مثل هذه الدقائق اللغوية في غير القرآن[1]. اهـ .

لطيفـة :

وبقي من أهل العيب قوم شعيب ، لما رأى شعيب شعاب قومه قد امتلأت بالجور ، صعد منبر التذكير بالإنعام ، ولكن بَيْنَ الأنعام ، فخوّفهم من قحل[2] القحط في إشارة ﴿ **إني أراكم بخير** ﴾ فتلقوه باستهزاء ﴿ **أصلاتك** ﴾ ، ومدوا نحوه باع النخوة : ﴿ **لنخرجنك** ﴾ وتعللوا . بحجة ﴿ **ما نفقه** ﴾ ، وانتهوا إلى عتو ﴿ **فأسقط علينا** ﴾ ، فأظل على ظلل ضلالهم : ﴿ **عذاب يوم الظلة** ﴾ ، فارتجت أرجاء بيوتهم برجّ الرجفة ، وشدّت عليهم شدة الحر ، فهربوا إلى البَرِّ لا إلى البِرّ ، فإذا سحابة تسحب ذيل بَرْد البَرَد ، فتنادوا هلموا إلى راحة الرَّوْح ، فلما تم اجتماعهم في قصر الحصر ، وظنوا أنها من حَرُوقَتِهم وَقَتْهُم ، نزلت بهم نار فأحرقتْهم ، فساروا إلى جهنم في أسر إدبارهم ، وسار بعد بعدهم في أدبارهم ، نذير التحذير من تبديرهم ، وعابهم في عقاب عقابهم ﴿ **ألا بعدًا لمدين** ﴾ فليحذر العصاة مثل أفعى أفعالهم ، وليتقِ أعمى البصيرة شبه أعمالهم ، وليخف المطففون من أخذ التطفيف في مكيالهم ، وليسمعوا نذير العبرة ، فقد أوحي إليهم بشرح أعمالهم .

○ فرعــون ○

انظر كيف كان جزاء هذا الطاغوت المطموس المتعجرف المتكبر من جنس

---

(١) تفسير المنار (١٢ / ١٥٠) .

(٢) ييس .

قوله وعمله .

انظر كم ذبح من الأطفال من أجل ذبح موسى ، ولسان القدر يصيح به : لن نربيه إلّا في حجرك .

قال الله تعالى : **﴿ إن فرعون عَلَا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾** [القصص : ٤ - ٦] .

تجبر وعتا وطغا وبغى وآثر الحياة الدنيا ، وجعل أهلها شيعًا ، يستضعف طائفة منهم ، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض ، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ، ومع هذ **﴿ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾** وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح ؛ أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما حفظوه عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلامٌ يكون هلاك مصر على يديه ، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل ؛ حذرًا من وجود هذا الغلام ، فجعل رجالًا وقوابل يدورون على الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذابحون من ساعته .

لقد ولد موسى والخطر محدق به ، والموت يتلفت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه تهمّ أن تحتز رأسه ، وها هي ذي أمه خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين ، ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته

الفطري أن ينمّ عليه .

ويوحي الله إليها أن ترضعه ، فإذا خافت عليه فلتلقه في اليم ، فهو في رعاية الله الذي لا أمن إلا في جواره ، لا خوف معه ، لا تقرب المخاوف من حماه ، الذي جعل النار بردًا وسلاما ، ويجعل من ثبج البحر ملجأ ومنامًا .

يقدر الطاغوت شيئا ، ويقدر الله شيئا غيره ، والله يريد غير ما يريد فرعون .

وإرادة الله وقدرته تتحدى ، تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة فرعون وهامان وجنودهما ، إنهم ليتبعون الذكور من بني إسرائيل خوفًا على ملكهم وعرشهم وذواتهم ، ويبثون العيون والأرصاد كي لا يفلت منهم ذكر ، فها هي ذي إرادة الله تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكي وأي طفل ؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين ، ها هي ذي تلقيه في أيديهم ، مجردًا من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزًا عن نفسه ، أو حتى يستنجد ، ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه ، وهو الطاغية السفّاح المتجبر ، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل ، وفي أحضان نسائهن الوالدات ، ها هي ذي تعلن عن مقصدها سافرة متحدية ؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنًا ، عدوًّا يتحداهم ، وحزنًا يدخل الهمّ على قلوبهم .

يا فرعون: موسى لن يكون مربّاه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولن يُغَذَّى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعدّاه ، ولا تطلع على سر معناه ، لتعلم أن رب السموات هو الفعّال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد .

اقتحمت إرادة الله على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه ، لقد حمته بالمحبة ، ذلك الستار الرقيق الشفيف ، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال ، حمته بالحب الحاني في قلب امرأة ، وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره ، وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الرضيع الضعيف بغير هذا الستار الشفيف ، إرادة الله وقدرته ترعى موسى ، تدبر أمره .

قال تعالى : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يشعرون** ﴾ [القصص : ٩] فقال فرعون : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . والبلاء مُوكل بالمنطق ، يداك أوكتا وفوك نفخ ، فكان كذلك وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه .

إرادة الله تكيد لفرعون وآله ، كما كادوا لبني إسرائيل ، تحرم عليه المراضع ، يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وهم يخشون عليه الموت والذبول ، حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه فتقول : ﴿ **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾ [القصص : ١٢] ، فيتلقفون كلماتها وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو العزيز المحبوب ، ويعود الطفل الغائب لأمه الملهوفة .

من لجأ إلى الله وتوكل عليه ، وفوّض الأمور إليه ، يكن حاله كحال أم موسى ترضع ولدها ، وتأخذ كظئر أجرها .

فكيف كان جزاء فرعون من جنس قوله وعمله ؟

دعاه موسى إلى عبادة الله عز وجل ، فأعرض واستكبر ﴿ **ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون** ﴾ [الزخرف : ٥١] .

أليس لي ملك مصر !! يا هذا حمارك ينهق من كف شعير ، وما تساوي مصر ؟ إن كانت الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

وقال موسى : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾ [يونس : ٨٨] .

قال ابن عباس ومجاهد : اطمس على أموالهم : أهلكها .

وقال الضحّاك وأبو العالية والربيع بن أنس : جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت .

وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم تحولت .

وقال محمد بن كعب القرظي : اجعل سكرهم حجارة .

فما كانت النهاية : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون** ﴾ [الدخان : ٢٥] .

قال فرعون : ﴿ **وهذه الأنهار تجري من تحتي ..** ﴾ [الزخرف : ٥١] .

إن الذي ينسى نعمة الله عليه . ويتيه بها ، يعذبهِ الله بها وينغص عليه بها ، فكانت معظم الآيات تدور حول الماء الذي تاه به واستكبر . هذا في حياته .

﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكّرون** ﴾ [الأعراف : ١٣٠].

﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين** ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

يا فرعون ، الطوفان ماء من جنس ما تفتخر به ، ولكنه متلف للزروع والثمار .

والقُمَّل : قال ابن جرير : واحدتها قمّلة ، وهي دابة تشبه القَمْل ، أو كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : البراغيث .

كأن الماء لم يُجْد شيئًا في نظافتك ، فها هي البراغيث والضفادع ، تتعصى عليك في قدحك وآنيتك وثوبك .

والدم ، استحال نهرك دما عبيطًا ، فما جدوى نهرك ومياهك .

الآيات التي نغّصت عيشك من جنس ما استكبرت به ، ومتعلقة بالماء .

قال ابن جرير :

عن سعيد بن جبير قال : لمّا أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل ، فأرسل الله عليهم الطوفان ، وهو المطر ، فصبّ عليهم منه شيئًا ، خافوا أن يكون عذابًا ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنّا المطر ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلّطه على الكلأ ،

فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى ، فقالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك ، ليكشف عنّا الجراد ، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم الجراد ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فدرسوا الحب وأحرزوه في البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا ، فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذي يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا القمل ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل . فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا . قال : وما عسى أن يكون كيد هذا ؟ . فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بني إسرائيل [فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يؤمنوا] . وأرسل الله عليهم الدم ، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار ، وما كان في أوعيتهم ، وجدوه دمًا عبيطًا[1] ، فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم ، وليس لنا شراب . فقال : إنه قد سحركم !! فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دما عبيطًا[2] ؟

قال ابن إسحاق :

تابع الله عليهم الآيات ، وأخذه بالسنين ، فأرسل عليهم الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ، ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يحرثوا أو

---

(١) أي دمًا طريًّا .

(٢) ابن جرير (٦ / ٢٥) .

يعملوا شيئًا ، حتى جُهدوا جوعًا ، فلما بلغهم ذلك: ﴿**قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**﴾ [الأعراف : ١٣٤] فدعا موسى ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر - فيما بلغني - حتى إنه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فُذكر لي أن موسى - عليه السلام - أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملًا ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار فأجهدهم ، قالوا له مثلما قالوا له ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والآنية والأطعمة ، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلَّا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فسأل الله ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دمًا ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا .

يالله .. هان فرعون على ربه حتى ما يساوي ضفدعًا ولا جرادًا .

هانوا عليه فعصوه وكفروا به ؛ ولو عزوا عليه لعصمهم .

أيها المعرض عنَّا ... إن إعراضك منَّا

لو أردناك جعلنا ... كل ما فيك يُردنا

عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برّية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت ، وجعلت تغرق أنفسها في القدور وهي تغلي ، وفي التنانير وهي تفور ، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء .

والجزاء عند الله من جنس العمل .

قال ﷺ : « لا تقتلوا الضفادع ... »(١) .

وقال ﷺ : « لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم »(٢) .

وكان غرقه في جنس ما افتخر به .

قال الشنقيطي :

أما فرعون ، فقد كان يقول : ﴿ **أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي** ﴾ [الزخرف : ٥١] فلمّا كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها ، أي في جنسها(٣) .

قال تعالى : ﴿ **فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى** ﴾ [طه : ٦٠] .

كاد فرعون فكيد له ، وأراد فارتدَّ إليه ، ودعا للاستعداد فأذل وأذيق البأس .

﴿ **قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى . قالوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والله خير وأبقى** ﴾ [طه : ٦١ - ٧٣] .

هزأ به من جمعهم لموسى ومن قالوا له يومًا : ﴿ ... **أئنّ لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين** ﴾[الشعراء : ٤١] ومَنْ قالوا يوما : ﴿ **بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ [الشعراء : ٤٤] .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر وواجهته بكلمة الإيمان

---

(١) صحيح : رواه النسائي عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٦٧ ، وانظر الأحاديث الضعيفة ٤٧٨٨ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والبيهقي عن أبي زهير ، والطبراني في الأوسط ، وابن منده ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٦٥، والأحاديث الصحيحة رقم ٢٤٢٨ .

(٣) أضواء البيان (٨ / ٤٤٢) .

القوية ، وباستعلاء الإيمان الواثق ، وبتحذير الإيمان الناصع ، وبرجاء الإيمان العميق .

وقال تعالى : ﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٣] .

قال القشيري :

أراد فرعون إهلاك بني إسرائيل واستئصالهم وأراد الحق نصرتهم وبقاءهم ، فكان ما أراد الحق لا ما أراد اللعين[١].

وقال تعالى : ﴿ **إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون** ﴾ [الشعراء : ٥٤ - ٥٦] .

يقول ابن كثير :

نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإني أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم ، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، فخرجوا من النعيم إلى الجحيم[٢].

وقال تعالى : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ...** ﴾ [القصص : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **فلم جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [غافر : ٢٥] .

منطق الطغيان الغليظ ، فكلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، وخاف أن يستعلي الحق .

قال ابن كثير :

نكل فرعون ببني إسرائيل قبل ولادة موسى ؛ حذرًا من وجوده ، فكان خلاف ما رامه ، وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه أيضًا ، إنما

---

(١) لطائف الإشارات (٤/٤٤) .
(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ١٥٢) .

أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد ، نصرهم الله عليه ، وأذله وأرغم أنفه ، وأغرقه وجنوده[١] .

لما استذل فرعون بني إسرائيل أورثهم الله ملكه .

قال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ [الشعراء : ٥٧ - ٥٩] .

لقد خرجوا يتبعون خطى موسى وقومه ، ويقفون أثرهم ، فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة ، وكانت إخراجًا لهم من كل ما هم فيه ، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم جزاء الظلم والبطر والبغي الوخيم ، لما اقتفوا أثر المؤمنين .

وقال تعالى : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قومًا آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ [الدخان : ٢٥ - ٢٩] .

يقول سيد قطب :

انظر إلى هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطأطىء له الملأ المفتونون به ، وهو أضل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثي له أحد على سوء المآل ، لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها ، ذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين في الأرض ، يطأون الناس بالنعال ، ذهبوا غير مأسوف عليهم[٢] .

يقول القشيري :

تكبر فرعون بغير حق فأقمأه الله بحق ، وتجبّر بغير استحقاق ، فأذله الله

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٥٧) .

(٢) الظلال (٥/٣٢١٤) .

باستحقاق ، ﴿ **واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ [القصص : ٣٩ - ٤٠] .

أبى إلا أن يدوم جحوده وعنُوده ، فأغرقه الله في البحر ، كما أغرق قلبه في بحر الكفر[١] .

« من لا يرحم لا يُرحم » .

هذا الطاغية الذي ذبح الطفولة وملاحتها وبراءتها المحبوبة ، ولثغتها التي تبتسم لها القلوب والوجوه ، كذا لم يرحم في دنيا ولا آخرة .

يقول رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حمأ البحر[٢] ، فأدسه في فيّ فرعون مخافة أن تدركه الرحمة »[٣] .

قال تعالى : ﴿ **وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة** ﴾ [القصص : ٤٢] واللعنة طرد من الرحمة .

صار مآله إلى الطين المنتن ، ألم يقل يوما لهامان : يا هامان ، أوقد لي على الطين .

واليوم كما يقول الله تعالى : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم** ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

يقول صاحب الظلال :

ضربة واحدة فإذا هم هالكون ، ومن التعالي والتطاول والاستكبار إلى الهويّ في الأعماق والأغوار جزاءً وفاقًا[٤] .

---

(١) لطائف الإشارات للقشيري (٥ / ٥٤) .

(٢) حمأ البحر : طينه الأسود المنتن .

(٣) صحيح ، رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٠١٥ ، والطيالسي ، وابن جرير ، والخطيب في التاريخ - صحيح الجامع ٤٢٢٩ . قال الحاكم : صحيح على شرطهما ، وأقره الذهبي في التلخيص .

(٤) الظلال (٣ / ١٣٦٠) .

لقد سقطت من فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي كل أرديته التي تنفخ فيه ، فتضاءل وتصاغر واستخذى ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾ [يونس : ٩٢] لا تذهب منكرًا مع التيار ، هذا الذي تطاول وقال : ﴿ **ذروني أقتل موسى وليدع ربه** ﴾ [غافر : ٢٦] كلمة فاجرة من فرعون كانت تبجحًا واستهتارًا ، لقي جزاءه بها في نهاية مطافه .

قال تعالى : ﴿ **كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾ [القمر : ٤٢].

ضاعت عزة فرعون واقتداره على البغي والظلم ، ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم ، وأخذه الله أخذ عزيز مقتدر صدقًا ، أخذهم أخذًا شديدًا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وبطش وجبروت .

لما تطاول فرعون وقال : ﴿ **فأوقد لي يا هامان على الطين..** ﴾ [القصص : ٣٨] ، فكان ألهويّ إلى الأعماق والأغوار ، ونتن الطين في فمه يوم الغرق في عاشوراء جزاء للقولة الفاجرة .

﴿ **فأوقد لي يا هامان** ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ [غافر : ٤٦] .

قال ابن كثير :

الغرق في اليم ، ثم النقلة إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار .

قال تعالى : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، قالها فرعون لقومه الذين استخفهم ، ويعني بها نبي الله موسى ، وهو الشريف الرئيس الصادق البار المرشد ، فكان جزاؤه من جنس قولته ، أنه هو المهين الحقير خلقة ودينًا ومالًا ..

قال تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النَّار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ [القصص : ٤١ - ٤٢] .

يقول القشيري :

لا لشرفهم جعلهم أئمة ، ولكن لسبب تلفهم قدّمهم في الخزي والهوان على كل أمة ، ولكن لم يُرشدوا إلّا إلى الضلال ، ولم يدلوا الخلق إلا على المحال ، وما حصلوا إلا على سوء الحال ، وما ذاقوا إلا خزي الوبال ، أفاضوا على متبعيهم من ظلمات قلوبهم ، فافتضحوا في خسة مطلوبهم .

كانوا في الدنيا مبعدين عن معرفته ، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته ، فانقلبوا من طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى احتراق .

يقول سيد قطب في قوله تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النَّار ..** ﴾ [القصص : ٤١ - ٤٢] .

﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ...** ﴾ فيا بئساها دعوة ! ويا بئساها إمامة الهزيمة في الدنيا والهزيمة في الآخرة ، جزاء البغي والاستطالة ، وليست الهزيمة وحدها ، إنما هي اللعنة في الأرض ، والتقبيح في يوم القيامة ، و ﴿ **المقبوحين** ﴾ ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التَّقزُّز والاشمئزاز ، ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض ، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتطاول على الله وعلى عباد الله[1] .

وقال تعالى : ﴿ **يَقْدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود . وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ [هود : ٩٨-٩٩] .

قاد فرعون قومه إلى الضلال في الحياة .

---

(١) الظلال (٥/٢٦٩٥) .

قال ابن كثير :

وكما أنهم اتبعوه في الدنيا ، وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها ، وشربوا من حياض رَدَاه ، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر[١] .

يقول سيد قطب :

لما كانوا تبعا لفرعون في هذا الأمر ، يمشون خلفه ويتبعون خطواته الضالَّة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأي ، لما كانوا كذلك ، فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعًا .

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ، ووعدًا عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماضٍ قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النَّار ، وانتهى فأوردهم النار ، أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم ، ألم يكونوا قطيعا يسير بدون تفكير ، ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار ؟ ﴿ فأوردهم النار ﴾ ويا بئساه من ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى إنما يشوي البطون والقلوب ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ .

﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ . هذه النار هي الرفد والعطاء والمنة التي رفد بها فرعون قومه !! ألم يعد السحرة عطاءً جزيلًا ورفدًا مرفودًا ، فهذا رفده لمن اتبعه .. النار ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ و ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾[٢] .

○ بلعام بن باعوراء ○

اختلف المفسرون في هذه القصة اختلافًا كثيرًا ، فمنهم من ضعفها

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٧) .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤ / ١٩٢٤) .

كالقاسمي في محاسن التأويل ، ومن ذهب إلى أن الآيات من سورة الأعراف لم تنزل في معين ، وهناك روايات كثيرة أوردها الطبري وابن كثير والألوسي في تفاسيرهم .

قال ابن كثير :

وهذا الذي ذكره ابن إسحق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف[١] .

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين ، يقال له : بلعام . وكان يعلم اسم الله الأعظم .

قال محمد بن إسحق ، عن سالم بن أبي النضر أنه حدث : أن موسى عليه السلام لما أنزل في أرض بني كنعان من أرض الشام ، أتى قوم بلعام إليه ، فقالوا له : هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ، ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، وإنا قومك وليس لنا منزل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله عليهم . قال : ويلكم ! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه ، حتى فتنوه فافتتن ، فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل ، وهو جبل حُسبان ، فلما سار عليها غير كثير ، ربضت به فنزل عنها فضربها ، حتى إذا أذلقها[٢] قامت فركبها ، فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها، أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت : ويحك يا بلعام، أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة تردني عن وجهي هذا؟. أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها بضربها ، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك ، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر

---

(١) البداية والنهاية (١ / ٣٠٠) .

(٢) الإذلاق : أن يبلغ منه الجَهد .

موسى وبني إسرائيل ، جعل يدعو عليهم ، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلا صرف لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل ، فقال له قومه : أتدري يا بلعام ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ! قال : فهذا ما لا أملك ، هذا شيء قد غلب الله عليه ! . قال : واندلع[1] لسانه فوقع على صدره . فقال لهم : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال : جَمِّلوا النساء وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه ، ومروهن فلا تمنع امرأة من رجل أرادها ، فإنهم إن زنا رجل منهم واحد كُفيتموهم ، ففعلوا .

فلما دخل النساء المعسكر ، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها : كُسبى ابنة صور رأس أمته . برجل من عظماء بني إسرائيل ، وهو زمري بن شلوم رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحق - عليهم السلام - فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى - عليه السلام - فقال : إني أظنك ستقول:هذا حرام عليك ؟ قال : أجل ، هي حرام عليك ، لا تقربها . قال : فوالله ، لا نطيعك في هذا . ثم دخل بها قبته فوقع عليها ، وأرسل الله - عز وجل - الطاعون في بني إسرائيل .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

قال تعالى : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

اختلف المفسرون في معناها ، فأما على سياق ابن إسحق ، عن سالم بن أبي النضر : أن بلعامًا اندلع لسانه على صدره ، فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك .

---

(١) خرج من الفم ، واسترعى كلسان الكلب .

وقيل : معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء والإيمان ، وعدم الدعاء كالكلب في لهثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته ، فهو يلهث في الحالتين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه[1] .

فلما اندلع لسانه - الذي دعا به على نبي الله موسى - على صدره كان جزاؤه من جنس عمله .

يقول سيد قطب :

آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وتعرى عنها ، ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ، استولى عليه الشيطان ، وأمسى مطرودًا من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

إنسان يؤتيه الله آيات ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع ، ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخًا ، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه ، أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟.

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ، ويتجرد من الغطاء الواقي ، وينحرف عن الهدى ؛ ليتبع الهوى ، ويهبط من الأفق المشرق ، فيلتصق بالطين المعتم ، فيصبح غرضًا للشيطان ، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه ، مشهد بائس نكد ، إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقًا بالأرض ملوثًا بالطين ، ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب ، مشهد اللهاث القلق الذي لا ينقطع ولا يطمئن أبدًا ، والذي لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه ، فهو منطلق فيه أبدًا .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٥١١ - ٥١٢) .

مسخ شائه الكيان ، هابط عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان ، مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين ، وكان له من الإيمان جناح يرف به إلى عِلِّيِّين ، وكان من فطرته الأولى في أحسن تقويم ، فإذا هو ينحط منها إلى أسفل سافلين .

فخلِّ سبيلَ العين بعدك للبكا   فليس لأوقات الصفاء رجوعُ

لطيفة :

أيها المتعبد خف من الفتن ولا تأمن ، كم أُخذ آمنٌ مِن مَأمن ، إنه لم ينجُ من بحر الفتن الأعظم ، حافظ الاسم الأعظم ، بل عام بلعام ، كان ظاهره لثقا بالتقى ، وباطنه باطية[1] لخمر الهوى .

ما عدا عليه العدو إلا بعد أن تولى عنه الولي ، فلا تظنن أن الشيطان غلب ، وإنما العاصم أعرض ، وإن شككت فاسمع هاتف القدر ، يخبر عن عزة القادر ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ .

فانظر ما عرض لمن سبقت شقاوته في الأزل من الحور بعد الكور ، فبينما تراه وأحواله حالية ، وأعوامه من شوائب الكدر خالية ، وغصون أنسه متدلية ، ورياض قربه مونقة ، قلب الدهر ظهر المجنّ ، وغزاه بجيوش المحن ، وهبت على هاتيك الرياض عاصفات القضاء ، وضاقت عليه فسيحات الفضاء ، وذهب السرور والأنس ، وجعل حصيدًا كأن لم يغن بالأمس ، وأنشد لسان حاله :

قف بالديار فهذه آثارهم   تبكي الأحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرًا   عن أهلها أو صادقًا أو مشفقا

---

(١) إناء عظيم من الزجاج يتخذ للشراب والجمع بواطٍ .

فأجابني داعي الهوى في رسمها فارقت من تهوى فعزّ الملتقى[١]

وكان جزاء فنحاص - قاتل الزاني - أيضًا من جنس عمله :

قال ابن كثير :

وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل ، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى ، وكان غائبًا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع ، فجاء الطاعون يجوس في بني إسرائيل ، فأخبر الخبر ، فأخذ حربته وكانت من حديدٍ كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان ، فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء ، والحربة قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لِحْيَيْه - وكان بكر العيزار - وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون ..

فانظر إلى جزائه :

فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القِبَة[٢] والذراع واللَّحْي - لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذه إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحييه - والبكر من كل أموالهم وأنفسهم ؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار[٣] .

○ أصحاب الأخدود ○

قال تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها

---

(١) روح المعاني للألوسي (١١ / ١٢٣) .

(٢) القبة : بكسر القاف وفتح الباء مخففة : من الكرش .

(٣) تفسير ابن كثير (٣ / ٥١٢) .

قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السموات والأرض . والله على كل شيء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ [البروج : ٤ - ١٠] .

وعن صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت ، فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر ، فبعث إليه غلامًا يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب ، وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرًا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، حتى يمضي الناس . فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال الراهب : أي بنيّ ، أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما هنا لك أجمع إنْ أنت شفيتني . فقال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك . فآمن بالله ، فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟. قال : ربي . قال : ولك رب غيري ؟! قال : ربي وربك الله . فأخذه فلم يزل به حتى دلّ على الغلام ، فجيء بالغلام ، فقال له الملك : أيْ بنيّ قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ؟! . فقال : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى

فدعا بالمنشار ، فوضع في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه . ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك : فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به ، فاحملوه في قُرْقُور[1] فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه ، ولا فاقذفوه ، فذهبوا به ، فقال:اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ . قال : كفانيهم الله ، فقال للملك : إنك لست بقاتلي ، حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟. قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهمًا من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام . ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام . ثم رماه فوقع السهم في صُدْغه ، فوضع يده في صُدْغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأُتي الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ، قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فَخُدَّت ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها - أو قيل له : اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها

---

(١) السفينة الصغيرة .

الغلام : « يا أمّه ، اصبري فإنك على الحق »[1] .

فكيف كان جزاء الظالمين من جنس عملهم :

القوم الذين أرادوا أن يلقوا بغلام الراهب من فوق الجبل ، رجف بهم الجبل فسقطوا ، والذين أرادوا أن يقذفوا به في البحر غرقوا هم .

قال ابن كثير :

روى ابن أبي حاتم عن الربيع - هو ابن أنس - في قوله تعالى : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ سمعنا أنهم كانوا قوما في زمان الفترة ، فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزابا ، كل حزب بما لديهم فرحون ، اعتزلوا إلى قرية سكنوها ، وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين ، وحدث حديثهم ، فأرسل إليهم ، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا ، وإنهم أبوا عليه كلهم ، وقالوا : لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : إن لم تعبدوا هذه الآلهة التي عبدت ، فإني قاتلكم . فأبوا عليه ، فخد أخدودًا من نار ، وقال لهم الجبار ووقفهم عليها فقال : اختاروا هذه أو الذي نحن فيه ، فقالوا : هذه أحب إلينا ، وفيهم نساء وذرية ففزعت الذرية ، فقالوا لهم - أي آباؤهم - : لا نار من بعد اليوم ، فوقعوا فيها . فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها ، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين ، فأحرقهم الله بها ، ففي ذلك أنزل الله عز وجل : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والله على كل شيء شهيد** ﴾[2].

قال تعالى : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** ﴾ أي حرقوا ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

---

(١) أخرجه مسلم ، وأحمد في مسنده ، والترمذي .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٩٦) .

قال ابن جرير : ﴿ **إن الذين فتنوا ..** ﴾ قال قتادة : حرّقوهم بالنار ، قوله تعالى : ﴿ **ثم لم يتوبوا** ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا ﴿ **فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل .

وعن الربيع : ﴿ **فلهم عذاب جهنم** ﴾ في الآخرة ، ﴿ **ولهم عذاب الحريق** ﴾ في الدنيا .

قال الألوسي :

﴿ **فلهم عذاب جهنم** ﴾ بسبب كفرهم ، ﴿ **ولهم عذاب الحريق** ﴾ بسبب فتنتهم المؤمنين والمؤمنات ، وفي جعل ذلك جزاء للفتنة من الحُسن ما لا يخفى[١].

قال القرطبي :

روى أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود ، فصارت فوق الملك وأصحابه ، أربعين ذراعًا فأحرقتهم[٢] .

وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ **فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾:

قال : ﴿ **عذاب جهنم** ﴾ لكفرهم ، ﴿ **ولهم عذاب الحريق** ﴾ في الدنيا ، لإحراقهم المؤمنين بالنار ، وقد تقدم عن ابن عباس ، وقيل : ﴿ **ولهم عذاب الحريق** ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم ، بما أحرقوا المؤمنين[٣].

قال القمي النيسابوري في قوله تعالى : ﴿ **فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ .

عذاب جهنم ، وعذاب الحريق مختلفان في الدركة ، الأول لكفرهم، والثاني لأنهم فتنوا أهل الإيمان، وجوز أن يكون الحريق في الدنيا ، لما روي أن النار

---

(١) روح المعاني للألوسي (٣٠ / ٩١) .
(٢) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٠٨٠) .
(٣) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٠٨٦) .

انقلبت عليهم فأحرقتهم[١] .

قال ابن كثير :

قال ابن أبي حاتم عن صفوان بن عبد الرحمن بن زهير ، قال : كانت الأخدود في اليمن زمان تُبّع ، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين ، حين حرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذوا أتونًا وألقي فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد ، وفي العراق في أرض بابل . بختنصر الذي صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل ، فأوقد لهم أتونًا وألقى فيها الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه ، فجعلها الله عليهما بردًا وسلامًا ، وأنقذهما منها ، وألقي الذين بغوا عليه ، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار[٢] .

والجزاء من جنس العمل .

يقول سيد قطب :

﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** ﴾ . ومضوا في ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على ما فعلوا ، ﴿ **ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ وينص على الحريق ، وهو مفهوم من عذاب جهنم ، ولكنه ينطق به وينص عليه ؛ ليكون مقابلًا للحريق في الأخدود ، وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث ، ولكن أين حريق من حريق ؟! في شدته أو مدته ؟! وحريق الدنيا يوقدها الخلق ، وحريق الآخرة يوقدها الخالق ، وحريق الدنيا لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله ، ومع حريق الدنيا رضا الله عن المؤمنين ، وانتصار لذلك المعنى الإنساني ، ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم[٣] .

---

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، للعلّامة القمي النيسابوري ، مطبوع على هامش الطبري (٩/٣٦) طبعة دار الريان للتراث .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٩٤) .

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦ / ٣٨٧١) .

○ سبأ ○

هذه قصة البطر ، قصة من صدّق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه ونسوا النعم .

قال تعالى : ﴿ **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدرٍ قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأيامًا آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبارٍ شكور** ﴾ [سبأ : ١٥ : ١٩] .

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس : أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟. فقال ﷺ : « بل هو رجل وُلد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير ، وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان »[1] .

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها . وقال علماء النسب : سُمي سبأ ؛ لأنه كان أول من سبى من العرب ، وقد كان فيهم التبابعة ، وكان لهم تيجان يلبسونها وقت الحكم ، وكانت العرب تسمي من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تُبَّعًا ، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس .

جاءتهم الرسل تأمرهم بتوحيد الله تبارك وتعالى ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال سيل العرم ، فمنهم من أقام ببلاده ، ومنهم من نزح إلى غيرها .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وعبد بن حميد ، وقال ابن كثير في تفسيره (٦/٤٩١): وهذا إسناد حسن .

وكان من أمر السد أن الماء كان يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًّا عظيمًا محكمًا ، حتى ارتفع الماء وحكم على حافَّات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار ، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة ، والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل[1] ، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب ، وهذه الجنان عن اليمين والشمال ، ولذلك الخصب والوفرة والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تُذكّر بالمنعم الوهاب ، وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور** ﴾ وذكروا بالنعمة ، نعمة البلد الطيب ، وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر ، والتجاوز عن السيئات ، سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء ، وسماحة في السماء بالعفو والغفران ، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟!

﴿ **بلدة طيبة** ﴾ ليست بسبخة ، قال ابن زيد : لم يكن يرى في قريتهم بعوضة قط ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ، وإن كان الركب ليأتون وفي ثيابهم القمل والدواب ، فماهم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم فتموت الدواب[2] .

يقول ابن جرير :

فأعرضت سبأ عن طاعة ربها ، وصدّت عن اتباع ما دعتها إليه رسلها من أنه خالقها .

قال ابن عباس : سيل العرم الشديد ، وكان السبب الذي سبب الله لإرسال ذلك السيل عليهم - فيما ذكر لي - جرذًا ابتعثه الله على سدهم فثقب فيه ثقبا .

---

(١) هو الذي تغترف فيه الثمار .

(٢) تفسير ابن جرير (١٠ / ٥٣) .

وعن قتادة : لما ترك القوم أمر الله بعث عليهم جرذا يسمى الخلد ، فثقبه من أسفله حتى غرق به جناتهم ، وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم .

ويقول الضحاك : لما طغوا وبغوا بعث الله عليهم جرذًا فخرق السد ، فأغرقهم الله .

وقال ابن زيد : بعث الله عليه[1] جرذًا ، وسلطه على الذي كان يحبس الماء الذي يسقيها ، فأخرب في أفواه تلك الحجارة ، وكل شيء منها من رصاص وغيره حتى تركها حجارة ، ثم بعث الله سيل العرم ، فاقتلع ذلك السد وما كان يحبس ، واقتلع تلك الجنتين فذهب بهما .

يقول ابن جرير :

وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جنى ثمر الأراك ، والأراك هو الخمط[2] .

قال الضحاك : بدلهم الله بجنان الفواكه والأعناب إذ أصبحت جناتهم خمطًا ، وهو الأراك .

عن ابن عباس قال : الأثل الطرفاء .

قال ابن زيد : أذهب تلك القرى والجنتين ، وأبدلهم الذي أخبرك : ﴿ **ذواتي أكل خمط** ﴾ ، قال : فالخمط : الأراك .

قال : جعل مكان العنب أراكًا ، والفاكهة أثلًا ، وشيئًا من سدرٍ قليل .

وقال قتادة : بينما شجر القوم خير شجر ، إذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم

قال تعالى : ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ .

يقول ابن جرير :

هذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم حتى

---

(١) أي السد .

(٢) تفسير الطبري (٨١/١٠) .

هلكت أموالهم ، وخربت جناتهم ؛ جزاءً منّا على كفرهم بنا ، وتكذيبهم رسلنا[١].

﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ .

قال ابن جرير :

معنى الكلام: كذلك كافأناهم على كفرهم بالله، وهل يجازى إلا الكفور لنعمة الله ، فإن قال قائل : أو ما يجزي الله أهل الإيمان به على أعمالهم ، فلم يَخص أهل الكفر بالجزاء ؟. فيقال : إن المجازاة في هذا الموضع المكافأة ، والله تعالى ذكر وعد أهل الإيمان به التفضل عليهم ، وأن يجعل لهم بالواحدة من أعمالهم الصالحة عشر أمثالها إلى ما لا نهاية له من التضعيف، ووعد المسيىء من عباده أن يجعل بالواحدة من سيئاته مثلها مكافأة له على جرمه ، والمكافأة لأهل الكبائر الكفر ، والجزاء لأهل الإيمان مع التفضل ، فلذلك قال - جل ثناؤه - في هذا الموضع : ﴿ **وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ كأنه قال جل ثناؤه : لا يُجازَى لا يكافأ على عمله إلا الكفور ، إذا كانت المكافأة مثل المكافأ عليه ، والله لا يغفر له من ذنوبه شيئًا ، ولا يمحص شيئًا منها في الدنيا ، وأما المؤمن فإنه يتفضل عليه .

قال مجاهد : نجَازي نعاقب[٢] .

قال القرطبي :

وأولى ما قيل في هذه الآية ، وأجل ما روي فيها أن الحسن قال : مثلًا بمثل[٣] .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل**

---

(١) تفسير الطبري (١٠ / ٨٢) .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري (١٠ / ٥٧) .

(٣) تفسير القرطبي (٨ / ٥٧٧٠) .

صبار شكور ﴾ [سبأ : ١٨ - ١٩] .

يقول سيد قطب :

كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم ، ضيق الله عليهم في الرزق ، وبدّلهم من الرفاهة والنعماء خشونة وشدة ، وتبدلت تلك الجنان الفيح ، صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشبة ، ولكن لم يمزقهم ولم يفرقهم ، وكان العمران مايزال متصلًا بينهم وبين القرى المباركة مكة في الجزيرة ، وبيت المقدس في الشام ، وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرضاء ، بل دعوا دعوة الحمق والجهل .

قال ابن كثير :

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعيم ، والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرضية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ويقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سفرهم .

قال تعالى : ﴿ **القرى التي باركنا فيها** ﴾ ، قال مجاهد والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن زيد وغيرهم : قرى الشام .

قال تعالى : ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ . بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، ويقيلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وقدّرنا فيها السير** ﴾ أي جعلناهم بحسب ما يحتاج إليه المسافر .

﴿ **سيروا فيها ليالي وأيّامًا آمنين** ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا .

قال قتادة : ﴿ **سيروا فيها ليالي وأيّامًا آمنين** ﴾ لا يخافون ظلمًا ولا جوعًا ، وإنما يغدون فيَقِيلون ويروحون فيبيتون في قرية أهل جنة ونهر ، وكان

الرجل المسافر لا يحمل معه زادًا ولا سقاء[(١)].

وقال أيضًا :

كانوا يسيرون غير خائفين ، ولا جياع ولا ظماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان ، لا يحرك بعضهم بعضًا ، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحركه[(٢)].

وقال ابن زيد : إن كانت المرأة لتخرج معها مغزلها ومكتلها على رأسها ، تروح من قرية ، وتغدوها وتبيت في قرية ، لا تحمل زادًا ولا ماء لما بينها وبين الشام .

قال القمي النيسابوري : والمقصود من ذكر الليالي والأيام تقرير كمال الأمن ولذلك قُدمت الليالي فإنها مظنة الآفات ، ويمكن تقرير الأمن بوجه آخر وهو أن يقال : سيروا فيها ، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أيامًا وليالي[(٣)].

قال تعالى : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ .

قال ابن جرير : قالوا يا ربنا باعد بين أسفارنا ، فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز ، لنركب فيها الرواحل ، ونتزود معنا فيها الأزواد ، وهذا من الدلالة على بطر القوم نعمة الله وإحسانه إليهم ، وجهلهم بمقدار العافية ، ولقد عجل لهم ربهم الإجابة ، كما عجل للقائلين : ﴿ **إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ [الأنفال : ٣٢] أعطاهم ما رغبوا إليه ، وطلبوا من المسألة .

قال ابن عباس : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم** ﴾ فإنهم بطروا عيشهم ، وقالوا : لو كان جنى جناتنا أبعد مما هو كان أجدر أن نشتهيه ، فمزقوا بين الشام وسبأ، وبُدلوا بجنتيهم ﴿ **جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل** ﴾.

وقال قتادة : بطر القوم نعمة الله ، وغمطوا كرامة الله ، قال الله : ﴿ **وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٠/٥٨).

(٢) تفسير القرطبي (٩/٥٣٧٢).

(٣) القمي النيسابوري (١٠ / ٥٢) .

وقالِ ابن زيد : ﴿باعد بين أسفارنا﴾ حتى نبيت في الفلوات والصحاري[١].

قال ابن كثير :

بطروا هذه النعمة ، كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد ، وأحبوا مفاوز ومهامه ، يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور[٢] والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد من مَنٍّ وسلوى ، قال تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها** ﴾ [القصص : ٥٨] وقال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ [النحل : ١١٢][٣] .

يقول سيد قطب :

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى التي لا تقع إلا مراتٍ متباعدة على مدار العام ، لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل التي لا تُشبع لذة الرحلات ، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس ﴿ **وظلموا أنفسهم** ﴾ واستجيبت دعوتهم ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر[٤] . قال تعالى : ﴿ **فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق** ﴾ .

قال ابن كثير :

جعلناهم حديثا للناس ، وسمرًا يتحدثون به عن خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهني ، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : أيدي سبأ ، وأيادي سبأ ، وتفرقوا شذر مذر[٥].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٠/٥٩).
(٢) الشمس .
(٣) تفسير ابن كثير (٦/٤٢٧) .
(٤) في ظلال القرآن ٥ / ٢٩٠١ .
(٥) تفسير ابن كثير (٧/٤٩٧) .

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم :

يقول سيد قطب :

عادوا أحاديث يرويها الرواة ، وقصة على الألسنة والأفواه ، بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة ، أصبحوا أثرًا بعد عين ، وحديثًا يُروى ، وقصة تحكى .

ويقول :

وهناك فهم آخر فقد يكون المقصود بقوله : ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ أي قرى غالبة ذات سلطان ، بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء ، حياتهم صحراوية جافة ، كثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ، ومواضع الماء ، فلم يصبروا على الابتلاء وقالوا : ﴿ **ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ أي قلل من أسفارنا ، فقد تعبنا ، ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم ، ففعل الله بهم ما فعل ، وهو وجه رأيته في الآية والله أعلم بمراده[١] .

قال ابن كثير :

عن الشعبي : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعُمان ، فمزقهم الله كل ممزق ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[٢] .

يقول الأعشى :

وفي ذاك للمُؤتَسي أسوة ... ومأربُ عفّى عليها العَرِمْ[٣]
رخامٌ[٤] بنته لهمْ حميرٌ ... إذا جاء مواره[٥] لم يرِمْ

---

(١) الظلال (٥ / ٢٩٠٢) . (٢) تفسير ابن كثير (٧ / ٤٩٩) .

(٣) العرم : المسَنَّاة التي تحبس الماء . وقال سيد قطب: العرم : الحجارة .

(٤) حجر أبيض .

(٥) الشديد المور - مار يمور مورًا أي جعل يذهب ويجيء ، وعند ابن جرير : إذا جاء ماؤه لم يرم .

فأروى الزروع وأعتابها على سعةٍ ماؤهمْ إذ قسمْ
فصاروا أياديَ ما يقدرو ن منه على شرب طفلٍ فُطمْ

والجزاء من جنس العمل .

يقول القشيري في اللطائف :

أعرضوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وضيعوا الشكر ، فبدلوا وبُدّل بهم الحال ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لمن ابتغى عوضًا لسلمى فلم يجد

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سُقُوا إلا مما ثَبِطوا[1] ، أو ما وقعوا إلا في الوهدة التي حفروا ، وما قُتلوا إلا بالسيف الذي صنعوا[2] .

كذلك من الناس من يكون في رغدٍ من المال ، واتصال من التوفيق ، وطرب من القلب ، ومساعدة من الوقت فيرتكب زلة أو يسيء أدبًا أو يتبع شهوة ، ولا يعرف قدر ما هو به ، فيتغير عليه الحال ، فلا وقت ولا حال ، ولا طرب ولا وصال .

فتذكر .. ما الذي سبى قوم سبأ ؟ إن للنعم أجنحة فمن قصها بمقراض الشكر جنحت إليه ، ومن أهمل ريشها حتى نَبَتَ نَبْتٌ من بين يديه ، أخصبت ديار قوم سبأ فطابت ، فما يُخرِج حيهم حية ، ولا يقال : هذا عقير عقرب ، ولا يُرى في بلادهم بعوضة ، ولا لأذلهم بباب ذباب ، فلما تمت النعمة ، قام متقاضي الشكر يقول : ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا** ﴾ ، فقابلوا الرسل مقابلة معاند ، فرفعت قصة الشكوى في مسطور ﴿ **فأعرضوا** ﴾ ، فكان مما أرسلنا عليهم أن أرسلنا ﴿ **سيل العرم** ﴾ ، بعث الله عز وجل عليهم جُرذًا أجرد ، نقب سِكْرَهم[3] ، وهم في سُكرهم فأغرق فيما جنى به عَلِيّ جنابهم ، حتى أغرق جناتهم ، فخرّت الأشجار ، بعد أن فُجرت الأنهار ، وعثت

(١) حَمُقَ في عمله .
(٢) اللطائف (٥/١٨٠ - ١٨١) .
(٣) السدّ .

كف الفساد في ديارهم ودام البكاء ، وعلا العويل ، وخَلَف غرابُ البَيْن الوُرقَ على الوَرِق ، وبئس البديل ، ﴿ **وبدلناهم بجنتيهمْ جنتين ذواتي أكلٍ خمطٍ وأثلٍ وشيء من سدرٍ قليل** ﴾ .

○ عمرو بن لحي الخزاعي ○

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة »[١] .

وفي حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه ، مرفوعًا : « وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام »[٢] .

لما وليت خزاعة البيت ، وصار أمره إليهم ، كانوا قوم سوء في ولايتهم .

يقول الحافظ ابن كثير :

وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي – لعنه الله – فإنه أول من دعاهم إلى ذلك ، وكان ذا مال جزيل جدًا ، يقال : إنه ملك عشرين ألف بعير ، وممن ذكر الأزرقي والسهيلي : إنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة ، وكسى عشرة آلاف حلة في كل سنة ، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ، ويَلتُّ لهم السويق ، قالوا : وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع ؛ لشرفه فيهم ، ومحلته عندهم ، وكرمه عليهم[٣] .

قال ابن هشام :

حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وهم ولد

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم ، والطبراني في الكبير والأوسط ، وحسنه الألباني في الصحيحة ١٦٧٧

(٢) أخرجه الحاكم وابن أبي عاصم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ؛ ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني .

(٣) البداية والنهاية (٢ / ١٧٤ – ١٧٧) .

عملاق ، ويقال : ولد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنمًا، أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنمًا يقال : له هبل ، فقدم به مكّة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[1].

قال ابن إسحق :

كانت كنانة وقريش إذا هلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك .

وقد ذكر السهيلي وغيره . أن أول من لبى هذه التلبية عمرو بن لحي ، وأن إبليس تبدى له في صورة شيخ ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ، ويقول كما يقول واتبعه العرب في ذلك ، ولم يقف شيطانه عند هذا الحد ، وابتدع - لعنه الله - لهم أشياء في الدين غيَّر بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك .

وانظر أيضًا إلى ما ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة ، التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي - قبحه الله - أنها مصلحة ورحمة بالدوابِّ والبهائم ، فهو أول من سيَّب السَّوائب ، وهو كاذب مفترٍ في ذلك ، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام ، بعد ما تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير ، وهو عبادة الأوثان ، وقد قال تعالى : ﴿ **ما جعل الله من بَحِيرَةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

فيا له من قزم دعا رعاعًا فأجابوه !

فهل كان جزاؤه من جنس عمله ؟

قال ﷺ : « رأيت عمرو بن عامرٍ الخزاعي يجر قُصْبَهُ[2] في النار ،

---

(١) الروض الأنف ، للسهيلي (١/٣٥٠) .

(٢) القُصْب : بضم القاف وسكون الصاد أمعاءه . قال الزمخشري : القصب واحد الأقصاب ، وهي الأمعاء ومنه القصّاب ؛ لأنه يعالجها . وقال ابن الأثير : اسم للأمعاء كلها ، وقيل : ما كان أسفل البطن من الأمعاء (فيض القدير ٤ / ٩) .

وكان أول من سَيَّب السوائبَ ، وبحرَ البَحيرة »[١] .

قال المناوي :

لكونه استخرج من باطنه بدعة جرّ بها الجريرة إلى قومه[٢] ، فكذا يجر أمعاءه في النار ، والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « رأيت عمرو بن لُحَي بن قَمْعَة بن خِنْدِف ، أخا بني كعب ، وهو يجر قصبه في النار »[٣] .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول من سيّب السوائب ، وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإني رأيته في النار يجُرُّ أمعاءه فيها »[٤].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا ، ورأيت عمرًا يجر قصبه ، وهو أول من سيّب السوائب »[٥] .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول لأكثم بن الجون الخزاعي : « يا أكثم ، رأيت عمرو بن لُحَيٍّ بن قمعة بن خندف يجر قُصبه في النار ، فما رأيت رجلًا أشبه برجل منك به ، ولا بك منه » . فقال أكثم : عسى أن يضرّني شبهه يا رسول الله ؟ قال : « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غيَّر دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيَّب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي »[٦] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده ، وابن أبي عاصم في الأوائل عن أبي هريرة .

(٢) فيض القدير (٤ / ٩) .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٠٢٠ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٦٧٧ .

(٥) تفرد به البخاري .

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في الأوائل ، وقال الألباني : إسناده حسن ، السلسلة الصحيحة رقم ١٦٧٦ .

○ أبرهة صاحب الفيل ○

قال ابن جرير :

عن ابن إسحق أن أبرهة- الأشرم - بني كنيسة بصنعاء ، وكان نصرانيا ، وسماها : القليس[(١)] .

وانظر إلى أبرهة اللعين - صاحب الفيل - والصاحب يكون من جنس القوم . فكأن الله أشار إلى أنه من جنس البهائم بل أضلّ . لما ابتنى كنيسته القليس بصنعاء وأراد حج الناس إليها ، وأراد بذلك صرف الناس عن الحج إلى البيت .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

فصرف الله عنها الناس ، وأوقد الحريق فيها كما قال القمي النيسابوري .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الشنقيطي في أضواء البيان :

وكذلك جيش أبرهة ، لما جاء مدلا بعدده وعدته ، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات ، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿ **فأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾[(٢)]. [الفيل : ٣-٥] .

يقول ابن كثير :

يقول ابن إسحق : أرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاءوا يسألون عن نفيل بن حبيب ،

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١٢ / ١٩٦ - ١٩٧) .

(٢) أضواء البيان (٨ /٤٤٢) .

ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، وفي ذلك يقول نفيل :

حمدت الله إذ أبصرت طيرًا وخفت حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفير كأن عليّ للحبشان دَيْنا

قال ابن إسحٰق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدّة تمثّ قيحًا ودمًا ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون[1] .

فلما أراد أبرهة هدم البيت حجرًا حجرًا ، كذلك سقط أنملة أنملة .

لما أراد تصديع البيت فكذا انصدع صدره عن قلبه .

لما زها وعتا بنفسه ، وخرج بقوته يريد مكة ، فالآن يعود إلى بلاده مثل فرخ الطائر .

والجزاء من جنس العمل .

قال تعالى : ﴿ **وأرسل عليهم طيرًا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ [الفيل : ٣ - ٥] .

أبابيل : أي متفرقة يتبع بعضها بعضا من نواحٍ شتى ، قال ابن عباس : يتبع بعضها بعضا . وقال عبد الله : فرق . وقال ابن عباس : كانت طيرًا لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب .

والسجيل : هو الطين في حجارة ، كما قال ابن عباس .

فانظر رحمك الله .. لما تتابعوا على البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل ، يتبع بعضها بعضًا .

ولما أرادوا نقض البيت ، وهدْمه حجَرًا حجَرًا ؛ عذَّبهم الله بالحجارة والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٥٠-٥٥١) بتصرف . طبع دار التراث

لا هم إنَّ العبد يمـ ـنع رَحْله فامنع رحالك
لا يغلبـن صليبهـم ومحالهم غدْوًا محالك .

قال ابن كثير :

قال ابن إسحٰق : بعثت ثقيف أبا رغال مع أبرهة ، ليدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس ، كقول جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجمكمُ لقبر أبي رغال

فلما أعان القوم كدليل لهدم الكعبة ، وجعلها أنقاضا وحجارة ، فكذا يرجم قبره بالحجارة .

والجزاء من جنس العمل .

أما قائد الفيل وسائسه : روى ابن إسحٰق عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان . تحركت أقدامهما بالفيل ، فأصبحا يقادان في شوارع مكة ، وأقعدهما الله .

والجزاء من جنس العمل .

يقول سيد قطب :

ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعزَّ بالفيل – وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا – ويهلك بحيوان صغير ، لا يظهر للنظر ، ولا يدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر ، لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر[1].

فلما شرفت الكعبة بإضافة ﴿ **وطهر بيتي** ﴾ [الحج : ٢٦] ، قصدها فوج الفيل ، فَفِيلَ[2] مرادهم ، لما باتوا على ما بيتوا ، أقبل الطير الذي رمى كالغمام ، فكانت قطراته للحصاد لا للبذر ، فأصبح لزرع الأجساد كالمنجل الهاشم ؛ ليكون معجزًا لظهور بني هاشم ، فأمسوا في بيدر الدياس ﴿ **كعصف مأكول** ﴾[3] .

---

(١) الظلال (٦/٣٩٧٦). (٢) خاب. (٣) المدهش لابن الجوزي ٧٥ .

○ كفار قريش ○

كفار قريش الذين صدوا عن سبيل الله ، وآذوا الرسول ﷺ ، وجرّعوا الصحابة صنوف العذاب ، فلننظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم .

قد قالوا عن رسول الله ﷺ أنه الأبتر وكذبوا ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ٣] .

يقول سيد قطب :

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ، ولا يمكن أن يكون صاحبها أبتر ، كيف وهي موصولة بالحي الباقي ...؟! إنما يبتر الكفر والباطل والشر ، ويبتر أهله مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور ، وصدق الله العظيم ، وكذب الكائدون الماكرون[١] .

وكم رأت دار الندوة من انتفاش الباطل ورجسه ودنسه ، وهي دار عريقة ذات تاريخ ، وفيها اجتمع سادة قريش ليأتمروا برسول الله ﷺ ، وتمر الأيام وتصير هذه الدار إلى حكيم بن حزام الذي أراد أن يتخلص منها ، وكأنه يريد أن يسدل ستارًا من النسيان على ذلك الماضي البغيض ، فباعها بمائة ألف درهم ، فقال له قائل من فتيان قريش : لقد بعت مَكْرُمة قريش ياعم : فقال حكيم : هيهات يا بني ، ذهبت المكارم كلها ؛ ولم يبق إلا التقوى ، وإني ما بعتها إلا لأشتري بثمنها بيتا في الجنة ، وإني أشهدكم أنني جعلت ثمنها في سبيل الله عز وجل »[٢] .

فالباطل ينتفخ وينتفخ وينفش ، يموه على العين ، ولكنه هش سريع العطب ، كالزبد يطفو على الماء ، ولكنه يذهب جفاءً ويبقى الماء ، أما الحق فله العقبى وله البقاء ولا يزول .

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٨٩) .

(٢) صورة من حياة الصحابة (٥/٧٦ - ٧٧) .

○ أبو جهل فرعون هذه الأمة ○

قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** ﴾ [الأنفال : ٤٧] .

قبل بدر لما نجا أبو سفيان بعير قريش ، ولما ترك بدرًا بيسار ، نزلت قريش بالجحفة .

يقول ابن إسحاق :

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا ، فقال أبو جهل بن هشام ، والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا - وكان بدر موسما من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثَلاثًا ، فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا ، فامضوا .

فكان جزاؤهم من جنس عملهم ، وصاروا حديث الناس في الذل والهوان .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة : أن أبا أجهل قال حين التقى القوم : اللهم ، أقطعنا للرحم ، وأتانا بما لا نعرف ، فأحِنِهِ[1] الغداة ، فكان هو المستفتح[2] .

قال تعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين** ﴾ [الأنفال : ١٩] .

---

(١) أي اجعل حينه غدًا .

(٢) رواه أحمد وابن إسحق ، والنسائي ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، انظر البداية والنهاية (٣ / ٢٨٢) .

وقال الآمدي عن مطرف في قوله تعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ . قال : قال أبو جهل : اللهم أعن أعز الفئتين ، وأكرم القبيلتين ، وأكثر الفريقين ، فنزلت : ﴿ **إن تستفتحوا ..** ﴾ الآية .

وقال الطبراني عن رفاعة بن رافع قال : لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر ، أشفق أن يُخْلص إليه ، فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز في صدر الحارث ، ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه في البحر ، ورفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي . وخاف أن يخلص القتل إليه ، وأقبل أبو جهل فقال : يا معشر الناس ، لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد ، فإن عجلوا فواللات والعزى ، لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال ، فلا ألفين رجلًا منكم قتل رجلًا ، ولكن خذوهم أخذًا ، حتى تُعَرِّفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ، ورغبتهم عن اللات والعزى ، ثم قال أبو جهل متمثلًا :

ما تنقم الحرب الشموس منِّي
باذلَ عامين حديث سنِّ
لمثل هذا ولدتني أمي

فانظر كيف كان جزاء هذا المنتفخ من جنس عمله :

روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف قال : إني لفي الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن لمكانهما ، فقال لي أحدهما سرًا من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل . فقلت : يا ابن أخي ، ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله ، أو أموت دونه . وقال لي الآخر سرًا من صاحبه مثله . قال : فما سرني أنني بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين ، حتى ضرباه وهما ابنا عفراء .

وفي الصحيحين أيضًا : من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ينظر ماذا صنع أبو جهل ؟ » . قال ابن مسعود : أنا يا رسول الله . فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء ، حتى برد . قال : فأخذ بلحيته ، قال : فقلت : أنت أبو جهل[1]؟ فقال : وهل فوق رجل قتلتموه ، أو قال : قتله قومه .

وعند البخاري : عن ابن مسعود : أنه أتى أبا جهل فقال : هل أخزاك الله ؟ . فقال هل أعمد[2] من رجل قتلتموه .

وقال الأعمش عن ابن إسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : انتهيت إلي أبي جهل وهو صريع وعليه بيضة ، ومعه سيف جيد ، ومعي سيف رديء فجعلت أنقف[3] رأسه بسيفي ، وأذكر نقفًا كان ينقف رأسي بمكة ، حتى ضعفت يده ، فأخذت سيفه ، فرفع رأسه فقال : على من كانت الدائرة لنا أو علينا ؟ ألست رويعينا بمكة ؟. قال : فقتلته ثم أتيت النبي ﷺ فقلت : قتلت أبا جهل . فقال : « آلله الذي لا إله إلا هو ؟ » فاستحلفني ثلاث مرات ، ثم قام معي إليهم فدعا عليهم[4] .

فكان جزاؤه من جنس قوله ، بل ومن جنس عمله ، فنقف ابن مسعود بالسيف في رأسه مثلما فعل به في مكة .

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٣٤٢) : والتقدير : أنت المقتول يا أبا جهل ؟ وخاطبه بذلك مقرِّعًا له ومستشفيًا منه ؛ لأنه كان يؤذيه بمكة أشد الأذى .

(٢) كناية عن الهلاك ، وعمد أي هلك ، وقيل : معني أعمد : أعجب أو أغضب ، وقيل : معناه هل زاد على سيد قتله قومه : الفتح (٧ / ٣٤٣) .

(٣) أضرب .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٨٨ - ٢٨٩) .

○ أبو لهب وامرأته حمالة الحطب ○

وأبو لهب هذا الذي أفرد الله ذكره من كفار قريش ، هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمي أبا لهب ؛ لإشراق وجهه ، ولتلهب وجنتيه ، وكأن كنيته من جنس عمله ومآله إلى ذات اللهب ، فوافقت حاله كنيته فحسن ذكره بها ، وامرأته أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان .

ولقد كان أبو لهب كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له ، والازدراء به . والتنقص له ولدينه .

وانظر إلى نموذج من نماذج كيد أبي لهب لدعوة الرسول ﷺ ، التي عاداها من اليوم الأول للدعوة .

روى الإمام أحمد ، عن ربيعة بن عبّاد من بني الديل – وكان جاهليًا ، فأسلم – قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية، في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يأيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب .

وروى محمد بن إسحٰق عن ربيعة بن عباد الديلي قال : إني لمع أبي غلام شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول وضيء ذو جُمّة ، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا وأن تصدقوني وتمنعوني ، حتى أنفذ عن الله ما بعثني به » وإذا فرغ من مقالته قال الآخر ، مِنْ خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيس ، إلى ما جاء به من البدعة والضلة ، فلا تسمعوا له وتتبعوه .

فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب[(١)] .

قال تعالى : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد** ﴾ [المسد : ١ - ٥] .

روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل ، فنادى : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا : نعم . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾[(٢)] .

وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقول : تبًّا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ . فأنزل الله : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾[(٣)] .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

من أول يوم ينفرد هذا الكافر بالكيد للرسول ﷺ وتتبع خطوه ، والرد على مقالته ، فأفرد الله ذكره ، وشهره بكنيته دون بقية صناديد الكفر من قريش .

ولما قال للرسول ﷺ : تبًّا لك وقام ينفض يديه ، فتنزل السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته ، وتولى الله سبحانه عن رسول الله ﷺ أمر المعركة .

قال : تبا لك ، فكان الجزاء : ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ .. دعاءٌ بدعاء ، ولفظٌ بلفظ .

---

(١) رواه أحمد والطبراني .

(٢) رواه البخاري تفسير سورة : ﴿ تبت يدا أبي لهب .. ﴾ .

(٣) البخاري كتاب الجنائز باب ذكر شرار الموتى ، وتفسير سورتي الشعراء وسبأ .

نفض يديه ، فجاء ذكر اليدين : ﴿ **تبت يدا** ﴾ .. واحدة بواحدة .. يداك أو كتا وفوك نفخ أبا لهب .

سائر اليوم : سائر الدهر وأنت بعد في دار الدنيا ﴿ **وتب** ﴾ .

ولم يقيض الله له ولا لامرأته أن يؤمنا ، ولا لواحد منهما ولا ظاهرًا ولا باطنًا ، ولا سرًّا ولا معلنًا ؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة[1] .

﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ تباب وهلاك وبوار وقطع .. في آية قصيرة واحدة ، تصدر الدعوة وتتحقق ، وتنتهي المعركة ، ويسدل الستار !

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ ولو لم يكونوا على دينه ؛ تلبية لدافع العصبية القبلية ، خرج أبو لهب على إخوته ، وحالف عليهم قريشًا ، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم ، وتجويعهم كي يسلموا لهم محمدًا ﷺ : وكان قد خطب بنتي الرسول ﷺ رقية وأم كلثوم ، لولديه قبل بعثة النبي ﷺ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما ، حتى يثقل كاهل محمد بهما !

﴿ **ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ **وما كسب** ﴾ يعني ولده ، وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله . لما دعا الرسول ﷺ قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقا ، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي . قال الله - عز وجل - لنبيه محمد ﷺ : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ [الكوثر : ٣] .

عن عطاء : نزلت في أبي لهب ، وذلكَ حين مات ابن الرسول ﷺ ، فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بتر محمد الليلة . فأنزل الله في ذلك ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٧) .

والجزاء من جنس العمل .

قال القاسمي :

قال الشهاب : والذي صححه أهل الأثر أن أولاده – لعنه الله – ثلاثة : معتب ، وعتبة ، وهما أسلما ، وعُتيبة – مصغرا – وهذا هو الذي دعا عليه النبي ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ، وردّ ابنته وطلقها . وقال صلوات الله عليه وسلامه : «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» . وفيه يقول حسان – رضي الله عنه –:

من يرجع العام إلى أهله فما أكيلُ السَّبع بالراجع[1]

قال ابن كثير :

روى ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب من طريق محمد بن إسحٰق عن هبار بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام ، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلق إلى محمد ولأوذينه في ربه – سبحانه – فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد ، هو يكفر بالذي دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فقال النبي ﷺ : « اللهم ، ابعث إليه كلبًا من كلابك » . ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه ، فقال : يا بني ما قلت له ؟. فذكر ما قال له ، قال : فما قال لك ؟. قال : قال اللهم ، سلط عليه كلبًا من كلابك . قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه[2].

وفي رواية عروة بن الزبير : أن عتبة بن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين محمدًا فلأوذينه . فأتاه فقال : يا محمد ، هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ، سلط عليه كلبًا من كلابك » وكان أبو طالب حاضرا ، فوجم لها وقال : ما كان أغناك يا بن أخي عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره[3].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٦٢٩٢/١٧). (٢) تفسير ابن كثير (٤٢١/٨) سورة النجم.

(٣) القرطبي (٩ / ٦٢٥٣) .

فسرنا حتى نزلنا الشراة[١] ، وهي مأسدة[٢] ، فنزلنا إلى صومعة راهب ، فقال : يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد ، فإنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم ، فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة ، والله ما آمنها عليه ، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشمّ وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد ؛ تقبض ، فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزمة[٣]، ففضح[٤] رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد .

فانظر أخي يرحمك الله .. لما تفل في وجه رسول الله - ﷺ - أتى الأسد ، فشم وجهه ، وفضح رأسه ، لم يأكله من يديه أو رجليه ، وإنما وجه بوجه ..

بصق في وجه نبي ... وفضح في رأس شقي ، ومعذرة لرسول الله ﷺ .

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فابن أبي لهب لا يناسبه إلا كلب[٥] .

وهل أغنى عنه ولده يوم موته ..؟!

فهل الجزاء إلا من جنس العمل !؟

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : رماه الله بالعدسة فقتلته ، فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا ، ما دفناه حتى أنتن ، وكانت قريش تتقي هذه العدسة ، كما

---

(١) الشراة : صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ . وفي اللسان : موضع تنسب إليه الأسد . يقال للشجعان : ما هم إلا أسود الشرى ، والشرى طريق في سلمى كثير الأسد .

(٢) الأرض كثيرة الأسود .

(٣) أي ضربه ضربة . (٤) أي شدخه .

(٥) قال القاسمي في محاسن التأويل (١٧ / ٦٢٩٢) ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه كلب ، ولما أضيف إلى الله كأنه أعظم أفراده .

تتقي الطاعون ، حتى قال لهم رجل من قريش : ويحكما ، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفنانه ؟ فقالا : إنا نخشى عدوة هذه القرحة . فقال : انطلقا فأنا أعينكما عليه ، فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه ، ثم احتملوه إلى أعلى مكة ، فأسندوه إلى جدارٍ ، ثم رخموا عليه بالحجارة .

عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أنها كانت لا تمر على مكان أبي لهب هذا ، إلا تسترت بثوبها حتى تجوز .

﴿ سيصلى نارًا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب ﴾ .

من للأحول غير أم قبيح ، أم جميل العوراء .

قال ابن العربي : العوراء أم قبيح وكانت عوراء ، من لها غير أبي النار ، أبي لهب ؟! حقق الله نسبه ، لقد صرفهم الله على أن يقولوا : أبو النور .. وأبو الضياء ، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب ، الذي هو مخصوص بالمكروه والمذموم وهو النار ، ثم حقق ذلك بأن يجعلها مَقَرّه .

قال ابن كثير عن أم جميل :

كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عونا عليه في عذابه في نار جهنم ، ولهذا قال : **﴿ حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد ﴾** يعني : تحمل الحطب فتلقي على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه ، وهي مهيأة لذلك ، مستعدة له[1] .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ حمالة الحطب ﴾ عن مجاهد وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثوري ، والسدي : كانت تمشي بالنميمة .

وعن ابن عباس ، وعطية الجدلي ، والضحاك ، وابن زيد ، كانت تضع

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٥) .

الشوك في طريق رسول الله ﷺ ، واختاره ابن جرير .

قال الإمام ابن جرير :

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي هو قول من قال : كانت تحمل الشوك ، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ ؛ لأن ذلك أظهر .

قال الربيع : فكان النبي ﷺ يطؤه كما يطأ الحرير .

ومثلما حملت الشوك والعضاة تطرحه في طريق رسول الله ﷺ ، فكذا تحمل الحطب تطرحه على زوجها في النار جزاءً وفاقًا ، قال قتادة وغيره : كانت تُعيّر رسول الله ﷺ بالفقر ، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب لشدة بخلها ، فُعيّرت بالبخل[1] .

بل كان موتها بجنس عملها .

قال مرة الهَمْداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة[2] من الحسك[3] فتطرحها في طريق المسلمين ، فبينما هي حاملة ذات يوم حُزْمة أعْيَت ، فقعدت على حجر لتستريح ، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها[4] خنقها الله بحبلها .

قال سعيد بن جبير : حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ، دليله قوله تعالى : ﴿ **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ [الأنعام : ٣١] . ولا يظلم ربك أحدًا . والجزاء من جنس العمل .

﴿ **في جيدها[5] حبلٌ من مسد** ﴾ .

قال سعيد بن المسيِّب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها في

---

(١) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٣٣٠) .

(٢) الإبالة : الحزمة الكبيرة .

(٣) الحسك : نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم ، وهو السعدان .

(٤) تفسير القرطبي (١٠ / ٧٣٣٠) .

(٥) الجيد : العنق .

عداوة محمد ، فأعقبها الله بها حبلا في جيدها من مسد النار .

وعن الثوري : هي قلادة من نار طولها سبعون ذراعًا . والجزاء من جنس العمل[١] .

يقول سيد قطب في الظلال :

أبو لهب ﴿ **سيصلى نارًا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب** ﴾ ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد ، تناسق في اللفظ ، وتناسق في الصورة ، فجهنم هي نار ذات لهب ، يصلاها أبو لهب ، وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه ، والحطب مما يوقد به اللهب ، وهي تحزم الحطب بحبل ، فعذابها في النار ذات اللهب ، أن تُغّل بحبل من مسد ؛ ليتم الجزاء من جنس العمل[٢] .

وانظر يأخي ، مثلما أراد أن ينغصا عيش رسول الله ﷺ بتطليق ابنتيه وتتبعه في المجالس بتكذيبه ، مثلما أثارا حربًا شعواء على النبي ﷺ ، وعلى الدعوة لا هوادة فيها ولا هدنة ، انظر إلى وقع السورة في نفس أم جميل ، التي ذعرت لها وجُنّ جنونها ، وحسبت أن الرسول ﷺ قد هجاها بشعر ، وبخاصة حين انتشرت هذه السورة ، وما تحمله من تهديد ومذمة ، وتصوير رزي لأم جميل خاصة ، تصوير يثير السخرية ، من امرأة معجبة بنفسها ، مُدِلَّةٍ بحسبها ونسبها ، ثم ترتسم لها هذه الصورة ﴿ **حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد** ﴾ في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب .

عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما نزلت : ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة وفي يدها فهر[٣] ، وهي تقول :

مذممًا أبينا
ودينه قلينا
وأمره عصينا

---

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٦) . (٢) الظلال (٦ / ٤٠٠٠) .

(٣) أي بمقدار ملء الكف من الحجارة .

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت ، وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن تراني » وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا** ﴾ [الإسراء : ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، ولم تر رسول الله ﷺ ، فقالت : يأبا بكر ، إني أخبرت أن صاحبك هجاني ؟. قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فولت ، وهي تقول : قد علمت قريش إني ابنة سيدها . قال : وقال الوليد في حديثه ، أو غيره : فعثرت أم جميل مِرْطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصان فما أُكلّم ، وثقاف[1] فما أُعلّم ، وكلنا من بني العمِّ ، وقريش بعد أعلم[2] .

وروى الحافظ عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ وجاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر ، فقال له أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء . فقال رسول الله ﷺ : « إنه سيحال بيني وبينها ، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، فقالت : يأبا بكر هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ما نطق بالشعر ولا يتفوه به . فقالت : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر – رضي الله عنه – : ما رأتك ؟. قال : لا مازال ملك يسترني حتى ولت »[3].

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعرًا ، وكان الهجاء لا يكون إلا شعرًا مما نفاه أبو بكر ، وهو صادق ، ولكن الصورة المزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها قد سجلت في الكتاب الخالد ، وسجلتها صفحات الوجود أيضًا ، تنطق بغضب الله وحربه أبي لهب وامرأته ،

---

(١) أي ذات فطنة ومعرفة .

(٢) تفسير ابن كثير (٨ / ٥٣٦ – ٥٣٧) .

(٣) ابن كثير (٨ / ٥٣٧) .

جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله ، والتباب والهلاك والسخرية والزراية ، جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا ، والنار في الآخرة جزاءً وفاقًا ، والذل الذي يشير إليه الحبل ، في الدنيا والآخرة جميعًا(١) .

○ عقبة بن أبي معيط لعنه الله ○

هذا الشقي الذي آذى رسول الله ﷺ ، وانفرد بما لم يفعله أحد ، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ ، فقطعت عنقه جزاء وفاقا .

قال ابن إسحٰق في أسرى بدر ، وعن عقبة بن أبي معيط وكيف قتل صبرًا :

قال عقبة ، حين أمر رسول الله ﷺ بقتله : فمن للصبية يا محمد ؟. قال : « النار » . وكان الذي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، وكذا قال موسى ابن عقبة في مغازيه .

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت ، قال : يا معشر قريش علام أقتل مِنْ بين مَنْ هنا ؟ قال على عداوتك لله ورسوله .

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال : لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال : أتقتلني يا محمد ، من بين قريش ؟ قال : « نعم ، أتدرون ما صنع هذا بي ، جاء وأنا ساجد خلف المقام ، فوضع رجله على عنقي وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عينيّ ستندران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاة ، فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي .

قال ابن هشام : بل قتل عقبة علي بن أبي طالب ، فيما ذكره الزهري وغيره من أهل العلم(٢) .

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ ، وأطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله ﷺ .

---

(١) الظلال (٤٠٠١/٦) .

(٢) البداية والنهاية (٣ / ٣٠٦) .

○ أُبَيّ بن خلف ○

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه - يشير إلى راعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله - ﷺ - في سبيل الله»[١] .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « اشتد غضب الله على مَنْ قتله النبي في سبيل الله ، اشتد غضب الله على قوم دَمَّوْا وجه نبي الله ﷺ»[٢].

قال ابن إسحٰق : « كان أُبي بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة ، فيقول : يا محمد ، إن عندي العَوذَ ، فرسًا أعلفه في كل يوم فرقا[٣] من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ : « بل أنا أقتلك إن شاء الله »[٤] .

قال ابن كثير :

عن عروة بن الزبير قال : كان أبي بن خلف أخو بني جمع ، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » . فلما كان يوم أحد أقبل أُبي في الحديد مقنعا ، وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله ، فاستقبله مصعب ابن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها بالحربة ، فوقع إلى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه ، وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك ، إنما هو خدش ؟. فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : « أنا أقتل أبيا » . ثم قال : والذي نفسي بيده ، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون .

---

(١) رواه البخاري ومسلم . (٢) رواه البخاري .

(٣) بفتح الراء وإسكانها : مكيال يسع تسعة عشر منا ، وقيل : اثنا عشر منا .

(٤) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة : أحد ١٦٢ .

فمات إلى النار . ﴿ **فسحقا لأصحاب السعير** ﴾[1] [الملك : ١١] .

وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب نحوه ، وقال ابن إسحق : لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أُبي بن خلف ، وهو يقول : لا نجوتُ إن نجوتَ . فقال القوم : يا رسول الله ، يعطف عليه رجل منا ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوه » . فلما دنا منه ، تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصُمّة فقال بعض القوم - كما ذكر لي - فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض انتفاضة تطايرنا عنه ، تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفضه ، ثم استقبله رسول الله ﷺ ، فطعنه في عنقه تدأدأ منها[2] مرارًا[3] .

لما رجع إلى قومه ، وقد خدشه الرسول ﷺ بالحربة خدشًا غير كبير ، قال : قتلني والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله ما بك من بأس . قال : إنه قد كان قال بمكة : أنا أقتلك فوالله ، لو بصق عليّ لقتلني ، فكان هذا الشقي هو الوحيد الذي قتله رسول الله ﷺ بيده الكريمة[4] .

فكان جزاؤه من جنس قوله للرسول ﷺ بمكة .

قال حسان :

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أُبيٌّ يوم بارزه الرسولُ

أتيت إليه تحمل رِمَّ عظمٍ ... وتُوعِدُهُ وأنتَ به جهولُ

وقال أيضًا :

ألا من مُبْلغٍ عني أُبيّا ... فقد أُلقيت في سحق السعيرِ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٣٣ - ٣٤) .

(٢) عدا أشد العدو .

(٣) البداية والنهاية (٤ / ٣٣ - ٣٤) .

(٤) سلسلة معارك الإسلام : أحد ١٦٣ .

تُمَنِّي بالضلالة مِنْ بعيدٍ ... وتقسمُ إن قدرت مع النذورِ
تُمنّيك الأمانيَ من بعيد ... وقول الكفر يرجع في غرورِ
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظٍ ... كريم البيت ليس بذي فجورِ
له فضل على الأحياء طُرّاً ... إذا نابت مُلِمَّاتُ الأمورِ

○ عبد الله بن قمئة أقمأه الله ○

عن ابن عباس قال : اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه رسول الله  .

قال ابن حجر :

ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه شُج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها ، ووهي منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته[1] .

وعند ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري : أن عبد الله بن قمئة جرحه – أي الرسول ﷺ في وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَرِ في وجنته ﷺ .

فماذا كان جزاء هذا الشقي ؟!

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر : إن الذي رمى رسول الله ﷺ بأحد ، فجرحه في وجهه ، قال : خذها مني وأنا ابن قمئة ، فقال : « أقمأك الله » .. قال فانصرف إلى أهله ، فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع .

وفي الطبراني ، من حديث أبي أمامه قال : رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد ، فشج وجهه وكسر رباعيته ، فقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يمسح الدم عن وجهه : « ما لك ، أقماك الله » .

---

(١) فتح الباري (٧ / ٤٣١) .

فسلط الله عليه تَيْس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعةً قطعةً .

وكان جزاؤه من جنس عمله .

فانظر رحمك الله .. لم يرسل الله عز وجل إلى ابن قمئة مَلَكًا ؛ لينتقم لنبيه ﷺ ، وإنما سلط عليه تيسًا قطَّعه ، وألقاه من فوق الجبل ، لهوانه على الله .

يا لذل قَزَمٍ تَطاول على النبي ﷺ ، وشج وجهه ، فأخزاه الله ، وقطعه تيس .. وتردى من فوق الجبل إلى الهاوية ، ليخزى في الدنيا والآخرة .

○ معذبة زنيرة ○

كانت زنيرة فتاة صغيرة مملوكة عند امرأة مشركة في قريش ، لما أسلمت قامت سيدتها تعذبها بالليل والنهار ، وذات يوم جمعت الجواري وأمرتهن أن يضربْنَها على رأسها ، حتى فقدت البصر ، فإذا عطشت قالت : اعطوني ماءً . قالت : الماء أمامك فابحثي عنه . قالت لها سيدتها : يا زنيرة ، إن كان ربك الذي تؤمنين به حقًّا كما تزعميـن ، ادعيه فليرد عليك بصرك لكي تري الماء والطعام . فرفعت يديها إلى الله ، وقالت : اللهم ، إني أسألك أن ترد عليَّ بصري : فأبصرت، وإذا بسيدتها تصرخ، وتصيح من رأسها وارأساه. وتقول للجواري: احملن النعال والقباقيب، واضربوني على رأسي. فضربنها حتى فقدت البصر .

وهكذا ينتقم الله لأوليائه والجزاء من جنس العمل[1] .

وكان العمى جزاءً على الكفر .

○ الوليد بن المغيرة ○

وأخيرًا شيخ أهل الكفر وأشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ .

---

(١) شريط بعنوان : حلاوة الإيمان . للشيخ أحمد القطان .

قال تعالى : ﴿ **ولا تطع كل حلّاف مهين . همّاز مشاء بنميم . منّاع للخير معتد أثيم . عُتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آيتانا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم** ﴾[القلم : ١٠ - ١٦] .

قال سيد قطب :

وقد قيل : إنه الوليد بن المغيرة ، وإنه هو الذي نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا** .. ﴾ الآيات [المدثر : ١١] .

ورويت عنه مواقف كثيرة في الكيد لرسول الله ﷺ ، وإنذار أصحابه ، والوقوف في وجه الدعوة ، والصدّ عن سبيل الله .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة في هذه السورة ، والتهديدات القاصمة في السورة الأخرى وفي سواها ، شاهدٌ على شدة دوره - سواء كان هو الوليد أو الأخنس ، والأول أرجح - في حرب الرسول والدعوة ، كما هي شاهد على سوء طويته وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

فهو ﴿ **زنيم** ﴾ ، وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة في عدو من أعداء الإسلام ، وما يعادي الإسلام ويصرّ على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم .

والزنيم من معانيه : اللصيق في القوم ، لا نسب له فيهم ، أو أن نسبه فيهم ظنين . ومن معانيه الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره ، والمعنى الثاني هو الأقرب في حالة الوليد بن المغيرة ، وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهينا في القوم ، وهو المختال الفخور ..

ومن ثم يجيء التهديد من الجبار القهار ، يلمس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ، كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه ، ويسمع وعد الله القاطع : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ ...

والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير .

الأول : الوسم كما يوسم العبد ..

والثاني : جعل أنفه خرطومًا كخرطوم الخنزير ...

إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم[1] .

قال الفخر الرازي :

﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ إن في الآية احتمالًا آخر عندي ، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول ، وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية .

فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية ، كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية ، فعبّر عن هذا الاختصاص بقوله : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ .

قال ابن عباس : سنخطمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش .

قال ابن كثير :

قال ابن جرير : سنبين أمره بيانًا واضحًا حتى يعرفوه ، ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم ، وهكذا قال قتادة ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه ، وفي رواية عنه : سنسمه سيما على أنفه ، وكذا قال السدي ، وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال ، وقال آخرون سنسمه سمة أهل النار ، يعني : نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم ، وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٦٦٣ - ٣٦٦٤) .

في الدنيا والآخرة[١] .

من مات همّازًا لمّازًا ملقبًا للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين .

قال العوفي عن ابن عباس : يقال : هو الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة ، وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري ، وليس به .

وقال الرازي : في مفاتيح الغيب :

وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وكان له عشرة من البنين ، وكان يقول لهم وما قاربهم : لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدًا ، فمنعهم الإسلام .

وعن ابن عباس : أبو جهل ، وعن مجاهد : الأسود بن عبد يغوث ، وعن السدي ، الأخنس بن شريق[٢] .

قال البقاعي :

لما كان هذا المذكور قد أغرق في الشر ، فتوقع السامع جزاءه ، قال معلمًا أنه يجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة ﴿ **سنسمه** ﴾ أي : نجعل ما يلحق به من العار في الدارين كالوسم الذي لا ينمحي أثره ، تقول العرب : وسمه مَيْسم سوء ، ولما كان الوسم منكئًا ، وكان جعله في موجع لا يُستر أنكأ ، وكان الوجه أشرف ما في الإنسان ، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف ، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة ، واشتقوا منه الأنفة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٠٥ - ٤٠٦) .

(٢) مفاتيح الغيب (١٥ / ٦٥٤ - ٦٥٥) .

﴿ **على الخرطوم** ﴾ أي : الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين ، وَسْمًا مستعليا عليه بوضوح جدًّا ؛ ليكون هتكه بين الناس وفضيحة لقومه ، وذلًا وعارًا ، وكذا كان لعمري له بهذا الذكر الشنيع ، والذنب القبيح من الكفر وما معه ، وسيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشنع من هذا ، على أنه حقق في الدنيا هذا الخطم حسا بأنه ضُرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه[1] .

قال تعالى : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا . وجعلت له مالًا ممدودًا . وبنين شهودًا ومهدت له تمهيدًا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدًا . سأرهقه صعودًا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر** ﴾ [المدثر : ١١ - ٢٩] .

يقول الشيخ سيد قطب : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ . التصعيد في الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقًا ، فإذا كان دفعًا من غير إرادة من المصعَّد كان أكثر مشقة ، وأعظم إرهاقًا ، وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة ، فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الورود ، يندبُّ في طريق وعرٍ شاقٍّ مبتوت ؛ ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنما يصَّعَّد في السماء ، أو يصَّعَّد في وعرٍ صلد ، لا رِيّ فيه ولا زاد ، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق !.

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية ، والرجل يكد ذهنه ! ويعصر أعصابه ! ويقبض جبينه ! وتكلح ملامحه وقسماته ، كل ذلك ليجد عيبًا يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولًا يقوله فيه ؛ جدّ مصطنع ، متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء ، وبعد هذا المخاض كله ؛ وهذا الحَزق كله ، لا يفتح عليه بشيء ، إنما يدبر عن النور ، ويستكبر عن الحق .

---

(١) نظم الدرر (٢٠ / ٣٠٥ - ٣٠٦) .

إنها لمحات تدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وتثبت صورته الرزية في صلب الوجود ، تتملاها الأجيال بعد الأجيال .

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات ، عقب عليها بالوعيد المفزع : ﴿ **سأصليه سقر** ﴾ .. وزاد هذا الوعيد تهويلًا بتجهيل سقر ، ﴿ **وما أدراك ما سقر** ﴾ إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ؛ ثم عقب على التجهيل بشيء من صفاتها أشد هولا : ﴿ **لا تبقي ولا تذر** ﴾ فهي تكنس كنسًا ، وتبلع بلعًا ، وتمحو محوًا ، فلا يقف لها شيء ، ولا يقف وراءها شيء ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء[1] !

هذا دين رفيع ، لا يُعْرِض عنه إلا مطموس ، ولا يعيبه إلا منكوس .

قال القاسمي :

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره ما رواه ابن إسحٰق ، أن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا رأيًا واحدًا ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضًا ، ويردّ قولكم بعضه بعضًا ، قالوا : فأنت ، يا أبا عبد شمس ، فقل ، وأقم لنا رأيًا نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر - قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا

---

(١) الظلال (٦ / ٣٧٥٦) .

السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ؛ إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإنّ فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا** .. ﴾ الآيات .

وعن قتادة : قال الوليد : لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وما أشك أنه سحر ، فأنزل الله الآيات . رواه ابن جرير[1].

قال محمد الطاهر بن عاشور :

كان الوليد بن المغيرة ، يلقب في قريش بالوحيـد ، لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته ، وهي كثرة الولد ، وسعة المال ، ومجده ، ومجد أبيه من قبله ، وكان مرجع قريش في أمورهم ؛ لأنه كان أسنّ من أبي جهل وأبي سفيان ، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به . وجاء هذا الوصف بعد فعل : خلقت . ليُصرف هذا الوصف عما كان مرادًا به ؛ أي أوجدته وحيدًا عن المال والبنين والبسطة ، فيغير عن غرض المدح والثناء الذي كانوا يخصونه به إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حالُ كل مخلوق .

عن ابن عباس : كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل ، والغنم ، والعبيد ، والجواري ، والجنان ، وكانت غلة ماله ألف دينار في السنة .

﴿ **ومهدت له تمهيدا** ﴾ تيسير أموره ، ونفاذ كلمته في قومه ، بحيث لا يعسر عليه مطلب . ولا يستعصي عليه أمر .

---

(١) محاسن التأويل (١٥ / ٥٩٧٨) ، وابن جرير (٢٩ / ١٥٧) طبعة الحلبي الثانية .

وأكد ﴿ مهدت ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة ؛ ليتوسل بتنكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد .

﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ ثم للتراخي الرتبي ، أي وأعظم من ذلك أنه يطمع في الزيادة من تلك النِّعم .

﴿ كلا ﴾ ردعٌ وإبطالٌ لطمعه في الزيادة من النّعم ، وقطع لرجائه .

والمقصود إبلاغ هذا إليه ، مع تطمين النبي ﷺ بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق .

من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها[1] . عوقب بنقيض قصده .

ثم قال الشيخ الطاهر بن عاشور :

الصَّعود : العقبة الشديدة التصعد الشاقة على الماشي ، وهي فعول مبالغة من صعد ، فإن العقبة صَعْدة ، فإذا كانت عقبة أشد تصعدًا من العقبات المعتادة قيل لها : صَعُود .

وقوله : ﴿ سأرهقه صعودًا ﴾ تمثيل لضد الحالة المحملة في قوله : ﴿ ومهدت له تمهيدًا ﴾ أي سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلى حالة سُوأى في الدنيا ، ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة ، وكل ذلك إرهاق له .

قيل : إن طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت ، وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا[2] .

قال ابن كثير :

﴿ سأرهقه صعودًا ﴾ قال قتادة عن ابن عباس صعودًا صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه ، وقال السدي : صعودًا ، صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٣٠٤-٣٠٦).   (٢) التحرير والتنوير (٢٩/٣٠٧) .

وقال مجاهد : ﴿ **سأرهقه صعودًا** ﴾ أي مشقة من العذاب ، وقال قتادة : عذابًا لا راحة فيه ، واختاره ابن جرير .

﴿ **إنه فكر وقدر** ﴾ : أي إنما أرهقناه صعودًا لبعده عن الإيمان ؛ لأنه فكر وقدر أيْ وتروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال .

وقال ابن كثير أيضًا :

خرج على قريش ، فقال : يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة ، فو الله ما هو بشعر ، ولا بسحر ، ولا بهذي من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا ، وقالوا : والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش ، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام . قال : أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل بيته فقال للوليد : ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟. فقال : ألست أكثرهم مالًا وولدًا ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا بسحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيدًا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر** ﴾ قال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل . وقال قتادة : أي حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقال قتادة :

قال البقاعي في نظم الدرر :

أكملت له من سعادة الدنيا ما أوجب التفرد في زمانه من أهل بيته وفخذه ، بحيث كان يسمى : الوحيد ، وريحانة قريش . فلم يرعَ هذه النعمة[1] العظيمة ، ﴿ **ثم يطمع أن أزيد كلا** ﴾ لم يزد بعد ذلك شيئًا ، بل لم يزل في

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٤٣ - ٤٤٤) .

نقصان حتى هلك ، ﴿ وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا لا مبدل لكلماته ﴾ [الأنعام : ١١٥] . ليرتدع عن هذا الطمع ، وليزدجر وليرتجع ، فإنه حمق محض ، وزخرف بحت ، وغرور صرف .

﴿ إنه كان لآياتنا عنيدًا ﴾ أي : بالغ العناد ، على وجه لا يعد عناده لغيرها ، بسبب مزيد قبحه عنادًا .

والعناد ، كما قال الملوي : من كبر في النفس ، أو يبس في الطبع ، أو شراسة في الخلق ، أو خبل في العقل . وقد جمع ذلك كله إبليس .

لما كان العناد غلظة في الطبع ، أو شكاسة في الخلق يوجب النكد والمشقة جعل جزاءه من جنسه ، فقال : ﴿ سأرهقه صعودًا ﴾ أي : ألحقه بعنف وغلظة وقهر ، إلحاقًا يغشاه ويحيط به وعيدًا لا خلف فيه .

﴿ صعودًا ﴾ أي : شيئًا من الدواهي والأنكاد ، كأنه عقبة .

﴿ إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ حاد عن وجوه الأفكار إلى أقفائها ، سكت ألفًا ونطق خلفًا ، فكان شبيهًا من بعض الوجوه بما قاله بعضهم :

لو قيلَ كم خمس وخمس لاغتدى ... يومًا وليلته يعـدُّ ويحسبُ
ويقول معضلة عجيبٌ أمرها ... ولئن عجبت لها لأمري أعجبُ
حتى إذا خدرت يداه وغُوِّرتْ ... عيناه مما قد يَخطُّ ويكتبُ
أوفى على شَرَفٍ وقال ألا انظروا ... ويكاد من فرح يُجنُّ ويُسلبُ
خمس وخمس ستة أو سبعة ... قولان قالهما الخليل وثعلبُ

قال تعالى : ﴿ سأصليه سقر ﴾ أي : الدركة النارية ، التي تفعل في الأدمغة من شدة حموها ما يجلّ عن الوصف ، فأدخله إياها ، وألوحه في الشدائد حرُّها ، وأذيب دماغه بها ، وأسيل ذهنه وكل عصارته بشديد حرها ، جزاءً على تفكيره هذا . الذي قدره ، وتخيله وصوّره بإرادته في طبقات دماغه ؛ ليحرق أكباد أولياء الله وأصفيائه[1] .

---

(١) نظم الدرر (٢١ / ٥١ - ٥٩) بتصرف .

والجزاء من جنس العمل .

أما قوله تعالى : ﴿ **ثم عبس وبسر** ﴾ أي : قطَّب وجهه وكلح ، فتربَّد وجهه ، مع تقبض ما بين العينين بكراهة شديدة ، فإنه يقابل بجر هذا الوجه ، وبسواد هذا الوجه وزرقته من اللواحة للبشر ، جزاءً وفاقًا .

○ كسرى ملك الفرس ○

روى محمد بن إسحق عن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله ابن حذافة السهمي بكتابه إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ قال : « مزق ملكه » .

وعند ابن جرير : عن أيد بن أبي حبيب قال : وبعث عبد الله بن حذافة بن قيس إلى كسرى بن هرمز ملك فارس ، وكتب معه : بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافَّة ؛ لأنذر من كان حيًّا ، ويحق القول على الكافرين ، فإن تُسلم تَسلم ، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

قال : فلما قرأه شقه ، وقال : يكتب إليَّ بهذا وهو عبدي . قال : ثم كتب كسرى إلى باذان - وهو نائبه على اليمن - أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك ، جلدين ، فليأتياني به . فبعث باذان قهرمانه ، وكان كاتبًا حاسبًا بكتاب فارس ، وبعث معه رجلًا من الفرس يقال له : فرخرة ، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لباذويه : ائت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره . فخرج حتى قدم الطائف فوجدا رجلًا من قريش ، في أرض الطائف ، فسألوه عنه ، فقال : هو بالمدينة ، واستبشر أهل الطائف - يعني وقريش - بهما وفرحوا ، وقال بعضهم لبعض : أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، وكفيتم الرجل . فخرجا حتى قدما على رسول الله

ﷺ فكلمه باذويه ، فقال : شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك يكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت ، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شواربهما ، فكرِه النظر إليهما ، وقال : « ويلكما ، من أمركما بهذا ؟ » قالا : أمرنا ربنا – يعنيان كسرى – فقال رسول الله ﷺ : « ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي » . ثم قال : « ارجعا حتى تأتياني غدًا » . قال : وأتى رسول الله الخبر من السماء ، بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله في شهر كذا وكذا ، في ليلة كذا وكذا من الليل ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

قال : فدعاهما فأخبرهما . فقالا : هل تدري ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، فنكتب عنك بهذا ، ونخبر الملك باذان ؟. قال : « نعم ، أخبراه ذلك عني ، وقولا له : إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهي إلى الخف والحافر ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء » . ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، فقال : والله ، ما هذا بكلام ملك ، وإني لأرى الرجل نبيًّا ، كما يقول ، وليكونن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقًّا فهو نبي مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأيًا ، فلم ينشب باذان أن قدم علي كتاب شيرويه : أما بعد ، فإني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس ، لما كان استحل من قتل أشرافهم ، ونحرهم في ثغورهم ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فخذ لي الطاعة ممن قِبلك ، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجر حتى يأتيك أمري فيه ، فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان ، قال : إن هذا الرجل لرسول . فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس ، من كان منهم باليمن .

قال : وقد قال باذويه لباذان : ما كلمت أحدًا أهيب عندي منه . فقال

له باذان : هل معه شرط ؟ قال : لا .

وكسرى إذ تقاسمه بنوه بأسيافٍ كما اقتسم اللحامُ
تمخضت المنونُ له بيومٍ أتى ولكل حاملة تمامُ

قال الشافعي : لما أُتي كسرى بكتاب رسول الله ﷺ مزقه ، فقال رسول الله ﷺ : « يمزق ملكه » . وحفظنا أن قيصر أكرم كتاب رسول الله ﷺ ووضعه في مسك . فقال رسول الله ﷺ : « ثبت ملكه » . ولما كانت العرب تأتي الشام والعراق للتجارة ، فأسلم من أسلم منهم ، شكَوْا خوفهم من مَلِكي العراق والشام إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » . فباد ملك الأكاسرة بالكلية ، وزال ملك قيصر عن الشام بالكلية ، وإن ثبت لهم ملك في الجملة ، ببركة دعاء النبي ﷺ لهم حين عظموا كتابه ، والله أعلم[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وعند مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، فوالذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » .

قال رسول الله ﷺ : « عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى »[2] .

وقال: «لتفتحن عصابة من المسلمين كنزًا لكسرى الذي في الأبيض»[3].

وتم فتح بلاد فارس وتمزيقهم في القادسية .

---

(١) البداية والنهاية (٤/٢٦٨-٢٧١) .
(٢) رواه مسلم وأحمد عن جابر بن سمرة .
(٣) رواه مسلم عن جابر بن سمرة .

فالقادسية ما يزال حديثها عبرًا تضيء بأروع الأمثالِ
صفحات مجدٍ في الخلود سطورها عجب الرجال لها بغير جدال

○ رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابنَ سلول ○

قال البخاري في باب قوله تعالى : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأزل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ [المنافقون : ٨] .

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : كنا في غزاة **فكسع**[1] رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار ، فقال الأنصاري : ياللأنصار . وقال المهاجري : ياللمهاجرين . فسَمَّعَها الله رسوله ﷺ قال : « ما هذا » فقالوا : كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار ، فقال الأنصاري : ياللأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال ﷺ : « دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ » .

قال جابر : وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر ثم كثر المهاجرون بعد ، فقال عبد الله بن أُبي : أَوَ قَدْ فعلوا ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[2].

وفي البخاري من حديث زيد بن أرقم قال : كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل ... الحديث .

كان ذلك في غزوة بني المصطلق من خزاعة ، وهي غزوة المريسيع وهو ماء من مياههم .

---

(١) المشهور فيه ضرب الدبر باليد أو الرجل ، وذلك عند أهل اليمن شديد .

(٢) رواه البخاري .

قال ابن إسحق :

فبينا الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه ، وسنان بن دبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء ، فاقتتلا فصرخ الجهني ، يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث . فقال :أَوَ قَدْ فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش[1] هذه إلا كما قال الأول : تُسمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزّ منها الأذلّ ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال عمر : مُر به عبّاد بن بشر فليقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أذن بالرحيل » . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ ، حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه ،فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفًا عظيمًا ، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدَبًا على ابن أُبي ودفعًا عنه ، فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة، وسلم عليه وقال: يا رسول الله ، والله لقد رحت في ساعة منكرة ، ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك صاحبك ؟ » أي صاحب يا رسول الله ؟

---

(١) اسم كان يلقّب به المنافقون أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين .

قال : « عبد الله بن أبي » . قال : وما قال ؟. قال : « زعم أنه إنْ رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ». قال : فأنت والله يا رسول الله ، تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل ، وأنت العزيز . قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لننظم له الخرز لنُتَوِّجَه ، فإنه يرى أن قد سلبته ملكًا .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا ، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أُبي ...

فكيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟

قال ابن إسحٰق :

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلًا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله ، لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرَّ بوالده مني ، وإني أخشىأن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأُدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته مابقي معنا » . وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويأخذونه ، ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب . حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله ، لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » . فقال عمر : قد والله ، علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري » .

وقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما ، أن ابنه عبد الله – رضي الله عنه – وقف لأبيه عبد الله بن أبي بن سلول عند مضيق المدينة ، فقال : قف ، فوالله

لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك ، فأذن له ، فأرسله حتى دخل المدينة[١] .

وفي التفسير عند ابن كثير :

ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستلَّ سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبيّ ، قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ويلك ؟ فقال : والله ، لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ ، وكان يسير ساقة[٢] ، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله ، لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أمّا إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجُز الآن .

وقال أبو بكر بن عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده :

قال هارون المدني : قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول : رسول الله الأعز وأنا الأذل . قال : وجاء النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي ، فو الذي بعثك بالحق ما تأملتُ وجهه قط هيبة له ، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك ، فإني أكره أن أرى قاتل أبي ..

فانظر إلى رأس النفاق .. الذي لم يهد الله قلبه للإيمان ، ولم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة ، وتقف دون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير إحنة في صدره ؛ أنْ لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج ؛ بسبب مَقْدِم رسول الله ﷺ إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى .. ويقول ما قال ، قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة ، فيكون جزاؤه من جنس عمله وقوله، على يد ابنه؛ ليتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعزّ ومن هو الأذلّ، في

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ١٥٨ - ١٦٠) . (٢) في مؤخرة الجيش .

نفس الواقعة وفي ذات الأوان ولم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز .

ويضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفي عليهم من عزته ، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ، وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين معه إلى جواره ، ويقول : ها نحن أولاء ، هذا لواء الأعزاء ، وهذا هو الصفُّ العزيز .

عزة مستمدة من عزته ، لا تهون ولا تهن ، ولا تنحني ولا تلين ، ولا تزايل القلب المؤمن في أوجِّ اللحظات ، إلا أن يتضعضع فيه الإيمان ، فإذا استقر الإيمان ورسخ ، فالعزة معه مستقرة راسخة .

انظر إلى هذا الرجل الذي كان وجيها عند قومه ، جاء إليه رسول الله ﷺ وهو على حمارة مر بها على طريق سبخة ، وجعل يدعوه إلى الإيمان ، وهو يقول له : ابعد عني يا محمد ، فإن رائحة حمارك تؤذيني ، فيقول له ابن عم له ، والله لريح حمار رسول الله أطيب من ريحك .

أي هوان كان هذا ، وصدق الله العظيم إذ يقول عن المنافقين : ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾ [المنافقون : ٤] أشباح وقوالب ، ليس وراءهم ألبابٌ وحقائق كالجوز الفارغ ، مزين ظاهره ، ولكنه للعب الصبيان .

هذا الذي تولى كبره ، وخاض في عرض أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك ، فقال الله - عز وجل - : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ [النور : ٢٣- ٢٤] جزاءً وفاقًا كما استطالت .

ثم انظر إلى كرم الرسول ﷺ معه ؛ ليدل ذلك على أن الجزاء من جنس العمل ، ما يرويه ابن كثير في البداية والنهاية[1] . من أنه لما مات عبد الله بن

---

(١) البداية والنهاية (٥/٣١ -٣٢) .

أبيّ - قبحه الله - ألبسه رسول الله ﷺ قميصه . وفي صحيح البخاري : أنه إنما ألبسه قميصه ؛ مكافأة له لما كان كسا العباس قميصًا حين قدم المدينة ، فلم يجدوا قميصًا يصلح له إلا قميص عبد الله بن أبيّ .

○ القرطاء البكريون ○

بعث رسول الله ﷺ إلى القرطاء البكريين ، بناحية ضرية في نجد شرقي المدينة ، بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام ، فاستهزءوا به وبكتابه ، فأخذوا الصحيفة التي تحمل دعوتهم إلى التوحيد ، فغسلوها من الحبر ، ثم رقعوا بها است دلوٍ لَهُم وأبوا أن يجيبوا الرسول ﷺ إلى ما دعاهم إليه ، فأنكرت امرأة عاقلة منهم ما فعلوا بكتاب الرسول ﷺ ، وهي أم حبيب بنت عامر بن خالد بن عمرو ابنة ابن أخي سيد القوم حارثة بن عمرو ، واستهجنت ما صنعوا ، فقالت وقولها يدل على أنها مسلمة :

إذا ما أتتهم آيةٌ من محمدٍ ... محوْها بماء البئر فهي عصيرُ

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم :

يذكر أصحاب السير أن القرطاء لما فعلوا بكتاب رسول الله ﷺ ما فعلوا ، فصاروا دائما أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط وأهل سفه ، وكان الذي جاءهم بالكتاب رجل من عرينة ، يقال له : عبد الله بن عوسجة .

قال الواقدي : رأيت بعضهم عيًّا لا يُبين الكلام[1] .

جرد رسول الله ﷺ حملة عسكرية بقيادة الضحاك بن سفيان الكلاب ، في شهر ربيع الأول سنة تسع هجرية ، فهزمهم في مكان بنجد يقال له : زجّ لاوة .

---

(١) الواقدي (٢/ ٧٥٤ ، ٣ / ٩٨٢) غزوة تبوك لباشميل ١٦ - ١٧ .

○ مدعو النبوة والألوهية ○
مسيلمة الكذّاب

كذّاب اليمامة ، وكان يُدعى رحمان اليمامة ، ادعى النبوة في عهد رسول الله ﷺ قصدته سجاح لمّا ادعّت النبوة بجنودها ؛ لأخذ اليمامة منه ، فهابه قومها ، وقالوا : إنه قد استفحل أمره وعظم ، فقالت لهم فيما تقوله : عليكم باليمامة ، دفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم بعدها ملامة . قال : فعمدوا لحرب مسيلمة ، فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده ، فبعث إليها يستأمنها ، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت ، فقد ردّه الله عليك فحباك به ، وراسلها ، ليجتمع بها في طائفة من قومه ، فركب إليها في أربعين من قومه ، فلما خلا بها عرض عليها ما عرض من نصف الأرض ، وقبلت ذلك ، قال مسيلمة : سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا يزال أمره في كل ما يسر مجتمع ، رآكم ربكم فحيّاكم ، ومن وحشته أخلاكم ، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم ... إلى آخر الهراء ، وإلى آخر ما فعل اللعين مما يعف القلم عن ذكره ... فلما رجعت سجاح إلى قومها قالوا : ما أصدقك ؟ فقالت : لم يصدقني شيئًا ، فقالوا : إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق ، فبعثت إليه تسأله صداقًا ، فقال : أرسلي إليّ مؤذنك ، فبعثته إليه – وهو شَبَثُ بن ربعي – فقال : نادِ في قومك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضعت عنكم صلاتين ، مما أتاكم به محمد – يعني صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة – ثم أسلمت بعد ذلك سجاح .

هذا الكذّاب الذي كذب على الله ورسوله ، فشانه الله وفضحه بكذبه ، فما يسمى إلا مسيلمة الكذاب ، وكفى به جزاءً في الدنيا ، فكيف بالقتل وقد قتله وحشي العبد ؟.. فكيف بيوم القيامة ، ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ [الزمر : ٦٠] ويقول

تعالى : ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الكاذبين** ﴾ [هود : ١٨].

وجاء في قرآن مسيلمة الكذاب مما يثير الضحك والعجب العجاب : يا ضفدع بنت الضفدعين ، نقي لكم نقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء ، وذنبك في الطين .

وكان يقول :

« والمبذرات ذرعًا ، والحاصدات حصدًا ، والذاريات قحمًا ، والطاحنات طحنًا ، والخابزات خبزًا ، والثاردات ثردًا ، واللاقمات لقمًا ، إهالة وسمنًا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، رفيقكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والناعي فواسوه » .

والله ، إنها لخرافات يأنف من قولها الصبيان ، وهم يلعبون .

قال الصديق لوفد بني حنيفة : ويحكم ، أين كان يذهب بقولكم ؟ إن هذا لم يخرج من أل .

وكان الكذّاب يقول : والفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له زلوم طويل .

وكان يقول : والليل الدامس ، والذئب الهامس .

وفد عمرو بن العاص في أيام جاهليته على مسيلمة ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين ؟. فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هي ؟ قال : أنزل عليه : ﴿ **والعصر . إن الإنسان لفي خسر ..** ﴾ [العصر : ١- ٢] قال : ففكر مسيلمة ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال : ولقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو : وما هي ؟ فقال مسيلمة : يا وبر يا وبر ، إنما أنت إيراد وصدر ، وسائرك حفر نقر .

ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟. فقال له عمرو : والله ، إنك لتعلم أني

أعلم أنك تكذب .

وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبي ﷺ ، بلغه أن رسول الله ﷺ بصق في بئر فغزر ماؤه ، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية ، وفي أخرى فصار ماؤه أجاجًا .

وتوضأ وسقى بوضوئه نخلًا فيبست وهلكت .

وأتي بولدان يبرّك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم ، فمنهم من قرع رأسه ، ومنهم من لثغ لسانه .

والجزاء من جنس العمل ، فضوح الدنيا قبل الآخرة وتكذيب الناس له .

ويقال : إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحهما فعمي .

وعن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة ، فقال : أين مسيلمة ؟ فقال : مه رسول الله . فقال : لا ، حتى أراه . فلما جاء قال : أنت مسيلمة ؟ قال نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رجس . قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة . فقال : أشهد أنك كذّاب وأن محمدًا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ، واتبعه هذا الأعرابي الجلف - لعنه الله - حتى قُتل معه يوم عقربا لا رحمه الله[1] .

قدم هذا اللعين المدينة وافدًا إلى رسول الله ﷺ ، وقد وقف عليه رسول الله ﷺ ، فسمعه وهو يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته . فقال له : لو سألتني هذا العود - لعرجون في يده - ما أعطيتكه ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، إني لأراك الذي أريت فيه ما أريت . وكان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام كأن في يديه سوارين من ذهب ، فأهمه شأنهما ، فأوحى الله إليه في المنام : انفخهما ، فنفخهما فطارا ، فأولهما بكذابين يخرجان ، وهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة، وهكذا وقع فإنهما ذهبا وذهب أمرهما، أما الأسود

---

(١) البداية والنهاية (٦ / ٣٢٥ ، ٣٣٠ - ٣٣١) .

فذبح في داره ، وأما مسيلمة فعقره الله على يدي وحشي بن حرب ، رماه بالحربة فأنفذه كما تعقر الإبل ، وضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه ، وذلك بعقر داره في حديقة الموت ، وقد قتل قبله وزيراه : محكم بن الطفيل ، والرجال بن عنفوة .

روى البخاري أن مسيلمة كتب إلى رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم .

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك .

أما بعد .. فإني قد أشركت معك في الأمر ، فلك المدر ولي الوبر – ويروى فلكم نصف الأرض ، ولنا نصفها – ولكن قريشا قوم يعتدون . فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب.

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

لما مات رسول الله ﷺ زعم أنه استقل بالأمر من بعده ، واستخفَّ قومه فأطاعوه ، وكان يقول :

خذي الدف يا هذه والعبي ... وبُثّي محاسن هذا النبي

تولى نبي بني هاشمٍ ... وقام نبي بني يعربِ

فلم يمهله الله بعد وفاة رسوله ﷺ ، حتى سلّط الله عليه سيفًا من سيوفه ، وحتفا من حتوفه ، فعجّ بطنه ، وفلق رأسه ، وعجّل الله بروحه إلى النار، فبئس القرار.

قال الله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ [الأنعام : ٩٣] فمسيلمة والأسود وأمثالهما – لعنهما الله – أحق الناس دخولًا في هذه الآية الكريمة ، وأولاهم بهذه العقوبة العظيمة[1] . اهـ .

---

(١) البداية والنهاية ٦ / ٣٤٥ – ٣٤٦ .

○ بهاء الله مؤسس البهائية ○

الكذاب الملعون ، الذي أعلن على أتباعه بأنه الموعود الذي أخبر عنه الباب ، وسماه بمن يظهره الله . وأسست الديانة الجديدة بدعوى أنه هو صاحب الشريعة المستقلة ، كما كان الشيرازي صاحبها ، وأنه ناسخ لشريعة البيان ، كما كان الشيرازي ناسخًا لشريعة الفرقان ، فقبله بعض البابيين وسموا بالبهائية ، وأخيرا ارتقى على عرش الربوبية والألوهية ، يدعي النبوة والرسالة ثم الألوهية .

فتعالوا إلى الكذاب حسين علي المازندراني بهاء الله :

انظر إلى دجّال الدجاجلة الذي يقول : لا يرى في هيكلي إلا هيكل الله ، ولا في جمالي إلا جماله ، ولا في كينونتي إلا كينونته ، ولا في ذاتي إلا ذاته ، ولا في حركتي إلا حركته ، ولا في سكوني إلا سكونه ، ولا في قلمي إلا قلمه العزيز المحمود .

وقال : لم يكن في نفسي إلا الحق ، ولا يرى في ذاتي إلا الله[(١)] .

ويقول في أقدسه - الأنجس : والذي ينطق في السجن الأعظم إنه لخالق الأشياء وموجد الأسماء[(٢)] .

وقال الفاجر أيضًا عن نفسه : قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء[(٣)] .

ويقول العباس - الخناس - بن البهاء وخليفته : إن الأيام التي ظهر فيها موسى كانت أيام موسى ، والأيام التي ظهر فيها المسيح كانت أيام المسيح ، وأيام إبراهيم وهكذا أيام الأنبياء كلها ، وأما ذلك اليوم - يوم ظهور المازندراني الكذاب - كان يوم الله[(٤)] .

---

(١) سورة الهيكل للمازندراني .

(٢) مجموعة الأقدس ص ٣٢٥ .

(٣) إشراقات ص ١٨ .

(٤) مفاوضات عبد البهاء للعباس .

ويقول أيضًا : إن الجمال الأقدس الأبهى - حسين المازندراني - قد استوى ذلك اليوم - يوم دعواه الخبيثة - على عرش الربوبية الكبرى ، وتجلى على أهل الأرض والسماء بكل أسمائه الحسنى وصفاته العليا .

هذا المجرم الأثيم هو قبلة البهائيين يقول : وإذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطري، الأقدس المقام المقدس الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى، ومقبل أهل مدائن البقاء ، ومصدر الأمر لمن في الأرضين والسماء(١) .

انظر إلى الدين الذي أتى به دجّال الدجاجلة :

الصلاة : من يطالع كتبهم المقدسة - النجسة - لا يجد فيها طريقة أدائها ، إلا ما كتبه البهاء في كتابه : الأقدس الفقرة ١٩ : قد فصّلنا الصلاة في ورقة أخرى ، طوبى لمن عمل بما أمر به من لدن مالك الرقاب .

فأين ذهبت هذه الورقة ؟. قالوا : إن خصوم البهاء سرقوها منه ، وهم لذلك يبكون ويتألمون !!

ويحرم الصلاة جماعة بقوله : كتب عليكم الصلاة فرادى ، قد رفع حكم الجماعة إلا في صلاة الميت إنه لهو الآمر الحكيم(٢).

الصوم : قد كتب لكم الصيام في شهر العلاء ، صوموا لوجه ربكم العزيز المتعال(٣) . وشهر العلاء هو آخر الشهور البهائية التسعة عشر ، ويشمل على الأيام التسعة عشر . وأما فرضية الصوم ، فقد عفي عنه المسافر والمريض والحامل والمرضع والهرم والكسول .

وعند التكسر والتكاسل لا يجوز الصلاة والصيام ، وهذا حكم الله من قبل ومن بعد(٤) .

---

(١) الأقدس الفقرة ١٤ . (٢) الأقدس الفقرة ٣٠ .

(٣) لوح كاظم للمازندراني ، وخزينة حدود وأحكام ص٣٦ .

(٤) خزينة حدود وأحكام ص ٣٧ .

الزكاة : قال البهاء : سوف نفصل لكم نصابها إذا شاء الله وأراد ، إنه يفعل ما يشاء بعلم من عنده إنه لهو العلام الحكيم[١] .

والعلام الحكيم لم يستطع بيان نصابها وتفاصيلها .

بل قالوا: يعمل في الزكاة كما نزل في الفرقان[٢]- أي القرآن، والمعروف لمن له أدنى إلمام بالإسلام أن تفاصيل الزكاة ونصابها في السنة لا في القرآن .

الحج : الحج للبيت الأعظم في بغداد ، وبيت النقطة في شيراز . وهو واجب على الرجال دون النساء .

الطهارة : رفع حكم دون الطهارة عن كل الأشياء - قذرة كانت أم نجسة - وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه لهو الغفور الكريم[٣] .

فهذه شريعة البهائيين منتنة خبيثة كأحكامها ، وقذرة نجسة .

المحرمات عند البهائيين :

لا يحرمون إلا زوجة الأب، وبقية نساء العالم حلال عندهم في جميع كتبهم، ويحرمون تعدد الزوجات فوق الاثنتين .

وانظر ما يقول الفاجر : ومن اتخذ بكرًا لخدمته لا بأس عليه ، كذلك كان الأمر من قلم الوحي بالحق مرقوماً[٤] . بل من قلم الشيطان أيها العربيد .

أما الزنا : فإنهم لا يعدون الزنا إلا ما لم يرض به أحد الطرفين ، ومن اقترف هذه الجريمة بدون الرضا لاعقاب عليه ، بل يؤخذ منه الأجرة ؛ لأنها بالأجرة تنقلب السيئة حسنة ، يقول المازندراني : قد حكم الله لكل زانٍ وزانية دية مسلمة إلى بيت العدل ، وهي تسعة مثاقيل من الذهب .

أما الزاني المحصن والزانية المحصنة فلا حكم عليهما إلا أن يحكم عليهما

---

(١) الأقدس الفقرة ٣٥١ .

(٢) لوح زين المقربين للمازندراني .

(٣) الأقدس الفقرة ١٦١ .

(٤) الأقدس الفقرة ١٤٢ .

بيت العدل . هذا قول نبي البهائية عباس عبد البهاء .

هذا الفاجر البهاء قصته وفجوره مع قرة العين شيطانة البابية ، وقد كانت متزوجة ، والغريب أنها هي التي منحته هذا اللقب : بهاء الله .. فالطاهرة كما كانوا يلقبونها أسمته : بهاء الله . فهي أول المتفوهين بكلمة بهاء الله ، وكفاه جزاءً هذا .

وهذا المأفون منع من الارتقاء على المنابر .

الكذاب يظهر الله كذبه ويفضحه :

يقول البهاء في رسالته إلى الشاه : قد جعل الله البلاد غادية لهذه الدسكرة الخضراء ، وزبالة لمصباحه الذي به أشرقت الأرض والسماء .

يقول أسلمنت داعية البهائية : وقد تنبأ بهاء الله وعبد البهاء بأصرح وأوثق عبارة ، عن النصر السريع للأمور الروحانية .

ولما سئل عباس عبد البهاء إذا كانت دولة من دول العالم العظيمة تؤمن بالديانة البهائية أجاب : سيؤمن جميع أهل العالم .

وصرح أيضًا : هذا القرن قرن شمس الحقيقة ، وهذا القرن قرن تأسيس ملكوت الله على الأرض . بل وصرح أيضًا بأن سنة ١٩٥٧ تتأسس وحدة الإنسانية ، وكذب الكذاب وابنه .

انظر عميل الروس الذي ادعى الألوهية كيف أظهر الله عجزه ومسكنته؟

الجزاء من جنس العمل :

يقول وقد كتب إلى شاه إيران ، يقول : ما وجدت في أيامي مقرا من على قدر أضع رجلي عليه ، كنت في كل الأحيان في غمرات البلايا التي ما اطلع عليها أحد ، كم من أيام اضطربت فيها أحبتي لضُرِّي ، وكم من ليالٍ ارتفع فيها نحيب البكاء من أهلي ؛ خوفا لنفسي ، ولا ينكر ذلك إلا من كان عن الصدق محرومًا[١] .

---

(١) الرسالة السلطانية للمازندراني ص٤ .

الكذاب الدجال يبكي ، وينوح ، ويشتكي ، ويعلي العويل والصراخ ، ويقول : كم من ليال فيها استراحت الوحوش ، والطيور في أوكارها ، وكان الغلام – الغلام والرب ؟– في السلاسل والأغلال ، ولم يجد لنفسه ناصرًا ولا معينًا[(١)] .

إله يستصرخ ، ورب يحتاج .. ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا** ﴾ [النساء : ٧٨] .

هذا الكذاب الذي افترى على الله ، وزعم أن كتابه الأكبر – الذي يسمونه : الأقدس – ناسخ لجميع الكتب السماوية : وآية واحدة منه خير من كتب الأولين والآخرين .

حاول فيه محاكاة القرآن في فواصل آياته ، وكذا بقية كتبه : الإيقان ، ولوح البقاء .

هذا المجنون الذي اعتنق البابية ، ثم ادعى النبوة والرسالة ، ثم الألوهية .
ماذا كان جزاؤه في دار الدنيا قبل أن يذهب به إلى الهاوية ؟

لقد جُنَّ .

ينقل عن أحد أبناء حسين علي المازندراني البهاء أنه جُنّ في آخر حياته ، وقبل موته بمدة ، كما ذكره عمر عنائت نقلًا عن ابنه : إن البهاء جنّ في أواخر أيامه ، وكان ابنه – عباس عبد البهاء – يعمل كحاجب له[(٢)] .

جُنّ .. جزاءً وفاقًا .

○ غلام أحمد القادياني دجّال الهند[(*)] ○

عميل الإنجليز ، الكذاب الدجال ، انظر إلى عقيدته ، ثم انظر بعد ذلك

---

(١) الرسالة السلطانية ص ٣ .
(٢) انظر : البهائية نقد وتحليل لفضيلة الشيخ إحسان إلهي ظهير – رحمه الله – .
(*) من كتاب القاديانية دراسات وتحليل تأليف الأستاذ إحسان إلهي ظهير .

إلى نهايته. يقول المتنبي القادياني غلام أحمد : قال لي الله: إني أصلي وأصوم، وأصحو وأنام[١].

ويقول الكذاب : قال الله : إني مع الرسول أجيب ، أخطىء وأصيب ، إني مع الرسول محيط[٢] .

ويقول أيضًا : أنا رأيت في الكشف بأني قدمت أوراقًا كثيرة إلى الله ، ليوقع عليها ، ويصدق الطلبات التي اقترحتها ، فرأيت أن الله وقع على الأوراق بحبر أحمر ، وكان عندي وقت الكشف رجل من مريدي ، يقال له : عبد الله . ثم نفض الرب القلم ، وسقطت منه قطرات الحبر الأحمر على أثوابي وأثواب مريدي عبد الله[٣] .

ويقول : نستطيع أن نفرض لتصوير وجود له أيادي وأرجل كثيرة ، وأعضاؤه بكثرة لا تعد ولا تحصى ، وفي ضخامة لا نهاية لطولها وعرضها ، ومثل الأخطبوط له عروق كثيرة، التي هي امتدت إلى أنحاء العالم وأطرافها[٤].

وهؤلاء القاديانية المرتدون يعتقدون أن الله جامع وباشر نبيهم غلام أحمد ، وليس هذا فحسب ، بل هو النتيجة أيضًا لهذه المباشرة .

فأولًا : الذي باشره الله هو نبيهم غلام أحمد .

ثانيًا : ثم وهو الحامل .

وثالثًا : هو المولود .

قال القاضي يار محمد القادياني : إن المسيح الموعود - أي الغلام - بين

---

(١) البشرى (٢ / ٩٧) للغلام القادياني .

(٢) البشرى (٢ / ٧٩) .

(٣) ترياق القلوب ص ٣٣ .

(٤) توضيح المرام ص ٧٥ للقادياني .

مرة حالته فقال: إنه رأى نفسه كأنه امرأة، وإن الله أظهر فيه قوته الرجولية[١].

ويقول المتنبي القادياني بنفسه : قد نفخ في روح عيسى ، كما نفخ في مريم ، وحُبلتُ بصورة الاستعارة ، وبعد أشهر لا تتجاوز عن عشرة أشهر ، حُوّلت عن مريم ، وجعلت عيسى ، وبهذا الطريق صرت ابن مريم[٢] .

ويقول : إن الله سماني بمريم التي حبلت بعيسى ، وأنا المقصود من قوله في سورة التحريم : ﴿ **ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا** ﴾[٣] .

وعلى هذا الأساس تعتقد القاديانية بأن غلام أحمد هو ابن الله ، بل هو عين الله .

يقول المتنبي الكذاب : قال لي الله : أنت من مائنا ، وهم من فشل - أي الجبن[٤] -.

ويقول: خاطبني الله بقوله : اسمع يا ولدي[٥] .

وقال : قال لي الرب : أنت مني ، وأنا منك ، ظهورك ظهوري[٦] .

تعالى الله عما يقول الظالمون علوّا كبيرًا .

ونريد أن نشير بأن الإله ، الذي ادعى القاديانية بأن الغلام ابن له ، كان إنكليزيًا ، كما صرخ غلام أحمد فيقول : أنا أُلهمت عدة إلهامات في الإنكليزية

---

(١) ضحية الإسلام ليار محمد ص ٣٤ .
(٢) سفينة نوح ص ٤٧ للغلام القادياني .
(٣) هامش حقيقة الوحي للغلام ص ٣٣٧
(٤) انجام آتم للغلام ص ٥٥ .
(٥) البشرى (١ / ٤٩) للغلام .
(٦) وحي المقدس ٦٥٠ للغلام .

وفي المرة الأخيرة ألهمت : «I Can What I Will do» يعني أنا أعمل ما شاء ، فظننت من اللهجة والتلفظ كأنه إنكليزي قائم على رأسي يتكلم[١] .

ويعتقد غلام أحمد أن النبوة ما ختمت برسول الله ﷺ ، فيقول هذا الدجال : أحلف بالله الذي في قبضته روحي ، هو الذي أرسلني وسماني نبيًّا ، وناداني بالمسيح الموعود ، وأنزل لصدق دعواي بينات ، بلغ عددها ثلاث مائة ألف بينة[٢] .

ويقول : هو الإله الحق ، الذي أرسل رسوله في القاديان ، وأن الله يحفظ القاديان ، ويحرسها من الطاعون ، ولو يستمر إلى سبعين سنة ؛ لأنها مسكن رسوله ، وفي هذا آية للأمم[٣] .

الطاعون يقع بالقاديان ، والجزاء من جنس القول والعمل :

ومن قدرة القهار الجبار أن وقع الطاعون في هذه القرية التي أنجسها غلام أحمد ؛ وعمّ القرى المجاورة ، بل ودخل إلى بيت غلام أحمد نفسه ، فيقول في رسالة أرسلها إلى صهره : ودخل الطاعونُ حتى في بيتنا .

والجزاء من جنس قول الكذاب ، ففضحه الله في حياته .

ويقول القادياني : أنا وحدي أعطيت كل ما أعطي لجميع الأنبياء[٤] .

ويقول بنزول جبريل عليه السلام عليه ؛ يقول الغلام : إن جبريل جاء إلّي واختارني ، وأدار أصبعه ، وأشار إلّي بأن الله يحفظك من الأعداء[٥] .

---

(١) براهين أحمدية للغلام القادياني ص ٤٨٠ .

(٢) تتمة الوحي للغلام ص ٦٨ .

(٣) دافع البلاء للغلام ص ١٠ ، ١١ .

(٤) در ثمين ص٢٨٧ لغلام أحمد .

(٥) مواهب الرحمن ص ٤٣ للغلام .

بل وحيه كوحي محمد ﷺ وإلهامته كالقرآن ؛ يقول الغلام : والله العظيم ، أؤمن بوحيي كما أومن بالقرآن ، وبقية كتب أنزلت من السماء ، وأنا أؤمن بأن الكلام الذي ينزل عليّ ينزل من الله ، كما أومن بأن القرآن نزل من عنده(١) .

ويقول : إيماني بالإلهامات التي تنزل علي كالإيمان بالتوراة والإنجيل والقرآن(٢) .

ومن اعتقادات القاديانية أنه نزل على غلام أحمد الكتاب كما نزل على بعض الرسل ، وأن الذي أُنزل عليه أكثر مما أُنزل على كثير من الأنبياء ، واسم هذا الكتاب المنزل عليه : الكتاب المبين .

يقول غلام أحمد : نزل عليّ كلام الله بهذه الكثرة ، لو يجمع لما يقل عن عشرين جزءًا .

ويعتقدون أن القاديان قرية الكذاب المخبول أفضل من مكة والمدينة ، وفيها قطعة من قطعات الجنة .

يقول الغلام القادياني : قد أنزل الله قوله في القرآن : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ [آل عمران : ٩٧] وصفًا لمسجدي في القاديان(٣) .

وقال غلام أحمد : إن الذي لا يجيء إلى القاديان أخاف على إيمانه(٤) .

ويقول محمود أحمد بن الغلام : قد انقطع ثمرة مكة والمدينة ، ولكن ثمرة القاديان ما زالت طازجة(٥) .

الحج : الحج عندهم هو حضور المؤتمر السنوي في القاديان .

---

(١) حقيقة الوحي ص ٢١١ للغلام القادياني .

(٢) تبليغ رسالت (٦ / ٦٤) .

(٣) إزالة الأوهام ص ٧٥ للقادياني .

(٤) أنوار الخلافة ص ١١٧ .

(٥) حقيقة الرؤيا ص ٤٦ .

يقول ابن الغلام : إن مؤتمرنا السنوي هو الحج ، وإن الله اختار المقام لهذا - الحج - القاديان[١] .

وقال الغلام الكذاب : إن البقاء في القاديان أفضل من الحج النفلي[٢] .

وفي قرآن القاديان الكتاب المبين آيات ، ومن بعض آياته :

إن الله ينزل في القاديان[٣] .

يحمدك الله من عرشه ويمشي إليك[٤] .

عقيدة الجهاد نجسة عند عميل الإنجليز :

قال المتنبي الدجال: إن هذه الفرقة ، الفرقة القاديانية ، لا تزال تجتهد ليلا ونهارًا ؛ لقمع العقيدة النجسة ، عقيدة الجهاد من قلوب المسلمين[٥] .

المتنبي القادياني وإهانته للأنبياء والصحابة :

يفضل نفسه على آدم فيقول : صار آدم ذليلًا مصغرا ، ثم خلقني الله لكي أهزم الشيطان[٦] .

ويفضل نفسه على نبي الله نوح :

فيقول : إن الله أنزل لصدق دعواي آيات وبينات بهذه الكثرة ، لو أنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه[٧] .

ويفضل نفسه على نبي الله يوسف :

فيقول : إن يوسف هذه الأمة يعني أنا العاجز الحقير أفضل من يوسف

---

(١) بركات الخلافة لمحمود أحمد ص ٥ ، ٧ .
(٢) مرآة كمالات الإسلام ص ٥٢ للغلام .
(٣) البشرى ص ٥٦ للغلام .
(٤) عاقبة آتم ص ٥٥ للغلام .
(٥) عريضة الغلام إلى الحكومة المندرجة في ريويوآف ريليجنز نمرة ٥ ، ١٩٢٢م .
(٦) ما الفرق في آدم والمسيح الموعود للغلام .
(٧) تتمة حقيقة الوحي ص ١٣٧ للغلام .

بني إسرائيل ؛ لأن الله شهد لبراءتي بنفسه ، وبآيات كثيرة ، حينما احتاج يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس(١) .

ويفضل نفسه على عيسى :

فيقول : إن الله أرسل من هذه الأمة المسيح ، الذي هو أعظم شأنا من المسيح الأول بمراتب ، والله الذي في قبضته روحي ، إن كان عيسى في زمن الذي أعيش فيه أنا ، ما كان يستطيع أن يعمل ما أعمله أنا(٢) .

أفضل من كل الأنبياء :

يقول : جاء أنبياء كثيرون ، ولكن لم يتقدم أحد عليّ في معرفة الله ، وكل ما أعطي لجميع الأنبياء أعطيت أنا وحدي بأكمله(٣) .

ويقذف الأنبياء :

يقول : أنا أرى بأن المسيح ما كان يتنزه عن شرب الخمر(٤) .

ويقول الكذاب : إن أسرة عيسى أسرة عجيبة ، كانت جداته الثلاث فاجرات ، ومن هذا الدم المطهر ؟ تكّون وجود عيسى .. ولعله كان ميلان عيسى إلى المومسات لهذه النسبة ، وإلا لا يسمح أحد من المتقين ، أن يمس رأسه شابة زانية ، وتعطره بمالها الحرام فليفهم الناس كيف كان أخلاق هذا المسيح(٥).

والحمد لله أن هذا الخبيث يرد على نفسه ، فيقول : الذي يسب أو يشتم الأخيار المقدسين فليس إلا خبيث ، ملعون ، لئيم(٦).

تطاوله على الرسول الكريم ﷺ :

يقول الدجال : إن النبي ﷺ له ثلاثة آلاف معجزة ، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة(٧) .

---

(١) براهين أحمدية للغلام .

(٢) حقيقة الوحي ١٤٨ للغلام .

(٣) در ثمين ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ للغلام .

(٤) ريويو (١/١٢٣) ١٩٠٢م .

(٥) ضميمةآنجام آتهم ص ٧ للغلام .

(٦) البلاغ المبين ص ١٩ .

(٧) تذكرة الشهادتين ص ٤١ للغلام .

يقول ابنه وخليفته : إن الارتقاء الذهني لإمامنا كان أزيد ، وأكثر من النبي الكريم[١] .

ويقول غلام أحمد :

له خسف القمر المنير وإن لي   غسا القمران المشرقان أتنكر[٢]

ويقول : إن الإسلام بدأ كالهلال ، ثم قدر له أن يكون في هذا القرن كالبدر، وإلى هذا أشار الله- عز وجل-: ﴿**لقد نصركم الله ببدر**﴾[٣] [آل عمران : ١٢٣] .

وقال هذا الدجال : وأما تجليات كمالات رسول الله ما كانت راقية إلى منتهاها ، بل هذه التجليات بلغت إلى ذروتها في عهدي وفي شخصي[٤] .

ويقول: إن المراد في قول الله – عز وجل –: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ [الفتح : ٢٩] هو أنا ؛ لأن الله سماني في هذا الوحي محمدًا ورسولًا[٥] .

ويقول : أنا هو المصداق لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ﴾[٦] [الصف : ٩] .

ويقول: أنا المراد في قوله: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[٧] [الأنبياء : ١٠٧] .

ويقول : وأنا المقصود في قوله: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا**﴾[٨]. [الإسراء: ٧٩].

---

(١) ريويو القادياني مايو سنة ١٩٣٩م .   (٢) إعجاز أحمدي ص ٧١ للغلام .

(٣) خطبة إلهامية ص ١٨٤ للغلام .   (٤) خطبة إلهامية ص ١٧٧ للغلام .

(٥) قول الغلام المندرج في تبليغ رسالت (جـ١٠ / ١٤) لقاسم القادياني .

(٦) إعجاز أحمدي ص ٧ للغلام ضميمة نزول المسيح .

(٧) أربعين نمرة ٣ ص ٢٥ للغلام .

(٨) أربعين ص ١٠٢ للغلام .

ويقول محمود أحمد خليفة القاديانية : لو أن أحدًا يريد أن يتقدم على رسول الله مرتبة وشأنا يستطيع أن يتقدم .

فأي كفر وخبث ونجاسة أعظم من هذا ، وهكذا يجترىء الأوباش على مقام رسول الله ﷺ .

وكتب أحد القاديانيين : أنه سمع من أحد مبلغي القاديانية ، الذي هو من أهل البيت - يريد أولاد الغلام - أنه يقول : أين أبو بكر وعمر من غلام أحمد ؟ إنهما لا يستحقان أن يحملا نعليه .

ويقول الغلام الكذاب : أنا هو المهدي الذي سئل عنه ابن سيرين ، هل هو في مرتبة أبي بكر ؟ فقال : أين أبو بكر منه ؟ بل هو أفضل من بعض الأنبياء[١].

ويقول : يوجد فيكم عليّ حيّ فتتركونه ، وتبغون عليًّا ميتًا[٢] .

ويقول : يقولون عني بأني أفضل نفسي على الحسن والحسين ، فأنا أقول : نعم ، أنا أفضل نفسي عليهما ، وسوف يظهر الله هذه الفضيلة[٣] .

وقال ابنه : إن أبي قال : مائة حسين في جيبي . فالناس يفهمون معناه ، إنه يساوي مائة حسين ، ولكني أقول أكثر من هذا ، وهو : إن تضحية ساعة واحدة لخدمة الدين من أبي ، أفضل من تضحيات مائة حسين[٤] .

الغلام رجل أفيوني خمّار :

يقول ابنه : كان أبي يقول : إن الأفيون نصف الطب ، ولذا استعماله للتداوي يجوز ولا بأس به ، وإنه صنع دواء باسم ترياق إلهي بهدى الله وعونه وكان الجزء الأكبر في هذا الدواء الأفيون ، وكان يعطي هذا الدواء لخليفته الأول

---

(١) معيار الأخبار للغلام المندرج في تبليغ رسالت جـ ٩ / ٣٠ .

(٢) ملفوظات أحمدية جـ ١ / ١٣١ .

(٣) إعجاز أحمدي ص ٥٨ للغلام .

(٤) خطبة الجمعة في القاديان المنشورة في مجلة قاديانية « الفضل » الصادرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٦ .

نور الدين ، كما كان يستعمله هو أيضا حينا بعد حين لمختلف الأمراض .

وأرسل الغلام إلى أحد مريديه في لاهور أن يرسل إليه : وائن ، ويشتريه من دكان رجل يقال له : بلومر . وحينما سأل بلومر عن وائن ماذا هو ؟ فقال : إن وائن قسم قوي مسكر ، من أقسام الخمر الذي يستورد من انجلترا في القوارير المختومة[1] .

جزاء الكذّاب فضحه وإظهار كذبه :

هذا الذي كذب على الله ، وكذب على رسوله ﷺ أظهر الله كذبه وشهره بهذا .

يقول الكذاب: لا يوجد أي شيء أحسن وأفضل لاختبار صدقي وكذبي من تنبؤاتي[2]. يداك أوكتا وفوك نفخ .

النبوءة الأولى :

تناظر غلام أحمد مع عبد الله آتم المسيحي في إحدى مدن الهند سنة ١٨٩٣ ، وبعد نقاش طويل ما وصلا إلى نتيجة ، ولم يفز واحد منهما على الآخر، فما أصبح الصباح يوم ٥ يونيو سنة ١٨٩٣ إلا وقد أعلن بأنه أخبر عن الله بأن عبد الله آتم سيموت في خمسة عشر شهرًا ، أي إلى ٥ سبتمبر سنة ١٨٩٤ فعاش عبد الله آتم المذكور طويلًا ، ونكس رأس الملعون ، وأذله الله في هذه الدنيا أمام الملأ .

النبوءة الثانية :

ذهب رجل من أقربائه يُسمى : أحمد بك إليه في أمر كان يتعلق به ، واستدعاه المساعدة ، فقال له : أساعدك بشرط أن تزوجني ابنتك : محمدي بيجوم . فأبى أحمد أن يقبل هذا الشرط ، فجن جنون غلام أحمد ، وبدأ يهدده ويتوعده وبلغ به الولع بهذه البنت أن قال : إن الابنة الكبيرة لأحمد بك تزوج

---

(١) مكتوب الإمام باسم الغلام ص ٥ للطبيب القادياني محمد حسين .

(٢) مرآة الكمالات ص ٢٣٢ للغلام .

لي ، مع أن أهلها يخالفون ويمانعون ، ولكن الله يزوجها لي ، ويرفع كل الحواجز ، ولا يستطيع أحد أن يحول دون تحقيق هذا[١] .

ويقول : قد قال الله عز وجل : زوجناكها نحن بأنفسنا ، ولا يستطيع أحدٌ أن يبدل كلماتي[٢] .

ويقول : إن لم يتحقق هذا النبأ فأكون أخبث الخبثاء ، هذا ليس افتراءً من إنسان ولا لعبة خبيث ، مفتري ، بل هذا وعد الله الحق ، الإله الذي لا تبديل لكلماته ، والرب الذي لا مانع لإرادته[٣] .

وظل يتذلل أمام أحمد بك ، ويسترحمه : أنا أرجو منكم بكل أدب وعجز أن تقبلوا زواج ابنتكم مني .

وحرم غلام أحمد ابنه سلطان من الإرث وطلق أمه ، وحرم ابنه فضلًا من إرثه أيضًا ؛ لأنهم لم يساعدوه في الزواج من هذه المرأة .

وفضحه الله على رؤوس الأشهاد ، وتزوجت من غيره .

النبوءة الثالثة :

وهي بموت زوج هذه المرأة وزواجها منه ، ولكن الكاذب يموت ، وتظل هذه المرأة حيَّة مع زوجها حتى ماتت في نوفمبر سنة ١٩٦٦ ، ومات هذا الكذاب سنة ١٩٠٨ .

النبوءة الرابعة :

في سنة ١٨٦٦م وبتاريخ ٢٠ فبراير حينما كانت امرأة غلام أحمد حبلى أعلن أنه ألهم من الله ما نصه : إن الله الرحيم الكريم ، الذي هو قادر على كل شيء أخبرني بأنه يظهر آيته ، آية الرحمة ، آية بينة ، ولد جميل وجيه زكي مظهر الأول

---

(١) إزالة الأوهام ص ٣٩٦ للغلام القادياني .

(٢) الحكم السماوي ص ٤٠ لغلام أحمد .

(٣) ضميمة انجام آتم ص ٥٤ لغلام أحمد .

والآخر ، مظهر الحق والعلاء كأن الله نزل من السماء ، وهذا الولد يكبر عجلًا ويفك الأسارى ويتبرك به الأقوام .

فولدت امرأة الغلام بعد هذه الإعلانات الطنانة ابنة وليس ابنا ، وسميت عصمت ، ثم ماتت بعد خمس سنوات فقط أي سَنة ١٨٩١ .

النبوءة الخامسة :

أعلن بتاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٦ : إن الله بشرني بأنه يكون لي ذرية كثيرة ، من النسوة ذوات البركات اللاتي أتزوج بعضهن بعد هذا الإلهام . وكذّبه الله فما تزوج بعد هذا لا النسوة بل ولا امرأة واحدة . والأولاد ؟!!

النبوءة السادسة :

ولد له ولد بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٩٩ وسماه : مبارك أحمد . وبعد ولادته بأيام أعلن الدجال : إن هذا الولد نور من نور الله ، ومصلح موعود ، وصاحب العظمة ، ومسيحي النفس ، ومشفي الأمراض ، وكلمة الله ، وسعيد الحظ ، وهذا يشتهر في أنحاء العالم وأطرافها ، يفك الأسارى ويتبرك به الأقوام[1] .

فمرض هذا الولد سنة ١٩٠٧ وفي تاريخ ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٧ حينما خف مرضه أعلن الدجال : ألهمني الله بأنه قد قبل الدعاء ، وذهب المرض . وما إن أعلن المتنبي القادياني هذا الافتراء على الله حتى عاد المرض من جديد ، وفي ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٧ مات هذا المصلح الموعود الذي يفك الأسارى ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

النبوءة السابعة :

عن الطاعون وأنه لا يقع في القاديان ، فوقع ، وقال : إن بيتي كسفينة نوح ، من دخله حفظ عن كل الآفات والمصائب[2] . فدخل الطاعون بيته ،

---

(١) ترياق القلوب ص ٤٣ للقادياني .

(٢) سفينة نوح ص ٢٧ للغلام .

حتى أصابه هو .

النبوءة الثامنة :

تنبؤه بمولود لأحد مريديه ، فولدت زوجة هذا المريد بنتًا ، وأخبره أنه لن تموت زوجة هذا المريد إلا أن تضع الابن ، فماتت .

النبوءة التاسعة :

تناقش مرة مع المتنبي رجل من المسلمين - دكتور عبد الحكيم - وتحداه بأنه كذاب ، وأعلن : أن عبد الحكيم يموت في حياتي ؛ لأنه يهينني ويذلني .

ويقول : لكن الله بشرني بأني أعمر ثمانين سنة أو أكثر ، فلم يمت عبد الحكيم في حياته بل بقي حيًّا بعده ، وعمر ، ومات وهو في الثامن أو التاسع بعد الستين من عمره .

وكم كذب الدجال ، وما تحققت نبوءة له واحدة ، عقابا من الملك القهار لهذا المفتري الكذاب ، وألبسه الله رداء قوله في الدنيا .

والجزاء من جنس القول والعمل .

عاقبته وموته :

وموت الغلام كان فضيحة له ، وجزاءً وفاقًا ، فقد كان دجال القاديان يجلب اللعنات على نفسه ؛ لافتراءاته على الله ، والرسول والقرآن ، والأنبياء ، ونازله العلماء وأفتوا بالإجماع بكفره ودجله ، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة : ثناء الله الأمر تسري ، مناظر الإسلام ، ومحامي المسلمين في القارة الهندية ، فقد جرى بينه وبين الغلام القادياني عدة مناظرات ، ومناقشات تحريرية، وتقريرية، ودومًا كان الانتصار حليفًا لرجل إلهي[1] ، وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبي القادياني غضبًا ، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م وبتاريخ ١٥ أبريل بالضبط وكتب فيها ما يلي :

---

(١) هكذا سماه العلامة الشيخ رشيد رضا في مجلته : المنار الشهيرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم ، يسئلونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق .

إلى خدمة الأستاذ ثناء الله .

السلام على من اتبع الهدى ، من زمان وأنا أكذَب وأُفسّق في مجلتكم : أهل حديث . ودائمًا تسمونني في مجلتكم هذه ملعونًا كذابًا ، ودجالًا مفسدًا ، وتشهرني في العالم بأني مفتري كذاب دجال ، وأفتري في دعواي المسيحية ، فأنا تأذيت منك كثيرًا وصبرت ، ولكني لمّا رأيت نفسي بأني مأمور لنشر الحق ، وأنت تمنع العالم من التوجه إليّ بسبب افتراءاتك عليّ ، فادعوا إنْ أنا كذّاب ومفتري كما تذكرني في مجلتك فأهلك في حياتك ، لأني أعلم أن عمر الكذّاب والمفسد لا يكون طويلا ، بل هو يموت خائبًا في حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان ، وتكون في موته منفعة لعباد الله حيث لا يضلهم ، فإن لم أكن كذابًا ومفتريًا بل أكون متشرفًا بمخاطبة الله والمكالمة معه ، وأكون مسيحًا موعودًا ، فأدعو أن لا تنجو من عاقبة المكذبين ، حسب سنة الله فأعلن : إن لم تمت أنت في حياتي بعقاب الله ، الذي لا يكون إلا من عند الله محضًا ، مثل أن تموت بمرض الطاعون أو الكوليرا ، فلن أكون مرسلًا من الله تعالى ، وهذا لا أقول نبوءة ، بل طلبت القضاء الفيصل من الله تبارك وتعالى ، وأدعو الله يا مولاي البصير القدير العليم الخبير ، يا عالم أسرار القلوب ، إنْ أنا كاذب ومفسد في نظرك ، وأفتري عليك ليلًا ونهارًا يا الله ، فأهلكني في حياة الأستاذ ثناء الله ، وسرّه وجماعته بموتي . آمين .

ويا الله إنْ أنا صادق ، وثناء الله عليّ باطل وكذّاب في التهم التي يلصقها بي ، فأهلكه يا رب العالمين في حياتي بالأمراض المهلكة ، مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض . آمين . يارب أنا أوذيت وصبرت ، ولكني أرى الآن أنه قد تجاوز الحد ، وأنه يظنني أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضرون العالم ، ويحسبني أرذلَ خلق الله ، وقد شهرني في البلدان النائية بأني

في الحقيقة مفسد، ونهاب، وطماع، وكذاب، ومفتري، وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدًى كنت صبرت عليه ، ولكنّي أرى أن ثناء الله يريد بهذه التهم أن يفني دعوتي، ويهدم عمارتي التي بنيتها أنت يا ربي، ويا من أرسلتني، ولذا ألتجأ إليك يا الله ، آخذًا بذيل رحمتك وتقدسك ، **فاقضْ** بيني وبين ثناء الله بالحق ، وأهلكْ الكذاب والمفسد في حياة الصالح ، أو ابتليه في آفة تكون مثل الموت فافعل هكذا يا ربي الحبيب . آمين ثم آمين : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ .

وأخيرًا ، أرجو من الأستاذ ثناء الله أن ينشر هذه النشرة في مجلته ، ثم يعلق عليها ما يشاء ، فالقضاء الآن بيد الله .

الراقم عبد الله الصمد غلام أحمد المسيح الموعود ، عافاه الله وأيده[1] .

وبعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام نشر الغلام القادياني في جريدة قاديانية : إن كل ما قيل عن ثناء الله ليس من عند أنفسنا ؛ بل من قبل الله ، كما ألهمت الليلة عن الدعاء الذي دعوته ﴿ **أجيب دعوة الداع** ﴾ ومعنى هذا الإلهام أن دعوتي قد قبلت[2] .

الجزاء من جنس القول والعمل :

وفعلًا قبلت دعوته هذه ، وقضي بينه وبين ثناء الله بالحق ، فبعد ثلاثة عشر شهرا وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء الله وقدره ، بصورة بشعة ، كان يتمنّاها للشيخ الجليل ثناء الله ، نعم بنفس الصورة وبنفس المرض الذي نصّ عليه هو ؟ بالكوليرا ، وإليك بيانه :

يكتب ابن الغلام القادياني وزعيم القاديانية بشير أحمد في سيرته :

أخبرتني أمي أن حضرته – أي الغلام – احتاج إلى بيت الخلاء بعد الطعام

(١) إعلان الغلام القادياني المنشور بتاريخ ١٥ أبرايل سنة ١٩٠٧ ، المندرج في تبليغ رسالت (١٠ / ١٢٠) ، مجموعة إعلانات الغلام المرتبة من قاسم القادياني .

(٢) جريدة بدر القاديانية الصادرة في ٢٥ أبريل سنة ١٩٠٧ .

مباشرة ، ثم نام قليلًا ، وبعد ذلك احتاج مرة أخرى إلى بيت الخلاء ، فذهب مرة أو مرتين إليها بدون أن يشعرني ، ثم أيقظني ، فرأيت أنه ضعف جدًّا ، وما استطاع الذهاب إلى سريره ، فلذا جلس على سريري أنا ، فبدأت أمسحه وأمسجه ، وبعد قليل أحس الحاجة مرة أخرى ولكن الآن ما استطاع الذهاب إلى بيت الخلاء ، فلذا قضاها عند السرير ، واضطجع قليلًا بعد القضاء ، ولكن الضعف بلغ إلى منتهاه ، فجاءته الحاجة مرة أخرى ، فقضاها ، ثم جاءه القيء ، وبعد ما فرغ من القيء خر على ظهره ، واصطدم رأسه بخشب السرير ، وتغيرت حالته[1] .

وكتب رحيمه - أبو زوجه - : الليلة التي مرضها حضرته - الغلام - كنت نائمًا في غرفتي ، ولما اشتد مرضه أيقظوني ، فذهبت إلى حضرته ، ورأيت ما يعانيه من الألم ، فخاطبني قائلًا : أصبت بالكوليرا ، ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة ، حتى مات اليوم الثاني بعد العاشرة من الصباح[2] .

هذا ، وقد نشرت الجرائد الهندية آنذاك : إن غلام أحمد المتنبي القادياني ، لما ابتلي بالكوليرا كانت النجاسة تخرج من فمه قبل الموت، ومات وكان جالسًا في بيت الخلاء لقضاء الحاجة .

كما نشر بيان محمد إسماعيل القادياني في جريدة قاديانية : إن المخالفين يقولون : إن النجاسة كانت تخرج من فم حضرة المسيح الموعود وقت الموت[3] .

يا لله ... النجاسة تخرج من الفم الذي طالما أخرج النجاسات ، وافترى على الله وأنبيائه وأوليائه .

والجزاء من جنس القول والعمل .

---

(١) سيرة المهدي ص ١٠٩ لبشير أحمد بن الغلام .

(٢) حياة ناصر لرحيم الغلام القادياني ص ١٤ .

(٣) بيان محمد إسماعيل القادياني في جريدة قاديانية : بيغام صلح في ٣ مارس سنة ١٩٣٩ .

مات غلام أحمد في العاشرة والنصف صباحًا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨م[1] . فمات وكان ثناء الله حيا ، وبقي حيّا بعد موته قريبا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية ، ويقمع جذورهم .

وهكذا كذّب الله الكذّاب ، حتى آخر لحظةَ من حياته ، وعذّبه في الدنيا ، وعذاب الآخرة أشد وأنكى .

ومات غلام أحمد في لاهور ثم نُقل نعشه إلى القاديان ، وهكذا إلى بعد الموت أثبت أنه كان كذابًا في دعواه النبوة فكل نبي يدفن حيث قبض ، فذهب الكذاب إلى مزبلة التاريخ ، وصدق الله ورسوله .

* * *

(١) جريدة الحكم القاديانية ٢٨ مايو سنة ١٩٠٨ ، وسيرة المهدي .



اليهود مسخ الخنازير والقرود



□ اليهود مسخ الخنازير والقرود □

قال تعالى : ﴿ **وإذ قال موسىٰ لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [الصف : ٥] .

قال سيد قطب :

وإيذاء بني إسرائيل لموسىٰ- وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم - إيذاء متطاول متعدد الألوان ، وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مُضْنٍ عسير شاق .

كانوا يتسخطون علىٰ موسىٰ وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين : ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا** ﴾ [الأعراف : ١٢٩] كأنهم لا يرون في رسالته خيرًا ، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذىٰ الأخير . وما كاد ينقذهم من ذل فرعون ، باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون ، وأغرقه ، وهم ينظرون ، حتىٰ مالوا إلىٰ عبادة فرعون وقومه .. ﴿ **فأتوا علىٰ قوم يعكفون علىٰ أصنام لهم قالوا يا موسىٰ اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة** ﴾ [الأعراف : ١٣٨] وما كاد يذهب لميقات ربه علىٰ الجبل ليتلقىٰ الألواح، حتىٰ أضلهم السامري ﴿**فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسىٰ فنسي** ﴾ [طه : ٨٨] .

ثم جعلوا يتسخطون علىٰ طعامهم في الصحراء : المن والسلوىٰ ، فقالوا : ﴿ **يا موسىٰ لن نصبر علىٰ طعامٍ واحدٍ فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها** ﴾ [البقرة : ٦١] .

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ، ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون: ﴿**ادع لنا ربك يبين لنا ما هي**﴾ [البقرة : ٦٨] .. ﴿ **ادع لنا ربك يبين لنا مالونها** ﴾ [البقرة : ٦٩] . ﴿ **ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا** ﴾ [البقرة:٧٠]. ﴿**فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ [البقرة : ٧١] .

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسًا ، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة - التي بشرهم الله بدخولها - وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم في الوقت ذاته لموسىٰ ﴿ **قالوا يا موسىٰ إن فيها قومًا جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ [المائدة : ٢٢] فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا ﴿ **قالوا يا موسىٰ إنا لن ندخلها أبدًا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ [المائدة : ٢٤] .

ذلك إلى إعنات موسىٰ بالأسئلة ، والاقتراحات ، والعصيان ، والتمرد ، والاتهام الشخصي بالباطل ، كما جاء في بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسىٰ لهم في عتاب ومودة : ﴿ **يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم** ﴾ ؟! وهم كانوا يعلمون عن يقين .. إنما هي لهجة العتاب والتذكير .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد مابذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغًا ، وأزاغ قلوبهم ، فلم تعد صالحة للهدىٰ . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدًا ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [التوبة : ٨٠] وبهذا انتهت قوامتهم علىٰ دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم علىٰ هذا الزيغ والضلال[١] .

قال القشيري :

لما زاغوا بترك الحدّ أزاغ الله قلوبهم بنقض العهد .

ويقال : لما زاغوا عن طريق الرشد أزاغ الله قلوبهم بالصدِّ والردِّ والبعد عن الوُدِّ .

ويقال : لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرهم .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٥٥٥ - ٣٥٥٦) .

ويقال : لما زاغوا عن خدمة الباب أزاغ الله قلوبهم عن التشوق إلى البساط .

ويقال : لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة(١) .

قال تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون** ﴾ [البقرة : ٤٠] .

قال الرازي :

﴿ **وأوفوا بعهدي** ﴾ قال الحسن : المراد منه العهد الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل في قوله تعالى : ﴿ **وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا . وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ...** ﴾ الآية ، [المائدة : ١٢] فمن وفى لله بعهده ، وفى الله له بعهده(٢).

قال ابن جرير :

عن ابن عباس ﴿ **وأوفوا بعهدي** ﴾ الذي أخذت في أعناقكم للنبي - ﷺ - إذا جاءكم ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ أي : أُنْجِزْ لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم ؛ بذنوبكم التي كانت من أحداثكم . وعن أبي العالية ﴿ **أوفوا بعهدي** ﴾ قال : عهده إلى عباده دين الإسلام ، أن يتبعوه ﴿ **أوف بعهدكم** ﴾ يعني : الجنة(٣) .

قال ابن كثير :

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿**أوف بعهدكم**﴾ أَرْضَ عنكم وأدخلكم الجنة(٤) .

قال القرطبي :

وقيل : أوفوا بعهدي في أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، أوف بقبولها منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : أوفوا بعهدي في العبادات أوف بعهدكم ، أي : أوصلكم إلى منازل الرعايات ، أوفوا بعهدي في حفظ أدب الظواهر ، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم .

---

(١) لطائف الإشارات (٦ / ١٤٤) .
(٢) مفاتيح الغيب (٢ / ٥٠) .
(٣) تفسير الطبري (١ / ٢٥٠) .
(٤) تفسير ابن كثير (١ / ١١٨) .

وقيل : هو عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ، فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة وغيره ، هذا قول الجمهور من العلماء وهو الصحيح ، وعهده - سبحانه وتعالى - وهو أن يدخلهم الجنة[1] .

يقول سيد قطب :

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل ، يذكرهم بنعمته - تعالى - عليهم ، ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم[2] .

يقول القشيري :

عهدُه - سبحانه - حفظ المعرفة ، وعهدنا اتصال المغفرة . عهده حفظ محابه ، وعهدنا لطف ثوابه . عهده حضور الباب ، وعهدنا جزيل المآب . أوفوا بعهدي بحفظ السر ، أوف بعهدكم بجميل البر ، أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق ، أوف بعهدكم الذي ضمنت لكم يوم التلاق . أوفوا بعهدي في ألا تؤثروا عليّ غيري ؛ أوف بعهدكم في ألا أمنع عنكم لطفي وخيري . أوفوا بعهدي برعاية ما أثبتُّ فيكم من الودائع ؛ أوف بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع . أوفوا بعهدي بحفظ أسراري ؛ أوف بعهدكم بجميل مباري . أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني ؛ أوف بعهدكم في إدامة إحساني . أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي ؛ أوف بعهدكم في المنة عليكم بقبولها منكم . أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة ؛ أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة . أوفوا بعهدي بالتبري عن الحوْل والمنَّة ؛ أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمِنَّة . أوفوا بعهدي بالتفضل والتوكل ؛ أوف بعهدكم بالكفاية والتفضل . أوفوا بعهدي بصدق المحبة ؛ أوف بعهدكم بكمال القربة . أوفوا بعهدي اكتفوا مني بي ؛ أوف بعهدكم أرضى بكم عنكم . أوفوا بعهدي المطالبات بترك الشهوات ؛ أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات . أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبدًا: ربي ربي ؛ أوف بعهدكم بأن أقول لكم: عبدي عبدي[3].

---

(١) تفسير القرطبي (١ / ٢٨٢) . (٢) الظلال (١ / ٦٤) .
(٣) لطائف الإشارات (١ / ٨٤) .

قال تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية...**﴾ الآية [المائدة : ١٣] .

قال ابن كثير :

لما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم ، وطردًا عن بابه وجنابه ، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ؛ وهو العلم النافع والعمل الصالح(١) .

قال تعالى : ﴿ **قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما كادوا يفعلون** ﴾ [البقرة : ٦٨ - ٧١] .

قال ابن كثير :

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل ، وكثرة سؤالهم لرسولهم . ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضُيق عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم(٢) .

قال تعالى : ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين** ﴾ [البقرة :٩٠] .

قال ابن كثير :

قوله : ﴿**وللكافرين عذاب مهين**﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾(٣) [غافر :٦٠] .

قال تعالى : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله**

---

(١) تفسير ابن كثير : (٣ / ٦٠) .

(٢) ابن كثير (١ / ١٥٧ - ١٥٨) .

(٣) ابن كثير (١ / ١٧٩) .

ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ [البقرة : ٦١].

قال ابن كثير :

ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه ، من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم ، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وكساهم ذلًا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة ؛ جزاءً وفاقًا(١) .

قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ [المائدة : ٦٤] .

قال ابن كثير :

يخبر تعالى عن اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة – بأنهم وصفوا الله ، عز وجل وتعالى عن قولهم علوًا كبيرًا ؛ بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بقولهم : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ .

وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه ، فقال : ﴿ **غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ وهكذا وقع لهم . فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، قال تعالى : ﴿ **ضربت عليهم الذلة ...** ﴾ الآية(٢) .

قال سيد قطب :

﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ . وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه ، فقد حكى القرآن الكريم عن كثير من سوء تصورهم ذاك ، وقد قالوا: ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء**﴾ عندما سئلوا النفقة ! وقالوا : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ يعللون بذلك بخلهم ، فالله – بزعمهم – لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون ؟.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٤٦) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/١٣٧–١٣٨) .

وقد بلغ من غلظ حسهم ، وجلافة قلوبهم ، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه ، وهو البخل بلفظه المباشر ، فاختاروا لفظًا أشد وقاحة وتهجمًا وكفرًا ، فقالوا : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ .

ويجيء الرد عليهم بإحْقاق هذه الصفة عليهم ، ولعنهم وطردهم من رحمة الله ، جزاءً على قولهم : ﴿ **غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ وكذلك كانوا ، فهم أبخل خلق الله بمال .

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم ، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم ، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب . ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾[١] .

قال تعالى : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالًا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾ [البقرة : ٦٥ - ٦٦] .

قال ابن كثير :

يقول تعالى : ﴿ **ولقد علمتم** ﴾ يا معشر اليهود ، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله ، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذ كان مشروعًا لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت ، بما وضعوه لها من الشّصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة قردة ، وهي أشبه بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم ، لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم[٢] .

---

(١) الظلال (٢ / ٩٢٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ١٥٠) .

هؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام .

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل »[1] .

قال تعالى : ﴿ **وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٦] .

قال ابن كثير :

قال تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أي : فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة ، ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا**﴾ أي : ارتكبوا المعصية ﴿ **بعذاب بئيسٍ**﴾ فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحًا فَيُمْدَحُوا ، ولا ارتكبوا إثمًا عظيمًا فَيُذَمُّوا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم[2] .

قال تعالى : ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ [المائدة : ٢١- ٢٦].

قال ابن كثير :

ثم قال تعالى مخبرًا عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد ، ودخول بيت المقدس ؛ الذي كان في زمان أبيهم يعقوب ، لما ارتحل هو وبنوه

---

(١) قال ابن كثير (٣ / ٤٩٢) : وهذا إسناد جيد ، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه ، وباقي رجاله مشهورون ثقات ، ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٤٩٣) .

وأهله إلى أرض مصر أيام يوسف عليه السلام ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قومًا من العمالقة ، فأمرهم رسول الله موسى – عليه السلام – بالدخول إليها ، وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم ، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التَيه ، والتمادي في سيرهم حائرين ، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد ، مدة أربعين سنة ، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله .

وقوله تعالى : ﴿**فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾ تسلية لموسى عليه السلام– عنهم ، أي لا تتأسف ولا تحزن عليهم ، فمهما حكمت عليهم به فإنهم يستحقون ذلك.

وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ، ومخالفتهم لله ورسوله ، ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ، ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ ، وكليمه وصفيّه من خلقه في هذا الزمان ، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم ، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال ، والغرق له ولجنوده في اليم ، وهم ينظرون لتقر به أعينهم ، وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الذيل ، هذا وهم في جهلهم يعمهون ، وفي غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه . ويقولون مع ذلك : ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ [المائدة : ١٨] فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود ، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود وقد فعل ، وله الحمد من جميع الوجود[١] .

لمّا قالوا : ﴿ **إنا لن ندخلها** ﴾ ونكصوا حرموا من دخولها أربعين سنة والجزاء من جنس العمل .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٦٩ – ٧٥) .

○ قـــارون ○

هذه قصة البطر والاستعلاء في الأرض ، وترك شكر الله على النعم .

قال الله تعالى : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك مِنْ قبله مِنَ القرون مَنْ هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ [القصص : ٧٦ - ٨٣] .

قال ابن حجر : روى ابن أبي حاتم ، بإسناد صحيح ، عن ابن عباس : أنه كان ابن عم موسى عليه السلام. قال : وكذا قال قتادة ، وإبراهيم النخعي ، وعبد الله بن الحارث ، وسماك بن حرب ، واختلف في تفسير بغي قارون فقيل : الحسد؛ لأنه قال: ذهب موسى وهارون بالأمر فلم يبق لي شيء ، وقيل : إنه واطأ امرأة من البغايا أن تقذف موسى بنفسها فألهمها الله أن اعترفت بأنه هو الذي حملها على ذلك ، وقيل : الكبر لأنه طغى بكثرة ماله ، وقيل : هو أول من أطال ثيابه حتى زادت على قامته شبرًا .

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ **ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة** ﴾ تثقل .

﴿ **العصبة أولي القوة** ﴾ : لا يرفعها العصبة من الرجال ، واختلف في العصبة فقيل : عشرة ، وقيل : خمسة عشر ، وقيل : أربعون ، وقيل : من عشرة إلى أربعين .

وكان من قصة قارون أنه حصّل أموالًا عظيمة جدًا حتى قيل : كانت مفاتيح خزائنه من جلود تحمل على أربعين بغلًا .

أخرج ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : كان موسى يقول لبني إسرائيل : إن الله يأمركم بكذا ، حتى دخل عليهم في أموالهم ، فشق ذلك على قارون ، فقال لبني إسرائيل : إن موسى يقول : من زنى رجم ، فتعالوا نجعل لبغي شيئًا حتى تقول : إن موسى فعل بها ، فيرجم فنستريح منه ، ففعلوا ذلك ، فلما خطبهم موسى قالوا له : وإن كنت أنت ؟ قال : وإنْ كنتُ أنا . فقالوا : فقد زنيت ، فجزع ، فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم عليها موسى ، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلّا صدقت ، فأقرت بالحق ، فخر موسى ساجدًا يبكي ، فأوحى الله إليه : إني أمرت الأرض أن تطيعك فأْمرها بما شئت ، فأَمرها ، فخسفت بقارون ومن معه .

وكان يسكن تنيس ، فحكي أن عبد العزيز الحروري ظفر ببعض كنوز قارون - وهو أمير تنيس - فلما مات تأمر ابنه علي مكانه وتورع ابنه الحسن بن عبد العُزيز عن ذلك ، فيقال : إن عليا كتب إلى أخيه الحسن : إني استطييت لك من مال أبيك مائة ألف دينار فخذها فقال : أنا تركت الكثير من ماله ؛ لأنه لم يطب لي ، فكيف آخذ هذا القليل[1]؟! .

قال ابن كثير : خسف به إلى الأرض السابعة . قال قتادة : كان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة[2] .

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿**فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين**﴾ ما أغنى عنه ماله وما جمعه ، ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا غيره[3] .

يقول سيد قطب رحمه الله :

---

(١) فتح الباري (٦ / ٥١٦ - ٥١٧) .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢٨٨/١) .
(٣) تفسير ابن كثير (٢٦٧/٦) .

في كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب فتطير لها قلوب ، وتتهاوى لها نفوس ، وتتشهاها أفئدة وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ، فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ، ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ، من مال ، أو منصب ، أو جاه ، ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع ، وهم أعلى نفسًا وأكبر قلبًا من أن يتهاووا أو يتصاغروا أمام قيم الأرض جميعًا ، ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد ، وهؤلاء هم الذين أوتوا العلم ؛ العلم الصحيح الذي يقوِّمون به الحياة حق التقويم[1].

﴿ **تلك الدار الآخرة** ﴾ : الدار الآخرة العالية الرتبة ، البعيدة الآفاق ، للذين لا يريدون علوًا ، فلا يقوم في نفوسهم خاطر استعلاء بأنفسهم لأنفسهم ، ولا يهجس في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم ، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الدنيا وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابًا ، ولا يبغون فيها كذلك فسادًا .

قال أبو معاوية : الذي لا يريد علوًا هو من لم يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها ، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا ، وأعزهم غدًا ألزمهم لذل اليوم[2].

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

لما طغى بماله وكنوزه ، والكنز : هو المخبوء المدخر من المال ، ذهبت به الأرض . فهنا استكبار لئيم ، وبطر ذميم لمغرور مطموس .

فهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقًا ، وذهب ضعيفًا عاجزًا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال . ليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم فليسوا هم الحكم

---

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٧١٣) . (٢) القرطبي (٧ / ٥٠٣٦) .

ولا الأشهاد ، ﴿ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص : ٧٨] .

لطيفة :

كان قارون غاية في فقهه وفهمه ، وكان في النسب إلى موسى ابن عمه ، فلما فاضت الدنيا عليه ، فاضت نفس علمه ، كانت مقاليد خزاين خزاياه وقر ستين بغلًا ، غير أن الذي فاته أعلى وأغلى ، ملك الكثير وبالقليل ولم يسمح ، نبه فلم يَزُل نومه ، وليم فلا ينفع لومه . سحب ذيل ﴿ فبغى ﴾ فقام قومه قومة زجر ﴿لا تفرح﴾ وألقوا إليه نصائح : ﴿وابتغ﴾، ﴿ولا تنس﴾، ﴿وأحسن﴾، ﴿ ولا تبغ ﴾ ، فركب يومًا في وقت اقتداره في أربعة آلاف مقاتل ، وسم الهوى يعمل في المقَاتِل ، وركب معه في معمعته ثلثمائة جارية ، وقد أنساه سفه الأمل أن سفينة الأمل جارية . فلما غلا وعلا ، حُط إلى حضيض ﴿ فخسفنا به ﴾ فقال الجاهلون : إنما بادر موسى بادرته لأخذ بدرة[1] بداره ، فقال حاكم الغيب لإزالة الريب: ﴿وبداره﴾ . فقال مُوسى : يا أرض خذيه فاستخذت[2] لأمره ، فسرت بسريره ، فناشده قارون بالرحم فما رُحم ، فأخذته لتقدمه حتى غيبت قدمه ، فما زال يردد القول حتى ذهب الغبي الغني .

إن الدنيا إذا طلعت على الطغام تطغى ، وإذا بغى نكاحها على العفاف تبغي ، ثم إنها تقصد هلك محبها وتبغي ، أما سحبت قرون قارون ، مع أقرانه إلى القران في قرن[3]؟!

فأين من جمع الأموال وتموّلها ، وطاف البلاد وجوّلها ؟ وشق أنهار الأرض وحولها رأت والله كل عاملة عملها ، ونزلت بعد سفرها منزلها .

أين قارون ؟ وقد هلكت في الزمان جَديسه وطُسَمه ، ولقد ذهب من كان وكان اسمه ، فلا عينه تُرى ولا رسمه ، ولا جوهره يُحس ولا جسمه ، تبدد والله بالممات نظمه ، ولحق بالرفات عظمه .

كم طوّفوا بالبلاد وجوّلوا ، كم أوعدوا وهولوا ، كم جمعوا وتخولوا ، كم

---

(١) نقود . (٢) استرخت . (٣) المدهش ابن الجوزي (١٠٣ - ١٠٤) .

اقتنوا وتمولوا ، كم تطاولوا وما تطولوا ، فانظر الآن : أي غول تغولوا ، وأقاموا ، فما قيل : فازوا ، ولكن تحولوا .

أطاعوا ذا الخداع وصدقوه ... وكم نصح النصيح فكذبوه
ولم يرضوا بما سكنوا مشيدًا ... إلى أن فضّضوه وذهّبوه
أظلوا بالقبيح فتابعوه ... ولو أمروا به لتجنبوه
نهاهم عن طلاب المال زهد ... ونادى الحرص ويلكم اطلبوه
فألقاها إلى أسماع غثرٍ[1] ... إذا عُرف الطريق تنكبوه
حسبتم يا بني حوّا شقاء ... نجاؤكم الذي لم تحسبوه
أُدين الشر منكم فاحذروه ... ومات الخير فيكم فاندبوه

○ السامري ○

وانظر إلى بلاهة الفكر ، وبلادة الروح ، وتفاهة بني إسرائيل في قصة السامري.

قال تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُمِّلْنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألَّا يرجعُ إليهم قَولًا ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**

---

(١) سفلة الناس .

قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أَلَّا تتبعن أفعصيت أمري قال يا بنؤمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به. فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي. قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدًا لن تُخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفًا لنحرّقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا﴾ [طه: ٨٣ - ٩٧].

حين ذهب موسى لميقات ربه، عمد رجل منهم يقال له السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلي فصاغ منه عجلًا، وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذه من فرس جبريل، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي، ويقال: إنه استحال عجلًا جسدًا، أي: لحمًا ودمًا حيًا يخور، قال قتادة وغيره: وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون **﴿فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾** أي: فنسي موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هاهنا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وعداته.

وأقبل عليهم موسى فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح **﴿ قالوا إنا حملنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري ﴾** تحرجوا من تملك حُلي آل فرعون، وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم، ولم يتحرجوا - بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم - من عبادة العجل الجسد؛ الذي له خوار، مع الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القهار. وأقبل موسى على السامري **﴿ قال فما خطبك يا سامري ﴾** ما حملك على ما صنعت؟ **﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾** أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرسًا **﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾** أي من أثر فرس جبريل، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان، ولهذا قال: **﴿فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾**[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٦٨ - ٢٦٩).

قال ابن كثير :

هذا دعاء عليه أن لا يمس أحدًا ؛ معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه[1].

قال القرطبي: « قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ، ولا يماسوه ؛ عقوبة له ، ولما كان منه إلى يوم القيامة »[2] .. لا أَمِسُّ ولا أُمَسُّ .

تميم كرهط السامري وقوله ألا لا يريد السامري مساسًا

قال ابن كثير : أي : كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول ، فعقوبتك في الدنيا أن تقول ﴿ **لا مساس** ﴾ أي : لا تماس الناس ولا يماسونك[3] . فمن كان يمسه تصيبه الحمى .

قال الألوسي ، مبينًا كون الجزاء من جنس العمل : إنه لما أنشأ الفتنة لما كانت ملامسته سببًا لحياة الموات ، عوقب بما يضاده ؛ حيث جعلت ملامسته سببًا للحمى التي هي من أسباب موت الأحياء ، وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل . نَبَذَ فَنُبِذْ ، فإن ذلك التحامي أشبه شيء بالنبذ[4]. اهـ .

○ قاتلة يحيى بن زكريا ○

قال الحافظ ابن كثير : روى الحافظ ابن عساكر في « المستقصى في فضائل الأقصى » عن قاسم مولى معاوية ، قال : كان ملك هذه المدينة - يعني : دمشق - هداد بن هدار وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا ، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة ، قال : وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا ثم إنه أراد مراجعتها ، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٦٩) .

(٢) تفسير القرطبي (٦ / ٤٢٨١) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٠٧) .

(٤) روح المعاني للألوسي (١٦ / ٢٥٦) .

لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك ، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ؛ وذلك بإشارة أمها ، فأبى عليها ، ثم أجابها إلى ذلك ، وبعث إليه - وهو قائم يصلي في مسجد جيرون - من أتاه برأسه في صينية ، فجعل الرأس يقول : لا تحل له ، لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره ، فأخذت المرأة الطبق ، وحملته على رأسها ، وأتت به أمها ، وهو يقول كذلك ، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ، ثم إلى حقويها[(١)]، وجعلت أمها تولول ، والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ، ثم خسف بها إلى منكبيها ، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها ؛ لتتسلى برأسها ، ففعل ، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا في الذل والفناء ، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفًا[(٢)].

وكان جزاؤها من جنس عملها : لما اجتزت رأس يحيى بن زكريا - عليهما السلام - اجتز رأسها ، جزاءً وفاقًا .

○ شيطان بني النضير : حيي بن أخطب ○

كان حيي بن أخطب عندما نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين ، قد تعهد لسيد بني قريظة بأن يدخل معه حصنه ؛ ليصيبه ما أصاب بني قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب ، دون أن تستأصل شأفة المسلمين، وتقضي عليهم قضاء تامًّا، وفعلًا، فقد وفَّى له حيي بذلك، فقد أتى الله به إلى حصون بني قريظة ليجني ثمار أعماله الشريرة ، فبقي معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم .

قال ابن إسحاق ، يصف موقف حيي بن أخطب ساعة إعدامه :

وأُتي بحيي بن أخطب - عدو الله - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول الله - ﷺ - قال : أما والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك ، ولكن

---

(١) الحقو : الكِشْحُ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢ / ٥١) .

من يخذل الله يخذله الله . وزاد السهيلي في الروض الأنف : أن النبي - ﷺ - قال لحيي بن أخطب حين رآه موثقًا : ألم يمكني الله منك ؟ فقال : بلى ، ولكن من يخذُلك يُخذل .

وحينما تقدم لضرب عنقه قال : يأيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس ، فضربت عنقه .

يقول جبل بن جوال الغطفاني ، أحد شعراء اليهود :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل

والجزاء من جنس العمل ..

○ أُسَير بن زارم ملك خيبر ○

نصّبه اليهود ملكًا على خيبر خلفًا لأبي رافع ، وجدّ أسير لشن حملة أحزاب جديدة على المسلمين في المدينة ، وحاول أن يصنع برسول الله - ﷺ - ما لم يصنعه قادة اليهود الذين سبقوه ؛ فذهب إلى مناطق القبائل النجدية - غطفان وغيرها - وصار يتنقل بين مضارب البدو ومخيمات العشائر الوثنية ؛ يحرضها على حرب رسول الله ﷺ ويجمعها لغزو المدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ ثلاثين من أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة ، لأسير بن زارم برسالة شفوية تتضمن دعوة ملك اليهود للذهاب إلى المدينة لمقابلة النبي ﷺ بنفسه ، لينهوا حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يُبقيه النبي ﷺ أميرًا على خيبر ، حيث قال له ابن رواحة : يا أُسير ، إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه ، فيستعملك على خيبر ويحسن إليك[1].

وخرج أسير بن زارم في ثلاثين من خلصاء أصحابه ، بصحبة عبد الله ابن رواحة وصحبه ، وقد أردف كل رجل من أصحاب عبد الله بن رواحة رجلًا من أصحاب أسير بن زارم ، وكان سيد خيبر أُسير رديف عبد الله بن أُنيس .

وبينما كانوا سائرين في اتجاه المدينة ، حاول اليهود الغدر بالمسلمين ، فأهوى

---

(١) ابن هشام (٢/ ٦١٨) - الحلبية (٢ / ٣٠٦) .

أسير بن زارم بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ليقتله ، إلا أن ابن أنيس كان أسرع منه ؛ إذ فطن لذلك ، فانتزع السيف من يده وقتله ، ثم دارت معركة بين بقية الركب ، تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته ، ما عدا رجلًا واحدًا تمكن من الفرار .

وكان جزاؤهم من جنس عملهم ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله .

○ يهود بني قريظة ○

من لم يعتبر بغيره ؛ اعتبر به غيره .

هم قوم البهت ويا طيري	ذي قولة حبر الإيمان
وصفيـة أم الابـرار	هارون وموسى عمران
برآء منهم هُمْ منـا	صاحوا يا حكم القرآن
يـذرون الدمع لغيبتـه	ولغيبة سعد الفرسـان
سعد بن معاذ تعرفـه	واهتز سَرير الرحمـن

قد كان للمسلمين حلف مع بني قريظة قبل مجيء الأحزاب ، ولكنهم بعد مجيء الأحزاب غدروا بالمسلمين وقد كانوا خلفهم ، وقوّاهم على ذلك شيطان بني النضير حيي بن أخطب ، ولذلك قصة نقصها ؛ حتى ترى كيف أن جزاءهم كان من جنس عملهم ، وكيف أنهم لما أرادوا سحق المسلمين من الخلف وإبادتهم سُحقوا وأبيدوا .

ذهب شيطان خيبر - حيي بن أخطب - إلى حصن بني قريظة قائلًا : ويحك يا كعب ، افتح لي . فقال له كعب وقد تَمنع : يا حيي إنك امرؤ مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمدًا ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلّا وفاءً وصدقًا . فقال له حيي : ويحك ، افتح لي أكلمك ، فقال : ما أنا بفاعل ، فغاظ ذلك حييًا ، فقال لكعب : والله ما أغلقت دوني إلا تخَوُّفًا على حشيشتك[1] أن آكل معك منها ، فخجل منه كعب ، ففتح له .

فقال له حيي : جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش حتى بجمع الأسيال ،

---

(١) البُر يطحن غليظا .

وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد ، قد عاهدوني وعاقدوني : أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه .

فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وكل ما يُخْشى ، فإني لم أر في محمد إلَّا صدقًا ووفاءً ، جئتني يا حيي بجهامٍ قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء[1] . ثم أردف كعب قائلًا : ويحك يا حيي ، فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلَّا صدقًا ووفاء . وما زال به حيي وبقومه يفتل في الذروة والغارب حتى أجابوه إلى ما طلب ، فوافقوا على نقض العهد ، والغدر بالمسلمين والانضمام إلى جيش الأحزاب ، ولم يشذ إلا الزعيم القرظي – عمرو بن سُعدَى – وقال : والله لا أغدر بمحمد أبدًا ، وبقي على عهده وسانده في موقفه النبيل هذا ثلاثة من اليهود وهم : ثعلبة ، وأسيد – ابنا سَعْيه – وأسد بن عبيد . وأخذ كعب بن أسد الصحيفة ومزقها .

غدروا برسول الله – ﷺ – وجيوش الأحزاب توشك الفتك بالمدينة ، وبلغت القلوب الحناجر .

أوفد إليهم النبي ﷺ وفدًا من الأنصار ، على رأسه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فقالوا للوفد ، وقد تملكهم الغرور : الآن جئتم تطلبون منا الوفاء بالعهد الذي بيننا وبين محمد ، وهو الذي كسر جناحنا ، وأخرج إخواننا بني النضير ، اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، من هو رسول الله هذا ؟! فغضب سيد الخزرج وأخذ يشاتم اليهود فشاتموه ، وأغضبوه كثيرًا . غير أن سيد الأوس سعد بن معاذ – وهو حليف هؤلاء اليهود – قد دخل في الأمر وقال لسعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، وأقبل عليهم ناصحًا ومحذرًا : إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة ، وأنا أخاف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمر منه . فقالوا لسعد : أكلت أير أبيك ،

---

(١) يعني بذلك كعب : أن جيوش الأحزاب على كثرتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذي تصك رعوده الآذان ، ويخطف برقه الأبصار ، وليس فيه قطرة ماء .

فقال لهم سعد ، وكان حليمًا : غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن يا بني قريظة ، فتمادى بنو قريظة في غيهم ، وصاروا ينالون من النبي ﷺ ويقعون فيه ، وهنا يئس سعد بن معاذ من عودة حلفائه إلى جادة الصواب ، فعاد الوفد يحمل إلى النبي ﷺ بواسطة كلمة سر : عضل والقارة ، أن القوم قد غدروا ، دون أن يعلم أحد من المعسكر هذا الخبر المزعج .

وحين أخزى الله الأحزاب ، أتى وقت حساب بني قريظة :

وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ قائلًا: أَوَ قَدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال : نعم ، فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلّا من طلب القوم . إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عائد إليهم فمزلزلهم .

ونادى رسول الله ﷺ : من كان سامعًا مطيعًا ، فلا يصلينَّ العصر إلا في بني قريظة . وعندما بلغ عمرو بن سعدى انسحاب الأحزاب ، جاء إلى قومه بني قريظة ودعاهم إلى اجتماع عاجل ، حضره كل زعماء بني قريظة ، وبعد أن أنَّبَهُمْ ووبخهم على نقضهم العهد الذي بينهم وبين المسلمين ، ونصحهم : يا بني قريظة ، لقد رأيت عبرًا ؛ رأيت دار إخواننا خالية بعد العز والشرف والرأس الفاضل ، تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم ، وخرجوا خروج ذل .

ثم أكد لهم كعالم من علماء التوراة ، أنه لا يعادي أحد محمدًا ﷺ إلا كان مصيره الخسران فقال : لا والتوراة ، ما سُلِّط هذا[1] على قوم قط ولله بهم حاجة ، وقد أوقع ببني قينقاع وكانوا أهل عُدَّة وسلاح ونخوة ، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم ، فكُلِّم فيهم فتركهم على إجلائهم من يثرب ، ثم دعا عمرو بن سُعْدى قومه إلى الدخول في الإسلام ، ليحقنوا دماءهم ، ويتبعوا الحق ، قائلًا :

يا قوم ، قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمدًا ، فوالله إنكم

---

(١) يعني : النبي صلى الله عليه وسلم .

لتعلمون أنه نبي ، وقد بشرنا به علماؤنا ، ثم لازال ابن سُعدى يخوِّفهم بالحرب والسبي ، وأقبل على سيدهم كعب بن أسد ، وقال له : والتوراة التي أنزلت على موسى - عليه السلام - يوم طور سيناء ، إنه العز والشرف في الدنيا(١) .
وبينما عمرو بن سعْدَى يتحدث إلى قومه في ذلك الاجتماع ، إذ بطلائع الجيش النبوي تظهر عليهم زاحفة نحو حصونهم ، وهنا قطع الزعيم اليهودي ابن سعدى حديثه قائلًا : هذا الذي قلت لكم ...

ومع هذا فقد رفض بنو قريظة نصيحة عمرو بن سعدى - الذي دعاهم إلى الدخول في الإسلام - فتقدم إليهم بمحاولة أخيرة ، باقتراح آخر ، فقال لهم : لقد خالفتم محمدًا ، ولم أشرككم في غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه في دينه ، فاثبتوا على اليهودية ، وأعطوا الجزية ، فوالله ، ما أدري أيقبلها منكم أم لا ؟ ولكنهم رفضوا أيضًا هذا الاقتراح ؛ حيث كان جوابهم ، والغرور لمّا يزل يشحن رؤوسهم : نحن لا نقرّ للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

وهنا أعلن عمرو بن سعدى مفارقته لقومه ، وخرج من حصون قومه بني قريظة ، بعد أن طوّقها الجيش الإسلامي من كل مكان ، وكان خروجه ليلًا .

وعندما خرج هذا الزعيم اليهودي من حصون قومه ، مفارقًا لهم - وكان خروجه ليلًا - التقى به رجال الحرس النبوي الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية ، فأتوا به إلى قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري .

قال ابن إسحق : خرج عمرو بن سعدى القرظي ، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة الأنصاري تلك الليلة ، فلما رآه ابن مسلمة استوقفه قائلًا : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سعدى ، وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال : لا أغدر بمحمد أبدًا .

فقال ابن مسلمة - حين عرف أنه ابن سعدى - : اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام ، ثم خلّى سبيله ، فخرج على وجهه حتى بات - مستأمنا - في

---

(١) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة لمحمد أحمد بشاميل ، والبداية والنهاية .

مسجد رسول الله ﷺ تلك الليلة بالمدينة . ثم خرج فلم يدر أين توجه من الأرض ، ولقد وصف النبي ﷺ عمرو بن سعدى بالوفاء وذلك أنه لما ذُكرت له قصة إلقاء الحرس القبض عليه ، ثم إخلاء محمد بن مسلمة سبيله ، قال : « ذلك رجل نجاه الله بوفائه » .

وفَّى لله فوفَّى الله له ، وكان جزاؤه من جنس عمله .

أما يهود بني قريظة ، فإنهم لما نظروا إلى طلائع الجيش النبوي تتقدم - بقيادة علي بن أبي طالب - فاضت نفوسهم الشريرة ببعض ما تختزنه من خبث ودناءة ووضاعة ، وأسمعوا ابن عم رسول الله ﷺ في نبي الله ﷺ ونسائه الطاهرات الطيبات من السب ، والشتم ، والقذف ، ما لم يسمح أحد من المؤرخين لنفسه أن يورد نصه ؛ لفظاعته وبشاعته . وكل الجواب الذي سمعوه من عليّ : السيف بيننا وبينكم ، وأشفق عليّ - وهو أول من سبق باللواء إلى بني قريظة - من أن يسمع الرسول ﷺ في نفسه وفي نسائه ذلك السب القبيح .

وأناب علي في حمل اللواء أبا قتادة الأنصاري ، وانطلق مسرعًا نحو رسول الله ﷺ واستوقفه عَلَى بُعد من حصون اليهود ، وطلب منه أن يقف بعيدًا عن هذه الحصون ؛ لئلا يتأذى بسماعه ما فاه به اليهود من سب وقذع . فقال علي : لا عليك يا رسول الله ، أن تدنو من هؤلاء الأخابث . فقال النبي ﷺ : لعلك سمعت منهم فيِّ أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله . فقال ﷺ : لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا .

ثم واصل الرسول القائد ﷺ تقدمه نحو حصون اليهود حتى دنا من حصون قريظة الغادرة ، نادى نفرًا من قادتهم ، فلما ظهروا في أبراج حصونهم قال لهم : يا إخوان القردة وعبد الطاغوت ، هل أخزاكم الله ، لأنزل بكم نقمته . وهنا أسقط في أيدي اليهود ، فأنكروا أن يكونوا شتموه ونساءه وانطلقوا يحلفون كذبًا ؛ أنهم ما فاهوا بشيء مما بلغه بهذا الشأن ، ثم اندفعوا في ليونة الأفاعي يُسمعون رسول الله ﷺ من لين القول وطيب الكلام وجميل الإطراء ، ما ظنوا أنه سيساهم في تخفيف عقوبة خيانتهم العظمى ، فقالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولًا.

واشتد حصار المسلمين لليهود ، وطلبوا المفاوضة والسماح لهم بالخروج من يثرب مع نسائهم وذراريهم وما تقدر الإبل على حمله من متاع - سوى السلاح - على أن يتركوا بقية كل ما يملكون في يثرب للمسلمين ، ورفض طلبهم .

ولقد كان المسلمون المحاصرون لليهود في حالة تعب شديد ؛ نتيجة للجهد المضني الذي بذلوه في ليالي الخندق المخيفة ، التي تحالف فيها البلاء على المسلمين ، وأحاطهم من كل جانب طيلة أكثر من خمس وعشرين ليلة ، حرموا فيها حتى من النوم ؛ لشدة الخوف ، ودوام الحراسة والمرابطة في وجه عدوهم المحاصر لهم ، والذي ما كان يترك لهم فرصة يستريحون فيها ، يضاف إلى ذلك المجاعة الشديدة ، والجو البارد النازل بالمسلمين بينما بنو قريظة يحتمون بحصونهم في مأمن من لفح البرد القارص ، موفورًا لديهم كل ما يحتاجون من الطعام لأشهر طويلة ، كما أن الماء كان موجودًا لديهم بصفة دائمة . ومع هذا انهارت أعصاب اليهود وتحطمت معنوياتهم إلى درجة لم يحتملوا معها الحصار أكثر من خمس وعشرين ليلة ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وقرر الصحابة اقتحام حصون اليهود مهما كان الثمن . وصاح علي بن أبي طالب حامل لواء الجيش ، وابن عمه الزبير بن العوام ، صاح : والله لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصنهم .

ولما سمع اليهود هذا الإنذار من حامل لواء الجيش علي بن أبي طالب ، أيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمر لا مفر منه ، طلبوا إيقاف الهجوم ، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ دونما قيد أو شرط .

وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فورًا ، بعد أن ألقوا سلاحهم ، وأخذوا في مغادرة الحصن مستسلمين ، وأمر النبي ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود في أيديهم ، وقد تم ذلك تحت إشراف محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي ، وقد حبس الرجال من بني قريظة وعددهم حوالي ثمانمائة مقاتل في دار أسامة بن زيد[1] ، أما النساء والأطفال فقد رأى النبي ﷺ بعد

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢ / ١٢٧) .

أن أوكل أمرهم إلى عبد الله بن سلام ، أن يحفظوا في مكان ليس فيه صفة الحبس والتضييق وأنزلوا دار الضيافة ، وهي دار ابنة الحرث النجارية المعدة لنزول الوفود التي تقصد المدينة وكان عدد هؤلاء النساء والذراري يناهز الألف .

وشفع الأوس لحلفائهم يهود بني قريظة عند رسول الله ﷺ ففوض أمر هؤلاء اليهود إلى سيد الأوس سعد بن معاذ . قال رسول الله ﷺ : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فذاك سعد بن معاذ » .

روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أنه قال : رُمي سعد بن معاذ ، فقطعوا أكحله فحسمه رسول الله ﷺ بالنار ، فانتفخت يده ، فحسمه أخرى فانتفخت يده ، فنزف فلما رأى ذلك قال : اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه فما قطر، حتى نزلوا على حكم سعد، فحكم أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم فلما فرغ منهم انفتق عرقه فمات . رضي اليهود ، ونزلوا على حكم الله أولًا ، ثم على حكم سعد بن معاذ ثانيًا لما قال لهم : أترضون بحكمي ، قالوا : نعم . قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة وتسبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم[١] .

فأخذهم من الغمّ ما أخذهم ، وصعق اليهود لهذا الحكم الصارم ، وعلاهم الذهول ، وخيم عليهم الوجوم .

وأمر بحفر خنادق عميقة في سوق المدينة ، وأمر رسول الله ﷺ بإحضار الرجال المحكوم عليهم وأمر بإعدامهم ، فأعدموا دفعة بعد دفعة ، حتى لم يبق منهم أحد . وكان الصحابة كلما تم إعدام دفعة من هؤلاء اليهود قذفوا في الخنادق، وواروهم بالتراب ، واختلف المؤرخون في عدد اليهود الذين تم إعدامهم ، فالبعض يقول : إنهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة ، والبعض الآخر يقول : إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة[٢] .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) سمط النجوم العوالي (٢ / ١٣٨) .

ولقد أعدم هؤلاء اليهود في ليلة واحدة ، وجرت عملية الإعدام على ضوء مشاعل سعف النخيل[١] وتولى عملية قتل اليهود الخونة علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وكان بنو قريظة المحتجزون في السجن مع سيدهم كعب بن أسد كلما استدعى الحرس جماعة منهم لإعدامهم ، لاذوا بسيدهم كعب يسألونه في جزع وارتباك ، ما تراه يصنع بنا ؟ فيجيبهم : أفي كل موطن لا تعقلون ؟! هو والله القتل .

فكان جزاؤهم من جنس عملهم ؛ من جنس ما أرادوا للمسلمين .

وأبى الله إلّا أن يصلوا هم إلى النهاية المريبة التي أرادوا للمسلمين الوصول إليها .

﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ .

وهنا أمر آخر : أن الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ على يهود بني قريظة ، وأقره النبي ﷺ وقام بتنفيذه ، قد جاء تمامًا وفق الشريعة الموسوية عند اليهود أنفسهم كما في التوراة عندهم ، فقد نص الإصحاح العشرون من سفر التثنية « وإن تسالمك أي قرية ، بل حاربتك فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورهم بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك[٢] » .

وهذا النص الصريح في كتاب اليهود المقدس ، يجعل هؤلاء اليهود يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع في أيديهم من أعدائهم الرجال وسبي نسائهم وذراريهم ، ومصادرة كل ممتلكاتهم . وهذا يعني أن اليهود لو نجحوا في مؤامرتهم ، وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين لما ترددوا لحظة في إبادة المحاربين منهم وسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم تمشيًا مع حكم كتابهم المقدس الذي جاء صريحًا في سفر التثنية .

وهكذا جاءت العقوبة التي أنزلها المسلمون باليهود هي نفس العقوبة التي كان هؤلاء اليهود ينوون إنزالها بالمسلمين لو وقعوا في أيديهم .

---

(١) السيرة الحلبية (٢ / ١٢٠) .
(٢) سفر التثنية (٢٠ / ١٣ – ١٤) .

فالحكم النازل باليهود إنما جاء وفقًا لشريعتهم ؛ فهو إذًا جزاءً وفاقًا[١]
وهكذا كان جزاء يهود بني قريظة من جنس عملهم .

○ كعب بن الأشرف لعنه الله ○

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : مَنْ لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال:فأذن لي أن أقول شيئًا ، قال : قل ، فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عَنّانا ، وإني قد أتيتك أستسلفك . قال : وأيضًا ، والله لتملُّنه . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا . قال : نعم ، أرهنوني . قلت : أي شيء تريد ؟ قال : أرهنوني نساءكم . فقالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب . قال فأرهنوني أبناءكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم فيقال : رهن بوسق[٢] أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكن نرهنك اللأمة ، قال سفيان : يعني السلاح . فواعده أن يأتيه ليلًا فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلة – وهو أخو كعب من الرضاعة – فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ وقال غير عمرو قالت : أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم . قال : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة . إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب . قال : ويدخل محمد بن مسلمة ومعه رجلان فقال : إذا ما جاء فإني مائل بشعره فأشمه ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه . وقال مرة : ثم أشمكم ، فنزل إليهم متوشحًا وهو ينفخ منه ريح الطيب ، فقال : ما رأيت كاليوم ريحًا ، أي : أطيب . وقال غير عمرو : عندي أعطر نساء العرب وأجمل العرب . قال عمرو : أتأذن لي في أن أشم رأسك ؟ قال : نعم : فشمه ، ثم أشم أصحابه ، ثم قال : أتأذن لي ؟ قال :

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى – بنو قريظة (١٥٢ ، ٢٤٦ ، ١٦٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠) .
(٢) حمل البعير .

نعم . فلما استمكن منه قال : دونكم فقتلوه ، ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه .

قال محمد بن إسحق : كان من حديث كعب بن الأشرف - وكان رجلًا من طيىء ثم أحد بني نبهان، وأمه من بني النضير - أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، قال : والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير من ظهرها . فلما تيقّن عدو الله الخبر ، خرج إلى مكة ، فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، فأنزلته ، وأكرمته ، وجعل يحرض على قتال رسول الله ﷺ وينشد الأشعار ، ويندب من قتل من المشركين يوم بدر ، فذكر ابن إسحق قصيدته التي أولها :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع

ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين ، ويهجو النبي ﷺ وأصحابه .

وقال موسى بن عقبة : وكان كعب بن الأشرف أحد بني النضير أوفيهم قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاء ، وركب إلى قريش فاستغواهم ، وقال له أبو سفيان وهو بمكة : أناشدك ، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ، وأيّنا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق : إنا نطعم الجزور الكوماء ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبّت الشمال . فقال له كعب بن الأشرف : أنتم أهدى منهم سبيلًا . قال : فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا** ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢] .

قال موسى ومحمد بن إسحق : وقدم للمدينة يعلن بالعداوة ويحرّض الناس على الحرب ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله ﷺ ، وجعل يشبّب بأم الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين .

قال ابن إسحق : فقال رسول الله ﷺ كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة : مَنْ لابن الأشرف ؟ فقال له محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل :

أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال : فافعل إن قدرت على ذلك ، قال : فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه ، فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال : يا رسول الله، قلت لك قولًا لا أدري هل أفي لك به أم لا. قال : إنما عليك الجهد . قال : يا رسول الله ، إنه لا بد لنا أن نقول ، قال : فقولوا ما بدا لكم فأنتم في حلّ من ذلك . قال : فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة ، وسلكان بن سلامة بن وَقْش ، وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل . وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ، وعباد بن بشر بن وَقْش أحد بني عبد الأشهل ، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عبس بن جبر أخو بني حارثة ، قال : فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله كعب ، سلكان بن سلامة أبا نائلة ، فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا شعرًا - وكان أبو نائلة يقول الشعر - ثم قال : ويحك يابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني ، قال : افعل .

قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجُهد عيالنا . فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول ؛ فقال له سلكان : إني قد أردت أن تبيعنا طعامًا ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك ، قال : ترهنوني أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي أصحابًا لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء ، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها . فقال : إن في الحلقة لوفاء . قال : فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحق : فحدثني ثور بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم ، وقال :

« انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم » ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، وهو في ليلة مقمرة ، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه ، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب في ملحفته ، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : أنت امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة ، قال : إنه أبو نائلة ، لو وجدني نائمًا ما أيقظني . فقالت : والله إني لأعرف في صوته الشر . قال : يقول لها كعب : لو دُعي الفتى لطعنة أجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا : هل لك يابن الأشرف أن نتماشى إلى شِعْب العجوز فنتحدث به بقيّة ليلتنا هذه ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا فمشوا ساعة . ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ، ثم شم يده ، فقال : ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قط ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه ، ثم قال : اضربوا عدو الله !

فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا . قال محمد بن مسلمة : فذكرت مغولًا[1] في سيفي فأخذته ، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار ، قال فوضعته في ثُنية ، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه أصابه بعض سيوفنا ، قال : فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ، ثم على بني قريظة ، ثم على بُعاث ، حتى أسندنا في حرة العريض وقد أبطأ علينا الحارث بن أوس ونزفه الدم ، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا . فاحتملناه ، فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي ، فسلمنا عليه ، فخرج إلينا ، فأخبرناه بقتل عدّو الله وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا ورجعنا إلى أهلنا ، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله ؛ فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

وفي ذلك يقول كعب بن مالك :

فغودر منهم كعب صريعًا فذلّت بعد مصرعه النضير
على الكفّين ثم وقـدْ علته بأيدينا مشهرة ذكور

---

(١) نصل طويل .

بأمر محمد إذّ دسّ ليلًا إلى كعب أخا كعب يسيرُ
فماكره فأنزله بمكرٍ ومحمود أخو ثقة جسور(١)

أراد جمع الكفار على قتال رسول الله وقتله ونقض العهد ؛ فكان جزاؤه من جنس عمله .

○ بنو النضير – عليهم لعنة الله – ○

قال ابن إسحق : خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية للعهد الذي كان رسول الله ﷺ أعطاهما ، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف ، فلما أتاهم ﷺ قالوا : نعم ، نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت ، فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد – فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ؛ فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة ، كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعًا إلى المدينة ، فلما استلبث النبيّ ﷺ أصحابه ، قاموا في طلبه ، فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلًا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به . قال الواقدي : فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده ، فبعث إليهم أهل النفاق ، يثبتونهم ، ويحرضونهم على المقام ، ويعدونهم النصر ؛ فقويت عند ذلك نفوسهم وحمي حيي بن أخطب ، وبعثوا إلى رسول الله أنهم لا يخرجون ، ونابذوه بنقض العهود فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم .

قال ابن إسحق : فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال . وتحصنوا في الحصون . فأمر رسول الله ﷺ بالشروع في إتلاف وإحراق اللينة ، أردأ

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ٦ – ٩) .

أنواع نخيل اليهود الذي لا يقتاتون منه ، وهو نوع يخالف العجوة والبرني الذي كان الغذاء الرئيسي لأهل المدينة ، ولم يكد اليهود الدخان يتصاعد وفروع هذه النخيل تتساقط حتى دخلهم الذعر فنادوا أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه ، فما بال النخيل وتحريقها ؟! فأنزل الله عز وجل : ﴿**ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين**﴾ [الحشر : ٥].

ولم يستمر اليهود في المقاومة طويلًا ، فقد خارت قواهم ؛ إذ لم يمض على ضرب الحصار أكثر من عشرين يومًا حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبي ﷺ للتفاوض .

وكانت نهاية التفاوض اتفاقية الجلاء . أن يجلو يهود بني النضير عن منطقة يثرب جلاءً تامًّا إلى أي مكان يشاءون .

أن يسلم اليهود للمسلمين كل ما يمتلكون من سلاح بكافة أنواعه ، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجردين من السلاح تمامًا .

لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله ما عدا السلاح ، مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال .

بعد الذي يقدر اليهود على حمله من المال ، يكون كل ما تبقى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيئًا للمسلمين ، وملكًا من أملاكهم .

على القيادة الإسلامية في اليهود أن تضمن ليهود بني النضير سلامة أرواحهم ، ما داموا في داخل المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين .

وحملوا على الإبل ما يقدرون على حمله ، حتى إن أحدهم صار يعمد إلى عتبة باب داره فيخلعها ، ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق .

أوقر اليهود ستمائة بعير من الأموال التي قدروا على حملها ، خرجوا وكلهم رعب وغيظ يقول سلّام بن أبي الحقيق ، وقد حمل معه جلد ثور مملوء ذهبًا ، فكان يضرب بيده على هذا الجلد ويقول : هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنا تركنا نخلًا ، ففي خيبر النخل .

وكان اليهود يعمدون – عند مغادرتهم المدينة – إلى سُقُفِ بيوتهم وعُمُدها وجدرانها فينقضونها ؛ لئلا يستفيد منها المسلمون .

يقول الله تعالى : ﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ [الحشر : ٢] .

هذه سنة الله في إذلال المفسدين وقهرهم . فهؤلاء اليهود الذين غدروا وتحصنوا بحصونهم ، ولشدة بأسهم ومنعتهم وشدة حصونهم وفرط وثوقهم بها ، اعتقدوا في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يبالون بأحد يطمع في منازعتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب، فجعلهم ﴿يُخْرِبُونَ﴾، أو كما قرأ أبو عمرو (يُخَرِّبُون) بيوتهم ، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم ، فجعلوا يخربونها من داخل والمسلمون من خارج .

نقضوا بيوتهم كالحصون على أبواب الأزقة .

بداية غرتهم منعة الحصون حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون ! فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، أتاهم من داخل أنفسهم ، لا من داخل حصونهم . أتاهم من قلوبهم ؛ فقذف فيها الرعب ، ففتحوا حصونهم بأيديهم وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ، فضلًا على أن يمتنعوا عليه ببنيانه وحصونه .

لقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم ، فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت ؛ يخربونها بأيديهم ، ويمكنون المؤمنين من خرابها ، والجزاء من جنس العمل .

ليقف المشاقون لله ولرسوله ، المخاليق الضئيلة الهزيلة تقف في وجه الخالق يشاقونه . هل بعد هذا تبجح قبيح والله شديد العقاب ؟!

أما الذي أراد رمي الحجر :

فقد ذكر ابن إسحق : أن رسول الله ﷺ قال لليهودي الذي أسلم – يامين : ألم ترى ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني !؟ فجعل يامين لرجل جعلًا على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله ، لعنه الله . والجزاء من جنس العمل .

لقد خزيت بغدرتها الحبور   كذاك الدهر ذو صرف يدورُ

مشردونَ أَبدًا ..

وتائهون أَبدًا ..

مهما طلبْتُمْ لخطاكمْ سَكَنَا

مهما نَهبتُمْ في سُراكمْ وطنَا

فالأرض تحت رِجْسكم دَمارُ

وصمت قبر ، همسه جبارُ

وحين ينقضُّ لديه الثَّارُ

ستصبحون بددًا

محيَّرون أَبدا

وضائعون أَبدا

* * *

مشرودن أَبدا

وتائهون أَبدا

ولعنة الأكوان تَجري في خُطاكم سَرْمدا..

ملَءِ الدروب ، والغيوب ، باغتتكم رصدًا

ينسَلُّ من أَوزاركم ، من كل أُفْق أَو صدَى

شبَّتْ سَدُومُ من حشاكم نارَهُ

وجرَّعتْكُمْ قبل « موسَى » عارَهُ

وفرَّقتكُمْ كي تذوقوا ثارَهُ ..

.. في ظلُماتٍ أَنكرتْ من غيظها وجودكَم

وأَنْشبت في الريح من أَصفادها قيودكمْ

تقذفكم بوَيْلها ، وليلها الضَّرير

في القلق المنبوذ تحت ضيعة المصير

في آهة مصلوبة على صدَى ..

وصوت ذل مستطيرٍ ردَّدا ..
مشتَّتُونَ أُبدا
مُفَتَّتُون أُبَدا

* * *

مشردون أبدا .. وأُبدًا مشردين !
مضيَّعون أُبدا وسرمَدًا مضَيَّعينْ !
بكل نور شَعّ للإنسان كنتم جاحدينْ
لكل إلهامٍ من السماءِ ، رحتم مفسدين
لكل دين أُرسل الله ، ذهبتم منكرين
عن كل شرع من نبي جاءَ ، قمتم مُعْرضين
وكلُّ هادٍ مرَّ بالدنيا ، وقفتم ناقمين ..
« موسي » يناجي الله فوق سينا ،
وأنتم للعِجل ساجدينا ،
محيَّرين التّيهَ أربعينا ..
حتى مُسخْتُم فيه أُجمعينا !
وحين جاءَ خاتَمُ الهُداةِ
من النبيين إلى الحياة ،
بذرتُم السُّمَّ على الراحات
وكنتم مزاحفَ الحياتِ
لمن سرى للنور في الآياتِ
فعاودتكمُ لعنة اللُّعْناتِ
وعدتم للتيه والشتاتِ ..
لا تبصرون في الضلال أُحدًا
ولو تَخذتُمْ كل إفك سنَدَا ..
الكون في طريقكم تبدَّدَا

والناس صاروا لعَنَاتِ وعدَا!
ممزّقون .. أبدا
مطاردون .. أبدا

* * *

مشردون أبدا
وتائهون أبدا
وفي يديكم لم يزل دم السماءِ ينزف الخطيئهْ
على تراب لم تزل أقداسه رغم الدجى مضيئه
مشى عليه عاركم بخطوةٍ أفّاقة دنيئه
متاهةً ، دُنِّس طهرُ الكون من أرجاسها الخبيئَهْ
حطَّتْ بكم خيانةٌ ستحصدون ويْلها
ونوْبة للتيه ، يومًا تشربون ذُلَّها ..
وتعبرُون دربَكُمْ على نعوش « بابل » ...
منذُ مراثي الذل تُشجي وخَزَة السَّلاسل
وأنتُمْ في كل أرض سيرة القلاقلِ
والغدر ، والضياع والشّرور ، والمباذِلِ ..
على سماءِ المسجد الأقصى وفي محرابه
لتدفن اللصوص في غياهب الردَى
فيرجعون للمدَى
مشتَّتين أبدا
مضيَّعين أبدا

* * *

مشرَّدُون أبدا
وتائهون أبدا

مهما استجاروا .. فالمجيرُ لعنة الأقدار
ولعنة الشعوب من سُراهم الغدارِ
ولعنة السماءِ في العشي والإبكارِ
ولعنة الذل .. رمتها قبضة الأحرار
.. يوم يدق الهول باب تائهٍ مشردٍ مخْذُولْ
وتصبح الزنود كالرياح فوق تيه « إسرائيل »
تزفُّها للتيه من جديد
ملعونةً في خطوها الشريدِ
وراية النصر بكفِّ الثائِر
تحدو ضُحاها عزمات الصابر
تشدو .. وتشدو أبدا
مشردون أبدا
وتائهون أبدا(١)

* * *

(١) قيامة الثأر : لمحمود حسن إسماعيل .



فكُلًّا أخذنا بذنبه



□ فكُلًّا أخذنا بذنبه □

○ ابن هانئ الشاعر ○

أحد الشعراء الفجرة ، وشاعر المعز العبيدي الفاطمي .

كان يقول للمعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهّار

وقال له أيضًا :

ندعوه منتقمًا عزيزًا قادرًا   غفار موبقة الذنوب

وقال فيه أيضًا :

رأيتك من ترزقه يُرزقْ من الورى   دراكًا ومَنْ تحرم من الناس يُحرمِ

وقال فيه أيضًا :

أدار كما شاء الورى وتحيّزت   على السبعة الأفلاك أنمله العشر

وقال في هذا القزم أيضًا :

أرى مدحه كالمدح لله إنه   قنوت وتسبيح يحط من الوزر[1]

وقال أيضًا ، قبحه الله وأخزاه :

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريل

ومن ذلك قوله – قال ابن الأثير ولم أرها في شعره ولا في ديوانه :

حلَّ برقادة المسيح   حلَّ بها آدم ونوح

حلّ بها الله ذو المعالي   فكل شيء سواه ريح

فهل أغنى عنه المعزّ ؟

قال ابن كثير : استصحبه المعز الفاطمي من بلاد القيروان حين توجه إلى

---

(١) عصر الدول والإمارات شوقي ضيف (ص ٢٤٤ ، ٢٤٦) .

مصر ، فمات ببعض الطريق ، وجد مقتولًا على حافة البحر في رجب سنة ٣٦٢هـ[1].

ومما قيل في محمد بن هانئ أيضًا :

خرج من القصر فأصيب بمرض ، فكان يعوي كالكلب على فراشه ، ويقول : أنت الواحد القهار ، وأخذ يبكي ويقول :

أبعين مفتقر إليك نظرت لي فأهنتني وقذفتني من حالق

لست الملوم أنا الملوم لأنني علقت آمالي بغير الخالق[2]

من آثر غير الله عُذب به... غضب عليه المعز... وقتل في النهاية والجزاء من جنس العمل .

○ أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ○

المعتزلي قاضي المعتصم ؛ الذي جرّ البلاد إلى محنة خلق القرآن ، وبسببه أهين علماء الأمة وعذبوا وسجنوا وقتلوا .

يقول الشاعر أبو حجاج الأعرابي فيه :

نكست الدين يابن أبي دؤاد فأصبح من أطاعك في ارتداد

زعمت كلام ربك كان خلقا أما لك عند ربك من معاد

كـلام الله أنزلـه بعلـم على جبريل إلى خير العباد

ومن أمسى ببابك مستفيضًا كمن حلّ الفلاة بغير زاد

لقد أطرفت يابـن أبي دؤاد بقولك إنني رجل إيـادي

هذا الذي تكلم في عقيدة أهل السنة وشانها ، وتكلّم في أحمد بن حنبل وعاب معتقده .

يقول الحسين الكرابيسي : مثل الذين يذكرون أحمد بن حنبل ، مثل قوم يجيئون إلى أبي قبيس يريدون أن يهدموه بنعالهم[3].

---

(١) البداية والنهاية (١١ / ٢٩٢) . (٢) احفظ الله يحفظك (٤٩) .

(٣) البداية والنهاية (٣٣٥/١٠) .

وقال الشاعر فيمن يذمون إمام أهل السنة :

فقل للأُلى يَشنَؤنَه لصلاحه وصحته والله بالعذر يعذرُ
جُعلتم فداءً أجمعين لنعله فإنكم منها أذل وأحقر
أريحانة القرّاء تبغون عثرة وكلكم من جيفة الكلب أقذرُ(١)

بسبب ابن أبي دؤاد هذا قتل أحمد بن نصر الخزاعي وسجن الإمام أحمد وعذب بالسياط ، ودعا عليه الإمام أحمد ؛ فحبسه الله في جسده كما حبس الإمام ، ودخل عليه وعاده عبد العزيز الكناني ، وقال له : لم آتك عائدًا، بل لأحمد الله أن سجنك في جلدك(٢).

قال ابن كثير : ابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقي طريحًا في فراشه ، لا يستطيع أن يحرك شيئًا من جسده ، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك(٣) . جعل نصف جسده لو سقط عليه ذباب فكأنما نهشته السباع ، والنصف الآخر لو نهشته السباع لم يحس بها .

وقد دخل عليه بعضهم فقال : والله ما جئتك عائدًا ، وإنما جئتك لأعزيك في نفسك وأحمد الله الذي سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كلّ سجن ، ثم خرج عنه داعيًا عليه بأن يزيده الله ولا ينقصه مما هو فيه ، فازداد مرضًا إلى مرضه . وقد صودر في العام الماضي سنة ٢٣٨ بأموال جزيلة جدا ، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل . وكذا ابنه أبو الوليد محمد ، صودر بألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ومات قبل أبيه بشهر(٤).

وقال في مكان آخر : في سنة سبع وثلاثين ومائتين في ربيع الأول ، أمر الخليفة بالاحتياط على ضياع ابن أبي دؤاد ، وأخذ ابنه أبا الوليد محمد فحبسه

---

(١) مناقب الإمام أحمد (٥٩٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٠ - ١٧١) .

(٣) انظر البداية والنهاية (جـ١٠/ ٣٣٦، ٣٢٩، ٣٣٥) .

(٤) البداية والنهاية (١٠ / ٣٣٦) .

في يوم السبت ، لثلاث خلون من ربيع الآخر ، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار . ومن الجواهر النفيسة ما يقوّم بعشرين ألف دينار ، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم ، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين ، قال ابن جرير : فقال في ذلك أبو العتاهية :

لو كنت في الرأي منسوبًا إلى رشد وكان عزمكَ عزمًا فيه توفيقُ
لكان في الفقه شغل لو قنعت به عن أن تقول كتاب الله مخلوقُ
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ما كان في الفرع[1] لولا الجهل والموق[2]

انظر كيف أذله الله وحبسه في جسده ، وأهين قبل موته ، والجزاء من جنس العمل .

قال الإمام أحمد : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز حين تمر . فلما مات إمام أهل السنة كانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ المسلمين .

قال عبد الوهاب الورّاق : ما بلغنا أنه كان للمسلمين جمع أكثر منهم على جنازة أحمد بن حنبل إلا جنازة كانت في بني إسرائيل[3] . ولما أنزلت رأس أحمد بن نصر من على الصليب كان يومًا مشهودًا وصدّق الله قول أحمد ، فأحمد بن أبي دؤاد وهو قاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته ، ولم يلتفت إليه . ولمّا مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان[4] ، جزاءً وفاقًا .

○ محمد بن عبد الملك الزيات ○

كان من العصبة التي كان لها يد في سجن علماء الأمة وتعذيبهم ، وعلى رأسهم إمام أهل السنة.

روى الطبري في تاريخه ، عنه :

---

(١) ليس في الفرع والله ، فإنه في صلب العقيدة وفي باب الصفات .
(٢) الموق : الحمق في غباوة .
(٣) مناقب الإمام أحمد ص ٥٠٤ .
(٤) البداية والنهاية (١٠ / ٣٥٦) .

أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد قيام ، فذكر عن ابن أبي دؤاد وأبي الوزير أنهما قالا : هو أول من أمر بعمل ذلك ، فعذب به ابن أسباط المصري حتى استخرج منه جميع ما عنده ، ثم ابتلي به فعذب به أيامًا(١) .

وقال الذهبي في ترجمته :

وكان يقول بخلق القرآن ، ويقول : ما رحمت أحدًا قط ، الرحمة خور في الطبع ، فسجن في قفص حَرِج ، جهاته مسامير كالمَسالِّ ، فكان يصيح ارحموني ، فيقولون : الرحمة خور في الطبيعة(٢) .

الجزاء من جنس القول والعمل :

عن مسعر بن محمد بن وهب ، وكان مؤدبًا للخليفة المتوكل قبل أن يلي الخلافة :

جلس- المتوكل- في مجلسه، وجلس عن يمينه الفتح بن خاقان وعبيد الله ابن خاقان ، وعن يساره بغا الكبير ووصيف ، وأنا واقف في زاوية البيت اليمنى مما يليه ، وخادم آخذ بعضادة الباب واقف ، إذ ضحك المتوكل فأرم القوم وسكتوا ، فقال : ألا تسألوني مم ضحكت ، فقالوا : مم ضحك أمير المؤمنين أضحك الله سنه ؟ فقال : أضحكني أني ذات يوم واقف على رأس الواثق ، وقد قعد للخاصة في مجلسي الذي كنت فيه جالسًا ، وأنا واقف على رأسه ، إذ قام من مجلسه فجاء حتى دخل هذا البيت الذي دخلته فجلس في مجلسه هذا ، ورمت الدخول فمنعت ووقفت حيث الخادم واقف ، وجلس ابن أبي دُؤاد في مجلسك يا فتح ، وجلس محمد بن عبد الملك الزيات في مجلسك يا عبيد الله ، وجلس إسحق بن إبراهيم في مجلسك يابغا ، وجلس نجاح في مجلسك يا وصيف ، إذ قال الواثق : والله لقد فكرت فيما دعوت الناس إليه ، من أن القرآن مخلوق ،

---

(١) تاريخ الطبري (٥ / ٢٩٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٣) .

وسرعة إجابة من أجابنا ، وشدة خلاف من خالفنا ، حتى حملنا من خالفنا على السوط والسيف والضرب الشديد والحبس الطويل ، ولا يردعه ذلك ولا يرده إلى قولنا فوجدت من أجابنا رغب فيما في أيدينا ، وأسرع إلى إجابتنا رغبة فيما عندنا ، ووجدت من خالفنا منعه دين وورع عن إجابتنا وصبر على ما يناله من القتل والضرب والحبس ، فوالله لقد دخل قلبي من ذلك أمر شككت فيما نحن فيه ، وفي محنة من نمتحنه ، وعذاب من نعذبه في ذلك ، حتى هممت بترك ذاك والكلام والخوض فيه ، ولقد هممت أن آمر بالنداء في ذلك وأكف الناس بعضهم عن بعض ، فبدأ ابن أبي دؤاد فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ! أن تميت سنة قد أحييتها ، وأن تبطل دينا قد أقمته ، ولقد جهد الأسلاف فما بلغوا فيه ما بلغت ، فجزاك الله عن الإسلام والدين خير ما جزى وليا من أوليائه .

ثم أطرقوا رؤوسهم ساعة يفكرون في ذلك ، إذ بدأ ابن أبي دؤاد - وخاف أن يكون من الواثق في ذلك أمر ينقض عليه ، ويفسد عليه مذهبه . فقال : والله يا أمير المؤمنين ، إن هذا القول الذي نحن عليه ، ندعو إليه الناس لهو الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله ، وبعث به محمدًا نبيه ﷺ ولكن الناس عمُوا عن قبوله . فقال الواثق : فإني أريد أن تباهلوني على ذلك ، فقال ابن أبي دؤاد : ضربه الله بالفالج في دار الدنيا قبل الآخرة ، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقّا من أن القرآن مخلوق .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات : وهو ، فسمر الله يديه بمسامير من حديد في دار الدنيا قبل الآخرة ، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقّا من أن القرآن مخلوق .

فقال إسحق بن إبراهيم : وهو ، فأنتن الله ريحه في دار الدنيا حتى يهرب منه حميم وقريب ، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقّا من أن القرآن مخلوق .

وقال نجاح : وهو ، فقتله الله في أضيق محبس إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقّا من أن القرآن مخلوق .

ودخل عليهم إيتاخ وهم في ذلك فأخذوه على البديهة وسألوه عن ذلك ، فقال : وهو ، فغرقه الله في البحر إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقًّا من أن القرآن مخلوق .

وقال الواثق : وهو ، فأحرق الله بدنه بالنار في دار الدنيا قبل الآخرة ، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقًّا من أن القرآن مخلوق .

فأضحك ، أنه لم يدع أحد منهم يومئذ بدعوة على نفسه إلا استجيبت .

أما ابن أبي دؤاد : فقد رأيت ما نزل به ، وما ضربه الله به من الفالج .

وأما ابن الزيات : فأنا أقعدته في تنور من حديد ، وسمرت يديه بمسامير من حديد .

وأما إسحق بن إبراهيم : فإنه مرض مرضه الذي مات فيه ، فأقبل يعرق عرقا منتنا حتى هرب منه الحميم والقريب ، وكان يلقى عليه كل يوم عشرون غلالة فتؤخذ منه ،وهي مثل الجيفة فيرمى بها في دجلة لا ينتفع بها ، تتقطع من شدة النتن والعرق .

وأما نجاح ، فأنا بنيت له بيتا ، ذراعًا في ذراعين حتى مات فيه .

وأما إيتاخ : فأنا كتبت إلى إسحق بن إبراهيم وقد رجع من الحج ، كبله بالحديد وغرقه .

وأما الواثق : فإنه كان يحب النساء وكثرة الجماع ، فوجه ذات يوم إلى ميخائيل الطبيب ، فدعي له ، فدخل عليه وهو نائم في مشرفة وعليه قطيفة خز ، فوقف بين يديه فقال : يا ميخائيل ابغنى دواء للباءة . فقال : يا أمير المؤمنين بدنك فلا تهده ، فإن كثرة الجماع تهد البدن ، ولا سيما إذا تكلف الرجل ذلك ، فاتق الله في بدنك وأبق عليه ، فليس لك من بدنك عوض . فقال له : لا بد منه ثم رفع القطيفة عنه ، فإذا بين فخذيه وصيفة قد ضمها إليه ، ذكر من جمالها وهيئتها أمرًا عجبًا . فقال : من يصبر عن مثل هذه ؟ قال : فإن كان ولا بد فعليك بلحم السبع ، فأمر أن يؤخذ لك منه رطل فيغلى سبع غليات بخل خمر عتيق، فإذا جلست على شرابك أمرت أن يوزن لك منه ثلاثة دراهم فانتقلت

به على شربك في ثلاث ليال ، فإنك تجد فيه بغيتك ، واتق الله في نفسك ولا تسرف فيها ولا تجاوز ما أمرتك به .

فلهي عنه أيامًا ، فبينا هو ذات ليلة جالس على شرابه إذ ذكره فقال : عليّ بلحم السبع الساعة فأُخرج له سبع من الجبّ وذبح من ساعته ، فأمر فكبكب له منه ، ثم أمر فأغلي له منه بالخل ، ثم قدر له منه ، فأخذ ينتقل به على شرابه ، وأتت عليه الأيام والليالي فسقى بطنه ، فجمع له الأطباء ، فأجمع رأيهم على أنه لا دواء له إلا أن يَسجر تنور بحطب الزيتون ، ويشحن حتى يمتلىء جمرًا، فإذا امتلأ كسح ما في جوفه فألقي على ظهره وحشي جوفه بالرطبة ، ويقعد فيه ثلاث ساعات من النهار ، فإن استسقى ماء لم يسق ، فإذا مضت ثلاث ساعات كوامل أخرج منها وأجلس جلسة منتصبة على نحو ما أمروا به ، فإذا أصابه الروح وجد لذلك وجعًا شديدًا وطلب أن يرد إلى التنور فترك على حالته تلك ولا يرد إلى التنور حتى تمضي ساعتان من النهار ، فإنه إذا مضى ساعتان من النهار جرى ذلك الماء وخرج من مخارج البول ، وإن سقى ماء أو رُدَّ إلى التنور كان تلفه فيه .

فأمر بالتنور فأخذ له ، وعري وأجلس فيه ، وأقبل يصيح ويستغيث ويقول : أحرقتموني اسقوني ماء ، وقد وكل به من يمنعه الماء ولا يدعه أن يقوم من موضعه الذي أقعد فيه ولا يتحرك . فتنفط بدنه كله فصارت فيه نفاخات مثل أكبر البطيخ وأعظمه ، فترك على حالته حتى مضت له ثلاث ساعات من النهار ، ثم أخرج وقد كاد يحترق ، أو يقول القائل في رأي العين قد احترق ، فأجلسه المتطببون ، فلما وجد روح الهواء اشتد به الوجع والألم وأقبل يصيح ويخور خوار الثور ويقول : ردوني إلى التنور فإني إنْ لم أردّ مِتُّ فاجتمع نساؤه وخواصه لما رأوا به من شدة الألم والوجع وكثرة الصياح فرجوا أن يكون له فرجة في أن يرد إلى التنور ، فردوه إلى التنور ثانية ، فلما وجد مس النار سكن صياحه وتفطرت النفاخات التي كانت خرجت ببدنه وخمدت ، وبرد في جوف التنور فأخرج من التنور ، وقد احترق ، وصار أسود كالفحم ، فلم تمض به ساعات حتى قضي .

فأضحك ، أنه لم يَدْعُ أحد منهم على نفسه في تلك الساعة بدعاء إلا استجاب الله له في نفسه[١].

○ ابن العلقمي الرافضي الخبيث ○

زالت - من أثر خيانته - الخلافة العباسية ببغداد سنة ست وخمسين وستمائة على يد هولاكو وقتل الخليفة المستعصم بالله .

كان أول من برز إلى التتار هو ، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه ، فاجتمع بهولاكو لعنه الله ، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة ، وكان قدوم هولاكو لبغداد في ثاني عشر المحرم ومعه نحو مائتي ألف مقاتل .

فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة ، والفقهاء ، والصوفية ، ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان ، فلما اقتربوا من منزل هولاكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبع عشرة نفسًا ، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم ، وأُحضر الخليفة بين يدي هولاكو ، فسأله عن أشياء كثيرة ، فيقال أنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت ، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجه نصير الدين الطوسي والوزير ابن العلقمي وغيرهما ، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة ، فأحضر من دار الخليفة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة ، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو ألّا يصالح الخليفة ، وقال الوزير : متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين ، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسّنوا له قتل الخليفة ، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله ، ويقال : إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ، والمولى نصير الدين الطوسي - وكان هولاكو قد انتخب النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير - فلما قدم هولاكو وتهيّب من قتل الخليفة ، هوّن عليه

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (٥٨٦ - ٥٩٠) .

الوزير ابن العلقمي ذلك فقتلوه رفسا ، وهو في جوالق ؛ لئلا يقع على الأرض شيء من دمه ، وقيل : بل خنق ، ويقال : بل أغرق ، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، ثم ولده عبد الرحمن وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر . وقتل أستاذ دار الخلافة محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي ، وقتل أولاده الثلاثة ، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة .

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال ، والنساء ، والولدان ، والمشايخ ، والكهول، والشبان، وسادات العلماء، والقضاة ، والأكابر ، والرؤساء ، والأمراء وأولي الحل ، والعقد .

ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقني الوسخ ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون ، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار ، إما بالكسر ، وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة ، فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة . وكذلك في المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم ، وإلى دار الوزير ابن العلقمي ، وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا ، بذلوا عليه أموالًا جزيلة ، وعادت بغداد - بعد ما كانت آنس المدن كلها - كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس ، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة ، وكان الوزير ابن العلقمي - قبل هذه الحادثة - يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان إلى أن لم يبق سوى عشر آلاف ، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد ، ثم كاتب التتار ، وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليه ذلك ، وحكى لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال ، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السّنة بالكلية ، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين والله غالب على أمره، وقد ردّ كيده في نحره ، وأذله بعد العزة القعساء ، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيرًا

للخلفاء ، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال ، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين- في هذه الوقعة- فقيل : ثمانمائة ألف، وقيل : ألف ألف وثمانمائة، وقيل : بلغت القتلى ألفي ألف نفس ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا .

وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد ، وأراد الوزير ابن العلقمي - قبحه الله ولعنه - أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد ، ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض ، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون عِلمهم وعَلَمَهم بها وعليها ، فلم يقدره الله تعالى على ذلك ، بل أزال نعمته ، وقصف عمره بعد شهور يسيره من هذه الحادثة ، وأتبعه بولده فاجتمعا ، والله أعلم بالدرك الأسفل من النار .

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يومًا ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس ، والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد ، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو ، وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولما نودي ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر ، كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى .

ورحل هولاكو إلى مقر ملكه ، وفوّض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادر ، فوض إليه الشحنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمي ، فلم يمهله الله ولا أهمله ، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر ، فمات جهدًا وغما وحزنًا وندمًا إلى حيث ألقت رحلها أم قعشم ، فولي بعده الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد ، فألحقه الله

بأبيه في بقية هذا العام ، ولله الحمد والمنّة[١] .

ويقول عنه ابن كثير أيضًا :

محمد بن أحمد بن علي بن أبي طالب ، الوزير مؤيد الدين أبو طالب ابن العلقمي وزير المستعصم . ثم صار وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين . وكان رافضيًا خبيثًا رديء الطوية على الإسلام وأهله ، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء ، ثم مالأ على الإسلام وأهله الكافر هولاكو خان .

ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار ، الذين مالأهم ، وزال عنه ستر الله ، وذاق الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان وهو راكب في أيام التتار برذونًا وهو مرسم عليه ، وسائق يسوق به ويضرب فرسه ، فوقفت إلى جانبه ، وقالت له : يابن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك ؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع إلى داره إلى أن مات كمدا وغبينة وضيقًا ، وقلة وذلة ، وسمع بأذنيه ، ورأى بعينيه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يجد ولا يوصف ، وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة ، ثم أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعًا ، وقد هجاه بعض الشعراء ، فقال فيه :

يا فرقة الإسلام نوحوا واندبوا ... أسفًا على ما حلّ بالمستعصم[٢]
دستُ الوزارة كان قبل زمانه ... لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وقال عنه الذهبي :

الوزير الكبير المدبر المبير مؤيد الدين محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب بن العلقمي . أفشى الرفض فعارضته السنّة وأُكبِت ، فتنمّر ، ورأى أن هولاكو على قصد العراق فكاتبه وحبّره وقوى عزمه على قصد العراق ، ليتخذ عنده يدًا ، وليتمكن من أغراضه ، وحفر للأمة قَليْبًا فأوقع فيه قريبًا ، وذاق

---

(١) البداية والنهاية (١٣/٢١٣-٢١٧).
(٢) البداية والنهاية (٣/٢٢٥-٢٢٦).

الهوان ، وبقي يركب كديشًا وحده ، بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب سلطان ، فمات غبنًا وغمًّا بعد الكائنة بثلاثة أشهر وهلك ، وفي الآخرة أشد خزيًا وأشد تنكيلًا »[1] والجزاء من جنس العمل .

بقدر إجلالك لله يجلك الله ، وبقدر التطاول يذلك

قال ابن الجوزي :

إخواني اسمعوا نصيحة من قد جرّب وخبر :

إنه بقدر إجلالكم لله عز وجل يجلكم ، وبقدر تعظيم قدره واحترامه يعظم أقداركم وحرمتكم[2] وبقدر الاستهانة بشرع الله والتطاول على كتابه وسنته ، ونفي ما أثبته لنفسه ، يلحق الهوان بالمبتدعة .

○ الجعد بن درهم[3] ○

قال السيوطي في كتاب الأوائل : أول من تفوه بكلمة خبيثة في الاعتقاد - يعني : في الإسلام - الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك بني أمية ، فقال : بأن الله لا يتكلم .

وهو أول من قال بخلق القرآن ، وأنكر أن يكون الله قد تكلم به ، وأنكر أن يكون اتخذ إبراهيم خليلًا .

وهو أول من تكلم في صفات الله عز وجل وأنكرها . ولما كثرت أسئلته عن صفات الله قال له وهب بن منبه : ويلك يا جعد ! قصر المسألة عن ذلك إني لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله أن له يدًا ، وأن له عينًا ما قلنا ذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن أول ما حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام - أعني : أن الله ليس على العرش حقيقة ، وأن معنى استوى بمعنى : استولى ونحو ذلك - الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/٣٦١-٣٦٢). (٢) صيد الخاطر ص ١٩٤ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥/٢٠)، ولوامع الأنوار البهية (١/٢٢٣) والنونية (١/٢٩) وسير أعلام النبلاء (٥/٤٣٣)، والبداية والنهاية (٩/٣٥٠)، والبداية والنهاية (١٠/١٩).

فنسبت مقالة الجهمية إليه.

وقال ابن كثير : كان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له : أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد ابن الأعصم عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي .

قال ابن القيم في نونيته عن الجهمية وشيخهم الجعد :

وكذاك قالوا ما له من خلقه أحد يكون خليله النفساني

وخليله المحتاجُ عندهم وفي ذا الوصف يدخل عابدُ الأوثان

فالكل مفتقر إليه لذاته في أسر قبضته ذليل عان

ولأجل ذا ضحّى بجعدٍ خالدُ الْـ قَسْرِيُّ يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله كَلّا ولا موسى الكليم الداني

شكَرَ الضحية كلُّ صاحب سنة لله درك من أخي قربان

حرفوا الكلم عن مواضعه فقالوا : إن معنى الخليل في قوله تعالى : ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلًا﴾ [النساء : ١٢٥] الفقير المحتاج ، ولا شك في فساد هذا التأويل ، إذ لا يكون حينئذ لتخصيص إبراهيم بالخلة معنى ، فإن الفقر والاحتياج لازم لجميع الخلق لزومًا ذاتيا ، وبذلك يكون وصف الخلة متناولًا لجميعهم حتى عبدة الأوثان الذين هم ألد أعداء الرحمن .

وأي ذنب أعظم من هذا ، وإهانة لخليل الرحمن عليه السلام ، فذبح في يوم شرف وعز الخليل في سنة ١٢٤هـ . ضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق بواسط في يوم الأضحى حيث قال :

أيها الناس ، اذهبوا إلى أضاحيكم ، يتقبل الله منكم ، فإني مُضَحٍّ بالجعد ابن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولا كلّم موسى تكليمًا . ثم نزل فذبحه ، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من التابعين ، فشكر له صنيعه أهل السنة والجماعة[1].

---

(١) شرح النونية للهراس (١ / ٣٠) .

○ جهم بن صفوان ○

تبنى الجهم آراء الجعد بن درهم ثم زاد عليها بدعًا أخرى :

الأولى : القول بالجبر ؛ حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور على أفعاله .

الثانية : القول بأن الإيمان هو المعرفة ؛ حيث زعم أن الإيمان وهو المعرفة بالله تعالى فقط ، وأن الكفر هو الجهل به فقط .

الثالثة : القول بفناء الجنة والنار بعد دخول أهلهما فيهما .

الرابعة : القول بأن علم الله حادث ؛ حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه[1] .

قال إبراهيم بن طهمان : ما ذكرته ولا ذكر عندي إلا دعوت الله عليه ، ما أعظم ما أورث أهل القبلة من منطقه العظيم .

انظر ما قال شيخ الإسلام المبارك ابن قيم الجوزية عن أبي محرز الراسبي جهم بن صفوان أس الضلالة ، ورأس الجهمية :

جهمُ بن صفوانٍ وشيعته الأُولى ... جحدوا صفاتِ الخالق الديّانِ

بل عطّلوا منه السموات العُلى ... والعرش أخلوه من الرحمنِ

ونفوا كلامَ الربِّ جلا جلاله ... وقضوا له بالخلق والحدثانِ

والعبد عندهم فليس بفاعل ... بل فعله كتحرك الرجفانِ

وهبوب ريحٍ أو تحرك نائمٍ ... وتحرك الأشجار للميلانِ

والله يصليه على ما ليس من ... أفعاله حر الحميم الآنِ

لكن يعاقبه على أفعالهِ ... فيه تعالى الله ذو الإحسانِ

قالوا وإقرار العباد بأنه ... خلّاقهم هو منتهى الإيمانِ

والناس في الإيمان شيء واحدٌ ... كالمشط عند تماثل الأسنانِ

فاسألْ أبا جهل وشيعته ومَنْ ... والاهمُ من عابدي الأوثانِ

---

(١) الفرق بين الفرق (٢١١ ، ٢١٢) .

وسلِ اليهود وكل أقلف مشرك عبد المسيح مقبّل الصلبانِ
واسأل ثمود وعاد بل سَلْ قبلهمْ أعداء نوحٍ أمة الطوفانِ
واسأل أبا الجن اللعين أتعرف الْـ ـخلّاق أم أصبحت ذا نكرانِ
واسأل شرار الخلق أغلى أمة لوطية هم ناكحو الذكرانِ
واسأل كذاك إمام كل معطلٍ فرعون معْ قارون معْ هامانِ
هل كان فيهم منكر للخالق الـرَّب العظيم مكون الأكوانِ
فليُبشروا ما فيهمُ من كافرٍ هم عند جهمٍ كاملو الإيمانِ
وقضى بأن الله كان معطلًا والفعل ممتنع بلا إمكانِ
ثم استحال وصار مقدورًا له من غير أمرٍ قام بالديانِ
وقضى بأن النار لم تخلق ولا جنات عدن بل هما عدمانِ
فإذا هما خُلِقَا ليوم معادِنا فهما على الأوقات فانيتانِ
ما ذا الذي في ضمن ذا التعطيل من نفي ومن جحدٍ ومن نكران
وأتى إلى الكفر العظيم فصاغه عجلًا ليفتن أمة الثيران
وكساه أنواع الجواهر والحِلَى من لؤلؤٍ صافٍ ومن عِقيانِ
فرآه ثيران الورى فأصابهم كمصاب إخوتهم قديم زمان
عجلان قد فتنا العباد بصوته إحداهما وبحرفه ذا الثاني[1]

قتل هذا الخبيث مع الحارث بن سريج ضد بني أمية .

قال ابن كثير : فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان ، طعنه رجل في فيه فقتله[2] .

والجزاء من جنس العمل.. هذا الفم الذي أخرج زبالات الأذهان يطعن.

ويقال : بل أسر الجهم ، فأوقف بين يدي سلم بن أحوز ، فأمر بقتله ، فقال : إن لي أمانًا من أبيك ، فقال : ما كان له أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب ، وأنزلت عيسى ابن مريم ما نجوت، والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله[2] وفي رواية ابن

---

(١) النونية لابن القيم .

(٢) البداية والنهاية (١٠/٢٨) .

جرير: وأبرأك إلّي عيسى ابن مريم ما نجوت[١].

وقال الذهبي : إن سلم بن أحوز قتل الجهم لإنكاره أن الله كلّم موسى[٢].

○ غيلان الدمشقي القدري ○

قال ﷺ : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[٣] .

قال أبو جعفر الخطمي : شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه في القدر ، فقال له : ويحك يا غيلان ، ما هذا الذي بلغني عنك ؟

قال : يكذب عليّ يا أمير المؤمنين ، ويقال عليَّ ما لا أقول .

قال : ما تقول في العلم ؟

قال : نفد العلم .

قال : أنت مخصوم اذهب الآن ، فقل ما شئت ، يا غيلان ، إنك إن أقررت بالعلم خُصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تُقِرَّ به فتخصم خير لك من أن تجحد فتكفر .

ثم قال له : أتقرأ يسٓ ؟

قال : نعم .

قال : اقرأ .

قال : فقرأ : ﴿ يسٓ والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ [يس : ١-٧] .

قال : قف ، كيف ترى ؟ .

قال : كأني لم أقرأ هذه الآية يا أمير المؤمنين

---

(١) تاريخ الطبري (٤ / ٢٩٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٦ / ٢٧) .

(٣) حسن : حسنه الألباني بمجموع الطرق ، حاشية الطحاوية صـ ٣٠٤ .

قال : زد .

فقرأ : ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالًا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا** ﴾ [يس : ٨- ٩] .

فقال له عمر : قل : ﴿ **سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ [يس : ٩ - ١٠] .

قال : كيف ترى ؟

قال : كأني لم أقرأ هذه الآيات قط ، وإني أعاهد الله ألا أتكلم في شيء مما كنت أتكلم فيه أبدًا .

قال : اذهب .

فلما ولى قال : اللهم ، إن كان كاذبًا بما قال فأذقه حر السلاح .

قال : فلم يتكلم زمن عمر ، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلًا لا يهتم بهذا ، ولا ينظر فيه .

قال : فتكلم غيلان .

فلما ولي هشام أرسل إليه فقال : أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم في شيء من هذا أبدًا ؟

قال : أقلني فوالله لا أعود .

قال : لا أقالني الله إن أقلتك ، هل تقرأ فاتحة الكتاب ؟

قال : نعم .

قال : اقرأ : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ [الفاتحة : ٢] .

فقرأ : ﴿ **الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

قال : قف . علام استعنته ؟ على أمر بيده لا تستطيعه ، أو على أمر في يدك - أو بيدك ؟ .

اذهبا فاقطعا يديه ورجليه ، واضربا عنقه ، واصلباه[1] .

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣ / ٤١٤ - ٤١٥) الأثر ١٣٢٥ .

وفي رواية أخرى: ويحك يا غيلان، أراني أبلغ عنك. ويحك يا غيلان، أراني أبلغ عنك . ويحك يا غيلان ، أراني أبلغ عنك .

وقال له : ويحك ، فإنك آمن ، وأمره أن يجلس فجلس .

وجعل عمر يسأله ، وغيلان يرفع بصره إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة ، وانتفخت أوداجه .

فقال : ما يمنعك أن تتكلم وقد جعلت لك الأمان ؟ .

فقال غيلان : استغفر الله وأتوب إليه ، ادع الله لي بالمغفرة .

فقال : اللهم ، إن كان عبدك صادقًا فوفقه وسدده ، وإن كان كاذبًا أعطاني بلسانه ما ليس في قلبه ، بعد أن أنصفته ، وجعلت له الأمان ، فسلّط عليه من يمثل به .

وفي رواية: اللهم، إن كان صادقًا فتب عليه، وإن كان كاذبًا فاجعله آية للمؤمنين .

قال : فصار من أمره بعد أن قطع لسانه وصلب[1].

قطع لسانه ، والجزاء من جنس العمل .

عن رجاء بن حيوة أنه كتب لهشام بن عبد الملك أمير المؤمنين : بلغني أنه دخلك من قبل غيلان وصالح ، فأقر بالله ، لقتلهما أفضل من قتل ألفين من الترك والديلم .

عن إبراهيم بن أبي عبلة قال: كنت عند عبادة بن نُسي، فأتاه آت، فقال : إن أمير المؤمنين قد قطع يد غيلان ورجليه ، وصلبه .

قال ما تقول ؟.

قال : قد فعل .

قال عبادة: أصاب والله فيه القضية والسنة، ولأكتبن إليه، فلأحسنن له[2].

قال خالد بن اللجلاج لغيلان : ويحك يا غيلان ، ألم يأخذك في شبيبتك

---

(١) (٢) شرح أصول الاعتقاد (٣ / ٧١٦ - ٧١٧) .

ترامي النساء في شهر رمضان بالتفاح ، ثم صرت حارثيًا[١] تحجب امرأة ، وتزعم أنها أم المؤمنين ، ثم تحولت من ذلك فصرت قدريا زنديقًا[٢] .

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية : أن المسلمين أقاموا الحجة على غيلان ، وناظروه ، وبينوا له الحق ، كما فعل عمر بن عبد العزيز واستتابه ، ثم نكث بعد التوبة فقتلوه[٣] .

وهو ثاني من تكلم في القدر بعد معبد الجهني ، ولقد ناظره الأوزاعي ، وأفتى بقتله ، فصلب بعد سنة ١٠٥هـ[٤] .

○ كل صاحب بدعة ذليل ○

معبد الجهني

قال ابن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل ، قال الله تعالى : ﴿ **إنَّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾ [الأعراف : ١٥٢] .

هذا جزاء من استهان بالشرع والوحي .

عن أبي الزبير قال : كنا نطوف مع طاووس فمررنا بمعبد الجهني .

قال : فقيل لطاووس : هذا معبد الذي يقول بالقدر .

قال : فقال له طاووس : أنت المفتري على الله بما لا تعلم ؟

قال : فقال : يُكذب عليّ .

قال : فدخلنا على ابن عباس ، فقال له طاووس : يا أبا عباس ، الذين يقولون في القدر ؟ .

فقال : أروني بعضهم .

قال : صانع ماذا ؟

---

(١) من أتباع الحارث بن سعيد الذي ادعى النبوة .

(٢) شرح أصول الاعتقاد (٣/٧١٨). (٣) درء التعارض (٧ / ١١٧٣) .

(٤) تحقيق كتاب السنة للإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل للدكتور القحطاني ص ٣٨٦ .

قال : أُدخل يدي في رأسه ثم أدق عنقه .

وعنه : أُدخل يدي في عينيه فأقلعهما ولا نصونه[١].

○ بشر المريسي ○

قال عنه ابن كثير : شيخ المعتزلة ، وأحد من أضل المأمون[٢] .

وقال الذهبي : جرّد القول بخلق القرآن ، ودعا عليه ، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم ، فمقته أهل العلم ، وكفّره عدة ، ولم يدرك جهم ابن صفوان بل تلقف مقالاته من أتباعه[٣].

قال رجل ليزيد بن هارون : عندنا ببغداد رجل يقال له : المريسي ، يقول : القرآن مخلوق .

فقال : ما في فتيانكم مَنْ يفتك به ؟

قلت : قد أخذ المريسي في دولة الرشيد ، وأهين من أجل مقالته .

قال المروزي : سمعت أبا عبد الله ، وذكر المريسي ، فقال : كان أبوه يهوديّا ، أي شيء تراه يكون ؟

وقال أبو عبد الله : كان بشر يحضر مجلس أبي يوسف ، فيصيح ويستغيث ، فقال له أبو يوسف مرة : لا تنتهي أو تُفسد خشبة[٤] يعني وتصلب[٥] . فهو بشر الشر ، وبشر الحافي بشر الخير ، كما أن ابن حنبل أحمد السنة ، وابن أبي دؤاد أحمد البدعة .

---

(١) شرح أصول الاعتقاد (٤ / ٧١٢) .

(٢) البداية والنهاية (١٠ / ٢٩٤) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٢٠٠) .

(٤) سير أعلام البنلاء (١٠ / ٢٠١) .

(٥) ميزان الاعتدال (١ / ٣٢٣) ، وفي تاريخ بغداد (٧ / ٦٣) حتى تصعد خشبة .

○ الحـــلاج ○

هو الحسين بن منصور بن محمي الحلاج أبو مغيث ، رأس أهل الحلول والاتحاد .

قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى ، ولهذا دخل على الحلاج الحلول فصار من أهل الانحراف .

صح عنه أنه دخل إلى الهند وتعلم بها السحر ، وقال : أدعو به إلى الله ، وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث ، ويكاتبه أهل سركسان بالمقيت ، وأهل خراسان بالمميز ، وأهل فارس بأبي عبد الله الزاهد ، وأهل خوزستان بحلّاج الأسرار ، وكان بعض البغدادة يقولون له : المصطلم ، وأهل البصرة يقولون له : المحير .

ومن شعره :

سبحان من أظهر ناسوته ... سرُّ سَنا لاهوته الثاقبِ

ثم بدا في خلقه ظاهرًا ... في صورة الآكل والشاربِ

حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجبِ

قال عمرو بن عثمان المكي : كنت أماشي الحلاج في بعض أزقة مكة ، وكنت أقرأ القرآن ، فسمع قراءتي فقال : يمكنني أن أقول مثل هذا. ففارقته.

وقال القشيري في رسالته في باب حفظ قلوب المشايخ : إن عمرو بن عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئًا في أوراق ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : هو ذا أعارض القرآن .

وكتب عمرو بن عثمان إلى الآفاق كتبًا كثيرة يلعنه فيها ، ويحذر الناس منه ، فشرد الحلاج في البلاد ، فعاث يمينًا وشمالًا ، وجعل يظهر أنه يدعو إلى الله ، ويستعين بأنواع من الحيل ، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحل الله به بأسه

الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، فقتله بسيف الشرع الذي لا يقع إلا بين كتفي زنديق ، والله أعدل من أن يسلطه على صدّيق ، فكيف وقد تهجم على القرآن العظيم ، وقد أراد معارضته في البلد الحرام حيث نزل به جبريل ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ [الحج : ٢٥] ولا إلحاد أعظم من هذا . وقد أشبه الحلاج كفار قريش في معاندتهم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾[1] [الأنفال : ٣١] .

قال الذهبي : كان يصحح حاله ابن عطاء ، ومحمد بن حفيف ، وإبراهيم أبو القاسم النصر آباذي وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء ؛ لسوء سيرته ومُروقه ، ومنهم من نسبه إلى الحلول ، ومنهم من نسبه إلى الزندقة ، وإلى الشعبذة والزُّوكرة ، وقد تستَّر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال ، وانتحلو، وروّجوا به على الجهال .

وقال له الجنيد يومًا : أي خشبة تفسدها ؟ يريد أنه يصلب .

وقال عنه إبراهيم بن شيبان : من أحب أن ينظر إلى ثمرات الدعاوي الفاسدة ، فلينظر إلى الحلاج وما صار إليه .

وكان يقول : ما انفصلت البشرية عنه ولا اتصلت به .

لما أحضره الوزير علي بن عيسى فلم يجده يحسن القرآن والفقه ولا الحديث ، فقال : تعلمك الفرض والطّهور أجدى عليك من رسائل لا تدري ما تقول فيها ، كم تكتب ...؟ ويلك إلى الناس، تبارك ذو النور الشعشعاني ! ما أحوجك إلى أدب ! وأمر به فصلب ، ووجد في كتبه : إني مغرق قوم نوح، ومهلك عادًا وثمود .

---

(١) ترجمة الحلاج كاملة مفصلة في سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣١٣ - ٣٥٥) ، البداية والنهاية (١١ / ١٤١ - ١٥٤) وهنا سأجمع بين الكتابين وأنقل مقتطفات .

وكان يقول للواحد من أصحابه : أنت نوح ، ولآخر : أنت موسى ولآخر : أنت محمد .

قال ابن عقيل : قد قتل بإجماع فقهاء عصره ، فأصابوا وأخطأ هو وحده .

صفة مقتل الحلاج :

قال الخطيب البغدادي : كان الحلاج قد قدم آخر قدمة إلى بغداد ، فصحب الصوفية وانتسب إليهم ، وكان الوزير إذ ذاك حامد بن العباس ، فبلغه أن الحلاج قد أضل خلقًا من الحشم والحجاب في دار السلطان ، ومن غلمان نصر القشوري الحاجب ، وجعل لهم في جملة ما ادعاه أنه يحيي الموتى ، وإن الجن يخدمونه ، ويحضرون له ما شاء . وقال : إنه أحيا عدة من الطير ، وسلم إلى الوزير حامد بن العباس ، فحبسه في قيود كثيرة في رجليه ، وجمع له الفقهاء ، فأجمعوا على كفره وزندقته وأنه ساحر ممخرق .

ولما كان آخر مجلس ، أحضر الوزير حامد بن العباس القاضي أبا عمر محمد بن يوسف وجيء بالحلاج ، وقد أحضر له كتابًا من دور بعض أصحابه وفيه : ومن أراد الحج ولم يتيسر له ، فليبن في داره بيتا لا يناله شيء من النجاسة ، ولا يمكن أحدًا من دخوله ، فإذا كان في أيام الحج فليصم ثلاثة أيام ، وليطف به كما يطاف بالكعبة ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة ، ثم يستدعي بثلاثين يتيما فيطعمهم من طعامه ، ويتولى خدمتهم بنفسه ، ثم يكسوهم قميصًا قميصًا ، ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم ، فإن فعل ذلك قام له مقام الحج ، وإن من صام ثلاثة أيام لا يُفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندبا أجزأه ذلك عن صيام رمضان .

ومن صلى في ليلة ركعتين من أول الليل إلى آخره أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك . وأن من جاور بمقابر الشهداء وبمقابر قريش عشرة أيام يصلي ويدعو ويصوم ، ثم لا يفطر إلا على شيء من خبز الشعير والملح الجريش ، أغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره .

فقال له القاضي أبو عمر : من أين لك هذا ؟ فقال : من كتاب الإخلاص للحسن البصري .

فقال له : كذبت يا حلال الدم ، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة ليس فيه شيء من هذا . فأقبل الوزير على القاضي فقال له : قد قلت : يا حلال الدم ، فاكتب ذلك في هذه الورقة ، وألح عليه وقدم له الدواة فكتب ذلك في تلك الورقة ، وكتب من حضر خطوطهم فيها ، وأنفذها الوزير إلى المقتدر .

فجاء الجواب بأن يسلم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة وليضربه ألف سوط ، فإن مات وإلا ضربت عنقه .

وبُعث به إليه وهو راكب على بغل عليه إكاف ، وحوله جماعة من السيّاسة ، على مثل شكله فاستقر منزله بدار الشرطة في هذه الليلة ، فذكر أنه بات يصلي تلك الليلة ، ويدعو دعاءً كثيرًا .

وقالوا : ولما أخرج الحلاج من المنزل الذي بات فيه ليذهب إلى القتل أنشد :

طلبت المستقرَّ بكل أرضٍ ... فلم أرَ لي بأرض مستقرّا
وذقت من الزمان وذاق مني ... وجدت مذاقه حلوًا ومرّا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لعشت حرّا

فلما أخرج للصلب مشى إليه يتبختر في مشيته ، وفي رجليه ثلاثة عشر قيدًا وجعل ينشد ويتمايل :

نديمي غير منسوب ... إلي شيء من الحيفِ
مثل ما يشرب ... فعل الضيف بالضيفِ
فلما دارت الكأس ... دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الراح ... مع التنين في الصيفِ

ثم قدم فضرب ألف سوط ، ثم قطعت يداه ورجلاه ، وهو في ذلك كله ساكت ، ما نطق بكلمة ولم يتغير لونه .

وقال الخطيب : قال لنا أبو عمر بن حيوية : لَمَا أخرج الحسينَ بن منصور الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس ، ولم أزل أزاحم عليه حتى رأيته ، فدنوت منه ، فقال لأصحابه : لا يهولنكم هذا الأمر ، فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يومًا ، ثم قتل فما عاد .

قال الذهبي : هذه حكاية صحيحة توضح لك أن الحلاج ممخرق كذاب حتى عند قتله[1] ثم قطعت يداه ورجلاه ، وحُزَّ رأسه ، وأحرقت جثته ، وألقي رمادها في دجلة ، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر ، ثم حمل إلى خراسان ، وطيف به في تلك النواحي .

قال الإمام الفقيه المحدث بقية السلف - كما يقول الذهبي - ابن أيوب :

لا شك أن الحجاج قتل من العلماء خلائق يتعسر حصرهم ، وشتت شملهم وأبادهم ، وقتل سعيد بن جبير ، وأهل الأرض محتاجون إلى علمه ، وخلعه العلماء وخرجوا عليه ، وقاتلوه ، ومع هذا كله لم يقل أحد منهم : إنه كافر ، بل قالوا : إنه من عصاة المسلمين ، لا تحل إمرته لذلك ، والحلاج ما تعرض لأحد من أهل العلم بأذى في دنياه ، وأجمع جميع أهل زمانه منهم على كفره ، واستباحة دمه ، فلو كان العلماء يقولون بالهوى ، لقالوا في الحجاج الذي ما ترك نوعًا من الأذى حتى رماهم به ، فثبت أنهم لا يقولون بالهوى اهـ .

وَرَد في الطواسين للحلاج أنه قال :

ألا أبلغ أحبائي بأنـي	ركبت البحر وانكسر السفينه
على دين الصليب يكون موتي	فلا البطحا أريد ولا المدينه

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٤٦) .

فصلب .. جزاءً وفاقًا .

من كلمات هذا الزنديق : أنزهك عما قرفك به عبادك ، وأبرأ إليك مما وحدّك به الموحدون . قال الذهبي : هذا عين الزندقة .

وجدوا كتابًا للحلاج عنوانه من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان فوجه إلى بغداد فأحضر وعُرض عليه ، فقال : هذا خطي وأنا كتبته . فقالوا : كنت تدعي النبوة صرت تدعي الربوبية ؟! . قال : لا ، ولكن هذا عين الجمع عندنا ، هل الكاتب إلا الله وأنا ؟ فاليد فيه آلة .

مات الحلاج في جامع الدِّينَور ومعه جماعة ، فسأله واحد منهم فقال : يا شيخ! ما تقول فيما قال فرعون؟ قال: قال كلمة حق. قال: فما تقول فيما قال موسى عليه السلام ؟ قال: قال كلمة حق ؛ لأنهما كلمتان جرتا في الأبد، كما أُجريتا في الأزل[1] .

وقال : ما وحّد الله غير الله . وقال : الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم ، فأما من حيث الحقيقة : فلا فرق بينهما .

عن جندب بن زاذان تلميذ الحلاج قال : كتب الحسين إليّ : السلام عليك يا ولدي ، ستر الله عنك ظاهر الشريعة ، وكشف لك حقيقة الكفر ، فإن ظاهر الشريعة كفر ، وحقيقة الكفر معرفة جلية وإني أوصيك ألا تغترّ بالله ، ولا تيأس منه ، ولا ترغب في محبته ، ولا ترضَ أن تكون غير محب ، ولا تقل بإثباته ، ولا تمل إلى نفيه ، وإياك والتوحيد ، والسلام[2] .

○ ابن الفارض ○

شيخ الاتحادية وصاحب التائية .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٥٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٥٢ - ٣٥٣) .

وكم في التائية ، والفصوص ، والفتوحات لابن عربي ، واليد لابن سبعين ، وخلع النعلين لابن قسي ، وعين اليقين لابن برجان ، وشعر نجم الدين بن إسرائيل ، والعفيف التلمساني من كفر صريح .

وحدة الأديان عند ابن الفارض :

مثلما قال ابن عربي :

عقد الخلائق في الإله عقائدًا ... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

قال ابن الفارض في تائيته :

فبي مجلس الأذكار سمع مطالعٍ ... ولي حانة الخمار عين طليعةِ
وما عقد الزّنار[1] حكمًا سوى يدي ... وإن حُلّ بالاقرار بي ، فهْي حلّتِ
وإن نار بالتنزيل محراب مسجدٍ ... فما بار بالإنجيل هيكلُ بيعةِ
وأسفار توراة الكليم لقومه ... يناجي بها الأحبار في كل ليلةِ
وإن خَرّ للأحجار في البُدّ عاكف ... فلا تعد بالإنكار بالعصبيةِ
فما زاغتِ الأبصار من كل ملة ... وما زاغت الأفكار من كل نحلةِ
وما احتار مَنْ للشمس عن غرة صبا ... وإشراقها من نور إسفارِ غُرّتي
وإن عبدَ النارَ المجوسُ وما انطفتْ ... كما جاء في الأخبارِ في ألف حجةِ
فما عبدوا غيري وإن كان قصدهم ... سواي وإن لم يعقدوا عقد نيتي
رأوا ضوء ناري مرةً فتوهّمو ... هُ نارًا فضلوا في الهدى بالأشعةِ[2]

ويقول أيضًا :

وإياك والإعراض عن كل صورةٍ ... مموّهةٍ أو حالةٍ مستحيلةِ
فطيف خيال الظل يبدي إليك في ... كرى اللهو ما عنه الستائر شُقَّتِ
ترى صورَ الأشياء تُجْلَى عليك من ... وراء حجاب اللبس في كل خلعةِ
تجمعت الأضداد فيها لحكمةٍ ... وأشكالها تبدو على كل هيئة

(١) ما على وسط النصارى والمجوس .
(٢) مصرع التصوف ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

ثم يقول :

وكل الذي شاهدته فعل واحد — بمفرده، لكن بِحَجْب الأكِنَّةِ
إذا ما أزال السترَ لم تر غيره — ولم يبقَ بالأشكالِ إشكالُ ريبة[١]

ويقول شيخ الزنادقة :

لها صلواتي بالمقامِ أُقيمها — وأشهد فيها أنها لِيَ صلَّتِ
كلانا مصلٍّ ساجدٌ إلى — حقيقتهِ بالجمع في كل سجدةِ
وما كان لي صلّى سواي ولم تكن — صلاتي لغيري في أدا كلِّ ركعةِ
وفي الصحو بعد المحو لم أكُ غيرها — وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلّتِ
فإن دعيت كنت المجيبَ وإن أكن — منادًى أجابتْ من دَعاني ولَبّتِ
وإن نطقتْ كنت المناجي ، كذاك إنْ — قصصتُ حديثًا ، إنما هي قَصّتِ
فقد رفعتْ تاءُ المخاطبِ بيننا — وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي[٢]

ويفتري سلطان الزنادقة أن الذات الإلهية تتجلى في صور ليلى وبثينة وعزة :

وتظهر للعشاق في كل مظهر — من اللبس في أشكال حسن بديعةِ
ففي مرة لبنى وأخرى بثينة — وآونة تدعى بِعزَّة عزّتِ
ولسْن سواها لا وَلا كُنَّ غيرها — وما إنْ لَهَا في حسنها من شريكةِ
كذاك بحكم الاتحاد بحسنها — كما لي بدت في غيرها وتزيّتِ
أسامٍ بها كنت المسمَّىٰ حقيقةً — وكنتُ لَيَ البادي بنفسٍ تخفّتِ
وما زلتُ إياها وإيَّايَ لم تزل — ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبّتِ

يقول الإمام المقبلي صاحب كتاب : العلم الشامخ ، في إيثار الحق على الآباء

---

(١) مصرع التصوف ص ٥٧ .

(٢) « تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي » للبقاعي ص ٦٤ – ٦٥ .

والمشايخ . عن ابن الفارض : يكفيك كلام ابن الفارض الذي أذعنوا له طرّا ما ظاهره الاتحاد ، والتزام الكفر ، والترفع على الأنبياء ، وعلى الجملة فلم يبقَ ما يمكن دعواه من المقامات الرفيعة ، ولا ما تأتي به الخلاعة من البذاءة الشنيعة إلا ادعاه[1] .

يقول ابن الفارض حيث يعلن خلع العذار :

خلعت عذاري واعتذاري لابس الـ　　خلاعةِ مسرورٌ بخَلعي وخلعتي
وخلعُ عِذاري فيك فرضي وإن أبى اقـ　　ترابـيَ قومـي والخلاعـة سُنَّتـي
وليسوا بقومي ما استعابوا تهتكي　　فأبدوا قِلًى واستحسنوا فيك جفوتي
وأهليَ في دِين الهوى أهلهُ وقدْ　　رضوْا لَي عاري واستطابوا فضيحتي

قال ابن حجر :

ينعق بالاتحاد الصريح في شعره ، وهذه بلية عظيمة ، فتدبّر نظمه ولا تستعجل ، ولكنك حسن الظن بالصوفية ، وما ثمّ إلا زيّ الصوفية ، وإشارات مجملة وتحت الزي والعبارة فلسفة وأفاعٍ ، فقد نصحتك والله الموعد[2] .

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام : كان سيد شعراء عصره وشيخ الاتحادية .

وقال الذهبي : إلا أنه شابه بالاتحاد في ألذّ عبارة ، وأرقّ استعارة ، كفالوذج مسموم ، قال :

وهأنا أبدي في اتحادي مبدئي　　وأنهي انتهائي في مواضع رفعتي
وفي موقفـي لا بـل إلي توجهـي　　ولكنْ صلاتي لي ومنيَ كعبتي

ومنها :

وجُدْ في فنونِ الاتحاد ولا تَحُدْ　　إلى فئةٍ في غرة العمر أصبتِ

وكنت سألت شيخنا الإمام سراج الدين البلقيني عن ابن عربي ، فبادر بالجواب بأنه كافر ، فسألته عن ابن الفارض فقال : لا أحب أن أتكلم فيه .

---

(١) العلم الشامخ ص ٣٧٨ .　　(٢) لسان الميزان (٤/٣١٧-٣١٩).

قلت : فما الفرق بينهما والموضع واحد ؟ وأنشدته من التائية ، فقطع عليّ بعد إنشاد عدة أبيات بقوله : هذا كفر ، هذا كفر .

قال ابن حجر : ورأيت في كتاب التوحيد للشيخ عبد القادر القوصي ، قال : حكى لي الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي ، قال : كنت بجامع مصر وابن الفارض في الجامع ، وعليه حلقة ، فقام شاب من عنده ، وجاء إلى عندي ، وقال : جرى لي مع هذا الشيخ حكاية عجيبة - يعني : ابن الفارض - قال : دفع إليّ دراهم ، وقال : اشتر لنا بها شيئًا للأكل ، فاشتريت ومشينا إلى الساحل ، فنزلنا في مركب حتى طلع البهنسا ، فطرق بابًا فنزل شخص ، فقال : بسم الله ، وطلع الشيخ ، فطلعت معه ، وإذا بنسوة بأيديهم الدفوف والشبّابات ، وهم يغنون له ، فرقص الشيخ إلى أن انتهى وفرغ ، ونزلنا وسافرنا حتى جئنا إلى مصر ، فبقي في نفسي ، فلما كان في هذه الساعة جاءه الشخص الذي فتح له الباب ، فقال له : يا سيدي فلانة ماتت . وذكر واحدة من أولئك الجواري فقال اطلبوا الدلّال ، وقال : اشتر لي جارية تغني بدلها ، ثم أمسك أذني فقال : لا تنكر على الفقراء[1].

ابن الفارض الذي يكذب على رسول الله ﷺ ، ويقول : إنه رآه منامًا وإنه سأل ابن الفارض عن قصيدته التائية، ما سمَّاها؟ فأجابه بأنه سمَّاها: لوائح الجنان وروائح الجنان . فقال له النبي- ﷺ- : لا ، بل سمها : نظم السلوك[2].

من كان بحالة لقي الله بها ، والجزاء من جنس العمل ، ومن فسدت بدايته فسدت نهايته .

فعند موت ابن الفارض تأوّه ، وصرخ صرخة عظيمة ، وبكى بكاءً شديدًا ، وتغيّر لونه وقال :

إن كان منزلتي في الحب عندكمُ ... ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرتْ روحي بها زمنًا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلامِ

---

(١) لسان الميزان لابن حجر (٤/٣١٧-٣١٩).
(٢) ديباجة الديوان ص ٦ - ٧ .

○ المختار بن أبي عبيد الثقفي ○

المختار الكذاب .

سلّطه الله على قتلة الحسين ، وهو الكذّاب الذي قال فيه الرسول ﷺ : « إنه سيكون في ثقيف كذاب ومبير ». فهذا هو الكذاب، ولفظ مسلم : « إن في ثقيف كذابًا ومبيرًا » .

وقد كان في بداية أمره ناصبيًا يبغض عليًّا بغضًا شديدًا ، ثم ادعى التشيُّع ، وتتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء ، وطابت نفس المختار بالملك ، وظن أنه لم يبق له عدو ولا منازع .

ولم يكن المختار في نفسه صادقا ، بل كان كاذبًا يزعم أن الوحي يأتيه على يد جبريل .

وروى الإمام أحمد عن رفاعة القباني قال : دخلت على المختار فألقى لي وسادة ، وقال : لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لألقيتها لك .

وقد قيل لابن عمر : إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه ، فقال : صدق ، قال تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني عنده ، وكان يتعاهد مبيتي بالليل ، قال : فقال لي : اخرج فحدّث الناس ، قال : فخرجت ، فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي ؟ فقلت : الوحي وحيان ، قال الله تعالى : ﴿ **بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ [يوسف : ٣] وقال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا** ﴾ [الأنعام : ١١٢] قال : فهمّوا أن يأخذوني ، فقلت : ما لكم وذاك ! إني مفتيكم وضيفكم . فتركوني ، وإنما أراد عكرمة أن يعرّض بالمختار وكذبه في ادعائه أن الوحي ينزل عليه .

وروى الطبراني من طريق أنيسة بنت زيد بن الأرقم أن أباها دخل على المختار بن أبي عبيد ، فقال له : يا أبا عامر ، لو شفت رأي جبريل وميكائيل ، فقال له زيد : خسرت وتعست ، أنت أهون على الله من ذلك ، كذاب مفترٍ على الله ورسوله .

وقد ذكر العلماء أن المختار كان يظهر التشيُّع ويبطن الكهانة ، وأسرّ إلى أخصائه أنه يوحى إليه . وكان قد وضع له كرسي يعظم ويحفّ به الرجال ، ويستر بالحرير ، ويحمل على البغال ، وكان يضاهي به تابوت بني إسرائيل المذكور في القرآن .

وروى ابن جرير بإسناده إلى طفيل بن جعدة بن هبيرة قال : أعدمت مرة من الورق ، فإني كذلك إذ مررت بباب رجل هو جار لي له كرسي قد ركبه وسخ شديد ، فخطر في بالي أن لو قلت في هذا ، فرجعت فأرسلت إليه أن أرسل إليّ بالكرسي ، فأرسل به ، فأتيت المختار فقلت له : إني كنت أكتمك شيئًا وقد بدا لي أن أذكره إليك ، قال : وما هو ؟ قال : قلت : كرسي كان جعدة بن هبيرة يجلس عليه ، كأنه كان يرى أن فيه أثرة من علم . قال : سبحان الله ! فلم أخرت هذا إلى اليوم ؟ ابعثه إليّ ، قال : فجئت به وقد غسل فخرج عودًا ناضرًا وقد شرب الزيت ، فأمر لي باثني عشر ألفًا ، ثم نودي في الناس : الصلاة جامعة ، قال : فخطب المختار الناس فقال : إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله ، وإنه قد كان في بني إسرائيل تابوت يستنصرون به ، وإن هذا مثله ، ثم أمر فكشف عنه أثوابه ، وقامت السبئية ، فرفعوا أيديهم وكبروا ثلاثًا ، فقام شبث بن ربعي فأنكر على الناس وكاد أن يكفر من يصنع بهذا التابوت هذا التعظيم . وأشار بأن يكسر ، ويخرج من المسجد ، ويرمى في الخنس ، فشكرها الناس لشبث بن ربعي ، فلما قيل : هذا عبيد الله بن زياد قد أقبل ، وبعث المختار بن الأشتر ، بعث معه بالكرسي يحمل على بغل أشهب قد غشي بأثواب الحرير ، عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة ، فلما

تواجهوا مع الشاميين وغلبوا الشاميين وقتلوا ابن زياد ازداد تعظيمهم لهذا الكرسي حتى بلغوا به الكفر ، قال الطفيل بن جعدة : فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وندمت على ما صنعت .

وقد قال في هذا الكرسي أعشى همدان :

شهدت عليكم أنكم سبائية ... وأني بكم يا شرطة الشركِ عارفُ
وأقسم ما كرسيّكم بسكينة ... وإنْ كان لقد لُفّت عليه اللفائفُ
وأن ليس كالتابوت فينا وإنْ سعت ... شبام حواليه ونهد وخارفُ[1]
وإني امرؤ أحببت آل محمد ... وتابعت وحيًا ضمنته المصاحفُ

وقال المتوكل الليثي :

أبلغ أبا إسحٰق إن جئته ... أني بكرسيكمْ كافر
تنزوا شبام حول أعواده ... وتحملُ الوحي له شاكر
محمّرة أعينهم حوله ... كأنهن الحمصُ الحادرُ

وهذا وأمثاله مما يدل على قلة عقل المختار وأتباعه ، وضعفه وقلة علمه ، وكثرة جهله، ورداءة فهمه ، أو ترويجه الباطل على أتباعه ، وتشبيهه الباطل بالحق ، ليضل به الطغام ، ويجمع عليه جهّال العوام .

قال عبد القاهر البغدادي : لما تمت ولاية الكوفة والجزيرة والعراقين إلى حدود أرمينية تكهّن بعد ذلك ، وسجع كأسجاع الكهنة .

ثم إن المختار خدعته السبئية الغلاة من الرافضة ، فقالوا له : أنت حجة هذا الزمان ، وحملوه على دعوى النبوة ، فادعاها عند خواصه ، وزعم أن الوحي ينزل عليه .

ثم إن أهل الكوفة خرجوا على المختار لمّا تكهن ، واجتمعت السبئية إليه

---

(١) شبام : رضع ، نهد : الفتاة الناهد ، خارف : عجوز .

مع عبيد أهل الكوفة ؛ لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال ساداتهم ، وقاتل بهم الخارجين عليه ، فظفر بهم ، وقتل منهم الكثير ، وأسر جماعة منهم ، وكان في الأُسَرَاء رجل يقال له : سُراقة بن مرداس البارقي ، فقُدِّم إلى المختار ، وخاف البارقي أن يأمر بقتله ، فقال للذين أسروه وقدّموه إلى المختار : ما أنتم أسرتمونا ولا أنتم هزمتمونا بعدَّتكم ، وإنما هزمنا الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البُلْق فوق عسكركم ، فأعجب المختار قوله هذا ، فأطلق عنه ، فلحق بمصعب بن الزبير بالبصرة ، وكتب منها إلى المختار هذه الأبيات :

ألا أبلغْ أبا إسحاق عني ... رأيت البُلْق دُهْمًا مُصْمتاتِ

أُرِي عينيّ ما لم تنظراه ... كلانا عالم بالترهاتِ

كفرت بوحيكم وجعلتُ نذرا ... عليّ قتالكم حتّى المماتِ

وفي هذا الذي ذكرناه بيان سبب كهانة المختار ودَعْواه الوحي إليه .

وأما سبب قوله بجواز البداء على الله ؛ أنه قد وعد أصحابه بالنصر على جيش مصعب ، فلما هُزموا قالوا له : لماذا تعدنا بالنصر على عدونا ؟!! فقال : إن الله كان قد وعدني ذلك ، لكنه بدا له .

ثم إن المختار باشر قتال مصعب بن الزبير بنفسه بالمذار من ناحية الكوفة ، وقتل في تلك الواقعة محمد بن الأشعث الكندي . قال المختار ، طابت نفسي بقتله أن لم يكن بقي من قتلة الحسين غيره ، ولا أبالي بالموت بعد هذا. ثم وقعت الهزيمة على المختار وأصحابه .

وأشار عليه جماعة من أساورته بأن يدخل القصر دار إمارته ، فدخله وهو ملوم مذموم ، وعن قريب ينفذ فيه القدر المحتوم ، فحاصره مصعب فيه وجميعَ أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم ، وضيّق عليهم المسالك والمقاصد ، وانسدت عليهم أبواب الحيل ، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم ، ثم جعل المختار يجيل فكرته ، ويكرر رويّته في الأمر الذي قد حلّ به ، واستشار

مَن عنده في هذا السبب السيئ الذي قد اتصل سببه بسببيه من الموالي والعبيد ، ولسان الشرع يناديه : ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ [سبأ : ٤٩] .
ثم قوي عزمه قوة الشجاعة المركبة فيه ، على أن أخرجته من بين من كان يحالفه ويواليه ، ورأى أن يموت على فرسه ، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه ، فنزل حميّة وغضبًا ، وشجاعة وكَلَبًا ، وهو مع ذلك لا يجد مَناصًا ولا مَفرًّا ولا مَهربًا وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر ، ولعله إن كان قد استمر على ما عاش عليه أن لا يفارقه التسعة عشر الموكلون بسقر ، ولما خرج من القصر تقدم إليه رجلان شقيقان أخوان وهما طرفة وطراف ابنا عبد الله بن دجاجة من بني حنيفة ، فقتلاه ، واحتزّا رأسه ، وأتيا به إلى مصعب بن الزبير وقد دخل قصر الإمارة ، فوضع بين يديه ، كما وضع رأس ابن زياد بين يدي المختار ، وكما وضع رأس الحسين بين يدي ابن زياد ، وكما سيوضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بن مروان .

يقول أعشى همدان :

لقد نبئت والأنباء تُنمي ... بما لاقى الكوارث بالمذارِ
وما إنْ سرّني إهلاك قومي ... وإن كانوا وحَقِّك في خَسَارِ
ولكني سررت بما يلاقي ... أبو إسحاق من خزي وعارِ

وأراح الله المسلمين من هذا الضال المضل ، بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين ... وذهب المختار إلى مزبلة التاريخ ، بعد أن نُعت بالكذاب على لسان رسول الله ﷺ ، وكل صاحب فرية ذليل في الدارين .

○ ابن الراوندي الزنديق ○

قال ابن الجوزي : كم من زنديق في قلبه حقد على الإسلام ، خرج فبالغ ،

واجتهد فزخرف دعاوى يلقى بها من يصحبه ، وكان غور مقصده في الاعتقاد الانسلال من الدين ، وفي العمل نيل الملذات ، واستباحة المحظورات .

ومنهم من لم يرح على تعثيره ، ففاتته الدنيا والآخرة ، مثل ابن الراوندي ، والمعرِّي .

عن التنوخي قال : كان ابن الراوندي ملازم الرافضة ، وأهل الإلحاد ، فإذا عوتب قال : إنما أريد أن أعرف مذاهبهم ، ثم كاشف وناظر .

قال ابن الجوزي : من تأمل حال ابن الراوندي وجده من كبار الملحدة ، وصنّف كتابًا سماه : الدامغ . زعم أنه يدمغ به هذه الشريعة ، فسبحان من دمغه ، فأخذه وهو في شرخ الشباب .

وكان يعترض على القرآن ، ويدعي عليه التناقض وعدم الفصاحة ، وهو يعلم أن فصحاء العرب تحيرت عند سماعه ، فكيف بالألكن[١] .

قال ابن كثير :

أحد مشاهير الزندقة ، كان أبوه يهوديًا ، فأظهر الإسلام ، ويقال : إنه حرّف التوراة ، كما عادى ابنه القرآن بالقرآن ، وألحد فيه ، وصنف كتابًا في الرد على القرآن سماه : الدامغ . وكتابًا في الرد على الشريعة ، والاعتراض عليها سماه : الزمردة ، وكتابًا يقال له : التاج في معنى ذلك .

قال الجبائي : قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي ، فلم أجد فيه إلا السفه والكذب والافتراء، قال: وقد وضع كتابًا في قدم العالم، ونفي الصانع ، وتصحيح مذهب الدهرية ، والرد على أهل التوحيد ، ووضع كتابًا في الرد على محمد رسول الله ﷺ في سبعة عشر موضعًا ، ونسبه إلى الكذب- يعني: النبي - ﷺ - وطعن على القرآن، ووضع كتابًا لليهود والنصارى، وفضل

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١١١ - ١١٢ مطبعة الجزيرة دار السلام .

دينهم على المسلمين والإسلام ، يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد ﷺ إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الإسلام . نقل ذلك ابن الجوزي عنه .

وقد أورد ابن الجوزي في منتظمه طرفا من كلامه وزندقته ، وطعنه على الآيات والشريعة ، وردّ عليه في ذلك ، وهو أقل وأخسّ وأذلّ من أن يلتفت إليه ، وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وتمويهه . وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر ، منها ما هو صحيح عنه ، ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله ، وعلى طريقه ومسلكه في الكفر والتستر في المسخرة ، يخرجونها في قوالب مسخرة ، وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة ، وهذا كثير موجود فيمن يدعي الإسلام وهو منافق ، يتمسخرون بالرسول ودينه وكتابه ، وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ الآية [التوبة : ٦٥ - ٦٦] .

وقد كان أبو عيسى الورّاق مصاحبا لابن الراوندي - قبّحهما الله - فلما علم الناس بأمرهما طلب السلطان أبا عيسى ، فأودع السجن حتى مات ، وأما ابن الراوندي فلجأ إلى ابن لاوي اليهودي ، وصنف له في مدة مقامه عنده كتابه الذي سمّاه : الدامغ للقرآن . فلم يلبث بعده إلا أيامًا يسيرة حتى مات - لعنه الله - ويقال : إنه أخذ وصلب .

قال أبو الوفاء بن عقيل : ورأيت في كتاب محقق أنه عاش ستا وثلاثين سنة ، مع ما انتهى إليه من التوغل في المخازي في هذا العمر القصير ، لعنه الله ، وقبحّه ، ولا رحم عظامه[1] .

قال الذهبي عنه : الملحد ، عدو الدين ، الرِّويندي ، صاحب التصانيف

---

(١) البداية والنهاية (١١ / ١٢٠ - ١٢١) .

في الحطّ على الملة .

قال ابن الجوزي : كنت أسمع عنه بالعظائم ، حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب ، ورأيت له كتاب : نعت الحكمة . وكتاب : قضيب الذهب ، وكتاب : الزمردة ، وكتاب : الدامغ الذي نقضه عليه الجبائي ، ونقض عبد الرحمن ابن محمد الخيّاط عليه كتاب الزمردة .

قال ابن عقيل : عجبي كيف لم يقتل ؟! وقد صنف الدامغ يدمغ به القرآن ، والزمردة يُزري فيه على النبوات .

قال ابن الجوزي عن الزمردة : فيه هذيان بارد ، لا يتعلق بشبهة ! .

يقول فيه : إن كلام أكثم بن صيفي فيه ما هو أحسن من سورة الكوثر ! وإن الأنبياء وقعوا بطلاسم . وألف لليهود والنصارى يحتج لهم في إبطال نبوة سيد البشر .

قال أبو العباس بن القاص الفقيه : كان ابن الراوندي لا يستقر على مذهب ولا نِحلة ، حتى صنف لليهود كتاب النصرة على المسلمين لدراهم أُعطيَها من يهود . فلما أخذ المال ، رام نقضها ، فأعطوه مئتي درهم حتى سكت .

قال في بعض المعجزات : يقول المنجم كهذا .

وقال : في القرآن لحن .

وقال : يقولون : لا يأتي أحد بمثل القرآن . فهذا إقليدس لا يأتي أحد بمثله ، وكذلك بطليموس . قيل : إنه اختلف إلى المبرد فقال المبرد : لو اختلف إليّ سنة لاحتجت أن أقوم وأجلسه مكاني .

لعن الله الذكاء بلا إيمان ، ورضي الله عن البلادة مع التقوى[1] فكان جزاء الزنديق من جنس عمله ، ودمغه الله ولم يمهله بعد ما ألف الدامغ جزاءً وفاقًا .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٥٩ - ٦٢) .

○ أبو العلاء المعري لا رحمه الله ○

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان سمى نفسه : رهين المَحْبَسَيْن .

قال ابن الجوزي : وأما أبو العلاء المعري فأشعاره ظاهرة الإلحاد ، وكان يبالغ في عداوة الأنبياء ، ولم يزل متخبطًا في تعثيره ، خائفًا من القتل إلى أن مات بخسرانه[1] .

وكل صاحب فرية ذليل جزاءً وفاقًا ، أعثر الناس ، وأخسأهم قدرًا ، وأردأهم عيشًا .

قال ابن كثير :

أبو العلاء المعري التنوخي الشاعر المشهور بالزندقة ، دخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثم خرج منها طريدًا منهزمًا ، لأنه سأل سؤالًا بشعر يدل على قلة دينه وعلمه وعقله ، فقال :

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له   وأنْ نعوذَ بمولانا من النارِ
يدٌ بخمس مئين عَسْجَدٍ وُدِيتْ   ما بالها قطعت في رُبْع دينارِ

وهذا من إفكه ، وهذا من قلة عقله وعلمه ، وعمى بصيرته ، ولهذا قال بعضهم : كانت ثمينة لما كانت أمينة ، فلما خانت هانت .

ولمّا عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله هرب ورجع إلى بلده ، ولزم منزله فكان لا يخرج منه .

وقد كان ذكيًا ولم يكن زكيًا ، وفي بعض أشعاره مايدل على زندقته ، وانحلاله من الدين ، ومن الناس من يعتذر عنه ويقول : إنه كان يقول ذلك مجونًا ولعبًا ، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه ، وقد كان باطنه مسلمًا . قال ابن عقيل

---

(١) تلبيس إبليس ص ١١٢ .

لمّا بلغه : وما الذي ألجأه أن يقول في دار الإسلام ما يكفره به الناس ؟ والمنافقون مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه ، لأنهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا وستروها ، وهذا أظهر الكفر الذي تسلّط عليه به الناسِ وزندقوه ، والله يعلم أن ظاهره كباطنه .

قال ابن الجوزي : وقد رأيت لأبي العلاء المعري كتابا سماه : الفصول والغايات ، في معارضة السور والآيات ، على حروف المعجم في آخر كلماته ، وهو في غاية الركاكة والبرودة ، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته ، ثم أورد ابن الجوزي من أشعاره الدالة على استهتاره بدين الله أشياء كثيرة .

فمن ذلك قوله :

إن كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونًا وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرىء رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا

وقوله :

ألا إن البريـة فـي ضلالٍ وقد نظر اللبيب لما اعتراها
تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من اقتراها
فقـال رجالـهُ : وحيٌ أتـاه وقال الناظرون : بل افتراهـا
وما حجي إلى أحجار بيت كروس الخمر تشرفُ في ذراها
إذا رجع الحليم إلى حجاهُ تهـاون بالمـذاهب وازدراهـا

وقوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدتْ ويهودُ جارتْ والمجوسُ مضللهْ
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دينٍ وآخر دَيِّنٌ لا عقل له

وقوله :

فلا تحسب مقال الرسل حقًّا ولكنْ قـولَ زور سطـروهُ
وكان الناس في عيش رغيدٍ فجـاءوا بالمحـالِ فكـدّروه

وقلت أنا معارضة عليه :

فلا تحسب مقال الرسل زورا ولكنْ قولَ حقّ بلّغُوهُ
وكان الناس في جهل عظيم فجاءوا بالبيان فأوضحوهُ

وقوله :

إن الشرائع ألقت بيننا إحَنًا وأورثتنا أفانين العداواتِ
وهَلْ أبيحتْ نساء الروم عن عُرُضٍ للعُرْبِ إلا بأحكامِ النبوّاتِ

وقوله :

وما حمدي لآدم أو بنيه وأشهد أن كلهمُ خسيسُ

وقوله :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكمْ مكرًا من القدما

وقوله :

صرفُ الزمان مفرّقُ الإلفينِ فاحكم إلهي بين ذاك وبيني
ونهيتَ عن قتلِ النفوس تعمّدًا وبعثت تقبضها مع الملكينِ
وزعمت أن لها معادًا ثانيًا ما كان أغناها عن الحالينِ

وقوله :

ضحكنا وكان الضحكُ منّا سفاهة وحُقَّ لسكان البسيطةِ أن يبكوا
تحطمنا الأيامُ حتّى كأننا زجاج ولكن لا يعودُ له سبكُ

وقوله :

أمور تستخفُّ بها حلومٌ وما يدري الفتى لمن الثبورُ[1]
كتاب محمدٍ وكتابُ موسى وإنجيل ابن مريم والزبورُ

وقوله :

---

(١) الهلاك . وعند الذهبي أول البيت :
عقول تستخف بها سطور

قالت معاشر لم يبعث إلهكمُ إلى البريّة عيساها ولا موسى
وإنما جعلوا الرحمٰن مأكلةً وصيرّوا دينهم في الناس ناموسا

وذكر ابن الجوزي وغيره أشياء كثيرة تدل على كفره ، بل كل واحدة من هذه الأشياء تدل على كفره، وزندقته وانحلاله ، ويقال: إنه أوصى أن يكتب على قبره.

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحدْ

معناه أن أباه بتزوجه لأمه أوقعه في هذه الدار ، حتى صار بسبب ذلك، إلى ما إليه صار، وهو لم يجنِ على أحد بهذه الجناية، وهذا كله كفر وإلحاد، قبّحه الله:

وقد زعم بعضهم أنه أقلع عن هذا كله وتاب منه ، وأنه قال قصيدة يعتذر فيها من ذلك كله ، ويتنصّل منه ، وهي القصيدة التي يقول فيها :

يا منْ يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليلِ البهيمِ الأليلِ[1]
ويرى نياط عروقها في نحرها والمخُّ في تلك العظام النُّحلِ
امنن عليّ بتوبة تمحو بها ما كان منّي في الزمان الأوّلِ

وأنشدت عند قبره ثمانون مرثاة حتى قال بعضهم في مرثاة له :

إن كنت لم تُرِقِ الدماء زهادةً فلقد أرقت اليوم من جفني دمًا

قال ابن الجوزي : وهؤلاء الذين رثوه والذين اعتقدوه: إما جهّال بأمره ، وإمّا ضُلّال على مذهبه وطريقه .

وقد رأى بعضهم في النوم رجلًا ضريرًا على عاتقه حيتان مدليتان على صدره ، رافعتان رأسيهما إليه ، وهما ينهشان لحمه ، وهو يستغيث ، وقائل يقول : هذا المعري الضرير[2]- الملحد .

وذكر ابن خلّكان أنه أوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبي علي ..

---

(١) الكثير الظلمة .

(٢) رأى هذا المنام أبو غالب بن نبهان من أهل الخير والفقه ، انظر سير أعلام النبلاء (١٨ / ٣٤) .

قال ابن خلكان : وهذا أيضًا باعتقاد الحكماء ، فإنهم يقولون اتخاذ الولد وإخراجه إلى هذا الوجود جناية عليه ، لأنه يتعرض للحوادث والآفات . قلت : وهذا يدل على أنه لم يتغير عن اعتقاده ، وهو ما يعتقده الحكماء إلى آخر وقت ، وأنه لم يقلع عن ذلك كما ذكره بعضهم ، والله أعلم بظواهر الأمور وبواطنها[1] اهـ .

يقول عنه الذهبي : أبو العلاء ، شيخ الآداب ، اللغوي الشاعر ، صاحب التصانيف السائرة ، والمتهم في نحلته .

ومن أردأ تواليفه : رسالة الغفران . في مجلد ، وقد احتوت على مَزْدَكةٍ وفراغ ، ورسالة الملائكة ، ورسالة الطير على ذلك الأنموذج .

قال الباخرزي : أبو العلاء ضرير ماله ضريب ، ومكفوف في قميص الفضل ملفوف ، ومحجوب خصمه الألد محجوج ، قد طال في ظل الإسلام آناؤه ، ورشح بالإلحاد إناؤهُ ، وعندنا خبر بصره ، والله العالم ببصيرته ، والمطّلعُ على سريرته ، وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، بكتابه الذي عارض به القرآن ، وعنونه بـ : الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات .

وقال غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن : له شعر كثير ، وأدب غزير ، ويرمى بالإلحاد ، وأشعاره دالة على ما يُزَنُّ به[2] .

ويظهر الصوم دائما ، قال : ونحن نذكر مما رمي به فمنه :

قران المُشتَرى زُحَلًا يُرَجَّى ... لإيقاظ النواظرِ من كَرَاهَا

تَقَضَّى الناسُ جيلًا بعد جيلٍ ... وخُلِّفتِ النجومُ كما تراهَا

تقدم صاحب التوراة موسى ... وأوقع بالخسار مَنِ اقتراهَا

وما حجي إلى أحجار بيتٍ ... كؤوس الخمر تُشرب في ذراهَا

إذا رجع الحكيم إلى حِجاه ... تهاون بالمذاهب وازدراهَا

---

(١) البداية والنهاية (١٢ / ٧٧ - ٨١) .

(٢) ما يرمى به ويتهم .

ومنه(١) :

قلتم لنا خالق قديم صدقتُمْ هكذا نقولُ
زعمتموه بلا زمانٍ ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلامٌ له خبيءٌ معناه ليست لكم عقول

ومنه(٢) :

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تقال وفُرْ قانٌ يُنَصُّ وتوراةٌ وإنجيلُ
في كل جيلٍ أباطيلٌ يُدان بها فهل تفرّد يوما بالهدى جيلُ

فأجبته :

نعم أبو القاسم الهادي وأمته فزادك الله ذلًّا يا دُجَيجيلُ

ومنه(٣) :

وإنما حَمّل التوراة قارئها كسبُ الفوائدِ لا حُبُّ التلاواتِ
وهل أُبيحت نساء الروم عن عُرُضٍ(٤) للعُرْبِ إلا بأحكام النبواتِ

وعن التبريزي : قال : لمّا قرأت على أبي العلاء :

تناقض ما لنا إلا السكوتُ له وأن نعوذ بمولانا من النارِ
يد بخمس مىءٍ(٥) من عسجد وُدِيَتْ ما بالُها قُطِعَتْ في ربع دينارِ

سألتهُ ، فقال : هذا كقول الفقهاء عبادة لا يعقل معناها .

قال كاتبه : لو أراد ذلك ؛ لقال : تعبُّد ، ولما قال : تناقض ، ولما أردفه ببيت آخر يعترض على ربه .

---

(١) اللزوم (٢ / ٢٧٠) .
(٢) اللزوم (٢ / ٢٦٨) ، وفيه : وأنباء تُقَصُّ بدل : تقال .
(٣) اللزوم (١ / ٢٢٨) .
(٤) يضربون الناس عن عرض : لا يبالون من ضربوا .
(٥) مىءٍ بميم مكسوره وهمز منونة : من جموع المئة ، وفي اللزوم (٥٤٤/١) بخمس مئين .

وبإسنادي قال السلفي : إن كان قاله معتقدًا معناه ، فالنار مأواه ، وليس له في الإسلام نصيب ، هذا إلى ما يُحكى عنه في كتاب : الفصول والغايات ، فقيل له : أين هذا من القرآن ؟ فقال : لم تَصْقُلْهُ المحاريب أربعمائة سنة .

قال الذهبي : ويظهر لي من حال هذا المخذول أنه متحير ، لم يجزم بنحلة ، اللهم فاحفظ علينا إيماننا .

قال الذهبي : قد طال المقال ، وما على الرجل أُنسُ زهاد المؤمنين ، والله أعلم بما ختم له . ومن خبيث قوله[1] :

أتى عيسى فبَطَّلَ شرعَ موسى[2] وجاء محمدٌ بصلاةِ خَمْسِ
وقالوا لا نبيٌّ بعد هذا فَضَلَّ الناس بين غدٍ وأمسِ[3]
ومهما عِشتَ من دنياك هذي فما تُخْليكَ من قمرٍ وشمسِ
إذا قلتُ المحالَ رفعتُ صوتي وإن قلتُ اليقين أطلت همسي[4]

قال طه حسين في تجديد ذكرى أبي العلاء :

أبو العلاء كان منكرًا للنبوات ، جاحدًا لصحتها ، وقد نصّ على ذلك في اللزوميات صراحة غير مرة ، فطورًا يثبت أنها زور ، وطورًا يجعلها مصدر الشرور ، وافتن في ذلك افتنانًا عجيبًا ، فلم يكتف بإنكار النبوات ، حتى أنكر الديانات عامة .

ويقول في التعريض بالإسلام خاصة :

تَلَوْا باطلًا وجَلَوْا صارمًا وقالوا صَدَقْنَا فقلنا نَعَمْ

ويقول في التعريض بالنبي ﷺ :

ولستُ أقولُ إن الشهبَ يومًا لبَعْث محمدٍ جُعِلتْ رجومًا

---

(١) اللزوم (٢ / ٥٥ - ٥٦) .
(٢) في اللزوم : دعا موسى فزال وقام عيسى .
(٣) في اللزوم :
وقيل يجيء دين غير هذا وأودى الناس بين غدٍ وأمسِ
(٤) وإن قلت الصحيح .. سير أعلام النبلاء (١٨ / ٢٣ - ٣٩) .

ويقول في ذلك مُعَرِّضا بقصة خيبر :

ومحمد وهُو المنَبأ يشتكي لمكان أكلته انقطاع الأبهر

ويقول :

وإذا ما سألتَ أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتَّبوهُ

لا يدينون بالعقول ولكنْ بأباطيلَ زخرفٍ كذبّوهُ

ويقول :

بَنَتِ النصارى للمسيح كنائسًا كادت تعيبُ الفعلَ من مُنْتَابها

ومتى ذكرتَ محمدًا وكتابه جاءت يهودُ بجحدها وكتابها

وانظر إلى السخرية في قوله :

أَفَمِلَّةَ الإسلام ينكر منكرٌ وقضاء ربك صاغها وأتى بها

ويقول :

غدا أهل الشرائع في اختلاف تُقَضُّ به المضاجع والمهودُ

فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهودُ

وانظر إلى تعريضه بالإسلام :

ولم تستحدثِ الأيامُ خلقًا ولا حالتْ من الزمن العهودُ

ومثل هذا كثير منبث في اللزوميات ، لم نشأ أن نسرف في روايته اتقاء الإطالة ، وخشية الإملال ، وهو يدل على أن روح الرجل لم يكن روح مؤمن بالنبوات ، ولا مصدقٍ للأنبياء[1] .

وقال أيضًا :

وقال في إنكار ما في القرآن من تقسيم فرائض الميراث :

حيرانُ أنتَ فأي الناس تَتْبعُ تجري الحظوظ وكلٌّ جاهلٌ طَبِعُ

والأم بالسُدسِ عادتْ وهي أرأف مِنْ بنتٍ لها النصف أو عِرْس لها الرُّبُعُ

وقد أجمع المؤرخون على أنّ أبا العلاء ، عارض القرآن بكتاب سماه :

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء لطه حسين طبع دار المعارف ص ٢٦٩ - ٢٧١ .

الفصول والغايات في محاكاة السور والآيات . وأبو العلاء نفسه لم ينكر هذا الكتاب ، بل أثبته في ثبت كتبه ، الذي رواه القفطي والذهبي ، والناس يكفرون أبا العلاء بهذا الكتاب ، وبما في رسالة الغفران من سخرية ، وبما في اللزوميات من إنكار النبوات[1] .

أما موقفه من البعث :

فيقول طه حسين : اضطرب رأي أبي العلاء في البعث اضطرابًا شديدًا ، فمرة أثبته ، فقال :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تُحشرُ الأجسامُ قلت إليكما
إنْ كان رأيكما فلستُ بخاسرٍ أوْ صحّ قولي فالخسار عليكما

وتارة ينكره نصا ، بل نفاه أكثر من ستين مرة في اللزوميات ، ومن أشنع قوله في ذلك :

وزعمتِ أن لها معادًا ثانيًا ما كان أغناها عن الحالين

وتارة يقف في أمر البعث موقف الشك فيقول :

يا مرحبا بالموت من مُتَنَظَّر إن كان ثَمَّ تعارفٍ وتلاقِ[2]

الجن والملائكة :

قال طه حسين : أبو العلاء أنكر الجن والملائكة في اللزوميات نصًا فقال :

قد عشت عمرًا طويلًا ما علمت به حسًّا يحسّ لجنيٍّ ولا مَلَكِ

وقال :

فاخش المليك ولا توجَد على رَهَب إنْ أنتَ بالجنِّ في الظلماء خُشِّيتا
فإنما تلك أخبار ملفَّقةٌ لخدعة الغافل الحشويّ حوشيتا

ورسالة الغفران مملوءة بالسخرية المؤلمة من الجن والملائكة جميعًا ، وقد نظم

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

الشعر في رسالة الغفران على ألسنة الجن الذين دخلوا الجنة ، فقال – وإنما يريد الهزء والسخرية – :

مكةُ أقوتْ من بني الدردبيس فما لجنّي بها من حسيس[١]

أصل الإنسان :

شك في أصل الإنسان فقال :

جائز أن يكون آدم هذا قبلـه آدمٌ على إثـر آدمْ

ثم جزم بذلك فقال :

وما آدم في مذهب العقل واحدٌ ولكِنّه عند القيـاس أوادمُ

وتمنى أبو العلاء لو أن الإنسان لم يوجد ؛ لأنه شرير مفسد في الأرض فقال :

ياليت آدم كان طلقّ أمهم أو كان حرّمها عليه ظهارُ

ولدتهمُ في غير طهر عاركا فلذاك تفقد فيهم الأطهـارُ

وهو لا يفرق في حكم العقل بين ابن الحرة وابن الزانية فيقول :

وسيّـان مـن أمـه حـرّة حَصَانٌ ومَنْ أمّه زانيـهْ

ويقول :

ما ميزّ الأطفال في أشباحها للعين حِلّ ولادة وظهـارُ

وبالغ أبو العلاء في كره الوجود حتى استحسن من وأد البنات ما حرّمه الله :

ودفـنٌ والحوادث فاجعـات لإحداهن إحدى المكرمـات

واستحسن غير مرة تحريق الهند موتاهم وأحبه ، وفي ذلك يقول :

فاعجبْ لتحريقِ أهلِ الهند ميتهمْ وذاك أروحُ من طول التباريحِ

إن حَرّقوه فما يَخْشَوْن من ضبع تسري إليه ولا خَفي وتطريحِ

والنار أطيب من كافور ميتنا غبًّا وأذهب للنكراء والريحِ

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٦٩ .

وذهب المعري إلى تحريم أكل الحيوان وما يخرج منه فمن ذلك قوله :

غَدوتَ مريض العقل والدين فالقني   لتسمع أنباء الأمور الصحائحِ
فلا تأكلَنْ ما أخرج البحْر ظالمًا   ولا تبغ قوتا من غريض الذبائحِ
ولا بيض أمّات أرادتْ صريحَه   لأطفالها دون الغواني الصرائحِ
ولا تفجعن الطير وهي غوافل   بما وضعت فالظلم شر القبائحِ
ودَع ضربَ النحل الذي بكرت له   كواسبَ من أزهار نبت فوائحِ
فما أحرزته كي يكون لغيرها   ولا جمعته للندى والمنائحِ
مسحت يدي من كل هذا فليتني   أبَهْتُ لشاني قبل شيْب المسائحِ

وجازاه الله بنحلته ، وبما قال عن ملته بحبس الدنيا قبل الآخرة ، فحبسه في جسده ، وهذا أشد الحبس .

واللفظ الذي اختاره لنفسه ، وكان يحب أن ينادى به رهين المحبسين وإنما أراد بالمحبسين منزله الذي احتجب فيه ، وذهاب بصره ، على أنه ذكر لنفسه في اللزوميات سجونا ثلاثة : أحدها منزله ، والآخر ذهاب بصره ، والثالث : جسمه المادي الذي احتبست فيه نفسه أيام الحياة ، وذلك حيث يقول :

أراني في الثلاثة من سجوني   فلا تسأل عن الخبر النَّبيثِ[1]
لفقدي ناظري ولزوم بيتي   وكون النفس في الجسم الخبيثِ

فهذه صورة الأديب الفيلسوف الذي خُدع الناس به طويلًا ، الذي أنكر النبوات ، عرّض بالتكليف ، وعارض القرآن ، وهزىء بشيء من أحكامه :

سيسأل قوم ما الحجيج ومكةٌ   كما قال قوم ما جَديسٌ وما طَسَمْ

هذا الذي رأى التقية :

لا تخبرنَّ بكنه دينك معشرًا   شُطُرًا وإن تفعل فأنت مُغَرَّرُ

وقال :

فاكتم حديثك لا يشعرْ به أحدٌ   من رهط جبريل أو من رهط إبليس

---

(١) انظر تجديد ذكرى أبي العلاء .

لقد حبس في جسده ذليلا في دار الدنيا ، والله الموعد ، ويكفيك أنه رأى أن من الظلم أن يضاف إلى التصعيد والعلو ، وإنما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط ، وبها نطق جزاءً وفاقًا ، فقال :

دُعيتَ أبا العلاء وذاك مينٌ ولكن الصحيح أبا النزولِ

○ الرجل الصنم مصطفى كمال أتاتورك[1] ○

لا تعجب من قول كثير من المؤرخين : إن أتاتورك كان صربيًّا أو بلغاريًّا .

لم يتحدث عن والده يومًا ، وروايات كثيرة لا تقل نسبتها عن تسعين في المائة من الروايات أنه كان من سفاح .

تناظر مدهش وعادل بين كون مصطفى كمال ثمرة حرام من الناحية الروحية ، وبين كونه ثمرة حرام من الناحية المادية ، يحمل في طياته معنًى كبيرًا . كيف أن هذه الروح السافلة كانت تستند في عالم المادة إلى أساس سافل ؟ وأن هذه السفالة في الروح والمادة تأتي في الحقيقة من كون مصطفى كمال عدوًّا لله وعدوًّا لرسول الله .

مصطفى كمال القائل : لقد انتهى العهد الذي كان الشعب فيه يخدع بكلمات ، هي خاصة بالطبقات الدنيا ، أمثال : كربلاء ... حفيد الرسول ... الإيمان ... السيف ... القدس .

مصطفى أتاتورك الذي ألغى الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٢ ، وقال عن الذين يقولون : إن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن تجزئتها قال : إنها سفسطة معهودة .

وفي اليوم الأول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ تُعْلن الجمهورية وانتخاب مصطفى كمال أتاتورك رئيسًا للجمهورية التركية .

وبعد ٤ أشهر من انتخابه رئيسًا يوفي لأسياده الإنجليز وللحاخام نعوم ، منفذ الخطة اليهودية لهدم الخلافة العثمانية ، فيعطي قراره :

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة بتصرف من كتاب الرجل الصنم تأليف ضابط تركي سابق ، ترجمة عبد الله عبد الرحمن « مؤسسة الرسالة » .

لقد آن وقت إلغاء الخلافة ، وتلغى معها وزارة الشرعية ، ووزارة الأوقاف ، ولن ندع هناك مدرسة دينية .

يتقرر إخراج الخليفة مع جميع أفراد عائلته من البلاد . وبعد ذلك يجبر الأتراك على ارتداء القبعة ، وهي العلامة الثالثة عند النصارى بعد الصليب والزنار ، كانت علامة دينية وضعت من قبل المسيحين أثناء المعارك الصليبية ، ثم أصبحت قومية ، وقد اعتبرت القبعة كعلامة للكفر بفتوى من الإمام النووي ، وتنصب المشانق من أجل المعارضين لارتدائها ، ويفرض العلمانية على تركيا ، ويقول عنها : إنها تعني أن نكون آدميين آدميين . ويغير أحرف الكتابة إلى الأحرف اللاتينية .

مصطفى أتاتورك الذي باع أذربيجان للروس ، عند ما طلب من الأذربيجانيين السماح بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة إلى مساعدة تركية ، وبعد أن دخل البلاشفة إلى أذربيجان لم يخرجوا منها ولم يرسلوا جيوشًا إلى تركيا .

مصطفى أتاتورك الذي على مائدة الخمر ، وسط الدعارة والفجور ، يشير إلى راقصة داعرة نبيلة هانم ، فتقرأ أذان الفجر .

عدوه الأكبر رسول الله ﷺ .

كان في فندق « بارك » ، وكان المؤذن يقرأ الأذان في المسجد الصغير الكائن أمام الفندق مباشرة ، يلتفت أتاتورك لمن حوله قائلًا : من قال بأننا مشهورون ؟ وما شهرتنا نحن ؟ انظروا إلى هذا الرجل[1] كيف أنه وضع اسمًا وشهرة بحيث أن اسمه يتكرر في كل لحظة ، وفي جميع أنحاء العالم إذا أخذنا فرق الساعات بنظر الاعتبار ؛ ليهدموا هذه المنارة .

مصطفى أتاتورك الذي أراد أن تكون لغة الصلاة التركية .

---

(١) يقصد رسول الله ﷺ .

مصطفى أتاتورك الذي من على مائدة الخمر يصدر أمرًا بتحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف .

أما فحشه وشذوذه وعربدته وسكره ومجونه ، فحدث ولا حرج ، وحدث عن ليالي جانقايا ولا حرج .

يقول شاعره :

لا عنكبوت ولا سحر ..
لتبقى الكعبة لدى العرب ...
لأن جانقايا تكفينا ...

يتزوج من لطيفة هانم ، وتجده رجلًا سكيرًا ، ويشاء الله أن يفضحه على لسان زوجته ، فهو عديم الرجولة وعنين ، بل وشاذ وشذوذه مع وداد بن خالد ضياء معروف ، وكان سببًا لطلاق زوجته منه ، قائلة له : لقد رأيت كل شيء فيك ، وتحملت كل شيء ولكني لا أستطيع تحمل هذا ! بعد ما رأته مع هذا الشاب الأمرد .

هذا الفاجر الذي حاول الاعتداء على المحارم ، فقد حاول الاعتداء على شقيقة زوجته الصغرى ، ولكن البنت تخلصت من يديه بصعوبة ، وهرعت إلى غرفة شقيقتها ، ودخل مصطفى كمال إلى الغرفة وفي يده مسدس ، واحتضنت زوجته شقيقتها وأصبحت سترًا بينهما ، وسحب مصطفى كمال الزناد ، ولكن لحسن الحظ فإن خادمه بكر أسرع إليه ، وأمسك بيده ، فطاشت الرصاصات الثلاث .

كانت حياته شرابًا شرابًا للخمر وللعرق ، لا يكاد يفيق منه ، يقترب من صبي ويسأله ، لو وضع أمام حمار دلوان في أحدهما ماء ، وفي الآخر عرق[1] فمن أيهما يشرب ؟ فقال له الصبي : من العرق يا سيدي .

---

(١) خمر .

وكان يقول : إن هذا العرق يعطي النشوة للإنسان .

الغازي أتاتورك الذي كان يذهب إلى دار المعلمات ، ويأخذ جبرًا بنات الأمة البريئات ؛ ليفسق بهن ، إنه يخطف البنات مثل قطاع الطرق .

وكان يستعمل وزير خارجيته توفيق رشدي سمسارًا لشهواته .

أما عشيقاته فحدث ولا حرج ، صالحة ، وفكرية ، وآفة هانم عشيقته الدائمة ، التي أوصى لها عند موته . زد على ذلك كانت هناك ما بين ٢٠ إلى ٣ من النساء والفتيات الشابات ، المختارات بشكل خاص ، وأطلق عليهن : بناته بالتبني . ويوصي لهن عند موته بمقادير ثابتة طيلة حياتهن . وكنَّ يقمن بالرقص في حفلاته ، وهن شبه عاريات ..

بل في قصره كانوا يلبسون الجرسونات الرجال ملابس النساء ويرقصونهم .. رائحة الغلمنة والشذوذ أمام أنظار النساء .

وفي مرض موته ، في قصره ابتلاه الله بحشرات صغيرة حمراء لا ترى بالعين ، حتى اضطرته إلى الحك والحك الشديد أمام زواره ، حتى ظهرت على وجهه ، وأمر بتعقيم البيت بأقوى الأدوية وأكثرها فاعلية .

ويكتب مستشار وزارة الصحة ما يلي : نعم صحيح أنه وجد نمل في بعض أرجاء القصر ، حتى إن المختصين أثبتوا أنه نوع من النمل المهاجر من الصين إلى أوروبا ، ولم يكن يخطر ببال أحد احتمال أن هناك وراء الحكة سببًا آخر ؛ لذلك فقد روجعت هيئة الأركان العامة ، حيث أحيل الأمر إلى متخصصين من القوة البحرية ، ويحضر طاقم من مدمرة ياووز ؛ لتصيد النمل الذي في القصر ، مدمرة ياووز الموجودة في ميناء أزميت يا للجنون !! فلِمَ لم يطلبوه من حامية أنقرة ، جنود ومدمرة لسحق النمل !!

﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر** ﴾ [المدثر : ٣١] .

وانظر إلى حكمة الله ؛ فإنه بالرغم من كونه محاطًا بالأطباء والأخصائيين

وأساتذة الطب ، لم يكتشفوا أنه كان مريضًا بالكبد ، وذاق مر العذاب من سنة ١٩٣٦ حتى اكتشفوا المرض سنة ١٩٣٨ الذي يعرفه أقل الأطباء معرفة بالطب . وابتلاه الله بتليف الكبد الذي أدى إلى الاستسقاء ، واحتاج إلى سحب الماء من بطنه بالإبر ، وكان يصيح بمن حوله والأطباء : اسحبوا المياه(١) حالًا .. اسحبوها كلها .. لا تدعوا شيئًا منها .

وفي يوم الخميس العاشر من أكتوبر يرحل إلى مزبلة التاريخ .. يرحل عن هذا العالم ويدور جدال حول الصلاة عليه ، وكان من رأي رئيس الوزراء ألَّا يصلى عليه ، وحدث خلاف مع قائد الجيش الأول ، وأخيرًا وبعد جدل وافقوا أن يُصلَّى عليه ، ولكن من الذي أمّ الناس ؟

إذا كان الغراب دليلَ قومٍ فلا فلحوا ولا فلح الغرابُ

إنه مدير الأوقاف شرف الدين أفندي الذي أصبح رئيسًا للشئون الدينية في عهد أينونو ؛ حاول إقناع أينونو بالقيام بكفر لم يستطع أتاتورك نفسه القيام به ، وهو جعل الترجمة التركية للقرآن الكريم لغةً للعبادة، وفرض قراءتها في الجوامع، بقوة القانون ... ويالله أتاتورك يصلي عليه شرف الدين هذا ، وافق الشن الطبق .

وعرضوا جثمانه لزيارة الناس ثلاثة أيام بلياليها .

ومات نتيجة الازدحام الشديد أربعة عشر شخصًا ، وفقدت بعض البنات بكارتهن بأصابع عديمي الحياء ، مارسوا هذا أمام تابوته الرصاصي كعادة الصليبيين .

أتاتورك الجبان :

من خاف الله أخافَ منه كل شيء ، ومن لم يَخَفِ الله أخافه الله من كل شيء ، كان في مدرسة الزراعة على إحدى القمم ، وكانت الرياح شديدة ، وكانت تثير الغبار ؛ ولأجلها تحرك الأبواب ، فتحدث أصواتًا ، ويهب الغازي

---

(١) أي من بطنه .

مذعورًا من مكانه مذعورًا قلقًا ، قائلًا : أليس هذا صوت رشاشة ؟ ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط ، بل عدة مرات ، فيقولون له : إنه صوت الباب المندفع بسبب الريح ، ولكنه لا يصدق ، فيقوم ويتطلع من النافذة ، ثم يرسل من يحقق السبب ، وأخيرًا حاول في أحد الأيام الهروب من هذا المكان بعد أن جمع جميع ملابسه ، ولكن جلال عارف وآخرين وقفوا أمامه ومنعوه . هذا علمًا بأن حرَّاسًا له كانوا موجودين على الدوام في خيمة في الحديقة الخلفية للمدرسة .

وقصة أخرى يحكيها المارشال فوزي جاقماق : في أحد الأيام ، وبينما كانوا جلوسًا في مجلس الأمة الأعلى ظهرت عبر النافذة الخلفية للبناء سحابة كبيرة من الغبار ، وكأنها صادرة من عشرات الألوف من الأقدام المسرعة في ناحية السَّهْل ، وعندما رأى أتاتورك هذا المنظر تهيأ للهرب قائلًا : هذه جيوش الخليفة آتية . ثم ظهر بأنه لم يكن هناك سوى قطيع كبير من الغنم . فأُرسل رجلٌ خلف الغازي ؛ لتأمين رجوعه .

إيه يا أتاتورك ، يا مسخرة التاريخ .. نملٌ وغنمٌ فلم التطاول ؟

والجزاء من جنس العمل .

أتاتورك الذي ألغى أعياد الفطر والأضحى ، وجعل يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية بدلًا من الجمعة ، ومنع الحج ، بل وأغرب من هذا أن هذا الذي رمرم من فتات الغرب قوتا ، له واقعة مثيرة ، تنقلها جريدة الأهرام التي قامت بنقلها من جريدة : صندي تايمز في يوم الخميس ١٥ فبراير سنة ١٩٦٨ ، تحت عنوان : كمال أتاتورك رشح سفير بريطانيا ليخلفه في رئاسة الجمهورية التركية . هل بعد هذا تبعية وولاءٌ لبريطانيا التي أسقطت دولة الخلافة على يد عميلها أتاتورك .

وأخيرا « لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم » .

وأي ظهور للفاحشة أكثر من الرقص، والعهر، والاغتصاب، والعشيقات،

والبنات بالتبني لممارسة الرذيلة .. ورقص النساء عاريات ، وسط موائد الخمر .

أراد أتاتورك أن يمتع نفسه بالشهوة الحرام ، فابتلاه الله بالأوجاع والأسقام .

والجزاء من جنس العمل .

وحرمه الله من الرجولة ونعمة الأولاد ؛ لأنه كان عقيمًا بسبب إصابته بالزهري ، وبسببه أصيبت زوجته بالسيلان المزمن .

ولم تتورع امرأته عن إذاعة سر عقمه .

والجزاء من جنس العمل .

هذه صفحة سوداء لقزم دجال ألغى الخلافة ، هذا الماسوني الذي جعله علمانيو العرب مثلهم الأعلى .

عادت أغاني العرسِ رَجْعَ نُواحِ ... ونُعيتِ بين معالمِ الأفراحِ
كُفِّنتِ في ليل الزفاف بثوبه ... ودُفنتِ عند تَبلُّج الإصباحِ
شُيِّعتِ من هلعٍ بعبرة ضاحكٍ ... في كل ناحيةٍ وسكرةِ صاحِ
ضَجَّت عليكِ مآذنٌ ومنابرٌ ... وبكت عليكِ ممالكٌ ونواحِ
الهند والهةٌ ومصر حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمع سَحَّاحِ
والشام تسألُ والعراقُ وفارسٌ ... أمحا من الأرض الخلافة ماحِ
أتت لك الجمعُ الجلائل مأتمًا ... فقعدن فيه مقاعد الأنواحِ
ياللرجال لحُرة موءودةٍ ... قُتلتْ بغير جريرةٍ وجناحِ
إنَّ الذين أسَتْ جراحك حربهمْ ... قتلتك سلمُهمو بغيرَ جراحِ
هتكوا بأيديهم مُلاءة فخرهم ... مَوْشيَّة بمواهب الفتاحِ
نزعوا عن الأعناقِ خير قلادةٍ ... ونَضَوْا عنِ الأعطافِ خير وشاحِ
حَسَبٌ أتى طولُ الليالي دونه ... قد طاحَ بين عشيَّةٍ وصباحِ
وعلاقة فُصمتْ عُرى أسبابها ... كانت أبرَّ علائق الأرواحِ
جَمَعت على البرِّ الحُضورَ وربما ... جمعت عليه سرائرَ النُّزَّاحِ

نظمت صفوفَ المسلمين وخطوهم ... في كل غدوة جُمعةٍ ورواحِ
بكت الصلاةُ ، وتلك فتنةُعابث ... بالشرعِ عربيد القضاء وقاحِ
أفتى خزعبلةً وقال ضلالةً ... وأتى بكفر في البلاد بواحِ
إن الغرور سقى الرئيس براحِهِ ... كيف احتيالك في صريع الراحِ؟
نقل الشرائع والعقائد والقرى ... والناسَ نقل كتائبٍ في السَّاحِ
تركتْهُ كالشبح المؤلَّهِ أُمَّةٌ ... لم تَسْلُ بعدُ عبادةَ الأشباحِ
هم أطلقوا يده كقيصر فيهمو ... حتى تناول كلَّ غيرِ مباحِ
غرَّته طاعاتُ الجموع ودولةٌ ... وجد السوادِ لها هوى المُرتاحِ
فلتسمعنَّ بكل أرضٍ داعيًا ... يدعو إلى الكذاب أو لسجاحِ
ولتشهدنَّ بكل أرض فتنةً ... فيها يباع الدين بيع سماحِ
يفتى على ذهب المعز وسيفه ... وهوى النفوس وحقدها الملحاحِ

* * *

يا أختَ أندلسٍ عليك سلامُ ... هوت الخلافةُ عنكِ والإسلامُ
نزل الهلال عن السماء فليتها ... طُوِيَتْ وعمّ العالمين ظلامُ
أزرى به وأزاله عن أَوْجِهِ ... قَدَرٌ يَحُطُّ البدْرَ وهْوَ تمامُ
خفت الأذانُ فما عليكِ مُوحِّد ... يسعى ولا الجُمَع الحِسانُ تُقَامُ
وخبتْ مساجدُ كُنّ نورًا جامعًا ... تمشى إليه الأُسد والآرامُ(١)
وعَفَتْ قبور الفاتحين وفُضّ عن ... حُفر الخلائف جندل ورِجامُ(٢)

○ فرعون القرن العشرين ○

هذا الذي جعل الكنانة كلها ... سجنًا وبات الشعب شرَّ سجينِ
يـأيها المغـرور في سلطانـه ... أمن النضار خُلِقتَ أم مِنْ طينِ

---

(١) الرئم : الظبي الأبيض .

(٢) الجندل : الحجارة .. والرجام .. ما يبنى على البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو .

يا من أسأت لكلّ من قد أحسنوا لكَ دائنينَ فكنتَ شر مدينِ
يا ذئب غدرٍ نصّبوهُ راعيًا والذئبُ لم يك ساعة بأمينِ
يا من زرعت الشرَّ لن تجني سوى شرٍّ وحقدٍ في الصدورِ دفينِ
هل عُدت إلا بالهزيمة مرّةً وربحت غيرَ خسارة المغبونِ
وحفرتَ في كل القلوب مغاوِرًا تهوي به سَفَلًا إلى سجّينِ
وبنيتَ من أشلائِنا وعظامِنا جسرًا بـه نرقـى لعلييـنِ
وصنعت باليدِ نعش عهدك طائعًا ودققت إسفينا إلى إسفيـنِ

وقال الشاعر عنه أيضًا :

وإذا رئيسهمو يرى في نفسه ملكَ الملوكِ ووارثَ الفرعونِ
في نفسه ودمائِه ﴿ أنا ربكم ﴾ لا تجعلوا ربًّا لكم من دوني

* * *

لحساب من شنقوا المجاهدَ يوسفًا والفرغلي محاربَ السكسونِ[1]
لحساب من غدروا بعودة جهرة من غير سلطانٍ عليه مبيـنِ
لحساب من قتلوا وما قد شوّهوا من أوجهٍ أو أظهرٍ وبطونِ
مَنْ عذّبوا من شردوا مَنْ جوعوا ومَنِ استذلوا من ليوثِ عرينِ
أسمعتَ بالإنسانِ ينفخ بطنه حتى يرى في هيئة البالون ؟!
أسمعتَ بالإنسان يضغطُ رأسه بالطوق حتى ينتهي لجنون؟!
أسمعتَ بالإنسانِ يشعلُ جسمه نارًا وقد صبغوه بالفزلين ؟!
أسمعتَ ما يلقى البريء ويصطلي حتى يقول أنا المسيء خذوني
أسمعتَ بالآهاتِ تخترق الدُّجى رباه عـدلك إنهـم قتلونـي

---

(١) الشيخ يوسف طلعت من أبطال حرب فلسطين ، ومن قادة الجهاد ضد الإنجليز . وكذا الشيخ محمد الفرغلي .

وسل السياط السود كم شربت دمًا حتى غدت حُمْرًا بلا تلوين[1]

أي الكلمات تعبر عن قبح هذا الرجل وغيه وتطاوله وتكبره .

إن رجلًا يلقى الله بدم سيد قطب لخفيف الميزان عند الله ، يعاقب سيد قطب وهو يقيم عند أسياده بالكرملين .

هذا الرجل الذي أعدم : يوسف طلعت ، وعبد القادر عودة ، ومحمد الفرغلي وغيرهم ، وغيرهم ، وغيرهم ...

وعذب في السجون من عذب بوسائل فوق إدراك العقول .

أنستْ مظالمهمْ مظالمَ من خلوا حتى ترحمنا على نيرونِ

حسبوا الزمان أصمَّ أعمى عنهمُ قد نوّموه بخطبة وطنينِ

وبراعة التاريخ تسخر منهمو وتقوم بالتسجيلِ والتدوينِ

وكفى بربك للخليقة محصيًا في لوحه وكتابه المكنون

كم من أعراض هتكت ، وعذارى خدشت ، وعمائم بيضاء ضربت وسحقت ، وأرجل تورمت - من طول القيام - جلدت وأنفس أزهقت في سجونه .

لا يتصور الإنسان وضع رجالٍ في بالوعات دورات المياه تطفح عليهم بقاذوراتها حتى رؤوسهم ، وهذا ثابت وغير مبالغ فيه .

هذا القزم الذي دعا للقومية العربية على حساب القومية الإسلامية .

هذا المتلون الذي أفسح المكان للشيوعية والشيوعيين ، وتقلدوا في عصره أرفع المناصب .

هذا الرجل الذي أهان كرامة الأزهر ، ويكفي أن سُيمون دي بفوار عشيقة الداعي للإباحية في عصر هذا الرجل تدخل الأزهر ، ومعها وفد رسمي .

هذا القزم الذي أضاع المحاكم الشرعية ، والاقتصاد الإسلامي ، وكم خربت بيوت بقانونه الإصلاح الزراعي .

---

(١) النونية للقرضاوي .

وفي عهده كم سخر الساخرون من دين الله ، وكم كممت الأفواه . وخاف الناس حتى أوشكوا أن يقولوا : إن الجدار له أذن . وصار الباطل حقًّا والحق باطلًا .

يقول أحدهم ساخرًا :

لن يُقال الحق يا ولدي وفي الحق مراءْ
فاعبدِ الطاغوت يا ولدي ودعْ عنك السماءْ
ودَعِ المصحفَ يا ولدي إذا الميثاقُ جاءْ
فبهِ جاء نبيٌّ بزَّ كلَّ الأنبياءْ
وتعلّم لغة القومِ أحاديث الرياءْ
ودَعِ الصدقَ فَإنَّ الصدق طبعُ الأغبياءْ
ولتقل كل صباحٍ ولتقل كل مساءْ
كيف كنا كيف أصبحنا وكيف الأمس ساءْ
هذه مصرُ وفرعونٌ بها كيف يشاءْ
دولة الزور وقد دامت فيا مُرَّ البقاءْ

هذا الذي تطاول كبرياءً وطغيانًا ، وأذلّ أعناق الموحدين الساجدين تعذيبًا وتشريدًا وتنكيلًا ، العميل المزدوج للشرق وللغرب :

هبل .. هبل ..

رمز السخافة والخيانة والعمالة والدجل ..
هتافة التهريج ما ملّوا الثناء ..
زعموا له ما ليس عند الأنبياء ..
مَلَكٌ تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء ..
هو عالم ومعلم هو عبقري ملهم ..
وسعى القطيع غباوة .. يا للبطل ..
وثن يقود جموعهم يا للخجل !!

فأذله الله بأشنع هزيمة ، وسيلقى جزاء ما قدم من قتل آلاف الشباب من الأمة في معركة كانت المباغتة فيها لبني صهيون ، جزاءً وفاقًا ، فالسجن الحربي في ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ شاهد على أن هذا كان جزاءً وفاقًا .

والجزاء من جنس العمل .

ولما مات أبت القبور بأن تكون له الثرى ، وطفحت المجاري في قبره . حتى أغرقته ، مثلما فعل بالموحدين في سجنه الحربي .

والجزاء من جنس العمل .

وعاد مادحه ذامًا بعد موته ، حتى من الذين شاركوه الحكم بعد وفاته تكلموا عنه وعن طغيانه .

وهذا الشر الذي زرعه ما جني به إلا حقدٌ وشرٌّ تفجرَ بعد موته على صفحات جرائده ..

وبقي الظلال، والغريب أن ظلال القرآن كتبه فقيد الإسلام سيد قطب في سجون ناصر وهُرّب .. وذاع وانتشر حتى في إعلام الطاغية .. يدعو الناس لصاحبه ليلَ مساء ويدعون على مَنْ قتله ليلَ مساء .

والجزاء من جنس العمل .

وأخيرا ، وأي ذلٍّ تناله أيها الداعي إلى القومية العربية في الدنيا فوق هذا .

عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمعتموه يدعو بدعوى الجاهلية فأعضوه بهنِ[1] أبيه ، ولا تُكنُّوا »[2] .

وَأَدُوا الشريعة في سدى قوميةٍ خوفيةٍ روميةِ التِّبيان

يقول الشاعر :

---

(١) أير أبيه ، ولا حرج في دين الله ، فهذا ذل وتبكيت .

(٢) حديث حسن : رواه النسائي في عمل اليوم والليلة ، وحسنّه مقبل الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١ / ٢٩ - ٣٠) .

فلا تعجب إذا اضطربت خطانا … وساوَمَنا على الأمجاد وغـدُ
عروس جُلّلت بثياب حـزنٍ … وطاف بها على الشارين عُبْدُ
مراكبها تُسيّر فـي بحـارٍ … ولا هدف على الشطآن يبدو
إذا لم يحكم الإسلام قومي … فمهدك أيها المولودُ لحـدُ

○ حمزة البسيوني ○

قائد السجن الحربي من سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦٥ .

يقول فيه القرضاوي وا في اسجنه :

هذا هو الحربي معقل ثـورة … تدعو إلى التحرير والتكويـن
فيـه زبانيـة أُعـدوا لـلأذى … وتخصصوا في فنـه الملعـونِ
متبلـدون عقـولهم بأكفهـمْ … وأكفهـمْ لـلشرِّ ذاتُ حنيـنِ
بالرجل بالكرباج باليد بالعصا … وبكل أسلوبٍ خسيسٍ دونِ
لا يعبأون بصالحٍ ولو انه … في زهد عيسى أو تُقى هارونِ
لا يرحمون الشيخ وهْو محطَّمٌ … والظهر منه تـراه كالعرجـونِ
لا يشفقون على المريضِ وطالما … زادوا أساهُ بقسوةٍ وجنـونِ
كم عالمٍ ذي هيبة وعمامةٍ … وطِئوا عمامته بكـل مجونِ
لو لم تكن بيضاء ما عبثوا بها … لـكنها هـانت هـوان الديـن
من ظن قانونًا هنـاك فـإنما … قانوننـا هـو حمزة البسيـوني
جلّاد ثورتهمْ وسوط عـذابهمْ … سموه زورًا قائـدًا لِسجـونِ
وجه عبوسٌ قمطريـرٌ حاقـدٌ … مستكبـرُ القسمـات والعِرْنيـنِ
في خده شجٌّ ترى من خلفهِ … نـفسًا معقـدةً وقـلب لـعين[1]
متعطش للسوء في الدم والغِ … في الشرِّ منقوع به معجونِ

---

(١) الراجح من مذهب أهل السنة والجماعة عدم نسبة المعين إلى اللعن ما دام في دار الدنيا ، ولا يعلم أحد بمَ خُتم له بالإسلام أم بغيره .

ومن اشتكى الظلم وآثار التعذيب في المحاكم الصورية :

سيعود للحربي يأخذ حظَّه وجزاءَه الأوفى من البسيوني

ويقول القرضاوي :

أنا إن نسيتُ فلستُ أنسى ليلةً في ساحة الحربي ذاتَ شجونِ
عدنا المساء من المحاكمة التي كانت فصول فكاهة ومجونِ
ما كاد يعرونا الكرى حتى دعا داعي الردى وكفاك صوت أمينِ[1]
وإذا بقائدنا المظفر حمزة في عسكرٍ شاكي السلاح حصينِ
حشد الجنودَ وصفّها بمهارةٍ وكأنه عمرو بأجنادينِ
وأحاطنا ببنادقٍ ومدافعٍ فغرت لنا فاها كفي التنينِ
طابور تكدير ثقيل مرهق في وقت أحلام وآن سكونِ
نعدو كما تعدو الظباءُ يسوقُنا لَهَبُ السياطِ شكتْ من التسخينِ
ومضتْ علينا ساعتان وكلنا عرق تصبّب مِثل فيضِ عيونِ
من خرّ إغماءً يفقْ عَجَلًا على ضربات صوت للعذاب مهينِ
ومن ارتمى في الأرض من شيخوخةٍ أو علّةٍ داسوه دَوْس الطينِ
لم يكفِ حمزةَ كلُّ ما نُوِّنا بهِ من فرط إعياءٍ ومِنْ تهوينِ
فأتى يوزع بالمفرَّق دفعةً بالسوط من عشرين للخمسينِ
كلٌّ ينالُ نصيبه بنزاهةٍ في العد والإتقانِ والتحسينِ
وإذا نسيتُ فلستُ أنسى خطبة ما زال صوت خطيبها يشجيني
إذ قال حمزة وهو منتفخٌ فَلَمْ يترك لفرعونٍ ولا قارونِ
أين الألى اصطنعوا البطولة وادّعَوْا أني أعذبهم هنا بسجوني ؟!
أظننتمو هذا يخفف عنكمُ كلَّا فأمركمُ انتهى وسلوني
أم تحسبون كلام ألفٍ منكمُ عنكم وعن تعذيبكمْ يثنيني ؟
إني هنا القانون أعلى سلطةٍ من ذا يحاسب سلطة القانونِ

(١) أمين السيد رقيب أول السجن الحربي ، كانت في يده سلطات مطلقة ، ويستطيع أن يعذب إلى حد الموت ، وكان يرى نفسه كأنه أحد قادة الثورة .

متفرد في الحكم دون معقبٍ ... من ذا يخالفني ومن يعصيني ؟
فإذا أردتُ وهبتكم حريةً ... أو شئت ذقتم من عذابي الهونِ
من منكمُ سامحته فبرحمتي ... وإذا أبيت فذاك طوع يميني
ومن ابتغى موتًا فها عندي له ... موتٌ بلا غسل ولا تكفينِ !!

هذا الزنديق ؛ قال مرة للإسلاميين أثناء تعذيبهم : هاتوا لي ربكم وأنا أضعه في الحديد .. أحطه في زنزانة .

فماذا كان جزاؤه ؟

أماته الله شر ميتة ..

حيث صدم بسيارته شاحنة كبيرة من الخلف محملة بأسياخ الحديد ، فدخلت الأسياخ في جسمه ، وأخذ يصيح ، ولا منقذ ، واجتمع الناس من حوله في طريق الإسكندرية – القاهرة[1] .

جزاءً وفاقًا .. حديد بحديد .

والجزاء من جنس العمل .

ولعذاب الآخرة أشد وأنكى .

○ صاحب الكامب ○

في يوم عرفة عام ١٣٩٧ هجرية السبت في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ تحرك أحد أفراد هذه الأمة إلى أرض فلسطين المغتصبة ، والتقى في موكب من الحفاوة مع شعب صهيون[2] .. ؛ ليخدع من يخدع بسلام الذلّ .

مَضَيْتَ ! وأشلاءُ الأباةِ تَبَعْثَرَتْ ... ودُنْيا المروءاتِ اسْتَذَلَّتْ لفاجرِ

(١) انظر التعليق على ديوان نفحات ولفحات للقرضاوي .
(٢) من ديوان الأرض المباركة ، لعدنان النحوي .

مَضَيْتَ وإنْ كادتْ خُطاكَ لتَستَحي ... وتَرْجعُ عن غيِّ الذليلِ المكابرِ
فأقحمتها هَوْلَ الدّنايا وصفَّقَتْ ... إليكَ أكُفُّ السَّاقِطَاتِ الفواجِرِ
تمرُّ على الأمجادِ رِعْشَةَ ذِلَّةٍ ... فَتَغْمِضُ من أَجْفَانِها والمَحَاجِرِ
وتُغْضِي وأصداءُ الجِراحِ حبيسةٌ ... تموتُ على أصداءِ طَعْنَةِ غادِرِ
أأشْفَقْتَ أنْ تَبْقَى ثُكَالَاكَ بالأسى ... ودمع اليتامى بين خَدٍّ وناظرِ
وما أَشْفَقَتْ صهيون كلَّ ربوعِها ... ثكالى وأيتام وفيض مجازرِ
فيا حسرتاه كيف لم يُشْفِقِ النُّهى ... على شَرَفٍ دامٍ وعرضٍ حرائرِ
على القُدْس جلبابُ الظلامِ يلفُّها ... وأمجادُها منشورةٌ كالجواهرِ
على كل شبرٍ من فلسطينَ لم يَكُنْ ... سوى نفحاتٍ من أبيٍّ وصابرِ
سوى خفقاتِ الوحي يُندى رُبُوعَها ... ويسكبُ من فَيضٍ وتَهمي بعاطرِ
على أمَّةٍ ما أخرجَ اللهُ مثلهَا ... إلى الناس أنوارًا وطيبَ مآثرِ
فما كان إبراهيمُ إلا مصدِّقًا ... بأحمدَ بَرا عاطرًا بالبشائرِ
ورتَّلَها داودُ نفحَ نُبُوَّةٍ ... ورَجَّعَ تَحْنانًا وخَفْقَ مَزَامِرِ
وصانَ سليمانُ الحكيمُ أمانةً ... لأحمدَ يُوفيهَا نَديَّةَ شَاكِرِ
أولئك ما ساسوا الديارَ بِعِرْقِهم ... ولا ملكوها جاهليةَ سادرِ
ولكنها كانت صَفِيَّ أمانةٍ ... وعهدًا يُؤَدَّى بَعْدَ حينٍ لقادرِ
ورَفَّت على عيسى النبوةُ والتقت ... على ساحةِ الأقصى شُغوفُ بصائرِ
فأمَّهُمُ المختارُ أحمدُ سيِّدًا ... ليجمع من ماضٍ زكي وحاضِرِ
ويُمضي على الأيامِ دعوة ربِّهِ ... جهادَ ميامينٍ ونفحِ أزاهرِ
وتتصل الأزمانُ بينَ طيوفِها ... نبوةُ إسلامٍ وصدقُ أواصرِ
ويصبح للإسلام مُلكُ ربوعِها ... وعهدًا أمينًا لا يُرَدُّ لفاجرِ
فذلك إرثُ الأنبياءِ ديارُهُم ... مرابع توحيدٍ وخَفقُ منابرِ

* * *

فوا أسفا أن ضيع العهدَ جاهلٌ ... وغيبّه في سادراتِ الدياجرِ
ومزقَ ميثاقَ النبوةِ كُلها ... وألْقَى به كِبْرُ الشقيِّ المغامرِ

رَحَلْتَ وفي كفيَّكَ غصَّةُ أمةٍ وأشلاءُ تاريخ وبَحَّةُ زاجـرِ
حملتَ لهم غُصنًا فأين اخضرارُه وقد ذَوَّبَتْهُ قانيـاتُ الجرائـرِ
وأي هَدِيلٍ للحمامِ إذا نَزَتْ عليه شِفَارٌ من وَمِيضِ البوَاترِ
وأي سلامٍ تَرْتجيه إذا انحنتْ على قدمٍ هامٌ ورعْشَةُ صاغرِ
فَبِعْتَ لهم دارًا وأيْكًا وساحةً وملعبَ أمجادٍ وحرقةَ صابرِ
وبعت لهم شعبًا وتاريخَ أمَّةٍ وزهوًا تهاوى تحت نَزْوةِ خائرِ

* * *

فأيّ يدٍ صافحتَ ؟! ملءُ بطونِها مذابحُ أدمتْ كلَّ قلبٍ وخاطرِ
أكفُّ مَنَاحِيم ؟! أظافِرَ تَغْلَب ومديةَ جَزَّارٍ وحِقْدَ مُجَاهِـرِ
أصافَحْتَها ؟! والرِّجْسُ بَيْنَ عُرُوقِها تدفّق أمواج الخَطَايا الزواخِرِ
تصافَحْتُما والدّيْرُ مازال نازِفًا على غاضب بين النجيع وفائِرِ
تصافحتما ؟! بين ابتسامة مجرمٍ عَتِيٍّ وكيدٍ من غوِيٍّ مُحَاذِرِ
فيا ديرَ ياسيـنَ أطِـلَّ بلعْنَـةٍ تزلزل أقدامَ الطغـاةِ الجبابـر
فيأيها الأقصى أنينُكَ مُوجـعٌ حنينُكَ أصداءُ العصورِ الغوابر
وشوقُك ذوبُ الخاليات من الرؤى لِرَنَّـةِ أنصال وَوَقْـعِ حَوَافِـرِ
وخفقةِ رايـاتٍ وعِـزَّةِ فاتـحٍ يموجُ صداها في دويِّ الحناجرِ
عَصَرْتَ غَنِيَّ الذكرياتِ بدمعةٍ على هُدُبٍ تُغْضِي ونَوْح سَرَائرِ
فيا عمرُ الفاروقُ أين صدى الخُطَى إلى المسجد الأقصى وإشراقُ زائرِ
وأين طيوفُ المجدِ حولك والتُّقَى وأنداؤه رَفَّتْ على كلِّ زاهِرِ
تواضعتَ ما غَضَّ الإباءُ جفونَه عَدَلْتَ فما ذَلّت طُيوف منائرِ
وَهَبْتَ وما ضَيَّعْت حَقًّا لخالقٍ عَفَوْت وفي كفيك عِزَّةُ ظافرِ
وجَمَّعْتَ أشتاتَ الأمانة كلها ونظمتها عِقْدًا كريمَ الجواهرِ[1]

(١) ديوان الأرض المباركة وقصيدة بعنوان رحلة ص١٩٥ - ٢٠١ والديوان لعدنان النحوى ، المكتب الإسلامي.

ويقول شاعر آخر :

يا لعارٍ أنت عنوانٌ له في رُبا الأقصى تحيّي المجرمَا
أيها الذاهلُ ماذا قد دهاكَ تمنحُ الأعداءَ روحًا ودمًا
كيف ترضاه إخاءً خاسرًا تزرعُ الشوكَ ، ونجني العلقما[1]

وفي كامب العار ، وفي مستنقع الكامب تم سلام الذل ، ويا للسخرية ، حين يشبهونه بصلح الحديبية !! الذي سماه الله فتحًا مبينًا ، فأي خداع للمسلمين وأي سخرية فوق هذه ؟

الذي تطاول استكبارًا كيف يتمرغ هنا في وَحْل الكامب ؟!!

كلُّ ساداتِهِ مطايا عبيدٍ راضها السوطُ تحت شدِّ الرحالِ
أين يا كامبُ هل رأيت رجالًا حملتْ فيكَ خصلةً من رجال
الليالي الحمراءُ لم تُخْفِ سُودًا من نفوسٍ وظلمةٍ من فعالِ
الذليل الذي يقود خطاها بين عضِّ الحديدِ والأثقالِ
بين بيجن وكرترٍ رعشةُ الخو فِ رمته وذِلّةٌ من سؤالِ
بعْثُكُم نفحة البراق وهذا القد سَ ونفحَ العصورِ والأجيالِ
وطيوف التاريخ والشرف الحقّ وزهوَ الجهاد والآمالِ
والميادينَ والقنا ودِمَاءً فجّرتها أسنّةُ الأبطالِ
كلُّ صوت قَتَلْتُهُ في حلوقٍ رجفت بين بَحّةٍ وابتهالِ
فضعوا في فمي الكلامَ لعلّي أصنع السُّلَمَ من بديعِ مقالِ
إن خلفي كما علمتم شعوبًا بين آذانها قلوبُ الرجالِ
أين هذا السلام يصنع فيه الْـ ـموتُ والشركُ رعشةَ الإذلالِ
والشياطينُ تنفثُ الشرَّ فيه نافراتٍ بمكرها القتّالِ
والخفافيش بين تلك الزوايا راعشاتٌ يَخْفِنَ ومضَ نصالِ

---

(١) في رحاب الأقصى يوسف العظم ص٢٦٨ ، طبع المكتب الإسلامي .

يا عـدوَّ السلام أيُّ سلام ترتجيـه هنـاك أيُّ نـوالِ
نفـرت روحُـك الخبيثـةُ للـذُّلِّ علـى مرتـع وخيـم بالـي
مرتعِ الكفرِ حين واليت أعدا ءَ وأدبـرتَ سادر الإدلالِ

ولما عارضه الأحناف استكبر وعتا ، وتوعدهم وتهددهم ... بل وسخر من سنن الإسلام ، فيصف النقاب بأنه : خيمة .

ويهـزأ بالحرائـرِ بالنِّقـابِ وقـد لَبِسَتْـهُ أمُّ المؤمنينَـا
فلستم للنقَابِ وليس مِنْكُـمْ فذا شرفٌ لسَكَنِ الطاهرينـا
وما عرف العفافُ لكمْ طريقًا وفاح الطهر من بيت السجينَا

عتا وعتا ، وسخر من الدعاة ، ونادى نفسه برب العائلة .

لئن قالها الطاغوت ربٌّ وعائل فقد قالها فرعونُ ربكُمُ الأعلى
فما الفرق بين القالتين كما ترى سوى بين أعلى عائل فارجع القولا

وفتح السجون على مصراعيها ، وقذف في أتونها بالدعاة والشباب ، وكم أبكى عيون أمهات في يوم التروية ، فأبكى الله عيون بنيه في يوم العيد ، والجزاء من جنس العمل .

مكر بالناس في سلامه المزيف ، فمكر به وهو في يوم زينته ووسط حشوده وعتاده ، آمنَ ما يكون ، هذا الذي تطاول ذلّ ، والجزاء من جنس العمل .

سَجِّلْ بكفك في القرطاس ما كتبتْ كِلْتَا يديك به أمسيت مرهونًا

يقول الشاعر :

ماذا تقول إذا سُئلت عن الأُلَى ضيّعت مجدَهُمُ بكاسبِ العارِ ؟
ماذا إذا الملكانِ قال كلاهما مَنْ عطّل التشريعَ في الأمصارِ ؟
ماذا إذا الملكانِ قال كلاهما ماذا صنعت بشرعة المختار ؟
ما ذنب من قال الجهاد سبيلنا أوْ ما جنايةُ قانتِ الأسحارِ ؟
ماذا جنى الطفل الرضيع تروعُهُ والباكيات ودَمْعُهن الجارِي ؟
كم فُزّعت أمٌّ بجرٍّ وليدها جر الذبيحة في يد الجزارِ ؟

كم حرةٍ رِيعتْ بخطفِ حَلِيلها ؟ كم حرمةٍ ديست بكل حقار ؟
كم زائرٍ في الفجر روّع آمنًا ؟ ما أقبح السفهاء من زوّار!
أوليس للدور المصونة حرمةٌ في شرعةِ الأنـذالِ والأشرارِ؟
كم محنة يا مصر قد عاينتها من طيش مجنون وبطش تتارِ ؟
نبشوا بيوت الصالحين ودورهم عبثـوا بكـل صحيفــة وإزارِ
كادوا يشقون القلوب ليعرفوا بين الشغافِ مواطـنَ الأسرارِ

وكم تكلم في أعراض الناس بالباطل ، واتهم العفيفات من المنتقبات ، فجوزي بنقيض قصده ، وتكلموا فيه وفي عرضه ، وصار مادحه ذامًّا في نفس جرائد إعلامه ، والجزاء من جنس العمل .

* * *

○ قصيدة ○

ويقول الشاعر :

لئن قالها الطاغوت ربٌّ وعائلٌ فقد قالها فرعون ربكمُ الأعلى
فما الفرق بين القالتين كما ترى سوى بين أعلى عائل فارجع القولَا
وما الفرق بين المصرعين كما ترى سوى بين غرقى كلهم سكن الوحْلَا
فهذا أسيرُ الجزر والمد والعصا ودعوة مظلوم قد انسربت ليلَا
وخيلٌ غريقٌ يستجير بربِّه ورُبَّ غريقٍ مات يستنجدِ الخيلَا
أأم جميل[1] ما على الدهر عاتبٌ فيومًا لنا العليا ويومًا لنا السفلىٰ
ويومًا[2] نهزّ العرش عزمًا وعزّة ويومًا نروم القاعَ نلتمس الظلَّا
ويومًا يذيقُ الله فرعونَ نعمةً ويوما يذيق الله فرعوننا الذلا
ولم يزلِ الإسلام تمضي ركابُه وما زال دينُ الله دومًا هو الأعلى

* * *

---

(١) لا نحكم على معين بالكفر إلا بعد قيام الحجة عليه من قبل عالم ممكن ، ولكن نشبهها بها في شناعة ما جاءت به .

(٢) أيام أن كان كبار الرجال ينحنون أمامها ثم دار الزمان وتغير الحال .



الأدب والبرّ



□ الأدب والبرّ □

الأدب .. قوام هذا الدين ، وأدب العلم أكثر من العلم .

قال ابن المبارك : إذا وصف لي رجلٌ له علم الأولين والآخرين ، لا أتأسف على فوت لقائه ، وإذا سمعت رجلًا له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتاسف على فوته .

وقال : لا ينبل الرجل بنوع من العلم ، ما لم يزين علمه بالأدب .

وروي عنه : طلبت العلم فأصبت فيه شيئًا ، وطلبت الأدب فإذا أهله قد ماتوا[١] .

وقال – رحمه الله – : طلبنا الأدب حينما فاتنا المؤدبون .

وقال : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منَّا إلى كثير من العلم .

اعلم يا أخي .. من أساء الأدب على الباب ، رُدَّ إلى سياسة الدوابّ[٢]

○ الأدب مع الله عز وجل ○

يرحم الله من قال : من صاحب الملوك بلا أدب ، جرَّه ذلك إلى الهلاك والعطب .

وليس كأدب الأنبياء مع مولاهم ..

فانظر إلى سيدهم ، وسيد ولد آدم ، رسول الله ﷺ يقول عنه ربه : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾ [النجم : ١٧] .

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٣ / ٥٥٢) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٧٦) .

قال ابن القيم :

إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام ، إذ لم يلتفت جانبًا ، ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الأدب ، والإخلال به أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله ، أو يتطلع أمام المنظور ، فالالتفات زيغ ، والتطلع إلى ما أمام المنظور طغيان ومجاوزة ، فكمال إقبال الناظر على المنظور ألَّا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة ، ولا يتجاوزه .

وفي هذه الآية أسرار عجيبة ، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ ، تواطأ هناك بصره وبصيرته ، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره ، فالبصيرة مواطئة له ، وما شاهدته بصيرته ، فهو أيضا حق مشهود بالبصر ، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة ؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى** ﴾ [النجم : ١١ - ١٢] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره[١] .

فهذا رسولنا ﷺ لما تأدب مع الله عز وجل ، ووقف عند حده رفعه الله رفعة ما بعدها رفعة ، فأعطاه الله المقام المحمود .

أُفق وضيء طليق مرفرف عاش فيه قلب رسولنا ﷺ وبصره ..

هي لحظات خصّ بها القلب المصفى ، وأدب من بصر رسول الله ﷺ لم يتجاوز رتبته ، وكله شوق ، فأعطاه الله ما لم يعط أحدًا غيره .

من تواضع لله رفعه . لمّا تأدب بصر نبينا ﷺ أثنى الله عليه ، ويسجل هذا في الكتاب الخالد ، وهل بعد هذا من جزاء ؟!!

والجزاء من جنس العمل .

وانظر إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، الذي جاء ربه بقلب سليم .

---

(١) مدارج السالكين (٣٨٢/٢) .

عن ابن عباس أنه قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قالوا : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾[1] [آل عمران : ١٧٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « لما ألقي إبراهيم - عليه السلام - في النار ، قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك » .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما من الله فبلى .

هذا الذي لم يتزود إلا التسليم ، قال الله تعالى للنار : ﴿ **كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

فلما رأينا محبا في بيداء الوجد يهيم : ﴿ **قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

قال السدي : كان معه في النار مَلَك الظل .

لم يلتفت إبراهيم حتى إلى جبريل ، وسلّم لله ، فاستحق أن يكون خليلًا للرحمٰن . وهمّ بذبح ولده ، وآثر الله على من سواه ، فآثره الله على من سواه .

وتعالَ أخي .. إلى العلماء الذين تأدبوا مع ربهم ، وخافوه ، وما خافوا سواه .

من عظم وقار الله في قلبه أن يعصيه ، وقره الله في قلوب الخلق أن يذلوه .

انظر إلى الحافظ الصادق القدوة العابد ،عبد الغني المقدسي الذي كان لا يصبر على إنكار المنكر إذا رآه .

ذكر أن العادل حاكم مصر قال : ما خفت من أحد ، ما خفت من هذا . فقلنا : أيها الملك ، هذا رجل فقيه . قال : لمّا دخل ما خُيل إليّ إلا أنه

---

(١) رواه البخاري .

سبع[١] .

قال أبو بكر بن أحمد الطحان : كان بعض أولاد صلاح الدين ، قد عملت لهم طنابير ، وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ عبد الغني الطنابير فكسرها ، قال : فحدثني الحافظ قال : فلما كنت أنا وعبد الهادي عند حمّام كافور ، إذا قوم كثير معهم عصيّ فخففت المشي ، وجعلت أقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، فلما صرت على الجسر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرت لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر . قال : فإذا فارس يركض فترجّل وقبل يديّ . وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله له هيبة في النفوس[٢] .

لمّا هابوا الله وحده هابتهم الملوك .

انظر إلى الإمام الحسن البصري.

لما قدم عمرو بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن البصري والشعبي ، وأمر لهما ببيت فكانا فيه شهرًا ونحوه ، ثم جاء عمرو إليهما ، فسلم ثم جلس معظما لهما ، فقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك كتب إليّ كتبًا أعرف أن في إنفاذها الهلاك ، فإن أطعته عصيت الله ، وإن عصيته أطعت الله ، فهل تريا لي في متابعتي إياه مخرجا ؟ فقال الحسن للشعبي : أجب الأمير ، فتكلم الشعبي كلامًا يريد به إبقاء وجهه عنده - أي يريد إرضاءه - فقال ابن هبيرة للحسن : ما تقول أنت يا أبا سعيد . قال : أقول يابن هبيرة ، أوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله ، فظ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمرو بن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك ، فيغلق به باب المغفرة دونك . يا عمرو بن هبيرة ، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة ، كانوا عن هذه الدنيا وهي مقبلة،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٥٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٤٥٤ -٤٥٥) .

أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة . يا عمرو ابن هبيرة ، إني أخوفك مقامًا خوفك الله عز وجل فقال : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ [إبراهيم : ١٤] يا عمرو بن هبيرة ، إنك إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك يزيد بن عبد الملك ، وإن تك مع يزيد على معاصي الله وكلك الله إليه . فبكى عمرو بن هبيرة وقام بعبرته ، فلما كان من الغد أرسل إليهما ، فأدناهما وأجازهما فأكثر في جائزة الحسن ، وأنقص جائزة الشعبي ، فخرج الشعبي إلى المسجد فقال : أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله على خلقه فليفعل ، فوالذي نفسي بيده ، ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته ، ولكن أردت وجه ابن هبيرة ، فأقصاني الله منه(١) .

وانظر إلى ابن أبي ذئب ، عالم المدينة .

لما حج المهدي ، دخل مسجد النبي ﷺ ، فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب ، فقال له المسيب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فقال ابن أبي ذئب : إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدي : دعه ، فلقد قامت كل شعرة في رأسي(٢) .

وهذا عليان ، وكانوا يعدونه من مجانين الكوفة . وما هو بذلك ، إنما هو من عبادها.

يقول له المأمون : يا عليان هل من حاجة فأقضيها ؟ قال : نعم ، أريد أن تنسيء في أجلي ، وتتجاوز عن سيئاتي ، وتغفر لي خطيئتي . فبكى المأمون ، وقال : يا عليان ليس هذا إليّ ، أنا لا أقدر أستخلصه لنفسي ، فكيف أستخلصه لك ؟ قال عليان : يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى لم يجعل أحدًا فوقك

---

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين ص ٧٧ تأليف أحمد رضوان أبي الخير .

(٢) مواعظ ومواقف ص ١٠٥ .

في عصرنا ، فيجب عليك ألا يكون أحد أطوع لله منك . فقال له : عظنا يرحمك الله . قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذي أكرمك بما أكرمك به يحب أن تحب له ما أحب ، وتبغض له ما أبغض ، فوالله ، لقد أحب دارًا أبغضتَها وأبغضَ دارًا أحببتها ، كأنما أردت خلاف ربك ، أو أردت سواه ، فاعلم يا أمير المؤمنين ، أن الذي في يديك لو بقي على من كان قبلك إذًا لما صار إليك ، وهكذا هو صائر إلى من بعدك ، فاتقِ الله في خلافتك ، واحفظ محمدًا ﷺ في أمته . فبكى المأمون ثم أمر أن يحشى فمه درّا وياقوتا ، فقال له : أعفني يا أمير المؤمنين ، قال : فأعفاه ثم خرج من عنده ، فقيل له : لِمَ لمْ تقبل جوائز أمير المؤمنين ؟ قال : خشيت أن أمنع جوائز رب العالمين . ثم ولي وهو يقول :

كم ملوك عن الدار تفانوا ... وخلت منهمُ هناك البيوتُ
فسلِ الربع والمنازل عنهم ... هل تُنبِّيكَ عنهمُ أم سكوتُ
حب من شئت فهْو بالموت فانٍ ... غير أني أحببت من لا يموتُ[(١)]

وانظر إلى المحدث الزاهد . شيخ الإسلام بنان الحمال .

امتحن في ذات الله ، فصبر ، وارتفع شأنه ..

قال أبو علي الروذباري : كان سبب دخولي مصر ، حكاية بنان الحمال ، وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف ، فأمر به أن يلقى بين يدي السبع ، قيل له: ما الذي كان في قلبك حين شمك؟ قال: كنت أتفكر في سؤر السباع ولعابها. ثم ضُرب سبع دِرر .

ذكر إبراهيم بن عبد الرحمن أن القاضي أبا عبيد الله ، احتال على بُنان حتى ضربه سبع درر ، فقال : حبسك الله بكل درة سنة . فحبسه ابن طولون سبع سنين .

والجزاء من جنس العمل[(٢)] .

---

(١) مواعظ ومواقف ص١٣٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٤٨٩) ، البداية والنهاية (١١ / ١٥٨ - ١٥٩) .

وانظر يرحمك الله إلى سلطان العلماء العز بن عبد السلام .

قال الشيخ الباجي : طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان أيوب الملك الصالح ، في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه في زينته ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله ، إذا قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : هل جرى ذلك ؟ فقال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعم هذه المملكة . يناديه هكذا بأعلى صوته ، والعساكر واقفون ، فقال : يا سيدي ، هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٢] فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة ، قال الباجي : سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان ، وقد شاع الخبر : يا سيدي كيف الحال ؟ فقال : رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ؛ لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه : فقلت : يا سيدي أما خفته ؟ فقال : والله يا بني ، استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان قدّامي كالقط .

وقد توفي - رحمه الله - في عهد الظاهر بيبرس ، ولما مرت الجنازة تحت القلعة ، وشاهد كثرة الخلق الذين معها ، قال لبعض خواصه : اليوم استقرَّ أمري في الملك ؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه ، لانتزع الملك مني[1] .

وانظر يا أخي ، إلى هذا الشيخ الذي ذكر دينه ، ونسي دنياه إلى الشيخ حسن العدوي .

عندما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر في عهد إسماعيل باشا ، كان إسماعيل حفيًّا بالزيارة ؛ لأنها كانت جزءًا من برنامجه للحصول على لقب خديوي ،

---

(١) مواعظ ومواقف ص ١٥٥ - ١٥٦ .

مع عدة امتيازات في نظام الحكم بمصر ، وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السراي ، ولما كانت للمقابلة السَّنِيَّة تقاليد ، منها أن ينحني الداخل إلى الأرض ، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام ، فقد كان حتما على رجال السراي أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدة أيام ، حتى لا يخطئوا في حضرة السلطان ، وعندما حان الموعد دخل السادة العلماء ، فنسوا دينهم واشتروا دنياهم ، وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ، وخرجوا موجهين وجوههم إلى الخليفة كما أمرهم رجال التشريفات ، إلا عالمًا واحدًا وهو حسن العدوي ، استحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله ، ودخل مرفوع الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ، وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ ؛ دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذابه ، والعدل والرحمة بين رعاياه ، فلما انتهى سلم وخرج مرفوع الرأس وأُسْقِط في يد الخديوي ورجال السراي ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لا بد غاضب ، فضائعة تلك الجهود التي بذلوا ، والآمال التي نسجوا ، ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدى ، فلابد أن تصدع القلوب قوية حارة كما نَبعت من مكمنها قوية حارة ، وهكذا كان ، فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم . وخلع عليه دون سواه(١).

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي :

« إذا خاف اللهَ العبدُ » قدم المفعول ؛ اهتماما بالخوف ، وحثًّا عليه ، « أخاف الله منه كلَّ شيء » من المخلوقات ، « وإذا لم يخفِ العبدُ اللَّهَ ، أخافه الله من كل شيء » ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، كما تدين تدان ، فكما شهد الحق بالتعظيم ، ولم يتعد حقوق الحكيم ، ألبسه الهيبة ، فهابه الخلق بأسرهم ، وحكم عكسه عكس حكمه(٢).

---

(١) مواعظ ومواقف ١٥٩ .

(٢) فيض القدير للمناوي (١/٣٣٢).

○ الأدب مع الأنبياء ○

يقول ابن القيم :

انظر إلى أدب الصديق - رضي الله عنه - مع النبي ﷺ في الصلاة أن يتقدم بين يديه ، فقال : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ . كيف أورثته مقامه ، والإمامة بعده ؟ فكان ذلك التأخر إلى خلفه - وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك - جَمْزًا ، وسعيا إلى قدام .

فبكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي ، والله أعلم[1] .

والجزاء من جنس العمل ..

وانظر إلى أدب أمين هذه الأمة : أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - في يوم أحد ..

يقول الصديق : كنت أول من فاء يوم أحد ، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل الله دونه ، وأراه قال : حمية ، قال : فقلت : كُنْ طلحة حيث فاتني ما فاتني ، فقلت : يكون رجلًا من قومي أحب إليّ ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه ، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته ، وشُجَّ في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المِغْفَرِ ، قال رسول الله ﷺ : « عليكما صاحبكما » . يريد طلحة وقد نزف ، فلم نلتفت إلى قوله ، قال : وذهبت لأنزع ذاك من وجهه فقال : أقسم عليك بحقي لما تركتني ، فتركته ، فكره تناولهما بيده ، فيؤذي رسول الله ﷺ ، فأزم عليها بفيه ، فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٩١ - ٣٩٢) .

صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، قال : ففعل مثلما فعل في المرة الأولى ، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة رضي الله عنه - من أحسن الناس هتما .

انظر أدب أمين هذه الأمة ، لا ينزع حلقتي المغفر بيده ؛ لئلا يؤذي رسول الله ﷺ ، بل يزمهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه ،.. فماذا كان جزاء هذا الفم الطيب ؟

يقول الذهبي : ما رئي هَتْم قط ، أحسن من هتم أبي عبيدة . انقلعت ثنيتاه فحسن ثغره بذهابهما[1] .. فأصبح ثغره بعد الهتم أفضل منه قبل ذلك ..

والجزاء من جنس العمل .

وانظر إلى أدب طلحة الخير ، طلحة بن عبيد الله ، أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أحد .

قال ابن إسحٰق : نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ؛ ليعلوها ، وكان قد بدّن[2] ، وظاهر بين درعين[3] ، فلما ذهب لينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى عليها .

فكان ثواب طلحة الخير ، على هذا العمل الجليل الجنة ، فقد روى ابن إسحٰق أن النبي - ﷺ - قال : بعد أن حمله طلحة إلى الصخرة - : « أوجب طلحة » .

كما أن نهوض طلحة بالنبي ﷺ كان بركة عليه ، أو تسبب ذلك في علاج إحدى رجلي طلحة من العرج الذي أصابها أثناء دفاعه عن النبي ﷺ بعد النكسة .

---

(١) البداية والنهاية (٥ / ٣١) ، سير أعلام النبلاء (١ / ٨) .

(٢) ضعف وأسن .

(٣) لبس درعًا فوق درع .

وذلك أن طلحة عندما حمل النبي ﷺ تكلف استقامة المشي ؛ لئلا يشق على النبي ﷺ فاستوت رجله العرجاء ، لهذا التكلف ، فشفي من العرج ، ويظهر أن سبب العرج الذي أصاب طلحة انفراط في الورك ، وهذا الانفراط يسبب قصرًا في الرجل ، ولا يزول هذا إلا بعد عودة ما انفرط إلى مكانه ، وهذا لا يعود إلى مكانه إلا بعملية شد عنيفة تعيد العضو المفروط إلى مكانه ، ولكن تكلف استقامة المشي ناب عن هذه العملية ، فعادت الورك إلى حالتها الطبيعية[١] .

والجزاء من جنس العمل ، فكما رفع النبي ﷺ رفع عنه العرج .

وانظر إلى صِدِّيق الأنصار .. سعد بن معاذ - رضي الله عنه - لما تأدب مع النبي ﷺ أثناء الحكم .. كيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟! .

لما وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقر قيادة النبي ﷺ في بني قريظة ، قال له النبي ﷺ : « احكم فيهم يا سعد » . فقال إن رسول الله ﷺ أحق بالحكم . فقال ﷺ : « قد أمرك الله أن تحكم فيهم » .

غير أن سعدًا - وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم على حلفائهم اليهود - أحب أن يستوثق من الجميع ، ويأخذ عليهم العهد الأوسِ وبني قريظة ، بأن حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش .

فقد وقف الحَكَم الشاب الجريح سعد بن معاذ في المعسكر النبوي ، ووجه حديثه إلى قومه الأوس خاصة ، وإلى مَنْ في المعسكر عامة قائلًا : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم كما حكمت ؟ قالوا : نعم . ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها ، ثم قال وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكبارًا : وعلى مَنْ هاهنا ؟ وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ . فقال عليه الصلاة والسلام : «نعم»[٢]. ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانبًا في

---

(١) سلسلة معارك الإسلام لباشميل معركة أحد ١٦٦ .

(٢) سيرة ابن هشام (٢ / ٢٤٠) .

المعسكر ، ليستوثق منهم قائلًا : أترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم .

فحكم أن تقتل المقاتِلَة ، وأن تُسْبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم .

ولما نطق سعد بن معاذ بالحكم قال له النبي ﷺ : « حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سمٰوات » .

وعند البخاري : أن رسول الله ﷺ أتى بني قريظة ، فنزلوا على حكم ، فردّ الحكم إلى سعد بن معاذ .

انظر إلى أدب سعد أثناء الحكم ، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ وهو معرض عنها ؛ إجلالًا لرسول الله ﷺ .

سعد بن معاذ ، الذي يقول ابن كثير في البداية والنهاية : إنه أُتي به على حمار ، عليه إكاف من ليف ، قد حمل عليه ، وحفّ به قومه - الأوس - فقالوا : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولَّاك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .

أدب رفيع من سعد أثناء الحكم ، وفي الحكم ، فجازاه الله من جنس عمله ، بأن رفع حكمه هذا ، وجعله حكمَ الله من فوق سبع سموات .

وانظر إلى أدب خطيب الأنصار ، ثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنه - مع رسول الله ﷺ لما نزل قول الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكسًا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا . قال موسى بن أنس : فرجع إليه المرة الأخيرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة »(١) .

---

(١) رواه البخاري .

روى الإمام أحمد ، عن أنس : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...** ﴾ الآية [الحجرات : ٢] وكان ثابت بن قيس الشماس رفيع الصوت ، فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ، وجلس في أهله حزينا ، ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : فقدك رسول الله ﷺ ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ ، وأجهر له بالقول ، حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتوا النبي ﷺ ، فأخبروه بما قال ، فقال : « لا،هو من أهل الجنة » .

قال أنس: فكنا نراه يمشي بين ظهرانينا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة ، كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه فقال : بئسما تعودون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل[1] .

وعند ابن جرير : أن ثابتًا قال لرسول الله ﷺ لما أتاه : أنا صيِّت ، وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول** ﴾ [الحجرات : ٢] فقال له النبي ﷺ : « أما ترضى أن تعيش حميدًا ، وتقتل شهيدًا ، وتدخل الجنة ؟ » . فقال : رضيت ببشرى الله ورسوله ، ولا أرفع صوتي أبدًا على رسول الله ﷺ .

هذا الذي بكى ، وخاف من علو صوته – وقد جبله الله كذلك – على صوت رسول الله ﷺ ، وخاف وظن أنه من أهل النار ، فبشره الرسول ﷺ بالشهادة والجنة .

وقصة ثابت وسلب درعه مشهورة : إذ إنه بعد أن قتل ، أتى رجلًا من المسلمين في المنام وقال : أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول : هذا حلم فتضيع ،

---

(١) رواه أحمد في المسند .

إني لما قتلت أمس ، مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ، ومنزله في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يستن في طِوَله ، وقد كفأ على الدرع برمة ، وفوق البرمة رحل .. ولا نعلم أحدًا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت[1] .

فكان جزاء هذا الصوت ، الذي لم يرتفع على صوت النبي ﷺ ، أن يوقر ، وأن يسمع له ، ولو بعد موته .

والجزاء من جنس العمل .

إمام دار الهجرة مالك بن أنس ..

أما أدب مالك بن أنس – رحمه الله – إمام دار الهجرة ، مع رسولنا ﷺ – فإنه ما كان يُحدث حديث رسول الله ﷺ إلا على وضوء ، وما كان – رحمه الله – يركب دابة بالمدينة ، ويقول : أوقر أرضًا دفن فيها رسول الله ﷺ . فوقره الناس حتى يقول أمير المدينة : لحملي غبار العقيق أهون عليّ من لقاء مالك .

وفي مالك قيل :

يدعُ الجوابَ فلا يُراجعُ هيبةً ... والسائلون نـواكسُ الأذقـانِ
نور الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المهِيبُ وليس ذا سلطانِ

تأدب مع النبي ﷺ فتأدب معه الناس ..

والجزاء من جنس العمل .

○ الأدب مع العلماء ○

يقول ابن جماعة الكناني : ليعلم طالب العلم أن ذله لشيخه عز ، وأن خضوعه له فخر ، وتواضعه له رفعة ، وعلى طالب العلم أن ينظر شيخه بعين

(١) تفسير القرطبي (٩/٦١٢٦) .

الإجلال ، فإن ذلك أقرب إلى نفعه به ، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء وقال : اللهم استر عيب شيخي عني ، ولا تُذهب بركة علمه مني[١] .

ولننظر إلى ترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنهما - وإلى أدبه مع العلماء ..

عن الشعبي - رحمه الله - قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ، ثم قربت له بغلة ليركبها ، فجاء ابن عباس ، فأخذ بركابه ، فقال له زيد : خلِّ عنه يا بن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ذللت متعلما فعززت عالما .

وكان جزاؤه من جنس عمله .

فانظر إلى أدب مجاهد وعكرمة معه .

ولننظر إلى أدب الشافعي - رحمه الله - وليس كالشافعي في الأدب مع شيوخه .

يقال : إن الشافعي عوتب على تواضعه للعلماء ، فقال :

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ولن تُكْرِمَ النفس التي لا تهينها[٢]

وقال الشافعي : كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحًا رقيقًا هيبة له ؛ لئلا يسمع وقعها[٣] .

فلما تأدب الشافعي مع شيخه تأدب معه تلميذه الربيع بن سليمان ، فكان يقول : والله ما اجترأت أن أشرب الماء ، والشافعي ينظر ؛ هيبة له[٤] .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص٨٧ .

(٢) فضل العلم لمحمد سعيد رسلان ص١٢٩ - ١٣٠ .

(٣) المجموع (١ / ٣٦) .

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٢٢٦) .

لسان حاله يقول :

طهرتمْ فَطُهِّرْنا بفاضِلِ طُهْركم وطبتمْ فمن أنفاسِ طيبكم طِبْنا

وانظر إلى أدب إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل مع شيوخه :

عن عمرو الناقد قال : كنا عند وكيع ، وجاء أحمد بن حنبل فقعد ، وجعل يصف من تواضعه بين يديه ، قال عمرو : فقلت: يا أبا عبد الله ، إن الشيخ يحترمك فمالك لا تتكلم ؟ قال : وإن كان يكرمني فينبغي لي أن أجله .

قال قتيبة بن سعيد : قدمت بغداد ، وما كان لي همة إلا أن ألقى أحمد ابن حنبل ، فإذا هو قد جاءني مع يحيى بن معين ، فتذاكرنا ، فقام أحمد بن حنبل ، وجلس بين يدي وقال : أمل عليّ هذا ، ثم تذاكرنا ، فقام أيضًا وجلس بين يدي ، فقلت : يا أبا عبد الله ، اجلس مكانك ، فقال : لا تشتغل بي ، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه .

قال إسحٰق الشهيد : كنت أرى يحيى القطان يصلي العصر ، ثم يستند إلى أصل منارة المسجد ، فيقف بين يديه عليُ بن المديني ، والشاذكوني ، وعمرو بن علي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وغيرهم يستمعون الحديث ، وهم قيام على أرجلهم ، إلى أن تحين صلاة المغرب ، لا يقول لأحد منهم اجلس ، ولا يجلسون هيبة وإعظامًا .

قال خلف : جاءني أحمد بن حنبل ، يسمع حديث أبي عوانة ، فاجتهدت أن أرفعه فأبى وقال : لا أجلس إلا بين يديك ، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه[1] .

وكان جزاؤه من جنس عمله ، تأدب مع شيوخه ، فتأدب معه ، وهابه تلامذته ..

يقول أبو عبيد القاسم بن سلام : جالست أبا يوسف ، ومحمد بن

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٨٢ ، ٨٣ .

الحسن ، ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن به مهدي ، فما هبت أحدًا منهم ، ما هبت أحمد بن حنبل[1] .

وقال عبدوس : رآني أبو عبد الله يومًا وأنا أضحك ، فأنا أستحييه إلى اليوم .

وانظر إلى أبي بكر المروزي تلميذه ، وكان خصيصا بخدمة أحمد ، وكان أحمد يقدمه ويأكل من تحت يده ، خرج المروزي يومًا إلى الغزو ، فشيعه الناس إلى سامرا ، فجعل يردهم فلا يرجعون ، قال : فحزروا ، فإذا هم بسامرا سوى من رجع نحوًا من خمسين ألف إنسان ، فقيل له : يا أبا بكر احمد الله ، فهذا علم قد نشر عليك ، قال : فبكى ثم قال : ليس هذا العلم ، وإنما هذا علم أحمد بن حنبل .

قال إبراهيم الحربي لعبد الله بن الإمام أحمد : والله لو رأى ابن عيينة أباك لقام إليه .

وقال الحربي : يقول الناس لأحمد بن حنبل بالتوهم ، والله ، ما أجد لأحد من التابعين عليه مزية ، ولا أعرف أحدًا يقدر قدره ، ولا يُعرف لأحد من الإسلام محله ، ولقد صحبته عشرين سنة صيفًا وشتاء ، وحرًّا وبردًا ، وليلًا ونهارًا ، فما لقيته لقاة في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس ، ولقد كان يقدم أئمة الإسلام ، والعلماء من كل بلد وإمام كل مصر ، فهم بجلالتهم ما دام الرجل منهم خارجًا من المسجد ، فإذا دخل المسجد صار غلامًا متعلمًا .

وقال عنه تلميذه عبد الوهاب الوراق : أبو عبد الله إمامنا ، وهو من الراسخين في العلم ، إذا وقفت غدا بين يدي الله عز وجل ، فسألني : بمن اقتديت ؟ أقول : بأحمد ، وأي شيء ذهب على أبي عبد الله من أمر الإسلام ، وقد بلي عشرين سنة في هذا الأمر .

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .

يرحم الله ابن حنبل ، صان العلم فصانه ، وحفظ العلم فحفظه ، حتى قال فيه يحيى ابن معين : قل يا معلم الخير .

○ بر الوالدين ○

قال تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولًا كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾ [الإسراء : ٢٣ - ٢٤] .

يربط السياق القرآني بر الوالدين بعبادة الله ؛ إعلانا لقيمة هذا البر عند الله ، بهذه العبارات النديَّة ، والصور الموحية ، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء إلى الأبوة ، إلى الحياة المولية ، إلى الجيل الذاهب ، الذي يمتص الأولاد منه كل رحيق وكل عافية ، وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هم شيوخة فانية ، إن أمهلهما الأجل ، وهما مع ذلك سعيدان .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ تعبير يشف ويلطف ، ويبلغ شِغاف القلب ، وحنايا الوجدان ، فهي الرحمة ترق وتلطف ، حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عينا ، ولا يرفض أمرًا ، وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانًا بالسلام والاستسلام .

الويل كل الويل لعاقٍّ والديه ، والخزي كل الخزي لمن ماتا غِضابًا عليه ، أفّ لك هل جزاء المحسن إلا الإحسان إليه ، أتبع الآن تقصيرك في حقهما أنينًا وزفيرا .﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾ .

كم آثراك بالشهوات على النفس ، ولو غبت ساعة صارا في حبس ، حياتهما عندك بقايا شمس، لقد راعياك طويلًا فارعهما قصيرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا** ﴾.

كم ليلة سهرا معك إلى الفجرِ ، يداريانك مداراة العاشق في الهجرِ ، فإن

مرضت أجريا دمعًا لم يجرِ ، تالله ، لم يرضيا لتربيتك غير الكف والحجر سريرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا** ﴾ .

يعالجان أنجاسك ويحبان بقاءك ، ولو لقيت منهما أذى شكوت شقاءك ، ما تشتاق لهما إذا غابا ويشتاقان لقاءك ، كم جرَّعاك حلوا وجرعتهما مريرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا** ﴾ .

تحب أولادك طبعًا ، فأحبب والديك شرعًا ، وتذكر أصلًا أنبت لك فرعًا ، وتذكر طيب المرعى أولًا وأخيرًا ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾(١) .

وانظر إلى بر إبراهيم عليه السلام بأبيه ، وقد كان كافرا ، ولطفه في خطابه ، وحرصه على هدايته ..

قال تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقا نبيًّا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطًا سويًّا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصيًّا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليًّا** ﴾ [مريم : ٤١ - ٤٦] .

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب ، وذلك شأن الإيمان مع الكفر ، وشأن القلب الذي هذبه الإيمان ، والقلب الذي أفسده الكفر .

ولم يغضب إبراهيم الحليم ، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه : ﴿ **قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا** ﴾ [مريم : ٤٧] .

فرزقه الله بإسماعيل الذي تأدب معه .. ﴿ **قال يا أبت افعل ما تؤمر** ﴾ [الصافات : ١٠٢] يا أبت ، يا أبت ، في مودة وقربى ، وشبح السكين لا يزعجه.،

---

(١) التبصرة لابن الجوزي (١ / ١٨٩ - ١٩٠) .

ولا يفزعه، ولا يفقده رشده، بل لا يفقده أدبه ومودته، والجزاء من جنس العمل.

قال رسول الله ﷺ : « برُّوا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعِف نساؤكم »(١) .

قال المناوي : « برُّوا آباءكم » أي وأمهاتكم وكأنه اكتفى به عنه من قبيل : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] ، « تبركم أبناؤكم » وكما تدين تدان(٢) .

بِرُّ سيد التابعين ، أويس القرني ..

قال رسول الله ﷺ : « إن خير التابعين رجل يقال له : أويس ، وله والدة هو بها بَرٌّ ، لو أقسم على الله لأبرّه ، وكان به بياض ، فمروه فليستغفر لكم »(٣) .

كان عمر - رضي الله عنه - إذا أتى أمداد اليمن سألهم : فيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس بن عامر ، قال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : كان بك برص فبرأت منه ، إلا موضع درهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس ابن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بار بها ، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت

---

(١) حسن ؛ رواه الطبراني عن ابن عمر ، والحاكم في تاريخه ، قال في فيض القدير (٣/٢٠٠) : هذا الحديث روي عن خمسة من الصحابة ابن عمر ، وأنس ، وأبي هريرة ، وجابر ، وعائشة . قال المنذري : إسناده حسن ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد ، غير منسوب ، والظاهر أنه من المتكثرين من شيوخه فلذلك لم ينسبه ، وبالغ ابن الجوزي فجعله موضوعًا . وقال ابن عراق في تنزيه الشريعة : رأيت بخط الحافظ ابن حجر أن رواية الطبراني بسند حسن .

(٢) فيض القدير (٣ / ٢٠٠) .

(٣) رواه مسلم عن عمر .

أن يستغفر لك فافعل » فاستغفر لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة ، قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون في غبراء الناس أحب إلي .

منع أويس من القدوم على النبي ﷺ بِرُّهُ بأمه ، فلما برّ أمه برّ اللهُ قسمه . والجزاء من جنس العمل .

بل ، وأبرّ الله شفاعته ، قال رسول الله ﷺ : « ليدخلن الجنَّة بشفاعة رجل ليس بنبي ، مثل الحيين ربيعة ومضر ، إنما أقول ما أُقوَّل[١] »[٢] .

وقال أيضًا : « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي ، أكثر من بني تميم »[٣] .

قال المناوي : « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل » قيل : إنه أويس القرني[٤] .

وانظر إلى حارثة بن النعمان ..

عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ : « دخلت الجنة ، فسمعت قراءة فقلت : من هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان » . فقال رسول الله ﷺ : « كذلكم البر كذلكم البر » .

وزاد عبد الرزاق في رواية : وكان أبر الناس بأمه[٥] .

---

(١) أُقوَّل : أي لُقنته ، أو علمته ، أو ألقي على لساني من الإلهام ، أو هو وحي حقيقةً .

(٢) رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة ، وحسنه السيوطي ، وقال المنذري : رواه أحمد بإسناد جيد ، وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني بأسانيد ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، وأحد أسانيد الطبراني رجالهم رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة ، وهو ثقة .

(٣) رواه أحمد وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم ، وقال : صحيح ، رواه بشر بن الفضل عن خالد .

(٤) فيض القدير (٥/ ٣٥٢) .

(٥) رواه أحمد والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ في الإصابة (١ / ٦١٨) إسناده صحيح .

○ إفشاء السلام ○

قال رسول الله ﷺ : « أفشوا السلام تسلموا »[١] .

قال المناوي : « أفشوا السلام » بينكم ، « تسلموا » من التنافر والتقاطع ، وتدوم لكم المودة ، وتجمع القلوب ، وتزول الضغائن والحروب ، فأخبر المصطفى ﷺ أن السلام يبعث على التحابب ، وينفي التقاطع .

قال الماوردي : وقد جاء في كتاب الله ما يفيده ، قال الله تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ [فصلت : ٣٤] فحكي عن مجاهد أن معناه ادفع بالسلام ، إساءة المسيء ، قال بعضهم : وإفشاء السلام ابتداء ، يستلزم إفشاءه جوابا .

قال ابن دقيق العيد : استدل بالأمر بالإفشاء من قال بوجوب الابتداء بالسلام ، وفيه نظر ، إذ لا سبيل إلى القول بأنه فرض عين على التعميم من الجانبين ، وهو أن يجب على كل أحد أن يسلم على كل من لقيه ، لما فيه من الحرج والمشقة ، فإذا سقط من جانبي العمومين سقط من جانبي الخصوصين ، إذ لا قائل بأنه يجب على واحد دون الباقين ، وإذا سقط على هذه الصورة لم يسقط الاستحباب ؛ لأن العموم بالنسبة إلى كلا الفريقين ممكن[٢] .

قال ابن حجر : وهذا البحث ظاهر في حق من قال : إن ابتداء السلام فرض عين لا كفاية ، إذا قلنا : إنه واجب على واحد لا بعينه .

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو نعيم ، وابن حبان ، والعقيلي عن البراء ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٩٨ ، الإرواء ٧٦٩ ، الصحيحة ١٤٩٣ .

(٢) فيض القدير (٢ / ٢٢ - ٢٤) .

وإفشاء السلام فيه مصلحة عظيمة ، من اجتماع قلوب المسلمين ، وتناصرهم وتعاضدهم ؛ ولهذا قال بعضهم : إنه أدفع للضغينة بغير مؤنة ، واكتساب أخوة بأهون عطية .

وإفشاؤه : نشره لكافة المسلمين ، من عرف ، ومن لم يعرف .

قال النووي : الإفشاء : الإظهار ، والمراد نشر السلام بين الناس ليحيوا سنته ، وأقله بأن يرفع صوته بحيث يسمع المُسلّم عليه ، فإن لم يسمعه لم يكن آتيا بالسنة ، ويستحب أن يرفع صوته بقدر ما يتحقق أنه سمعه .

قال ابن العربي : من فوائد إفشاء السلام حصول الألفة ، فتتآلف الكلمة ، وتعم المصلحة ، وتقع المعاونة على إقامة شرائع الدين ، وإخزاء الكافرين ، وهي كلمة إذا سمعت أخلصت القلب الواعي لها غير الحقود إلى الإقبال على قائلها .

قال القاضي : ويستثنى من ندب رفع الصوت بالسلام ، ما لو دخل مكانًا فيه نيام ، فالسنة ما ثبت في صحيح مسلم ، أن المصطفى ﷺ كان يجيء من الليل ، فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا ، ويسمع اليقظان .

دخل في عموم إفشائه للسلام ، من دخل مكانًا ليس فيه أحد ، لقوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : ٦١] وفي الأدب بسند حسن عن ابن عمر : يستحب إذا لم يكن بالبيت أحد أن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

قال بعضهم : والحكمة فيه أن ابتداء التلاقي ، وما ألحق به من مواطن مشروعية السلام ربما نشأ عنه خوف ، أو كبر من أحد الجانبين ، فشرع نفيهما بالبداءة بتحية السلام ، وإزالة للخوف ، وتحليا بالتواضع .

واستثنى بعضهم من طلب إفشاء السلام ، ما لو علم من إنسان أنه لا يرد عليه ، فلا يسلم عليه ؛ لئلا يوقعه في المعصية ، وتبعه النووي بأن المأمورات الشرعية لا تترك لمثل ذلك ، ولو نظرنا لذلك لبطل إنكار كثير من المنكرات . ورده ابن دقيق العيد : بأن مفسدة توريط المسلم في المعصية أشد من مصلحة السلام ، سيما وامتثال الإفشاء يحصل مع غيره . اهـ .

وقال ﷺ : « أفشوا السلام كي تَعْلُوا »(١) .

« أفشوا السلام تسلموا » ، والجزاء من جنس العمل .

إذا أفشيتموه تحاببتم ، فاجتمعت كلمتكم ، فقهرتم عدوكم ، وعلوتم عليهم ، وكانت لكم الرفعة أيضًا عند الله .

قد يمكث الناس دهرًا ليس بينهمُ   ودٌّ فيزرعه التسليمُ واللطفُ

فوائد :

قال رسول الله ﷺ : « إذا اصطحب رجلان مسلمان ، فحال بينهما شجر أو حجر أو مدر ، فليسلم أحدهما على الآخر ، وتبادلوا السلام »(٢) .

وقال ﷺ : « ما حسدتكم اليهود على شيء ، ما حسدتكم على السلام والتأمين »(٣) .

وقال ﷺ : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى : فأفشوه بينكم »(٤) .

وقال ﷺ : « إن موجبات المغفرة بذل السلام ، وحسن الكلام »(٥) .

وفي الصحيح عنه ﷺ : « وأما الدرجات فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام »(٦) .

---

(١) رواه الطبراني عن أبي هريرة ، ورمز السيوطي لضعفه ، وليس كما زعم ، فقد قال الحافظ المنذري : إسناده جيد ، وقال الهيثمي وغيره : إسناده حسن . فيض القدير (٢ / ٢٣) .

(٢) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٢ .

(٣) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٨٩.

(٤) صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٣٥ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في المعجم الكبير عن هانىء بن يزيد ، ورواه الخرائطي والقضاعي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٢٢٨ .

(٦) جزء من حديث الترمذي ؛ حديث اختصام الملأ الأعلى ، وهو صحيح .

وقال ﷺ : « حق المسلم على المسلم خمس : السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس »(١) .

وقال ﷺ : « السلام قبل السؤال ، فمن بدأكم بالسؤال قبل السلام ، فلا تجيبوه »(٢) .

وقال ﷺ : « يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم »(٣) .

وقال ﷺ : « يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القائم ، والقليل على الكثير »(٤) .

وقال ﷺ : « يسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والقليل على الكثير »(٥).

وقال ﷺ : « لا تقل : عليك السلام ؛ فإن عليك السلام تحية الموتى ، ولكن قل : السلام عليك »(٦). قال ابن مفلح في الآداب الشرعية : إسناده جيد .

وقال ﷺ: «إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم»(٧).

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة . والتشميت أن يدعو له بالخير فيقول : يرحمك الله .

(٢) حسن : رواه ابن النجار عن ابن عمر ، ورواه ابن عدي وابن السني وأبو نعيم في الحلية ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٩٣ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن علي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٧٩ .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد عن أبي هريرة .

(٥) رواه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

(٦) رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم في المستدرك عن جابر بن سليم ، ورواه أحمد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢٧٩ . جرت به عادة العرب في تحية الأموات ، يقدمون اسم الميت :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

(٧) رواه البخاري ومسلم وأحمد ومالك عن ابن عمر .

وقال ﷺ : « إذا لقيتم المشركين في الطريق ، فلا تبدءوهم بالسلام ، واضطروهم إلى أضيقها »[١] .

وقال ﷺ : « ليس منا من تشبه بغيرنا ، ولا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى ، فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى الإشارة بالكف»[٢].

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية :

ولو سلم على أصم جمع بين اللفظ والإشارة ، فإن لم يجمع لم يجب الجواب ، فإن سلم عليه أصم ، جمع بين اللفظ والإشارة في الرد والجواب ، فأما الأخرس فسلامه بالإشارة وكذلك جواب الأخرس ، ويؤخذ من المسألة قبلها أن من سلم على أخرس أو ردَّ سلامه جمع بين اللفظ والإشارة ، وهو متوجه ، والواجب منه رفع الصوت به قدر الإبلاغ ، وقد ورد ما يدل على خلاف هذا[٣].

وقال ﷺ : « من بدأ بالسلام ، فهو أولى بالله ورسوله »[٤] .

وقال ﷺ : « من أشراط الساعة ، أن يمر الرجل في المسجد لا يصلي فيه ركعتين ، وألَّا يسلم الرجل إلا على من يعرف »[٥] .

وروى أحمد في مسنده بسند صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق ، وظهور القلم»[٦].

---

(١) المعنى ألا تتركوا لهم صدر الطريق إكرامًا واحترامًا .

(٢) حسن : رواه الترمذي عن ابن عمرو ، ورواه الطبراني في الأوسط ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٣١٠ .

(٣) الآداب الشرعية (١ / ٣٧٨) .

(٤) أولى برحمة الله ، وشفاعة رسوله ﷺ ، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١ / ٣٧٧):حديث جيد .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٧٧٢ .

(٦) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧ ، والقيامة الصغرى للأشقر ص١٩٢ .

ومراده بتسليم الخاصة : ألَّا يسلم المسلم إلا على من يعرفه .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ : « إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة » . وفي رواية : « أن يسلم الرجل على الرجل ، لا يسلم عليه إلا للمعرفة »(١).

قال ابن مفلح : ويجوز تعريف السلام بالالف واللام ، وتنكيره على الأحياء والأموات ، وقيل تنكيره أفضل ، وقال ابن البنا : سلام التحية مُنَكّر وسلام الوداع معرّف ، وقال ابن عقيل : سلام الأحياء مُنَكّر ، وسلام الأموات مُعَرّف ، أما سلام الرد فمعرّف(٢) .

وقال : قال ابن هبيرة : إن سلم على رجل فقد أمنه ، فالفارس أقوى من الراجل ، فأمر عليه السلام ، بسلام الأقوى على الأضعف ، وسلام القليل على الكثير ، ولو سلم الغائب عن العين من وراء جدار أوستر ، السلام عليك يا فلان ، أو سلم الغائب عن البلد برسالته أو كتابه وجبت الإجابة عند البلاغ عندنا ، وعند الشافعية ؛ لأن تحية الغائب كذلك ، ويستحب أن يسلم على الرسول ، قيل لأحمد : إن فلانًا يقرئك السلام ، قال : عليك وعليه السلام ، وقال في موضع آخر : سلم الله عليك وعليه . وقال رجل لأبي ذر : فلان يقرئك السلام ، فقال : هدية حسنة ومحمل خفيف .

وفي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، هذا جبريل يقرأ عليك السلام » ، فقالت : وعليه السلام ورحمة الله . زاد البخاري في رواية : وبركاته . وزاد أحمد : جزاه الله خيرًا من صاحب ودخيل ، فنعم الصاحب ونعم الدخيل .

قال في شرح مسلم : وفيه بعث الأجنبي السلام إلى الأجنبية الصالحة ، إذا لم يخف ترتب مفسدة ، وفيه دليل أنه لا يجب الرد على مبلغ السلام ، وهو

---

(١) صحيح : رواه أحمد عن ابن مسعود ، والطبراني في الكبير عن الأسود بن يزيد . وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨ .

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٣٧٥) .

الرسول ﷺ .

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام ولكن قولوا : التحيات لله »[(١)] .

قال ابن مفلح : إن دخل على جماعة فيهم علماء سلم على الكل ، ثم سلم على العلماء سلامًا ثانيًا ، ذكره ابن تميم ، وابن حمدان ، وظاهر كلام بعضهم خلافه .

○ البلاء والمرض ○

قال رسول الله ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط »[(٢)].

قال المناوي : من بلاؤه أعظم ، فجزاؤه أعظم ، « وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم » أي اختبرهم بالمحن والرزايا ، وهو أعلم بحالها ، قال لقمان لابنه : يا بني ، الذهب والفضة يختبران بالنار ، والمؤمن يختبر بالبلاء ، فمن يرضى قضاءً ابتلي به ، فله الرضا من الله ، وجزيل الثواب ، ومن سخط وكره قضاء ربه ، ولم يرضه فله السخط منه تعالى ، وأليم العذاب.و ﴿من يعمل سوءًا يُجز به﴾ [النساء: ١٢٣].

وقوله ﷺ : « من رضي فله الرضى » شرط وجزاء ، فهم منه أن رضى الله مسبوق برضى العبد ومحال أن يرضى العبد عن الله إلا بعد رضى الله عنه ، كما قال : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ [البينة : ٨] ومحال أن يحصل رضى الله ، ولا يحصل رضى العبد في الآخرة ، فعن الله الرضى أزلًا وأبدًا .

وفيه جنوح إلى اختيار الصحة على البلاء ، والعافية على السقم ، ولا ينافيه الأمر بسؤال العافية ، وأنها أفضل الدعاء ، وأنه إنما كرهه لأجل الجرائم واقتراف العظائم ، كيلا يلقوا ربهم غير مطهرين من دنس الذنوب ، فالأصلح لمن كثرت

---

(١) رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والدارقطني .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢١٠٦ ، تخريج المشكاة ١٥٦٦ ، والسلسلة الصحيحة ١٤٦ .

خطاياه السكوت والرضى ليخف ، والتطهير بقدر التمحيص ، والأجر بقدر الصبر[١] .

« من رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .. والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، لقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها[٢] فيلبسها ، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله ، ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء » .

وقال ﷺ : « أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صُلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » .

وقال ﷺ : « إن الصالحين يشدد عليهم » .

وقال ﷺ : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » .

ويقول ﷺ : «ليودنَّ أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء » .

يقول ابن القيم : رضى العبد عن ربه – سبحانه وتعالى – في جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه ، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق ، رضي ربه به عنه بالقليل من العمل .

وإذا رضي عنه في جميع الحالات ، واستوت عنده ، وجده أسرع شيء ى رضاه إذا ترضَّاه وتملقه[٣] .

ويقول أيضًا : إن الرضى عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضى الله عنه .

---

(١) فيض القدير (٢ / ٤٥٩) .

(٢) أي يقطعها .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٠٦) .

فإن الجزاء من جنس العمل[١] .

○ من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا وقعودًا ○

خرج معاوية على ابن الزبير ، وابن عامر ، فقام ابن عامر ، وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا ، فليتبوأ مقعده من النار »[٢] .

يتمثل : أي ينتصب ، والمثول هو الانتصاب .

قال المناوي : « من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا » يعني يقومون قيامًا بأن يلزمهم بالقيام صفوفًا ، على طريق الكبر والتجوه ، أو بأن يقام على رأسه وهو جالس .

« فليتبوأ مقعده من النار » ، قال الزمخشري : أمر بمعنى الخبر ، كأنه قال : من أحب ذلك وجب له أن ينزل منزلته من النار وحق له ذلك .

وذلك لأن ذلك إنما ينشأ عن تعظيم المرء نفسه ، واعتقاد الكمال ، وذلك عجب وتكبر ، وجهل وغرور ، ولا يناقض خبر : « قوموا إلى سيدكم » لأن سعدًا لم يحب ذلك ، والوعيد إنما هو لمن أحبه .

قال النووي : ومعنى الحديث زجر المكلف أن يحب قيام الناس له ، ولا تعرض فيه للقيام بنهي ولا بغيره ، والمنهي عنه محبة القيام له ، فلو لم يخطر بباله فقاموا له أو لم يقوموا فلا لوم عليه ، وإن أحبّه أثم ، قاموا أو لا فلا يصح الاحتجاج به لترك القيام ، ولا يناقضه القيام لأهل الكمال ونحوهم[٣] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢١٠) .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي عن معاوية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٣٣ ، والصحيحة ٣٥٦ .

(٣) فيض القدير (٦ / ٣١ - ٣٢) .

قال ابن مفلح : حمله الخطابي على ما إذا أمرهم بذلك وألزمهم على طريق الكبر .

قال إسحق بن إبراهيم : قلت لأبي عبد الله : ما معنى الحديث « لا يقوم أحد لأحد » ؟ قال : إذا كان على وجه الدنيا مثل ما روى معاوية فلا يعجبني[(١)] .

قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فقال عمر : سيدنا الله عز وجل قال : « أنزلوه » فأنزلوه[(٢)] .

وعن أبي سعيد الخدري : أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد ، فأرسل إليه النبي ﷺ فجاء ، فقال : « قوموا إلى سيدكم » أو قال : « خيركم » فقعد عند النبي ﷺ.. الحديث[(٣)] .

قال الألباني :

١ - اشتهر رواية هذا الحديث بلفظ « لسيدكم » والرواية في الحديثين كما رأيت « إلى سيدكم » ولا أعلم للفظ الأول أصلًا ، وقد نتج منه خطأ فقهي ، وهو الاستدلال به على استحباب القيام للقادم كما فعل ابن بطال وغيره .

قال الحافظ محمد ناصر أبو الفضل في : التنبيه على الألفاظ التي وقع في نقلها وضبطها تصحيف وخطأ في تفسيرها ومعانيها ، تحريف في كتاب الغربيين عن أبي عبيد الهروي .

ومن ذلك ما ذكره في هذا الباب من ذكر السيد ، وقال كقوله لسعد حين قال : « قوموا لسيدكم » أراد أفضلكم رجلا ، قلت : والمعروف أنه قال : « قوموا إلى سيدكم » قاله ﷺ لجماعة من الأنصار لما جاء سعد بن معاذ محمولا على حمار وهو جريح... أي أنزلوه واحملوه لا قوموا له من القيام له ، فإنه أراد

---

(١) الأدب للخلال . (٢) إسناده حسن .

(٣) أخرجه البخاري وأبو داود وأحمد وأبو يعلى في مسنده .

بالسيد : الرئيس والمتقدم عليهم ، وإن كان غيره أفضل منه .

٢ - اشتهر الاستدلال بهذا الحديث على مشروعية القيام للداخل ، وأنت إذا تأملت في سياق القصة يتبين لك أنه استدلال ساقط من وجوه كثيرة ، أقواها قوله ﷺ : « فأنزلوه » . فهو نص قاطع على أن الأمر بالقيام إلى سعد إنما كان لإنزاله من أجل كونه مريضًا ، ولذلك قال الحافظ : وهذه الزيادة تخدش في الاستدلال بقصة سعد على مشروعية القيام المتنازع فيه ، وقد احتج به النووي في كتاب القيام[1] .

قال ابن مفلح : تحت عنوان « فصل في القيام للقادم وأدب السنة ومراعاة العادة فيه » : ويكره القيام لغير سلطان وعالم وولد ، ذكره السامري ، وقيل : سلطان عادل ، وزاد في الرعاية الكبرى : ولغير ذي دين وورع ، وكريم قوم وسن في الإسلام ، وقال ابن تميم : لا يستحب القيام إلا للإمام العادل والوالدين ، وأهل العلم والدين والورع والنسب ، وهو معنى كلامه في المجرد والفصول ، وكذا ذكر الشيخ عبد القادر ، وقاسه على المهاداة لهم ، وقال : يكره لأهل المعاصي والفجور ، وهذا كله معنى كلام أبي بكر .

والذي يقام إليه ينبغي له ألا يستكبر نفسه إليه ولا يطلبه ، والنهي قد وقع على السرور بذلك الحال ، فإذا لم يُسَرَّ بالقيام إليه ، وقاموا له ، فغير ممنوع منه ، ولمن قام إليه ، لإعظامه الرجل الكبير على ما رسمناه . وكذا قال بعض أصحابنا وغيرهم في النهي عن ذلك : إنما هو تحذير من الفتنة والعجب والخيلاء ، قالوا : مع أن ابن قتيبة قد قال : إنما معناه ما يفعله الأعاجم ، والأمراء في زماننا هذا ، أنه يجلس والناس قيام بين يديه تكبرًا وعجبًا .

قال صاحب النظم : وكذا قال ابن مسعود وغيره فيمن يمشي الناس خلفه إكرامًا : إنها ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

قال الشيخ تقي الدين : فأبو بكر والقاضي ومن تبعهما ، فرقوا بين القيام

---

(١) التعليق السلسلة الصحيحة (١ / ١٠٥ - ١٠٦) .

لأهل الدين وغيرهم ، فاستحبوه لطائفة ، وكرهوه لأخرى ، والتفريق في مثل هذا بالصفات فيه نظر .

قال : وأما أحمد فمنع منه مطلقا لغير الوالدين ، فإن النبي ﷺ سيد الأمة ، ولم يكونوا يقومون له . فاستحباب ذلك للإمام العادل مطلقًا خطأ ، وقصة ابن أبي ذئب مع المنصور تقتضي ذلك ، وما أراد أبو عبد الله - والله أعلم - إلا لغير القادم من سفر ، فإنه قد نص على أن القادم من السفر إذا أتاه إخوانه ، فقام إليهم وعانقهم فلا بأس ، وحديث سعد يخرج على هذا ، وسائر الأحاديث ، فإن القادم يتلقى لكن هذا قام فعانقهم ، والمعانقة لا تكون إلا بالقيام ، وأما الحاضر في المصر الذي طالت غيبته ، والذي ليس من عادته المجيء إليه فمحل نظر ، فأما الحاضر الذي يتكرر مجيئه في الأيام كإمام المسجد ، أو السلطان في مجلسه ، أو العالم في مقعده ، فاستحباب القيام له خطأ ، بل المنصوص عليه عن أبي عبد الله ، هو الصواب ، هذا كلامه .

وقال أيضًا : لا يجوز أن يكون قاعدًا وهم قيام ، قال النبي ﷺ « من سرَّه أن يتمثل الرجال له قيامًا فليتبوأ مقعده من النار ». وفي الصحيح : أنهم لما قاموا خلفه في الصلاة قال : « لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضهم بعضًا » اهـ .

وأما القيام لمصلحة وفائدة ، كقيام معقل بن يسار ، يرفع غصنا من شجرة على رأس رسول الله ﷺ وقت البيعة . رواه مسلم ، وقيام أبي بكر يظله من الشمس - فمستحب .

وذكر ابن هبيرة : يجوز ، ولا يكره ، وقال عن الأنبار والأعاجم : القيام على رؤوسهم شديد الكراهية ، قال : فأما وقوف من يذهب في شغل ويعود ، كقيام الحاجب والمستخدمين ، فإن الفرق بين من يتقدم في الأشغال ويتردد فيها ، وبين من ليس كذلك معنى ظاهر .

ونصوص الإمام أحمد بعضها يؤخذ منه موافقة الأصحاب ، وبعضها يدل

على الكراهة إلا للوالدين ، وبعضها يكره إلا لقادم من سفر ، وقال إسحق بن إبراهيم : خرج أبو عبد الله على قوم في المسجد فقاموا له فقال : لا تقوموا لأحد فإنه مكروه ، فهذه ثلاث روايات .

قال ابن الجوزي : وقد كان النبي ﷺ إذا خرج لا يقومون له؛ لما يعرفون من كراهته لذلك ، وهذا كان شعار السلف ، ثم صار ترك القيام كالإهوان بالشخص ، فينبغي أن يقام لمن يصلح .

وكذا قال الشيخ تقي الدين في الفتاوى المصرية : ينبغي ترك القيام في اللقاء المتكرر المعتاد ، لكن إذا اعتاد الناس القيام ، وقدم من لا يرى كرامته إلا به ، فلا بأس به ، فالقيام دفعا للعداوة والفساد ، خير من تركه المفضي إلى الفساد ، وينبغي مع هذا أن يسعى في الإصلاح على متابعة السنة .

وروى ابن القاسم في المدونة : قيل لمالك : فالرجل يقوم للرجل له الفضل والفقه ؟ قال :أكره ذلك : وصح عنه عليه السلام قال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف حق كبيرنا » . ولفظ الترمذي « شرف كبيرنا » .

وعن عبادة مرفوعًا : « ليس من أمتي من لم يجلَّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » رواه أحمد ، وهو حديث حسن.

قال بعضهم : وهذا كاف عند الجمهور .

ولأبي داود بإسناد جيد ، من حديث أبي موسى : « إن من إجلال الله ، إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ، ولا الجافي منه ، وإكرامَ ذي السلطان المقسط » .

ولا يلزم من هذا القيام له ، وإنما فيه إكرامه وتوقيره ، فقال ابن حزم : اتفقوا على توقير أهل القرآن والإسلام، والنبي ﷺ وكذلك الخليفة الفاضل والعالم.

وفي الصحيحين : لما تاب الله على كعب بن مالك - رضي الله عنه - وأن النبي ﷺ أعلم الناس بذلك ، فذهب الناس يبشروننا ، وركض رجل إلى فرس ، وسعى ساعٍ قبلي ، فأوفى على جبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما

جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي ، فكسوتهما إياه ، والله ما أملك غيرها يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما إلى رسول الله ﷺ ، فجعل يتلقاني الناس فوجًا يهنوني بالتوبة ، ويقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، وحوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « البركة مع أكابركم » . إسناده جيد ، رواه ابن حبان في صحيحه .

وقال الحسن بن محمد بن الحارث إنه سأل أبا عبد الله : عن القيام في السلام ، فكأنه كرهه إذا لم يقدم من سفر أن يقوم كذا إلى الرجل فيعانقه ، قلت لأبي عبد الله : إذا قام يعني الرجل حتى يجلسه لكبره ، فأقول له : إما أن تقعد وإما أن أقوم ؟ فقال : إذا كان لكبره أو لكذا .

وقال حنبل : قلت لعمي : ترى للرجل أن يقوم للرجل إذا رآه ؟ قال : لا يقوم أحد لأحد إلا الولد لوالده أو لأمه ، أما لغير الوالدين ، فلا .

قال مثنى : إنه سأل أبا عبد الله : ما تقول في المعانقة ؟ وهل يقوم أحد لأحد في الإسلام إذا رآه ؟ قال : لا يقوم أحد لأحد ، وأما إذا قدم من سفر فلا أعلم به بأسًا إذا كان على التدين ، يحبه في الله ، أرجو لحديث جعفر أن النبي ﷺ اعتنقه ، وقبل جلدة بين عينيه .

ونقل غيره أن أبا إبراهيم الزهري بن أحمد بن سعد جاء إلى أحمد يسلم عليه ، فلما رآه وثب إليه ، وقام إليه قائمًا ، وأكرمه فلما أن مشى قال له ابنه عبد الله : يا أبت ، أبو إبراهيم شاب وتعمل هذا ، وتقوم إليه ؟ فقال يا بني : لا تعارضني في مثل هذا ، ألا أقوم إلى ابن عبد الرحمن بن عوف ؟ ذكره أبو الأخضر فيمن روى عن أحمد .

وقال أبو داود : باب ما جاء في القيام : عن عائشة – رضي الله عنها –

قالت: ما رأيت أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلًّا برسول الله ﷺ من فاطمة كانت إذا دخلت عليه ، قام إليها ، فأخذ بيدها ، وقبّلها ، وأجلسها في مجلسه ، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، فأخذت بيده ، فقبلته ، وأجلسته ، في مجلسها[1] .

قال ابن عبد البر : جائز للرجل أن يكرم القاصد إليه ، إذا كان كريم قوم أو عالمهم ، أو من يستحق البر منهم بالقيام إليه ، وغير جائز للرئيس وغيره أن يكلف الناس بالقيام إليه ، أو يرضى ذلك منهم .

وقال البيهقي : باب القيام لأهل العلم على وجه الإكرام : ثم ذكر قيام طلحة لكعب ، وقوله عليه السلام لما جاءه سعد: « قوموا إلى سيدكم » ، وقال مسلم : لا أعلم في قيام الرجل للرجل حديثًا أصحَّ من هذا .

وقال أبو زكريا النواوي بعد ذكره محتجاً به ؛ وقد احتج العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم على القيام بهذا الحديث ، وممن احتج به ، أبو داود في سننه ، فترجم له : باب ما جاء في القيام . واحتج به بشر بن الحارث الحافي الزاهد ، ومسلم ، وأبو زرعة ، وأبو بكر بن أبي عاصم ، والخطابي ، والبيهقي ، والخطيب ، وأبو محمد البغوي ، والحافظ أبو موسى المديني ، وآخرون لا يحصون .

وقال أبو هاشم الرفاعي : قام وكيع لسفيان الثوري ، فأنكر عليه قيامه له ، فقال له وكيع : أنت حدثتني عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إن من إجلال الله ، إجلال ذي الشيبة المسلم » فأخذ سفيان بيده فأجلسه إلى جانبه ، وقال الخليلي الحافظ : أخبرني عثمان بن إسماعيل ، حدثنا أبو نعيم بن عدي قال : كان أبو زرعة لا يقوم لأحد ، ولا يجلس أحدًا في مكانه ، إلا ابن دارة ، فإني رأيته بفعل ذلك .

قال ابن حجر :

محصل المنقول عن مالك إنكار القيام ما دام الذي يقام لأجله لم يجلس ،

---

(١) إسناده صحيح ، رواه النسائي ، والترمذي ، وقال : صحيح غريب من هذا الوجه .

ولو كان في شغل نفسه ، فإنه سئل عن المرأة تبالغ في إكرام زوجها فتتلقاه وتنزع ثيابه ، وتقف حتى يجلس ، فقال : أما التلقي فلا بأس به ، وأما القيام حتى يجلس فلا ، فإن هذا فعل الجبابرة ، وقد أنكره عمر بن عبد العزيز[1] .

وقال ابن القيم في حاشية السنن : القيام ينقسم إلى ثلاث مراتب : قيام على رأس الرجل ، وهو فعل الجبابرة ، وقيام إليه عند قدومه ولا بأس به ، وقيام إليه عند رؤيته وهو المتنازع فيه .

ونقل الوليد بن رشد أن القيام يقع على أربعة أوجه :

الأول : محظور ، وهو أن يقع لمن يريد أن يقام إليه تكبرًا وتعاظما على القائمين إليه .

والثاني : مكروه ، وهو أن يقع لمن لا يتكبر ولا يتعاظم على القائمين ، ولكن يخشى أن يدخل نفسه بسبب ذلك ما يحذر ، ولما فيه من التشبه بالجبابرة .

والثالث : جائز ، وهو أن يقع على سبيل البر والإكرام لمن لا يريد ذلك ، ويؤمن معه التشبه بالجبابرة .

والرابع : مندوب ، وهو أن يقوم لمن قدم من سفر فرحا بقدومه ؛ ليسلم عليه ، أو إلى من تجددت له نعمة فيهنئه بحصولها ، أو مصيبة فيعزيه بسببها .

وذكر ابن الحاج : من المفاسد التي تترتب على استعمال القيام ، أن الشخص صار لا يتمكن فيه من التفصيل بين من يستحب إكرامه ، وبره ، كأهل الدين والخير والعلم ، أو يجوز كالمستورين وبين من لا يجوز كالظالم المعلن بالظلم ، ويكره كمن لا يتصف بالعدالة وله جاه ، فلو اعتاد القيام ما احتاج أحد أن يقوم لمن يحرم إكرامه أو يكره ، بل جر ذلك إلى ارتكاب النهي لما صار يترتب على الترك من الشر .

قال ابن حجر :

وفي الجملة متى صار ترك القيام يشعر بالاستهانة ، أو يترتب عليه مفسدة امتنع ، وإلى ذلك أشار ابن عبد السلام . ونقل ابن كثير في تفسيره عن بعض

---

(١) فتح الباري (١١ / ٥٣) .

المحققين التفصيل فيه ، فقال : المحذور أن يتخذ ديدنا ، كعادة الأعاجم ، كما دل عليه حديث أنس ، وأما إن كان لقادم من سفر ، أو لحاكم في محل ولايته ، فلا بأس به ، قلت : ويلتحق بذلك ما تقدم في أجوبة ابن الحاج كالتهنئة لمن حدثت له نعمة ، أو لإعانة العاجز ، أو لتوسيع المجلس أو غير ذلك . والله أعلم .

وقد قال الغزالي : القيام على سبيل الإعظام مكروه ، وعلى سبيل الإكرام لا يكره ، وهذا تفصيل حسن[(١)]

○ جزاء من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ○

قال رسول الله ﷺ : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، صُبّ في أذنيه الآنُك، ومن أري عينيه في المنام ما لم ير كلّف أن يعقد شَعيرة»[(٢)].

قال المناوي : الآنُك : بفتح الهمزة الممدودة وضم النون : الرصاص ، أو الخالص منه ، أو الأسود أو الأبيض أو القصدير ، قال الزمخشري : وهي أعجمية . وقال الجوهري : أفعل بضم العين من أبنية الجمع ، ولم يجيء عليه الواحد إلا آنك .

من استمع إلى حديث قوم وهم لا يريدون استماعه ، أو يكرهون استماعه .

والجملة إخبار أو دعاء عليه . وفيه وعيد شديد ، موضعه فيمن يستمع لمفسدة كنميمة ، أما مستمع حديث قوم يقصد منعهم من الفساد أو ليحترز من شرهم فلا يدخل تحته ، بل قد يندب ، بل قد يجب بحسب المواطن ، وللوسائل حكم المقاصد .

والجزاء من جنس العمل ... فهذا جزاء أذن امتدت وأصغت للسماع .

وقال رسول الله - ﷺ -: « من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين

---

(١) فتح الباري (١١ / ٥٦) .

(٢) رواه الطبراني عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٩٠٤ ، تخريج الخلال ٤٢٧ .

شعيرتين ، ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ، أو يفرون منه ، صُبّ في أذنه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب ، وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ »(١) .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم ترَ » .

وعند أحمد عن قتادة « من تَحلَّم كاذبا دفع إليه شعيرة ، وعذب حتى يعقد بين طرفيها ، وليس بعاقد » .

قال ابن حجر : هذا الحديث قد اشتمل على ثلاثة أحكام : أولها : الكذب على المنام ، ثانيها : الاستماع لحديث من لا يريد استماعه ، ثالثها : التصوير .

يقول : وأما الكذب على المنام فقال الطبري : إنما اشتد فيه الوعيد مع أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه ، إذ قد تكون شهادة في قتل أو حد أو مال ؛ لأن الكذب في المنام كذب على الله ، أنه أراه ما لم يره ، والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين ؛ لقوله تعالى : ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** .. ﴾ الآية [هود : ١٨] وإنما كان الكذب في المنام كذبا على الله ؛ لحديث « الرؤيا جزء من النبوة » ، وما كان من أجزاء النبوة فهو من قبل الله تعالى . اهـ ملخصًا .

وأما الاستماع : قيد حديث الباب لمن يكون كارها لاستماعه ، فأخرجه من يكون راضيا ، وأما من جهل ذلك فيمتنع حسما للمادة .

وأما الوعيد على ذلك بصب الآنك في أذنه فمن الجزاء من جنس العمل ، والآنك بالمد وضم النون : الرصاص المذاب ، وقيل : وهو خالص الرصاص ، وقال الداودي : هو القصدير .

وقال ابن أبي جمرة : إنما سماه حلما ، ولم يسمه رؤيا ؛ لأنه ادعى أنه رأى ولم ير شيئًا ، فكان كاذبًا ، والكذب إنما هو من الشيطان ، وقد قال : « إن

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس .

الحلم من الشيطان » وما كان من الشيطان فهو غير حق ، فصدق بعض الحديث بعضا ، قال : ومعنى العقد بين الشعيرتين أن يفتل إحداهما بالأخرى ، وهو مما لا يمكن عادة ، قال : ومناسبة الوعيد المذكور للكاذب في منامه والمصور ، أن الرؤيا خلق الله ، وهي صورة معنوية فأدخل بكذبه صورة لم تقع ، كما أدخل المصور صورة في الوجود ليست بحقيقة؛ لأن الصورة الحقيقية هي التي فيها الروح ، فكلف صاحب الصورة اللطيفة أمرًا لطيفًا ، وهو الاتصال المعبر عنه بالعقد بين الشعيرتين ، وكلف صاحب الصورة الكثيفة أمرًا شديدًا ، وهو أن يتم ما خلقه بزعمه بنفخ الروح ، ووقع وعيد كل منهما بأنه يعذب حتى يفعل ما كُلّف به ، وهو ليس بفاعل ، فهو كناية عن تعذيب كل منهما على الدوام .

قال : والحكمة في هذا الوعيد الشديد ، أن الأول كذب على النبوة ، وأن الثاني نازع الخالق في قدرته .

أما مستمع حديث من يكره استماعه : يدخل فيه من دخل منزله وأغلق بابه ، وتحدث مع غيره فإن قرينة حاله تدل على أنه لا يريد للأجنبي أن يستمع حديثه ، فمن يستمع إليه يدخل في هذا الوعيد ، وهو كمن ينظر إليه من خلل الباب ، فقد ورد الوعيد فيه ، ولأنهم لو فقئوا عينه لكانت هدرًا .

قال : ويستثنى من عموم من يكره استماع حديثه ، من تحدث مع غيره جهرًا ، وهناك من يكره أن يسمع ، فلا يدخل المستمع في هذا الوعيد ؛ لأن قرينة الحال وهو الجهر ، تقتضي عدم الكراهة . فيسوغ الاستماع .

ومن اللطائف ما قال غيره : إن اختصاص الشعير بذلك لما في المنام من الشعور بما دل عليه فحصلت المناسبة بينهما من جهة الاشتقاق[1] اهـ .

○ جزاء من يلعن الريح ○

قال رسول الله ﷺ : « لا تلعن الريح فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئًا

---

(١) فتح الباري (١٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨) .

ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه »[1] .

وقال ﷺ : « إذا خرجت اللعنة مِنْ فِي صاحبها ، نظرت ، فإن وجدت مسلكا في الذي وجهت إليه ، وإلا عادت إلى الذي خرجت منه » ، وقال ﷺ : « إن العبد إذا لعن شيئًا ، صعدت اللعنة إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض ، فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا ، فإذا لم تجد مساغًا[2] رجعت إلى الذي لُعِن ، فإن كان لذلك أهلا ، وإلا رجعت إلى قائلها »[3].

والجزاء من جنس العمل ..

قال المناوي : إن العبد إذا لعن آدميًا أو غيره ، بأن دعا عليه بالطرد والبعد عن رحمة الله تعالى ، صعدت اللعنة إلى السماء لتدخلها ، فتغلق أبواب السماء دونها ؛ لأنها لا تفتح إلا لعمل صالح ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ [فاطر : ١٠] ثم تنزل إلى الأرض ، لتصل إلى سجين فتغلق أبوابها دونها أي تمنع من النزول ، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا تتحير فلا تدري أين تذهب ، فإذا لم تجد مسلكًا وسبيلًا تنتهي إليه لمحل تستقر فيه ، رجعت إلى الذي لُعِن فإن كان للعنة أهلا رجعت إليه فصار مطرودًا ، فإن لم يكن لها أهلًا رجعت بإذن ربها[4] إلى قائلها ؛ لأن اللعنة طرد عن رحمة الله ، فمن طرد ما هو أهل لرحمته

---

(١) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٣٢٤. ورواه ابن حبان، والطبراني، والبيهقي، وصححه الألباني في الصحيحة ٥٢٧ .

(٢) مسلكًا وسبيلًا تنتهي إليه .

(٣) قال ابن حجر : سنده جيد ، وله شاهد عند أحمد من حديث ابن مسعود بسند حسن ، وآخر عند أبي داود والترمذي عن ابن عباس ، ورواته ثقات ، لكنه أُعِلَّ بالإرسال .

(٤) والدليل ما رواه أحمد بسند جيد عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ =

عن رحمته ، فهو بالطرد والإبعاد عنها أحق وأجدر ، ومحصول الحديث التحذير من لعن من لا يستوجب اللعنة ، والوعيد عليه بأن يرجع اللعنة إليه : ﴿ **إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾ [النور : ٤٤] .

وقال ﷺ : « أوصيك ألا تكون لعانًا » .

قال المناوي : لا تلعن معصومًا ، فيحرم لعن المعصوم المعين ، فإن اللعنة تعود على اللاعن وصيغة المبالغة هنا غير مرادة .

وقال ﷺ : « إني لم أبعث لعانًا » .

وقال : « إني لم أبعث لعانًا ، وإنما بعثت رحمة » .

وقال ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذيّ » .

وقال ﷺ : « لا يكون اللعانون شفعاء ، ولا شهداء يوم القيامة » .

ومذهب أهل السنة والجماعة : أنه لا يجوز لعن المعين ، ما دام في دار الدنيا ، ولكن تقول : لعنة الله على الظالمين ، وعلى الكافرين ، لعن الله المتبرجات ، هذا على العموم ، أمّا المعين فلا .

« لا تسبوا الريح » ، « لا تلعنوا الريح » .

قال المناوي : فإنها من روح الله ورحمته ، تأتي بالرحمة : بالغيث والراحة والنسيم ، وتأتي بالعذاب : بإتلاف النبات والشجر وهلاك الماشية وهدم البناء . فلا تسبوها ؛ لأنها مأمورة لا ذنب لها .

قال الشافعي – رحمه الله –: « لا ينبغي شتم الريح ، فإنها خلق مطيع لله ، وجند من جنوده يجعلها الله رحمة إذا شاء ، ونقمة إذا شاء .

قال مطرف : لو حبست الريح عن الناس لأنتن ما بين السماء والأرض .

= يقول : « إن اللعنة إذا وجهت إلى من وجهت إليه ، فإن أصابت عليه سبيلًا ، أو وجدت فيه مسلكا وقفت عليه ، وإلا قالت : يا رب ، وجهت إلى فلان فلم أجد فيه مسلكا ، ولم أجد عليه سبيلًا فيقال : ارجعي من حيث جئت » يعني إلى قائلها .

والمؤمن لا يكون سبابًا ..

قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الشيطان ، وتعوذوا بالله من شره »(١).

وقال تعالى : ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم** ﴾[الأنعام : ١٠٨] .

○ جزاء من يتنخم في القبلة ○

قال رسول الله ﷺ : « تبعث النخامة في القبلة يوم القيامة ، وهي في وجه صاحبها »(٢) .

والجزاء من جنس العمل ..

وقال ﷺ : « من تفل تجاه القبلة ، جاء يوم القيامة تفلهُ بين عينيه ، ومن أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا »(٣) .

○ جزاء من وصل رحمه ومن قطعها ○

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « إن الله خلق الخلق ، حتى إذا فرغ من خلقه ، قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب ، قال : فهو لك » ، قال رسول الله ﷺ : « فاقرءوا إن شئتم : ﴿ **فهل**

---

(١) المخلص عن أبي هريرة وتمام والديلمي ، انظر الصحيحة ٧١٩٥ ، وصحيح الجامع ٧١٩٥ .

(٢) رواه البزار عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٩٠٧ ، تخريج الترغيب (١ / ١٢٢) ، رواه ابن خزيمة ، وابن حبان .

(٣) رواه أبو داود، وابن حبان، عن حذيفة، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٣٦، تخريج الترغيب (١ / ١٢٤ ، ١٣٤) ، والصحيحة ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ »[1] [محمد : ٢٢] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « إن الرحم شُجنةٌ من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته »[2] .

وعن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ قال : « الرحم شُجنة فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »[3] .

وقال ﷺ : « إن الرحم شجنة آخذة بحجزة الرحمن ، تصل من وصلها ، وتقطع من قطعها »[4] .

قول الرحم .. قال فيه ابن حجر : يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن يكون بلسان القال ، قولان مشهوران ، والثاني أرجح . وعلى الثاني : فهل تتكلم كما هي ، أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلا ؟ قولان أيضا مشهوران ، والأول أرجح ؛ لصلاحية القدرة العامة لذلك ، ولما في الأولين من تخصيص عموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل ، ولما يلزم منه من حصر قدرة القادر التي لا يحصرها شيء .

حجزة الرحمن : حكى شيخنا في شرح الترمذي أن المراد بالحجزة هنا قائمة العرش ، وأيد ذلك بما أخرجه مسلم من حديث عائشة : « إن الرحم أخذت بقائمة من قوائم العرش » .

« هذا مقام العائذ » هذا مكان .

« الرحم شِجْنَة » بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون ، وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة ، وأصل الشجنة : عروق الشجر المشتبكة ، والشجن : واحد الشجون ، وهي طرق الأودية ، ومنه قولهم : الحديث ذو شجون ؛ أي يدخل بعضه في بعض .

---

(١) ، (٢) ، (٣) رواه البخاري .

(٤) رواه أحمد عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٦٢٥ ، والصحيحة ١٦٠٢ .

شجنة من الرحمن : أي أخذ اسمها من هذا الاسم ، كما في حديث ابن عوف في السنن مرفوعًا : « أنا الرحمٰن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسمًا من اسمي » ، والمعنى أنها أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها ، فالقاطع لها منقطع من رحمة الله .

وقال الإسماعيلي : إن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن ، فلها به علقة ، وليس معناه أنها من ذات الله ، تعالى الله عن ذلك .

وقال ابن حجر أيضًا في الفتح : الرحم يطلق على الأقارب ، وهم : من بينه وبين الآخر نسب ، سواء كان يرثه أم لا ، سواء كان ذا محرم أم لا ، وقيل هم المحارم فقط ، والأول هو المرجح ؛ لأن الثاني يستلزم خروج أولاد العم ، وأولاد الخال من ذوي الأرحام وليس كذلك .

قال ابن حجر : قال القرطبي : إن الرحم التي توصل عامة وخاصة ، فالعامة : رحم الدين ، وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف ، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة . وأما الرحم الخاصة فتزيد: النفقة على القريب ، وتفقد أحوالهم ، والتغافل عن زلاتهم ، وتتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك الأقرب فالأقرب .

وقال ابن أبي جمرة : تكون صلة الرحم بالمال ، وبالعون على الحاجة ، وبدفع الضرر ، وبطلاقة الوجه والدعاء ، والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير ، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة ، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا كفارًا أو فجارًا ، فمقاطعتهم في الله هي صلتهم ، بشرط بذل الجهد في وعظهم ، ثم إعلامهم إذا أصرُّوا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق ، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى .

وقطع الرحم من الكبائر ؛ لورود الوعيد الشديد فيه .

وعن عمرو بن العاص قال : سمعت النبي ﷺ جهارًا غير سر يقول :

« إن آل أبي ... ليسوا بأوليائي ، إنما وليي الله وصالحُ المؤمنين ، ولكن لها رحم أبلها ببلاها » يعني : أصلها بصلتها .

وقال النووي : ضبطنا قوله « بِبَلاها » بفتح الموحدة وبكسرها ، وهما وجهان مشهوران ، وقال عياض : رويناه بالكسر ، ورأيته للخطابي بالفتح ، وقال ابن التين : هو بالفتح للأكثر ولبعضهم بالكسر ، قلت : بالكسر أوجه ، فإنه من البلال جمع بلل ، مثل جمل جمال ، ومن قاله بالفتح بناه على الكسر مثل قطامِ وحذامِ ، والبلال بمعنى البلل وهو النداوة ، وأطلق ذلك على الصلة ، كما أطلق اليبس على القطيعة ؛ لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه ، بخلاف اليبس من شأنه التفريق .

وقال الخطابي وغيره : بللت الرحم ؛ أي نديتها بالصلة ، وقد أطلقوا على الإعطاء الندى ، وقالوا في البخيل : ما تندى كفه بخير ، فشبهت قطيعة الرحم بالحرارة ، ووصلها بالماء الذي يطفيء ببرده الحرارة ، ومنه الحديث : « بلوا أرحامكم ولو بالسلام »[1] .

قال الطيبي وغيره : شبه الرحم بالأرض التي إذا وقع عليها الماء ، وسقاها حق سقيها ، أزهرت ، ورؤيت فيها النضارة ، فأثمرت المحبة والصفاء ، وإذا تركت بغير سقي يبست وبطلت منفعتها ، فلا تثمر إلا البغضاء والجفاء .

وقال رسول الله ﷺ : « ليس الواصل بالمكافيء ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها »[2] .

وعن عمر موقوفًا : « ليس الوصل أن تصل من وصلك ، ذلك القصاص ، ولكن الوصل أن تصل من قطعك » .

---

(١) حسن : رواه البزار عن ابن عباس ، والطبراني في الكبير عن أبي الطفيل ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وسويد بن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٣٥ .

(٢) رواه البخاري ، والترمذي ، وأحمد .

قال ابن حجر : قال الطيبي : المعنى ليست حقيقة الواصل ، ومن يعتد بصلة من يكافىء صاحبه بمثل فعله ، ولكن من يتفضل على صاحبه .

وقال شيخنا في شرح الترمذي : المراد بالواصل في هذا الحديث الكامل ، فإن في المكافأة نوع صلة ، بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه ، فإن فيه قطعًا بإعراضه عن ذلك ، وهو من قبيل : « ليس الشديد بالصرعة » ، « وليس الغنى عن كثرة العرض » .

وأقول : لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع ، فهم ثلاث درجات : مواصل ، ومكافىء ، وقاطع .

فالواصل : يتفضل ، ولا يتفضل عليه .

والمكافىء الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ .

والقاطع : الذي يُتَفَضَّل عليه ، ولا يَتَفَضَّل .

وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين ، كذلك تقع المقاطعة من الجانبين ، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل ، فإن جوزي سمي من جازاه مكافئا ، والله أعلم[1] .

○ من عال البنات وأدّبهن ○

قال صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد من أمتي يعول ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات ، فيحسن إليهن إلا كن له سترًا من النار »[2] .

قال المناوي : كما سترهن في الدنيا عن ذل السؤال وهتك الأعراض باحتياجهن

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٤٣٧) .

(٢) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٢٤٨ .

إلى الغير الذي ربما جرّ إلى الخنا والزنا ، وجوزي بالستر من النار جزاءً وفاقًا[١] .

والجزاء من جنس العمل .

قال صلى الله عليه وسلم : « من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن ، كن له حجابًا من النار »[٢] .

وقال صلى الله عيله وسلم : « من ابتلى من هذه البنات بشيء ، فأحسن إليهن ؛ كن له سترًا من النار »[٣] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى يدركا ؛ دخلت أنا وهو الجنة كهاتين »[٤] .

* * *

(١) فيض القدير (٥ / ٣٦٢) .
(٢) صحيح : رواه الترمذي عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٠٧ .
(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي ، عن عائشة .
(٤) رواه مسلم ، والترمذي عن أنس .

الصَّلاة





□ الصَّلاة □

اعلموا إخواني ، أن الله عز وجل قدّر الصلاة ، وقدّمها على غيرها من العبادات ، وإنما يحافظ عليها مَنْ يعرف قدرها ، ويرجو أجرها ، ويخاف العقاب على تركها . وهذه صفة المؤمن ، وإنما يتوانى عنها ناقص الإيمان إنْ تكاسل ، أو كافر إنْ تهاون . وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة »[١] .

اعلموا أن من أحب المخدوم أحب الخدمة له ، لو عرف من يناجي لم يقبل على غيره ، والصلاة صلة بين العبد وربه .

الستر الأول في الأذان ، فالأذان كالإذن في الدخول ، والستر الحاظر : الإقامة ، فإذا كشف الغطاء لاح للمتقي قرة العين ، فدخل في دائرة المناجاة : « أرحنا بها يا بلال »[٢] فقد « جعلت قرة عيني في الصلاة »[٣] .

اكشف يا بلال ستر التقريب ، عن القريب الحبيب .

يا بطّال ، لو سافرت بلدًا لم تربح فيه حزنت على فوات ربحك ، وضياع وقتك ، أفلا يبكي من دخل في الصلاة على قرة العين ، ثم خرج بغير فائدة ، يصلي فيرسلها كالطيور إذا أرسلت من حصار القفص ، يقوم ويقعد مستعجلًا كمثل الطروب إذا ما رقص .

يا هذا ، اطلب قبل ماء الوضوء قلبك ، فإن وجدته فقدم إناءك .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود ، وصححه الأرناؤوط . جامع الأصول .

(٣) جزء من حديث أنس بن مالك ، رواه النسائي ، وأحمد في مسنده ، وحسّن إسناده عبد القادر الأرناؤوط في جامع الأصول (٤ / ٧٦٦) .

يا هذا ، إنما يصطاد الطائر بمحبوبه من الحَبِّ ، ومحبوب القلب الطاهر ذكر الله ، فحرام على قلبك الحائم حول جيف الهوى ، ألقِ له حَبَّ الذكرِ على فخ الصدق ، في حديقة الصور ، لعله يقع في شبكة المعرفة(١) .

قال صلى الله عليه وسلم : « الصلاة خير موضوع ، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر »(٢) .

لأن بها تبدو قوة الإيمان في شهود ملازمة خدمة الأركان ، ومن كان أقواهم إيمانا ، كان أكثرهم وأطولهم صلاة وقنوتا وإيقانا ، كما قال المناوي – رحمه الله –(٣) .

وأي دعوة تريد أن تستقيم إلى الله ، فعليها أن تدلف من باب الاستقامة وبابها المحراب(٤) .

وسجود المحراب ، واستغفار الأسحار ، ودموع المناجاة سيماء يحتكرها المؤمنون .. ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار والنساء ، والقصر المنيف ، فإن جنة المؤمن في محرابه(٥) .

هي المعين الذي لا ينضب ، والزاد الذي لا ينفد ، والمعين الذي يجدد الطاقة ، والزاد الذي يزود القلب ، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض ..

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير ، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة ، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود ، إنها زاد الطريق ومدد الأرواح ، وجلاء القلب ، تفتح القلب ، وتوثق

---

(١) اليواقيت الجوزية (٤٤ ، ٤٥) .

(٢) حسن : رواه أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك ، والطبراني في الأوسط ، وحسّنه الألباني صحيح الجامع (٣٧٦٤) .

(٣) فيض القدير (٤ / ٢٤٧) .

(٤) الرقائق لمحمد أحمد راشد ص١٥ .

(٥) الرقائق لمحمد أحمد راشد ص٢٧ .

الصلة ، وتيسر الأمر ، وتشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان .

قال الحسن : يابن آدم ، إذا هانت عليك صلاتك فما الذي يعز عليك ؟! .

ألا يستحي من يستوفي مكيال شهواته ، ويطفف في مكيال الدين .. ﴿ **ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ [هود : ٩٥] . إن كان الله قد توعد بالويل من طفف في مكيال الدنيا ، فكيف بمن طفف في مكيال الدين ؟!.

تعال معي أخي إلى الصلاة :

لمّا انقطع العبد عن الناس ، كان انقطاعه صلة بربه ، وسمّاها الله تعالى صلاة جزاءً وفاقًا ..

فلننظر .. كيف يكون الجزاء من جنس العمل في هذا الباب ...

قال تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ [البقرة : ١١٤] .

بيوت الله في الأرض التي يأمن فيها الخائف ، سلبوا الأمن منها ، وخوّفوا عباد الله فيها ، فكذلك لا يدخلونها إلا خائفين .. والجزاء من جنس العمل ..

قال ابن كثير(١) : اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله ، وسعوا في خرابها على قولين :

أحدهما : هم النصارى . عن ابن عباس .

قال مجاهد ؛ هم النصارى ، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه .

وقال قتادة : هو بختنصر وأصحابه ، خرّب بيت المقدس ، وأعانه على ذلك النصارى .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٢٢٤ - ٢٢٦) .

وقال : أولئك أعداء الله النصارى ، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس .

وقال السدي : كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خرّبه ، وأمر به أن تطرح فيه الجيف ، وإنما أعانهم الروم على خرابه ، من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا . وروي نحوه عن الحسن البصري .

القول الثاني : رواه ابن جرير عن ابن زيد : هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة ، حتى نحر هديه بذي طوى ، وهادنهم ، وقال لهم : « ما كان أحد يصد عن هذا البيت ، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده » ، فقالوا : لا يدخل علينا مَنْ قتل آباءنا يوم بدر ، وفينا باقٍ .

وفي قوله : ﴿ **وسعى في خرابها** ﴾ [البقرة : ١١٤] قالوا : إذا قطع من يعمرها بذكره ، ويأتيها للحج والعمرة . عن ابن عباس : أن قريشا منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله** .... ﴾ [البقرة : ١١٤].

ثم اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشًا لم تسعَ في خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس .

قلت : والذي يظهر - والله أعلم - القول الثاني كما قاله ابن زيد ، وروي عن ابن عباس ؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس ، كان دينهم أقوى من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولًا إذ ذاك ؛ لأنهم لُعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ [المائدة : ٧٨] وأيضًا فإنه تعالى لمّا وجه الذمّ في حق اليهود والنصارى شرع في ذمّ المشركين ، الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام ، وأما اعتماده على أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة ، فأي خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه ، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم ، كما قال

تعالى : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ [الأنفال : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ [التوبة : ١٧ - ١٨] .

فإذا كان مَنْ هو كذلك مطرودًا منها مصدودًا عنها ، فأي خراب لها أعظم من ذلك ، وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنما عمارتها بذكر الله فيها ، وإقامة شرعه فيها ، ورفعها عن الدنس والشرك .

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين** ﴾ [البقرة : ١١٤] ، هذا خبر معناه الطلب ، أي لا تُمكنوا هؤلاء - إذا قدرتم عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى : « ألا لا يحجنَّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان ، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته » .

وقال بعضهم : ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين ، على حال التَّهيّب ، وارتعاد الفرائص من المؤمنين ، أن يبطشوا بهم ، فضلًا أن يستولوا عليها ، أو يمنعوا المؤمنين منها . والمعنى : ما كان الحق والواجب إلا ذلك ، لولا ظلم الكفرة وغيرهم .

وقيل : إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام ، وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفا ، يخاف أن يؤخذ فيعُاقب ، أو يُقتل إن لم يسلم ، وقد أنجز الله هذا الوعد ، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، وأوصى رسول الله ﷺ : « ألّا يبقى بجزيرة العرب دينان ، وأن تُجلى اليهود والنصارى منها» ، ولله الحمد والمنة ؛ وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام ، وتطهير البقعة التي يبعث فيها رسوله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرًا صلوات الله عليه ،

وهذا هو الخزي لهم في الدنيا ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ..

فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدُّوا عنه ، وكما أجلوْهم من مكة أُجلوا منها .

﴿ **ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ [البقرة : ١١٤] على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، والدعاء إلى غير الله عنده ، والطواف به عريانًا ، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله .

وأما من فسّر بيت المقدس ، فقال كعب الأحبار : إن النصارى لما ظهروا على بيت القدس خرّبوه . فلما بعث الله محمدًا ﷺ أنزل عليه : ﴿ **ومن أظلم** .. ﴾ **الآية** [البقرة : ١١٤] فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفًا .

وقال السدي : فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه ، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها .

وقال قتادة : لا يدخلون المساجد إلا مُسَارقة .

قلت : وهذا لا ينفي أن يكون داخلًا في معنى عموم الآية ، فإن النصارى لما ظلموا ببيت المقدس بامتهان الصخرة التي كانت يصلي إليها اليهود ، عوقبوا شرعا وقدرًا بالذلة فيه إلا في أحيان من الدهر ، وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضًا أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم - والله أعلم - اهـ .

وكم من مسجدٍ جعلوه ديرًا ... على محرابه رُسِمَ الصليبُ
دمُ الخنزيـر فيه لهم خَلُـوقٌ ... وتحريقُ المصاحفِ فيه طِيبُ

واليهود سيجازيهم الله بجنس أعمالهم في بيت المقدس .

ويصور شاعر مجيئه إلى المسجد الأقصى بعد احتلال اليهود له .

وما كا يُفتح للنور بابْ ..
ويومض للخطو حزنُ الترابْ ..
وقفنا وكادت خطانا تُشَلُّ بأعتابه !
... وكادت رؤنا تُغلُّ على بابه !
وكدنا نُحِسُّ ..

... بأنا بأرض ضللنا إليها طريق الصلاهْ .
وأنّا اتجهنا إلى ساحةٍ .
لها نسبٌ بفجور العصاهْ .
وحاشا .. وحاشا .. لبيت الإلهْ !
وجدنا الصلاهْ ..
بغايا من الشرّ ترقص فوق الحريقْ .
وجدنا الأذانْ ..
شياطينَ لغوٍ .. تهاترُ بالإسم عبر الطريقْ .
وجدنا المصلَّى ..
ميادين لهو ، تخاصر فيها الخنا والفسوقْ .
وجدنا الحمام الذي كان يصغي .
لصوت الحواميم يخْضَرُّ منه السكونُ العريقْ ،
... ويهدل بالطهر نشوانَ يشرب من كل حرفٍ خشوع الرحيقْ ..
ذبيح الأمان ..
جريح المكان ..
يولول في صمته لا يفيق !!
.. وجدنا التراب الذي فيه صلى .. « محمدْ » .
حريقًا .. به لعنة الله تُرغي وتُزبدْ .
... وجدنا المنابرَ تحكي مجازر للطهر مخنوقة في العروقْ .
.. وجدنا على صخرة الحق ليلًا .. ينادى الشروقْ .
ونارًا .. تشُدُّ يد النورِ .. من قاعِ ليلٍ عميقْ .

○ المشاؤون في الظلم إلى المساجد ○

قال رسول الله ﷺ : « بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام

يوم القيامة »[١] .

قال المناوي : لما قاسوا مشقة ملازمة المشي في ظلمة الليل إلى الطاعة ، جُوزوا بنورٍ يضيء لهم يوم القيامة ، وهو النور المضمون لكل مشّاء إلى الجماعة في الظلمة .

قيل : إنما قيد النور التام ؛ لأنّ أصل النور يعطى لكل من تلفظ بالشهادتين من مؤمن أو منافق ؛ لظاهر حرمة الكلمة ، ثم يقطع نور المنافقين فيقولون : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ [التحريم : ٨][٢] والجزاء من جنس العمل .

مشوا في الظلم إلى المساجد ، فأنعمنا عليهم بالنور التام يوم القيامة .

ظلمة بنور ، والجزاء من جنس العمل .

○ من بنى لله مسجدًا ○

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ بنى لله مسجدًا ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »[٣].

وقال : « من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة أو أصغر ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »[٤] .

وقال : « من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة لبيضها ؛ بنى الله له بيتًا في الجنة »[٥] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي عن بريدة ، وابن ماجة والحاكم عن أنس ، وعن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٢٠ ، تخريج المشكاة ٧٢١ ، صحيح أبي داود ٥٧٠ .

(٢) فيض القدير (٣ / ٢٠١) .

(٣) رواه ابن ماجة عن علي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٠٣ ، الروض النضير (٨٨٣ ، ٩٥٤) .

(٤) رواه ابن ماجة عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٠٤ ، تخريج الترغيب (١ / ١١٧) .

(٥) رواه أحمد عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٠٥ ، الروض النضير (٢/٢٨٥ ، ٩٥١) .

وقال : « من بنى مسجدًا لله يُذكرُ الله فيه ؛ بنى الله له مثله في الجنة »[١].

وقال : « من بنى مسجدًا ، يبتغي به وجه الله ؛ بنى الله له مثله في الجنة »[٢].

قال ابن حجر :

« ولو كمفحص قطاة » حمل أكثر العلماء ذلك على المبالغة ؛ لأن المكان الذي تفحص القطاة عنه ؛ لتضع فيه بيضها وترقد عليه ، لا يكفي مقداره للصلاة فيه .

وقيل : بل هو على ظاهره ، والمعنى أن يزيد في مسجد قدرًا يحتاج إليه تكون تلك الزيادة هذا القدر ، أو يشترك جماعة في بناء مسجد ، فتقع حصة كل واحد منهم ذلك القدر ، وهذا كله بناء على أن المراد بالمسجد ما يتبادر إلى الذهن ، وهو المكان الذي يتخذ للصلاة فيه ، فإن كان المراد بالمسجد موضع السجود ، وهو ما يسع الجبهة فلا يحتاج إلى شيء مما ذكر[٣] .

« بنى الله له مثله » قال ابن حجر[٤] : لفظ المثل له استعمالان :

أحدهما : الإفراد مطلقا كقوله تعالى: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ [المؤمنون : ٤٧].

والآخر : المطابقة كقوله تعالى : ﴿ أمم أمثالكم ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

فعلى الأول : لا يمتنع أن يكون الجزاء أبنية متعددة ؛ لاحتمال أن يكون المراد : بنى له عشرة أبنية مثله .

والأصل أن ثواب الحسنة الواحدة واحد بحكم العدل، والزيادة عليه بحكم الفضل .

ومن الأجوبة المرضية أيضًا : أن المثلية هنا بحسب الكمية ، والزيادة حاصلة

---

(١) رواه أحمد عن عمرو بن عبسة والنسائي ، ورواه ابن ماجة عن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٠٦ ، وتخريج المشكاة رقم ٣٣٨٥ ، وتخريج الترغيب (١/١١٧).

(٢) رواه أحمد والبيهقي والترمذي وابن ماجة عن عثمان .

(٣) فتح الباري (١ / ٦٤٩) .

(٤) فتح الباري (١ / ٦٥٠) .

بحسب الكيفية ، فكم من بيت خيرٌ من عشرة بل من مائة ، أو أن المقصود بالمثلية أنّ جزاء هذه الحسنة من جنس البناء لا من غيره ، مع قطع النظر عن غير ذلك ، مع أن التفاوت حاصل قطعًا بالنسبة إلى ضيق الدنيا ، وسعة الآخرة ، إذ موضع شبر فيها خير من الدنيا وما فيها كما ثبت في الصحيح .

وقد روى الإمام أحمد من حديث واثلة بلفظ : « بنى الله له في الجنة أفضلَ منه » ، وللطبراني من حديث أبي أمامة بلفظ : « أوسعَ منه » .

وهذا يشعر بأن المثلية لم يقصد بها المساواة من كل وجه .

وقال النووي : يحتمل أن يكون المراد أن فضله على بيوت الجنة كفضل المسجد على بيوت الدنيا .

يا هذا ... بيوت الدنيا من طين وحجر وتراب ، ومدَر وحديد وخشب ، وجريد وقصب ، إن لم يُكنس كثرت فيه القمامة ، وإن لم يسرج فما أشد ظلامه ، وإن لم يتعاهد بالبناء فما أسرع انهدامه ، وإن تعاهدته فمآله إلى الخراب ، وعن قريب يصير كالتراب ، يتفرق عنه السكان ، وتنتقل عنه القطان ، يعفو أثره ، ويندرس خبره ، يمحى رسمه ، وينسى اسمه .

فأين أنت .. من دار باقية ، قصورها عالية ، أنهارها جارية ، قطوفها دانية ، أفراحها متوالية ، لبنة من فضة ، ولبنة من ذهب ، لا تعب فيها كلا ولا نصب ، وملاطها المسك الأذفر .. فهل سمعت عن ملاط من مسك ؟! وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر .

فمن بنى لله بيتًا .. بنى الله له بيتًا في الجنة والجزاء من جنس العمل .

قال تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويُلَقَّوْن فيها تحية وسلامًا﴾ [الفرقان : ٧٥].

اليوم يحضر العبد بيته لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغدا يجازيهم بأن يكفيهم قطع المسافة ، فهم في مستقر عزهم يسمعون كلام الله ، وينظرون إلى الله .

من تطهّر في بيته :

قال رسول الله ﷺ : « من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ؛ ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة »[١] .

فعلى قدر نقل الخطوات ، تكون رفعة الدرجات ، وحطّ السيئات ، والجزاء من جنس العمل .

○ من توضأ فأحسن الوضوء ○

قال رسول الله ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده ، حتى تخرج من تحت أظفاره »[٢] .

وقال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »[٣] .

قال المناوي : « تبلغ الحلية » أي التحلي بأساور الذهب والفضة المكلل بالدر والياقوت « من المؤمن » يوم القيامة .

قال الطيبي : ضمن « تبلغ » معنى تتمكن ، وعدّي بمِنْ ؛ أي تتمكن من المؤمن الحلية مبلغا يتمكن الوضوء منه[٤] . والجزاء من جنس العمل ..

قال الحسن : الحلي في الجنة على الرجال أحسن منه على النساء .

وقال رسول الله ﷺ : « أمتي يوم القيامة غُر من السجود ، محجلون من الوضوء »[٥] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ومسلم عن عثمان - رضي الله عنه - .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٤) فيض القدير (٣ / ٢٢٧) .

(٥) رواه الترمذي عن عبد الله بن بسر ، وقال : حديث حسن صحيح غريب ، ورواه أحمد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ١٣٩٣ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٠٣٠ .

قال المناوي : قال الأشرف : « غُرّ » جمع أغرّ ، وهو الأبيض الوجه ، والمحجل من الدواب ما قوائمه بيض ، مأخوذ من الحجل وهو القيد ، كأنه مقيد بالبياض ، وأصله في الخيل ، وأصل الغرة لمعة بياض بجبهة الفرس ، ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر ، والمراد بها هنا النور الكامن في وجوه هذه الأمة .

والتحجيل بياض في ثلاث من قوائم الفرس ، أصله الحجل : الخلخال ، والمراد به أيضًا هنا النور « غر من السجود » أي من أثر السجود في الصلاة ، قال تعالى : ﴿ **سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ﴾ [الفتح : ٢٩] . وهذا لا تدافع بينه وبين خبر الشيخين : « إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء » . وما ذلك إلا لأن المؤمن يكسى في القيامة نورًا من السجود ، ونورًا من أثر الوضوء ، نورٌ على نورٍ ، فمن كان أكثر سجودًا أو أكثر وضوءًا في الدنيا ، كان وجهه أعظم ضياءً وأشد إشراقا من غيره ، فيكونون فيه على مراتب من عظم النور والأنوار ، لا تتزاحم ، ألا ترى أنه لو أدخل سراج في بيت ملأه نورًا ، فإذا أُدخل فيه آخر ثم آخر امتلأ بالنور من غير أن يزاحم الثاني الأول ولا الثالث الثاني ، وهكذا[1] .

○ تسوية الصفوف ○

قال رسول الله ﷺ : « أقيموا الصفوف ، فإنما تُصفُّون بصفوف الملائكة ، وحاذوا بين المناكب ، وسُدُّوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات الشيطان ، ومن وصل صفًا وصله الله ، ومن قطع صفًا قطعه الله عز وجل »[2].

---

(١) فيض القدير (٢ / ١٨٤) .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والطبراني عن ابن عمر ، وصححه الألباني : تخريج المشكاة ١٠٠٢ ، صحيح أبي داود رقم ٦٧٢ ، والسلسلة الصحيحة ٧٤٣ ، تخريج الترغيب (١ / ١٧٣) ، صحيح الجامع ١١٩٨ ، ورواه النسائي والحاكم .

قال المناوي : « من وصل صفًا » بوقوفه فيه ، وصله الله برحمته ورفع درجته ، وقرّبه من منازل الأبرار ، ومواطن الأخيار ، « ومن قطع صفًا » بأن كان فيه فخرج منه لغير حاجة أو جاء إلى صف ، وترك بينه وبين من بالصف فرجة بلا حاجة « قطعه الله » أي أبعده عن ثوابه ومزيد رحمته ، إذن الجزاء من جنس العمل ، فيُسنُّ انضمام المصلين بعضهم لبعض ، ليس بينهم فرجة ولا خلل ، كأنهم بنيان مرصوص .

قال ابن حجر :

قد ورد الأمر بتعديل الصف وسد خلله ، والترغيب في ذلك في أحاديث كثيرة ، أجمعها هذا الحديث[(١)] .

وقال رسول الله ﷺ : « من وصل صفا وصله الله ، ومن قطع صفا قطعه الله »[(٢)] .

والجزاء من جنس العمل .

أما عن جواز الصلاة خلف الصف فقد قال الشيخ السعدي في الفتاوى لما سُئل عن صلاة المنفرد خلف الصف إذا كان الصف تامًا : لا بأس أن تصلي خلف الصف منفردًا ؛ لأنك معذور ، وهذا القول وسط بين قول من يرى أن الصلاة خلف الصف صحيحة ولو لغير عذر ، وقول من قال : إنها غير صحيحة ولو لعذر ، والصواب هذا التفصيل : إن وجدت في الصف محلًا تقوم فيه من غير أن تزاحم أحدًا ، فلا يجوز أن تصف وحدك ، وإن وجدت الصف تامًّا من كل جانب ، فهو عذر وصف ولو وحدك ، وتابع الإمام ، والله أعلم[(٣)] .

قال رسول الله ﷺ : « أقيموا صفوفكم ، فوالله لتقيمن صفوفكم أو

---

(١) فيض القدير (٢ / ٧٥ - ٧٦) .

(٢) رواه النسائي والحاكم عن ابن عمر ، وأحمد وأبو داود وابن خزيمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٤٦٦ ، وتخريج الترغيب (١ / ١٧٤) وتخريج المشكاة ١١٠٢ .

(٣) الفتاوى السعدية ١٧٢ .

ليخالفن الله بين قلوبكم »[١] .

قال المناوي : ردّد بين تسويتهم صفوفهم ومن هو كاللازم لنقيضها ، وهو اختلاف القلوب ، فإن تقدم الخارج عن الصف يفوت على الداخل ، وذلك يجر إلى الضغناء بينهم ، فتختلف قلوبهم ، واختلاف القلوب يفضي إلى اختلاف الوجوه .

وهذا جزاء من جنس العمل كخبر من قتل نفسه بحديدة عُذب بها .

وقال النووي : الظاهر أن معناه : يُوقع بينكم العداوة ، واختلاف القلوب كما يقال : تغير وجه فلان ، إذا ظهر على وجهه كراهية ؛ لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في الظواهر ، واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن[٢] .

○ الإقبال على الله وعدم الالتفات ○

قال رسول الله ﷺ : « إذا قام أحدكم في صلاته ، فإنه يناجي ربه ، وإن ربه بينه وبين القبلة ، فلا يبزقن أحدكم قِبَل قبلته ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه »[٣].

وقال ﷺ : « إن الرجل إذا دخل في صلاته ، أقبل الله عليه بوجهه ، فلا ينصرف عنه حتى ينقلب ، أو يحدث حدث سوء »[٤] .

وقال ﷺ : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة ، فإنما يستقبل ربه »[٥] .

وقوله ﷺ : « فالله يقبل عليه بوجهه ما لم يصرف وجهه عنه »[٦] .

قال ابن القيم : قال ﷺ : « إن الله يأمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ، ما لم يلتفت » .

وقال جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه ، فإذا التفت أعرض الله عنه ، وقال : يابن آدم ، أنا خير ممن تلتفت إليه ، فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه ، فإذا التفت أعرض الله عنه » .

---

(١) رواه أبو داود عن النعمان بن بشير ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٢٠٢ ، صحيح أبي داود ٦٦٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٢١ .

(٢) فيض القدير (٢ / ٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) أخرجه ابن ماجة .

(٥) أخرجه الإمام أحمد .

(٦) أخرجه النسائي .

وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن ، فإذا التفت قال له : ابن آدم ، إلى مَنْ تلتفت ؟ إلى خير لك مني تلتفت »[1].

أَقْبَلَ على الله فأقبل الله عليه ، والتَفَت فأعرض الله عنه ..

والجزاء من جنس العمل ..

أيها المعرض عنَّـا إن إعـراضك منَّـا
لو أردنـاك جعلنـا كل ما فيك يردْنَا
عباد أعرضوا عنـا بلا جرم ولا معنى
أساءوا ظنهم فينـا فهلَّا أحسنوا الظنَّا
فإن خانوا فما خنَّا وإن عادوا فقد عدنا
وإن كانوا قد استغنوا فإنـا عنهمـو أغنى

صلى أبو زرعة الرازي عشرين سنة ، وفي محرابه كتابة فسئل عن الكتابة في المحراب فقال : قد كرهه قوم ممن مضى ، فقالوا له : هو ذا في محرابك كتابة أما علمت به ؟ قال : سبحان الله رجل يدخل على الله ، ويدري ما بين يديه ..!

وهذا هو الربيع بن خثيم ، سيد من سادات التابعين ، تلميذ عبد الله بن مسعود : اشترى فرسًا بثلاثين ألفا فغزا عليها ، ثم أرسل غلامه يسار يحتشُّ ، وقام يصلي ، وربط فرسه ، فجاء الغلام وقال : يا ربيع أين فرسك ، قال : سرقت ، قال : وأنت تنظر إليها ؟! قال : نعم ، يا يسار إني كنت أناجي ربي عز وجل ، فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء ، اللهم إنه سرقني ، ولم أكن لأسرقه ، اللهم إن كان غنيًّا فاهده ، وإن كان فقيرًا فأغنه[2] .

سرقت فرسه .. وهو ينظر إليها ، ولم يشغله ذلك عن مناجاة الملك العلام .

ما عنك يشغلني مالٌ ولا ولدٌ نسيت باسمك ذكر المالِ والولدِ
فلو سفكتَ دمي في الترب لانكتبتْ به حروفك لم تنقصْ ولم تَزِدِ

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/١٨٨).

(٢) الزهد ٣١-٣٢، مختصر قيام الليل ٢٧.

قال رسول الله ﷺ : « أسرق الناس الذي يسرق صلاته ، لا يتم ركوعها ولا سجودها ، وأبخل الناس من بخل بالسلام »[١] .

قيل لعامر بن عبد قيس : أما تسهو في صلاتك ، قال : أو حديث أحب إليّ من القرآن حتى أشتغل به !! هيهات ، مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس .

وكان مسلم بن يسار ، لا يلتفت في صلاته ، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ، فزع لها أهل السوق فما التفت ، وكان إذا دخل منزله ، سكت أهل بيته ، فإذا قام يصلي تكلموا وضحكوا ، علما منهم أن قلبه مشغول ، وكان يقول في مناجاته : إلهي ، متى ألقاك وأنت عني راضٍ ..؟

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهمْ جعلت اشتغالي فيك يا منتهى شغلي
فمن لي بأنْ ألقاك في ساعة الرضا ومن لي بأنْ القاك والكل لي.. من لي؟

يا واقفًا في صلاته بجسده والقلب غائب .. ما يصلح ما بذلته من التعبد مهرًا للجنة ، فكيف ثمنًا للجنة ..!؟ رأت فأرة جملًا فأعجبها ، فجرّت خطامه فتبعها ، فلما وصل إلى باب بيتها ، وقف ونادى بلسان الحال : إما أن تتخذي دارًا يليق بمحبوبك ، أو محبوبًا يليق بدارك . خذ من هذا إشارة : إما أن تصلي صلاة تليق بمعبودك ، أو تتخذ معبودًا يليق بصلاتك[٢] .

وكان ابن الزبير إذا قام إلى صلاته كأنه عود ، وكان يقال : ذلك من خشوعه ، لو رأيته وهو يصلي لقلت غصن شجرة يصفقها الريح ، وكان يُسمَّى : حَمَام المسجد .

رحل والله ، أولئك السادة ، وبقي قرناء المهاد والوسادة ، فأين وصفك من هذه الأوصاف ؟ وأين شجر الزيتون من شجر الصفصاف ؟!

لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم ليس السليم إذا مشى كالمقعدِ

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن عبد الله بن مغفل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٧٧ .

(٢) المدهش لابن الجوزي ٤٧٢ - ٤٧٣ .

○ السجــود ○

قال رسول الله ﷺ : « أكثر من السجود ، فإنه ليس من مسلم يسجد لله تعالى سجدة إلا رفعه الله بها درجة في الجنة ، وحطّ عنه بها خطيئة »[(١)] .

قال المناوي : « ليس من مسلم يسجد لله تعالى سجدة » صحيحة « إلا رفعه الله بها درجة في الجنة » التي هي دار الثواب « وحطّ عنه بها خطيئة » أي محا عنه بها ذنبًا من ذنوبه ، فلا يعاقبه عليه[(٢)] .

كلما سجد ، وتذلل لله تعالى في الدنيا ، ووضع جبهته محل أقدام الناس ، رفعه الله تعالى في الآخرة لأعلى الدرجات ، ومحا عنه السيئات ، وأدخله فسيح الجنات ، والجزاء من جنس العمل .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يسجد لله سجدة ، إلا كتب الله له بها حسنة ، وحطّ عنه بها سيئة ، ورفع له بها درجة، فاستكثروا من السجود »[(٣)].

وقال أيضًا : « ما من عبد يسجد لله سجدة ، إلا رفعه الله بها درجة، وحط بها عنه خطيئة »[(٤)] .

قال المناوي[(٥)] : فإن قيل : ما الفرق بين رفع الدرجة وكتب الحسنة ، فقد يكون رفع الدرجة بسبب كتابة الحسنة ؟ قلنا : رفع الدرجة ، وإن كان

---

(١) رواه ابن سعد ، وأحمد في مسنده عن أبي فاطمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٢١٥ ، والسلسلة الصحيحة ١٥١٩ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٢ / ٨٣) .

(٣) رواه ابن ماجة والطبراني ، والضياء عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦١٨ ، والترغيب (١ / ١٤٥) ، ورواه أحمد .

(٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان عن ثوبان وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦١٧ ، والإرواء ٤٥٦ .

(٥) فيض القدير (٥ / ٤٨٦) .

بسبب اكتساب الحسنة ، فالسبب غير المسبب ، فهما شيئان ، وأيضًا : رفع الدرجة قد لا يكون مرتبًا على اكتساب الحسنة ، فقد يمحى بكتابتها سيئة أخرى .

والساجد أذل ما يكون لربه وأخضع له .. وذلك أشرف حالاتِ العبد ، فإن السجود سر العبودية .

○ المؤذن ○

قال رسول الله ﷺ : « إنَّ المؤذن يغفر مدى صوته ، ويصدقه كل رطب ويابس سمع صوته ، والشاهد عليه خمس وعشرون درجة »[1] .

قال المناوي: قال ابن العربي: والمؤذنون أفضل جماعة دعت إلى الله عن أمر الله ورسوله، ولولا رفق المصطفى ﷺ بأمته لأذن، فإنه لو أذن، وتخلف عن إجابته من سمعه إذا قال : «حي على الصلاة» عصى ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾[2] [الأحزاب: ٤٣].

وقال رسول الله ﷺ : « إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا حجر ولا شيء ، إلا شهد له يوم القيامة »[3] .

وقال : « المؤذن يغفر له مدى صوته ، ويشهد له كلُّ رطب ويابس ، وشاهد الصلاة يُكتب له خمس وعشرون صلاة ويُكفر له ما بينهما »[4] .

وقال ﷺ : « المؤذن يغفر له مدّ صوته ، وأجره مثلُ أجر من صلى معه »[5].

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٩٢٥ ، والترغيب (٢ / ١٠٧) وعنه رواه ابن حبان

(٢) فيض القدير ٦ / ٣٤٩ .

(٣) رواه أحمد ، ومالك ، والبخاري ، والنسائي ، وابن ماجة ، عن أبي سعيد ، وهو صحيح .

(٤) رواه أحمد وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، وابن ماجة، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في الجامع ٦٥٢٠ وتخريج المشكاة ٦٥٧٥ .

(٥) رواه الطبراني عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٥١٩ ، وصحيح الترغيب (١ / ١٠٧ - ١٠٨) .

قال المناوي : « المؤذن يغفر له مدَّ صوته » يعني يغفر له مغفرة طويلة عريضة على طريق المبالغة ؛ أي يستكمل مغفرة الله إذا استوفى وسْعه في رفْع الصوت ، وقيل : تغفر خطاياه وإن كانت بحيث لو فرضت أجسامًا ملأت ما بين الجوانب التي يبلغها[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وقال رسول الله ﷺ : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة »[2] .

قال المناوي : « أطول الناس أعناقا يوم القيامة » يعني أكثرهم تشوفا إلى رحمة الله ؛ لأن المتشوف يطيل عنقه إلى ما تشوف إليه ، أو يكونون سادة ، والعرب تصف السادة بطول العنق .

ومن أجاب دعوة المؤذن يكون معه أو أكثر الناس رجًا ؛ لأن من رجا شيئًا طال إليه عنقه ، والناس حين الكرب يكون المؤذنون أكثرهم رجاء .

وقال القاضي : وتعديل عنق الرجل وطوله كناية عن فرحه وعلو درجته وإنافته على غيره .

أو المراد: إذا وصل العرق إلى الأفواه طالت أعناق المؤذنين لئلا ينالهم ذلك[3].

عَلا صوتهم فَرُفِعت درجاتهم ، وحُطّت سيئاتهم ، وشهد لهم من سمعهم ، وفي وقت الكرب طالت أعناقهم ، تشوفا إلى رحمة ربهم .. والجزاء من جنس العمل ، كما تشوفت أعناقهم برفع صوتهم عند الأذان في الدنيا ، فكذلك تتشوف أعناقهم طولا لرحمة الله في الآخرة .

○ فضل الجمعة ○

قال رسول الله ﷺ : «إن الله يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها، ويبعث

---

(١) فيض القدير (٦ / ٢٤٩) .

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن ماجة عن معاوية ، وهو صحيح ، صححه الألباني في صحيح الجامع ٦٥٢١ .

(٣) فيض القدير (٦ / ٢٥٠) .

الجمعة زهراء منيرة لأهلها ، فيحفون بها كالعروس تهدى إلى كريمها ، تضيء لهم ، يمشون في ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضًا ، رياحهم تسطع كالمسك ، يخوضون في جبال الكافور ، ينظر إليهم الثقلان ، ما يتركون تعجبا ، حتى يدخلوا الجنة لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون »[1] .

فكما بكروا إلى الجمعة ، وتطيبوا ، وشاهدهم الناس في الدنيا ، فإنهم يبعثون كذلك يوم القيامة ، والجزاء من جنس العمل .

وهذا في حق من سارع إلى الجمعة ، والجزاء من جنس العمل .

يقول ابن القيم في النونيّة عن يوم المزيد في الجنة :

أوَمَا سمعتَ بشأنهم يوم المزيـ ـد وأنه شأن عظيم الشَّانِ
هو يوم جمعتنا ويوم زيارة الـ ـرَّحمن وقت صلاتنا وأذانِ
والسَّابقونَ إلى الصلاة هُمُ الأُلى فازوا بذاكَ السبقِ بالإحسانِ
سبقٌ بسبقٍ والمؤخر هاهنا متأخر في ذلك المَيْدَانِ
والأقربون إلى الإمام فهم أولو الـ ـزُّلْفى هناك فها هنا قربانِ
قربٌ بقربٍ والمباعد مثله بعدٌ ببعدٍ حكمة الديانِ
ولهمْ منابرُ لؤلؤٍ وزبرجدٍ ومنابرُ الياقوتِ والعِقْيانِ
هذا وأدناهمْ وما فيهم دني مَنْ فوق ذاكَ المسكِ كالكثبانِ

يقول الهراس في شرح النونية :

ذكر أبو نعيم من حديث المسعودي عن المنهال عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : « سارعوا إلى الجمعة في الدنيا ، فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة في كل جمعة على كثيب من كافورٍ أبيض ، فيكونون منه سبحانه في القرب على قدر سرعتهم إلى الجمعة ، ويحدث لهم من الكرامة شيئًا لم يكونوا رأوه قبل ذلك ، فيرجعون إلى أهليهم وقد أحدث لهم » .

---

(١) رواه مالك والبيهقي عن أبي موسى وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٨٦٨ ، والصحيحة رقم ٧٠٦ .

فالسابقون إلى الصلاة يوم الجمعة هم السابقون في الذهاب إلى الله عز وجل في يوم المزيد ، الذي هو يوم زيارة الرب تعالى ، والمتأخرون هنا متأخرون هناك جزاءً وفاقًا .

وكذلك الأقربون إلى الإمام في يوم الجمعة يكونون هم أهل الزلفى والقرب عند الله ، فقربهم هناك بحسب قربهم من الإمام ، وبُعُدهم بحسب بعدهم كذلك .

ولهم هناك في هذا الوادي الذي يسمى وادي المزيد منابرُ من اللؤلؤ والياقوتِ والزبرجدِ والذهبِ ، وأدناهم منزلة - وليس فيهم دنيء ولا ناقص - يجلسون على كثبان المسك ولا يجدون لأهل المنابر فضلًا عليهم[1] .

سبق بسبق والجزاء من جنس العمل .

○ المتهجدون ○

قال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [السجدة : ١٦ -١٧] .

قال القرطبي :

وقال آخرون : عنى بها قيام الليل ، قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس ، وهو الذي فيه المدح .

وهو قول مجاهد ، والأوزاعي ، ومالك بن أنس ، والحسن بن أبي الحسن وأبي العالية ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ [السجدة : ١٧] ؛ لأنهم جوزوا على ما أخفوا ، بما خفي .

وقال الحسن : أخفى القوم أعمالًا ، فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت[2].

---

(١) شرح النونية - لمحمد خليل هراس (٢ / ٤٢١ - ٤٢٢) .

(٢) القرطبي ص٥١٨٢ .

قال ابن القيم :

تأمل كيف قابلَ ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهِم على مضاجعهم حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة[1] .

قال الأوزاعي : من أطال قيام الليل هوّن الله عليه وقوف يوم القيامة .

والجزاء من جنسِ العمل .

○ التأخر عن الصلاة ○

أما الذين يتأخرون عن الصلاة وعن الصفوف الأولى.. فلننظر إلى جزائهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله »[2] .

ومعنى قوله : « لا يزال قوم يتأخرون » أي عن الصفوف الأولى .

« حتى يؤخرهم الله » عن رحمته أو عظيم فضله ، ورفع المنزلة ، وعن العلم ، ونحو ذلك[3] .

تأخروا في الدنيا عن الصفوف الأولى ، فأخّرهم الله عز وجل يوم القيامة .

والجزاء من جنس العمل .

○ اكفني أول النهار ○

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول : يابن آدم اكفني أول النهار أربع ركعات ، أكفك بهن آخر يومك »[4] . والجزاء من جنس العمل ..

---

(١) حادي الأرواح لابن قيم الجوزية ص٢٧٨ .

(٢) أخرجه مسلم ، وابن خزيمة في صحيحه .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤ / ١٥٩) .

(٤) صحيح : صححه الألباني في صحيح الجامع ١٩٠٩ ، تخريج الترغيب (٢٣٦/١).

فسبحان من قضى على الغافلين كسلًا وقعودًا ، ورفع المتقين علوّا وصعودا ، ومنحهم من إنعامه فوزًا وسعودًا ، بمطلوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

أنعم عليهم فأعطاهم ، واستخلصهم واصطفاهم ، وقليل ماهم ، اشتغل الناس بدنياهم ، واشتغلوا بذكر محبوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

قنعوا بأدون المطعم واللباس ، وألقوا نفوسهم في المساجد كالأحلاس[1] ، يمشون بالسكينة بين الناس ، وما دروا بهم في دروبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

اكتفوا من الليل بيسير النوم ، واشتغلوا بالصلاة والصوم ، وكانت - والله - همم القوم في صلاح قلوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

لبسوا ثياب السفر ، ورحلوا على أكوار[2] السَّهَر ، فلو سمعت وقت السَّحَر ، ترنم طروبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

يعتذرون من زلل القدم ، ويتمنون بعد الوجود العَدَم ، وقد بعثوا رسالة الندم ، مع مندوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ .

قلبتهم الأشجان ، وغيرتهم الأحزان ، ينزعجون لما قد كان ، من سالف ذنوبهم ﴿ **يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾[3].

* * *

---

(١) جمع حِلْس ، وهو الكِسَاء الذي يبسط في البيت .

(٢) جمع كور ، وهو الرحل الذي يوضع فوق ظهر البعير .

(٣) التبصرة لابن الجوزي (٢/٣٠٨ - ٣٠٩) .



الزكاة والصدقات



□ الزكاة والصدقات □

اعلم يا أخي ، أن الجود على ألسنة الورى محمود .

ليس يعطيك للرجاء أو الخو ف ولكنْ يَلذّ طعم العطاءِ

فاشكر من أمات غيرك بالعدم وهو حي وأنشرك .

وما قدر كِسرة تعطيها ، أو ما سمعت أن الربَّ يربيها ، فيراها صاحبها كجبل أُحُد ، أفيرغب عن مثل هذا الخير أحد ؟

واعجبًا لِلُقْمةٍ كانت قليلة فكثرتْ ، وفانية فبقيتْ ، ومحفوفة[1] فحفظتْ ، أما علمت أن الصدقة إذا صدقت في إخراجها نفس تقيّ ، تقي ميتة السوء ، وتطفىء غضب الربِّ .

إن اللقمة إذا أكلت صارت أذى وقبائح في الحش ، وإذا تُصدق بها صارت إذًا مدائح عند العرش .

إن تطوعات البدن لا تتعدى المتَطوِّع ، وإنَّ نفع الصدقة متعدد متنوع .

إن مقيمَ جسد الفقير بأسباب صِلاته ، شريك له في ثواب صلاته .

ومن فطرّ صائمًا قد صبر إلى عشائه من فجره ، فله مثل أجره .

إن الصدقة سريعة الخلف ، وحافظة بعد الموت للخلف .

واعلم أن إنفاق حبة ، يثمر لك الوفاق والمحبة ﴿ في كلِّ سُنبلة مائة حبة ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

ثم قَدِّر أنك لا تثاب على هذه اللقمة ، أين الحنوّ على الأخ والرحمة ؟ هان على الأملس ما لاقى الدَّبر[2].

---

(١) حفّ الشمع : ذهب ، محفوفة أي زائلة .

(٢) يضرب مثلًا في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه .

قد كان حاتم الطائيّ كافرًا ، وكان يطعم حاضرًا ومسافرًا ، فإذا فضلت لقمات ألقاهنّ على الرمل . وقال : إنهن جاراتٌ - يعني النمل - .

كان الصالحون يثورون إلى الإيثار وأنت رصاصة[1] ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ [الحشر : ٩] .

كانَ الكرامُ وأبناءُ الكرام إذا تسامعوا بكريمٍ نالَهَ عـدمُ
تسابقوا فيواسيه أخـو كـرمٍ منهم ويرجع باقيهم وقد نَدمُوا
فاليوم صاروا يعدون الندى سرفًا وينكرونَ على المعطي إذا علموا

فالزم فعل الخير مكانك ، وأطعم البُرَّ إمكانك ، وأقرضْ رَبَّكَ فقد ربَّك ، وعامل مولاك بما أولاك ، ولا تردنّ سائلًا بلا ، فإنه موت عنده بل بِلَى . ولا تكن من البخلاء ، وقانا الله وإياك أدوى داء .

خُلقـوا ومـا خلقـوا لمكرمـةٍ فكـأنهم خُلقِوا ومـا خُلِقُـوا
رُزقوا وما رُزقوا سماحَ يـدٍ فكـأنهم رزقـوا ومـا رزقـوا

واعلم أخي أنه لا يقول المجد : واطرباه حتى يصيح المال : واحرباه .

هيهات أن يسمن المدح حتى يُهزلَ الكِيسُ .

يُعنى البخيلُ بجمعِ المالِ مدتهُ وللحوادثِ والورّاثِ ما يدعُ
كدودة القزّ ما تبنيه يهدمها وغيرها بالـذي تبنيـه يَنْتَفِـعُ

ويقول القائل :

ومنْ ينفقُ الأعمارَ في جمع ماله مخافةَ فقرٍ فالذي فعلَ الفقـرُ

أخي ، إنما نلقى ما أسلفنا ، ولا نلقى ما خلّفنا .

يقول محمود الورّاق :

---

(١) أي حجر .

تمتّع بمالك قبلَ المماتِ وإلا فلا مالَ إنْ أنت مُتّا
شَقِيتَ به ثم خلّفته لغيرك بُعْدًا وسحقًا ومقتًا
فجادوا عليكَ بزور البكا وجُدت عليهم بما قد جمعتَا
وأوهبتهم كل ما في يديكَ وخلّوك رهنًا بما قد كسبتَا

ويقول ابن الرومي :

بقّيْتَ مالك ميراثًا لوارثه فليت شعري ما بَقّى لك المالُ
القومُ بعدك في حالٍ تسرهمُ فكيف بعدَهمُ حالتْ بك الحالُ
ملّوا البكاءَ فما يبكيك من أحدٍ واستحكم القيلُ في الميراثِ والقالُ
ولّتهمُ عنكَ دنيا أقبلت لهمُ وأدبرت عنك والأيامُ أحوالُ

قال تعالى : ﴿ **يمحقُ اللهُ الرِّبَا ويربِي الصدقاتِ واللهُ لا يحبُّ كلَّ كفارٍ أثيمٍ** ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

قال الإمام ابن كثير :

وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود ، كما روى الإمام أحمد عن فرّوخ مولى عثمان أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج إلى المسجد ، فرأى طعامًا منثورًا . فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جُلبَ إلينا . قال : بارك الله فيه وفيمن جَلَبَه . قيل : يا أمير المؤمنين ، إنه قد احتكر . قال : ومن احتكره ؟ قالوا : فرّوخ مولى عثمان ، وفلان مولى عمر . فأرسل إليهما فدعاهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين ، نشتري بأموالنا ونبيع ! فقال عمر : سمعت رسول الله صلى ﷺ ، يقول : « مَنِ احتكَرَ على المسلمينَ طعامَهُمْ ضربَه الله بالإفلاسِ أو بجذام » فقال فروخ عند ذلك : أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود إلى طعام أبدًا . وأما مولى عمر فقال : إنما نشتري بأموالنا ونبيع . قال أبو يحيى : فلقد رأيت مولى عمر مجذوما[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ٤٨٧) .

﴿ يمحقُ الله الرّبا ويربي الصدقات ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

وصدق وعيد الله ووعده ، فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طَمأنينة ، إن الله يمحق الربا ، فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء . وقد ترى العين – في ظاهر الأمر – رخاءً وإنتاجًا وموارد موفورة ، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد .

وهذه الشقوة النكدة التي ترى على قلوب الناس في الدول الغنية ، وإلى القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده. ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم . حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب ، وتثقل الحياة على أعصاب الناس ، ولم يبارك الله لهم في مالٍ ولا في عمر ولا طمأنينة بالٍ .

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون ، الممثلين في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع ، وسادته روحُ المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع إلى فضل الله وثوابه ، والاطمئنان دائما إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها ، ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله– أفرادًا وجماعاتٍ– في أموالهم ورزقهم ، وفي صحتهم وقوتهم وفي طمأنينة قلوبهم وراحةِ بالهم .

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية ، هم الذين لا يريدون أن يَرَوْا ، لأن لهم هوًى في عدم الرؤية ! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل .

يقول الفخر الرازي : وأما إرباء الصدقات ، فيحتمل أن يكون المراد في الدنيا ، وأن يكون المراد في الآخرة إن من كان لله كان الله له[١] .

إن الصدقة تُحيي قلب المؤمن فيزكو ، ويزداد صلة بالله ، ويزكو ماله

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (٣ / ٦٥٨) .

كذلك ، ويضاعف له الله ما يشاء ، وكما تزكو حياة الجماعة المسلمة بالإنفاق وتصلح وتنمو ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

في موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير إلى البذل والعطاء ، إنه لا يعطي بل يأخذ ، وإنه لا ينقص بل يُزاد ، إن الله يضاعف لمن يشاء ، يضاعف بلا عدة ولا حساب ، يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده ، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها ، والله واسع لا يضيق عطاؤه ولا يكف ولا ينضب .

فتعال إلى الإنفاق في سبيل الله الذي يرفع المشاعر ، الإنفاق الذي ينبعث عن أَرْيَحِيَّة ونقاء ، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك »[(١)].

قال المناوي : قال الله عز وجل : « أَنِفق » على عباد الله ، «أُنْفِق عليك » أعطيك خلفه ، بل أكثر منه أضعافا مضاعفة ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾[(٢)] [سبأ : ٣٩] .

قال الطيبي : هذا مشاكلة ؛ لأن إنفاق الله لا ينقص من خزائنه شيئًا ، وهذا ظاهر ؛ لأنه إذا أنفق ظهر بصورة الفقر والعبودية والسخاء ، فاستحق نظر الحق إليه من جهة فقره الذي لا بد من جَبْرِه ، ومن جهة مقابلة وصفه بوصف ربه وظهور معاني أسمائه ، فكأنه قال لعبده عند إنفاقه : أتتسخَّى عليّ وأنا خلقت السخاء ؟ . وقد امتثل المصطفى ﷺ أمر ربه ، فكان أكثر الناس إنفاقا ، وأتمهم جودًا .

« أنفق أُنفق عليك » والجزاء من جنس العمل .

---

(١) رواه أحمد في مسنده والبخاري ومسلم .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٨٠) .

عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت : قال رسول الله ﷺ : « أعطي ولا توكي ، فيوكَى عليك »[1] .

« أعطي » بإثبات الياء خطابًا لأسماء بنت أبي بكر ، « ولا توكي » بسكون الياء ؛ أي لا تدخري ولا تربطي الوكاء ، وهو الخيط يربط به .
« فيوكى عليك » بسكون الألف ، قال ابن حجر : هو عند البخاري بفتح الكاف ولم يذكر الفاعل ، وفي رواية له « لا تحصي فيحصي الله عليك » فأبرز الفاعل .

والإيكاء : شد رأس الوعاء بالوكاء ، وهو مجاز عن الإمساك ، فالمعنى : لا تمسكي المال في الوعاء ، وتوكي عليه ، فيمسك الله فضله عنك ، كما أمسكت فضل ما أعطاك الله ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب ، فحقه أن يعطي ولا يحسب ، وفيه النهي عن منع الصدقة خشية النفاد ، وأنه أعظم الأسباب لقطع مادة البركة وأنه تعالى يثيب على العطاء بغير حساب[2].اهـ .

قال رسول الله ﷺ : « تصدقي ولا توعي ، فيوعى عليك »[3] .

وقال ﷺ : « لا توعي فيوعي الله عليك ، ارضخي ما استطعت »[4] .

وقال ﷺ : « لا تُوكي فيوكى عليك »[5] .

قال ابن حجر : يقال : أوعيت المتاع في الوعاء إذا جعلته فيه ، ووعيت الشيء حفظته ، وإسناد الوعي إلى الله مجاز عن الإمساك .

إن الله يثيب على العطاء بغير حساب ، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء[6] .

---

(١) صحيح : رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٧٢) .
(٢) فيض القدير للمناوي (١ / ٥٦٣) .
(٣) رواه البخاري .
(٤) رواه البخاري والترمذي .
(٥) رواه البخاري والترمذي .
(٦) فتح الباري (٣ / ٣٥٢) .

قال الشيخ عبد العزيز بن باز معلقًا على قول الحافظ ابن حجر : وإسناد الوعي إلى الله مجاز عن الإمساك .

هذا خطأ لا يليقُ من الشارح ، والصواب إثبات وصف الله بذلك حقيقة ، على الوجه اللائق به سبحانه كسائر الصفات ، وهو سبحانه يجازي العامل بمثل عمله، فمن مكر مُكر به، ومن خادع خدعه، وهكذا من أوعى أوعى الله عليه. وهذا قول أهل السنة والجماعة فالزمه تفز بالنجاة والسلامة ، والله الموفق . اهـ .

وعن أسماء رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: « ارضخي ما استطعت ، ولا تُوعي فيُوعي الله عليك »[(١)] .

الرضخ : العطاء اليسير .

والخطاب لأسماء بنت أبي بكر ، أي أنفقي بغير إجحاف ولا إسراف . ما دمت قادرة مستطيعة للإعطاء .

« ولا توعى » تمسكي المال في الوعاء .

والإيعاء : حفظ الأمتعة بالوعاء ، وجعلها فيه ؛ أي لا تمنعي فضل المال عن الفقراء « فيوعي الله عليك » أي يمنع عنك فضله ، ويسد عليك باب المزيد ، فهذا من باب المقابلة . والجزاء من جنس العمل .

وفيه : النهي عن منع الصدقة خوف الفقر .

وعن أسماء أيضًا قالت : قال رسول الله ﷺ : « أنفقي ولا تحصي ، فيُحصي الله عليك ، ولا تُوعي فَيوعي الله عليك »[(٢)] .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم والنسائي عن أسماء بنت أبي بكر .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

« أنفقي » أي تصدقي يا أسماء بنت أبي بكرِ الصديق ، « ولا تحصي » لا تُبقي شيئًا للادخار ، أو لا تعدي ما أنفقتيه فتستكثريه ، فيكون سببًا لانقطاع إنفاقك . « فيحصي الله عليك » ؛ أي يقلل رزقك بقطع البركة ، أو بحبس مادته ، أو بالمحاسبة عليه في الآخرة .

قال النووي : يمنعك كما منعتِ ، ويقتّر عليك كما قترت ، ويمسك فضله عنك كما أمسكته[1] .

« ولا توعي » أي لا تحفظي فضل مالك في الوعاء وهو الظرف ، أو لا تجمعي شيئًا في الوعاء وتدخريه بخلًابه . « فيوعي الله عليك » أي يمنع عنك مزيد نعمته .

عبر عن منع الله بالإيعاء ليشاكل قوله : « لا توعي » .

والإحصاء : معرفة قدر الشيء وزنًا أو عدًّا ، أو كيلًا .

وكثيرًا ما يراد بالإنفاق في كلام الشارع الأعم من الزكاة والصدقة ، فيشمل جميع وجوه الإنفاق من المعارف والحظوظ التي تكسب المعالي ، وتنجي من المهالك[2] .

« ولا تحصي فيحصي الله عليك » ، والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « أنفق يا بلالُ ! ولا تخشَ من ذي العرش إقلالًا »[3] وفي رواية « أنفق بلالًا ... » .

---

(١) شرح النووي لمسلم (٣ / ٦٩) .

(٢) فيض القدير للمناوي (٣ / ٦١) .

(٣) صحيح : رواه البزار عن بلال وعن أبي هريرة ، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٨ ، وتخريج المشكاة برقم ١٨٨٥ . وحسن إسناده ابن حجر في زوائد البزار ، كما قال المناوي : وأطلق الحافظ العراقي أن الحديث ضعيف من جميع طرقه لكن قال تلميذه الحافظ ابن حجر في زوائد البزار : إسناد حديثه حسن . وحسنه الهيثمي ، انظر فيض القدير (٣ / ٦١) .

قال المناوي : « لا تخش... إقلالًا »؛ أي فقرًا من قلّ بمعنى افتقر ، وما احسن من ذي العرش في هذا المقام ؛ أي أتخاف أن يُضيع مثلك من هو مدبر الأمر من السماء إلى الأرض ؟ كلا .

وإنما أمره بذلك ؛ لأنه تعالى وعد على الإنفاق خلفًا في الدنيا وثوابًا في العقبى ، فمن أمسك عن الإنفاق خوف الفقر فكأنه لم يصدق الله ورسوله .

قال الطيبي : وما أحسن ذكر العرش في هذا المقام .

قال الغزالي : قال سفيان : ليس للشيطان سلاح كخوف الفقر ، فإذا قبل ذلك أخذ بالباطل ، ومنع من الحق ، وتكلّم بالهوى ، وظنّ بربه السوء .

قال تعالى : ﴿ **قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾ [سبأ : ٣٩] .

يقول ابن كثير في تفسيره :

مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب[١] .

قال الرازي في تفسيره :

أما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ، ومخلف الله خيرًا ، فإن ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف ، وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف . ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ **والله خير الرازقين** ﴾ وخيرية الرازق في أمور :

ألا يؤخر عن وقت الحاجة .

وأن لا ينقص عن قدر الحاجة .

وأن لا ينكده بالحساب .

وأن لا يكدره بطلب الثواب[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٥١٠) .

(٢) مفاتيح الغيب (١٣ / ٧ - ٨) .

قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط مُمسكًا تلفًا »[١].

وقال ﷺ : « أما علمت أن ملكًا ينادي في السماء : اللهم ، اجعل لمال منفق خلفًا ، واجعل لمال ممسك تلفًا »[٢]. والجزاء من جنس العمل .

قال الحافظ ابن حجر :

أما الخلف فإبهامه أولى ليتناول المال والثواب وغيرهما ، وكم من متقٍ مات قبل أن يقع له الخلف المالي ، فيكون خلفه الثواب المعد له في الآخرة ، أو يدفع عنه من السوء ما يقابل ذلك .

وأما الدعاء بالتلف فيحتمل تلف ذلك المال بعينه ، أو تلف نفس صاحب المال ، والمراد به فوات أعمال البر بالتشاغل بغيرها .

قال النووي : الإنفاق الممدوح ما كان في الطاعات وعلى العيال والضيفان والتطوعات .

وقال القرطبي : وهو يعمُّ الواجبات والمندوبات ، لكن الممسك عن المندوبات لا يستحق هذا الدعاء إلّا أن يغلب عليه البخل المذموم بحيث لا تطيب نفسه بإخراج الحق الذي عليه ولو أخرجه[٣] .

وقال أيضًا : الجواد إذا همّ بالصدقة انفسح لها صدره ، وطابت نفسه ، فتوسعت في الإنفاق ، والبخيل إذا حدَّث نفسه بالصدقة شحت نفسه ، فضاق صدره ، وانقبضت يداه ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر : ٩].

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة ، وأحمد وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء .

(٢) حسن ، رواه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن سبرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٤٤ .

(٣) فتح الباري (٣ / ٢٥٧ - ٢٥٨) .

قال المهلب : إن الله يستر المنفق في الدنيا والآخرة ، بخلاف البخيل فإنه يفضحه(١) .

يستر المنفق مثلما ستر على الناس بإنفاقه . والجزاء من جنس العمل .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيّب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبّلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه ، كما يربي أحدكم فَلُوّه حتى تكون مثل الجبل »(٢) .

وقال ﷺ : « ما تصدق أحد بصدقة من طيّب ، ولا يقبل الله إلا الطيّب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يربي أحدكم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَه »(٣) .

الفَلُوّ : هو المهر ؛ لأنه يُفْلَى ؛ أي يُفطم ، والجمع أفلاء .

إن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال ينظر الله إليها ، يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف ، ويربيها في يمينه حتى تكون أعظم من الجبل .

والجزاء من جنس العمل .

ما نقص مال من صدقة :

عن أبي كبشة الأنماري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ أُقسم عليهن : ما نقص مال عبدٍ من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزًّا ، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلّا فتح الله عليه باب فقر »(٤) .

---

(١) فتح الباري (٣ / ٣٦٠) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد .

(٣) رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، وأحمد عن أبي هريرة ، وهو صحيح .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٢١ وتخريج المشكاة ٥٢٨٧ .

وعن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثٌ أُقسم عليهن : ما نقص مالٌ قط من صدقة فتصدقوا ، ولا عفا رجل عن مظلمة ظُلمها إلا زاده الله تعالى بها عزًّا فاعفوا يزدكم الله عزًّا ، ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسألةٍ يسأل الناس إلا فتح الله عليه باب فقر »(١) .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نقصت صدقةٌ من مالٍ ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »(٢) .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح رجل باب عطية بصدقة أو صلة ، إلا زاده الله تعالى بها كثرة ، وما فتح رجلٌ باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله تعالى بها قلة »(٣) .

قال المناوي(٤) :

« ثلاث أقسم عليهن » أي على حقيقتهن « ما نقص مال قط من صدقة » فإنه وإن نقص في الدنيا ، فنفعه في الآخرة باقٍ فكأنه ما نقص ، وليس معناه أن المال لا ينقص حسًّا .

قال ابن عبد السلام : ولأن الله يخلف عليه ؛ لأن ذا معنى مستأنف(٥) .

---

(١) صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، وأحمد ، والبزار ، وابن عساكر ، وأبو يعلى في مسنده ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٠٢٢ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ومسلم ، والترمذي .

(٣) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٢٢ .

(٤) فيض القدير (٣ / ٢٩٨) .

(٥) معناه أن ابن آدم لا يضيع له شيء ، وما لم ينتفع به في دنياه انتفع به في الآخرة ، فالإنسان إذا كان له داران ، فحوّل بعض ماله من إحدى داريه إلى الآخرة لا يقال ذلك البعض المحول نقص من ماله ، وقد كان بعض السلف يقول إذا رأى السائل : مرحبًا بمن جاء يحول مالنا من دنيانا لأخرانا ، فهذا معنى الحديث ، وليس معناه أن المال لا ينقص في الحس ، وأيضًا الحديث يحتمل أنه لا ينقص في الحس باعتبار المستقبل .

« فتصدقوا » ولا تبالوا بالنقص الحسي ، « ولا فتح رجلٌ علَى نفسه باب مسألة » أي شحاذة « يسأل الناس » أي يطلب منهم أن يعطوه من مالهم ، ويظهر لهم الفقر والحاجة ، وهو بخلاف ذلك ، « إلا فتح الله عليه باب فقر » لم يكن له في حساب بأن يسلط على ما بيده ما يتلفه ، حتى يعود فقيرًا محتاجًا على حالة أسوأ مما أذاع عن نفسه ، جزاءً على فعله ﴿ **ولا يظلم ربك أحدًا** ﴾ [الكهف : ٤٩] اهـ .

والجزاء عند الله من جنس العمل .

وقال المناوي أيضًا في فيض القدير :

« ما نقصت صدقة من مال » قال الطيبي : « من » هذه يحتمل أن تكون زائدة ، أي ما نقصت صدقة مالًا ، ويحتمل أن تكون صلة لنقصت ، والمفعول الأول محذوف ؛ أي ما نقصت شيئًا من مالٍ في الدنيا بالبركةِ فيه ، ودفع المفسدات عنه ، والإخلاف عليه بما هو أجدى وأنفع وأكثر وأطيب ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ [سبأ : ٣٩] أو في الآخرة بإجزال الأجر وتضعيفه ، أو فيهما ، وذلك جابر لأصناف ذلك النقص ، بل وقع لبعض الكُمّل أنه تصدق من ماله فلم يجد فيه نقصًا[1] .

قال المناوي :

« ما فتح رجل باب عطية » .

« ما فتح .... إلا زاده الله تعالى بها كثرة » في ماله بأن يبارك الله فيه ، « وما فتح رجل باب مسألة » أي طلب من الناس يريد بها كثرة في معاشه ، « إلا زاده الله تعالى بها قلة » بأن يمحق البركة منه ويحوجه حقيقة ، يعني من وسّع صدره عند سؤال الخلق عند حاجته ، وأنزل فقره وحاجته بهم ، ولم ينزلها بالله زاده الله فقرًا في قلبه إلى غيره[2] .

من سأل الناس تكثرًا :

---

(١) فيض القدير (٥ / ٥٠٣) .

(٢) فيض القدير (٥ / ٤٥٨) .

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزعة لحم »[١] .

وروى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الناس تكثرًا فإنما يسأل جمرًا » .

قال : « فإنما يسأل جمرًا » ، قال النووي : قال القاضي : معناه أنه يعاقب بالنار ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ، وأن الذي يأخذه يصير جمرًا يكوى به[٢] . والجزاء من جنس العمل .

«مُزعة لحم»؛ أي قطعة . وحكي كسرها، والذي أحفظه عن المحدثين الضم.

قال ابن التين : ضبطه بعضهم بفتح الميم والزاي .

قال الخطابي : يحتمل أن يكون المراد أنه يأتي ساقطًا لا قدر له ولا جاه ، أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه ؛ لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء ، لكونه أذل وجهه بالسؤال ، أو أنه يبعث ووجهه عظم كله فيكون ذلك شعاره الذي يعرف به . انتهى .

والأول صرف للحديث عن ظاهره ، وقد يؤيده ما أخرجه الطبراني ، والبزار من حديث مسعود بن عمرو مرفوعًا : « لا يزال العبد يسأل ، وهو غني ، حتى يخلق وجهه فلا يكون له عند الله وجه » .

وقال ابن أبي جمرة : معناه أنه ليس في وجهه من الحسن شيء ؛ لأن حسن الوجه هو بما فيه من اللحم .

ومال المهلب إلى حمله على ظاهره ، وإلى أن السرَّ فيه أن الشمس تدنو يومَ القيامة ، فإذا جاء لا لحم بوجهه كانت أذية الشمس له أكثر من غيره ، قال : والمراد به من سأل تكثرًا وهو غني لا تحل له الصدقة ، وأما من سأل وهو مضطر فذلك مباح له فلا يعاقب عليه[٣]. اهـ .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) شرح النووي لمسلم (٣ / ٧٩) .

(٣) فتح الباري (٣ / ٣٩٦ - ٣٩٧) .

فقول الخطابي : أو يعذب في وجهه حتى يسقط لحمه ؛ لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء ، لكونه أذل وجهه بالسؤال .

قول ابن المهلب : فإذا جاء لا لحم بوجهه كانت أذية الشمس له أكثر من غيره .

فلما أذل وجهه بالسؤال فكذا يذلُّ الله وجهه بالتعذيب يوم القيامة . والجزاء من جنس العمل .

○ قصة أصحاب الجنة ○

قال تعالى : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالُّون . بل نحن محرومون** ﴾ [القلم : ١٧ - ٢٧] .

ذكر بعض السلف أن هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها : ضروان على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذْ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، رأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

﴿ **إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين** ﴾ .

قال ابن كثير : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلًا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، فيتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء .

﴿ **ولا يستثنون** ﴾ أي فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم .

﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون** ﴾ أي أصابتها آفة سماوية .

﴿ **فأصبحت كالصريم** ﴾ قال ابن عباس : أي كالليل الأسود ، وقال الثوري : مثل الزرع إذا حصد ؛ أي هشيمًا يبسًا .

﴿ **فتنادوا مصبحين** ﴾ أي لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ، ليذهبوا إلى الجذاذ أي حرموا خير جنتهم بذنبهم .

﴿ **فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** ﴾ أي يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم .

﴿ **وغدوا على حردٍ قادرين** ﴾ أي قوة وشدة . أو جد ، كما قال مجاهد ، وقال عكرمة : على غيظ ، وقال الشعبي : ﴿ **على حرد** ﴾ : على المساكين .

﴿ **قادرين** ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون .

﴿ **فلما رأوها قالوا إنا لضالون** ﴾ أي فلما وصلوا إليها ، وأشرفوا عليها ، وهي الحالة التي قال الله عز وجل ، قد استحالت عن النضارة والزهر وكثرة الثمار ، إلى أن صارت سوداء مدلهمة ، لا ينتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ **إنا لضالون** ﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق ، فتهنا عنها ، قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هي ، فقالوا : ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾[(١)] .

قال صاحب الظلال :

يدبر لهم غير ما يدبرون ، جزاءً على ما بيّتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين .

جنة ضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير ﴿ **كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ [القلم : ٣٣] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٠٦ - ٤٠٧) .

﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ .

بيّتوا حرمان المساكين من فضول ثمرتهم ، فكانوا هم المحرومين من جميع الثمار ، فالحرمان الأعظم قد اختص بهم ، إذْ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم(١).

○ قصة صاحب الجنتين ○

وذكر ابن كثير قصة الرجلين المؤمن والكافر :

قال تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلًا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعًا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا وفجرنا خلالهما نهرًا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالًا وأعزُّ نفرًا . ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنّ أن تبيد هذه أبدًا . وما أظنّ السّاعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا** ﴾ [الكهف : ٣٢ : ٣٦].

قال بعض الناس : هذا مثل مضروب ، ولا يلزم أن يكون واقعًا ، والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله : ﴿ **واضرب لهم مثلًا** ﴾ ، أي لكفار قريش كما قال تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلًا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **فعسىٰ ربي أن يؤتينِ خيرًا من جنتك ويرسلَ عليها حسبانًا من السماء** ﴾ [الكهف : ٤٠] .

قال ابن عباس وقتادة : حسبانا ؛ أي عذابا من السماء . والظاهر أنه المطر المزعج الباهر ، الذي يقتلع زروعها وأشجارها .

﴿ **فتصبح صعيد زلقا** ﴾ [الكهف : ٤٠] وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه .

﴿ **أو يصبح ماؤها غورًا** ﴾ [الكهف : ٤١] وهو ضد المعين السارح .

---

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر عاشور (٢٩ / ٨٦) .

﴿ فلن تستطيع له طلبا ﴾ [الكهف : ٤١] فلا تقدر على استرجاعه .

﴿ وأحيط بثمره ﴾ [الكهف : ٤٢] أي جاءه أمر أحاط بجميع حواصله ، وخرّب جنته ودمّرها .

﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ﴾ أي خربت بالكلية فلا عودة لها ، وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال : ﴿ وما أظن أن تبيد هذه أبدًا ﴾ .

إن من قدم شيئًا على طاعة الله ، والإنفاق في سبيله عذب به ، وربما سُلب منه معاملة له بنقيض قصده ، والجزاء من جنس العمل .

○ صنائع المعروف تقي مصارع السوء ○

قال ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة »[1] .

وعن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفيء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر »[2] .

وقال ﷺ : « صنائع المعروف تقي مصارعَ السُّوء ، والصدقة خفيًّا تطفيء غضب الرب ، وصلة الرحم زيادة في العمر ، وكلُّ معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا

(١) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٨٩ ، والصحيحة رقم ١٩٠٨ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩١.

هم أهل المنكر في الآخرة[1].

قال المناوي :

هذا تنويه عظيم بفضل المعروف وأهله ، قال عليّ كرّم الله وجهه : لا يزهدك في المعروف كفر من كفر ، فقد يشكره الشّاكر أضعاف جحود الكافر .

قال الماوردي : فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف أن يجعله حذرًا من فوته ، ويبادر به خيفة عجزه ، ويعتقد أنه من فرض زمانه ، وغنائم إمكانه ، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه ، فكم من واثقٍ بقدرة فاتت فأعقبت ندمًا ، ومعول على مكْنَة زالت فأورثت خجلًا ، ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفظ من عواقب فكره ، لكانت مغارمه مدحورة ، ومغانمه محبورة .

وقيل : من أضاع الفرصة عن وقتها ، فليكن على ثقة من فوتها[2] .

قصة واقعية توضح كون أن الجزاء من جنس العمل ، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء :

هذه القصة حدثت منذ مائة سنة تقريبًا وهي واقعية ، وهذه القصة سُمعت في الإذاعة في ركن البادية من الإذاعة السعودية .

يذكر رجلٌ يسمى ابن جدعان يقول : خرجت في فصل الربيع ، وإذا بي أرى إبلي سمانا ، يكاد الربيع أن يفجر الحليب من ثديها ، وكلما اقترب الحوار ابن الناقة من أمه دَرّت عليه ، وانهال الحليب منها لكثرة الخير والبركة ، فنظرت إلى ناقة من نياقي ابنها خلفها ، وتذكرت جارًا لي له بُنَيّات سبع فقير الحال ، فقلت : والله لأتصدقن بهذه الناقة وولدها لجاري والله يقول : ﴿ **لن تنالوا البر**

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن أم سلمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩٠ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤ / ٢٠٦) .

حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وأحب حلالى هذه الناقة ، يقول : فأخذتها وابنها ، وطرقت الباب على الجار ، وقلت : خذها هدية مني لك ، فرأيت الفرح في وجهه لا يدري ماذا يقول ، فكان يشرب من لبنها ويحتطب على ظهرها ، وينتظر وليدها يكبر ليبيعه ، وجاءه منها خير عظيم ، فلما انتهى الربيع وجاء الصيف بجفافه وقحطه ، تشققت الأرض وبدأ البدو يرتحلون يبحثون عن الماء والكلأ ، يقول : شددنا الرحال ، وظعنا من مكاننا نبحث عن الماء في الدحول - والدحول هي حفر في الأرض توصل إلى محابس مائية - أقبية مائية تحت الأرض ، لها فتحات فوق الأرض يعرفها البدو .

يقول : فدخلت في هذا الدحل حتى أحضر الماء لنشرب - وأولاده الثلاثة خارج الدحل ينتظرون - فَتَاه تحت الأرض ، ولم يعرف الخروج . وانتظر أبناؤه يومًا ويومين وثلاثة حتى يئسوا ، قالوا : لعل ثعبانا لدغه ومات ، لعله تاه تحت الأرض وهلك ، وكانوا - عياذًا بالله - ينتظرون هلاكه طمعًا في تقسيم المال والحلال ، فذهبوا إلى البيت وقسموا وتذكروا أن أباهم قد أعطى ناقة لجارهم الفقير ، فذهبوا إليه وقالوا له : أعِدِ الناقة خيرا لك ، وخذ هذا الجمل مكانها ، وإلا سنسحبها عنوة الآن ، ولن نعطيك شيئًا .

قال : أشتكيكم إلى أبيكم .

قالوا : اشتكِ إليه ، فإنه قد مات .

قال : مات . كيف مات ؟ وأين مات ؟ ولِم لَمْ أعلم بذلك .

قالوا : دخل دحلًا في الصحراء ولم يخرج .

قال : ناشدتكم الله اذهبوا بي إلى مكان هذا الدحل ، ثم خذوا الناقة ، وافعلوا ما شئتم ولا أريد جملكم .

فذهبوا به . فلما رأى المكان الذي دخل فيه صاحبه الوفيّ ذهب وأحضر حبلًا ، وأشعل شمعة ، ثم ربطه خارج الدّحل ، ونزل يزحف على قفاه حتى وصل إلى أماكن فيها يحبو ، وأماكن فيها يزحف ، وأماكن يتدحرج ، ويشم رائحة الرطوبة تقترب ، وإذا به يسمع أنين الرجل عند الماء فأخذ يرهف تجاه الأنين

في الظلام ، ويتلمس الأرض ، فوقعت يده على الطين ، ثم وقعت يده على الرجل ، فوضع يده على أنفاسه فإذا هو حيّ يتنفس بعد أسبوع ، فقام وجرّه ، وربط عينيه حتى لا تنبهر بضوء الشمس ، ثم أخرجه معه خارج الدحل ، ومرس له التمر وسقاه ، وحمله على ظهره ، وجاء به إلى داره ، ودبّت الحياة في الرجل من جديد ، وأولاده لا يعلمون ، فقال : أخبرني بالله عليك ، أسبوعًا كاملًا وأنت تحت الأرض ولم تمت ، قال : سأحدثك حديثًا عجبًا ، لمّا نزلت ضعت ، وتشعبت بي الطرق ، فقلت : آوي إلى الماء الذي وصلت إليه ، وأخذت أشرب منه ، ولكنّ الجوع لا يرحم ، فالماء لا يكفي .

يقول : وبعد ثلاثة أيام ، وقد أخذ الجوع مني كل مأخذ ، وبينما أنا مستلقٍ على قفاي ، قد أسلمت وفوّضت أمري إلى الله ، وإذا بي أحس بدفء اللبن يتدفق على فمي .

يقول : فاعتدلت في جلستي ، وإذا بإناء في الظلام لا أراه يقترب من فمي فأشرب حتى أرتوي ، ثم يذهب ، فأخذ يأتيني ثلاث مرات في اليوم . ولكنه منذ يومين انقطع ما أدري ما سبب انقطاعه ؟

يقول : فقلت له : لو تعلم سبب انقطاعه لتعجبت ، ظن أولادك أنك متّ ، وجاءوا إلي وسحبوا الناقة التي كان الله يسقيك منها ، والمسلم في ظل صدقته ، ﴿ ومن يتقِ الله يجعلْ له مخرجًا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[1] [الطلاق : ٢ - ٣] .

والجزاء من جنس العمل .

○ فضل إنظار المعسر أو التجاوز عنه ○

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « حُوسب رجلٌ ممن كانَ قَبْلَكُم ، فلم يوجد له من الخير شيء ، إلّا أنه كان رجلًا موسرًا ، فكان يخالط الناس ، وكانَ يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسِر . فقال الله تعالى:

---

(١) قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من العلماء .

نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه »[١] .

قال المناوي :

« حُوسب رجل » يحاسب رجل يوم القيامة ، فأورده بصيغة الماضي ، لتحقق وقوعه . « ممن كان قبلكم » من الأمم السابقة ، « أن يتجاوزوا عن المعسر » ؛ أي الفقير المقلّ المديون له بأن يحطوا عنه ، أو ينظروه إلى ميسرة .

« فقال الله عز وجل : نحن أحق بذلك منه » ؛ لأنه المتفضل على الحقيقة ، إذ لا حقّ عليه لأحد ، « تجاوزوا عنه » أي عن ذنوبه[٢] .

فهذا الرجل الذي كان يسامح الناس في التقاضي ، ويتجاوز عنهم سامحه الله وتجاوز عن ذنوبه ، والجزاء عند الله من جنس العمل .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه ؛ لعلّ الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه »[٣] .

عن بريدة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسرًا ، فله بكل يوم مثله صدقة ، قبل أنْ يحلّ الدين ، فإذا حلَّ الدين فأنظره ، فله بكل يوم مثلاه صدقة »[٤] .

قال المناوي :

قال السبكي : وزع أجره على الأيام ، يكثر بكثرتها ، ويقل بقلتها ، وسره ما يقاسيه المنظر من ألم الصبر ، مع تشوق القلب لما له فلذلك كان ينال كل

---

(١) صحيح : رواه الترمذي ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣١٥٤ .

(٢) فيض القدير (٣ / ٣٩٨) .

(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي .

(٤) رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة، والحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٨٤ . والإرواء رقم ١٤٢٨ ، والصحيحة رقم ٨٦ .

يوم عوضًا جديدًا[١] .

عن أبي اليسر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسرًا ، أو وضع عنه أظلَّه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله »[٢] .

قال المناوي :

« من أنظر معسرًا » ؛ أي أمهل مديونًا فقيرًا من المنظرة . قال الحرالي : وهي التأخير المرتقب ، « أو وضع عنه » ؛ أي حط عنه من دينه ، « أظله الله في ظله » أظله في ظل العرش حقيقة ، « يوم لا ظل إلا ظله » ، أي ظل الله .

وإنما استحق المنظر ذلك ؛ لأنه آثر المديون على نفسه ، وأراحه ، فأراحه الله ، والجزاء من جنس العمل[٣] اهـ .

○ العتـق ○

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠٨) :

قد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضوًا من معتقها حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [الصافات : ٣٩] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق رقبة مسلمة ، أعتق الله له بكل عضو منها عضوًا من النار ، حتى فرجه بفرجه »[٤].

وعن أبي نجيح السلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل مسلم أعتق رجلًا مسلمًا ، فإن الله تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامه عظمًا من عظام محرّره من النار ، وأيُّما امرأة أعتقت امرأة مسلمة ، فإن الله تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامها عظمًا من عظام محررتها من النار يوم القيامة»[٥].

---

(١) فيض القدير (٦ / ٩٠) .
(٢) رواه مسلم وأحمد .
(٣) فيض القدير (٦ / ٨٩) .
(٤) رواه الشيخان ، والترمذي .
(٥) صحيح : رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٢٣ ، وكذا أخرجه أحمد ، والطحاوي .

قال المناوي : جزاءً وفاقًا . والجزاء من جنس العمل .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إِرْبٍ منها إربًا منه من النار »(١) .

الإرب : هو العُضو بضم العين وكسرها .

قال رسول الله ﷺ : « أيما امرىء مسلم أعتق امرءًا مسلمًا فهو فكاكه من النار يُجزى بكل عظم منه عظمًا منه ، وأيُّما امرأةٍ مسلمة أعتقت امرأة مسلمة ، فهي فكاكها من النار ، يُجزى بكل عظم منها عظمًا منها ، وأيما امرىء مسلم أعتق امرأتين مسلمتين فهما فكاكه من النار ، يُجزى بكل عظمين منهما عظمًا منه »(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : «من أعتَق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار »(٣) .

وقال ﷺ: «عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها»(٤) .

وأولى الناس بهذا الصديق- رضي الله عنه- الذي أعتق من الرقاب ما أعتق .

عن عائشة - رضي الله عنها - أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال : « أنت عتيق الله من النار » قاله لأبي بكر(٥) .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن عوف ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والطبراني في الكبير عن مرة بن كعب ، والترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٩٧، والنسائي، وقال ابن حجر في الفتح ١٧٥/٥: إسناده صحيح .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي عن عمرو بن عبسة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٢٦ .

(٤) رواه الطيالسي عن البراء ورواه أحمد وابن حبان في صحيحه والطحاوي وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٨٧١ .

(٥) صحيح : أخرجه الترمذي ، والطبراني في المعجم الكبير ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والحديث جيد الإسناد وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٥٧٤ .

« أعتق الله » أي أنجى الله ، وذكر بلفظ الإعتاق للمشاكلة .

أعتق العباد فأعتقه الله من النَّار ، والجزاء من جنس العمل .

لمّا حدث سعيد بن مرجانة صاحب علي بن الحسين - رضي الله عنهما - الحديث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « أيما رجلٍ أعتق امرءًا مسلمًا استنقذ الله بكل عُضو منه عضوًا منه من النار » .

قال سعيد : فانطلقت به إلى علي بن الحسين ، فعمد علي بن الحسين - رضي الله عنهما - إلى عبد له قد أعطاه به عبد الله بن جعفر عشرة آلاف درهم - أو ألف دينار - فأعتقه . رواه البخاري .

عن عبادة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يجرح في جسده جراحة ، فيتصدق بها ، إلا كفّر الله مثل ما تصدق »[1] .

قال المناوي : إذا جنى إنسان على آخر جناية ، فعفا عنه لوجه الله تعالى نال هذا الثواب .

عن عبادة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تصدّق بشيء من جسده ؛ أُعطي بقدر ما تصدق »[2] .

قال المناوي :

يعني من جنى عليه إنسان ، كأن قطِع منه عضوًا أو أزال منفعته ، فعفا عنه لوجه الله ، أثابه الله تعالى عليه بقدر الجناية .

ويحتمل أن المراد بالتصدق بذلك أن يباشر بعض الطاعة ببعض بدنه ، كأن يزيل الأذى عن الطريق بيده ، فيثاب بقدر ذلك[3] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد والضياء عن عبادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢٢٧٣ . وقال المنذري والهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن عبادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٢٧ .

(٣) فيض القدير (٦ / ١٠٦) .

○ إثم مانع الزكاة ○

قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ [آل عمران : ١٨٠].

من آثر شيئًا على الله لم يبارك له فيه ، فلا يدوم له في الدنيا بذلك استمتاع ، ولا للعقوبة عليه في الآخرة عنه دفاع .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « تأتي الإبل على ربها على خير ما كانت إذا هي لم يُعطِ فيها حقها ، تطؤه بأخفافها وتأتي الغنم على ربها على خير ما كانت إذا لم يعطِ فيها حقها ، تطؤه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ومِنْ حقها أن تحلب على الماء ، ألا لا يأتين أحدكم يوم القيامة ببعير يحمله على رقبته ، له رغاء ، فيقول : يا محمد ! فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد بلغت ، ألا لا يأتين أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعَارٌ ، فيقول : يا محمد ! فأقول : لا أملك لك شيئًا قد بلّغت ، ويكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعًا أقرع ، يفر منه صاحبه ويطلبه : أنا كنزك ، فلا يزال حتى يُلقمه إصبعه »[(١)] .

وفي رواية البخاري : « تأتي الإبل على صاحبها » .

وقال ﷺ : « ما من صاحب إبلٍ ، ولا بقرٍ ولا غنمٍ ، لا يؤدي زكاتها ، إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأخفافها ، كلما نفدت أخراها ، عادت عليه أولاها ، حتى يقضى بين الناس »[(٢)] .

---

(١) رواه النسائي ، وابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٩٩ ، ورواه البخاري .

(٢) صحيح : رواه النسائي ، وابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه عن أبي ذر ، ورواه الترمذي ، وأحمد ، ومسلم .

قال ابن حجر :

« على خير ما كانت » أي من العظم والسمن ، ومن الكثرة ؛ لأنها تكون عنده على حالات مختلفة ، فتأتي على أكملها ليكون ذلك أنكى له لشدة ثقلها .

« تطؤه بأخفافها » وفي رواية : « فتخبط وجهه بأخفافها » .

« كلما مرت عليه أولاها ردت عليه أخراها » يحتمل أن المعنى أن أول الماشية إذا وصلت إلى آخرها تمشي عليه تلاحقت بها أخراها ، ثم إذا أرادت الأولى الرجوع بدأت الأخرى بالرجوع ، فجاءت الأخرى أول حتى تنتهي إلى آخر الأولى - وكذا وجهه الطيبي فقال : إن المعنى أن أولاها إذا مرت على التتابع إلى أن تنتهي إلى الأخرى ، ثم ردت الأخرى من هذه الغاية ، وتبعها ما يليها إلى أن تنتهي أيضًا إلى الأولى ، والله أعلم .

« تطؤه بأظلافها وتنطِحه بقرونها » وفي رواية « ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء ، تنطحه بقرونها » - العقصاء : ملتوية القرنين ، الجلحاء : التي لا قرن لها ، العضباء : التي انكسر قرنها للداخل ، يُعار : صوت المعز ، ثغاء : صياح الغنم ، رغاء : صوت الإبل .

وفي الحديث : « إنَّ الله يحيي البهائم ؛ ليعاقب بها مانع الزكاة » . وفي ذلك معاملة له بنقيض قصده ؛ لأنه قصد منع حق الله منها ، وهو الارتفاق والانتفاع بما يمنعه منها ، فكان ما قصد الانتفاع به أضَرَّ الأشياءِ عليه .

والحكمة في كونها تعاد كلها مع أن حق الله فيها إنما هو في بعضها ؛ لأن الحق في جميع المال غير متميز ؛ ولأن المال لما لم تخرج زكاته غير مطهر ، وفيه أن في المال حقًّا سوى الزكاة ، وهو القدر الزائد على الواجب ، ولا عقاب بتركه وإنما ذكر استطرادًا ، لما ذكر حقها بين الكمال فيه ، وإن كان له أصل يزول الذم بفعله وهو الزكاة[1] .

---

(١) فتح الباري (٣ / ٣١٥ - ٣١٦) .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالًا فلم يُؤد زكاته مُثل له يوم القيامة شجاعًا أقرعَ ، له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بِلهْزِمَتيه - يعني شدْقيه - ثم يقول : أنا مالُك ، أنا كنزك ، ثم تلا : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون .. ﴾[1] الآية .. » .

وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله ؛ إلا مُثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع ، حتى يطوّق عنقه »[2] .

قال ابن حجر :

« مُثلَ » أي صُوِّر ، أو ضمن مثل معنى التصيير ؛ أي صير ماله على صورة شجاع .

ووقع في رواية زيد بن أسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره »[3] .

ولا تنافي بين الروايتين ؛ لاحتمال اجتماع الأمرين معًا ، فرواية ابن دينار توافق الآية التي ذكرها وهي ﴿ سيطوقون ﴾ ورواية زيد بن أسلم توافق قوله تعالى : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم ... ﴾ الآية .

قال البيضاوي : خص الجنب والجبين والظهر ؛ لأنه جمع المال ، ولم يصرفه في حقه ؛ لتحصيل الجاه والتنعم بالمطاعم والملابس ، أو لأنه أعرض عن الفقير وولّاه ظهره ، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ؛ لاشتمالها على الأعضاء الرئيسية .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، ورواه ابن خزيمة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٥٢ .

(٣) فتح الباري (٣ / ٣١٧ - ٣١٨) .

وقيل : المراد بها الجهات الأربع التي هي مقدم البدن ومؤخره ، وجنباه ، والمراد بالشجاع : الحية الذكر ، وقيل : الذي يقوم على ذنبه ويواثب الفارس ، والأقرع الذي تقرع رأسه ، أي تمعط لكثرة سمهِ . وفي تهذيب الأزهري سمي أقرع ؛ لأنه يقري السمَّ ، ويجمعه في رأسه ، حتى تتمعط فروة رأسه .

قال ذو الرمة :

قرىٰ السمَّ حتى انهارَ فروة رأسه عن العظم صلٌّ قاتلُ اللسعِ ماردُهْ

« له زبيبتان » وهما الزبدتان اللتان في الشدقين ، يقال : تكلم حتى زَبد شدقاه ؛ أي خرج الزبد منهما ، وقيل : هما النكتتان السوداوان فوق عينيه . وقيل : نقطتان يكتنفان فاه ، وقيل : هما في حلقه بمنزلة زنمتي العنز ، وقيل لحمتان على رأسه مثل القرنين ، وقيل : نابان يخرجان من فيه .

« يطوقه » أي يصير له ذلك الثعبان طوقًا .

« ثم يأخذ بلهزمتيه » أي الشجاع ، والمأخوذ يد صاحب المال ، كما وقع مبينًا في رواية همام عن أبي هريرة : « لا يزال يطلبه حتى يبسط يده فيلقمها فاه » .

« لهزمتيه » وقد فسر في الحديث بالشدقين ، وفي الصحاح : هما العظمان الناتئان في اللحيين تحت الأذنين . وفي الجامع : هما لحم الخدين الذي يتحرك إذا أكل الإنسان .

« ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » وفائدة هذا القول الحسرة ، والزيادة في التعذيب حيث لا ينفعه الندم ، وفيه نوع من التهكم .

ومن طريق همام عن أبي هريرة : « يفر منه صاحبه ويطلبه » .

وفي حديث ثوبان عند ابن حبان : « يتبعه فيقول : أنا كنزك الذي تركته بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده ، فيمضغها ثم يتبعه سائر جسده » .

ولمسلم في حديث جابر : « يتبع صاحبه حيث ذهب وهو يفر منه ، فإذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده في فيه ، فجعل يقضمها كما يقضم الفحل » .

وللطبراني في حديث ابن مسعود : « ينقر رأسه » .

وظاهر الحديث أن الله يصيِّر نفس المال بهذه الصفة .

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون ... ﴾ الآية : المراد بالتطويق في الآية الحقيقة ، خلافًا لمن قال : إن معناه سيطوقون الإثم . وفي تلاوة النبي ﷺ الآية دلالة على أنها نزلت في مانعي الزكاة ، وهو قول أكثر أهل العلم بالتفسير[1] اهـ .

عن جابر بن عبد الله الأنصاري . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما مِنْ صاحب إبلٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت قط ، وقعد لها بِقَاع قَرْقَر ، تستن[2] عليه بقوائمها وأخفافها ، ولا صاحب بقرٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بقوائمها ، ولا صاحب غنمٍ لا يفعل فيها حقها ، إلا جاءت يوم القيامة أكثر ما كانت ، وقعد لها بقاع قرقر ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، ليس فيها جَمَّاء ، ولا منكِسرٌ قرنها ، ولا صاحب كنزٍ لا يفعل فيه حقه ؛ إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع ، يتبعه فاتحًا - فاغرًا - فاه ، فإذا أتاه فرّ منه ، فيناديه خذ كنزك الذي خبأته ، فأنا عنه غني ، فإذا رأى أن لا بد منه سلك يده في فيه ، فيقضمها قضم الفحل »[3] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهبٍ ولا فضةٍ ، لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يومَ القيامة ، صُفِّحت له صفائح من نَار ، فأُحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى به جنبه ، وجبينه ، وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ولا صاحب إبل ، لا يؤدي منها حقها ، ومن حقها حلبها يوم ورودها ، إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها

---

(١) فتح الباري (٣ / ٣١٧ - ٣١٨) .

(٢) أي ترفع يديها ، وتطرحهما معا على صاحبها .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، والنسائي عن جابر .

بقاع قرقر[1] أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلًا واحدًا ، تطؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها ، كلما مرّ عليها أولاها رد عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ولا صاحب بقرٍ ولا غنمٍ لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ، لا يفقد منها شيئًا ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار »[2] .

الذين يكنزون الذهب والفضة :

قال تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ [التوبة : ٣٤ - ٣٥] .

قال ابن كثير :

أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما ؛ أي هذا بذاك ، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم ، ولهذا يقال : من أحب شيئًا ، وقدّمه على طاعة الله عذب به . وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم ،

---

(١) بطح لها بقاع قرقر ؛ القاع : المستوى الواسع من الأرض ، يعلوه ماء السماء فيمسكه .
قال الهروي : وجمعه قِيعَة وقِيعَان . والقرقر : المستوى أيضًا من الأرض الواسع .
بطح : قال جماعة : ألقي على وجهه . وليس من شرط البطح كونه على الوجه ، وإنما هو في اللغة بمعنى البسط والمد ، فقد يكون على وجهه ، وقد يكون على ظهره ، قاله النووي .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود عن أبي هريرة .

عذبوا بها . كما أن هذه الأموال كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضرَّ الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمىٰ عليها في نار جهنم ، وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم[(١)] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار :

يحمى على تلك الأموال المكنوزة في نار جهنم ، بأن توضع وتضرم عليها النار الحامية ، حتى تصير مثلها ، وهو أبلغ من يوم تحمى فيكون من الإحماء عليها كالميسم . وظاهر العبارة أنه يحمى عليها بأعيانها ، والله قادر على إعادتها .

﴿ فتكوى بها جباههم ﴾ التي كانوا يستقبلون بها الناس منبسطة أساريرها من الاغتباط بعظمة الثروة ، ويستقبلون بها الفقراء منقبضة متنغصة من العبوس والتقطيب في وجوههم ؛ لينفروا ويحجموا عن السؤال .

﴿وجنوبهم وظهورهم﴾ التي كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة اضطجاعًا واستلقاءً، ويعرضون بها عن لقاء المساكين، وطلاب الحاجات، ازورارًا وإدبارًا، فلا يكون لهم في جهنم ارتفاق ولا استراحة فيما سوى الوقوف إلا بالانكباب على وجوههم.

﴿ فذوقوا ماكنتم تكنزون ﴾ إن ما كنتم تظنون من منفعة كنزه لأنفسكم خاصة ، لا يشارككم فيها أحد ، قد كان لكم خلفًا ، وعليكم ضدًا ، فإنه صار في الدنيا لغيركم ، وكان عذابه في الآخرة هو الخاص بكم ، كدأب جميع أهل الباطل فيما زين لهم من الرذائل .

يرى البخلاء أنَّ البخل حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم .

واجتهاد الرأي الأفين ، فهم من خوف الفقر في فقر[(٢)] .

وقال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب :

لم خُصت هذه الأعضاء ؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٨٢ - ٨٣) .

(٢) تفسير المنار (١٠ / ٤٠٩ ، ٤١٠) .

الجواب : لوجوه :

الوجه الأول : أن المقصود من كسب الأموال حصول فرح في القلب ، يظهر أثره في الوجوه ، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان ، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم ، فلما طلبوا تزين هذه الأعضاء الثلاثة ، لا جرم حصل الكي على الجباه والجنوب والظهور .

قال أبو بكر الوراق : خصت هذه المواضع بالذكر ، لأن صاحب المال إذا رأى الفقير بجنبه تباعد وولى ظهره .

إن كمال حال بدن الإنسان في جماله وقوته ؛ أما الجمال فمحله الوجه ، وأعزُّ الأعضاء في الوجه الجبهة ، فإذا وقع الكيّ في الجبهة ، فقد زال الجمال بالكلية ، وأما القوة فمحلها الظهر والجنبان ، فإذا حصل الكي عليها فقد زالت القوة عن البدن .

فالحاصل : أن حصول الكي في هذه الأعضاء الثلاثة يوجب زوال الجمال وزوال القوة ، والإنسان إنما طلب المال لحصول الجمال ولحصول القوة .

﴿ **فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ لم تصرفوه لمنافع دينكم ودنياكم ، على ما أمركم الله به ، فذوقوا وبال ذلك به لا بغيره[1] .

﴿ **هذا ما كنزتم لأنفسكم** ﴾ هذا هو بذاته الذي كنزتموه للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب .

﴿ **فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ ذوقوه بذاته ، فهو هذا الذي تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه .

والجزاء لمانع الزكاة في كل حالاته من جنس عمله .

ما منع قوم الزكاة :

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يمنع

(١) مفاتيح الغيب (٧ / ٦٥٠ ، ٦٥١) .

قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا »[١]

قال المناوي :

أي لم ينزل إليهم المطر عقوبة لهم بشؤم منعهم الزكاة عن مستحقيها ، فانتفاعهم بالمطر الواقع إنما هو واقع تبعًا للبهائم ، فالبهائم حينئذ خير منهم ، وهذا وعيد شديد على ترك إخراج الزكاة أُعظِم به من وعيد[٢] .

لمّا منعوا الزكاة تكثّرا ، وزيادة في أموالهم ، عوقبوا بمنع المطر الذي يخرج به الزرع ، الذي يحصلون منه على المال والثروة ، والجزاء من جنس العمل .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « خمس بخمسٍ : ما نقض قوم العهدَ إلا سُلّط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرتْ فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموتُ ، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات ، وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حُبس عنهم المطر »[٣] .

من منع فضل مائه :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعته لقد أعطى بها أكثر مما أُعطي ، وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ؛ ليقتطع بها مال رجل مسلم ، ورجل منع فضل مائه ، فيقول الله : اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » رواه الشيخان .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وابن ماجة ، وابن أبي الدنيا ، والحاكم في المستدرك والروياني ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٨٠ ، والصحيحة رقم ١٠٦ .

(٢) فيض القدير (٥ / ٢٩٧) .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ٣٢٣٥ .

قال المناوي :

« لا يكلمهم الله » كلامًا يسرّهم بل بنحو : ﴿ اخسئوا فيها ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] .

« ورجل منع فضل مائه » الزائد على حاجته عن المحتاج « فيقول الله » عز وجل يوم القيامة : « اليوم أمنعك فضلي » الذي لا ينجي في ذلك اليوم غيره .

« كما منعت فضل ما لم تعمله يداك » وظاهر قوله : «فضل مائه» بالإضافة أن الكلام في بئر حفرها بملكه أو بموات للارتفاق ، أو أطلق وفضل عن حاجته ما يحتاجه غيره ، وأما ما حفر للمارة فيجب بذله فضلًا وأصلًا ، فإن الحافر فيه كواحد من المارة . فظاهر قوله آخرًا : « ما لم تعمل يداك » أن الكلام في المياه المباحة النابعة في موضع لا يختص بأحد ، ولا صنع للآدميين في انبساطها وإجرائها كماء الأودية والعيون[1] اهـ .

البخل أدوى داء :

وهذه قصة واقعية من منطقة الأحساء تصور مدى خسة البخلاء وكيف يكون جزاؤهم من جنس عملهم .

يذكر هذه القصة الواقعية رجل من منطقة الأحساء[2] يقول : كان لي جارٌ بخيل بلغ من الكبر عتيًّا ، واشتعل رأسه شيبًا ، ليس له أحد ، لا زوج ولا ولد ولا قريب ، يجمع المال ويكنزه ، وذات يوم تأخر على غير عادته ، ولم يخرج إلى دكانه ، وكان صانعًا للنعال والأحذية ، يقول : فلما صليت العشاء جئت إلى بابه الذي كاد يتهاوى ، لو اتكأت عليه الريح لانهدم ، يقول : فدفعت الباب ثم أدخلت رجلي اليمنى ، وقلت : يا فلان . يقول : ففزع وصرخ وجمع أطرافه ، وقال : ويحك ماذا تريد ؟ اذهب ، اخرج . يقول : فقلت له : جئت أعودك

---

(١) فيض القدير (٣ / ٣٣٠) .

(٢) شريط قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من الدعاة .

أتفقدك ، ثلاثة أيام لا أراك في دكانك ، يقول : فطردني شر طردة ، يقول : فخرجت ولكني خشيت أن يكون به مس أو أصابه شيء ، فعدت مرة ثانية ، وإذا به قد جمع الذهب أمامه ؛ دنانير الذهب المصكوكة أمامه بريقها يتراقص على ضوء المصباح ، وبجواره زيت ، وهو يخاطب الذهب : يا حبيبي ، يا من أفنيت فيك عمري ، أموت وأتركك لغيري ، لا والله ، أنا أعلم أن موتي قريب ، وأن مرضي خطير ، ولكني سأدفنك معي ، ثم يأخذ دينار الذهب ، ويغمسه في الزيت ويهوي به إلى فمه ، ويبلعه يقول : فإذا بلعه أصابته كحة شديدة يكاد أن يموت منها ، ثم يأخذ نفسه ويرفع دينارًا ثانيًا ، ويخاطبه بشوق ووله وهيام كأنه حبيب جاء من مكان بعيد ، ثم يغمسه في الزيت ويهوي به في فمه . يقول : فقلت : والله لن يأخذ مال البخيل إلا العيّار ، وسأكون عيّارًا هذا اليوم . يقول : فأوصدت عليه الباب ، وربطته في سلك ، وتركته ثلاثة أيام حتى اطمأننت أنه هلك، يقول: فجئته فإذا هو قد تحجر ويبس في فراشه، وقد ابتلع كومة الذهب الذي أمامه . يقول : فأخبرت الناس فحملوه وغسّلوه ، وهم يتعجبون لثقله . يقولون : ليس فيه إلا الجلد والعظم ما باله ثقيل . بعضهم يقول : من البخل ، والآخر يقول : من الذنوب ، وهم لا يعلمون السر الذي أعلم. يقول: فدفناه ووضعت علامة على القبر، فلما انتصف الليل أخذت معي الفأس والمعول ، ثم أخذت أحفر القبر ، ودفعت عنه التراب ، وأنا ألتفت يمينًا وشمالًا حتى لا يراني أحد ، ثم أزحت الحجارة عن اللحد ، فبان بياض الكفن ، فأخرجت سكينة ، وقطعت الكفن تجاه البطن ، ثم بقرت بطنه ، فإذا الذهب يتوهج على ضوء القمر ، يقول : فمددت يدي لآخذه ، فإذا هو حارٌّ كالجمر المستعر ، يقول : فصرخت ونزعت يدي ، وردمت القبر بالحجارة ، وردمت عليه التراب ، وخرجت أصرخ ، ما رأيت ألمًا مثله ، وغمستُ يدي في الماء البارد ، وظللت سنواتٍ أحس بهذه اللسعة تأتيني بين فترة وفترة ، أعوذ بالله من البخل وأهله .

قال تعالى : ﴿ **الذي جمع مالًا وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التي تطلع على**

الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة ﴾ [الهمزة : ٢ - ٩] .

كما أوصدوا على الذهب . ولم يخرجوه ، فكذلك توصد عليهم النار جزاءً وفاقًا .

الجواد كريم على الله وعلى الناس :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل بفلاةٍ من الأرض ، فسمع صوتًا في سحابة يقول : اسقِ حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب ، فأفرغ ماءه في حرة ، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته ، فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان ، للاسم الذي سمع في السحابة ، فقال له : يا عبد الله ، لم تسألني عن اسمي ؟ قال : إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : اسقِ حديقة فلان ، لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ قال : أمَّا إذ قلت هذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثا ، وأرد فيها ثلثا »[1].

هذا الذي يتصدق بثلث حديقته ، يأتي الماء - المطر - فيصب صبًّا في حديقته ، لا يتعداها ، « ما نقص مال من صدقة » والجزاء من جنس العمل .

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتِهم إلا الحدود »[2] .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « تجاوزوا عن ذنب السخي ، فإنَّ الله آخذ بيده كلما عثر »[3] .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة . ورواه الطيالسي وابن منده .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١١٩٦ .

(٣) حسن : رواه الدارقطني في المستجاد من فعلات الأجواد ، والبيهقي في الشعب ، وابن الجوزي في الموضوعات .

مثلما أقالوا عثرات المنكوبين مرارًا ، فكذا يقيل الله عثراتهم ، والجزاء من جنس العمل .

سجـع :

قل للذين شغلهم في الدنيا غرورهم ، إنما في غدٍ ثبورهم ، ما نفعهم ما جمعوا إذا جاء محذورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ . فكيف غابت عن قلوبهم وعقولهم .

أُخذ المال إلى دار ضرب العقاب ، فجعل في بوتقة ليحمى ليقوىٰ العذاب ، فصُفِّح صفائح كي يعم الكيُّ الإهاب ، ثم جيء بمَنْ عَنِ الهدى قد غاب ، يسعى إلى مكانٍ لا مع قوم يسعى نورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

إذا لقيهم الفقير لقي الأذى ، فإن طلب منهم شيئًا طار منهم لهبُ الغضب جُذَى[1]، فإن لطفوا به قالوا : أغْنتكم ذا ، وسؤال هذا لِذَا ، ولو شاء ربك لأغنىٰ المحتاج وأعوز ذا ، ونسوا حكمة الخالق في غني ذا وفقر ذا ، واعجبًا كم يلقاهم من غمٍّ إذا ضمتهم قبورهم ﴿ **يوم تُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

يسأل عنها الجامع من أين اكتسب ؟ وسيأخذها الوارث منهم من غير تعب ، ألا إن الشوك له وللوارث الرُّطب ، أين حرص الجامعين أين عقولهم ؟ ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

لو رأيتهم في طبقات النار ، يتقلبون على جمرات الدرهم والدينار ، وقدْ غُلَّتِ اليمينُ مع اليسار ، لمّا بخلوا مع الإيسار ، لو رأيتهم في الجحيم يسقون من الحميم ، وقد ضجّ صَبُورُهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

---

(١) الجذوة : الجمرة الملتهبة بضم الجيم وتفتح ؛ جمعها جُذَى مثل مُدى وقُرى ، وتكسر أيضًا فتكسر في الجمع جذية وجِذَى (المصباح) .

كم كانوا يوعظون في الدنيا وما فيهم من يسمع ، كم خُوِّفوا من عقاب الله وما فيهم مَنْ يفزع ، كم أنبئوا بمنع الزكاة وما فيهم من يدفع ، فكأنهم بالأموال وقد انقلبت شجاعًا أقرع ، فما هي عصى موسى ولا طورهم ﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ .

وبعد يا أخي ..

إن العقلاء واسَوْا بقدْر طاقتهم ، ولم يتناسوا قرب فاقتهم ، هذا لأن عادات السادات سادات العادات ، وشِيَم الأحرار أحرار الشيم ، أما البخيل بالذهب فمات وذهب ، وأما الكريم فعاش بعد الموت بما وهب .

كيف يحث البخيل على إعطاء جنسه ، وهو يبخل بالعطاء على نفسه ، البخيل يملأ الوِجار[1] . والجار جائع ، ويحفظ العَرَض والعرض ضائع ، البخيل مع الوجدان ذا عِوز ، كلما برز له سائلٌ أَرَز[2] ، مقفول الحاجبين أبدًا وقد ضاع المفتاح ، في أخلاقه قباح ، مجموعها عصارة لُؤم في قرارة خَبث ، فذاك ميت في حياته ، فإذا نشر كان الطيّ أصلح له ، بشرٍّ مال البخيل بحادث أوْ وارث .

فعجِّل الأوبة ، وبادر التوبة ، وسارع في غسل الحوبة .

يقول ابن القيم في قول الله تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلًا والله واسعٌ عليم** ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق ، والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني ، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل ، والداعي إلى البذل والإنفاق ، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل ، وما يدعو إليه داعي الإنفاق ، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين .

---

(١) الوجار : البيت ، وأصله بيت الذئب .

(٢) أرز : انقبض وتجمّع وتثبت .

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان ، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر ، إن أنفقوا أموالهم ، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق . فإن أحدهم يهم بالصدقة ، والبذل ، فيجد في قلبه داعيًا يقول له : متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه ، وافتقرت إليه بعد إخراجه ، وإمساكه خير لك ، حتى لا تبقى مثل الفقير ، فغناك خير من غناه ، فإذا صوّر له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش . وهذا إجماع من المفسرين : أن الفحشاء هنا البخل ، فهذا وعده ، وهذا أمره ، وهو الكاذب في وعده ، الغارّ الفاجر في أمره . فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون . فإنه يدلي من يدعوه بغروره ، ثم يورده شر الموارد كما قيل :

دلّاهُم بغرورٍ ثم أَوْرَدَهمْ إن الخبيثَ لمن والاه غرّارُ

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ، ولا نصيحة له ، كما ينصح الرجل أخاه ، ولا محبة في بقائه غنيًّا ، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته. وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه ، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه ، فيستوجب منه الحرمان .

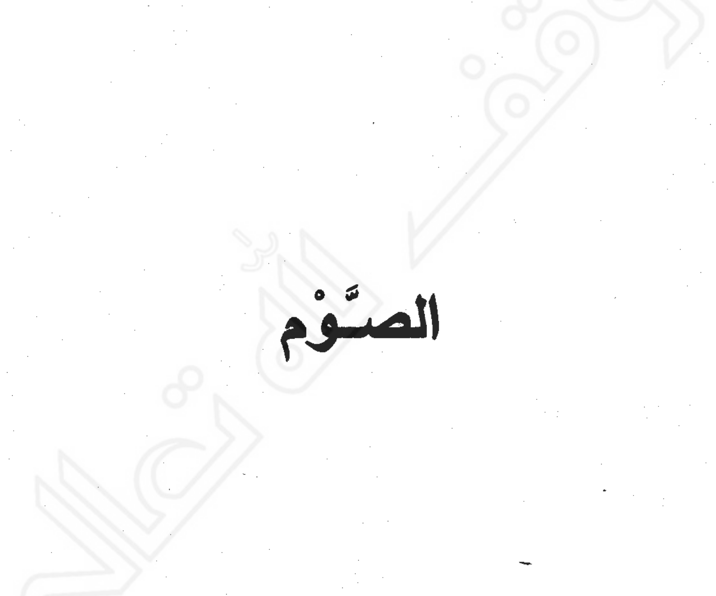
وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه ، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه ، إما في الدنيا أو في الدنيا والآخرة .

فهذا وعد الله ، وذاك وعد الشيطان ، فلينظر البخيل والمنفق أيّ الوعدين هو أوثق ، وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه ؟ والله يوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، وهو السميع العليم . عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله ، فيعطي هذا بفضله ، ويمنع هذا بعدله ، وهو بكل شيء عليم[1] .

---

(١) التفسير القيم ص ١٦٨ .

الصَّوْم





☐ الصوم ☐

الصوم صفة وعادة السَّادات ، وعادة السَّادات سادات العادات ، وشيم الأحرار أحرار الشيم ..

أما تسمع قول الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به .

وترك الطعام سحاب ، وإذا قلَّ الأكل مطر القلب الحكمة ، ورسول الله - ﷺ - يقول : « أقصر من جشائك ، فإن أكثر الناس شبعًا في الدنيا ، أكثرهم جوعًا في الآخرة »(١) .. والجزاء من جنس العمل ..

ومن قوي على بطنه ، قوي على دينه ، فعليك بالصوم .

نصومُ فإنَّ الصومَ من عِلم التُّقَى　　وإنَّ طويل الجوعِ يومًا سيشبعُ

هؤلاء الذين تشققت أشداقهم جوعًا في الدنيا ، كيف يكون جزاؤهم من جنس عملهم ، وقد قلصت شفاههم عن الأشربة ، وضمرت بطونهم ؟!.

قال تعالى : ﴿كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ [الحاقة : ٢٤] .

قال مجاهد وغيره : نزلت في الصائمين .

قال يعقوب بن يوسف الحنفي : بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة : يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا ، وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة ، وغارت أعينكم ، وجفّت بطونكم ، كونوا اليوم في نعيمكم ، وتعاطوا الكأس فيما بينكم .

---

(١) حديث حسن أخرجه الحاكم في المستدرك ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٩٠ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٤٢ ، وأخرجه ابن ماجة عن ابن عمر مرفوعًا ، وذكر نحوه ابن المبارك في الزهد عن أيوب بن عثمان .

وعن أنس موقوفًا : وإن لله مائدة لم تر مثلها عين ، ولم تسمع أذن ، ولا خطر على قلب بشر لا يقعد عليها إلا الصائمون .

وعن بعض السلف قال : بلغنا أنه يوضع للصوّام مائدة يأكلون عليها ، والناس في الحساب فيقولون : يا رب نُحاسب وهم يأكلون ، فيقال : إنهم طالما صاموا وأفطرتم ، وقاموا ونمتم .

رأى بعضهم بشر بن الحارث في المنام وبين يديه مائدة، وهو يأكل ويقال له : كُل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب .

قد كُسي حلة البهاء وطافتْ بأباريـق حولـه الخـدام
ثم حلي وقيل يا قارئ ارق فلعمري لقد براك الصيامُ[1]

والجزاء من جنس العمل .

أما جزاء عطشهم :

فعن سهل بن سعد ، عن رسول الله - ﷺ - « في الجنة باب يدعى الريَّان ، يُدعى له الصائمون ، فمن كان من الصائمين دخله ، ومن دخله لا يظمأ أبدًا »[2] .

وعنه - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « إن في الجنة بابًا يقال له الريان : يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ؟ فيقومون ، فيدخلون منه ، فإذا دخلوا ، أغلق فلم يدخل منه أحد »[3] .

وعنه : « للصائمين باب في الجنة يقال له الريان ، لا يدخل فيه أحد

---

(١) لطائف الإشارات ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٢) رواه الترمذي وابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١١٧ ، ورواه النسائي .
(٣) رواه البخاري ومسلم ، وأحمد في مسنده .

غيرهم ، فإذا دخل آخرهم أغلق ، من دخل فيه شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدًا »[(١)] .

وعنه : « في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون »[(٢)] .

فتدبر يا أخي ..

مسمى الباب : « الريان » من الري ، والري ضد الظمأ ، مسمى الباب يبعث على الري ، وأول الغيث قطرة ، إن ذكر الماء في الصحراء ، يقلل من شدة العطش ، فما ظنك بالداخل ..؟!.

وفي حديث عبد الرحمن بن سمُرة ، عن النبي ﷺ في منامه الطويل قال : « ورأيت رجلًا من أمتي يلهث عطشًا ، كلما ورد حوضًا مُنِع منه ، فجاءه صيامُ رمضان فسقاه وأرواه »[(٣)] .

ري الدنيا عطش ، والري ري الآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

أما خلوف فم الصائم :

فعن أبي هريرة ، وأبي سعيد معًا ، عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : إن الصوم لي ، وأنا أجزي به ، إن للصائم فرحتين ، إذا أفطر فرح ، وإذا لقي الله تعالى فجزاه فرح ، والذي نفس محمدٍ بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[(٤)] .

وفي حديث رسول الله ﷺ من قول يحيى بن زكريا : « وآمركم بالصيام ، ومثل ذلك كمثل رجل معه صرة مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ،

---

(١) رواه النسائي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٠٦٠ .
(٢) رواه البخاري ومسلم ، صحيح الجامع ٤١١٨ .
(٣) أخرجه الطبراني وغيره .
(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائي .

وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[(١)] .

قال مكحول : يروح أهل الجنة برائحة فيقولون : ربنا ، ما وجدنا ريحًا منذ دخلنا أطيب من هذه الريح ، فيقال : هذه رائحة أفواه الصوّام .

عافهم النتن في الدنيا لتغير ونتن أفواههم ، فيطيب طيب الجنة من رائحة أفواههم ..

فكل شيء ناقص في عرف الناس في الدنيا ، إذا انتسب إلى طاعة الله ورضاه فهو الكامل في الحقيقة .

فخلوف أفواه الصائمين لهو أطيب من ريح المسك ، وعري المحرمين لزيارة بيته أجمل من لباس الحلل ، ونوح المذنبين على أنفسهم من خشيته ، أفضل من تسبيح المدلين ، وانكسار المخبتين لعظمته هو الجبر ، وذلُّ الخائفين من سطوته هو العزّ ، تهتك المحبين في محبته أحسن من الستر ، بذل النفوس للقتل في سبيله هو الحياة ، جوع الصائمين لأجله هو الشبع ، عطشهم في طلب مرضاته هو الرِّيُّ ، نَصَب المجتهدين في خدمته هو الراحة .

ذلُّ الفتى في الحب مكرمةٌ وخضوعه لحبيبه شرف[(٢)]

وفي طيب ريح خلوف الصائم عند الله عز وجل معنى : أن الصيام لما كان سرًّا بين العبد وبين ربه في الدنيا ، أظهره الله في الآخرة علانيةً للخلق ؛ ليشتهر بذلك أهل الصيام ، ويعرفون بصيامهم بين الناس ، جزاءً لإخفائهم صيامهم في الدنيا .

والجزاء من جنس العمل .

رائحة مستكرهة في مشامِّ الناس في الدنيا ، لكنها طيّبة عند الله ..

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وهو صحيح .

(٢) لطائف المعارف ١٧١ - ١٧٢ .

وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا ، وتستنشق قبل الآخرة ، وهما نوعان :

أحدهما : ما يدرك بالحواسّ الظاهرة .. فهذا عبد الله بن غالب الحداني ، أبو قريش العابد ، وكان من العباد المجتهدين في الصيام والقيام ، لما دُفن كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك ، فَرُئِيَ في المنام ، فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره .

فقال : تلك رائحة الظمأ والسهر .

والنوع الثاني : ما تستنشقه الأرواح والقلوب ، فيوجب ذلك للصائمين المخلصين المودة والمحبة في قلوب المؤمنين .

لما كانت معاملة المخلصين بصيامهم لمولاهم سرًّا بينه وبينهم ، أظهر الله سرَّهم لعباده فصار علانيةً ، فصار هذا التجلي والإظهار جزاء ذلك الصوم والإسرار ، **فما** أسرَّ أحد سريرة ، إلا ألبسه الله رداءها علانيةً..

تذلُّل أرباب الهوى في الهوى عزُّ ... وفقرهمُ نحو الحبيبِ هو الكنزُ
وسَتْرهمُ فيه السرائر شهـرةُ ... وغير تلاف النفسِ فيه هو العجزُ[1]

فمن ترك لله في الدنيا طعامًا وشرابًا وشهوة مدة يسيرة ، عوضه الله عنده طعامًا وشرابًا لا ينفد ، وأزواجًا لا يمتْن أبدًا ، فشهر رمضان فيه يزوج الصائمون .

قال الحسن : تقول الحوراء لولي الله وهو يتكىء معها على نهر العسل تعاطيه الكأس : إن الله نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين ، وأنت في ظمإٍ هاجرة من جهد العطش فباهى بك الملائكة ، وقال : انظروا إلى عبدي ترك زوجته، وشهوته، ولذته، وطعامه، وشرابه؛ من أجلي؛ رغبة فيما عندي، اشهدوا أني قد غفرت له ، فغفر لك يومئذ وزوجنيك[2] .

---

(١) لطائف المعارف ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) لطائف المعارف ١٦٧ .

من صام عن شهوته في الدنيا ، أدركها غدًا في الجنة، ومن صام عما سوى الله ، فعيده يوم لقائه .. ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت** ﴾ [العنكبوت : ٥].

وقد صُمتُ عن لذاتِ دهريَ كلها ويوم لقاكمْ ذاك فطر صيامي

بالله ، انظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل .. صورة حسية تُشاهد وتُعاين : « الصيام والقرآن يشفعانِ للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أي رب إني منعته الطعام والشهوات بالنهار ، فشفعني فيه ، يقول القرآن : رب منعته النوم بالليل ، فشفعني فيه ، فيشفعان »[1] .

فطوبى ..

لمن جوّع نفسه ليوم الشبع الأكبر ..

طوبى ..

لمن أظمأ نفسه ، ليوم الرِّيّ الكامل ..

طوبى ..

لمن ترك شهوات حياة عاجلة لموعد غيب لم يره ..

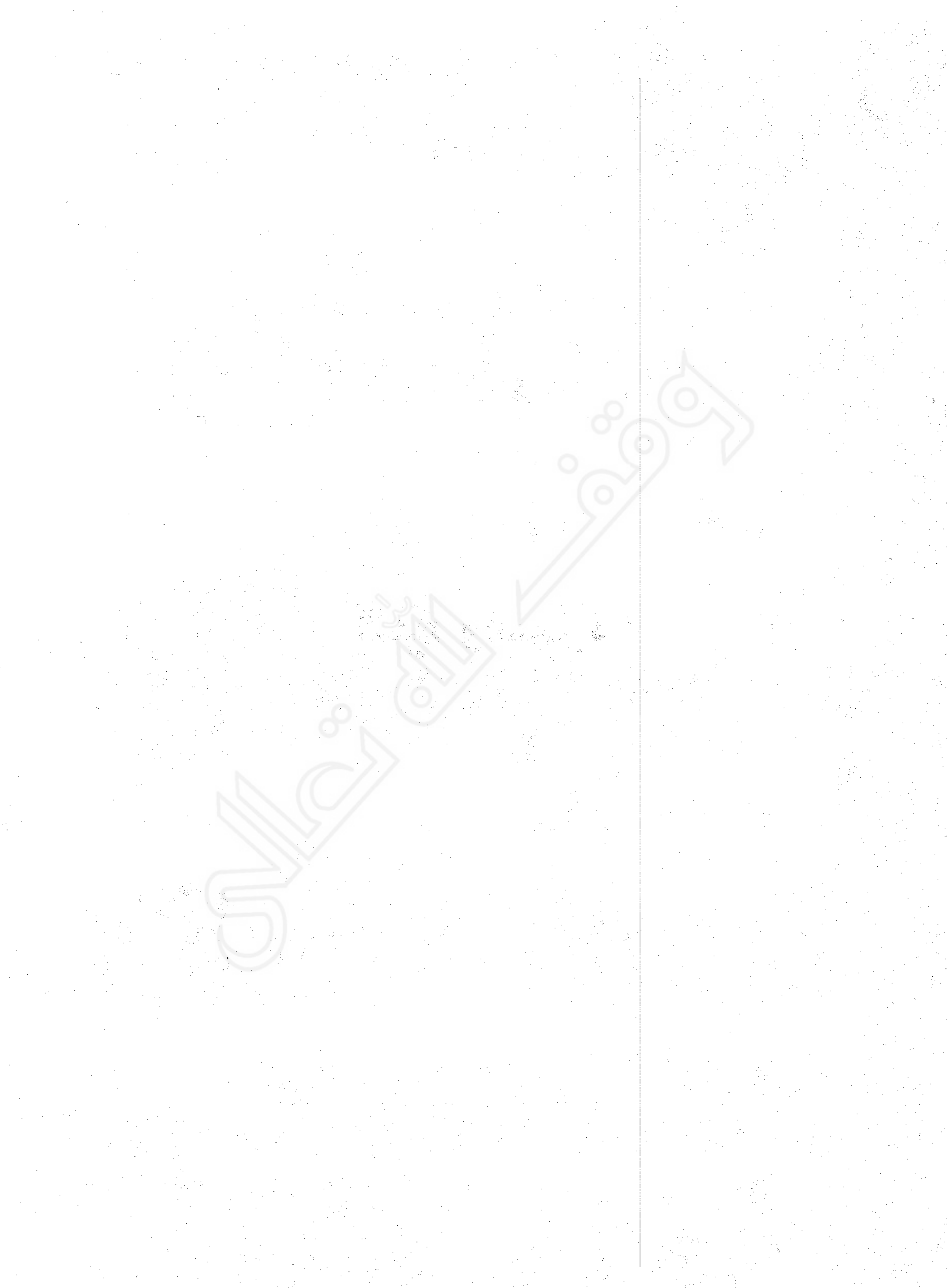
متى اشتد عطشك إلى ما تهوى ، فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الرِّيّ الكامل .

وقل : قد عيلَ صبر الطبع في سنيه العجاف ، فعجلْ لي العامَ الذي فيه أغاثُ وأُعْصِرُ ..

* * *

(١) رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٧٧٦ .

الحجُّ والعمرة



□ الحجُ والعمرة □

الرحلة إلى الله، رحلة الحج، لله ما أحلاه من ضجيج، صوت إبل وخيل الحجيج .

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال : « ما ترفع إبل الحاج رجلًا ، ولا تضع يدًا إلا كتب الله تعالى له بها حسنة ، أو محا عنه سيئة ، أو رفعه بها درجة »(١) .

على قدر الخطوات كتب الحسنات ومحو السيئات .

وقال ﷺ : « ما من مسلم يلبي ، إلا لبّى ما عن يمينه وشماله من حجر ، أو شجر ، أو مدر ، حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا »(٢) .

إذا لَبّى لبت الأحجار والمدر والأشجار ، فهذا جزاء عاجل لو عقله ، فكيف بالآجل .

هذه الأحجار التي سعدت بمرور أقدامه عليها ، والأشجار والمدر تشهد له .

قال المناوي :

« حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا » : أي من منتهى الأرض من جانب الشرق إلى منتهى الأرض من جانب الغرب ، يعني يوافقه في التلبية كل رطب ويابس في جميع الأرض . قال ابن العربي هذا حديث وإن لم يكن صحيح السند فإنه ممكن . يشهد له الحديث الصحيح في المؤذن ، وفيه تفضيل لهذه الأمة

---

(١) حسن : رواه ابن حبان في صحيحه ، والبزار والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وقال المناوي : فيه من لا أعرفه . وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٧٢ .

(٢) صحيح : رواه الترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٤٦ .

لحرمة نبيها ﷺ ، فإن الله أعطاه تسبيح الجماد والحيوان معها كما كانت تسبح مع داود عليه السلام ، وخصّ داود بالمنزلة العليا أنه كان يسمعها ويدعوها فتجيبه وتساعده[١] .

وقال ﷺ : « أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام ، فإن لك بكل وطأة تطؤها راحلتك يكتب الله لك بها حسنة ، ويمحو عنك بها سيئة . وأما وقوفك بعرفة ، فإن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا ، فيباهي بهم الملائكة ، فيقول : هؤلاء عبادي ، جاءوني شعثًا غبرًا من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ، ويخافون عذابي ، ولم يروني ، فكيف لو رأوني فلو كان عليك مثل رمل عالج أو مثل أيام الدنيا أو مثل قطر السماء ذنوبًا ، غسلها الله عنك . وأما رميك الجمار فإنه مدخور لك ، وأما حلقك رأسك ، فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة ، فإذا طفت بالبيت حرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك »[٢] .

والحجر الأسود يشهد لِمَسِّك إياه :

عن ابن عباس مرفوعًا : « إن لهذا الحجر لسانًا وشفتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق »[٣] .

وقال ﷺ : « ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به ، يشهد على من استلمه بحق »[٤] .

---

(١) فيض القدير (٥ / ٤٩٩) .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وابن حبان في صحيحه ، والبزار وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٧٣ .

(٣) إسناده صحيح على شرط مسلم . قال ابن حجر في الفتح (٣ / ٥٤٠) : رواه ابن خزيمة ، وصححه ابن حبان والحاكم .

(٤) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، ورواه ابن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٢٢٢ .

وقال ﷺ : « والله ، ليبعثنه الله يوم القيامة - يعني الحجر - له عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به ، يشهد على من استلمه بحق »[١] .

من مات في الحج :

قال رسول الله ﷺ : « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبين ، ولا تُمِسُّوه طيبًا ، ولا تخمِّروا رأسه ، ولا تحنطوه ، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًّا »[٢] .

مات في الحج ملبيًّا فكذا يبعث ملبيًّا ، ومن كان بحالة لقي الله بها ، والجزاء من جنس العمل .

عرفات ، من تواضع لله رفعه :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء ، فيقول لهم : انظروا إلى عبادي هؤلاء جاءوني شعثًا غبرًا »[٣] .

وقال ﷺ : « إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة ، يقول : انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا »[٤] .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا ، أو أمةً من النار ،

---

(١) صحيح : رواه الترمذي عن ابن عباس ، ورواه ابن خزيمة وابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٩٧٥ .

(٢) رواه : أصحاب الكتب الستة وأحمد في مسنده .

(٣) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الحاكم ، والبيهقي في سننه ، وأحمد ، وابن خزيمة ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٦٣ .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر وصححه السيوطي والألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٦٤ .

من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ماذا أراد هؤلاء ؟ »[(١)] .

أتوا إلى ربهم بشعثهم وغبارهم فرحم الله ذلهم ، ذلت منهم الجباه والرقاب ، أتوا إلى الله بتواضعهم وذنوبهم ، فباهى الله بهم الملائكة وغفر عيوبهم.

والجزاء من جنس العمل .

ولله ما أحلى ترنيمة محمود حسن إسماعيل مع خطا الهائمين شوقًا لعرفات:

يا مجُيبَ الدعواتِ جئتُ أُزْجِي صلواتي
ضارعًا تخشع عيداني .. وتجْشُو نغماتي
وتُناديك صَباباتي بكلِّ اللهجاتِ
إن تَلَفَتُّ فمنك النور يَطْوِي لفتاتي
أوْ تهامسْتُ أحسُّ النورَ يغزو هَمَسَاتي
وأنا أدعو .. أرى الأنوارَ تُرْدِي كلماتي
وإذا أصمُتُ ، يدعوُ كلُّ شيءٍ في حياتي
نشوةُ الإيمانِ بحرٌ زاخرٌ بالرحمات
وجِنانٌ في فضاء النّفسِ خُضْرُ الربواتِ
تصدَحُ الأحلامُ فيها كطيور ناغماتِ
ويفيضُ الطهرُ منها كعُيون جارياتِ
وتَعُبُّ الروحُ منها كلَّ أطيابِ الحياةِ

* * *

ذلكَ الضّاربُ في ليلِ وضيء الظلماتِ
مَزّقَ الشوقُ حناياه لِطَيْفِ المَغْفِرَاتِ
غَنّتِ الحُبَّ لياليهِ وجُنَّتْ بالغداة

(١) رواه مسلم والنسائي وابن ماجة .

وتلاشت في صداهُ كهزيجِ الساقياتِ !!
ظامِىءٌ للنُّورِ ملهوف الحشا والنظـراتِ ..
أرأيتَ الطيرَ فـي دَعْوتِها للربَـواتِ
أرأيتَ الريـح فـي هبَّتِهـا بالفَلَــوات
أرأيت الحُلْمَ في صَحوة جفنٍ مِنْ سُبَاتِ
هكذا ينفُضُه الوجد لرؤيا عرفـات !
والهًا يشتاق في واديه بعض الخُطواتِ !
يتمنى لو تكونُ الروحُ ذَرَّ الحَصيَاتِ
وتكون النفس هَمْسًا حائمًا بالشُّرفاتِ ..
أيها النور ... سلامًا قُدُسيَّ النفحاتِ
تُربُك الميمونُ قُدْسٌ شَاهِقيُّ الحُرماتِ
كل من مرَّ عليه مرّ مسحورَ السِّمَاتِ
هُرِع الناسُ إلى بابك من كل الجهاتِ
طَرحوا الدنيا وخفُّوا بقلوب نادماتِ
حُسَّرًا يـمشون لله بأيـدٍ ضارعــاتِ
وصدورٍ حانيات من عذابِ المعْصياتِ
وقلـوب جـأَرَتْ أسرارُهـا بالتلبيــاتِ
وجفونٍ من ضياءِ الله دارت مُسْبَلاتِ
ونفــوسٍ قانتــات تائبــات عابــدات
ذائباتٍ في رحيق النور نشوى فانياتِ[1]

* * *

(١) مجموعة الأعمال الكاملة لمحمود حسن إسماعيل - الديوان الحادي عشر ، « صوت من الله » قصيدة الله والجبل ٤ / ١٧٣٩ .



الجهـاد





□ الجهــاد □

والله ، لَذِكْر الجهاد يُبكي عيون أولي الألباب ، بعد أن غبطنا أنفسنا بالزائل من المنازل والأحباب ، وركنّا إلى الدنيا ركون الظمآن إلى شراب السَّراب ، فهوىٰ نجم الجهاد من سماءِ عزّه بعد أن كان مشرقًا سنيًّا ، وانمحىٰ رسمه واسمه كأن لم يكن له من قبل سَميًّا .

دُرِست آثاره فلا تُرى ، وطُمست أنواره بين الورى ، وأعتم ليله بعد أن كان مقمرًا ، وأظلم نهاره بعد أن كان نيرا ، وذوى غصنه بعد أن كان مورقًا ، وانطفأ حسنه بعد أن كان مشرقًا ، صَفَنَتْ[1] خيوله فلا تركضُ ، وربضت أسوده فلا تنهضُ .

فتعال أخي ، لننظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل في هذا الباب :

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ قال : « إذا ضنّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة[2]، وتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أدخل الله تعالى عليهم ذلًّا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم »[3].

---

(١) الصافن من الخيل : القائم على ثلاثة قوائم ، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر - انظر : الصحاح للجوهري .

(٢) العينية : بكسر العين المهملة ، وسكون الياء المثناة قال عنها البيهقي في الشعب : أن يقول الرجل اشتر كذا وكذا وأنا اشتريه منك بربح كذا وكذا . وقال الهروي في الغريبين : هي أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر .. انظر صحيح الجامع رقم ٦٨٨ .

وفي رواية : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »[1] .

إلى الذين يظنون أن القتل والقتال ذلّ ، وأن العزّ كل العز في اكتناز الأموال ، والإقبال على الزرع والثمار نهدي ما يقوله ابن النحاس : عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال : لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلّا ضربهم الله بالفقر .

هؤلاء الذين تركوا الجهاد للإقبال على الدنيا وعَرَضِها ومالها وثمرها ، يجازيهم الله بالفقر : فقر النفوس ، وزوال العَرَضِ عنهم .

أما عن فقر النفوس فيقول ابن النحّاس : الذي نشاهده من الناس لمّا أعرضوا عن الجهاد والغنائم سلّط الله عليهم فقر قلب ، وشدة حرص ، وغلبة شحّ ، وصار القليل من الدنيا عندهم خطيرًا جليلًا ، وأذلّهم الحرص والطمع ، فقلّ أن تجد منهم أحدًا إلا وقد استولت عليه الذِّلَّة لمن يرى أن رزقه يأتي من جهته ، واستعبده الطمع والخوف من فواته ، ولو كان غنيًّا لكان حرًّا ، فهو في الحقيقة وإن كان ذا ثروة فهو فقير ، وإن كان في ظاهره عزيزًا فالذلّ قد استولى على قلبه وسكن فيه ، وليس عند من يرتزق من سيفه شيء من ذلك ؛ لأن رزقه من الغنيمة مأخوذ بالسيف ، ليس لأحد غير الله فيه منّة .

ولمّا كانت الغنيمة حلالًا محضًا ، ليس فيه شبهة ، كانت سببًا في تنوير القلب وطرد ظلمات الشح والبخل والحرص من ساحته ، فصاحب الغنيمة وإن كان فقير اليد فهو غنيّ النفس ، وإن كان دثاره الظاهر الذلّ والمسكنة فشعاره الباطن العزّ والعظمة .

---

(١) إسناده صحيح : رواه أبو داود ، وإسناده حسن كما قال ابن النحاس ، ورواه أحمد بنحوه وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، رقم ٤٨٢٥ ، ومن طريق آخر بنحوه ، ٥٠٠٧ ، وقال الشيخ : إسناده صحيح . وأبو نعيم في الحلية بنحوه عن ابن عمر .

قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العَرَض ، إنما الغنى غنى النفس »[١] .

وأما من اكتسبه من الشُّبه ، وأذلَّه الطمع للخلق ، فهو وإن كان عزيزًا في الظاهر ، فقلبه بالذلّ عامر ، وإن كان في الظاهر غنيًّا بما جمع ، فهو في الباطن فقير بالحرص والطمع ، وتأبى المكاسب الدنيّة إلا أن ثورت هذه الأخلاق الرديّة[٢] .

عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ، ومن ترك الجهاد في سبيل الله ، ألبسه الله الذِّلة ، وشم البلاء ، ودُيّث بالصَّغار ، وسيم الخسف ، ومنع النَّصَف[٣] .

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا الآخرة إلَّا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم و تضرّوه شيئًا والله على كل شيء قدير ﴾ [التوبة : ٣٨ - ٣٩] .

إنها ثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض ، ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع ، الدعة والراحة والاستقرار ، ثقلة اللذات الفانية والأجل المحدود والهدف القر ثقلة اللحم والدم والتراب ، والأرض وما لها من جاذبية تشدُّ إلى أسفل ، وتقاو رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق .

هؤلاء الذين يخشون القتل في الجهاد ، يتوعدّهم الله بالعذاب إن هم تركو الجهاد .

والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو كذلك عذاب

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة - كتاب الرقاق - باب الغنى غنى النفس .

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق لابن النحاس ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) مشارع الأشواق .

الدنيا ، عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ، ويقدمون على مذابح الذلّ أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء ، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذلّ فدفعت راغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء[1] .

إن طلاب السلامة لا يحسّون العار ، فالسلامة هدف الراضيين بالدون . إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة ، وإن ضريبة الذل لأفدحُ في كثير من الأحايين ، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيّل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تُطاق ، فتختار الذل والمهانة ، هربًا من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة مفزعة قلقلة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها .

تؤدي ضريبة الذل كاملة ، تؤديها من نفسها ، تؤديها من قدرها ، تؤديها مِنْ سمعتها ، تؤديها من اطمئنانها ، وكثيرًا ما تؤديها من دمها وأموالها وهي لا تشعر .

يقول الله تعالى : ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ [التوبة : ٨١ - ٨٣] .

يقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله - :

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض ، ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان هؤلاء

---

(١) الظلال (٣ / ١٦٥٥) .

المخلفون فرحوا بالسلامة والراحة ، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد ، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر** ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال ، ضعف همة ، وطراوة إرادة .

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون** ﴾ ، فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال ، فكيف بهم في حر جهنم ، وهي أشد حرًّا ، وأطول أبدًا ، وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة . فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض ، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله .

﴿ **فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة ﴿ **وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ [الحج : ٤٧] ، ﴿ **جزاء بما كانوا يكسبون** ﴾ فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق .

وكما آثروا الراحة على الجهد وتخلفوا عن الركب في أول مرة فكذلك ﴿ **لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ فلمّا رضوا بالقعود أول مرة ، فكذلك جوزوا بأن منعوا من الانضمام إلى السائرين لركب الجهاد ، جزاءً وفاقًا من جنس العمل[1] .

وأيضًا يلوح الجزاء من جنس العمل في شأن المنافقين الذين جعلوا يتلكأون ويتلمسون المعاذير ، وفي القلوب ما فيها ﴿**لقد ابتغوا الفتنة من قبل ...**﴾ [التوبة : ٤٨] .

قال تعالى: ﴿**ومنهمُ من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا...**﴾ الآية [التوبة : ٤٩] .

---

(١) الظلال (٣ / ١٦٨٢) .

روى محمد بن إسحق أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم ، وهو في جهازه لغزوة تبوك للجدّ بن قيس أخي بني سلِمة: «هل لك يا جدّ في جلاد بني الأصفر!»- يعني الروم - فقال : يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله ، لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني ، وإني لأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألّا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال : « قد أذنت لك ».

فماذا كان جزاؤهم ؟

﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ . فجهنم من ورائهم تحيط بهم ، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات ، فلا يفلتون ، كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة ، وعن انتظار العقاب عليها حتمًا . جزاءَ التخلف والكذب والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ [محمد : ٢٧ - ٢٨] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وعيدهم بهذه الميتة الفظيعة التي هدّرها الله لهم ، وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم ؛ أي يضربون وجوههم التي وَقَوْها من ضرب السيف حين فرّوا من الجهاد ، فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال ، ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا ، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفرّوا ، فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم .

ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله ، وضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه ، لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار[1] .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، (٢٥-١١٨/٢٦-١١٩) الدار التونسية للنشر .

ولننظر كيف كان الجزاء من جنس العمل :

لمّا آثر الناس حياة الدعة والترف والإخلاد إلى القصور والعرض الزائل - على الجهاد في سبيل الله ، يلوح ذلك واضحًا جليًّا في نهاية الأندلس .

يقول الشاعر يروي ذلّ أمراء الأندلس وخنوعهم :

مما يزهّدني في أرض أندلسٍ أسماء معتمدٍ فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهرِ يحكي انتفاخًا صورةَ الأسدِ

يقول ابن حزم في حرص ملوك الأندلس على عروشهم :

والله ، لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم بادروا إليهم ، فنحن نراهم يستمدون النصارى ، فيمكنوهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا ، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس[1] .

هانت عليهم المنابر والمحاريب والجوامع ، فما لبثوا أن أقيم بها الصلبان وثبتت بها الأقسة والرهبان .

يقول ابن حبان شيخ مؤرخي الأندلس :

دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة ، فسفسف أخلاقهم، وسفّه أحلامهم وخبث ضمائرهم .

انظر إلى المعتصم بن صمادح يمنح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر ابن أبي عبد الله بن مشرف حين أنشده قصيدته التي مطلعها :

قامت تجر ذيول العَصْب والحِبَرِ ضعيفة الخصْرِ والميثاق والنظرِ

ولمّا بلغ منها قوله :

لم يبق للجور في أيامهم أثرٌ إلّا الذي في عيون الغيد من حَوَرِ

قال المعتصم : لقد أعطيتك هذه القرية نظير هذا البيت الواحد ، ووقع له بها وعزل عنها نظر كل والٍ[2]

(١) رسائل ابن حزم (١٧٦/٣) .
(٢) الذخيرة (١٩٢/١٤) ، لابن بسام .

وانظر كيف يفعل الحرص على العرش والملك والتقاعس عن الجهاد ، انظر إلى الرجل الذي ترك الجهاد ، وضاعت على يديه الأندلس كيف ذلّ وافتقر : فهذا أبو عبد الله الصغير محمد بن علي بن نصر أو محمد الحادي عشر آخر ملوك غرناطة يتقاعس عن الجهاد، ويسلّم غرناطة للملكين الكاثوليكيين نظير حق الملكية له ولأحفاده لكافة أرجاء وكور برجة ، ودلاية ، ومرشانة ، وبلذوذ، ولـوتشار، وشبيلش، وأجيجر، وأرجية، وأندرش التي ارتضى الإقامة فيها مع أهله وحشمه ، يحكمها باسم فرناندوا وإيزابيلا ، يؤدي الضرائب وكل الأتاوات لهما ، ويحصل الخراج والعشور .

كان أبو عبد الله صغيرًا في تهاونه وتخاذله ، حريصًا على دنيا تفلتت من بين أصابعه ، ويقف باكيًا أمام قصر الحمراء فتقول له أمه :

ابك بكـاء النساء ملكـًـا لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولم يرثْ أحفاده وأولاده عنه غير الجوع والتشرد والحرمان .. فقد (رأى المقري في فاس أحفاد أبي عبد الله الصغير شيوخًا يتسولون ويعيشون من الصدقات .. وكان المقري قد نزل فاس في أوائل القرن السابع عشر الميلادي عام ١٦١٨م ، الموافق ١٠٢٧ هـ ، يبحث عن آثار الملك أبي عبد الله الصغير ، وزار قصره وتجوّل في جنباته ، وكان ولداه قد باعاه منذ زمن مضى ، ثم زارها بعد ذلك بعشر سنوات ، وعرف من أمر بنيه وأحفاده وذلّهم وفقرهم واحتياجهم للناس ما جعله يعتبر ويتعظ)[١] .

ويشاء الله أن يظل شاهد قبر أبي عبد الله الصغير – حيث كتب عليه اسمه، وتاريخ مولده، ويوم وفاته، وصفته– عتبة لباب منزل صغير بمدينة تلمسان، يطؤه الناس بأقدامهم في دخولهم وعند خروجهم .

فهل يقارن موقف أبي عبد الله الصغير بقول المعتمد بن عباد لألفونسوا السادس : رعي الجمال خير من رعي الخنازير .

---

(١) الإبادة لأحمد رائف (٣٠٤ – ٣٠٥) طبع دار الزهراء .

فجائع الدهر أنواع منوّعة وللزمان مسرّات وأحزانُ
وللحوادث سلوان يهوّنها وما لما حلّ بالإسلامِ سلوانُ
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له هوىٰ له أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ
فاسأل بلنسيةً ما بال مرسيةٍ وأين شاطبة أم أين جيّانُ
وأين قرطبةٌ دار العلوم فكمْ من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين حمص وما تحويه من نُزَهٍ ونهرها العذبُ فيّاضٌ وملآنُ
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبقَ أركانُ
يبكي الحنيفية البيضاء من أسفٍ كما بكى لفراقِ الإلف هيمانُ
على ديارٍ من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ
حيث المساجدُ قد صارت كنائسَ ما فيهنَّ إلا نواقسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهْيَ جامدة حتى المنابر ترثي وهْيَ عيدانُ
أعندكم نبأ عن أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهمْ أسرى وقتلى فما يهتزّ إنسانُ[1]

وفي عصرنا هذا رأيت في الجرائد كما رأى غيري صورة وزير يهودي في الحكومة الإسرائيلية يدخل إلى الجامع الأزهر كسائح ، ويبلغ به الصلف والكِبْر أن لا ينحني ليفك رباط حذائه ، ويركع تحت قدميه شيخ معمم ممن يعملون بالمسجد ، ليفك له الرباط .

وشاهدت كما شاهد غيري في كل مكان الجندي العراقي المسلم الأسير في حرب الخليج وهو يُقبّل يد وقدم الجندي الأمريكي ، ويتذلل أمامه ، ويسأله العفو والمغفرة ويردّ العلج الصليبي على الجندي العراقي برطانة صليبية وقحة : لا بأس عليك ، أو لا تخف . وكان التلفاز في ديار الغرب يكرر عرض هذه الصورة :

اليومَ عادتْ علوجُ الرومِ فاتحةً وموطنُ العربِ المسلوبُ والسَّلَبُ

---

(١) من قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس ، وهي من عيون الشعر الإسلامي

ماذا فعلنا غضبنا كالرجال ولم نَصْدق وقد صَدق التنجيمُ والكتبُ
فأطفأتْ شهبُ الميراجِ أنجمَنَا وشمَسنَا وتحدّت نارَهَا الخُطَبُ
وقاتلت دوننا الأبواقُ صامدةً أما الرجالُ فماتوا ثَمَّ أو هربوا
حكّامنا إن تصدوا للحمى اقتحموا وإن تصدى له المستعمر انسحبوا
هم يفرشون لجيش الغزو أعينَهم ويدّعون وثوبًا قبل أن يثبوا
الحاكمون وواشنطن حكومتهم واللامعون وما شعُّوا وما غربُوا
لهمْ شموخ المثنى ظاهرًا ولهمْ هوى إلى بابك الخرمي ينتسبُ
تنسى الرؤوس العوالي نار نخوتها إذا امتطاها إلى أسياده الذَّنَبُ
وما تزال بقلبي ألف مبكية من رهبة البَوْح تستحيي وتضطربُ
يكفيك أن عِدانا أهدروا دمنا ونحن من دَمنا نحسو ونحتلبُ[1]

وأما عن ذلّ المسلمين في البوسنة والهرسك .. فدماء القلب قبل العين لا تكفي لوصف المأساة .

يتحدث العشماوي عن سرايفو فيقول :

نناديكمْ وقد كَثُر النحيبُ نناديكمْ ولكنْ من يجيبُ
نناديكـمْ وآهـات الثكالـى تحدثكم بما فعل الصليبُ
سرايفوا تقول لكم ثيابي ممزقـة وجدرانـي ثقـوبُ
محاريبي تئن وقد تهـاوى على جدرانها القصف الرهيبُ
وأوردتـي تقطـع لا لأنـي جنيتُ ولا لأني لا أتوبُ
ولكني رفعت شعار ديـنٍ يضيق بصدق مبدئه الكذوبُ
لنا في أرضنا نهرٌ ومـاءٌ وروضٌ في مرابعنا خصيبُ
لنا بيـتٌ وأطفـالٌ ولكـن محتْ آثار منزلنا الخطوبُ
بناتُ المسلمين هنا سبايا وشمس المكرمات هنا تغيبُ

---

(١) من قصيدة للشاعر اليمني البردوني .

تبيتُ كريمةً ليلى وتصحو　　وقد ألغى كرامتها الغـريبُ
تخبيء وجهها ياليت شعري　　بماذا ينطق الوجه الكئيبُ
يموت الطفل في أحضان أم　　تهدهده وقد جفّ الحليب
بكتْ حزنًا عليه بغير دمعٍ　　وأين الدمعَ والظمأ النصيب

ويقول حفظه الله :

هذي الجراحُ أمَا تحرِّكُ ساكنًا　　فيكم أما للغافلين عقـولُ
أنا بينكمْ أُصلَى بنارِ قذائفٍ　　وتصاغ قصة حسرتي وتطولُ
أنا بينكمْ شعبٌ يذَبَّحُ جهرةً　　والشمسُ في كبد السماء تجولُ
شعب يُغذّى بالأسى أطفالُه　　ويشردون وللنساءِ عويـلُ
أواهُ لو أبصرتمُ الطفل الذي　　أمسى وهيكل عظمه مشلولُ
أواه لو أبصرتمُ الأم التي　　ذبحت ولا كفنٌ ولا تغسيلُ
أين الأحبة يا صخور تحدثي　　هل من أخٍ يمحو الأسى ويزيلُ ؟
أين الأحبة ؟ واستجاب مُنْصِرٌ　　لندائِنا في كفِّه الإنجيـلُ
أَوَ سنّ هذا في الحياة محمدٌ　　أتلاهُ في قرآنِنا جبريـلُ ؟
يا إخوة الإسلام هذا ثوبنا　　بدموعنا ودمائنا مبلـولُ
عذرًا أخا الإسلام - إنا أمة　　ما زال يقلب رأسها التطبيلُ
أجفانُ أمتنا تُكحلُ بالقـذى　　أيراك جفنٌ بالقذى مكحـولُ

يكفيك أن جماجم الأطفال تلعب بها الأقدام كالكرة .

يكفيك أن تغتصب المرأة مع زوجها وبنيها ، ويذبح أطفالها ، وترغم على الشرب من دمائهم .

يكفيك أن صبية بنت خمس سنين يهتك عرضها وتضاجع .

فكيف تضاجع الفتيات والفتيات مرتجفة

وكيف لبنت خمس سنين قلت : الآن يا امرأتي

ولكن الغد آت يا لئيم الصرب ، ويا خنزير الغرب .

○ الجهاد يُذهبُ الهمَّ والغمّ ○

قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالجهاد في سبيل الله ، فإنه باب من أبواب الجنة ، يُذهب الله به الهمّ والغمّ »[1] .

قال تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [التوبة : ١١١] .

من رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنًا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله ، وأخذ الجنة عوضًا وثمنًا ، وما الذي فات المؤمن الذي سلّم نفسه وماله ويستعيض الجنة ، والله ما فاته شيء ، فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت ، سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله ، أم في سبيل سواه ، والجنة كَسْب ، كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة ، فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك .

ودع عنك رفعة الإنسان ، وهو يعيش له ، ينتصر إذا انتصر ؛ لإعلاء كلمته ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه ، ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة ، ويستشعر في كل حركة ، وفي كل خطوة أنه أقوى من قيود الأرض ، وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، والإيمان ينتصر فيه على الألم ، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة .

---

(١) صحيح الجامع ٣٩٤٢ ، رواه الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة . قال الهيثمي : فيه عمرو بن الحصين وهو متروك ، والصحيحة ١٩٤١ ، ورواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك وصححه ، وأقره الذهبي .

إن هذا وحده كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بإنطلاقه من إرهاق الضرورة ، وانتصار الإيمان فيه على الألم ، وانتصار العقيدة فيه على الحياة ، فإذا أضيفت إلى ذلك كله الجنة ، فهو يدعو إلى الاستبشار ، وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال .

إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه ، على عنصر القيد والضرورة .

بالجهاد الذي فيه الشُّقَّةُ والعناء ، يذهب الهم والغم ، والجزاء من جنس العمل ، ولكنها الشقة البعيدة التي تتناحر دونها الهمم الساقطة ، والعزائم الضعيفة ، ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة المنخوبة ، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

كثيرٌ همُّ أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة ، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان ، وفي كل مكان ، إنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خُيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص .

وانظر كيف أذهب الله بالجهاد همّ ألب أرسلان وغمّه .

فقد عاد ألب أرسلان إلى عاصمة دولته خراسان ، وجيشه بحالة منهكة ، لا يتعدى ما بقي منه حيًّا الخمسة عشر ألفًا ، أكثرهم مسخن بالجراح فاقد لسلاحه ، وما زال بينه وبين عاصمته مسافة شاقة ، واعترضه رومانوس الرابع امبراطور بيزنطية ، وهو يقود جيشًا قيل : إنه ضمّ مائة ألف مقاتل ، وقيل : ستمائة ألف مقاتل ، وسرعان ما يعلم ألب أرسلان الخطر الزاحف نحوه ، ويدرك أن لا قِبل له بملاقاة رومانوس الرابع وجيشه اللجب بجيش منهك قليل العدد والعدة ، فيحاول أن يحتال على رومانوس ، فيغريه بقبول مال عظيم ، فيرفض رومانوس ، فيعرض عليه أن يقطعه بعض أراضيه ، فيرفض رومانوس ويصر على زحفه ، وجمع ألب أرسلان وجوه مملكته ، وقال : قد علمتم ما نزل بالمسلمين

فما رأيكم ؟ قالوا : رأينا لرأيك تبع ، وهذه الجموع لا قبل لأحد بها ، قال : وأين المفر ؟ لم يبق إلا الموت ، فموتوا كرامًا أحسن .. وإني قد عزمت بحول الله وتأيده على القتال ، وسأخرج لتوي بكفني وحنوطي ، فمن رغب عن الجهاد فدونه المسالك ، فليسلك أيها أقرب إلى نجاته ، ومن رغب في لقاء الله فليتحنط وليلبس كفنه وليلحق بي لملاقاة رومانوس .

قال ألب أرسلان : إني هممت ألَّا أقاتلهم إلا بعد الزوال ، قالوا : ولم ؟ قال : لأن هذه الساعة لا يبقى على وجه الأرض منبر إلا أدعوا لنا بالنصر ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فقالوا : افعل . فلما زالت الشمس صلى ، وقال : ليودع كل واحد صاحبه، وليوص، ففعلوا ذلك. وما هي إلا ساعة حتى كان ألب أرسلان يمتطي جواده ، ووراءه خمسة عشر ألف جندي قد تكفنوا جميعًا بقماش أبيض ، وقد فاحت منهم رائحة الحنوط ، وتحتدم المعركة بين الجيش المكفن وبين الجيش البيزنطي ، ويتدافع المسلمون بأكفانهم يطرقون أبواب الجنة بجماجم الكافرين .

وانتصر ألب أرسلان .. وأحضر رومانوس أسيرًا بين يديه وفي عنقه حبل ، فقال : ما كنت صانعًا لو ظفرت بي ؟ قال : أو تشك أنت في قتلك حينئذ ؟ قال ألب أرسلان : وأنت أقل في عيني من أن أقتلك ، اذهبوا فبيعوه ، فطافوا به جميع العسكر والحبل في عنقه ينادى عليه بالدراهم والفلوس ، وما يشريه أحد ، حتى انتهوا في آخر العسكر إلى رجل ، فقال : إن بعتمونيه بهذا الكلب أشتريه ، فأخذوه وأخذوا الكلب وأتوا بهما ألب أرسلان ، فأخبروه بما صنعوا به ، وبما دفع فيه ، فقال : الكلب خير منه ؛ لأنه ينفع ، وهذا لا ينفع ، خذوا الكلب وادفعوا له هذا الكلب .. ثم إنه بعد ذلك أمر بإطلاقه ، وأن يجعل الكلب قرينه مربوطًا في عنقه ووكل به من يوصله إلى بلاده ، فلما وصل عزلوه من الملك وقتلوه[1] .

---

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام ، لزياد أبو غيمة ، وفضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٥٥٢ – ٥٥٣) .

القتل في سبيل الله حياة :

قال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وقال ﷺ : « إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة تحت العرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئًا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن تُرد أرواحنا في أجسادنا ، حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أنه ليس لهم حاجة تُركوا »(١) .

وقال ﷺ أيضًا : « إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلُق من ثمار الجنة »(٢) .

قال المناوي :

« إن أرواح الشهداء في طير خضر » ؛ أي في أجواف طير خضر ، وليس هذا بحصر ولا بحبس ؛ لأنها إما أن توسع عليها كالفضاء ، أو يُجعل في تلك الحواصل من النعيم ما لا يوجد في فضاء واسع .

« تعلُق » بضم اللام ؛ أي تأكل تلك الطير بأفواهها من ثمرة الجنة ، فتجد بواسطة ريح الجنة ولذتها وبهجتها وسؤددها ما لم تحط به العقول(٣) .

وقال ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في جوف

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود .

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن كعب بن مالك انظر الجامع ١٥٥٥، السلسلة الصحيحة ٩٩٥.

(٣) فيض القدير (٢ / ٤٢٢) .

طير خضر ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، فتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنّا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ؟ فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم »[١] .

فانظر : كيف كان الجزاء من جنس العمل ..

إن الذي وارثه الحي الذي لم يزل ، فليس بميت وإن قتل .

وإن كانت العبدان للموت أُنْشِئت فقتلُ امرئ في الله لا شكَّ أفضلُ

فوالله ، ما هي بدار مقام ، ولا محل اجتماع والتئام ، دار إن أضحكت اليوم أبكت غدًا ، وإن سرّت أعقب سرورها الردى ، وإن جلّت فيها النعم جميعًا ، حلت فيها النقم سريعًا ، إن أخصبت أجدبت ، وإن جمّعت فرّقت ، وإن ضمّت شتّتت ، وإن نقصت نغصت ، وإن أغنت عنت[٢] ، وإن زادت أبادت ، وإن عمّرت دمّرت ، وإن أسفرت أدبرت ، وإن راقت أراقت ، وإن صافت حافت[٣] ، وإن عمّت بنوالها غمّت بوبالها ، وإن جادت بوصالها جاءت بفصالها، قربها بعيد، وحبيبها طريد، شرابها سراب، وعَذْبها عذاب، دار الهموم والأحزان، والغموم والأشجان، والبين والفراق، والشقاء، والشقاق والوصب[٤]، والنصب والمشقة والتعب، كثيرها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وجليلها حقير، غزيرة الآفات، كثيرة الحسرات، قليلة الصفا، عديمة الوفا، لا ثقة بعهودها، ولا وفت لوعودها ، محبها تعبان ، وعاشقها ولهان[٥] ، والواثق بها خجلان ،

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس ، صحيح الجامع ٥٠٨١ ، تخريج الطحاوية ٣٩٣ ، تخريج المشكاة ٣٨٥٣ .

(٢) عناه : كلفه ما يشق عليه .

(٣) أي جارت وظلمت .

(٤) المرض .

(٥) الوله : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد .

قد سترت معايبها ، وكتمت مصائبها ، وأخفت نوائبها[١]، وخدعت بأباطيلها ، وغرت ببراطيلها[٢]، ونصبت شباكها[٣]، ووضعت أشراكها[٤]، وبهرجت زيفها[٥]، وجردت سيفها ، وأبدت ملامحها ، وسترت قبائحها ، ونادت الوصال الوصال ، أيها الرجال ، فمن رام وصالها ، وقع في حبالها ، وبدا له سوء حالها ، وعظم نكالها ، ووقع في أسرها ، لجهله بشرها ، وحاق به مكرها ، حيث لم يتبصر في أمرها ، فعضّ يديه ندمًا ، وبكى بعد الدمع دما ، وأسلمه ما طلب إلى سوء المنقلب ، وجهد في الفرار فما أمكنه الهرب .

فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك وأطلق نفسك من أسرها قبل أن يعسر الفكاك ، وانهض على قدم التوفيق والسعادة عسى الله أن يرزقك من فضله الشهادة ، ولا يقعدك عن هذا الثواب ، سبب من الأسباب ، فذو الحزم السديد من جرّد العزم الشديد ، وذو الرأي المصيب من كان له في الجهاد نصيب ، ومن أخلد إلى الكسل ، وغرّه الأمل ، زلّت منه القدم ، وندم حيث لا يغني الندم ، وقرع السنّ على ما فرط وفات ، إذا شاهد الشهداء في أعلى الغرفات : ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** ﴾ [الاحزاب : ٤] . وحسبنا الله ونعم الوكيل[٦].

وإن سَفْرةً إليه بعدها تحط رحالنا عنده لمقاساتها أحلى من العسل..

يقول عز بن عبد السلام سلطان العلماء ، في كتابه أحكام الجهاد وفضائله عن قتل الشهداء .

أحيا الله فيه بعد مماتهم ، وعوضهم عن حياتهم التي بذلوها بأيديهم ، بحياة أبدية سرمدية ، لا يصفها الواصفون ، ولا يعرفها العارفون .

---

(١) جمع نائبة ، وهي المصيبة .

(٢) البراطيل : جمع برطيل بالكسر : الرشوة .

(٣) جمع شبكة ، وهي التي يصاد بها .

(٤) جمع شرك ، وهو حبالة الصيد .

(٥) بهرج الشيء : أباحه .

(٦) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ١٣١- ١٣٢) .

وكذلك لما فارقوا الأهل والأوطان أسكنهم في جواره ، وآنسهم بقربه ، بدلًا من أنس من فارقوه من أحبائهم لأجله ، فطوبىٰ لمن حصل على هذا الجزيل ، في جوار الرب الجليل[1] .

وقال أيضًا :

لما بذل الشهداء أنفسهم لأجل الله ، أبدلهم الله حياة خيرًا من حياتهم التي بذلوها ، وجعلهم جيرانه ، يبيتون تحت عرشه ، ويسرحون من الجنة حيث شاءوا ، لما انقطعت آثارهم من السروح في الدنيا[2] .

يقول ابن القيم :

إن الشهيد لما بذل حياته لله ، أعطاه الله سبحانه حياة أكمل منها ، عنده في محل قربه وكرامته .

من بذل شيئًا لله أعطاه الله خيرًا منه[3] .

حياة غير الشهيد شوب النغص ، ممزوج بالغصص ، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا وإن سرّت يومًا أحزنت شهورًا ، أولها مخاوف ، وآخرها موت ومتالف ..

أما الشهيد ، فقتلٌ آخره حياة ، ولكن أي حياة ..؟!!

غير الشهيد يحيا مع من ..؟!

والشهيد يحيا عند من ..؟! .

فارق عندية أهل الدنيا الذين يموتون ، فمن الله عليه بالحياة عند الحي الذي لا يموت ..

لما مزقت أجسادهم في دار الدنيا لله عز وجل ، فمن الله عليهم بحواصل

---

(١) أحكام الجهاد وفضائله ص٥٣ .

(٢) أحكام الجهاد ص٨٤ .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٣ / ٢٧٣) .

طير خضر ..

حبست أقدامهم عن السعي ، فمن الله عليهم بأن يسرحوا في الجنة حيث شاءوا ، وهذه خاصية لهم .

يقول الأشقر :

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة ، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ، أما أرواح المؤمنين ، فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا يتنقل في أرجائها[١] .

لما حرموا رزق الدنيا ، فاستمر رزقهم ، وما أدراك بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار ؟!

الدنيا : إما مأكول ، أو مشروب ، أو مشموم ، والمأكول أفضله العسل ، وهو بزقة ذبابة ، والمشموم أفضله المسك ، وهو دم فأرة ، هذه هي الدنيا ، فهل يقاس عسل بعسل ؟!

عسل لم يقطف من الأزهار ، إنما يجري على رضراض الأنهار .

فاتتهم الحياة في الدنيا ، ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية في العقبى .

ويقال : هم أحياء ؛ لأن الخَلَفَ عنهم الله ، ومَنْ كان الخلف عنه الله ، لا يكون ميتًا .

قال قائلهم في مخلوق :

وإن يكنْ عنا مضى بسبيله فما ماتَ منْ يبقىْ له مثلُ خَالِدِ

وهم أحياء بذكر الله لهم ، والذي هو مذكور الحق الجميل بذكره السرمدي ليس بميت .

ولئن فنيت بالله أشباحهم ، فقد بقيت بالله أرواحهم ، لأن من كان

---

(١) القيامة الصغرى ، للأشقر .

فناؤه بالله ، كان بقاؤه بالله .

عليهم رداء الهيبة ، وهم في ظلال الأنس ..

يقول سيد قطب :

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق ، شهداء قتلى أعزاء أحياء قتلى كرامًا أزكياء ، فالذين يخرجون في سبيل الله ، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق ، هم عادة أكرم القلوب ، وأزكى الأرواح ، وأطهر النفوس ، إنهم أحياء ، فلا يجوز أن يقال عنهم : أموات لا يجوز أن يعتبروا أمواتًا في الحس والشعور ، ولا أن يقال عنهم : أموات بالشفة واللسان ، إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه ، فهم لا بد أحياء ، إنهم قتلوا في ظاهر الأمر ، وحسبما ترى العين ، ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة ، إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد ، وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع ، وهؤلاء الذين يقتلون في سبيل الله ، فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة ، والفكرة التي من أجلها قُتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد .

وحبوبُ سنبلة تجفُّ ستملأُ الوادي سنابل

وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد ، فهم ما يزالون عنصرًا فعالًا مؤثرًا في تكييف الحياة وتوجيهها ، وهذه هي صفة الحياة الأولى ، فهم أحياء أولًا بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس ، ثم هم أحياء عند ربهم .

أحياء ؛ ومن ثم لا يغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها ، فالغسل تطهير للجسد الميت ، وهم أطهار بما فيهم من حياة ، وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر ؛ لأنهم بعد أحياء .

أحياء ؛ فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء .

أحياء ، يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء .

أحياء ؛ فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ، ولا يتعاظمهم الأمر ، ولا يهولنها عظم الفداء .

ثم هم بعد أحياء مكرمون عند الله ، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه[1] .

ياليت شعري وما ارتفعت بنا هِمم إلى الجِنان وتالي القوم أوّابُ
إلى كواعب للأطراف قاصرة وظل طوبي وعطر الشدوِ ينسابُ
إلى قناديل ذهب علقت شرفًا بعرش ربي لمن قُتلوا وما غابوا

يقول صاحب الظلال :

حقيقة ضخمة في ذاتها ، وضخمة في آثارها ، إن الذين قُتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتًا بل أحياء .

أحياء عند ربهم لم ينقطعوا عن حياة الجماعة المسلمة مِن بعدهم ، ولا عن أحداثها ، فهم متأثرون بها ، مؤثرون فيها ، والتأثر والتأثير أهم خصائص الحياة .

فهم يرزقون عند ربهم .

وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله .

وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين .

وهم يحفلون بالأحداث التي تمر مِن خلفهم من إخوانهم .

فهذه خصائص الأحياء ، من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير .

فما الحسرة على فراقهم ؟! وهم أحياء موصولون بالأحياء والأحداث ، فوق ما نالهم من فضل الله ، وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة ، يستقبلون رزق الله بالفرح ؛ لأنهم يدركون أنه من فضله عليهم ، إن كان هناك حزن لفراقهم ، فالفرح كل الفرح فرحهم .

﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ [آل عمران : ١٥٧] فالموت في سبيل الله بهذا القيد وبهذا الاعتبار خير من الحياة ،

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٤٣ - ١٤٤) .

وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أغراضها الصغار ، من مال وجاه ومن سلطان ومن متاع ، خير بما يعقبه من مغفرة الله ورحمته ، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون[(١)].

قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال : يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويُحَلَّى حلة الإيمان ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُجارُ من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويشفع في سبعين إنسانًا من أهل بيته »[(٢)] .

وعن كعب بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « أرواح الشهداء في صور طير خضر ، معلقة في قناديل الجنة ، حتى يرجعها الله يوم القيامة »[(٣)] .

قال القرطبي :

خديث كعب أصح من رواية من روى أن أرواحهم في جوف طير خضر ، قاله أبو عمر في الاستذكار ، وقال أبو الحسن القاس : أنكر العلماء قول من قال : في حواصل طير خضر ؛ لأنها رواية غير صحيحة ؛ لأنها إذا كانت كذلك فهي محصورة مضيق عليها .

قال القرطبي : الرواية صحيحة ؛ لأنها في صحيح مسلم ، فيحتمل أن تكون الفاء بمعنى على ، فيكون المعنى : لأرواحهم على جوف طير خضر ، كما قال تعالى : ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ [طه : ٧١] ؛ أي على جذوع النخل ، وجائز أن يسمى الظهر جوفًا ؛ إذ هو محيط به ، ومشتمل عليه . قال

---

(١) في ظلال القرآن (١ / ٥١٦) .

(٢) صحيح الجامع ٥٠٥٨ رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معدي كرب ، أحكام الجنائز للألباني (٣٥ - ٣٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق بسندٍ صحيح .

أبو محمد عبد الحق : وهو حسن جدًّا[1] .

قال ابن النحاس :

في هذا الكلام كله نظر فإن حديث ابن مسعود صحيح لا شك فيه ، فلا يلتفت إلى قول من قال : إنه غير صحيح ، وأيضًا فإنا لا نسلم أن أرواحهم محصورة لكونها في جسد ؛ فإنه يلزم من ذلك أن تكون أرواح أهل الجنة في الجنة محصورة بأجسادها ، وأن يكون جعفر - رضي الله عنه - محصورًا بالجسد الذي رآه النبي ﷺ فيه ، وهو سيد الشهداء ، ولا ضرورة تدعو إلى التأويل الذي أوله أبو محمد - رحمه الله - بل الذي يظهر لي - والله أعلم - من الحكمة في جعل أرواحهم في هذه الأجساد أنهم لما جادوا بأجسادهم الكثيفة لله تعالى ، وبذلوها في حُبِّه ، وعرّضوها للآلام والمشاق الشديدة ، وسمحوا بها للفناء امتثالًا لأمر الله وطلبًا لمرضاته ، عوّضهم الله عنها أجسادًا لطيفة في دار النعيم الباقي ، يأكلون بها ويشربون ، ويسرحون في الجنة حيث يشاءون .

ولما كان ألطف الحيوانات أجسامًا الطير ، وألطف الألوان الأخضر ، وألطف الجمادات الشفافة الزجاج ، كما قال تعالى : ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ [النور : ٣٥] وإن كانت من ذهب ، كما في حديث ابن عباس ، فهو المُفَرِّح طبعًا وخاصية ، وناهيك بذهب الجنة مفرِّحًا ، فلذلك - والله أعلم - جعل الله أرواح الشهداء في ألطف الأجساد ، وهو الطير الملون بألطف الألوان ، وهو الخضرة ، يأوي إلى ألطف الجمادات ، وهي القناديل المنورة والمفرَّحة ، في ظل اللطيف الرحيم ، لتكمل لها لذة النعيم إلى جوار الرب الكريم ، فكيف يُظن أنها محصورة ؟! كلا والله ، إن هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليشمر المشمرون ، وعليه فليجتهد المجتهدون[2] .

فإن قيل : إذا كانت روح كل مؤمن على صورة طير في الجنة ، كما جاء

---

(١) التذكرة للقرطبي ص١٩٧ .

(٢) فضائل الجهاد لابن النحاس ٧٣١ - ٧٣٢ .

في حديث كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر يعلق من شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه »[١] .

فبماذا يتميز الشهيد ؟؟ فالجواب من وجوه :

الأول : ما ذكره ابن كثير في تفسيره في هذا الحديث : إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر ، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بنفسها[٢] .

فهي كالراكبة بالنسبة إلى أرواح المؤمنين وهذا حسن غير أنه يعارض حديث كعب بن مالك ، فإن فيه « أرواح الشهداء في صور طير خضر » .

الثاني : وهو أحسن منه ، فيه أن المراد بذلك روح المؤمن الشهيد ، دون غيره من عموم المؤمنين .

ويعضد ذلك ما حكاه القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه سراج المريدين من اجتماع الأمة على أنه لا يتعجل الأكل والنعيم إلا الشهيد في سبيل الله .

الثالث : أنه قد روى «تَعلَق»[٣] بفتح اللام ، قال القرطبي : وهو الأكثر، ومعناه تسرح[٤] .

يقول ابن النحاس : ومن خط القرطبي فقلت : فيكون المعنى أن روح المؤمن تطير في شجر الجنة وتسرح بينها إلى يوم القيامة ، لا أنها على شكل طائر يأكل ويشرب ، بخلاف روح الشهداء ، فإنها في جوف طير أخضر ، أو على صورة طير أخضر ، تأكل وتشرب وتتنعم ، وتأوي إلى قناديل في ظل العرش .

---

(١) حديث عظيم صحيح ، اجتمع في سنده ثلاثة من الأئمة الأربعة مالك والشافعي وأحمد .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ١٤٢) .

(٣) تعلق : بضم اللام . تأكل .

(٤) التذكرة للقرطبي ص٩٣ .

○ الشهيد لا يجد من ألم القتل إلا مس القرصة ○

قال رسول الله ﷺ : « الشهيد لا يجد ألم القتل ، إلا كما يجد أحدكم مس القرصة »(١) .

وقال أيضًا : « الشهيد لا يجد مس القتل ، إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها »(٢) .

وقال : « ما يجد الشهيد من مس القتل ، إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة »(٣) .

قال المناوي في فيض القدير : « إلا كما يجد أحدكم مس القرصة » عبّر بأداة الحصر ؛ دفعًا لتوهم تصور أن ألمه يفضل على ألمها ، وهذه تسلية لهم عن هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم ، وتهييج الصبر على وقع السيوف ، واقتحام الحتوف ، فالله تعالى يهون على الشهيد الموت ويكفيه سكراته وكربه .

○ الشهيد لا يُفتن في قبره ولا يُعذب ○

قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال .. ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ... » .

ثبت في الصحيح : أن المرابط في سبيل الله لا يفتن في قبره .

---

(١) صحيح : صحيح الجامع ٣٦٣٩ ، رواه الطبراني عن أبي قتادة ، تخريج الترغيب (٢/ ١٩٢) .

(٢) صحيح : صحيح الجامع ٣٦٤٠ ، رواه النسائي عن أبي هريرة ، تخريج المشكاة ٣٨٣٦ .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٨٩ .

عن فضالة بن عبيد – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: « كل ميت يُختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر »(١).

فالشهيد أولى وأحرى؛ لأنه أفضل منه، وما نال المرابط ما ناله من الفعل إلا بتعرضه للشهادة وتوقعه لها، فكيف لا يعطى ذلك الفضل من نالها(٢).

إن الفتنة في القبر بسؤال المَلَكين، إنما هي لاختبار ما عند المرء من حقيقة الإيمان والتصديق، ولا شك بأن من وقف للقتال، ورأى السيوف تلمع وتقطع، والأسنة تبرق وتخرق، والسهام ترشق وتمرق، والرءوس تندر، والدماء تثعب، والأعضاء تتطاير، والناس بين قتيل وجريح وطريح، فيثبت على ذلك، ولم يولِّ الدبر، ولم ينهزم، وجاد بنفسه لله تعالى إيمانًا به، وتصديقًا بوعده ووعيده، كما وصف الله تعالى المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢] فيكفيه هذا امتحانًا لإيمانه، واختبار له وفتنة، إذ لو كان عنده شك أو ارتياب لولى الدبر، وذهل عما هو واجب عليه من الثبات، وداخله الشك والارتياب، كما قال تعالى: ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا** ﴾ [الأحزاب: ١٢].

فيكفي الشهيد هذا الامتحان من سؤال الفتان ... والجزاء عند الله من جنس العمل.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. وفيه حميد بن هانئ أبو هانئ، وهو من رجال مسلم، وإنما روى له البخاري في الأدب المفرد. وقال الحاكم في مكان آخر لسند فيه حميد: على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤ / ٢٥٧).

هذه الآية ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ [الزمر: ٦٨] مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: «هم شهداء الله»[١].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ : « سألت جبريل عن هذه الآية : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ مَن الذين لم يشأ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء ، ثُنَيَّةُ الله تعالى ، متقلدون أسيافهم حول عرشه »[٢] .

فأين صعق السيوف ، من صعق القيامة ..؟!!

إن للموت لسكرات ، وإن هول المطلع شديد ، وإن للقبر عذابًا لا ينجو منه إلا الصالحون ، وإن فيه لسؤال المَلَكين الفَاتِنَيْن ، ثم بعد ذلك الخطر العظيم ، إما سعيدًا فإلى النعيم المقيم ، وإما شقيًّا فإلى عذاب الجحيم ، والشهيد آمن من جميع ذلك ، لا يَخْشَى شيئًا من هذه المهالك لا يجد إلا مسّ القرصة ، فما يقعدك عن انتهاز هذه الفرصة ؟!.

ثم تجاوز في القبر من العذاب ، وتفوز عند الله بحسن المآب ، وتأمن من فتنة السؤال ، وما بعد ذلك من الشدائد والأهوال ، فكم بين هذا القتل الكريم وبين الموت الأليم ، كم بين هذا ، ومن هم ﴿ ... **أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألَّا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩ – ١٧٠] قد أَمِنوا من عظيم الأهوال والكربات ، وسكنوا بأجلّ المحالّ في أعلى الغرفات ، وكرعوا من النعيم أكوابا ، وادّرعوا من التنعيم أثوابا ، ومُتعوا بجنان الفردوس مستقرًّا ومآبًا ، وتمتعوا بحورٍ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك في التفسير، وقال: هذا صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح : أورده السيوطي في الجامع ، وقال : رواه أبو يعلى والدارقطني في الأفراد والحاكم وابن مردويه في التفسير والبيهقي في البعث عن أبي هريرة . وزاد على رواية الحاكم : « هم الشهداء ، ثنية الله تعالى ... حول العرش » . وصححه السيوطي والحاكم . انظر فيض القدير (٤ / ٧٨ – ٧٩) .

عين كواعب أترابًا ، أرواحهم في جوف طير خضر تجول في الجنان ، تأكل وتشرب وتأوي إلى قناديل معلقة في عرش الرحمن ، يتمنون الرجوع إلى هذه الدار ؛ ليقتلوا في سبيل الله عشر مرات ، لما بهرهم من ثواب الله الجزيل للجريح في سبيله والقتيل[١] .

○ ظل الملائكة على الشهيد ، والجنة تحت بارقة السيوف[٢] ○

وانظر .. لمّا تحمّل الشهيد حرّ السيف ظللته الملائكة .

لما تحمل حرّ السيف وظللته السيوف يكون مأواه الجنة حيث الظل الممدود .

في حديث جابر في البخاري : جيء بأبي إلى النبي ﷺ وقد مُثل به ، ووضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه ، فنهاني القوم ، فسمع صوت نائحة ، فقيل : ابنة عمرو ، أو أخت عمرو ، فقال : « لم تبكي ؟ - أو لا تبكي - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها » .

قال ﷺ : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[٣] .

وقال عمار بن ياسر يوم صفين : الجنة تحت الأبارقة[٤] .

○ الشهيد لمّا ترك أهله وأزواجه يزوج من الحور العين ○

وانظر إلى الشهيد ، لمّا اغبر بالتراب ، تُزيل الحورُ عنه التراب .

ولما ترك الأزواج ، وقرة عينه من الدنيا ، يوفر له هذا النصيب ، وليس لأحد نصيبه .

---

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٥٩٠) .

(٢) ترجمة البخاري ، كتاب الجهاد (٦ / ٣٨ - ٣٩) فتح الباري .

(٣) البخاري في الصحيح فتح الباري ، كتاب الجهاد (٦ / ٤٠) .

(٤) رواه الطبراني بسند صحيح ، انظر فتح الباري (٦ / ٥٦) .

قال ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال ... ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ... » .

عن مجاهد قال : قام يزيد بن شجرة في أصحابه فقال : إنها قد أصبحت عليكم ما بين أخضر ، وأحمر ، وأصفر ، وفي البيوت ما فيها ، فإذا لقيتم العدو غدًا فقدمًا قُدمًا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما تقدم رجل من خطوة إلا تقدم إليه الحور العين[1] فإن تأخر استترن منه ، وإن استشهد كانت أول نفحة كفارة خطاياه ، وتنزل إليه ثنتان من الحور العين فتنفضان عنه التراب ، وتقولان له : مرحبًا قد آن لك ، ويقول : مرحبًا قد آن لكما »[2].

وروى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : « إذا التقى الصفان أهبط الله الحور العين إلى السماء الدنيا فإذا رأين الرجل يرضين قُدْمه قلن : اللهم ثبته ، وإن فر احتجبن منه ، فإن هو قتل ، نزلتا إليه ، فمسحتا التراب عن وجهه وقالت : اللهم عفّر من عفره وترّب من ترّبه » والجزاء من جنس العمل ...

وعن أنس رضي الله عنه : أن رجلًا أسود أتى النبي - ﷺ - فقال له : يا رسول الله : إني رجل أسود منتن الريح ، قبيح الوجه لا مال لي ، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا ؟ قال : « في الجنة » فقاتل حتى قتل فأتاه النبي - ﷺ - فقال : « قد بيّض الله وجهك ، وطيّب ريحك ، وأكثر مالك » . وقال لهذا أو لغيره : « لقد رأيت زوجته من الحور العين ، نازعته جبة له من صوف تدخل بينه وبين جبته »[3].

---

(١) والجزاء من جنس العمل .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، وابن الأثير في أسد الغابة ، ورواه ابن أبي شيبة موقوفًا مختصرًا بإسناد صحيح ، وعبد الرزاق موقوفًا بإسناد صحيح ، والطبراني ، قال الهيثمي : رواه الطبراني من طريقين ، رجال أحدهما رجال الصحيح .

(٣) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والبيهقي في الشعب ، وقال في آخره : فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول فقال : « لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ، تتنازعان ، تدخلان فيما بين جلده وجبته » .

انظر ...

لمّا ترك المجاهد الفراش والأزواج ، جاد عليه الملك الوهاب ، بكثرة الأزواج من الحور العين ، والجزاء عند الله من جنس العمل ..

ترك نساء الدنيا ، التي يروم منها غيرُه أقذر ما فيها ، ويخاف هجرها ، ويخشى تجافيها ، يحمله حبها على الكدّ والتعب والشقاء الشديد والنصب ، توردك الموارد المهلكة ، وترضى في أدنى هواها بهلاكك وما أوشكه ، ففاز بوصال من خُلِقت من النور ، ونشأت في ظلال القصور ، مع الولدان والحور ، في دار النعيم والسرور ، والله لا يجفّ دم الشهيد حتى تلقاه ، وتستمتع بشهود نورها عيناه ، حوراء عيناء ، جميلة حسناء ، بكر عذراء ، كأنها الياقوت لم يطمثها إنس قبلك ولا جان ، كلامها رخيم ، وقدّها قويم ، وشعرها بهيم[1] ، وقدرها عظيم ، وجفنها فاتر ، وحسنها باهر ، وجمالها زاهر ، ودلالها ظاهر ، كحيل طرفها ، جميل ظرفها ، عذب نطقها ، عجب خَلْقُها، حسن خُلُقها ، زاهية الحلى ، بهية الحلل ، كثيرة الوداد ، عديمة الملل ، قد قصرت طرفها عليك فلم تنظر سواك ، وتحببت إليك بكل ما وافق هواك ، لو برز ظفرها لطمس بدر التمام ، ولو ظهر سوارها ليلًا لم يبقَ في الكون ظلام ، ولو بدا معصمها لسبى كل الأنام ، ولو اطلعت بين السماء والأرض لملأ ريحها ما بينهما ، ولو تفلت في البحر المالح ، عاد كأعذب الماء ، كلما نظرت إليها ازدادت في عينيك حسنًا ، وكلما جالستها زادت إلى ذلك الحسن حسنًا ، أيجمل بعاقل أن يسمع بهذه ويقعد عن وصالها ؟! كيف وله في الجنة من الحور العين أمثال أمثالها ؟!

واعلم أن فراق زوجتك تلك لابد لك منه ، وكأن قد وقع ، والجنة إن شاء الله تجمع بينكما ونعم المجتمع ، فتجدها في الآخرة أجمل من الحور العين بما لا يعلمه إلا رب العالمين .

فأعرض عنها اليوم، فسيعوضك الله عنها، وإن كانت من أهل الجنة فلابد لك منها.

(١) بهيم : ما كان لونًا واحدًا ، لا يخالطه غيره سوادًا كان أو بياضًا .

○ لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم ○

قال رسول الله ﷺ : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في منخري مسلم أبدًا »(١) .

وقال ﷺ : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في جوف عبد أبدًا ، ولا يجتمع الشحُّ والإيمان في قلب عبدٍ أبدًا »(٢).

وقال ﷺ : « من راح روحة في سبيل الله ، كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكًا يوم القيامة »(٣) .

وقال ﷺ : « ما اغبرتا قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسه النار »(٤) .

قال محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة : أملى عليّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ، وأرسلها معي إلى مكة إلى الفضيل بن عياض سنة سبع وسبعين ومائة وهي :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
أو كان يتعبُ خيلَه في باطلٍ ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريحُ العبيرِ لكم ونحن عبيرُنا ... رهجُ السنابكِ والغبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يَكْذِبُ
لا يستوي وغبار خيلِ الله في ... أنف امرىء ودخان نارٍ تلهبُ

---

(١) صحيح : انظر صحيح الجامع ٧٤٩٣ ، رواه النسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة ، تخريج المشكاة ٣٨٢٨ .

(٢) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن أبي هريرة انظر صحيح الجامع ٧٤٩٢ ، وتخريج المشكاة ٣٨٢٨ .

(٣) حسن: رواه ابن ماجة (الضياء عن أنس انظر صحيح الجامع ٦١٣٦، والصحيحة ٢٣٣٨).

(٤) رواه البخاري : فتح الباري (٦ / ٣٥) .

هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت ، لا يَكْذِب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه ، فلما قرأه ذرفت عيناه ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ، ونصحني .

قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، لا يجتمع على عبدٍ غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم »(١).

إذا كانت مشقة الغبار عاصمة من عذاب النار ، فما الظن بمن بذل ماله وغرّر بنفسه في قتال الكفار .

○ الجرح في سبيل الله تعالى ○

قال رسول الله ﷺ : « زملوهم بدمائهم ، فإنه ليس كلم يُكلم في الله إلا وهو يأتي يوم القيامة يدمى ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك »(٢) .

وقال ﷺ : « كل كَلْم يُكْلَمه المسلم في سبيل الله تعالى ، يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت تَفجَّرُ دمًا ، واللون لون دم ، والعَرْفُ عَرْفُ مسك »(٣) .

وقال ﷺ : « لا يُكلم أحدٌ في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا وجاء يوم القيامة وجرحه يثْعَبُ دمًا : اللون لون دم ، والريح ريح مسك »(٤).

وقال ﷺ : « ما من مكلوم يُكلم في الله ، إلا وجاء يوم القيامة ، وكَلْمهُ يدمى ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك »(٥) .

وقال أيضًا ﷺ : « ... ومن جرح في سبيل الله ، أو نُكِب نكبة فإنها

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والنسائي، وأحمد، والترمذي، وقال : حديث حسن صحيح، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٢) صحيح ، رواه النسائي عن عبد الله بن ثعلبة انظر صحيح الجامع ٣٥٦٧ ، وأحكام الجنائز ٦٠ ، الإرواء ٧٠٥ ، تخريج المشكاة ٢٩٢٤ والكلم : الجرح .

(٣) رواه البيهقي عن أبي هريرة . والعرْف : الرائحة .

(٤) رواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة ، ورواه أحمد ومسلم انظر صحيح الجامع ٧٦٤٩ . وهو صحيح ، ويثعب دمًا ؛ أي يتفجر ويجري .

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة .

تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت ، لونها لون الزعفران ، وريحها ريح المسك ، ومن خرج به جراح في سبيل الله كان عليه طابع الشهداء »[١] .

قال عز الدين بن عبد السلام :

إنما يجيء الجريح كذلك يوم القيامة ، تفضيلًا له على أهل الموقف ، ونداءً عليه بأنه بذل نفسه حتى جرح في سبيل الله[٢] .

وقال ابن دقيق العيد في شرح العمدة :

مجيئه يوم القيامة مع سيلان الجرح فيه أمران :

أحدهما : الشهادة على كالمه[٣] .

والثاني : إظهار شرفه لأهل المشهد والموقف ، بما فيه من رائحة المسك الشاهدة بالطيب[٤] .

وعن معاذ بن جبل ، قال رسول الله ﷺ : « من جرح جرحًا في سبيل الله ، أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت ، لونها الزعفران ، وريحها المسك »[٥] .

قال ابن حجر :

عرف بهذه الزيادة أن الصفة المذكورة لا تختص بالشهيد ، بل هي خاصة لكل من جرح ، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الجرح هو ما يموت صاحبه بسببه قبل اندماله لا ما يندمل في الدنيا ، فإن أثر الجراحة وسيلان الدم يزول ، ولا نفي ذلك أن يكون له فضل في الجملة ، لكن الظاهر أن الذي يجيء يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا » من فارق الدنيا وجرحه كذلك ، ويؤيده ما وقع عند ابن حبان من حديث معاذ المذكور : « عليه طابع الشهداء » وقوله : « كأغزر

---

(١) رواه أحمد ، وابن حبان عن معاذ ، انظر صحيح الجامع ٦٢٩٢، تخريج المشكاة ٣٨٢٥.

(٢) أحكام الجهاد وفضائله لابن عبد السلام .   (٣) جارحه .

(٤) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام مع حاشية العدة (٤ / ٥١٥) .

(٥) قال ابن حجر في فتح الباري (٦ / ٢٥) : لأصحاب السنن ، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم .

ما كانت » . في قوله : « كهيئتها » ؛ لأن المراد لا ينقص شيئًا بطول العهد[1] .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم ، يطير بهما مع الملائكة »[2] .

إن الجرح في سبيل الله ، وكما قال رسول الله ﷺ : لما دميت أصبعه في بعض المشاهد : « هل أنت إلا إصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت » .

فكل شيء ناقص في عرف الدنيا إذا انتسب إلى طاعة الله ورضاه ، فهذا هو الكامل في الحقيقة .

وقد قال ﷺ : « رأيت جعفر بن أبي طالب ملكًا يطير في الجنة ، ذا جناحين يطير بهما حيث شاء ، مقصوصة قوادمه[3] بالدماء »[4] .

وانظر .. إلى أمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح لما نزع يوم أحد الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله ﷺ من المغفر فانتزعت ثنيتاه ، فحسنتا فاه ، فقيل : ما رئي فم قط أحسن من فم أبي عبيدة[5] .

إن كان هذا في دار الدنيا فكيف في الآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

ومن أعجب ما روي عن سلفنا الصالح : إن حياشا بن قيس القشيري ، لما شهد اليرموك ، قتل من العلوج خلقًا كثيرًا ، وقطعت رجله يومئذ وهو لا يشعر بقطعها ، فلما انفصل من الحرب ، جعل ينشدها ، وفيه يقول سوار بن أوفى :

ومنا ابن عتاب وناشد رجله ومنا الذي أدّى إلى الحي حاجبًا

يعني حاجب بن زرارة ، وهذا شيء لم يسمع مثله[6] .

---

(١) فتح الباري (٦ / ٢٥) .

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد والحاكم عن البراء ، وصححه الألباني ، انظر صحيح الجامع ١٥٥٥ ، والسلسلة الصحيحة ٩٩٥ .

(٣) قوادم الطائر ، مقاديم ريشه ، وهي عشر في كل جناح .

(٤) إسناده حسن ، وانظر مجمع الزوائد في المناقب قال الهيثمي : رواه الطبراني عن ابن عباس بإسنادين أحدهما حسن .

(٥) فضائل الجهاد لابن النحاس (٢/٩٧٨). (٦) فضائل الجهاد لابن النحاس (١/٥١٥).

○ فضل السهر في سبيل الله ○

قال رسول الله ﷺ : « حُرِّمت النار على عين بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله »[١] .

من سهر في سبيل الله فقد ترك غرضه من النوم طاعة لله بما يتجشَّمُهُ من خوف العدو ، ولذلك حرمت عليه النار[٢] .

○ الرِّبَاط[٣] ○

قال رسول الله ﷺ : « رباط شهر خير من صيام دهر ، ومن مات مرابطًا في سبيل الله ، أمن من الفزع الأكبر ، وغُدي عليه برزقه ، ورِيحَ من الجنة ، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله »[٤] .

أما الرباط ، وهو ملازمة المحلّ الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين ، وإن كان وطنه بشرط نية الإقامة به لدفع العدو ، فارسًا كان أو راجلًا .

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : فرض الجهاد لسفك دماء المشركين ، والرباط لحقن دماء المسلمين ، وحقن دماء المسلمين أحبّ إليّ من سفك دماء المشركين[٥] .

---

(١) أخرجه البيهقي والدارمي، وابن أبي شيبة والحاكم وأحمد وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي .

(٢) أحكام الجهاد وفضائله لعز الدين بن عبد السلام .

(٣) قال المناوي في فيض القدير (٣ / ١٢) : الرباط المرابطة ، وهو أن يربط هؤلاء خيولهم في ثغرهم وهؤلاء خيولهم في ثغرهم ويكون كل منهم معدًّا لصاحبه متربصًا لقصده ، ثم اتسع فيه فأطلقت على ربط الخيل واستورادها لغزو أو عدو حيث كان وكيف كان ، وقد يتجوز به للمقام بأرض والتوقف فيها .

(٤) رواه الطبراني عن أبي الدرداء ، وقال الهيثمي : رجاله ثقات ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٧٣ .

(٥) الجامع لمسائل المدونة (١٥٤ / ١) .

عن سلمان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل ، وأجري عليه رزقه ، وأمن الفتان »[١] .

وعن عثمان - رضي الله عنه - رباط يوم في سبيل الله ، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل .

وعن فضالة بن عبيد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله ، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر »[٢] .

قال القرطبي :

حديث سلمان ، وحديث فضالة ، دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت ، كما جاء في حديث أبي هريرة « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم . فإن الصدقة الجارية ، والعلم المنتفع به ، والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم ، وموت الولد ، والرباط أيضًا أجره مضاعف إلى يوم القيامة ؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة ، وهي غير موقوفة على سبب ، فتنقطع بانقطاعه ، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة ؛ وهذا لأن أعمال البرِّ كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو ، والتحرز منهم بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام . انتهى كلامه . وهو مليح جدا فتأمله[٣] .

قال المناوي :

---

(١) رواه مسلم ، قال القاضي عياض : رواه الأكثرون بضم الفاء جمع فاتن .

(٢) رواه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم وقال : على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٣) تفسير القرطبي (٤ / ٣٢٥) ، فضائل الجهاد لابن النحاس (١/٣٧١-٣٧٢) .

« رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه » لا يعارض رواية : « خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » ؛ لاحتمال إعلامه بالزيادة ، أو لاختلاف العاملين ، أو العمل أو الإخلاص أو الزمن .

« جرى عليه أجر عمله » الذي كان يعمله حال رباطه ؛ أي لا ينقطع أجره ، وهذه فضيلة لا يشركه فيها أحد ولا ينافيه عد جمع نحو عشرة ممن يجري عليهم ثوابهم بعد موتهم ؛ لأن المجرى على هذا ثواب عمله وثواب رباطه ، وأما أولئك فشيء واحد .

قال الطيبي : ومعنى « جرى عمله عليه »: أن يقدر له من العمل بعد موته كما جرى منه قبل الممات[1] .

وتأمل يا أخي .. كيف كان الجزاء من جنس العمل ..

من مات مرابطًا جرى عليه عمله ، رباط ووقف النفس على دين الله ، يقابله جري لثواب العمل ..

فتأمل هذه .. رباط نفس وجسد ، وجري رزق وعمل ، والجزاء من جنس العمل .

المرابط أمام العدو يفزع لأي شاردة منه ، ويخاف أن يغير على بلاد المسلمين ، فيأمن الفزع الأكبر ، وهذا جزاء من جنس العمل .

هذا احتبست قدماه عن سعي الدنيا طلبا للرزق ، فغُدي عليه برزقه .

هذا لا يستنشق إلا الغبار ، ولذا رِيحَ من الجنة ، جزاءً وفاقًا .

قال أسد بن الفرات : ما من أحد إلا يرى حسناته وسيئاته يوم القيامة ، إلا المرابط فإنه يرى حسناته ، ولا يرى سيئاته ، وذلك أنه تمحى عنه سيئاته ، وتكتب حسناته[2] .

---

(١) فيض القدير (٤ / ١٢) .

(٢) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٣٩٧) .

روى ابن المبارك: أن الحارث[١] بن هشام - رضي الله عنه - وهو أخو أبي جهل لأبويه ، خرج من مكة للجهاد ، فجزع أهل مكة جزعًا شديدًا ، فلم يُر أحد طَعِم إلا خرج يُشيِّعه ، فلما كان بأعلى البطحاء وقف، ووقف الناس حوله يبكون ، فلما رأى جزعهم رق ، فبكى ، وقال : يأيها الناس ، إني والله ، ما خرجت رغبة بنفسي عن أنفسكم ، ولا اختيار بلد عن بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر فخرجت رجال ، والله ما كانوا من ذوي أنسابها ، ولا في بيوتاتها فأصبحنا ، والله لو أن جبال مكة ذهبًا فأنفقناها في سبيل الله ، ما أدركنا يومًا من أيامهم ، والله لئن فاتونا في الدنيا لنلتمس أن نشاركهم به في الآخرة ، ولكنها النقلة إلى الله عز وجل ، وتوجه إلى الشام فأصيب شهيدًا .

وقال مصعب بن عبد الله : خرج الحارث بن هشام مع أهله إلى الشام ، فتبعه أهل مكة يبكون ، فرق وبكى ، ثم قال : أما لو كنا دارًا بدار ، وجارًا بجار ، ما أردنا بكم بدلًا ، ولكنها النقلة إلى الله عز وجل ، فلم يزل حابسًا نفسه ومَنْ معه بالشام مجاهدًا حتى ختم الله له بخير .

وكون الجزاء من جنس العمل يوضحه بأجلّ عبارة الحارث بن هشام : النقلة إلى الله عز وجل . النقلة إلى الكريم ...

من أراد أن يعلم ما له عند الله ، فلينظر ما لله عنده .

○ الخيـل ○

حصانك في سيناء يشربُ دمعه وجندك في حطين صلوا وكبروا

يقول الشاعر :

---

(١) ذكر المزي : أن الحارث شهد بدرًا وأحدًا مشركًا ، وأسلم يوم الفتح ، وكان شريفًا كبير القدر ، واستشهد يوم اليرموك .

جوادُ دينك في الميدان منطلقُ وبين عينيه من إصراره ألَقُ
صهيله نغمٌ يُصغي الزمان له ونقعه لحجاب الشمس يخترقُ
تشدو حوافره لحنًا يهش له قلب التراب وتسترخي له الطرقُ
يسابق الريحَ في درب الإباء وكم خيلٍ سواه إلى الأهواء تستبقُ
جواد دينك يجري النور في دمه وتشرئبُّ إلى غاراته العنقُ
تكفُّ عن وجهه الصحراء ما حملت من سَفْيها دينا عن ركضه الشفقُ
يُقضُّ مضجعُ كلِّ الصافنات إذا ثار الغبار وطارت نحوه الحَدَقُ
مجاهدٌ والأماني البيض لاهثة وراءه وبحار الشوق تصطفقُ
إذا تلفَّتَ غنّى فجر غُرَّته لحنَ الضياء وأرخى طرفَه الغسقُ
وسافر الليلُ مبهورًا وأعقبه فجر تحفَّزَ لاستقباله الأُفقُ

قال تعالى مقسمًا بالخيل : ﴿ **والعاديات ضبحًا** ﴾ [العاديات : ١] .

قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وعطية وقتادة : الخيل التي يُغْزى عليها ، ويغار بها على العدوّ .

ولو لم يكن من فضل الخيل إلا إضافتها إلى الرحمن سبحانه تشريفًا لها وتكريمًا ، لكان كافيًا ، يا خيل الله ، اركبي ..

قال رسول الله ﷺ : « من احتبس فرسًا في سبيل الله ، إيمانًا بالله ، وتصديقًا بوعده ؛ كان شِبَعُهُ ورِيُّهُ ورَوْثُهُ وبَوْلُهُ حسنات في ميزانه يوم القيامة »(١) .

يريد ثواب ذلك ، لأن الأرواث بعينها توزن .

وقال ﷺ : « من ارتبط فرسًا في سبيل الله ، ثم عالج علفه بيده ، كان له بكل حبةٍ حسنة »(٢) .

---

(١) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن أبي هريرة - الإرواء ١٥٨٥ .

(٢) رواه ابن ماجة وابن حبان عن تميم الداري ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٨٤ ، الروض النضير ١٧٥ ؛ ورواه أحمد والطبراني في الأوسط والدولابي .

وقال ﷺ : « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للإنسان ، فأما فرس الرحمن ، فالذي يرتبط في سبيل الله ، فعلفه ورَوثه وبَولهُ في ميزانه ، وأما فرس الشيطان فالذي يُقامَر أو يراهَنُ عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها يلتمس بطنها ، فهي سِتْر من الفقر »[١] .

وقال ﷺ : « الخيل لثلاثة : هي لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر فأما الذي هي له أجر ، فرجل ربطها في سبيل الله ، فأطال لها في مَرْجٍ أو روضة ، فما أصابت في طيلها من المرج والروضة ، كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنّت شرَفًا أو شرفين ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرّت بنهر فشربت ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات . ورجل ربطها تغنيا ، وسترًا ، وتعفُّفًا ، ثم لم ينس حق الله في رقابها وظهورها ، فهي له ستر ، ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً لأهل الإسلام فهي له وزر »[٢] .

قال ابن حجر :

المرج : موضع الكلأ ، وأكثر ما يطلق على الموضع المطمئن ، والروضة أكثر ما يطلق في الموضع المرتفع .

« فما أصابت في طيلها » : هو الحبل الذي تربط به ويطول لها لترعى ، ويقال له : طِوَل بالواو المفتوحة قوله : « ولم يرد أن يسقيها » فيه أن الإنسان يؤجر على التفاصيل التي تقع في معنى الطاعة إذا قصد أصلها ، وإن لم يقصد التفاصيل[٣].

---

(١) رواه أحمد عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٣٤٥ - الإرواء ١٥٠٣ .

(٢) رواه مالك وأحمد والبيهقي والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني ، صحيح الجامع ٣٣٤٧ .

(٣) فتح الباري (٦/٧٥ - ٧٦) .

عن عمر بن عبد العزيز- رحمه الله تعالى- قال: أثبت لي عن رسول الله- ﷺ - أنه قال : « من كان له فرس عربي فأكرمه ، أكرمه الله ؛ وإن أهانه ، أهانه الله »[١].

قال رسول الله - ﷺ - : « إنه ليس من فرس عربي ، إلا يُؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول : اللهم ، إنك خولتني مَنْ خولتني من بني آدم ، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه »[٢] .

فما بالهم أهانوها ، ما خيولهم بالعاديات ، ولا هي بالموريات قدحًا ، وما هي بالمغيرات صبحا ..

لم يستقلوا الصافنات وإنما ... ركبوا بغالًا سعيهن ثقيلُ
وتجرَّدوا من كلِّ أبيض صارمٍ ... للمجد فيه تلألُؤٌ وصليلُ
جاءوا يسوقهمُ الأعادي عنوةً ... فهمو لهم بين الأنام ذيولُ
جاءوا ويا بئس المجيء كأنهمْ ... حُمُرٌ تساقُ إلى الردى وعجولُ

وقال الشاعر :

لمن أكحلُ عين الشعر في زمنٍ ... فرسانه لعبوا بالنار واحترقوا
لمن نرقِّص أوزان الخليل وما ... في قومنا فارس إلا به رهقُ
لمن أغرد والأحداث تكشف لي ... عن ساقها وسرايا أمتي نَزِقُ
ما بال غرة هذا اليوم باهتة ... كأنما هي في وجه الضحى بهقُ
مُت يا سؤالي فكلُّ الراكضين إلى ... أوهامهمْ ذهبوا والثابتون بقوا
يا عازف الحرفِ ما كل الشداة ... شدوا ولا جميع القوافي ريحها عبقُ
جواد دينك ما زالت حوافره ... تشدو وما زال في الميدان ينطلقُ

---

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (١ / ٣٤٩) .
(٢) رواه أحمد والنسائي والحاكم عن أبي ذر ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٤١٠ ، الترغيب (٢ / ١٦٢) .

○ النفقة في سبيل الله وإعانة الغازي ○

قال رسول الله ﷺ : « من أظلَّ رأس غازٍ أظلّه الله يوم القيامة ، ومن جهز غازيًا في سبيل الله فله مثل أجره حتى يموت أوْ يرجع ، ومن بنى لله مسجدًا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتا في الجنة »[(١)] .

وقال ﷺ للذي وقف ناقة مخطومة في سبيل الله عز وجل : « لك بها سبعمائة ناقة في الجنة »[(٢)] .

وقال ﷺ : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة »[(٣)(٤)] .

ظلّ بظلّ ، وبيت ببيت ، وناقة بسبعمائة ناقة ، والجزاء من جنس العمل ...

عليكم بالجهاد في سبيل الله عز وجل ، فإنَّه باب يذهب الله به الهم والغم .

هموم الدنيا وغمها كثير ، ويظن الناس أنَّ الذي خرج يكثر همه وغمه ، فطرد الله عنه الهم والغم كيف لا ؟ « ومن قاتل فواق ناقة وجبت له الجنة ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣١٠/١) ، وابن ماجة (٢٧٥٨) ، وابن حبان (٤٦٢٨)، والبيهقي (١٧٢/٩) ، والحاكم (٨٩/٢) ، وأحمد (٢٠/١) ، وقال شعيب الأرنؤوط في الإحسان : رجاله ثقات ، رجال الصحيح .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٠٣٠ ، والسلسلة الصحيحة ٦٣٤ .

(٣) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن مسعود .

(٤) يحتمل أن معناه لك بها أجر سبعمائة ناقة ، ويحتمل أن يكون على ظاهره ويكون له بها في الجنة سبعمائة ناقة كلها وواحدة منهن مخطومة ، يركبهن حيث شاء للتنزه ، كما جاء في خيل الجنة ونجبها . قال الثوري : وهذا الاحتمال أظهر والله أعلم – النووي شرح مسلم .

ولا يجتمع غبار خيل الله ودخان جهنم في منخري رجلٍ أبدًا » .

وانظر إلى فرح ذلك الزاهد شقيق البلخي لما قال لمن كان بجواره في الصف : فرحك يعدل فرحك يوم زفت إليك امرأتك .

وانظر إلى فرح أهليهم ، فكيف بفرحهم همْ ؟!.

قال أبو قدامة الشامي : كنت أميرًا على الجيش في بعض الغزوات ، فدخلت بعض البلدان فدعوت الناس إلى الجهاد ورغبتهم في الثواب ، وذكرت فضل الشهادة ، ثم تفرق الناس ، وسرت إلى منزلي فإذا بامرأة من أحسن الناس تنادي : يا أبا قدامة ، فقلت : هذه مكيدة من الشيطان ، فلم أجبها فعادت فنادتني فلم أجبها فقالت: هكذا يفعل أرباب الصلاح بأهل الإرادة ؟! فوقفت لها ، فجاءت ودفعت إليَّ رقعة وحزمة مشدودة ، ثم انصرفت وهي تبكي ، قال : فنظرت إلى الورقة ، وإذا مكتوب فيها : دعوت الناس إلى الجهاد ، وحرضتهم على الثواب ، وأنا امرأة ولا قدرة لي على الجهاد وقد قطعت أحسن ما فيّ وهما ضفيرتاي ، وقد أتيت بهما ، لتجعلهما قيدًا لفرسك ، لعل الله يرى ذلك فيغفر لي . فلما كانت ليلة القتال أخرجتُ الضفيرتين فقيدتُ بهما فرسي ، فلما طلع الفجر ووقع القتال ، فإذا أنا بغلام حسن الوجه صبور على الشدائد فتقدمت إليه ، يا بني أنت راجل ولا آمن أن تجول الخيل فتطؤك بأرجلها ، فارجع إلى موضعك ، قال : فالتفت إليّ وقال : كيف أرجع وقد قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار﴾ [الأنفال: ١٥] قال : فأعطيته قوسًا كان معي ، فقال : يا أبا قدامة أقرضني ثلاثة أسهم ، فقلت : ما هذا وقت قرض ، فقال : بالله عليك أقرضني ، قال : فأعطيته سهمًا فوضعه في قوسه فقتل ، فقلت : أنا شريكك في الثواب ؟ فقال : نعم ، فأعطيته سهمًا آخر فقتل به روميًا آخر ، ثم ناولته الثالث فرمى به وقال : السلام عليك ، سلام مودع ، فجاءه سهم بين عينيه ، فخر صريعا ، فوقفت عليه وقلت : يا ولدي لا تنسني ، فإنك عاهدتني : فقال : نعم . ثم قال : يا أبا قدامة لي إليك حاجة إذا دخلت المدينة فائت والدتي وسلم عليها عني ، وناولها هذا الخرج ، فقلت :

ومن والدتك ؟ قال : التي قطعت شعرها وقالت : اجعله قيدًا لفرسك ، قال : فاشتغلت بالبكاء فقضى نحبه رحمه الله ، فدفنته ، فلما انقضى القتال وعدت إلى قبره ، رأيته على وجه الأرض قد قذفته الأرض ، فحفرت له حفرة أخرى فدفنته ، فقذفته ثانيًا ، فقال أصحابنا : دعه فهو غلام ولعله خرج من غير إذن والدته ، قال : فوقعت في حيرة فأذن مؤذن العشاء فقمت فصليت وجعلت أتضرع إلى الله وأبكي وأقول : يا رب ما أدري ما أصنع به ، قال : فسمعت صوتا : يا أبا قدامة دع ولي الله واذهب ، قال : فتركته فنزلت طيور فأكلته ، وأتت السباع فابتلعت العظام .

فلما أتيت المدينة ذهبت إلى بيت والدته فطرقت الباب ، فخرجت طفلة صغيرة فلما رأت الخرج رجعت ونادت يا أماه : جاء أبو قدامة بخرج أخي ، وما أرى أخي معه ، واحسرتاه في العام الأول أصبنا بأبي ، وفي الثاني بأخي ، وفي هذا بأخي الآخر ، قال : فكدت أتلف من البكاء .

فخرجت تلك المرأة وهي تقول : أمهنيًا جئت أم معزيًا ؟ إن كان ولدي قد مات فعزني ، وإن كان قد استشهد فهنني . فقلت : لا والله ، بل استشهد ، فقالت : وما علامة ذلك ؟ قلت : قتل ، قالت : قبلته الأرض أم لا ؟ قلت : لا والله . قالت : الحمد لله . ثم فتحت صندوقًا وأخرجتْ مسحًا أسود وغلًّا من حديد وقالت : إنه كان إذا جنَّه الليل يلبس هذا المسح ، ويغلُّ يده بهذا الغل ويقول : إلهي ، احشرني من حواصل الطير وبطون السباع ، فما لي عين تراك . وقد استجاب الله منه ذلك[1] .

* * *

(١) فضائل الجهاد لابن النحاس (٢ / ٦٩١ - ٦٩٢) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *

مطابع ابن تيمية بالقاهرة
هاتف ٥٨٦٤٢٤٠ / ٠١١/٣٣٤٦٤٨

« رَوْضَة الناظِر ونُزهة الخاطر »

الجزاء من جنس العمل

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور سيد حسين العفاني

قدم له

أبو بكر جابر الجزائري

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ أبو إسحاق الحويني

الشيخ عائض بن عبد الله القرني

الناشر

مكتبة ابن تيمية

القاهرة

هاتف ٥٨٦٤٢٤٠

توزيع

دار ماجد عسيري

للنشر والتوزيع - جدة

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

المناقب




بسم الله الرحمن الرحيم

□ المناقب □

قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ [الواقعة : ١٠] .

من صفا صُفِّيَ له ، ومن كدّر كُدِّرَ عليه .

قال الحسن وقتادة : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ ؛ أي من كل أمة .

وقال ابن سيرين : الذين صلوا للقبلتين .

وقال مجاهد : هم الأنبياء عليهم السلام .

وقال عثمان بن أبي سودة : أولهم رواحًا إلى المسجد ، وأولهم خروجًا في سبيل الله .

قال ابن كثير :

وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمِروا ، كما قال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾[1] .

يقول ابن القيم في صفة أول زمرة تدخل الجنة :

هذا وأول زمرة فوجوههمْ كالبدر ليل الست بعد ثمان
السابقون هُمُ وقد كانوا هنا أيضًا أولي سبق إلى الإحسان

وهؤلاء هم السابقون الذين سبقوا في الدنيا إلى الخيرات ، وسبقوا في الآخرة إلى الجنات ، فإن السبق هناك على قدر السبق هنا[2] .

قربت قلوبهم من بساط المعرفة ، وإلى الحق في دار الدنيا ، فقال الله عنهم : ﴿ أولئك المقربون ﴾ . النعيم الأكبر والأسنى ؛ نعيم القرب ، وجنات النعيم

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٤٩٠ - ٤٩١) .(٢) شرح النونية (٢/٣٤٢-٣٤٣) .

تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

اليوم جنان العرفان ، وغدًا جنان الرضوان .

يقول قائلهم : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها القلب طربًا ، وأقول : إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا العيش إنهم لفي عيش طيب .

لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ، فهم أبدًا في الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبدًا لهم القرب والزلفى ، لا حجاب لهم عنها .

والسابقون السابقون إنهم هم هم وكفى ، فهو مقام لا يزيده الوصف شيئًا .

السابقون بصدق القدم، وعلو الهمم ﴿**ثلة من الأولين وقليل من الآخرين**﴾.

يقول ابن كثير :

وقد اختلفوا في المراد بقوله : ﴿ **الأولين** ﴾ و ﴿ **الآخرين** ﴾ .

فقيل المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين : هذه الأمة . هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري ، رواها عنهما ابن أبي حاتم ، وهو اختيار ابن جرير .

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يُقابَلَ مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم .

فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ ؛ أي من صدر هذه الأمة ، و ﴿ **قليل من الآخرين** ﴾ ؛ أي من هذه الأمة .

قال الحسن : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ ثلة ممن مضى من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية : ﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾ : كانوا يقولون – أو يرجون أن يكونوا – كلهم من هذه الأمة .

فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أول

كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم ، كل أمة بحسبها .
ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .... »[١] .

أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر . لا يدرى أوله خير أم آخره »[٢] ، فهذا الحديث - بعد الحكم بصحة إسناده - محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى مَنْ بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في آخرها ، وتثبت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم . وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ، ولا تعلق أساسه فيها ، والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة ؛ لشرف دينها ، وعظم نبيها ﷺ[٣] .

ومن البشارة العظيمة لهذه الأمة استمرار العاملين بأحكام الله في كل قرن، وأما قوله تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾** [فاطر: ٣٢]

---

(١) ورد الحديث بلفظ « خير الناس قرني » رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن حبان وأحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد عن عمار ، وأحمد والترمذي عن أنس ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وعن ابن عمرو . والطيالسي ، وابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية .
ومعنى الحديث كما قال الرامهرمزي : إن الخير شامل لها ، وإن كان معلومًا أن القرن الأول خير من القرن الثاني.وقال الشاعر يذكر امرأة أعجبه منها بيانها وطرفها وثغرها :

أشارت بأطراف لطافٍ وأجفنٍ مراض وألفاظ تنعم بالسحر
فوالله ما أدري أفي الطرف سحرها أم السحر منها في البيان وفي الثغر

يريد أن السحر في جماعتها اهـ .

(٣) تفسير ابن كثير (ج٧ / ٤٩٣) .

ليس خاصًّا بقرنٍ دون قرن ، بل هو عامّ في كل العصور حتى تقوم الساعة[١].

عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « في كل قرن من أمتي سابقون »[٢] .

○ المهاجـرون ○

قال ابن القيم : عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرا منه .

لما ترك المهاجرون ديارهم لله ، وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم ؛ أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا ، وملّكهم شرق الأرض وغربها[٣] .

بل هم في الآخرة أسبق الناس دخولا للجنة .

ورحم الله القائل مبيّنًا إحسان الله وجزيل عطائه :

من وقعت عليه غبرة في طريقهم ؛ لم تقع عليه قترة فراقهم .

من خطا خطوة إليهم ، وجد حظوة لديهم .

من رفع إليهم يدًا ؛ أجزلوا له رغدًا .

من التجأ إلى سدة كرمه ؛ آواه في ظل نعمه .

من شكا فيهم غليلًا ؛ مهدوا له في دار فضلهم مقيلًا .

طلّق الصحابة الدنيا ؛ فاشتاقت إليهم الجنان . وصبروا على شَظَفِها ؛ فغدًا لهم رغد العيش ، وسعادة الجَدّ ، وكمال الرفد ، يلبسون حلل الوصل ، ويتوجون بتاج القرب ، ويحملون على المباسط ، ويتكئون على الأرائك ، ويشمون رياحين الأنس والجنة ، يقيمون في مجال الزلفة ، ويسقون شراب المحبة .

---

(١) السلسلة الصحيحة (٥ / ٢) .

(٢) صحيح : أخرجه أبو نعيم في الحلية ، وعزاه السيوطي في « الجامع » للحكيم الترمذي فقط ، ورواه الذهبي في تذكرة الحفاظ من طريق أبي نعيم وقال : حديث غريب جدًّا ، وإسناده صالح. وقال الألباني: إسناده جيد، انظر السلسلة الصحيحة (٥/٧) الحديث رقم ٢٠٠١.

(٣) روضة المحبين (ص٤٤٣) .

نعم الثواب ثوابهم ، نعم الرب ربهم ، نعم الدار دارهم ، نعم الجار جارهم ؛ نعم الحال حالهم .

○ الصديق الأكبر رضي الله عنه ○

قال صاحب الاستيعاب : وسمي الصديق لبداره إلى تصديق رسول الله ﷺ في كل ما جاء به[1] .

أنا مولايَ إمامٌ ضحكتْ　　من ثنايا فضله آيُ الزمرْ

وقال أبو محجن الثقفي :

وسُمّيت صِدِّيقًا وكلُّ مهاجر　　سواك يُسمى باسمه غير منكرِ

وكان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يحلف بالله أن الله عز وجل أنزل اسم أبي بكر من السماء « الصديق » .

وقال علي في رثائه لأبي بكر : صدّقت رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس ، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، سمّاك الله في تنزيله صديقًا فقال : ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدّق به** ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ ليلة أسري به لجبريل : « إن قومي لا يصدّقوني ، فقال له جبريل : يصدقك أبو بكر ، وهو الصديق »[2] .

﴿ **ثاني اثنين** ﴾ : قال الزجاج : نصره الله أحد اثنين ؛ أي نصره منفردًا إلا من أبي بكر . وهذا معنى قول الشعبي : عاتب الله أهل الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر[3] .

أقسم بالله يمينًا صادقًا　　لو فاضلَ الأملاكَ بالصدق فضَلْ

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٢ / ٢٣٥ - ٢٣٧) .

(٢) التبصرة (١ / ٣٣٨ - ٤٠٢) .

(٣) التبصرة (١ / ٣٩٦) .

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن إسحق :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد أَذِن لي في الخروج والهجرة » قالت عائشة : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ؟ قال : « الصحبة » قالت : فوالله ما شعرت قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي .

وقال ابن كثير :

روى أبو القاسم البغوي عن ابن أبي مليكة أن النبي ﷺ لمّا خرج هو وأبو بكر إلى ثور ، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبي ﷺ عن ذلك ، فقال : إذا كنت خلفك خشيت أَنْ تُؤتَى من أمامك ، وإذا كنتُ أمامك خشيت أن تُؤتى من خلفك ، حتى إذا انتهى لغار من ثور . قال أبو بكر : كما أنت حتى أُدخِل يدي فأحسه وأقصه ؛ فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك .

قال نافع : فبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر ؛ تخوفًا أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذي رسول الله ﷺ .

وهذا مرسل ، وقد ذكرنا له شواهد أُخر في سيرة الصديق - رضي الله عنه - .

يقول ابن القيم :

هذا وأمة أحمد سبّاق با ... قي الخلق عند دخولهم بجنانِ

وأحقهم بالسبق أسبقهم إلى الـ ... إسـلام والتـصديق بالقـرآنِ

وكذا أبو بكر هو الصديق أسْـ ... ـبقهمْ دخولًا قولَ ذي برهانِ[1]

لمّا وفى الصدّيق حُلى الإيمان فيدعى يوم القيامة من كل أبواب الجنان .

قال ابن القيم عن أبواب الجنة :

ولسوفَ يُدعى المرءُ من أبوابها ... جَمْعًا إذا وفّى حُلَى الإيمانِ

منهم أبو بكر هو الصدّيق ذا ... ك خليفة المبعوث بالقرآنِ

---

(١) النونية لابن القيم (٢ / ٣٥٠) .

ولكل نوع من الأعمال الصالحة باب من أبواب الجنة ، يدخل منه أهله المبرزون فيه ، وقد يدعى المرء من الأبواب كلها إذا وفّى جميع شعب الإيمان ، ومن هؤلاء صديق هذه الأمة ، وأفضل الناس جميعًا بعد النبيين أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ . فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله ؛ دُعي من أبواب الجنة : يا عبد الله ، هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريّان ، ومنْ كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة » قال أبو بكر : هل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[1] .

يقول علي بن أبي طالب في رثاء الصديق : آسيتَه حين بخلوا ، وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم ، فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها ، فلهذا جلبت نفقته عليه « ما نفعني مال ، ما نفعني مال أبي بكر »[2] .

روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ماخلا أبا بكر ، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة ، ما نفعني مال أحد قط ، ما نفعني مال أبي بكر » فبكى أبو بكر وقال : فهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله ؟ »[3] .

وقال ﷺ : « أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار »[4] .

لما طُبِعَ رسول الله ﷺ على أشرف الخلائق ، كان منها الكرم ، فأعطى غنمًا بين جبلين ، فلمّا سار في فيافي الجود تبعه صديقه فجاء بكل ماله ، فقال له : « ما أبقيت ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

تعب في المكاسب فنالها حلالًا ، ثم أنفقها حتى جعل في الكساء خِلالًا ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وأحمد في مسنده ، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .
(٢) الفوائد (٧٢) . (٣) التبصرة (٣٩٩/١). (٤) رجاله ثقات .

قال له الرسول أسلم ، فكان الجواب نَعَم ، بِلا لَا ، أما سمعت الفاروق يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا بلالًا .

أبو بكر حبا في الله مالا ... فأعتق في محبته بِلَالَا
وقد واسى النبيَّ بكل فضل ... وأسرع في إجابته بِلا لا
لو أن البحر يقصده ببعض ... لما ترك الإله به بِلَالَا[١]

كانت تحفة ﴿ ثاني اثنين ﴾ مدخرة للصديق دون الجميع .

قال ابن حجر : فَضْلُ أبي بكر الصديق ؛ لأنه انفرد بهذه المنقبة ، حيث صاحب رسول الله ﷺ في تلك السفرة ، ووقاه بنفسه[٢] .

فهو الثاني في الإسلام ، وفي بذل النفس ، وفي الزهد ، وفي الصحبة ، وفي الخلافة ، وفي العمر ، وفي سبب الموت ؛ لأن الرسول ﷺ مات من أثر السم ، وأبو بكر سُمَّ فمات . كان عُمْر الصديق يوم توفي ثلاثًا وستين سنة ، للسن الذي توفي رسول الله ﷺ قاله ابن القيم في الفوائد . وقد كان الصديق - رضي الله عنه - ثاني اثنين في العريش يوم بدر .

وقد جمع الله بينهما في التربة كما جمع بينهما في الحياة[٣] .

انظر إلى سر الاقتران ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ لفظًا وحكمًا ومعنى ، إذ يقال : رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فلما مات قيل : خليفة رسول الله ، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته ، فقيل : أمير المؤمنين[٤] .

فكانت المفخرة العظمى ما ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ : « إنّ أَمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقى في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر » .

نطقت بفضله الآيات والأخبار ، فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار ، كلما

---

(١) التبصرة (١ / ٤٠٤) .
(٢) الفتح (٧/ ١٢) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٨/٤).
(٤) الفوائد (٧٢) .

تُليت فضائله علا عليهم الغبار ، أترى لم يسمع الروافض الفجار ﴿ **ثاني اثنين إذْ هُما في الغار** ﴾ ؟

من كان قرين النبي في شبابه ؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه ؟ مَنْ ذا الذي أفتى بحضرته سريعًا في جوابه ؟ من أول مَنْ صلّى معه ؟ منْ آخر مَنْ صلّى به ؟ مَن الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه ؟

استوحش الصديق من خوف الحوادث ، فقال الرسول : ما ظنك باثنين والله الثالث .

والله ما أحببناه لهوانا ، ولا نعتقد في غيره هوانا ، ولكن أخذنا بقول عليّ وكفانا : رضيك رسول الله لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا[1] .

وانظر رحمك الله إلى تصديق الصديق – رضي الله عنه – للنبي ﷺ في المواطن التي يعز فيها تصديقه :

قال الحافظ في الفتح :

ومن حديث أبي الدرداء : « إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي » ؟ مرتين، فما أوذي بعدها[2] .

قال ابن كثير :

انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة فأصبح يخبر قريشًا بذلك ، فذكر أنه كذّبه أكثر الناس ، وارتدت طائفة بعد إسلامها ، وبادر الصديق إلى التصديق ، وقال : إني لأصدقه في خبر السماء بكرة وعشيا ، أفلا أصدقه في بيت المقدس[3] ؟!!.

قال ابن حجر :

روى البيهقي في الدلائل عن أبي سلمة قال : افتتن ناس كثير – يعني عقب الإسراء – فجاء ناس إلى أبي بكر ، فذكروا له ، فقال : أشهد إنه لصادق ،

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٨٤ – ٨٥ . طبع منشورات دار مكتبة الحياة .
(٢) فتح الباري (٧ / ٢٢) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ١٠٨ .

فقالوا : وتصدقه أنه أتى الشام في ليلة واحدة ، ثم رجع إلى مكة ؟! قال : نعم ، إني أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء . قال : فسمي بذلك الصديق .

أما يوم الحديبية فتجلى في صدق الصديق بأوضح صورة ، حتى إن كلماته لعمر هي نفس كلمات النبي ﷺ لعمر .

ففي حديث المسور ومروان : دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال : فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا . فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي » .. قال : ما أنا بمجيزه لك . قال ﷺ : « بلى فافعل » . قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بل قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا تَرَوْن ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت : ألست نبي الله حقًّا ؟ قال : « بلى » . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » . قلت : فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » . قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ » قال : قلت : لا . قال : « فإنك آتيه ومطوّف به » . قال : فأتيت أبا بكرٍ ، فقلت : يا أبا بكر ، أليس هذا نبي الله حقًّا ؟ قال : بلى . قال : قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ﷺ ، ليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه[1]، فوالله إنه لعلى الحق . قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي

(١) فاستمسك بغرزه : أي اعتلق به ، وأمسكه ، واتبع قوله وفعله ، ولا تخالفه ، فاستعار له الغرز ، كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره (اللسان ٥ / ٣٢٣٩) .

البيت ونطوف به ؟ قال : بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتيه ، ومطوف به . قال عمر : فعملت لذلك أعمالًا(١) .

وعند أحمد : ما زلت أصومُ وأتصدق وأعتق من الذي صنعت ؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكوَن خيرًا .

وعند أحمد: أنه أتى أبا بكر أولًا، فقال: يا أبا بكر ، أو ليس برسول الله ﷺ ، أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الذلة في ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه حيث كان ، فإني أشهد أنه رسول الله .

ختام مسك :

ونختم بختام مسك من مواقف الصديق في قصة الإفك .

يقول سيد قطب :

وها هو ذا أبو بكر الصديق في وقاره وحساسيته وطيب نفسه ، يلذعه الألم وهو يُرمىٰ في عرضه ، في ابنته – زوج محمد – صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه ، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل ، لا يطلب دليلًا من خارجه .. وإذا الألم يفيض على لسانه ، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم ، فيقول : والله ما رمينا بهذا في الجاهلية ، أفنرضى به في الإسلام ؟! وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل . حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة : أجب عني رسول الله- ﷺ- قال في مرارة هامدة : والله ما أدري ما أقول لرسول الله- ﷺ-(٢).

وأنزل الله براءة عائشة – رضي الله عنها – فحلف الصديق ألَّا ينفع مسطح ابن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال . ونزل قول الله تعالى : ﴿ **ولا يأتلِ أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ [النور : ٢٢] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الشروط .. حديث الحديبية .

(٢) الظلال (٤ / ٢٤٩٨) .

قال ابن كثير :

نزلت في الصديق حين حلف ألَّا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه . شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطفُ الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينًا لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر - رضي الله عنه - وكان من المهاجرين في سبيل الله . وقد دَلَق دَلْقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق- رضي الله عنه- معروفًا بالمعروف ، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ أي : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفرُ لك ، وكما تصفح نصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا ، ثم رجَعَ إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا ، في مقابلة ما قال : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا ، فلهذا كان الصديق هو الصديق[1].

يقول سيد قطب :

وهنا نطلع على أفق عالٍ من آفاق النفوس الزكية ، التي تطهرت بنور الله أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه ، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحي : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ ؟ حتى يرتفع على الآلام ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة ، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله ، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق ، يقول : بلى ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، ويحلف : والله لا

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١) .

أنزعها منه أبدًا . ذلك في مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًّا مشرقًا بالنور[١] ..

○ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ○

وهذا الفاروق ، الذي تطيب المجالس بذكره ، يصدق فيه : أن من خاف الله أخاف الله منه كل شيء والجزاء من جنس العمل .

فقد كان يسمع القرآن فيغشى عليه فيحمل صريعا إلى منزله ، فيعاد أيامًا ، ليس به مرض إلا الخوف .

وقد بلغ من خوفه أن حفرت الدموع خطين أسودين في وجهه من كثرة بكائه .

وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال لعمر : « والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجِّك » .

وقال ﷺ : « إن الشيطان ليفرَقُ منك يا عمر »[٢] .

ويرحم الله حافظًا لما قال :

قد فرّ شيطانها لما رأى عمرًا ... إن الشياطين تخشى بأس مخزيها

وقال ﷺ : « من تواضع لله رفعه »[٣] .

انظر يا أخي إلى عمر وحاله عند فتحه لبيت المقدس .

قال ابن كثير :

عن أبي العالية قال : قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء ، على

---

(١) الظلال (٤ / ٢٥٠٥) .

(٢) صحيح على شرط مسلم : رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن حبان عن بريدة انظر صحيح الجامع (١٦٥٠) والسلسلة الصحيحة (١٦٠٩) .

(٣) صحيح : رواه أحمد وهو جزء من حديث عند مسلم ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة .

جمل أورق تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب ، وِطاؤه كساءٌ انبجاني ذو صوف هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبة نمرة أو شملة محشوة ليفًا ، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرّق جنبه . فقال : ادعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلومس ، فقال : اغسلوا قميصي وخيّطوه وأعيروني ثوبًا أو قميصًا . فأتي بقميص كتان فقال : ما هذا ؟ قالوا : كتان . قال : وما الكتّان ؟ فأخبروه . فنزع قميصه فغسل ورقع وأتي به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه . فقال له الجلومس : أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئًا غير هذا ، وركبت برذونا لكان ذلك أعظم في أعين الروم . فقال : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب بغير الله بديلًا . فأتي ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه بها فقال : احبسوا احبسوا ، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ، فأتي بجمله فركبه .

ولله در حافظ إبراهيم حين يقول في عمريته :

يا منْ صدفتَ عن الدنيا وزينتها ... فلمْ يغرك من دنياك مُغْرِيها
ماذا رأيت بباب الشام حين رأوْا ... أن يُلبسوك من الأثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه ... خيلٌ مطهَّمة تحلو مرائيها
مشى فهملج مختالًا براكبه ... وفي البراذين ما تزهى بعاليها
فصحت: يا قوم، كادِ الزهو يقتلني ... وداخلتني حَالٌ لستُ أدريها
وكادَ يصبو إلى دنياكم عمرٌ ... ويرتضي بيع باقيها بفانيها
ردوا ركابي فلا أبغي به بدلًا ... ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها

وعن طارق بن شهاب قال : لما قدم عمر الشامَ عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ، ونزع موقيه فأمسكهما بيد ، وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا . قال : فصك في صدره . وقال :أو لوغيرك يقولها يأ با عبيدة ، إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس وأقلَّ الناس ، فأعزكم لله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العز

بغيره يذلكم الله[١] .

رضي الله عنك يا بن الخطاب .. لما قدم الشام تلقاه أبو عبيدة ورءوس الأمراء ، فترجّل أبو عبيدة وترجّل عمر ، فأشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر ، فهمّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة ، فكف أبو عبيدة فكفّ عمر[٢] .

قال ابن كثير : عن عمر لما فتح بيت المقدس :

ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه ، ونقل المسلمون معه في ذلك . وسخر أهل الأردن في نقل بقيتها ، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة ؛ لأنها قبلة اليهود ، حتى إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها من داخل الحوز لتلقى في الصخرة ، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القمامة ، وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب ، فجعلوا يلقون على قبره القمامة .

وقد كان هرقل حين جاءه الكتاب النبوي ، وهو بإيلياء وعظ النصارى فيما كانوا قد بالغوا في إلقاء الكناسة على الصخرة ، حتى وصلت إلى محراب داود ، قال لهم : إنكم لخليق أن تقتلوا على هذه الكناسة مما امتهنتم هذا المسجد ، كما قتلت بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا ، ثم أمروا بإزالتها فشرعوا في ذلك ، فما أزالوا ثلثها حتى فتحها المسلمون ، فأزالها عمر بن الخطاب[٣] .

اتخذ النصارى مكان قبلة اليهود مزبلة ، في مقابلة ما صنعوا في قديم الزمان وحديثه . فيأتي الفاروق ، ويزيل ما على الصخرة من كناسة ، ويكنسها بردائه .

وانظر الأعاجيب في تواضع عمر :

قال طلحة بن عبد الله : خرج عمر ليلة في سواد الليل فدخل بيتًا ،

(١) البداية والنهاية (٤ / ٦١) .
(٢) السابق (٤ / ٥٧) .
(٣) البداية والنهاية (٤ / ٥٧) .

فلما أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت ، فإذا عجوز عمياء مقعدة ، فقلت لها : ما بال هذا الرجل يأتيكي ؟ فقالت : إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ، ويخرج عني الأذى . فقلت لنفسي : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبع[(١)]؟ .

فكيف كان جزاء تواضعه النبيل :

عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب »[(٢)] .

وعن عبد الله بن حنطب قال : قال رسول الله ﷺ : « هذان السمع والبصر » يعني : أبا بكر وعمر[(٣)] .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أبو بكر وعمر من هذا الدين ، كمنزلة السمع والبصر من الرأس »[(٤)] .

أي رفعة بعد هذه الرفعة ، لمّا تواضعا لله والجزاء عند الله من جنس العمل .

بل صح عن رسولنا ﷺ أنه قال :«هذان سيِّدَا كهول أهل الجنة ؛ من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما يا علي » يعني : أبا بكر وعمر[(٥)] .

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ١٣٩ - ١٤٠) .

(٢) حسن : رواه أحمد والترمذي والحاكم عن عقبة ، والطبراني في الكبير عن عصمة بن مالك ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٦٠ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٢٧ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والحاكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٨٨١ .

(٤) حسن : أخرجه الطبراني والخطيب في تاريخ بغداد ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٨١٥ .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أنس وعلي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٢٢ .

وانظر إلى قصته مع الهرمزان بعد هزيمة الفرس .

أتى وفد المسلمين وفيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان ومعهم الخُمس من الغنائم ، فدخلوا المدينة ، فتيمموا منزل أمير المؤمنين عمر فلم يروا أحدًا فرجعوا ، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا : إنه نائم في المسجد متوسدًا برنسًا له ، فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنسًا له كان قد لبسه للوفد ، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس في المسجد غيره ، والدرة معلقة في يده . فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا . وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه ، وجعل الهرمزان يقول : وأين حجّابه ؟ أين حرسه ؟ فقالوا : ليس له حجاب ولا حرس ، ولا كاتب ولا ديوان . فقال : ينبغي أن يكون نبيًّا . فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء[1] .

يقول حافظ إبراهيم :

وراعَ صاحبَ كسرى أنْ رأى عمرًا	بين الرعية عطْلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أنَّ لها	سورًا من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقًا في نومه فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملًا	ببردة كاد طول العهد يبليها
فهانَ في عينه ما كان يُكْبِره	من الأكاسرِ والدنيا بأيديهـا
وقال قولة حق أصبحت مثلًا	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أَمِنْتَ لما أقمت العدل بينهمُ	فنمتَ نومَ قرير العين هانيها

والجزاء من جنس العمل .

وهو القائل - رضي الله عنه - أيها الناس ، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم ، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوْا أمر دنياكم .

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ٨٩) .

○ ذو النورين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ○

عن سعيد بن العاص أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثا أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ ، وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة ، فأذن لأبي بكر وهو كذلك ، فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على ذلك الحال ، فقضى إليه حاجته ثم انصرف . قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس ، وقال لعائشة : « اجمعي عليك ثيابك » . فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن عثمان رجل حيي ، وإني خشيت إنْ أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إليّ في حاجته » .

وقال ليث : وقال جماعة من الناس : إن رسول الله ﷺ قال لعائشة : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة »[1] .

وعن حفصة بنت عمر - رضي الله عنها - قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ ذات يوم ، فوضع ثوبه بين فخذيه ، فجاء أبو بكر يستأذن فأذن له ورسول الله على هيئته ، ثم جاء عمر يستأذن فأذن له ، ورسول الله على هيئته ، وجاء ناس من أصحابه فأذن لهم ، وجاء علي يستأذن فأذن له ، ورسول الله على هيئته ، ثم جاء عثمان بن عفان فأستأذن فتجلل ثوبه ثم أذن له . فتحدثوا ساعة ثم خرجوا ، فقلت : يا رسول الله ، دخل عليك أبو بكر وعمر وعلي وناس من أصحابك وأنت في هيئتك لم تحرّك ، فلما دخل عثمان تجللّت ثوبك ؟ قال : « ألا أستحيي ممن تستحي منه الملائكة »[2] .

---

(١) إسناده صحيح : رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة رقم ٧٩٣ ، ٧٤٧ ; والحديث في مسلم من طريق ليث ، مثله .

(٢) إسناده صحيح : ورواه أحمد في فضائل الصحابة المجلد الثاني حديث رقم ٧٤٨ ،=

قال عثمان – رضي الله عنه – : ما من عامل يعمل عملًا إلّا كساه الله رداء عمله .

وقال يحيى بن معاذ : من استحيى من الله مطيعًا ، استحيى الله منه وهو مذنب .

وقال ﷺ : « عثمان حيي تستحي منه الملائكة »[١] .

قال المناوي في فيض القدير (٤ / ٣٠٢) :

مقام عثمان مقام الحياء ، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده ويعظم قدره ، مع نقص يجده في النفس ، فكأنه غلب عليه إجلال الحق تعالى ، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير ، وهما من جليل خصال العباد المقربين ، فعلت رتبة عثمان كذلك ، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه ، كما أن من أحب الله أحب أولياءه ، ومن خاف الله خاف منه كل شيء .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « عثمان أحيى أمتي »[٢] .

أكثرها حياءً والحياء منشأ الآداب ، قيل : لم يضع يمينه على فرجه منذ بايع النبي ﷺ ، قيل :

فلا وأبيك ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاءُ

وقال آخر :

إني كأني أرى مَنْ لا حياءَ له ... ولا أمانةَ وسط القوم عريانًا

= وهو في المسند مثله سندا ومتنًا ، وله شاهدٌ من حديث عائشة أخرجه مسلم وأحمد .

(١) صحيح : رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ، وصحح الحديث الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٨٧٣ .

(٢) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٨٧٢ .

○ علي بن أبي طالب ○

كيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية اجتماع شياطين قريش في دار الندوة في يوم الزحمة ، وحكى ما كان بينهم وبين إبليس الذي تبدّى لهم في صورة الشيخ النجدي ، واستقر رأيهم على ما قاله أبو جهل بن هشام.

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتًى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا ، ثم نعطي كل فتًى منهم سيفًا صارمًا ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم .

فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له . فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : « نَمْ على فراشي ، وتسبَّج ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » . وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذ ينام .

ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآيات : ﴿ **يس . والقرآن الحكيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ [يس : ١ - ٩] . ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمدًا . قال خيّبكم الله ، قد والله ، خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، وانطلق لحاجته ،

أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يدًا على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون ، فيرون عليًّا على الفراش متسجيًا ببرد رسول الله ﷺ فيقولون : والله ، إن هذا لمحمدٌ نائمًا على برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي عن الفراش ، فقالوا : والله ، لقد صدقنا الذي كان حدثنا .

حمى المغوار حيدرة[1] الدعوة في شخص نبيها ﷺ ونام في فراشه في أصعب ليلة مرّت بها الدعوة ، رجل ينام في الفراش وهو يعلم أن على الباب رجالًا لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش ، فلما قلق به الفراش ليلة من أجل نبيه ، أسعد الله فراشه بفاطمة بنت نبيه ﷺ التي تجلببت في جلباب كمالها . وأعطاه الرسول ﷺ الأهل والمرحب ، وأصدقه درعه الحُطَمِيّة ، فأهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم حشوها ليف ، وقربة ومنخل وقدح ورحًى وجرابان . ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش يناماه عليه بالليل وتعْلف عليه الناضح بالنهار ، وكانت هي خادمة نفسها .

تالله ، ما ضرها ذلك .

وفي الصحيحين . أن رسول الله ﷺ قال لها : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين » .

وفي الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال : « فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني » .

عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة ؛ علي وعمّار وسلمان »[2] . ونعم الجزاء ..

---

(١) هو اسم علي بن أبي طالب قال :

أنا الذي سمتني أمي حيدره ... كليث غابات كريه المنظره

وحيدرة هو : الأسد .

(٢) حسن : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٤ .

عليّ بن أبي طلب لما بكت الدنيا عليه ، اشتاقت وضحكت الآخرة إليه .
كان يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب[١] .
هذا الذي كان يقف وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وهو يقول : يا دنيا أبي تعرّضت ؟! أم بي تشوّفت ؟! هيهات غرّي غيري ، قد بتتك ثلاثًا لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشكِ حقير ، وخطركِ كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ووحشة الطريق .
رضي الله عن علي فقد حمى الدعوة أيما حماية .
ففي الصحيح من مناقب علي : قال الحسن بن علي : يأيها الناس ، لقد فارقكم أمسِ رجلٌ ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون ، لقد كان رسول الله ﷺ يبعثه البعث فيعطيه الراية ، فما يرجع حتى يفتح الله عليه ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره - يعني عليًّا - رضي الله عنه - ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادمًا[٢] .
وقال رسول الله ﷺ في قتال علي للخوارج : « إنَّ منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله » فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر - فقال : « لا ، ولكنه خاصف النعل » . يعني عليًّا رضي الله عنه[٣] .
وهو الذي قاتل الخوارج وقتلوه ، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « طوبى لمن قتلهم وقتلوه »[٤] .

---

(١) ما غلظ .
(٢) صحيح : أخرجه ابن حبان وأحمد والبزار والطبراني في الكبير ، والنسائي في الخصائص ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٩٦ .
(٣) صحيح : رواه أبو سعيد الخدري ، وأخرجه النسائي في خصائص علي ، وابن حبان والحاكم وأحمد وأبو يعلى ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٨٧ .
(٤) إسناده حسن : رواه ابن أبي عاصم في السنة عن عبد الله بن أبي أوفى وأخرجه أحمد.

« لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود »(١) .

« الخوارج كلاب النار »(٢) .

« لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قُضِي لهم على لسان نبيهم لاتكلوا عن العمل »(٣) .

« إن في قتلهم أجرًا عظيمًا عند الله لمن قتلهم »(٤) .

وفي ليلة خيبر قال رسول الله ﷺ : « لأعطين الراية غدًا رجلًا يحبه الله ورسوله »(٥) . فأعطاها لعلي ، وقتل عليّ مرحب فارس خيبر .

فرضي الله عمن قال له النبي ﷺ :« ألا يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ »(٦) .

وكان أخًا لنبي الهدى ... وخُصّ بذاك فلا يُكْذَبِ
وفي ليلة الغار وافى النبيَ ... عشاءً إلى الفلق الأشهبِ
وباتَ دُوَيْنَهُ في الفراش ... مُوَطِّنَ نفسٍ على الأصعبِ
وعمرو بن وُدّ وأحزابه ... سقاهم حِسا الموت في يثربِ
وسل عنه خيبر ذات الحصونِ ... تُخَبِّرْكَ عنه وعَنْ مَرْحَبِ
وسِبْطاهُ جدهما أحمدٌ ... فَبَخْ بَخْ(٧) بجدهما والأَبِ

لطيفة :

في قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا** ﴾ [الإنسان : ٨]

---

(١) صحيح . وقد ورد في الصحيح أيضًا « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » .

(٢) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن أبي أوفى ، وأحمد والحاكم عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٣) صحيح : أخرجه النسائي في خصائص علي ، ورواه عبد الله بن أحمد في السنة .

(٤) صحيح : أخرجه ابن ماجة وأحمد والترمذي عن ابن مسعود .

(٥) صحيح : أخرجه مسلم عن سعد وأبي هريرة ، والترمذي ، والطبراني .

(٦) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص، والترمذي، وأحمد وأبو يعلى، والبزار والطبراني .

(٧) كلمة تقال عند الإعجاب والفخر .

على قول من قال : إنها نزلت في علي وفاطمة[١] .

قال ابن الجوزي :

وعجبًا ذكر في هذه الآيات نعيم الجنات من الملبوس والمشروبات والمطعومات ، والأرائك والقصور والعيون الجاريات ، ولم يذكر النساء وهُنّ غاية اللذات ، احتراما لفاطمة أشرف البنات ، ومَنْ يصف فاطمة الزهراء لا يذكر حورًا ﴿ إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا ﴾[٢] [الإنسان : ٢٢] .

قال الألوسي في روح المعاني :

ومن اللطائف على القول بنزولها فيهم أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين ، وإنما صرّح عز وجل بولدان مخلدين ، رعاية لحرمة البتول ، وقرة عين الرسول[٣] ﷺ .

إلَامَ أُلامُ وحتّى متى ... أعاقب في حب هذا الفتى

وهل زُوّجت غيره فاطم ... وفي غيره هلْ أتى هلْ أتى

○ جعفر الطيّار ○

لجعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – قصة يظهر فيها بوضوح كيف أن الجزاء من جنس العمل .

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال ﷺ : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » .

فمضوا إلى أرض البلقاء من أرض الشام حتى نزلوا معانا من أرض الشام، وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة.

ثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان ، من حملة القرآن ، أمام عبدة الصلبان ، عليهم لعائن الرحمن ، في ذلك الزمان ، وفي كل أوان .

فالتقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى

---

(١) حكم بالوضع الترمذي وابن الجوزي وأطال في إبطالها القرطبي ورد متعقبًا الألوسي وغيره .

(٢) التبصرة ١ / ٤٥٤ . (٣) الألوسي ٢٩/٣٠ ص١٥٧، ١٥٨.

شاط في رماح القوم ، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قتل .

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ؛ فكان جعفر أول المسلمين عَقَرَ في الإسلام[1] ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إنْ لاقيتها ضرابها

قال ابن هشام :

وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفرًا أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء .

روى البخاري عن عبد الله بن عمر : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا في جسده بضعًا وتسعين من ضربة ورمية . تفرّد به البخاري .

ومن أفراد البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر بن أبي طالب يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره[2].

مما يشهد لكون الجزاء من جنس العمل ، ويشهد أيضًا لما ذكره ابن هشام من قطع يمينه وهي ممسكة اللواء ثم شماله – ما رواه البخاري عن عامر قال : كان

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣ / ٢٤٤) استدل من جواز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو ، كما يقول أبو حنيفة في الأغنام إذا لم تتبع في السير ويخشى من لحوق العدو وانتفاعهم بها أنها تذبح وتحرق ليحال بينهم والله أعلم .
قال السهيلي : ولم ينكر : أحد على جعفر فدل على جوازه إلا إذا أمن أخذ العدو له ، ولا يدخل في ذلك في النهي عن قتل الحيوان عبثًا .

(٢) وجه الجمع بين هذه الرواية والتي قبلها أن ابن عمر اطلع على هذا العدد ، وغيره اطلع على أكثر من ذلك ، وأن هذه في قبله أصيبها قبل أن يقتل ، فلما صرع إلى الأرض ضربوه أيضًا ضربات في ظهره ، فعد ابن عمر ما كان في قبله وهو في وجوه الأعداء قبل أن يقتل رضي الله عنه .

ابن عمر إذا حيّى ابن جعفر قال : السلام عليك يابن ذي الجناحين .

قال ابن كثير :

لأن الله تعالى عوّضه عن يديه بجناحيه في الجنة(١) .

عن ابن عباس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكىء على سريره»(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر ابن أبي طالب مَلَكًا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين »(٣) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جعفر بن أبي طالب مَلَكًا في الجنة ، مضرجة قوادمه بالدماء ، يطير في الجنة »(٤) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مرَّ بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة ، وهو مخضّب الجناحين بالدم ، أبيض الفؤاد »(٥) .

وقال عبد الله بن جعفر قال لي رسول الله ﷺ : « هنيئًا لك !! أبوك يطير مع الملائكة في السماء »(٦) .

وعن ابن عباس مرفوعًا : « إن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل ، له جناحان عوّضه الله من يديه »(٧).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٥٦) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك وابن عدي عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٥٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٢٢٦ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٥٩ .

(٤) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه ، وكذلك هو في الاستيعاب ، وقال الحافظ في الفتح أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس ، وإسناده جيد .

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم .

(٦) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : أخرجه الطبراني بإسناد حسن .

(٧) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : وإسناد هذه جيد .

والجزاء من جنس العمل .

يقول حسان يبكي جعفرًا :

فلا يبعدنَّ الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهمْ ذو الجناحين جعفرُ
وزيدٌ وعبد الله حين تتابعوا ... جميعًا وأسباب المنية تخطرُ
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهمْ ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهرُ
أغرّ كضوء البدرِ من آل هاشمٍ ... أبيٌّ إذا سيم الظلامة مجسرُ
فطاعنَ حتّى مال غير موسّدٍ ... بمعتركٍ فيه القنا متكسِّرُ
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملتف الحدائق أخضرُ
وكنا نرى في جعفرٍ من محمد ... وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمرُ
وما زال في الإسلام من آل هاشمٍ ... دعائم عزّ لا يزلن ومفخرُ

○ زيد بن حارثة ○

الأمير الشهيد النبوي المسمى في سورة الأحزاب ، أبو أسامة المحمدي ، سيد الموالي وأسبقهم إلى الإسلام ، وحب رسول الله ﷺ وأبو حِبّه ، وما أحب رسول الله ﷺ إلا طيبًا ، ولم يسم الله تعالى في كتابه صحابيًّا باسمه إلا زيد بن حارثة .

مَنْ ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه ، ومن آثر رسول الله ﷺ على أمه وأبيه ، آثره الله وذكر اسمه فَحُقّ له أن يفتخر ويتيه .

فيا صاحبي قف بي مع الحق وقفةً ... أموت بها وجدًا وأحيا بها وجدًا
وقُلْ لملوكِ الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يُهدىٰ

سُبِيَ وهو غلام صغير نحو الثامنة من عمره ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة تبتغي زيارة قومها بني مَعْن ، وكانت تصحب معها غلامها زيد بن حارثة ، فما كادت تحل في ديار قومها حتى أغارت عليهم خيل لبني الْقَيْن فأخذوا المال ، واستاقوا الإبل ، وسبوا الذراري وكان في جملتهم زيد ، وبيع في سوق عكاظ ، واشتراه حكيم بن حزام ، وأهداه لعمته خديجة ، وأهدته - رضي الله عنها - لرسول الله ﷺ وكان أبوه يتحراه في كل أرض ، ويسأل عنه كل ركب ، ويصوغ حنينه إليه شعرا حزينًا تتفطر له الأكباد حيث يقول :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فعلْ ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل؟
فوالله ما أدري، وإني لسائلٌ ... أغالَكَ بعدي السهلُ أم غالك الجبلْ؟
تذكرنيه الشمسُ عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفلْ
سأعمل نصّ العيسِ في الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التَّطوافَ أو تسأم الإبلْ
حياتي أو تأتي عليّ منيتي ... فكل امرئٍ فانٍ وإن غرّه الأجلْ

ولمّا علم أهله بعد طول بحث أنه عند محمد بن عبد الله - ﷺ - أتوْه وقالوا: هذا ابننا فردّه علينا. فقال: « أعرض عليه، فإن اختاركم فخذوا بيده ». فبعث إلى زيد وقال: « هل تعرف هؤلاء ؟ ». قال: نعم. هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمي، فقال له النبي ﷺ: « فأي صاحب كنت لك ؟ ». فبكى وقال: لم سألتني عن ذلك ؟. قال: « أخيرك، فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق، وإنْ أردت أن تقيم فأنا مَنْ قد عرفت » فقال: ما أختار عليك أحدًا. فقال له أبوه: ويحك يا زيد !! أتختار العبودية على أبيك وعمك. فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئًا، وما أنا بالذي يفارقه أبدًا. إي والله، العبودية عند محمدٍ أحب إليّ من أن أكون عندكم.

فخرج به الرسول ﷺ إلى الحِجْر على ملأٍ من قريش وقال: « يا معشر قريش، اشهدوا أن هذا ابني يرثني وأرثه». فكان يُدعى زيد بن محمد، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أول من آمن به، وهل فوق هذه الأولية أوليّة يتنافس فيها المتنافسون.

وبعد البعثة أيضًا أراد أخوه منه أن يلحق بأهله فأبى.

قال جبلة بن حارثة: قدمت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ابعث معي أخي زيدًا، قال: « هو ذا، فإنِ انطلق لم أمنعه » فقال زيد: لا والله، لا أختار عليك أحدًا أبدًا، قال: فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي[1].

عن سالم عن أبيه قال: ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد،

---

(١) أخرجه الترمذي عن جبلة بن حارثة وحسنه، وأخرجه الحاكم (٣/٢١٤) وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ في الإصابة في ترجمة جبلة بن الحارث، وزاد نسبته إلى أبي يعلى انظر سير أعلام النبلاء (١ / ٢٥).

فنزلت : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ [الأحزاب : ٥][1] .

ويلوح الجزاء من جنس العمل ، وإن زاد زيادة تقوم لها الدنيا ، فلما أحب زيد النبي ﷺ ، وآثره على أمه وأبيه ، فقد أحبه الرسول الكريم ﷺ ، وخلطه بأهله وبنيه ، وكان أحبَّ الناس إليه ، عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « يا زيد ، أنت مولاي ومني وإليّ وأحبّ القوم إليّ »[2].

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أمّر أسامة على قوم ، فطعن الناس في إمارته ، فقال : « إن تطعنوا في إمارته ، فقد طعنتم في إمارة أبيه ، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة ، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ ، وإنّ ابنه هذا لأحبّ الناس إليّ بعده »[3] .

وفيه عن سالم عن ابن عمر: «وإن كان [لأحب الناس كلهم إليّ] قال سالم : ما سمعت أبي يحدث بهذا الحديث قط إلّا قال : والله ما حاشا فاطمة[4].

وعن عائشة قالت : ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا في جيش قط إلا أمّره عليهم ، ولو بقي بعده استخلفه[5] .

قال ابن عمر : فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي ، فكلمته في ذلك فقال : إنه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك ، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك[6] .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والبيهقي .

(٢) أخرجه أحمد وابن سعد ورجاله ثقات ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الحافظ في الإصابة (٤ / ٥٠) .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي .

(٤) رجاله ثقات .

(٥) أحمد وابن سعد في الطبقات وابن أبي شيبة والنسائي بإسناد حسن . وقال ابن كثير : إسناده جيد . قوي على شرط الصحيح (٣ / ٢٥٤) من البداية .

(٦) ذكره الحافظ في الإصابة وقال : صحيح .

قال القرطبي[١]:

قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي - رضي الله عنه - كان يقال: زيد بن محمد حتى نزل: ﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾ فقال: أنا زيد بن حارثة - وحُرِّم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد، فلما نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعُلِمَ وحشته من ذلك؛ شرفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحدًا من أصحاب النبي ﷺ وهي أنه سمّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿ **فلما قضى زيدٌ منها وطرًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يعني: من زينب، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم، حتى صار قرآنا يتلى في المحاريب، نوّه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له، وعِوَضٌ من الفخر بأبوّة محمد ﷺ له، ألا ترى إلى قول أبيّ بن كعب حين قال له النبي ﷺ: « إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا ». فبكى وقال: أوَ ذُكرتُ هنالك؟، وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره: فكيف بمن صار اسمه قرآنا يُتلَى مُخلدًا لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن وأهل الجنة كذلك أبدًا، لا يزال على ألسنة المؤمنين كما لم يزل مذكورًا على الخصوص عند رب العالمين، إذِ القرآن كلام الله القديم وهو باقٍ لا يبيد، فاسم زيد في الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السفرة الكرام البررة، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضًا من الله تعالى له مما نزع عنه. وزاد في الآية أنه قال: ﴿ **وإذ تقول للذي أنعم الله عليه** ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي بالإيمان فدل على أنه من أهل الجنة، علم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى عن بريدة أن رسول الله ﷺ، قال: « دخلتُ الجنة فاستقبلتني جارية شابة فقلت: لمن أنت؟ قالت: أنا لزيد بن حارثة »[٢].

---

(١) تفسير القرطبي (٨ / ٢٧٦).

(٢) إسناده حسن: ذكره صاحب الكنز، ونسبه إلى الروياني والضياء في المختارة، وابن عساكر، وقال الذهبي: إسناده حسن، انظر سير أعلام النبلاء (١ / ٢٣٠).

○ مناقب الأنصار ○

الإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا ، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرًا ، وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديمًا وحديثًا .

الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ حين طردته القبائل وحاربه قومه ، آووه وبايعوه حين كان يأتي الناس يدعوهم إلى الله ، فتقول القبائل : احذر غلام قريش ، لا يفتنك ، فقالت الأنصار : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟ قال رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية للأنصار : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني ، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » يقول جابر : فقمنا إليه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة فقال : رويدًا يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وتعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله قالوا : أبط عنا يا سعد ، فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدًا .

وفي رواية أخرى :

قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء ابن معرور بيده وقال : نعم ! فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعْنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، ورثناها كابرًا عن كابر . فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهان، فقال: يارسول الله ،

إن بيننا وبين الرجال حبالًا ، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم » .

وفي رواية أخرى :

قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف .

أخرج البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ دعا الأنصار أن يُقطِع لهم البحرين . فقالوا : لا ، إلّا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقوني ؛ فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»[1] .

يقول ابن القيم : الأنصار هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله : ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ [الحشر : ٩] .

فتأمل سر التقدير ، حيث قدر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس على الأنصار بالدنيا - وهم أهل الإيثار - ليجازيهم على إيثارهم إخوانَهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس . فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ، ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[2] .

---

(١) البخاري - كتاب مناقب الأنصار .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣) .

وكان جزاؤهم في الدنيا عند رسول الله ﷺ من جنس عملهم . فإنه بعد فتح مكة رجع رسول الله ﷺ مع الأنصار إلى المدينة ، قال ﷺ للأنصار : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو أن الناس سلكوا واديًا أو شِعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم » . فعلا نحيب الأنصار وبكاؤهم ، وقالوا : رضينا برسول الله حظًّا ونصيبًا ، يقول رسول الله ﷺ : « أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا؛ لسلكت وادي الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار[١]، والناس دثار[٢]، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا ، حتى تلقوني على الحوض »[٣].

وقال ﷺ : « لكل نبي تركة وضيعة[٤]، وإن تركتي وضيعتي الأنصار ، فاحفظوني فيهم »[٥] .

وقال ﷺ : « الأنصار كرشي وعيبتي[٦] ... »[٧] .

والجزاء من جنس العمل .

○ أبو أيوب الأنصاري ○

السيد الكبير خالد بن زيد الخزرجي النجاري البدري، الذي خصّه رسول الله ﷺ بالنزول في بيته إلى أن بُنيت له حجرة أم المؤمنين سودة وبُني المسجد الشريف ، وكان نزوله ﷺ في بيت أبي أيوب منقبة عظيمة لأبي أيوب خاصَّة ولبني النجار عامة .

---

(١) ما كان على الجسد من الثياب .
(٢) اللباس الذي يكون على الثياب .
(٣) رواه البخاري وأحمد .
(٤) العيال .
(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائيّ عن أنس ، والنسائي عن أسيد بن حضير .
(٦) بطانته وموضع سره .
(٧) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد .

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير » . وقد رفع الله في الخافقين ذكره ، وأعلى في الأنام قدره ، حين اختار بيته دون بيوت المسلمين جميعًا ؛ لينزل فيه النبي الكريم ﷺ لمّا حلّ في المدينة مهاجرًا وحسبه بذلك فخرًا .

ولنزول الرسول ﷺ في بيت أبي أيوب قصة يحلو ترདادها ، ويلذّ تكرارها،ذلك أن النبي ﷺ حين بلغ المدينة تلقته أفئدة أهلها بأكرم ما يُتلقى به وافد ، وتطلّعت إليه عيونهم تبثه شوق الحبيب إلى حبيبه ، وفتحوا له قلوبهم ليحلَّ منها في السويداء ، وأشرعوا له أبواب بيوتهم لينزل فيها أعزّ منزل ، وكانت الأنصار قد اجتمعوا فمشوا حول ناقته ، لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة ؛ شُحًّا على كرامة رسول الله ﷺ ، وتعظيمًا له ، وكُلّما مرّ بدار من دور الأنصار دَعَوْه إلى المنزل ، وكانوا يعترضون الناقة سيدًا إثر سيِّد :

عتبان بن مالك ، وعبّاس بن عبادة في رجال من بني سالم : يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدّة والمنعة، فقال ﷺ: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة».

فلما وازت دار بني بياضة : تلقّاه زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة ، فقالوا : يا رسول الله هَلُمّ إلى العدد والعُدّة والمنعة ، قال : « خلّوا سبيلها ، فإنها مأمورة » وكذا الأمر دار بني ساعدة وسيدهم سعد ابن عبادة ، ودار بني الحارث بن الخزرج وسيدهم سعد بن الربيع، ودار عدي ابن النجّار وسيدهم سليط بن قيس ... حتى أتت دار أبي أيوب فقال الرسول ﷺ : « دعوها ، فإنها مأمورة ، فإنما أنزلُ حيث أنزلني الله » . فلما انتهت إلى دار أبي أيوب بركت به على الباب .

قال ابن إسحٰق : لمّا بركت الناقة برسول الله ﷺ لم ينزل عنها حتى وثبت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ،

ثم التفتت خلفها ، فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تحلحلت ورزمت[1] ، ووضعت جرانها[2] ، فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب رحله فوضع في بيته[3] .

حمل رحل النبي ﷺ وكأنما يحمل كنوز الدنيا كلها .

وروى البيهقي عن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ نزل عليه ، فنزل في السفل ، وأبو أيوب في العلو ، فانتبه أبو أيوب فقال : نمشي فوق رسول الله ﷺ ، فتنحوْا فباتوا في جانب ، ثم قال للنبي ﷺ - يعني في ذلك - فقال : « السفل أرفق بنا » ، فقال : لا أعلو سقيفة أنت تحتها ، فتحول رسول الله ﷺ إلى العلو .

وانظر - رحمك الله - إلى أدب أبي أيوب ، وقوله : لرسول الله ﷺ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل .

أيكون رسول الله ﷺ أسفل ونحن أعلى منه ؛ أنمشي فوق رسول الله ﷺ ؟! أنصير بين النبي والوحي إنا إذًا لهالكون .

وانْحازا إلى جانب العِلِّيّة الذي لا يقع فوق رسول الله ﷺ ، والتزماه لا يبرحانه هو وزوجه ، إلا ماشييْن على الأطراف ، متباعدين عن الوسط ، فلما أصبح أبو أيوب قال للنبي ﷺ : والله ما أغمض لنا جفن في هذه الليلة . لا أنا ولا أم أيوب . فقال النبي ﷺ : « ومم ذاك يا أبا أيوب ؟ » . قال : ذكرت أني على ظهر بيت أنت تحته ، ثم إني غدوت بينك وبين الوحي .

وعن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل ، وكنت في

---

(١) أي بركت .

(٢) جرن البعير : برك ووضع أثقاله .

(٣) البداية والنهاية (٣ / ١٩٧) .

الغرفة ، فأهريق ماء في الغرفة ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا نتتبع الماء ، ونزلت فقلت : يا رسول الله ، لا ينبغي أن نكون فوقك ، انتقل إلى الغرفة ، فأمر بمتاعه فنُقل ، ومتاعه قليل . قلت : يا رسول الله : كنت ترسل بالطعام فأنظر ، فإذا رأيت أثر أصابعك وضعت فيه يدي[١] .

وعند ابن إسحٰق عن أبي أيوب : لقد انكسر حبٌّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه ، وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع أصابعه ، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة .

فهل كان جزاء أبي أيوب من جنس عمله ؟

عن حبيب بن أبي ثابت أن أبا أيوب قدم على ابن عباس البصرة ، ففرغ له بيته ، وقال : لأصنعن بك كما صنعت برسول الله ﷺ ، كم عليك ؟ قال : عشرون ألفًا . فأعطاه أربعين ألفًا وعشرين مملوكًا ومتاع البيت[٢] .

وعند ابن كثير : لما قدم أبو أيوب البصرة ، وكان ابن عباس نائبًا عليها من جهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فخرج له ابن عباس عن داره حتى أنزله فيها ، كما أنزل رسول الله ﷺ في داره ، وملّكه كل ما أغلق عليه بابها ، ولما أراد الانصراف أعطاه ابن عباس عشرين ألفًا وأربعين عبدًا[٣] .

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد والطبراني ، ونسبه الحافظ في الإصابة إلى أبي بكر بن أبي شيبة وابن أبي عاصم والحاكم ، وقال : حديث على شرط مسلم . وأقره الذهبي ، وأخرج مسلم نحوه .

(٢) الطبراني ورجاله ثقات ، والحاكم (٣ / ٤٦١ ، ٤٦٢) وصححه ، ووافقه الذهبي ، انظر تحقيق سير أعلام النبلاء (٢ / ٤١٠) ومجمع الزوائد وأسد الغابة .

(٣) البداية والنهاية (٣ / ٢٠٠ - ٢٠١) .

○ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ○

حمي الدبر[١]

هو جد عاصم بن عمر بن الخطاب . كان ممن أبلى وجالد يوم أحد .

وقد كان له مع سلافة بنت سعد شأن أي شأن ؛ فقد خرجت مشركة مع زوجها طلحة وأولادها الثلاثة: مسافع ، والجُلَّاس ، وكلاب إلى أحد ، وبعد أن اشتد وطيس الحرب رأتهم مُمَددين على سفوح أحد .

أمّا مسافع وكلاب ، فكانا قد فارقا الحياة ، وأما الجُلاس فوجدته وما تزال به بقية من دماء .

أكبّت سلافة على ابنها الذي يعالج سكرات الموت ، ووضعت رأسه في حجرها ، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه ، وقد يبس الدمع في عينيها من هول الكارثة ، ثم أقبلت عليه وهي تقول : من صرعك يا بني ؟ فهمّ أن يجيبها ، لكن حشرجة الموت منعته ، فألحت عليه بالسؤال ، فقال : صرعني عاصم بن ثابت ، وصرع أخي مسافعًا و ... ثم لفظ آخر أنفاسه .

جن جنون سلافة بنت سعد ، وجعلت تعول وتنشج ، وأقسمت باللات والعزّى ألا تهدأ لها لوعة ، أو ترقأ لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريش من عاصم ابن ثابت ، وأعطتها قحف رأسه لتشرب فيه الخمر[٢] .

قال أبو جعفر الطبري :

وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة ، وشاع خبر نذرها في قريش ، وجعل

---

(١) الدَّبر بالفتح : جماعة النحل والزنابير ، ولذلك كان يقال : حمي الدبر ، وكأن ذلك صار مثلًا .

(٢) صورة من حياة الصحابة ٢٢ - ٢٦ .

كل فتى من فتيان مكة يتمنى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت وقدّم رأسه لسلافة ، حتى كان يوم الرجيع في السنة الرابعة من الهجرة ...

ولندع محمد بن إسحق - الذي قال فيه الشافعي : من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحق - يقصُّ علينا .

قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلامًا ، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام ، فبعث رسول الله ﷺ نفرًا ستة من أصحابه وهم : مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب .

قال ابن إسحٰق : وهو أمير القوم[1] ، وخالد بن البكيْر الليثي حليف بني عدي ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف ، وخبيب ابن عدي ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق .

قال ابن إسحٰق :

فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع - ماء لهذيل بناحية الحجاز من صدور الهدأة - غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلًا ، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلّا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم ، فقالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ، فأما مرثد وخالد بن البكير

---

(١) عند البخاري : بعث النبي ﷺ سرية عينًا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم : بنو لحيان ، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلًا نزلوه ، فوجدوا فيه نوى تمرٍ تزودوه من المدينة ، فقالوا : هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد - مكان مرتفع - وجاء القوم فأحاطوا بهم ، فقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألّا نقتل منكم رجلًا . فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا رسولك . فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا .

وعاصم فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا ، وقال عاصم بن ثابت :

ما علتي وأنا جَلْدٌ نابلُ
والقوس فيها وتَرٌ عنابلُ
تزلّ عن صفحتها المعابلُ
الموت حقّ والحياة باطلُ
وكل ما حمّ الإلهُ نازلُ
بالمرء والمرءُ إليه آيلُ
إن لم أقاتلكم فأمي هابلُ

وقال عاصم أيضًا :

أبو سليمان وريش المقعدِ
وضالة مثل الجحيم الموقدِ
إذا النواحي افترشت لَمْ أُرْعدِ
ومجنأ من جلد ثورٍ أجردِ
ومؤمن بما عَلَى محمَّدِ

وقال أيضًا :

أبو سليمان ومثلي راما
وكان قومي معشرًا كراما

قال : ثم قاتل حتى قتل ، وقتل صاحباه[1] .

تذكر عاصم نذر سلافة الذي نذرته ، وجرّد سيفه وهو يقول : اللهم ، إني أحمي لدينك وأدافع عنه ، فاحم لحمي وعظمي ، ولا تظفر بهما أحدًا من أعداء الله[2].

اللهم إني حميت دينك أول النهار فاحم جسدي آخره . قال ابن إسحٰق : فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد ، فمنعته

---

(١) البداية والنهاية (٣/٦٤-٦٧). (٢) صور من حياة الصحابة (٦/٢٩).

الدَّبْر ، فلمّا حالت بينهم وبينه قالوا : دعوه حتى يمسي فيذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصمًا فذهب به . وكان عاصم قد أعطى عهدًا أن لا يَمَسّ مشرك ولا يَمَسّ مشركًا أبدًا تنجّسًا . فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه آن الدَّبْر منعته : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ، ولا يمسّ مشركًا أبدًا في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع في حياته[1].

والجزاء عند الله من جنس العمل .

يقول ابن سيد الناس في المقامات العلية في الكرامات الجلية : أعطى الله عهدًا أن لا يمسّ مشركًا .

وعناية الرحمن تعصم عاصمًا ... عَنْ أن يُنالَ براحةٍ أو أصبعِ
بالسيل بعد الدَّبْر من أعدائه ... في مصرعٍ أُكْرِمْ به من مصرعِ[2]

أخذه السيل بعيدًا بعيدًا ، ومضى به إلى حيث لا يعلمون .

وصان الله رأس عاصم الكريمة من أن يشرب في قحفها الخمر .

حمى دينه ، فحُمي جسده .

لم يمسّ مشركًا في دنياه ، فلم يمسه مشرك بعد موته .

يقول حسان بن ثابت يهجو بني لحيان :

إنْ سرّك الغدر صرفًا لا مزاج له ... فأتِ الرجيع فسل عن دار لحيانِ
قوم تواصوْا بأكل الجارِ بينهم ... فالكلب والقرد والإنسان مثلانِ
لو ينطق التَّيسُ يومًا قام يخطبهم ... وكان ذا شرف فيهم وذا شان

وقال أيضًا :

لعمري لقد شانت هذيل بن مدرك ... أحاديثُ كانت في خبيب وعاصمِ
أحاديث لحيانٍ صُلُوا بقباحها ... ولحيان جرّامون شرَّ الجرائم
أناس همُ من قومهمْ في صميمهمْ ... بمنزلة الزمعان[3] دبر القوادمِ

---

(١) البداية والنهاية (٣ / ٦٧) .

(٢) المقامات العلية ص ٧٢ .

(٣) الرعاع أو سفلة القوم .

هُمُ غادرو يومِ الرجيع وأسلمت أمانتهـم ذا عفـة ومكـارمِ
رسولَ رسولِ الله غدرًا ولم تكن هذيل توقّى منكرات المحارمِ
فسوف يرون النصر يومًا عليهمُ بقتل الذي تحميه دون الجرائمِ
أبابيلُ دَبْرٍ شُمَّسٌ دون لحمه حمتْ لحم شَهَّادٍ عظيم الملاحمِ
لعل هذيلًا أن يروا بمصابه مصارع قتلى أَوْ مقامًا لمأتمِ
ونوقع فيها وقعةً ذات صولةٍ يوافي بها الركبانُ أهلَ المواسمِ(١)

○ سعد بن معاذ سيد الأوس ○

السيد الشهيد الذي وفّى لله ، فوفّى الله له .. الذي اهتزّ لموته عرش الرحمن .

عن جابر - رضي الله عنه - قال : رمي سعدٌ يوم الأحزاب ، فقطعوا أكحله ، فحسمه النبي ﷺ بالنار ، فانتفخت يده ، فتركه فنزفه الدم ، فحسمه أخرى ، فانتفخت يده ، فلما رأى ذلك ، قال : اللهم ، لا تخرج نفسي حتى تقرَّ عيني من بني قريظة ، فاستمسك عِرْقُه ، فما قطرتْ منه قطرة حتى نزلوا على حكم سعد ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ ، فحكم أن يقتل رجالهم ، وتسبى نساؤهم وذراريهم ، قال : وكانوا أربعمائة ، فلما فرغ من قتلهم ، انفتق عرقه(٢).

رضي الله عن سعد كم وفّى لربه .

قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة لك ، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعلَّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر على بركة الله .

قال ابن إسحق :

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ،

---

(١) البداية والنهاية (٣/٧٠) .

(٢) إسناده حسن: رواه أحمد وابن سعد والدارمي.

فإن الله وعدني إحدى **الطائفتين،** والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم »[١].

رمي سعد يوم الخندق بسهم قطع منه الأكحل .

قال ابن إسحق :

رماه ابن العَرِقة ، فلما أصابه قال : خذها مني وأنا ابن العرقة ، فقال : عرّق الله وجهك في النار ، اللهم إن كنتَ أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحبّ إليّ مِنْ أن أجاهدهم فيك من قوم آذوْا نبيك وكذّبوه وأخرجوه ، اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعلها لي شهادة ، ولا تمتني حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة[٢] .

عن محمود بن لبيد قال : لما أصيب أكحل سعد فثقل ، حوّلوه عند امرأة يقال لها : رُفيدة تداوي الجرحى ، فكان النبي ﷺ إذا مرّ به يقول : كيف أمسيت ، وكيف أصبحت ؟ فيخبره حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها وثقل ، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله ﷺ ، فقيل : انطلقوا به ، فخرج وخرجنا معه ، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا ، وسقطت أرديتنا ، **فشكا** ذلك إليه أصحابه ، فقال : « إني أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة ، فتغسله كما غسّلت حنظلة » فانتهى إلى البيت ، وهو يُغَسّل ، وأمه تبكيه وتقول : ويل أم سعدٍ سعدًا ، حزامة وجدًّا . فقال : « كل باكية تكذب إلا أم سعد » ثم خرج به ، قال : يقول له القوم : ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخفّ علينا منه . قال : « ما يمنعه أن يخفّ ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قبل يومهم ، قد حملوه **معكم »**[٣] .

أمّا عن حكمه في بني قريظة ، فروى البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - إن أناسًا نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل إليه ، فجاء على حمار ، فلما بلغ قريبًا من المسجد قال النبي ﷺ : « قوموا إلى خيركم -

---

(١) البداية والنهاية (٣ / ٢٦١) .

(٢) رجاله ثقات ، وهو في سيرة ابن هشام ، وأخرجه أحمد بنحوه أطول من هذا .

(٣) إسناده حسن : أخرجه ابن سعد ، انظر تخريج سير أعلام النبلاء (١ / ٢٨٧) .

أو سيدكم - » فقال : « يا سعد ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك ». قال : فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، قال : «حكمت بحكم الله أو بحكم الملك » .

دعا سعد بن معاذ ربه ألا يميته حتى يُقرَّ عينَه من بني قريظة قَبْل أن يحكم فيهم ، فلما حكم فيهم ، وأقرّ الله عينه أيّ قرار ، دعا ثانيًا بهذا الدعاء ، **فجعلها** الله له شهادة رضي الله عنه وأرضاه .

عن عبد الله بن شداد : دخل رسول الله ﷺ على سعد وهو يكبد نفسه، **فقال : «جزاك الله خيرًا من سيد قوم، فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزنك الله ما وعدك »**[1].

والجزاء من جنس العمل .

وقال رسول الله ﷺ عن سعد بن معاذ : « لقد حكم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات »[2] .

وعن البراء - رضي الله عنه - أهديت للنبي ﷺ حلة حرير ، فجعل أصحابه يمسونها ، ويعجبون من لينها ، فقال : « أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها وألين »[3] .

وعن جابر - رضي الله عنه - سمعت النبي ﷺ يقول : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ »[4] .

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : « اهتز العرش لموت سعد ابن معاذ »[4] .

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ورجاله ثقات .

(٢) إسناده حسن : أخرجه ابن سعد .

(٣) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم وأحمد وأبو نعيم .

(٤) رواه البخاري ، عن جابر ، وأحمد وابن سعد . والحاكم عن أبي سعيد ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

قال النضر بن شميل – وهو إمام في اللغة – : اهتز : فرح ، كما يقوله الذهبي في سير أعلام النبلاء[١] .

وعن ابن عمر يرفعه : « اهتز العرش لحب لقاء الله سعدًا »[٢] .

من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه ، طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشوق .

ونعاه جبريل إلى النبي ﷺ .

عن جابر قال : جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : من هذا العبد الصالح الذي مات ؟ فُتِحَتْ له أبواب السماء ، وتحرّك له العرش . فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد . قال : فجلس على قبره ...[٣] الحديث .

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به إلا لسعدٍ أبي عمرو

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « هذا العبد الصالح الذي تحرّك له العرش ، وفتحت أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك ... ولقد ضمّ ضمة ثم أفرج عنه »[٤] . يعني سعدًا .

عن أنس قال : لمّا حُملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخفّ جنازته . فقال النبي ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله »[٥] .

قال ابن حجر :

واهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه ، يُقال لكل من خرج بقدوم قادم عليه : اهتز له ، ومنه اهتزت الأرض بالنبات إذا اخضرّت وحسنت[٦] اهـ.

قال المناوي :

قال ابن القيم : كان سعد في الأنصار بمنزلة الصدِّيق في المهاجرين ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وخُتم له بالشهادة ، وآثر رضا الله ورسوله على رضا قومه وحلفائه ، ووافق حكمه حكم الله من فوق سبع سمٰوات ، ونعاه جبريل

---

(١) (١ / ٢٩٣) . (٢) رواه ابن سعد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .
(٣) إسناده صحيح: رواه النسائي وابن سعد. (٤) إسناده صحيح: رواه النسائي وابن سعد.
(٥) صححه الترمذي، انظر الفتح (٧/١٥٥). (٦) فتح الباري (٧ / ١٥٥) اهـ .

عليه السلام يوم موته ، فحق له أن يهتز العرش له[١] . وهذا متواتر .

قال الذهبي :

والعرش خلْق الله مسخر، إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله ، وجعل فيه شعورًا لحب سعد ، كما جعل تعالى شعورًا في جبل أحد يحبه النبي ﷺ ، وقال تعالى: ﴿**يا جبال أوبي معه**﴾ [سبأ : ١٠] . وقال : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض**﴾[الإسراء: ٤٤]، ثم عمم فقال: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ [الإسراء: ٤٤] . وهذا حق[٢] .

يقول حسان بن ثابت يرثي سعد بن معاذ ، رضي الله عنه :

لقد سجمتْ[٣] من دمع عيني عبرةٌ وحقَّ لعيني أن تفيض على سعدِ
قتيل سوى في معرك فجعت به عيون ذواري الدمع دائمة الوجدِ
على ملة الرحمن وارث جنة مع الشهداء وفدها أكرم الوفدِ
فإن تكُ قد ودعتنا وتركتنا وأمسيت في غبراءَ مظلمة اللحدِ
فأنت الذي يا سعد أُبتَ بمشهدٍ كريمٍ وأثواب المكارم والمجدِ
بحكمك في حيّ قريظة بالذي قضى اللهُ فيهم ما قضيت على عمدِ
فوافق حكم الله حكمك فيهمُ ولم تعفُ إذ ذكّرتَ ما كان من عهدِ
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى شروا هذه الدنيا بجناتها الخلدِ
فنعم مصيرُ الصادقين إذا دُعوا إلى الله يومًا للوجاهة والقصدِ[٤]

○ عبد الله بن حذافة السهمي ○

أحد السابقين ، هاجر إلى الحبشة ، ونفّذه النبي ﷺ رسولًا إلى كسرى ، وهو من البدريين .

انظر إلى صحابة رسول الله ﷺ ترَ العجب العجاب .

عن أبي رافع قال: وجه عمر جيشًا إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حذافة،

---

(١) فيض القدير للمناوي (٣ / ٦٤) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١ / ٢٩٧) .
(٣) سالت .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (١٣٢/٣).

فذهبوا به إلى ملكهم ، فقالوا : إن هذا من أصحاب محمد ، فقال : هل لك أن تَتَنَصَّر وأعطيك نصف ملكي ؟. قال : لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ملك العرب ، ما رجعت عن دين محمد طرفةَ عين . قال : إذًا أقتلك . قال : أنت وذاك ، فأمر به فصلب . وقال للرماة : ارموا قريبًا من بدنه ، وهو يعرض عليه ويأبى ، فأنزله ودعا بقدر ، فصب فيها ماء حتى احترقت ، ودعا بأسيرين من المسلمين ، فأمر بأحدهما فألقي فيها ، وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ثم بكى ، فقيل للملك : إنه بكى . فظن أن قد جزع . فقال : ردُّوه . ما أبكاك ؟ قال : قلت : هي نفس واحدة تُلْقى الساعةَ فتذهب ، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تُلْقى في النار في الله .

فقال له الطاغية : هل لك أن تُقبل رأسي وأخلي عنك ؟ فقال له عبد الله : وعن جميع الأسارى ؟ قال : نعم ، فقبّل رأسه ، وقدم بالأسارى على عمر ، **فأخبره خبره فقال عمر : حُقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة ، وأنا أبدأ . فقبل رأسه**[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وعن مالك بن أنس : أن أهل قيسارية أسروا ابن حذافة ، فأمر به ملكهم ، فجرب بأشياء صبر عليها ، ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثًا لا يأكل ، فاطلعوا عليه ، فقال للملك : قد انثنى عنقه ، فإن أخرجته وإلا مات . فأخرجه ، وقال : ما منعك أن تأكل وتشرب ؟ قال : إن الضرورة قد أحلتها لي ، ولكن كرهتُ أن أشمتك بالإسلام . قال : فقبل رأسي وأخلي لك مائة أسير . قال : أما هذا فنعم ، فقبل رأسه فخلى له مائة وخلى سبيله .

وعند ابن عائذ: أطلق له ثلثمائة أسير ، وأجازه بثلاثين ألف دينار ، وثلاثين وصيفة ، وثلاثين وصيفًا[2] .

---

(١) ابن عساكر في تاريخه والحافظ في الإصابة ، وله شاهد من حديث ابن عباس ، وابن الأثير .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢ / ١٤ - ١٥) .

○ المستضعفون ○

قال تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطًا** ﴾ [الكهف : ٢٨] .

قال ابن كثير :

يقال : إنها نزلت في أشراف قريش ، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء[١] .

وفي مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : كنَّا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هُذيل وبلال ، ورجلان لست أسمِّيهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، **فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم ...** ﴾ **الآية** . [الأنعام : ٥٢][٢] .

﴿ **اصبر نفسك** ﴾ لا تملَّ ولا تستعجل ﴿ **مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾ [الكهف: ٢٨] فالله غايتهم، يتوجهون إليه بالغداة والعشي، لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاَّب الحياة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ١٤٨) .

(٢) انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري .

اصبر نفسك مع هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلّمهم ، ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تكون الدعوات ، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها ؛ لأنها غالبة ، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ، إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبتغي جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا ، إنما تبتغي وجهه ، وترجو رضاه .

﴿**ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا**﴾ [الكهف: ٢٨] ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة ، فهذه زينة الحياة الدنيا ، لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه من يدعون إلى ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرءوس أمام الله ، فلا تفاضل بينها . بمال ولا نسبٍ ولا جاه فهذه قيم زائفة ، وقيم زائلة ، إنما التفاضل بمكانها عند الله ، ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها وتجردها له ، وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والضلال(١) .

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس أعمالهم :

لما صبروا على ذكر الله ، أمر الله رسوله بالصبر معهم .

لما أرادوا وجه الله ، أمر الله نبيه بألا يرفع بصره عنهم .

﴿ **يريدون وجهه** ﴾ يشير إلى دوام دعائهم ربهم بالغداة والعشي ، وكون الإرادة على الدوام ، فآويناهم في دنيانا بعظائمنا ، وفي عقباهم بكرائمنا .

لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمر الله رسوله ﷺ بألا يرفع بصره عنهم ، ولا يقلع عنهم نظره ، وهذا جزاء في **العاجل** .

---

(١) الظلال (٤ / ٢٢٦٨ - ٢٢٦٩) .

فجعل الله نظر الرسول اليوم إليهم ، ذريعة لهم إلى مولاهم ، وخلفا عما يفوتهم اليوم من نظرهم إليه .

لا تقطع اليوم عنهم نظرك ، فإنا لا نمنع غدًا نظرهم عنًّا .

هؤلاء النفر المتكبرون والسادة من كبراء قريش الذين ازدروا البدور الإيمانية ؛ لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق ، لو علموا قدر من ازدروهم لطامنوا من كبريائهم ، وخففوا من غلوائهم ، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة ، أمام عمار الذي استأذن على النبي ﷺ ، فقال : « من هذا ؟ » قال : عمار . قال : « مرحبًا بالطّيب المطيّب »[١]. وقال فيه ﷺ : « ملىء إيمانًا إلى مشاشه » يعني عمارًا[٢] .

عن أنس مرفوعًا قال: «ثلاثة تشتاق إليهم الجنة: علي وسلمان وعمار»[٣].

وهو الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ ، كما جاء في البخاري ، وهو الذي ثبت على الإيمان لما أكرهه المشركون على النطق بكلمة الكفر، فنزلت فيه الآية: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ [النحل: ١٠٦].

○ بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ ○

عن قيس : اشترى أبو بكر بلالًا وهو مدفون في الحجارة بخمس أواقٍ ذهبًا ، فقالوا : لو أبيت إلا أوقية لبعناكه ، قال : لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته[٤].

عن ذرٍ، عن عبد الله: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار ، وأمه سمية ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد . فأما النبي ﷺ وأبو بكر

---

(١) أخرجه الترمذي عن علي ، وإسناده قوي ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البزار من حديث عائشة ، وقال الحافظ في الفتح (٧/٩٢): وإسناده صحيح . والمشاش جمع مشاشة ، وهي رؤوس العظام اللينة .

(٣) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد. وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية . وقال الذهبي : إسناده قوي.سير (١/٣٥٣) .

منعهما الله بقومهما ، [وأما] سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس ، فما منهم أحد إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد[١] .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

لما هانت عليه نفسه في الله ، عظم عند الله وعند سادة المؤمنين .

فعن جابر بن عبد الله قال: كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا؛ يعني بلالًا . وفي رواية : أبو بكر سيدنا أعتق بلالًا سيدنا [٢] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر : « يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة » ، قال : ما عملت عملًا أرجى عندي أني لم أتطهر طُهورًا في ساعة ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطُهور ما كتب لي أن أصلي[٣]. قال البخاري : دف نعليك يعني : تحريك . وعند مسلم : « خشف » أي : الحركة الخفيفة . وعند أحمد والترمذي من حديث بريدة : « خشخشة » وهو بمعنى الحركة أيضًا[٤].

وفي رواية أخرى عند البخاري ومسلم : « حدثني بأرجي عمل عملته في الإسلام ، إني قد سمعت خشفة نعليك بين يدي في الجنة » . الخشفة : الحركة وزنًا ومعنًى ، وقال أبو عبيد : الخشفة: الصوت ليس بالشديد .

عن بريدة قال : أصبح رسول الله ﷺ ، فدعا بلالًا ، فقال : « بم سبقتني إلى الجنة ؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي ، إني دخلت الجنة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ؛ والذهبي في سير أعلام النبلاء ، وإسناده حسن .
(٢) أخرجه البخاري ، وابن سعد ، وأبو نعيم ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو عند الطبراني .
(٣) البخاري ومسلم .
(٤) فتح الباري (٣/٤٢) .

البارحة ، فسمعت خشخشتك أمامي ، وأتيت على قصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر » . فقال بلال : ما أذنت قط إلا صليت ركعتين ، وما أصابني حدث إلا توضأت ، ورأيت أن لله علي ركعتين أركعهما . فقال : « بهما »(١).

لما مشى بالأذان بين يدي النبي ﷺ ، فاتفق مثله في الجنة .

ولا يلزم من ذلك دخول بلال الجنة قبل النبي ﷺ لأنه في مقام التابع ، وكأنه أشار ﷺ إلى بقاء بلال على ما كان عليه حال حياته ، واستمراره على قرب منزلته ، وفيه منقبة عظيمة لبلال(٢) .

قال سعيد بن عبد العزيز : لما احتضر بلال قال :

غدًا نلقى الأحبه * محمدًا وحزبه

قال : تقول امرأته : واويلاه ، فقال : وافرحاه(٣) .

○ خُبيب بن عدي ○

لما أخذ بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيبًا أسيرًا ، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر - فلبث خبيب عندهم أسيرًا حتى أجمعوا على قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارس موسى يستحد بها ، فأعارته فدرج بنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه ، فوجدته مجلسه في فخذه والموسى بيده ، قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب . فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك . **قالت** : والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل قطفًا من عنب في يده وهو موثق بالحديد ، وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : **إنه لرزق** رزقه الله **خبيبًا**(٤) ،

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي ، والطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٢) فتح الباري (٣ / ٤٣) . (٣) سير أعلام النبلاء (١ / ٣٥٩) .

(٤) رواه البخاري رقم (٣٩٨٩) كتاب المغازي ، انظر الإصابة ترجمة معاوية .

وعند ابن إسحٰق : وما أعلم في الأرض حبة عنب .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

فلما حبست قدمه عن السعي في الرزق ، سيق إليه الرزق سوقًا .

والجزاء من جنس العمل .

○ أبو الدحداح ○

عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « رب عَذْق مُذلِلٍ لابن الدحداحة في الجنة »[1] .

وعن جابر بن سمرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « كم من معلق لأبي الدحداح في الجنة »[2] .

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له**﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ ، قال : « نعم يا أبا الدحداح » ؛ قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي **حائطي** ، قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، **وأم الدحداح فيه وعيالها**، قال: فجاء أبو الدحداح فنادى : يا أم الدحداح . قالت: لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل[3].

وفي مفاتيح الغيب للفخر الرازي :

إن أبا الدحداح قال : يا رسول الله إن لي **حديقتين** ، فإني تصدقت بإحداهما ، فهل لي مثلاها في الجنة ؟ قال : «نعم» ، قال : وأم الدحداح معي ؟ قال : «نعم» ، قال : والصبية معي ؟ **قال: «نعم». فتصدق** بأفضل حديقتين ، وكانت تسمى الحنينة ، قال : فرجع أبو الدحداح إلى أهله ، وكانوا في الحديقة التي تصدق بها ، فقام على باب الحديقة وذكر ذلك لامرأته ، **فقالت** أم الدحداح:

---

(١) صحيح: رواه ابن سعد عن ابن مسعود، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٨٣.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بن سمرة .

(٣) أخرجه ابن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٨٣ .

بارك الله فيما اشتريت فخرجوا منها وسلموها[١] .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

قال رسول الله ﷺ : « رب عذق مذلل لابن الدحداحة في الجنة » .

قال المناوي :

والعَذْق - بفتح العين وسكون الذال - النخلة بضبط المصنف ، وبالكسر العرجون بما فيه ، « مذلل » أي مسهل على من يجتني منه التمر ، مكافأة له على كونه تصدق بحائطه المشتمل على ستمائة نخلة لما سمع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا** ﴾[٢] [البقرة : ٢٤٥] .

« وكم من عِذق » بكسر العين غصن من نخلة ، وأما بضمها فالنخلة بكمالها .

قال المناوي :

لأبي الدحداح جزاءً له على جبره لخاطر اليتيم الذي خاصمه أبو لبابة في نخلة فبكى ، فاشتراها أبو الدحداح من أبي لبابة بحديقة ، فأعطاها اليتيم ،**فبإيثاره** الباقي على الفاني جوزي بتكثير النخل في الجنة فوق ما لأمثاله ، والجزاء من جنس العمل[٣] اهـ.

وقال القرطبي :

قال زيد بن أسلم: لما نزلت: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا**﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقال أبو الدحداح : فداك أبي وأمي يا رسول الله ، إن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض . قال : « نعم ، يريد أن يدخلكم الجنة » . قال : فإني أقرضت ربي قرضًا يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة ، قال : « نعم » . قال : ناولني يديك . فناوله رسول الله ﷺ يده ، فقال : إن لي حديقتين : إحداهما بالسافلة ، والأخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما ، قد جعلتهما قرضًا لله تعالى . قال رسول الله ﷺ : « اجعل إحداهما لله ، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك » . قال : فأشهدك يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله تعالى ، وهو حائط فيه

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٣ / ٤٧٩) .

(٢) فيض القدير للمناوي (١٦/٤).

(٣) فيض القدير للمناوي (٤٩/٥) .

ستمائة نخلة ، قال : « إذًا يجزيك الله به الجنة » . فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أمّ الدحداح ، وهي مع صبيانها في الحديقة ، تدور تحت النخل فأنشأ يقول :

هداكِ ربي سبلَ الرشادِ إلى سبيل الخير والسدادِ
بيني من الحائط بالودِادِ فقد مضى قرضًا إلى التنادِ
أقرضته الله على اعتمادي بالطوع لا منٍّ ولا ارتدادِ
إلا رجاء الضِّعف في المعادِ فارْتحلي بالنفس والأولادِ
والبرُّ لا شك فخيرُ زادِ قدمه المرء إلى المعَادِ

قالت أم الدحداح : ربح بيعك ، بارك الله لك فيما اشتريت ، وأجابته أم الدحداح ، وأنشأت تقول :

بَشّركَ الله بخيرٍ وفرحْ مثلك أدى ما لديه ونصحْ
قد متّع الله عيالي ومنحْ بالعجوة السوداء والزّهو والبلحْ
والعبد يسعى وله ما قد كدحْ طول الليالي وعليه ما اجترحْ

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها ، تُخرِج ما في أفواههم ، وتخرج ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر ، فقال النبي ﷺ : « كم من عذق ردَاح ودار فياح لأبي الدحداح »[1] .

تُرى أي نخيلٍ ظفر به أبو الدحداح !! ، إنه نخيل الجنة ، مغروس في تربة من مسك وزعفران ، من فضة بيضاء كأنها المرآة ، يسقى بخمرٍ ولبن وعسل مصفى وماء غير آسن ، ساقه من الذهب ، ما من شجرة في الجنة إلا وساقها من خالص الذهب ، سعفه ثياب أهل الجنة ، ثمره أشدُّ بياضًا من الثلج ، ألين من الزبد ، أحلى من العسل ، ليس فيه العجم .

يا نخل تحت ظلك الحبيب ياليت لي في الظل من نصيب

---

(١) تفسير القرطبي (٢ / ١٠٤٦ - ١٠٤٧) .

○ السيدة خديجة بنت خويلد ○
رضي الله عنها

سيدة نساء العالمين في زمانها ، أم القاسم ، أم أولاد رسول الله ﷺ ، وأول من آمن به وصدّقه قبل كل أحد ، وثبتتْ جأشه ، ومضت به إلى ابن عمها ورقة . قال الزبير بن بكار : كانت خديجة تدعى في الجاهلية : الطاهرة .

ومناقبها جمة ، وهي ممّن كمل من النساء ، وكان النبي ﷺ يثني عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ، بحيث إن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة ؛ من كثرة ذكر النبي ﷺ لها .

قال ابن الأثير :

خديجة أوَّل خلق الله أسلم بإجماع المسلمين ، لما بعث رسول الله ﷺ وأتاه جبريل ، وقرأ عليه : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾[1] تقول السيدة عائشة : فرجع بها ترجف بوادره[2]، حتى دخل على خديجة. قال: «زملوني». فزمّلوه حتى ذهب عنه الرّوْع . فقال : « ما لي يا خديجة ؟ » . وأخبرها الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسي » . فقالت له : كلَّا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتعين على نوائب الحق ، وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد ، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الخطّ العربي ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخًا قد عمي ، فقالت : اسمع من ابن أخيك ما يقول . فقال : يا بن أخي ، ما ترى ؟ فأخبره ، فقال : هذا الناموس الذي أنزل على

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) جمع بادرة ، وهي لحمة بين المنكب والعنق ، وهي رواية البخاري في التفسير والتعبير ، ورواه في بدء الوحي بلفظ : فؤاده .

موسى[١] .

ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها ، وجاءه منها عدة أولاد ، ولم يتزوج عليها قط ولا تسرّى إلى أن قضت نحبها ، فوجد لفقدها ، فإنها كانت نعم القرين ، وكانت تنفق عليه من مالها ، ويتجر هو ﷺ لها .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثنائه عليها واستغفاره لها ، فذكرها يومًا ، فحملتني الغيرة ، فقلت : لقد عوّضك الله من كبيرة السن ! قالت : فرأيته غضب غضبًا ، أُسقطتُ في خلدي . وقلت في نفسي : اللهم ، إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء . فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت . قال : « كيف قلت ؟ والله لقد آمنت بي إذ كذّبني الناس ، وآوتني إذ رفضني الناس ، ورزقت منها الولد ، وحُرمتموه مني » ، قالت : فغدا وراح علي بها شهرًا[٢] .

عن عائشة: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة؛ مما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها ، وما تزوّجني إلّا بعد موتها بثلاث سنين ، وقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب[٣] .

قال أبو هريرة : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : هذه خديجة أتتك ، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنّي ، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب[٤] .

قال علي بن أبي طالب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها خديجة بنت خويلد ، وخير نسائها مريم بنت عمران »[٥].

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) إسناده حسن : نسبه الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٢/٢١٧-٢١٨) إلى كتاب : الذرية الطاهرة ، للدولابي .

(٣) رواه البخاري ومسلم . وأراد بالبيت : القصر،يقال : هذا بيت فلان ؛ أي قصره .

(٤) متفق عليه . (٥) رواه البخاري .

قال القرطبي :

الضمير عائد على غير مذكور ، لكنه يفسره الحال والمشاهدة . يعني به الدنيا ، والمعنى : أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها .

ومن حديث ابن عباس مرفوعا : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية »[1] .

قال ابن إسحٰق : كانت خديجة وزيرة صدق .

وعن عبد الله بن جعفر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »[2] .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

وتعالَ معي أخي ، لنعرف معنى القصب ، ولماذا القصب بالذات جميع ألفاظ هذا الحديث ؟ وهل يدل هذا على كون الجزاء من جنس العمل ؟

قال ابن حجر : قَصَب بفتح القاف : قال ابن التين : المراد به لؤلؤة مجوّفة واسعة كالقصر المنيف . قلت : عند الطبراني في الأوسط من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى ؛ يعني : قصب اللؤلؤ . وعنده في الكبير من حديث أبي هريرة : « بيت من لؤلؤة مجوفة » . وأصله في مسلم ، وعنده في الأوسط من حديث فاطمة قالت : قلت : يا رسول الله ، أين أمي خديجة ؟ قال : « في بيت من قصب » . قلت : أَمِنْ هذا القصب ؟ قال : «لا، من القصب المنظوم بالدرر واللؤلؤ والياقوت».

---

(١) رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح ، قاله الحافظ ابن حجر في الفتح (٧ / ١٠١) وصححه الحاكم في المستدرك (٣ / ١٨٥) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، وأقرّه الذهبي .

وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن إسحٰق وقد صرّح بالسماع .

قال السهيلي : النكتة في قوله : « من قصب » ولم يقل : من لؤلؤ؛أن في لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها ، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث[1] اهـ .

وفي القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنابيبه ، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها ، إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن ، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها .

وأما قوله : « ببيت » ، فقال : أبو بكر الإسكاف : في فوائد الأخبار : المراد به بيت زائد على ما أعدّ الله لها من ثواب عملها ، ولهذا **قال:**« لا نصبَ فيه » أي لم تتعب بسببه .

قال السهيلي : لذكر البيت معنًى لطيف ؛ لأنها كانت ربة بيت في الإسلام منفردة به ، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها ، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها .

قال : وجزاء الفعل يذكر غالبا بلفظه ، وإن كان أشرف منه ، فلهذا جاء الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر اهـ .

قال المناوي :

البيت عبارة عن القصر، وتسميته الكل باسم الجزء معلوم في لسانهم اهـ .

ويلوح الجزاء من جنس العمل في قول الرسول ﷺ : « لا صخب فيه ولا نصب » ، فالصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت ، والنصب : التعب .

قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين– أعني المنازعة والتعب– أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابته خديجة طوعًا، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها: اهـ[2].

---

(١) فتح الباري (٧ / ١٧١ – ١٧٢) .
(٢) فتح الباري (٧ / ١٧٢) ، وفيض القدير للمناوي .

○ آسية بنت مزاحم زوج فرعون ○

عن أبي موسى قال رسول الله ﷺ : « كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد »(٢) .

يقول الله تعالى في شأنها : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا** ... ﴾ [القصص : ٩] .

يقول ابن كثير :

لما فتحت الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية ، والجلالة الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه ، أحبته حبًّا شديدًا ، فلما جاء فرعون قال : ما هذا ؟ وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ، ودفعت عنه وقالت : ﴿**قرة عين لي ولك**﴾ فقال لها فرعون : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . والبلاء موكل بالمنطق .

﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ . وقد أنالها الله ما رجت من النفع ، أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها بسببه جنته(٣) .

ويقول ابن كثير :

إن فرعون لما رآه همّ بقتله ؛ خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل . فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تحاجّ عنه ، وتذب دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت :

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب : قول الله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ .

(٢) رواه الترمذي وصححه ، وابن مردويه وابن عساكر .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٢٤) .

﴿ **قرة عين لي ولك** ﴾ فقال : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه(١) .

يقول الحافظ في الفتح : كانت فراستها في موسى عليه السلام صادقة حين قالت : ﴿ **قرة عين لي** ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنِ لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** ﴾ [التحريم : ١١] .

قال الحافظ : ومن فضائل آسية امرأة فرعون: اختارت القتل على الملك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه(٢) .

قال ابن كثير : روى ابن جرير بسنده عن سليمان التيمي : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

قال ابن جرير : كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون . فتقول : آمنت برب موسى وهارون . فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإنْ مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزعت روحها(٣) .

انظر رحمك الله ، ها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، **في قصر فرعون، عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرّأت من قصر فرعون،** طالبة إلى ربها بيتًا في الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون ، فسألت ربها النجاة منه ، وتبرأت من عمله ، مخافة أن يلحقها من عمله شيء ، وهي ألصق الناس به ، وتبرأت من قوم فرعون ، وهي تعيش بينهم . ﴿ **ونجني من القوم الظالمين** ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٣٢) .
(٢) فتح الباري (٦ / ٥١٦) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٣ -٣٩٤).

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثلٌ للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره ؛ فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي ، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته ، شرًّا ودنسًا وبلاءً ، تستعيذ بالله منه ، وتتفلت من عَقَابيله ، وتطلب النجاة منه ، وهي امرأة واحدة ، في مملكة عريضة قوية ، وهذا فضل آخر عظيم ؛ فالمرأة أشد شعورًا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته ، ولكن هذه المرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية والمقام الملوكي ، **في وسط** هذا كله ، رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي .

وهي نموذج عالٍ في التجرد لله من كل هذه المؤثرات ، وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوّقات، وكل هذه الهواتف، ومِنْ ثَمَّ استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد ، الذي تتردد كلماته في جنبات الكون ، وهي تتنزل من الملأ الأعلى .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم بنة عمران يدل على المكانة العالية ، التي جعلتها قرينة مريم في الذكر بسبب ملابسات حياتها[1] .

فكيف كان جزاؤها من جنس عملها ؟

لمّا استعلت بإيمانها على بريق قصر فرعون، أبدلها الله به قصرًا[2] في الجنة.

استعلت على جِوَار فرعون وعنديته ، فأبدلها الله به جواره وعنديته .

ومن فقهها طلبت الجار قبل الدار ، ولَبيتٌ في الجوار أفضل من ألف قصر في غير الجوار .

استعلت على جوار فرعون وهامان وعنديّة الندامة ، فكان لها عنـدية الزلفى والكرامة .

تركت الملك والدنيا وجنان فرعون ، فكانت لها الجنة .

إني لأحسد جارَكم لجوارِكم ‏ ‏ ‏ ‏ طوبى لمن أضحى لدارك جَارا

---

(١) الظلال (٦ / ٣٦٢١ - ٣٦٢٢) .

(٢) البيت يطلق على القصر ، كما مرَّ عند ذكر خديجة ، رضي الله عنها .

ياليت جارَك بَاعني من داره شِبْرًا لأعطيه بشبرٍ دَارا

وامرأة فرعون المتطهرة المؤمنة الصادقة القانتة يضربها اللهُ نموذجًا للمؤمنات من بَعْدُ في كل جيل .

○ مريم البتول رضي الله عنها ○

يقول الله تعالى في شأن الطيبة القانتة التي كملت : ﴿ **إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررًا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبولٍ حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ [آل عمران : ٣٥ - ٣٧] .

يقول العلامة ابن جرير الطبري :

إن معناه : إني جعلت لك يارب نذرًا أن لك الذي في بطني محررًا لعبادتك، يعني بذلك: حبسته على خدمتك، وخدمة قدسك في الكنيسة، عتيقة من خدمة كل شيء سواك ، مفرغة لك خاصة ، فتقبل مني ما نذرت لك يارب ، إنك أنت السميع لما أقول وأدعو ، العليم لما أنوي في نفسي وأريد ، لا يخفى عليك سرُّ أمري وعلانيته[1] .

يرحم الله حنة أم مريم ، فقد كانت وزوجها وابنتها أهل بيت من الله بمكان .

عن الشعبي : فرّغته للعبادة .

عن مجاهد : خالصًا لا يخالطه شيء من أمر الدنيا .

وعن الربيع : كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها ، قال : وكانوا

---

(١) تفسير الطبري (٣ / ٢٣٥) .

إنما يحررون الذكور ، فكان المحرّر إذا حرّر جعل في الكنيسة لا يبرحها ، يقوم عليها ويكنسها .

وقال الضحاك : نذرت ولدها لله .

لمّا نذرتها وحررتها لله لم يكن للشيطان فيها نصيب .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد ، إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه »(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها »(٢) .

قال عكرمة : خرجت أم مريم بمريم في خرقها ، تحملها إلى بني الكاهن ابن هارون أخي موسى بن عمران ، قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فإني حررتها وهي ابنتي ، ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها إلى بيتي . فقالوا : هذه ابنة إمامنا ، وكان عمران يؤمهم في الصلاة ، وصاحب قرباتهم ، فقال زكريا : ادفعوها إليّ فإن خالتها عندي . قالوا : لا تطيب أنفسنا ، هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا ، فاقترعوا بأقلامهم عليها ، بالأقلام التي يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا فكفلها .

وعن ابن عباس : جعلها زكريا في محرابه ، قال الله عز وجلّ : ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وقال ابن جريج : الكاهن في كلامهم : العالم .

يقول ابن جريج : **آجرها فيها وأنبتها؛ نبتت في غذاء الله .**

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) رواه مسلم .

قال ابن جرير : إن زكريا كان كلّما دخل عليها المحراب ، بعد إدخاله إياها المحراب ، وجد عندها رزقًا من الله لغذائها ، فقيل : إن ذلك الرزق الذي كان يجده زكريا عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء .

وعن ابن عباس : وجد عندها عنبًا في مِكْتَل في غير حينه . وعن سعيد مثله ومجاهد والضحاك وقتادة .

وعن ابن عباس : وجد عندها ثمار الجنة ، فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف .

وعن الحسن : كان زكريا إذا دخل عليها – يعني على مريم – المحراب وجد عندها رزقًا . من السماء من الله ، ليس من عند الناس ، وقالوا : لو أن زكريا كان يعلم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه .

قال ابن جرير :

إن الله يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه ، بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده ؛ لأنه جل ثناؤه لا ينقص سَوْقه ذلك إليه ، كذلك خزائنه ، ولا يزيد إعطاؤه إياه ومحاسبته عليه في ملكه فيما لديه شيئًا ، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه ، وإنما يحاسب من يعطي ما يعطيه من يخشى النقصان من ملكه ، بخروج ما خرج من عنده بغير حساب معروف ، ومن كان جاهلًا بما يعطي على غير حساب(١) .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله :

يكفي أن نعرف أنها كانت مباركة ، يفيض من حولها الخير ، ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقًا . حتى ليعجب كافلها – وهو نبي – من فيض الرزق ، فيسألها : كيف ؟ ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه، واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر إليه كله: ﴿**هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ [آل عمران : ٣٧] .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ، بتصرف (٣ / ٢٤٤ – ٢٤٧) .

وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، والتواضع، لا التَّنَفُّج به والمباهاة[1].

قال ابن الجوزي :

قال القدر : يا ملك التصوير ، صوّر الحَمْلَ أنثى ، ليبين أثر الكرم ، في قبول الناقص ، فلما وضعتها وضعتها بأنامل الانكسار ، عن سرير السرور ، فإن لسان التلهف لما ألقى على الفايت ﴿ **إني وضعتها أنثى** ﴾ فجبر كسرها جابر ﴿ **فتقبلها** ﴾ وساق عنان اللطف إلى ساق زرعها . فَرَبَا في رُبَى ﴿ **وأنبتها** ﴾ وكفلها زكريا ، فأراه المسبب غناها عن السبب بآية ﴿ **وجد عندها رزقًا** ﴾ فرباها من رَبِّها ، فنشأت لا ترى إلا ربها[2].

كيف كان جزاء مريم من جنس عملها ؟

لما حبست نفسها وقدمها عن السعي طلبًا للرزق ، وتفرّغت لخدمة ربها ، عوّضها الله برزق من عنده ؛ فمن ترك شيئًا لله عوضه الله عنه خيرًا منه .

قال البقاعي :

كان من كمال مريم – عليها السلام – خروج والدتها عنها ، وكان أصله من الأم التي لها الإشفاق ، فكان خروجها أكمل من خروج الولد ؛ لأنها لها في زمن الحمل والرضاع والتربية إلى أن يعقل الولد أباه ، فحينئذ يترقى إلى حزب أبيه ، ولذلك – والله سبحانه وتعالى أعلم – أُري إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذبح ، ذبح ولده عند تمييزه ، وخرجت امرأة عمران عن حملها ، وهو في بطنها ، حين ما هو أعلق بها ، ونذرته لله تعالى حال كونه ﴿ **محررًا** ﴾ وفي الإتيان بصيغة التكثير والتكرير إشعار بمضي العزيمة في قطع الولاية عنه بالكلية ، لتسلم ولايته لله تعالى : تخوّفت ألا يكون ما وضعته كفافًا لنذرها ، لما شهدت من ظاهر أنوثة ما وضعت ، فجعلها الله سبحانه وتعالى لها أكمل مما اشتملت عليه عزيمتها

(١) الظلال (١ / ٣٣٩) .
(٢) المدهش ١٠٩ .

من رتبة الذكورة التي كانت تعهدها ، فكانت مريم عليها السلام أتم من معهود نذرها مزيد فضل من ربها عليها ، بعد وفاء حقيقة مقصودها في نذرها .

إن غاية ما تعرفه من المنذرين أن يكونوا كأنبيائهم المقررين لحكم التوراة ، وهذه الأنثى ، مع ما لها من العلو في نفسها ، ستكون سببًا في السؤال في نبي هو أعظم أنبيائهم ، وتلد صاحب شريعة مستقلة ، ثم يكون مقررًا **لأعظم الشرائع .**

مريم : أي العَابدة بلسانهم . ماذا كان عملها ؟ وماذا كان جزاؤها ؟

قال البقاعي :

لما كانت محررة لله سبحانه وتعالى ، كان حقًّا أن يجري الله سبحانه وتعالى إعاذتها قولًا ، كما هو جاعلها معاذة كونًا من حيث هي له ، وما كان في حمى الملك لا يتطرق إليه طريدة ، فقالت : ﴿ **وإني أعيذها بك** ﴾ .

ولما كان مَنْ في حصن الملك ، وحرزه بجواره بعيدًا ممن أحرقه بنار البعد ، وأهانه بالرجم ، حُققت الإعاذة بقولها : ﴿ **من الشيطان الرجيم** ﴾ .

ولما أخبر بدعائها أخبر بإجابتها فيه ، فقال : ﴿ **فتقبّلها** ﴾ فجاء بصيغة التفعل ، مطابقة لقولها : ﴿ **فتقبّل** ﴾ ففيه إشعار بتدرج وتطور وتكثر ، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه ، فيكون إعطاءً واحدًا منقطعًا عن التواصل والتتابع . وجاء بالوصف المشعر بالإحسان مضافًا إليها ، إبلاغًا في المعنى، فقال: ﴿**ربها**﴾ وظهر سر الإجابة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **بقبولٍ حسن** ﴾ حيث لم يكن بتقبل جريًا على الأول .

ولما أنبأ القبول عن معنى ما أوليته باطنًا أنبأ الإنبات عمَّا أوليته ظاهرًا في جسمانيتها، وفي ذكر الفعل من أفعل في قوله: ﴿**وأنبتها**﴾ والاسم من فعل في قوله : ﴿ **نباتًا حسنًا** ﴾ إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون ، وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين ، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر ، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسنًا .

فوقع الجواب ؛ لأنها عناية من الله سبحانه وتعالى بها على ما وقع سؤالها فيه ، فلقد ضلَّ وافترى من قذفها وبهتها ، وكفر وغلا من ادعى في ولدها من الإطراء ما ادعى .

ولمّا كان الصغير لابدّ له فيما جرت به العادة من كبير يتولى أمره ، قال : ﴿ **وكفلها** ﴾ .

قال الحرالي : من الكفل وهو حياطة الشيء من جميع جهاته ، حتى يصير عليه كالفلك الدائر ﴿ **زكريا** ﴾ وفيه قراءة التشديد ﴿ **كفّلها** ﴾ إنباء بأن الله سبحانه وتعالى هو في الحقيقة كفيلها بما هو تقبلها، وفيه استخلاص لزكريا من حيث جعله يد وكالة له فيها .

ولمّا كان من شأن الكفيل القيام بما يعجز عنه المكفول ، بيّن سبحانه وتعالى أن تلك الكفالة إنما كانت جريًا على العوائد ، وأنه تبين أن تقبل الله لها أغناها عن سواه، فقال في جواب مَنْ لعله يقول: ما فعل في كفالتها؟ ﴿**كلما**﴾ أي كان كلما ﴿ **دخل عليها زكريا المحراب** ﴾ أي موضع العبادة .

وقال الحرالي : هو صدر البيت ومقدمه ، الذي لا يكاد يوصل إليه إلا بفضل منه وقوة وجهد حرب ﴿ **وجد عندها رزقًا** ﴾ وذلك كما وُجد عند خبيب ابن عدي الأنصاري – رضي الله تعالى عنه – قطف العنب ، وقبل ذلك كثير في هذه الأمة . وفي هذه العبارة من أولها إلاحة لمعنى حُسن كفالته ، وأنه كان يتفقدها عند تقدير حاجتها إلى الطعام ، بما تفيده كلمة كلما من التكرار ، فيجد الكفيل الحق قد عاجلها برزق من عنب ، بما هو سبحانه وتعالى المتولي لإنباتها ، ليكون نباتها من غيب رزقه ، فتصلح لنفخ روحه ، ومستودع كلمته ، ولا يلحقها بعد الإعاذة ما فيه مسّ من الشيطان الرجيم ، الذي أعاذها الله سبحانه وتعالى منه بكثرة الاختلاط في موجودات الأرزاق ، فكان من حفظها أن تولى الله سبحانه وتعالى إرزاقها من غيب ، إلا ما يطيبه من بادٍ ؛ ليكون حسن نباتها من أحسن رزق الله سبحانه وتعالى ، كما يقال : من غُذِّيَ بطعامِ قوم غُذِّيَ بقلوبهم ، ومن غُذِّيَ بقلوبهم آل إلى منقلبهم. وكانت هي مثلما كفلها كافلها ظاهرًا. كفلته باطنًا ، حتى أبدى الله سبحانه وتعالى له من أمره ما لم يكن قبل بدا له ، فكان

لمريم عليها السلام توطئة في رزقها، لما يكون كآله في حملها، فيكون رزقها بالكلمة ابتداء ، ليكون حملها بالكلمة . عند ذلك طلب زكريا عليه السلام نحو ما عاين لها من أن يرزقه الولد في غير إبانة ، كما رزق مريم الرزق من غير أوانه . وفي تعيين محلها بالمحراب ما يُلِيحُ . معنى ما ذكر من رجوليتها باطنًا ، من حيث إن محل النساء أن يتأخرن ، فأبدى الله سبحانه وتعالى في محلها ذكر المحراب ؛ إشارة لكمالها . والمحراب صدر البيت المتخذ للعبادة ، وفي لزومها المحراب في وقت تناول الرزق إعلام بأن الحبيس والمعتكف بيته محرابه ، ومحرابه بيته ، بخلاف من له متسع في الأرض ومحل من غير بيت الله .

إنما المساجد بيوت أهل الله ، المنقطعين إليه ، فهو محلهم في صلاتهم ، ومحلهم في تناول أرزاقهم ، ففيه إشعار بحضورها وحضور أهل العكوف حضور سواء في صلاتهم وطعامهم ، ولذلك أنمى حال العبد عند ربه بما هو عليه في حال تناول طعامه وشرابه ، فأهل الله سواء محياهم ومماتهم وأكلهم وصلاتهم . من غفل عند طعامه قلبه لم يستطع أن يحضر في صلاته قلبه ، ومَنْ حضر عند طعامه قلبه لم يغب في صلاته قلبه .

وفي ذكر الرزق سائغًا إشعار بأنها أنواع من أرزاق ، من حيث إنه لو اختص يخص بما هو أخصّ من هذا الاسم .

وكلمة ﴿ أنّى ﴾ تشعر باستغرابه وجود ذلك الرزق من وجوه مختلفة .

من جهة الزمان أنه ليس زمانه . ومن جهة المكان أنه ليس مكانه . ومِنْ جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله .

وفي ذكر الضمير في قوله : ﴿هو من عند الله﴾ إيذان بنظرها إلى مجموع حقيقة ذلك الرزق ، لا إلى أعيانه ، فهو إنباء عن رؤية قلب ، لا عن نظر عين ؛ لأن ﴿هوَ﴾ كلمة إضمار، جامعة لكل ما تفصلت صوره، مما اتحد مضمره . ولعلوّ رتبته عن الرتبة العادية جرى النبأ عنه مضافًا إلى الاسم العظيم الذي هو مسمى الأسماء كلها[1].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٤ / ٣٥٠ - ٣٦٢) .

قال تعالى : ﴿ **فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيًّا قال إني عبد الله**﴾ الآية [مريم : ٢٩ - ٣٠]. لما سلمت لأمر الله واستسلمت لقضائه ، حين أمرت ألا تكلم أحدًا من البشر ، فكُفيت أمرها ، وقام ولدها الذي في المهد بحجتها ؛ والجزاء من جنس العمل .

○ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ○ رضي الله عنهما

قال الله تعالى : ﴿ **والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرّءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ [النور : ٢٦] .

جاء في البخاري في حديث الإفك: عن عائشة– رضي الله عنها– قالت عائشة: **فبكيت يومي ذلك كله ، لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم . قالت : وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويومًا ، لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، حتى إني لأظنُّ أن البكاء فالق كبدي ، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي ، فاستأذنتْ عليّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . قالت : فبينا نحن على ذلك ، دخل رسول الله ﷺ علينا ، فسلّم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، ولقد لبث شهرًا لا يُوْحَى إليه في شأني بشيء . قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : « أما بعد .. يا عائشة ، إنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه » . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال . فقال أبي : والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال . قالت أمي : والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت – وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا –: إني والله ، لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ– والله يعلم أني منه بريئة– لتصدقني،**

فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾ . ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، والله يعلم أني حينئذ بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكني والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل في شأني وحيًا يُتْلى ، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان ، وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فَسُرّ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : « يا عائشة أما الله فقد برأك » . قالت : فقالت لي أمي: قومي إليه . فقلت : لا والله ، لا أقوم إليه ؛ فإني لا أحمد إلا الله عز وجل . وأنزل الله تعالى : ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم..** ﴾ العشر آيات [النور: ١١- ٢٢] ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي ... الحديث .

وفيها وفي طهرها يقول حسان بن ثابت -رضي الله عنه - :

حصان رَزَانٌ ما تُزَنّ بريبةٍ ... وتصبح غرثَى من لحوم الغوافلِ
عقيلة أصلٍ من لؤي بن غالبٍ ... كرام المساعي مجدهم غير زائلِ
مهذّبة قد طيّب الله خيمها ... وطهّرها من كل بَغْيٍ وباطلِ
فإن كان ما قد قيل عنيَ قلته ... فلا رفعت سوطي إلى أناملي
وإن الذي قد قيل ليس بلائط ... بها الدهر بل قول امرىء متماحِلِ
فكيف وودّي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافلِ
رأيتك - وليغفر لك الله - حرةً ... من المحصنات غير ذات الغوائلِ

فكيف كان جزاؤها من جنس عملها ؟

لمّا لم تدافع عن نفسها دافع الله عنها .

لمّا سكتت عن القول ببراءتها نطقت الآيات بطهارتها .

لمّا اتسمت بالتواضع كقولها : ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ، فتكلم الله ببراءتها ، ومن تواضع لله رفعه .

فضائل عائشة كثيرة بعضها يكفيها ، وبحسبها أن الله أنزل آيات تتلى فيها ، إن كان رسول الله ﷺ يقول لها : « **ذاك جبريل ، وهو يقرئك السلام** » . **قالت** : وعليه السلام . فمَنْ هذه حالتها مع جبريل كيف يجوز عليها الزور والأباطيل ؟

أمّا أهل السنة فقلوبهم بالفرح عند ذكر عائشة طائشة ، وأما الرافضة فتأخذهم حُمّى نافضة .

سجع

هي اختيار العظيم العلي للنبي ﷺ ، ومذ طفولتها تعرَف بالعز الأبي ، ولها عقل الكبار في سنّ الصبي ، وهل يضرّها قول الجهول الغبيّ ، أو يقدح في ريح المسك الذكيّ إلا بهيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ [النور : ١١] .

ما تزوّج الرسول ﷺ بكرًا سواها ، ولا أحب زوجة كحبه إياها ، جاء بها المَلَكُ في سَرَقة فجلّاها ، وتكلم الله ببراءتها سبحان من أعطاها ، وما يرمي الأصحاء بالسقم إلا سقيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

واعجبًا لمبغضيها مَنْ هم ؟ إن فهمت قولي قلت : إنْ هُمْ ، ضرّهم والله ما صدر عنهم ، خفّت والله عقولهم ، والآفة تُهيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

ما خفي على حسّادها طهارة ذيلها ، غير أن الطباع الرديّة في ميلها ، هجمت عليها الأحزان بَرَجْلِها وخيلها . فكانت طول نهارها وليلها ، تبكي بكاء اليتيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

مدّوا أبْوَاعهم إلى عرضها فما نالوا ، وأكثروا القول ظاهرًا وباطنًا واحتالوا . ونوَّعوا أسباب القذف وتكلموا وأطالوا ، وهي على طهارتها مما قالوا ، في مقعد مقيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

تكلموا فيها بترّهات ، وراموا ذمَّ السماء وهيهات ، يا عائبها إن عرفت عيبًا فهاتْ ، كفانا الله شر عقوق الأمهات ، فإنه قبيح ذميم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

ما كان سوى غيم ثم تجلّى ، وانصرف الحزن وتولّى بالفرح الذي تولّى ، ولبس الممدوح أحسن الحليّ وتحلّى ، وحمل القاذف إثمًا وكلّا ، أيقدح العقلاء في أمهاتهم ، القادحون كلّا هي منهم عقيم . ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ . حُوشيت من ريب أو فجور ، إنما زيدت بما جرى في الأجور ، تنزهت أم العدول أن تجور ، إنما وقعت في أغباش ليل ديجورِ ، ثم بان النور في سورة النور ، فنزل في الكلام العظيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

○ أم إسماعيل عليه السلام ○

روى البخاري عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ الناس المنطق من قبل – أمُّ إسماعيل ، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت : ياإبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء ؟. فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذًا لا يضيعنا . ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى كان عند الثنيّة حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات**

لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال : يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فذلك سعي الناس بينهما » ، فلما أشرفت على المروة فسمعت صوتًا فقالت : صه ! تريد نفسها ، ثم تسمّعت فسمعت أيضًا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس:قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال : -لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معيناً » . فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريًا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأمّ إسماعيل عند الماء فقالوا : تأذنين لنا أن ننزل عندك قالت : نعم . ولكن لاحقّ لكم في الماء . قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبي ﷺ : فألفى ذلك أم إسماعيل وهي

تحب الأنس ، فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ... » الحديث .

فهل كان جزاء أم إسماعيل من جنس قولها وعملها ؟

يودعها إبراهيم - عليه السلام - هي وفلذة كبدها عند جبال فاران ، موضع مكة الآن ، حيث لا حسيس ولا أنيس ، وحيث المكان القفر الموحش ، وتقول : آلله أمرك بهذا ؟ فيقول : نعم . فتقول : إذًا فلن يضيعنا . وثقت بما عند الله عز وجل فما كان جزاؤها ؟

قال لها الملك : لا تخافي الضيعة . إن الله لا يضيع أهله . تركت وراءها كل شيء ، وفقدت كل شيء حتى الماء ، وجعلت تتروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرّة الملتهبة ، وهي تهرول بين الصفا والمروة ، وقد نهكها العطش ، وهدّها الجهد ، وأضناها الإشفاق على الطفل ، ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء وإذا هي زمزم ، ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب .

تركت وراءها كل شيء فجاد الله عليها بكل شيء بزمزم وفيها كل شيء ، لقول رسولنا ﷺ « زمزم لما شرب له »(١) ، « وزمزم طعام طُعم ، وشفاء سقم »(٢) ومَنّ الله عليها بالأنس بعد ما فقدته .

ولكرامتها على الله لم يرسل أحدًا من عامّة الناس لحفر البئر وإنما الملك ، وسيد أهل السماء جبريل بعقبه أو جناحه . جبريل يحفر ، وإسماعيل يشرب ، ورسول الله ﷺ يتمنى أن يستسقي ، وصار السعي دينا ، وصار الشرب سنة ، وكل قطرة من زمزم قصة تروى ، وتحوي ظلّا وديعا يروّي هجير دنيانا ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) حديث صحيح : جمع فيه الحافظ ابن حجر جزءًا . انظر كتابي « الرياض النضرة في فضائل الحج والعمرة » .

(٢) حديث صحيح .

○ أم موسى عليه السلام ○

قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ [القصص: ٧].

وقال تعالى: ﴿**وحرّمنا عليه المراضع من قبل** ...﴾ الآية [القصص: ١٢].

وثقت أم موسى التقية بما عند الله عز وجل ، إن الأم إذا خافت على ابنها ضمّته إلى صدرها ، يالله !! يا للقدرة !! يا أم موسى أرضعيه ، فإذا خفت عليه وهو في حضنك ، وهو في رعايتك ، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك ، وهو تحت عينيك فألقيه في اليم !!

وثقت وهي الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة بما عند الله ، وبإلهام الله ، ونزل الإلهام على قلبها المحرور بردًا وسلامًا .

فما كان جزاؤها ؟

حرّم الله على موسى المراضع إلا ثدي أمه ، جعلوا يبحثون له عن ظئرٍ ترضعه .

لما ألقته ثقة بما عند الله ، ردّه الله إليها ، وجعله من المرسلين ، وكذا هدية الملك ، فإن الشيء إذا ردّ وأتى من الكريم يأتي مضمخا بنواله وعطائه وكرمه ﴿**ولتصنع على عيني**﴾ [طه: ٣٩] ﴿**إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ [القصص : ٧] **تلك** بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين .

كانت قبل ذلك ترضعه على خوف من فرعون وملئه ، فالآن ترضعه على عين فرعون ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير ، انظر إلى أم موسى ونهاية يقينها وثقتها بما عند ربها وصبرها ، ترضع ولدها ، وتأخذ على ذلك أجرها .

لطيفة :

لمّا سعت بتابوته إلى البحر ارتعشت يد التسليم فأمسكها ، فصاح شجاع الشجاعة بملء فيه : اقذفيه فيه ، فصدرت بعد إلقائه بصدر قد لوى به لواعج الاشتياق ، لا يعلم قَدْر ما به إلّا مَنْ رمى به ، فتلقاها بالبشير بشير ﴿ **إنا**

رادّوه﴾ فلم تزل أمواج اليم تيمم به مسالك القدر ، فألقته في برية **﴿فالتقطه﴾** فلما فتحوا التابوت ، أسفر عن مسافر على نجيب النجابة ، قد جعل زاده في مزود **﴿ولتصنع﴾** ، ووشحت قلادة الحب ، قد رصعت بدرّ **﴿وألقيت﴾** ، فقام فرعون على أقدام الإقدام على قتله ، فخرجت آسية من كمين أتباعه تنطق على لسان **﴿ سبقت لهم ﴾** ، وتنادي في مخدع خديعة الحرب **﴿ قرة عين لي ولك ﴾** ، وتجمع في كلامها ما هو فرد في لغة الغدر **﴿ عسى أن ينفعنا ﴾** فلم يزل فرعون في أغباش غرور يذبح ، حتى طلع غرر صبح **﴿ ونريد أن نمنّ﴾**، فلمّا قصّ شوق أمه جناح صبرها، **﴿وقالت لأخته قصيه فبصرت به﴾** في حريم **﴿وحرّمنا﴾** فدنت ، فدندنت حول حلة الحيلة تجول **﴿هل أدلكم﴾**، فلما حفظت باب المكر بحارس **﴿ يكفلونه لكم ﴾** ، دخل طفيلي الوجد من باب **﴿وهم له ناصحون﴾**، فجاءت بأمها يؤمها دليل الطرب ، فكادت إذ حضرت تحضر في ميدان **﴿لتبدي به﴾**، فكبحها لجام **﴿لولا أن ربطنا﴾** فخافت لسان جهرها لما خافت . فسلّ من أيديهم إلى سلم تسليمها ، فقرّ في حجر **﴿ كي تقرعينها ﴾** ورُبي موسى في رُبا فرعون ، ونما بين نمارقه . إلى أن آن أوان مشاجرته .

○ أسماء ذات النطاقين ○

في حديث الهجرة من حديث عائشة الذي رواه البخاري : فجهزناهما أحسن الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها ، فربطته على فم الجراب ، فبذلك سميت : ذات النطاق . وفي رواية الكُشْميهنيّ : النطاقين .

قال ابن حجر :

والنطاق : ما يشد به الوسط ، وقيل : هو إزار فيه تكة ، وقيل : هو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ، ثم ترسل الأعلى على الأسفل .

والمحفوظ أنها شقت نطاقها نصفين ، فشدت بأحدهما الزاد واقتصرت على الآخر ، ومن ثَمّ قيل لها : ذات النطاق ، وذات النطاقين[١].

وعند ابن سعد من حديث الباب : شقت نطاقها ، فأوكأت بقطعة منه الجراب ، وشدت فم القربة بالباقي فسميت : ذات النطاقين .

وعند البخاري عن أسماء رضي الله عنها : صنعت سفرة للنبي ﷺ وأبي بكر حين أرادا المدينة ، فقلت لأبي : ما أجد شيئًا أربطه إلا نطاقي ، قال : فشقيه ، فقلت : فسميت : ذات النطاقين .

وعند ابن سعد عن أسماء قالت : صنعت سفرة للنبي ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به ، فقلت لأبي بكر : ما أجد إلا نطاقي . قال : شقيه باثنين ، فاربطي بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة . قال ابن حجر في الإصابة (٤ / ٢٢٤) : وسنده صحيح .

قال الزبير بن بكار في هذه القصة : قال لها رسول الله ﷺ : « أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة » فقيل لها : ذات النطاقين[١] .

والجزاء من جنس العمل .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب : لما بلغ ابن الزبير أن الحجاج يعيره بابن ذات النطاقين أنشد قول الهذلي متمثلًا :

وعيَّرها الواشون أني أحبهـا   وتلك شكاة ظاهر عنك عارها
فإن أعتذر منها فإني مكذب   وإن تعتذر يردد عليك اعتذارها

ويرحم الله من يقول :

إذا ما محاسني التي أدلّ بها   كانت عيوبي فقل لي كيف أعتذر؟

---

(١) الفتح (٧ / ٢٨٧) .

(٢) انظر الإصابة (٢٢٤/٤)، والاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة (٢٢٩/٤).

○ أم أيمن رضي الله عنها حاضنة رسول الله ﷺ ○

عن عثمان بن القاسم قال : لمّا هاجرت أم أيمن أمست بالمتصرف دون الروحاء ، فعطشت وليس معها ماء ، وهي صائمة ، وجهدت ، فدُلِّي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض ، فشربت ، وكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وجاء في السيرة الحلبية[2] في الكلام على غزوة أحد : رأت أم أيمن فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، فأخذت تحثو في وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم: هاك المغزل، وهلم سيفك. ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقي الجرحى ، فرماها حِبان بن العرقة بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا لا نصل له ، وقال : « ارم به » . فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان، فوقع مستلقيًا حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجزه، ثم قال : « استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته » .

والجزاء من جنس العمل .

○ أم سُلَيم الغميصاء « الرُّميصاء » رضي الله عنها ○

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة ، وسمعت خشفة فقلت : من هذا ؟ فقال :

---

(١) أخرجه ابن سعد (٢٢٤/٨) وعنه الحافظ في الإصابة (١٧٨/١٣) ورجاله ثقات ، لكنه منقطع .

(٢) (٢ / ٣٢) .

هذا بلال »(١) .

وعن أنس قال : قال النبي ﷺ : « دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يديّ فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان »(٢) .

خطبها أبو طلحة وكان مشركًا، فقالت: إني قد آمنت، فإن تابعتني تزوجتك، قال : فأنا على مثل ما أنت عليه ، فتزوجته أم سُليم ، وكان صداقها الإسلام .

عن أنس رضي الله عنه قال : تزوج أبو طلحة أم سليم ، فكان صداق ما بينهما الإسلام ، أسلمت أم سليم قبل أبي طلحة فخطبها ، فقالت : إني قد أسلمت فإن أسلمت نكحتك ، فأسلم فكان صداق ما بينهما(٣) .

عن أنس قال : خطب أبو طلحة أم سُليم فقالت : إنه لا ينبغي أن أتزوج مشركًا ! أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان ، وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت ؟ قال : فانصرف وفي قلبه ذلك ، ثم أتاها وقال : الذي عرضت عليّ قد قبلت ، قال : فما كان لها مهر إلا الإسلام(٤) .

قال ثابت : ما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم ؛ الإسلام ، فدخل بها فولدت له .

ولمّا كان مهرها الإسلام ، مهر عجيب غالٍ ، حدثت منها الأعاجيب وكان جزاؤها من جنس عملها .

عن أنس رضي الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدخل بيتًا غير بيت أم سُليم فقيل له : فقال : « إني أرحمها ، قتل أخوها معي »(٥).

كان رسول الله ﷺ يقيل في بيتها .

عن ثابت عن أنس قال : مات ابن لأبي طلحة من أم سُلَيم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه . قال : فجاء فقربت إليه عشاء ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢ / ٣٠٩) وإسناده صحيح .

(٣) أخرجه النسائي، وسنده صحيح. (٤) رواه ابن سعد في الطبقات، وإسناده صحيح.

(٥) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد .

فأكل وشرب فقال : ثم تصنّعت له أحسن ما كانت تَصَنّعُ قبل ذلك فوقع بها . فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها . قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهِم ؟ قال : لا .. قالت : فاحتسب ابنك. قال: فغضب. وقال: تركتني حتي تلطخت ثم أخبرتني بابني!! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في غابرِ ليلتكما » . قال : فحملت . قال : فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معي ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقا ، فدنوا من المدينة فضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ قال : يقول أبو طلحة : إنك لتعلم يارب أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترى ، قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ، ما أجد الذي كنت أجد انطلق ، فانطلقنا ، قال : وضربها المخاض حين قدما فولدت غلامًا .... [١] .

وهذا الغلام هو عبد الله بن أبي طلحة الذي حنّكه رسول الله ﷺ.قال عَباية بن رفاعة : لقد رأيت لذلك الغلام سبعَ بنين ، كلهم قد ختم القرآن[٢].

قال النووي : حملت بعبد الله بن أبي طلحة في تلك الليلة ، وجاء من ولده عشرة رجال علماء أخيار[٣].

فانظر كيف كان جزاؤها من جنس عملها .. لما صبرت على فقد ولدها ، واحتسبته عند ربها .

○ رِبْعيُّ بن حراش ○

الإمام القدوة الوليّ الحافظ الحجة ، أبو مريم الغَطَفانيّ .

عن الحارث الغنوي قال : آلى ربعي بن حِراش أن لا تفتر أسنانه ضاحكًا حتى يعلم أين مصيره .

---

(١) رواه مسلم . (٢) أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات .

(٣) شرح النووي على مسلم (٥/٣٢٢) . والغلام الذي مات هو أبو عُمير صاحب النغير .

قال الحارث الغنوي : فأخبر الذي غسّله أنه لم يزل متبسمًا على سريره - ونحن نغسله - حتى فرغنا منه ، رحمة الله عليه .

والجزاء من جنس العمل .

وكم لسادات العباد من هذه الأمة آي .

○ إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله - ○

السيد الكبير من سادات أولياء الأمة المحمدية ، وشيخ المحدثين أبو عبد الله .

قال المروذي : سمعت أبا عبد الله يقول : الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب ، فما أشتهيه .

وقال : وأراد أبو عبد الله أن يبول في مرضه الذي مات فيه ، فدعا بطست ، فجئت به ، فبال دمًا عبيطًا ، فأريته عبد الرحمن المتطبب فقال : هذا رجل قد فتّت الغم - أو قال الحزن - جوفه[1] .

الإمام الخائف الذي خاف ربه فهابته الخلائق .

قال محمد بن مسلم : كنا نهاب أن نردّ أحمد بن حنبل في الشيء ، أو نحاجّه في شيء من الأشياء ؛ لجلالته ولهيبة الإسلام الذي رُزِقه .

وقال الحسن بن أحمد - والي الجسر - : دخلت على إسحاق بن إبراهيم وفلان - ذكر السلاطين - ما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرت إليه أكلمه في شيء ، فوقعت عليّ الرعدة حين رأيته من هيبته .

قال المروذي : ولقد طرقه الكلبي صاحب خبر السرّ ليلًا ، فمن هيبته لم يقرعوا عليه بابه ودقوا باب عمه .

قال عبدوس : رآني أبو عبد الله يومًا وأنا أضحك ، فأنا أستحييه إلى اليوم .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٥٣ .

ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ، فما هبت أحدًا منهم ما هبت أحمد ابن حنبل[١].

ولقد كان الإمام أحمد ينهى عن كَتب كلامه ، ويكره ذلك .

قال أبو بكر المَرُّوذي : رأيت رجلًا خراسانيًّا قد جاء إلى أبي عبد الله ، فأعطاه جزءًا ، فنظر فيه أبو عبد الله ، فإذا فيه كلام لأبي عبد الله ، فغضب فرمى الكتاب من يده .

قال أحمد بن حنبل : القلانس من السماء تنزل على رءوس قوم يقولون برءوسهم هكذا وهكذا ، المعنى لا يريدها .

ومعنى الكلام أنهم لا يريدون الرئاسة ، وهي تقع عليهم .

وكذلك كان أحمد – رضي الله عنه – ينهى عن كتب كلامه تواضعًا ، وقدّر الله أن دون ورُتِّبَ وشاع[٢] .

يقول ابن القيم في أعلام الموقعين :

وكان رضي الله عنه– يعني الإمام أحمد– شديد الكراهة لتصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث ، ويكره أن يكتب كلامه ، ويشتد عليه جدًّا ، فعلم الله حسن نيته وقصده ، فكُتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سِفْرًا ، مَنّ الله سبحانه علينا بأكثرها ، فلم يفتنا منها إلا القليل . وجمع الخلّال نصوصه في الجامع الكبير ، فبلغ نحو عشرين سِفْرًا أو أكثر .

والجزاء من جنس العمل .

من أطاع الله أطاعته الخلائق :

روي أن الإمام أحمد كان جالسًا في مسجده ، إذ جاءه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل ، فقال : إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلني إليك ، لتدعو الله لها بالعافية ، فأعطاه الإمام أحمد نعلين من الخشب ،

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(٢) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٢٥١ – ٢٥٢ .

وقال : اذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجني: يقول لك أحمد ، أيما أحب إليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟.

فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية ، وجلس عند رأسها ، وقال كما قال له الإمام أحمد . فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء . ثم خرج من الجارية ، فهدأت ، ورزقت أولادًا .

فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحبًا من أصحاب أحمد، فحضر ومعه ذلك النعل، وقال للمارد: اخرج وإلا ضربتك بهذه النعل. فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل ، **فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته**[1] . أو لقد مات من أطعناكم بسببه ، من قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء ، ومن أنس بالله أنس به كل مستوحش وطاب به كل خبيث ، من أطاع الله أطاعته الخلائق .

والجزاء من جنس العمل .

الإمام والمحنة :

انظر يا أخي ، لتعرف قدر سادات الرجال .

لولا سياط على ظهر ابن حنبل ما صار إمام أهل السنة .

يضرب في محنة خلق القرآن ، ويُعذب ، ويخرج منها ذهبًا خالصًا .

كانت نفسه عليه في الله تعالى أهون من نفس ذباب ، وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمحهم العواقب ، فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا إلى الحال ، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه ، لأنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « يبتلى الرجل على حسب دينه » . فسبحان مَنْ أيده وبصره وقواه ونصره .

قال ابن الجوزي : هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى فيذلّها . قال بعض الجلادين : لقد بطل أحمد بن حنبل الشطار ، والله لقد ضربته ضربًا لو

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٥١

أبرك لي بعير فضربته ذلك الضرب ، لنقبت عن جوفه .

وقال شاباص التائب : لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطًا ، لو ضربته فيلًا لهدّته .

قال أبو زرعة : لم أزل أسمع الناس يذكرون أحمد بن حنبل بخير ، ويقدمونه على يحيى بن معين وأبي خيثمة ، غير أنه لم يكن من ذكره ما صار بعد أن امتحن ، فلما امتحن ، ارتفع ذكره في الآفاق .

قال أبو غالب ابن بنت معاوية قال : ضرب أحمد بن حنبل بالسياط في الله ، فقام مقام الصديقين في العشر الأواخر من رمضان سنة عشرين ومائتين .

قال محمد بن إبراهيم بن مصعب - وهو يومئذ على الشرط للمعتصم خليفة إسحق بن إبراهيم أنه قال : ما رأيت أحدًا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك أثبت قلبًا من أحمد يومئذ ؛ ما نحن في عينه إلا كأمثال الذباب .

قال الإمام : لما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال : ائتوني بغيرها ، فأُتي بغيرها ، ثم قال للجلادين : تقدموا . قال : فجعل يتقدم إليّ الرجل فيضربني بسوطين، فيقول له- يعني المعتصم-: شد، قطع الله يدك! ثم يتنحى، ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين ، وهو في كل ذلك يقول لهم : شدوا،قطع الله أيديكم . فلما ضربت تسعة عشر سوطا قام إليَّ - يعني المعتصم - فقال : يا أحمد ، علام تقتل نفسك ؟ إني والله عليك شفيق . قال : فجعل عُجَيف ينخسني بقائم سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك ، الخليفة على رأسك قائم ؟ وقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ، أنت صائم ، وأنت في الشمس قائم ! فقال لي : ويحك يا أحمد ، ما تقول ؟ فأقول : أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسول الله ﷺ أقول به . قال : ثم رجع فجلس ، ثم قال للجلاد : تقدم ، أوْجِع ، قطع الله يدك ! ثم قام الثانية ، فجعل يقول : ويحك يا أحمد ، أجبني . فجعلوا يقبلون علي ويقولون : ويحك يا أحمد، إمامك على رأسك قائم، وجعل عبد الرحمن يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ قال:وجعل يقول- يعني المعتصم-:ويحك يا أحمد، أجبني

إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي . قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله ﷺ حتى أقول به . قال : فرجع فجلس ، فقال للجلادين : تقدموا ، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى ، وهو في خلال ذلك يقول : شد،قطع الله يدك ! قال أبي : فذهب عقلي ، فأفقت بعد ذلك ، فإذا الأقياد قد أطلقت عني ، فقال لي رجل ممن حضر : إنا كببناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك بارية ودُسناكَ ! قال أبي : فما شعرت بذلك ، وأتوني بسَوِيق فقالوا لي : اشرب وتقيأ ، فقلت : لست أفطر . ثم جيء بي إلى دار إسحق بن إبراهيم ، فحضرت صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة فصلّى ، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعَبُ دمًا[1].

هذا الإمام العظيم الذي هانت عليه نفسه في الله ، عظم في أعين سادات أهل السنة والجماعة .

فَها هُوَ يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري يقبل جبهة أحمد ووجهه حين أخرج من الحبس . وسليمان بن داود الهاشمي يقبل جبهة أحمد ورأسه .

وقال علي بن المديني : أحمد بن حنبل سيدنا .

وقال أيضًا : اتخذت أحمد بن حنبل إماما فيما بيني وبين الله ، ومَنْ يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله .

وقال : إن الله عز وجل أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وقال يحيى بن معين : أراد الناس أن أكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، لا أكون مثل أحمد أبدًا .

وقال إسحٰق بن راهويه : لولا أحمد بن حنبل وبَذْل نفسه لمَّا بذلها له ؛ لذهب الإسلام.

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٤٠٦ - ٤٠٧ .

قال بشر بن الحارث : أدخل أحمد الكير ، فخرج ذهبًا أحمر ، فبلغ ذلك أحمد ، فقال : الحمد لله الذي رَضَّى بشرًا بما صنعنا .

وقالوا له : قد حُمل أحمد وحملت السياط ، وقد وجب عليك أن تتكلم . فقال : أتريدون مني مقام الأنبياء ؟ ليس ذا عندي حفظ الله أحمد بن حنبل من بين يديه ومن خلفه .

هانت عليه نفسه فعزّ عند الساده..،والجزاء من جنس العمل .

○ شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي ○

الإمام القدوة الحافظ الكبير شيخ خراسان ، من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري .

لما قدم السلطان ألب أرسلان هراة في بعض قدماته ، اجتمع مشايخ البلد ، ورؤساؤه ، ودخلوا على أبي إسماعيل ، وسلموا عليه ، وقالوا : ورد السلطان ونحن على عزم أن نخرج ، ونسلم عليه ، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك . وكانوا قد تواطئوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا ، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ ، وخرجوا ، وقام الشيخ إلى خلوته ، ودخلوا على السلطان ، واستغاثوا من الأنصاري ، وأنه مُجسِّم ، وأنه يترك في محرابه صنمًا يزعم أن الله تعالى على صورته ، وإنْ بَعَثَ السلطان الآن يجده ، فعظم ذلك على السلطان ، وبعث غلامًا وجماعة ، فدخلوا ، وقصدوا المحراب فأخذوا الصنم ، فألقى الغلام الصنم ، فبعث السلطان من أحضر الأنصاري ، فأتى فرأى الصنم والعلماء ، وقد اشتد غضب السلطان، فقال له السلطان: ما هذا؟ قال: صنم يعمل من الصُفْرِ شبه اللُّعبة . قال : لست عن ذا أسالك . قال : فَعَمّ يسألني السلطان ؟ قال : إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا ، وأنك تقول : إن الله على صورته . فقال شيخ الإسلام بصولة وصوت جهوري : سبحانك ! هذا بهتان عظيم !! فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه ، فأمر به ، فأُخرج إلى داره مكرمًا ، وقال لهم : اصدقوني ، وهددهم ، فقالوا : نحن في يد هذا في بليّة من استيلائه علينا بالعامّة ،

فأردنا أن نقطع شرّه عنّا. فأمر بهم، ووكل بهم، وصادرهم، وأخذ منهم وأهانهم[١].

أرادوا الكيد لشيخ الإسلام ، فكاد الله لهم .

وقد كان- الشيخ- سيفًا مسلولًا على المتكلمين، له صولة وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده، يعظمونه، ويتغالون فيه، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به. كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير، وكان طَوْدًا راسيًا في السنة لا يتزلزل ولا يلين رحمه الله[١].

○ الحافظ الإمام عبد الغني المقدسي ○

قال له الفقيه نجم بن عبد الوهّاب الحنبلي وقد حضر مجلسه : يا تقي الدين ، لقد حملت الإسلام ، ولو أمكنني ما فارقت مجلسك[٢] .

هذا الإمام الذي ما كان ينام من الليل إلا قليلًا ، بل يصلي ويقرأ ويبكي .

من هاب الله هابه كل شيء ، من خاف من الله خاف منه كل شيء ، والجزاء من جنس العمل،فتعال معي حتى ترى .

يروي الحافظ الذهبي : كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلت لهم طنابير وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ الطنابير فكسرها . قال : فحدثني الحافظ ، قال : فلما كنت أنا وعبد الهادي عند حمام كافور إذا قوم كثيرٌ معهم عصيّ ، فخففت المشي، وجعلت أقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فلما صرت على الجسْر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرتُ لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر . قال : فإذا فارس يركض فترجّل ، وقبّل يديّ ، وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله له هيبة في النفوس[٣].

وكان إذا دخل على الملك العادل يقوم له ويلتزمه ، وكان يقول عن الحافظ : ما رأيت بالشام ولا مصر مثل فلان ، دخل عليّ فخُيِّلَ إليّ أنه أسد .

وقال العادل : ما خفت من أحد ما خفت من هذا ، فقلنا : يأيها الملك ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٥٠٩ ، ٥١٢) (٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٥٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٥٥) .

هذا رجل فقيه . قال : لما دخل ما خُيّل إليّ إلا أنه سبع[1] .

○ شيخ الإسلام ابن تيمية ○

شيخ المسلمين، ودرة الموحدين، وبقية السلف العامَلين، سيرته تحتاج لمجلدات ضخام، ولكن .

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

حديث ابن تيمية مع قازان :

لما ظهر قازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكُرج ، وبذل له أموالًا كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ، ووصل الخبر إلى ابن تيمية ، فخرج ورجال من وجوه دمشق وكبرائهم وذوي الأحلام منهم ، في يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هجرية إلى حضرة قازان ، فلما رآهم السلطان قال : من هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق ، فأذن لهم فحضروا بين يديه . فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولًا ، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدناه وأجلسه وأخذ الشيخ في الكلام معه أولا في عكس رأيه عن تسليط المخزول ملك الكرج على المسلمين ، وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكّره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحُقنت بسببه دماء المسلمين ، وحُميت ذراريهم، وصين حريمُهم.

يقول الحافظ عمر بن البزار في الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية :

حدثني من أثق به ، عن الشيخ وجيه الدين بن المنجّا قدس الله روحه ، قال : كنت حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ ، فجعل - يعني الشيخ - يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكُليته ، مصْغ لما يقول ، شاخص إليه ، لا يُعرض عنه ، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٤٥٥) .

في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل من يخصّه من أهل حضرته : مَنْ هذا الشيخ ؟ وقال ما معناه : إني لم أر مثله ولا أثبت قلبًا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقيادًا مني لأحد منه ، فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت .

وسأله إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حَرّان ، وتنتقل إليه ، ويكون برسمك . فقال : لا والله ، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ وأستبدل به غيره .

فخرج من بين يديه مكرمًا معززًا ، قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في حقن دماء المسلمين ؛ فبلغه ما أراده .

وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم[1] .

بل خلّص أهل الذمّة من النصارى واليهود ؛ لأن التتار ومن معهم من ملوك النصارى كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم ، وكان بعضهم يفتك بالبعض الآخر . فقال ابن تيمية للقائد - بولاي - وكان قد التحق مع قازان : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، فإنا نفكهم ولا ندع أسيرًا ، لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة .

يقول ابن تيمية : وقد أطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

قال ابن تيمية: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة. فقال: لو صححت لم تخف أحدًا .

---

(١) الأعلام العلية ص٦٩ - ٧٢ .

فابن تيمية الخائف الوجل الذي يهاب ربه تهابه الملوك ، وجزاؤه من جنس عمله .

وقد قص أيضًا هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن قوام البالسي ، وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لما تكلم مع قازان ، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه ، وأنه قال لترجمانه : قل لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضٍ وإمام وشيخ - على ما بلغنا - فغزوتنا ، وبلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين ، وما غزوا بلاد الإسلام ، بل عاهدوا قومنا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت . قال : وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونوب ، قام ابن تيمية فيها كلها لله ، وقال الحق ، ولم يخش إلا الله عز وجل . قال : وقرب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس . قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلبًا للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا ، وليذلَّ الإسلام وأهله ، فاخذله وزلزله ، ودمره واقطع دابره . قال : وقازان يؤمن على دعائه ، ويرفع يديه .

قال : فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله . قال : فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صرصري وغيره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا. فقال: وأنا والله لا أصحبكم . قال : فانطلقنا عصبة ، وتأخر هو في خاصة نفسه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق ، وينظرون إليه ، قال : والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه ، وأما أولئك الذين

أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر ، فشلحوهم عن آخرهم[١] .

والجزاء من جنس العمل .

ما ازداد عبد بعفو إلا عزّا :

أوغروا صدر السلطان على ابن تيمية ، وأشاروا إليه بسجنه وبقتله ، فرفعه الله فوقهم .

يقول ابن تيمية : إن السلطان لما جلس بالشباك ، أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله ، واستفتاه في قتل بعضهم .

قال : ففهمت مقصوده وأن عنده حنقًا شديدًا عليهم . قال ابن تيمية : فشرعت في مدحهم والثناء عليهم ، وشكرهم ، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، أمّا أنا فهُمْ في حِلٍّ من حقي ومن جهتي ، وسكّنت ما عنده عليهم .

قال : فكان القاضي زين الدين بن مخلوف - قاضي المالكية - يقول بعد ذلك : ما رأينا أتقى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا في السعي فيه . ولما قدر علينا عفا عنّا[٢] .

يرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية شهروا به وسجنوه ، وقبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ، ولم يبق عنده كتاب ، ولا ورقة ، ولا دواة ، ولا قلم ، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بالفحم .

فكيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟.

إنَّ شيخ الإسلام ابتلي بلاءً شديدًا ، ولكن السجن لا يحجب نور الإيمان ، يقول ابن تيمية : لو يعلمون ما أسدوا إليّ من الجميل بسجنهم إياي في القلعة ، ما كافأتهم عليه بملء القلعة ذهبًا .

وجعل يردد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ [الحديد : ١٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٩١ - ٩٢) .

(٢) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، للحافظ ابن عبد الهادي ص٢٨٢ - ٢٨٣.

وكان رحمه الله يقول: ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري ، أينما رحت فهي معي ، إن معي كتاب الله وسنة نبيه ، إن قتلوني فقتلي شهادة ، وإن نفوني فنفيي سياحة ، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي ، إن المحبوس من حبس عن ربه ، والأسير من أسره هواه .

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين ، أو إحدى وثمانين ختمة ، انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة : ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾ [القمر: ٥٤-٥٥] ثم كملت عليه بعد وفاته، وهو مُسجًّى، ودخل عليه حفاظ الحديث لتغسيله ، ومنهم الحافظ المزي ، وازدحم الخلق على باب القلعة والطرقات ، وامتلأ جامع دمشق وصلوا عليه ، وحضرها نساء كثير حُزرن بخمسة عشر ألفًا . وأما الرجال فحزروا بستين ألفًا وأكثر إلى مائتي ألف ، وأغلق الناس حوانيتهم ، وكانت جنازته ثاني جنازة بعد جنازة إمام أهل السنة ، وصدق ابن حنبل حين قال : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز .

وما استطاع ساجنوه أن يخرجوا يوم موته ؛ خوفًا من بطش العامة بهم ، فصاروا هم السجناء في يوم موته ، يا لذلهم ويا لعزه !!

ويرحم الله من قال يوم موته يرثيه :

بكت السماء عليه يوم فراقه	أسفًا وجاء الغيث والأمطارُ
وبكى الشام ، ومُدْنه ، وبقاعه	حفّت به من ربه الأنوارُ
والناس من باكٍ عليه بَحَرّة	ودموعهم فوق الخدود غزارُ
وهُم ألوف ، ليس يحصي جمعهم	إلا إلـــه غافـــر ستـــارُ[1]
ما كان إلا شامة في شامنا	وعليه من تقوى الإله شعارُ

ويقول الشيخ مجير الدين الخياط الدمشقي في رثاء ابن تيمية :

---

(١) أسماء الله توقيفية ، ومن أسماء الله السّتير لا الستار .

خشعتْ لهيبة نعشك الأبصارُ   لما عليه ِ تبدتِ الأنـوارُ
ولأمة الإسلام حول سريره   سامٍ إلى رب السماء جُؤارُ
ولرحمة الرحمن ظل سَجْسَجٌ   يغشاهـمُ وسكينـة ووقـارُ
كان الممات زفاف عرس حياته   وبه النفوس مع الدموع تثارُ
قد كان مغناطيس أفئدة الورى   أنسا ، ولكن في القليل نفارُ
والناس أمثال الجراد،لهم على التَّـــابـوت منه تهافـتٌ ودوارُ
فكأنه يعسوب نحل نحوه   حيًّا وميْتًا للفقوس مطـارُ
يفنى الزمان وينقضي وبأحمد   وحديثه تتحدث السمَّـارُ

يرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، أرادوا محو اسمه من الوجود ، وأراد الله أن تتحدث السمَّار بحديثه ، سجنوه فسجنوا هم ، وطارت بذكره الأخبار ، حرقوا كتبه حتى لا تصل إلى العامة، وتمالأت على ذلك دول وعصور ، فما كان من أمره ؟

لصدقه وإخلاصه ، ما من صقع أو نجع أو كَفرٍ إلا وفيه كتب شيخ الإسلام ، وأتاح الله لها من الانتشار ما لم يتح لغيرها .

والجزاء عند الله من جنس العمل في الدنيا والآخرة .

وسيرة شيخ الإسلام لهذا الفصل مسك الختام .

* * *



النكــاح





□ النكــاح □

اعلم يا أخي أن ترك النكاح رهبانية ، والمتزوجون في العلو بإبانية ، أما مذهب أحمد أحمدُ مذهب ، وهو إلى تفضيل النكاح على التبتل يذهب ، إن ليلة بات فيها أبو الشافعي مع زوجته ، ووالد أحمد مع امرأته حتى حملتا من حمل ما حملا من العلوم ، أفضل من تعبد عابدٍ ألف سنة يصلي ويصوم . وقد يقال : فربما جاء نوح بكنعان . فقل : وربما أتى صهيب وسلمان . ثم إن الثواب على قدر نية الإنسان ، ومهما كان كان .

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف »(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « ثلاث من فعلهن ثقة بالله واحتسابًا كان حقًّا على الله أن يعينه ، وأن يبارك له : من سعى في فكاك رقبة ثقة بالله واحتسابًا كان حقًّا على الله أن يعينه ، وأن يبارك له ، ومن تزوج ثقة بالله واحتسابًا كان حقًّا على الله تعالى أن يعينه ، وأن يبـارك له ، ومن أحيا أرضًا ميتة ثقة بالله واحتسابًا كان حقًّا على الله أن يعينه ، وأن يبارك له »(٢) .

قال المناوي :

« من تزوج ثقة بالله واحتسابًا » فلم يخشَ العيلة ، بل توكل على الله ، وامتثل أمره في التزويج ، وأمر نبيه ﷺ « كان حقًّا على الله تعالى أن يعينه » على

---

(١) حسن : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٤٥ .

(٢) إسناده صالح : رواه الطبراني في الأوسط ، وكذا البيهقي من حديث عبيد الله بن الوازع عن أيوب بن أبي الزبير عن جابر وحسنه السيوطي وقال الذهبي في المهذب : إسناده صالح مع نكارته عن أبي أيوب . انظر فيض القدير ٣ / ٢٩١ .

الإنفاق وغيره « وأن يبارك له » في زوجته ؛ لأن من وثق بالله لم يكله إلى نفسه ، بل يتولى أموره ، ويسدده في أقواله وأفعاله ، ومن طلب منه الثواب بإخلاص ، أفاض عليه من بحر جوده ونواله[1] .

فيمن ترك محبوبه حرامًا فبُذل له حلالًا أو أعاضه الله خيرًا منه :

تحت هذا العنوان كتب شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية :

عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه .

قال يحيى بن عامر التيمي : خرج رجل من الحي حاجًّا ، فورد بعض المياه ليلًا ، فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها ، فأعرض عنها ، فقالت له : هلمّ إليّ ، فلمَ تعرض عني ؟ فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، فتجلببت ثم قال : هِبْتَ والله مُهابا ، إنَّ أولى من شَركك في الهيبة لَمَنْ أراد أن يُشْرِكك في المعصية . ثم ولَّتْ فتبعها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحتُ أتيتُ رجلًا من القوم فسألته عنها ، وقلت : فتاة صفتها كذا وكذا . فقال : هي والله ابنتي . فقلت : هل أنت مُزوجي بها ؟ فقال : على الأكفاء ، فمن أنت ؟ فقلت : رجل من تيم الله ، قال كُفوٌ كريم . فما رمْت حتى تزوجتها ودخلت بها ، ثم قلت : جهزوها إلى قدومي من الحج ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة ، وهاهي ذي ولي منها بنون وبنات .

وقال الحسن بن زيد : وَلينا بديار مصر رجلٌ فوجد على بعض عماله ، فحبسه وقيّده ، فأشرفت عليه ابنة الوالى فهَوِيَتْه فكتبت إليه :

أيها الرامي بعينيـــه وفي الطرف الحتوفُ
إن تُرِدْ وصلا فقد أمـ ـكنكَ الظبيُ الألوفُ

فأجابها الفتى :

إن تَرَيْني زاني العيـ ـنين فالفرج عفيفُ

---

(١) فيض القدير (٣ / ٢٩١) .

ليس إلا النظر الفا تر والشعر الظريفُ

فأجابته :

قد أردنـاك فألفيــ ـناك إنسانًا عفيفًا
فتأبَّيْتَ فلا زِلْـ ـتَ لقَيْدَيْكَ حليفًا

فأجابها :

ما تأبَّيْتُ لأنـي كنتُ للظبي عَيوفا
غير أني خِفتُ ربًّا كان بي بَرًّا لطيفًا

فذاع الشعر، وبلغت القصة الوالي فدعا به فزوجه إياها، ودفعها إليه[١].

والجزاء من جنس العمل .

قال مالك بن دينار : جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن ، فيها جَوارٍ خُلقن من ورد الجنة ، يسكنها الذين هَمّوا بالمعاصي فلما ذكروا الله عز وجلّ راقبوه ، فانثنت رقابهم من خشية الله عز وجل[٢] .

وفي المقابل يقول ابن قيم الجوزية :

ذكر عبد الملك بن قريب قال : هويَ رجلٌ من النساء جارية فاشتد حبه لها ، فبعث إليها يخطبها ، فامتنعت ، وأجابته إلى غير ذلك[٣] ، فأبى وقال : لا ، إلّا ما أحلّ الله ، ثم إن محبّته ألقيت في قلبها ، فبذلت له ما سأل ، فقال : لا والله ، لا حاجة لي بمن دعوتها إلى طاعة الله ، ودعتني إلى معصيته[٤] .

والجزاء من جنس العمل .

قصة ابن عقيل مع العقد :

قال الحافظ الذهبي :

---

(١) ، (٢) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص٤٤٣ - ٤٥٠ .
(٣) أي امتنعت عن الزواج ، وأجابته إلى الوصل الحرام .
(٤) روضة المحبين ص ٤٥٤ .

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : حكى ابن عقيل عن نفسه قال : حججت ، فالتقطت عقد لؤلؤٍ في خيط أحمر ، فإذا شيخ أعمى ينشده ، ويبذل لملتقطه مائة دينار ، فرددته عليه ، فقال : خذ الدنانير. فامتنعت ، وخرجت إلى الشام ، وزرت القدس ، وقصدت بغداد ، فأويت بحلب إلى مسجدٍ وأنا بردان جائع، فقدموني، فصليت بهم، فأطعموني، وكان أول رمضان، فقالوا: إمامنا تُوفي فصلِّ بنا هذا الشهر ، ففعلت ، فقالوا : لإمامنا بنت ، فزُوجت بها ، فأقمت معها سنة ، وأولدتها [ولدًا ذكرا]، فمرضت في نفاسها، فتأملتها يومًا فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر ، فقلت لها : لهذا قصة ، وحكيت لها ، فبكت . وقالت : أنت هو والله ، لقد كان أبي يبكي . ويقول : اللهم ، ارزق بنتي مثل الذي ردّ العقد عليّ، وقد استجاب الله منه، ثم ماتت، فأخذت العقد والميراث، وعدت إلى بغداد(١) .

والجزاء من جنس العمل .

كنت مجاورًا بمكة - حرسها الله تعالى - فأصابني يومًا من الأيام جوع شديد ، لم أجد شيئًا أدفع به عني الجوع ، فوجدتُ كيسًا من إبريسم مشدودًا بشرابة من إبريسم أيضًا ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فحللته فوجدت فيه عقدًا من لؤلؤ لم أر مثله ، فخرجت فإذا الشيخ ينادي عليه ، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار وهو يقول : هذا لمن يرد علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ ، فقلت : أنا محتاج ، وأنا جائع ، فآخذ هذا الذهب فأنتفع به ، وأرد عليه الكيس ، فقلت له : تعال إليّ ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فأعطاني علامة الكيس ، وعلامة الشرابة ، وعلامة اللؤلؤ وعدده ، والخيط الذي هو مشدود به ، فأخرجته ودفعته إليه ، فسلم إلي خمسمائة دينار ، فما أخذتها ، وقلت : يجب عليّ أنْ أعيده إليك ولا آخذ له جزاء ، فقال لي:لابد أن تأخذ . وألحَّ عليّ كثيرا ، فلم أقبل ذلك منه ، فتركني ومضى .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٤٤٩ - ٤٥٠) .

وأما ما كان مني : فإني خرجت من مكة وركبتُ البحر ، فانكسر المركب وغرق الناس ، وهلكت أموالهم ، وسلمت أنا على قطعة من المركب ، فبقيت مدة في البحر لا أدري أينِ أذهب ، فوصلت إلى جزيرة فيها قوم ، فقعدت في بعض المساجد ، فسمعوني أقرأ ، فلم يبقَ في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليّ وقال : علمني القرآن . فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال .

قال : ثم إني رأيت في ذلك المسجد أوراقًا من مصحف ، فأخذتها أقرأ فيها . فقالوا لي : تحسن تكتب ؟ فقلت : نعم ، فقالوا : علمنا الخط ، فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب ، فكنت أعلمهم ، فحصل لي أيضا من ذلك شيء كثير ، فقالوا لي بعد ذلك : عندنا صبية يتيمة ، ولها شيء من الدنيا نريد أن تتزوج بها ، فامتنعت فقالوا : لابد . وألزموني فأجبتهم إلى ذلك . فلما زفوها إليّ مددت عيني أنظر إليها ، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقًا في عنقها ، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه ، فقالوا : يا شيخ ، كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد ، ولم تنظر إليها . فقصصت عليهم قصة العقد ، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير ، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة ، فقلت : ما بكم ؟ فقالوا : ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية ، وكان يقول : ما وجدتُ في الدنيا مسلمًا إلا هذا الذي ردّ علي هذا العقد ، وكان يدعو ويقول : اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي ، والآن قد حصلت ، فبقيت معها مدة ورزقت منها بولدين . ثم إنها ماتت ، فورثت العقد أنا وولداي ، ثم مات الولدان فحصل العقد لي فبعته بمائة ألف دينار ، وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال[1] .

---

(١) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١ / ١٩٦ - ١٩٨) .
وقد ذكر هذه القصة الشيخ الطحان في شريط له بعنوان : الجزاء من جنس العمل ، ثم ذكر نفس القصة عن أبي بكر الحيري من تلامذة الخطيب البغدادي في القرن الخامس الميلادي في شريط : اشتراط الدين في الزواج .

هكذا ساق هذه الحكاية يوسف بن خليل الحافظ في معجمه ، وساقها ابن النجار في تاريخه ، وقال : هي حكاية عجيبة . وأظنُّ القاضي حكاها عن غيره . وقد ذكرها أبو المظفر سبط بن الجوزي في تاريخه ، في ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل .

ولكن أبا المظفر ليس بحجة فيما ينقله ، ولم يذكر للحكاية إسنادًا متصلًا إلى ابن عقيل ، ولا عزاها إلى كتاب معروف ، ولا يعلم قدوم ابن عقيل إلى الشام ، فنسبتها إلى القاضي أبي بكر الأنصاري أنسب والله أعلم اهـ .

قصة زواج المبارك والد الإمام عبد الله بن المبارك :

يحكي الشيخ الطحّان في شريط له عن اشتراط الدين في الزواج :

إن المبارك كان عبدًا رقيقًا أعتقه سيده ، ثم اشتغل أجيرًا عند صاحب بستان ، وفي ذات يوم خرج صاحب البستان مع أصحاب له إلى البستان ، وقال للمبارك : ائتنا برمان حلو ، فقطف رماناتٍ ثم قدمها إليهم فإذا هي حامضة ، فقال صاحب البستان : أنت ما تعرف الحلو من الحامض ، قال : لم تأذن لي أن آكل حتى أعرف الحلو من الحامض .

فقال له : أنت من كذا وكذا سنة تحرس البستان وتقول هذا . وظن أنه يخدعه، فسأل الجيران عنه فقال: ما أكل رمانة واحدة. فقال له صاحب البستان: يا مبارك ليس عندي إلا ابنة واحدة فلمن أزوجها ؟ فقال له : اليهود يزوجون للمال، والنصارى للجمال، والعرب للحسب، والمسلمون يزوجون للتقوى، فمن أي الأصناف أنت زوّج ابنتك للصنف الذي أنت منه . فقال : وهل يوجد أتقى لله منك ، ثم زوجه ابنته .

سبحان الله عفّ المبارك عن رمّانة من البستان فسيق إليه البستان وصاحبته ، والجزاء من جنس العمل ، ومن ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه ، ومن هذا البيت خرج عبد الله بن المبارك الذي كان يقول : لأن أرد درهمًا من شبهة خير لي من أن أتصدق بمائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ... حتى عد ستمائة ألف

درهم ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا** ﴾ [الأعراف : ٥٨] والد يتنزه عن الشبهات ، وكذا ابنه الإمام .

من كان لله كما يريد كان الله له كما يريد .

فوق ما يريد

طالب علم بالأزهر :

يقول الشيخ الطحان : من صبر على شيء لله عوّضه الله خيرًا منه ، يروي مشايخنا أن طالبًا من طلاب الأزهر قدم من بلاد الصعيد أيام كان الأزهر أزهرَ ، فجلس في حلقة شيخه ، وتأخرت نفقته من الصعيد ، ففارق حلقة الشيخ عساه يحصّل كسيراتٍ من الخبز ولقيمات يقتات بها ويتقوّى عليها ، فبينا هو يسير إذ دخل في شارع ضيق ، فوجد بابًا مفتوحًا ، ووجد خزانة من طعام ، فمدّ يده إلى الطعام ، وكان من المحشي ، ثم بعد أن تناول قطعة منه ووضعها في فمه تذكر أنه جاء ليطلب العلم ، والعلم نور ، والأكل من هذا الطعام دون أن يستحل صاحبه يظلم القلب ، ولا يمكن أن يجتمع النور والظلمة ، وسيطرد أحدهما الآخر ، فترك هذا الطعام ، وعاد لحلقة شيخه وبه من الجوع ما لا يعلمه إلا الله ، وبعد أن انتهى الدرس إذا بامرأة تأتي ، وتكلم الشيخ كلامًا لم يفهمه الحاضرون ، ثم قال الشيخ لطالب العلم هذا : يا عبد الله ، ألك رغبة في الزواج ؟ فقال : أتهزأ بي ، والله من ثلاثة أيام ما دخل جوفي طعام ، فكيف أتزوّج ؟

قال الشيخ : إن هذه المرأة تذكر أن زوجها تُوفي ، وترك بنتًا واحدة ، وكان ذا ثروة ومال كثيرٍ ، وتريد أن يتزوج ابنتها رجلٌ صالح ، يعيش معها ومع ابنتها ، وينمّي المال ويرعاه . فقال : إن كان كذلك فلا بأس . فخرج الشيخ والتلميذ والمرأة والحاضرون يسيرون حتى دخلوا البيت الذي دخله هذا الشاب من قبل، فلمّا وضع الطعام بكى هذا الشاب ، فقال له الشيخ : لِمَ تبكي ؟ هل أكرهناك على الزواج ؟ قال : لا ، ولكني قبل سويعات دخلت هذا البيت لآكل من هذا الطعام الذي وضع بين أيدينا ، فتذكرت أنه حرام فتركته لله ، فأعاده الله إليّ ، ومعه غيره عن طريق حلال . ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

والجزاء من جنس العمل .

من آذت زوجها :

قال رسول الله ﷺ: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه، قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا»[1].

كما آذت زوجها دعت عليها زوجته من أهل الجنة ، والجزاء من جنس العمل .

يقول ﷺ : « لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ، ولو صلح أن يسجد بشر لبشر ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها ، والذي نفسي بيده ، لو أن من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس[2] بالقيح والصديد ، ثم أقبلت تلحسه بلسانها ، ما أدّت حقه »[3] .

وقال ﷺ: «لو تعلم المرأة حقَّ الزوج، لم تقعد ما حضر غداؤه وعشاؤه حتى يفرغ منه»[4] .

من كانت عنده امرأتان :

قال ﷺ : « إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما ، جاء يوم القيامة وشقه ساقط »[5] .

وقال ﷺ : « من كان له امرأتان ، فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وشقه مائل »[6].

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) رواه أحمد في مسنده، والترمذي عن معاذ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٦٩.

(٢) تنفجر .

(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٦٠٢.

(٤) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن معاذ ، وكذا رواه البزار ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٣٥ .

(٥) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٧٧٣.

(٦) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه الطيالسي والحاكم وابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٣٩١ .

مكارم الأخلاق



□ مكارم الأخلاق □

أخي، لقد امتدح الله نبيه ﷺ؛ فقال تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [القلم : ٤] .

وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق »[1] .

وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[2] .

والتزكية ربع الرسالة المحمدية ، قال تعالى : ﴿ **يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ...** ﴾ الآية [البقرة : ١٢٩] .

ووصف الله بالفلاح مَنْ زكّى نفسه فقال : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ [الشمس : ٩] .

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها»[3].

وقال ﷺ : « إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها »[4].

قال المناوي :

« إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها » وهي الأخلاق الشرعية ، والخصال الدينية ، لا الأمور الدنيوية ، فإن العلو فيها نزول ، ويبغض حقيرها ورديئها ، فمن اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبه ، ومَنْ تحلّى بالأوصاف الرديئة

---

(١) صحيح : رواه ابن سعد ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٤٥ .

(٢) صحيح :

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٦ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٥ .

كرهه، وشرف النفس صونها عن الرذائل والدنايا والمطامع القاطعة لأعناق الرجال، فيربأ بنفسه أن يلقيها في ذلك[١].

١ - كظم الغيظ

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أحب الناس إلى الله أنفعهم ، وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه ديْنا ، أو تطرد عنه جوعًا ، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبّ إليّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا ، ومن كفّ غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضًا يوم القيامة ، ومَنْ مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له ، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزلّ الأقدام ، وإن سوء الخلق ليفسد العمل ، كما يفسد الخلّ العسل »[٢] .

قال المناوي :

« مَنْ كفَّ غضبه ستر الله عورته »[٣] من منع نفسه عند هيجان الغضب عن أذى معصوم ، فعاجل ثوابه أن يستر عورته في الدنيا ، ومَنْ ستره فيها لا يهتكه في الآخرة ولا يعذبه بنارها ؛ لأن من وراء الستر الرضا ، والنار إنما تلظت لغضبه ، فإذا كف العبد غضبه ستر الله عورته ، وأما ما صح أن موسى اغتسل عريانًا فوضع ثوبه على حجر في خلوة ففرّ به حجر فعدا وراءه ، يقول : ثوبي يا حجر ، ويضربه بعصاه ، حتى أثرت فيه ، فهو ضرب تأديب لا انتقام[٤] اهـ.

---

(١) فيض القدير (٢ / ٢٩٥) .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في : قضاء الحوائج . والطبراني في الكبير ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٤ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٩٠٣ .

(٣) عند ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، قال الزين العراقي : إسناده حسن. انظر فيض القدير (٦ / ٢١٧) .

(٤) فيض القدير للمناوي (٦ / ٢١٧) .

وكظم الغيظ هو الإمساك عنه ، والكف عن إمضائه ، من كظمت القربة إذا شددت رأسها « ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه رضي يوم القيامة » .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « من كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ؛ ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة »[1] .

وأي رضا ، وأي رجاء فوق زواجه من الحور العين من يشاء منهن .

قال ﷺ : « من كتم غيظا ، وهو قادر على أن يُنْفِذَهُ ، دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يُخيره من الحور العين ، يزوجه منها ما شاء »[2] .

خرج زين العابدين علي بن الحسين يومًا من المسجد ، فسبّه رجل ، فانتدب الناس إليه فقال : دعوه . ثم أقبل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل ، فألقى زين العابدين إليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء .

ونال منه رجل يومًا ، فجعل يتغافل عنه – يريه أنه لم يسمعه – فقال له الرجل : إياك أعني ! فقال له علّي : وعنك أغضي !

قال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماءً ليتوضأ ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجّه ، فرفع رأسه إليها ، فقالت الجارية : إن الله يقول: ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾ فقال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿**والعافين عن الناس**﴾ فقال : عفا الله عنك ، فقالت : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ قال :

---

(١) صحيح .

(٢) حسن : رواه أصحاب السنن الأربعة ، وأحمد في مسنده وأبو نعيم في الحلية،وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٣٩٤ .

أنت حرة لوجه الله تعالى .

وروى ابن أبي الدنيا أن غلامًا سقط من سفود ، وهو يشوي شيئًا في التنور ، على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله ، فنهض علي بن الحسين مسرعًا ، فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حر ، ثم شرع في جهاز ابنه[١] .

٢ - الرفق والرحمة

لتكن الرحمة سجيتك والرفق خلقك ، أما تحب أن يرحمك الله .

قال ﷺ : « ارحم من في الأرض ، يرحمك مَنْ في السماء »[٢] .

وقال ﷺ : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون »[٣] .

وقال ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[٤] .

قال المناوي :

« ارحم من في الأرض » يشمل جميع أصناف الخلائق ، فيرحم البر والفاجر ، والناطق والمبهم ، والوحش والطير .

---

(١) مجلة الرائد العدد رقم ١٣٧ ص ٥٩ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن جرير ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود ، والطيالسي ، والطبراني في الأوسط ، والطبراني في الصغير ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٠٩ وصححه الحاكم ، وأقره الذهبي ، وصححه السيوطي ، وقال ابن حجر : رواته ثقات .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩١٠ .
قال الزين العراقي : إسناده جيد ، وكذا قال المنذري ، ورمز السيوطي لصحته .

(٤) حسن : رواه الطبراني في المعجم الكبير عن جرير ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٧٧ .

قال الحراني: والرحمة تحلة ما يوافي المرحوم في ظاهره وباطنه، أدناه كشف الضر وكشف الأذى، وأعلاه الاختصاص. وفيه ندب إلى العطف على جميع أنواع الحيوان، وأهمها وأشرفها الآدمي المسلم، والكافر المعصوم، فيعطف عليهم بالمواساة والمعونة والمواصلة ، فيوافق عموم رحمة الله للكلّ بالإرفاق وإدرار الأرزاق .

قال وهب : من يَرْحم يُرحَمْ ، ومن يصمت يَسْلَم ، ومن يجهل يُغْلَب ، ومَنْ يعجل يخطيء ، ومَنْ يحرص على الشر لا يسلم ، ومن يكره الشر يعصم .

وقال عيسى عليه السلام : لا تنظروا في عيوب الناس كأنكم أرباب ، انظروا فيها كأنكم عبيد، إنما الناس مبتلًى ومعافًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية .

وهنا دقيقة : وهي أن العارف المرصفي ، قال : يجب على الفقير إذا تخلّق بالرحمة على العالم ألّا يتعدى بالرحمة موطنها ، فيطلب أن يكون العالم كله سعيدًا ، فإنه تعالى يقول : ﴿ **وتمت كلمة ربك لأملأنَّ جهنم من الجنّة والناس أجمعين** ﴾ [هود : ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ما يبدل القول لديّ** ﴾ [ق : ٢٩] .

ولقد ندب الشارع إليها في كل شيء حتى في قتال الكفار(١)، والذبح، وإقامة الحجج ، وغير ذلك(٢) .

قال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »(٣) . وزاد أحمد والترمذي والحاكم : « والرحم

---

(١) من رحمة نسائهم وأطفالهم ، وإلا فالله تعالى يقول : ﴿ يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ [التوبة : ٧٣] ، [التحريم : ٩] .

(٢) فيض القدير (١ / ٤٧٣ - ٤٧٤) .

(٣) صحيح: رواه أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥١٦ .

شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » .

قال المناوي :

الراحمون لمن في الأرض من آدمي ، وحيوان لم يؤمر بقتله ، بالشفقة والإحسان والمواساة والشفاعة وكف الظلم ، ثم بالتوجع والتوجه إلى الله ، والالتجاء إليه والدعاء بإصلاح الحال ، ولكل مقام مقال .

قال العارف البوني : فإن كان لك شوق إلى الرحمة من الله ، فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك ، ولا تستبد بخيرك ، فارحم الجاهل بعلمك ، والذليل بجاهك ، والفقير بمالك ، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك ، والعصاة بدعوتك ، والبهائم بعطفك ورفع غضبك ، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه ، فكل ما يفعله من خير دقّ أوجل فهو صادر عن صفة الرحمة .

قد أمر الراحم أن يبدأ بنفسه فيرحمها ، فمنْ رحمها سلك بها سبيل هداها ، وحال بينها وبين هواها ، فإنه رحم أقرب جار إليه ، ورحم صورة خلقها الله على صورته ، فجمع بين الحُسْنَيَيْن ، ولذلك أمر الداعي أن يبدأ بنفسه في الدعاء .

قال ابن عساكر :

بادر إلى الخير ياذا اللبِّ مغتنمًا ... ولا تكن من قليل الخير محتشمَا
واشكر لمولاك ما أولاك من نِعَم ... فالشكر يستوجب الإفضال والكرمَا
وارحم بقلبك خلقَ الله وارعهمُ ... فإنما يرحم الرحمن مَنْ رحمَا

تنبيه :

قال العلامة الجويني في ينابيع العلوم :

حكمة إتيانه بالراحمين جمع راحم دون الرحماء جمع رحيم ، وإن كان غالب ما ورد من الرحمة استعمال الرحيم لا الراحم ؛ لأن الرحيم صفة مبالغة ، فلو عبّر بجمعها اقتضاء الاقتصار عليه ، فعبر بجمع راحم ؛ إشارة إلى أن العباد منهم مَنْ قلّتْ رحمته ، فيصحّ وصفه بالراحم لا الرحيم ، فيدخل في ذلك ، ثم أورد على نفسه حديث : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » وقال : إن له جوابًا

حقه أن يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب ، وهو : أن لفظ الجلالة دال على العظمة والكبرياء ، ولفظ الرحمن دالّ على العفو بالاستقراء ، وحيث ورد لفظ الجلالة يكون الكلام مسوقًا بالتعظيم ، فلما ذكر لفظ الجلالة في قوله : « إنما يرحم الله » لم يناسب معها غير ذكر من كثرت رحمته وعظمت ؛ ليكون الكلام جاريا على نسق العظمة ، ولما كان الرحمن يدل على المبالغة في العفو ، ذكر كل ذي رحمة وإنْ قلّت[١] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله »[٢] .

وقال ﷺ : « من لا يَرحَم لا يُرحم »[٣] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم لا يُرحم ، ومَنْ لا يَغْفِر لا يُغفرُ له »[٤] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له ، ومَنْ لا يتُبْ لا يُتبْ عليه »[٥] .

قال المناوي :

الجزاء من جنس العمل ، فمن رحم خلق الله رحمه الله . قال الزين العراقي : وجاء في رواية تقييده بالمسلمين ، فهل يحمل إطلاق الناس على التقييد أو الأمر أعم ؟ ورحمة كل أحد بحسب ما أذن فيه الشارع ، فإن كانوا أهَل ذمة فيحفظ لهم ذمتهم ، أو حربيين دخلوا بإذن فيحفظ لهم ذلك ، لا أن المراد بالرحمة مودتهم وموالاتهم .

---

(١) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٢ - ٤٣) .
(٢) رواه البخاري ، ومسلم وأحمد والترمذي عن جرير ، وأحمد والترمذي عن أبي سعيد .
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي ، وأبو داود عن أبي هريرة ، والبخاري ومسلم عن جرير .
(٤) رواه أحمد عن جرير .
(٥) رواه الطبراني في الكبير عن جرير .

قال ﷺ : « من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه مَنْ في السماء »[(١)] .

من تمام الرحمة : إيثار الأطفال بذلك لضعفهم ، وتوقير الكبير لسنه[(٢)].

كان الزمخشري في طفولته ، يحبس طائرًا في بيته ، فأتى هذا الطائر وقطع الحبل فنشبت رجله ، فانقطعت مع الحبل ، وذهب الطائر برجل واحدة ، قالت أم الزمخشري له : قطع الله رجلك ، كما قطعت رجل هذا الطائر ، فذهب ، فوقع في الثلج في طريقه إلى مكة ، فكسرت من فخذه ، وأصبح على رجل واحدة[(٣)] .

نقل ابن خلّكان أن الكندي قال : كنت قاعدا على باب ابن الخشاب ، وقد خرج من عنده الزمخشري ، وهو يمشي في جاون خشب ؛ سقطت رجله من الثلج[(٤)] .

وقد مرّت بك قصة محمد بن عبد الملك الزّيات .

وقال ﷺ : « من رحم ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة »[(٥)].

قال المناوي :

وخص العصفور بالذكر ، لكونه أصغر مأكول ينذبح ، وإذا استلزمت رحمته رحمة الله مع حقارته وهوانه على الناس ، فرحمة ما فوقه سيما الآدمي أولى .

---

(١) إسناده جيد : قال المناوي : رواه الطبراني في الكبير من طريق جرير بن عبد الله ، ورمز المؤلف – السيوطي – لحسنه ، وكان حقه الرمز لصحته ؛ فقد قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وقال المنذري : إسناده جيد قوي .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٣٩ – ٢٤٠) .

(٣) شريط : كتب في الساحة الإسلامية . للشيخ عائض القرني .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٧) .

(٥) حسن : رواه البخاري في الأدب ، والطبراني في الكبير ، والضياء عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٣٧ .

وأفاد معاملة الذبيحة حال الذبح بالشفقة والرحمة وإحسان الذبحة ، كما ورد مصرَّحًا به في عدة أخبار[١] .

وقال ﷺ : «من فرّق بين والدة وولدها؛ فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[٢].

فالتفريق بين الأمة وولدها بنحو البيع أو الهبة حرام شديد التحريم عند الشافعي وأبي حنيفة ومالك ، بشرط كونه قبل التمييز عند الشافعي ، وقبل البلوغ عند أبي حنيفة وكذا مالك في رواية ابن غانم عنه ، وفي رواية عنه : يجوز قبل أن يثغر ، وسواء رضيت الأم أم لا عند الشافعي ، وقال مالك : يجوز برضاها ، وذهب بعض الأئمة إلى منع التفريق بينهما مطلقًا ، وقال كما قال ابن العربي : إنه ظاهر الحديث ؛ لأنه لم يفرّق بين الوالدة وولدها بلفظ « بين » ، وفرّق في جوابه حيث كرر « بَيْن » في الثاني ؛ ليدل على عظم هذا الأمر ، وأنه لا يجوز التفريق بينهما في اللفظ بالبيع ، فكيف التفريق بين ذواتيهما ؟ ذكره جمع[٣] .

وعن أنس – رضي الله عنه – أن امرأة دخلت على عائشة ، ومعها صبيّان لها ، فأعطتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل صبي تمرة ، فأكلا تمرتيهما ، ثم نظرا إلى أمهما ، فأخذت التمرة فشقتها نصفين ، فأعطت ذَا نصفًا وذَا نصفًا . فدخل النبي ﷺ، فأخبرته عائشة فقال: «ما أعجبك مِنْ ذلك؟ فإن الله قد رحمها برحمة صبيّيها»[٤].

اسمحْ لِيُسْمَح لك :

قال ﷺ : « اسمحوا يُسمح لكم »[٥] .

---

(١) فيض القدير (٦ / ١٣٥) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك عن أبي أيوب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٨ . وضعفه ابن حجر والسخاوي .

(٣) فيض القدير (٦ / ٧١٧) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلى البنات ، وأخرجه أحمد .

(٥) صحيح : رواه عبد الرزاق في الجامع مرسلا ، ورواه ابن عساكر وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٩٢ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ١٤٥٦ .

وقال ﷺ : « اسمح يُسمح لك »[١] .

قال المناوي :

« يُسمح لك » بالبناء للمفعول ، والفاعل الله ؛ أي عامل الخلق الذين هم عيال الله وعبيده بالمسامحة ، يعاملك سيدهم بمثله في الدنيا والآخرة[٢] .

الرفق في الأمور كالمسك في العطور :

قال ﷺ : « من يُحَرم الرفق يُحْرَم الخير كله »[٣] .

قال المناوي :

فيه فضل الرفق وشرفه، ومن ثم قيل: الرفق في الأمور كالمسك في العطور.

وقال ﷺ : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فنزل فيها ، فشرب منها ، ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي ، فنزل البئر ، فملأ خُفَّه ماءً ، ثم أمسك بفيه ، ثم رَقَي ، فسقى الكلب ، فشكر اللهُ ، فغفر له ، في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبة أجر »[٤] .

وقال ﷺ : « بينما كلب يُطيف[٥] برَكيّة[٦] ، كاد يقتله العطش ، إذ رأته بغيّ من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت مُوقها[٧] ، فاستقت له به ، فغفر لها به »[٨] .

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) فيض القدير للمناوي : (٥١٢/١) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجة عن جرير .

(٤) رواه البخاري ، ومسلم ، ومالك ، وأحمد ، وأبو داود عن أبي هريرة .

(٥) يطيف : يدور .

(٦) ركية : بئر .

(٧) موقها : خُفّها الذي تلبسه في قدميها .

(٨) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « غفر لامرأة مومسة ، مرّت بكلب على رأس ركي يلهث ، كاد يقتله العطش ، فنزعت خُفّها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء ، فغفر لها بذلك »(١) .

مَنْ ضارّ ضارّ الله به :

قال ﷺ : « من ضارّ ضارّ الله به ، ومن شاقّ شاقّ الله عليه »(٢) .

قال المناوي :

« مَنْ ضارّ » أي أوصل ضررًا إلى مسلم بغير حق .

« ضارّ الله به » أي أوقع به الضرر البالغ ، وشـدَّد عليه عقابه في العقبى .

« ومن شاقّ » أي أوصل مشقة إلى أحد بمحاربة أو غيرها .

« شق الله عليه » : أي أدخل عليه ما يشق عليه ، مجازاة له على فعله بمثله ، وأطلق ذلك ؛ ليشمل المشقة على نفسه وعلى الغير بأن يكلف نفسه أو غيره بما هو فوق طاقته(٣) .

٣ - التواضع

هي النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها .

وقال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء من الكِبْر مع الأدب والسخاء ، فأنبل بحسنة غطّت على سيئتين ، وأقبح بسيئة غطت على حسنتين .

كيف يزهو مَنْ رجيعه أبـد الدهر ضجيعـه

والتواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، والخشوع يقال باعتبار

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي وابن ماجة عن أبي صرمة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٤٨ .

(٣) فيض القدير (٦ / ١٧٣) .

أفعال الجوارح ، وقال تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ [القلم : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾(١) [طه : ١٠٨] .

قال ابن السماك للرشيد : تواضعك في شرفك أشرف من شرفك .

وقال جعفر بن محمد : من أنصف الناس من نفسه قُضي به حكمًا لغيره .

وقال بكر بن عبد الله المزني : ما رأيتُ امرأً إلا رأيت له الفضل عليّ ، لأني من نفسي على يقين ، وأنا من الناس على شك(٢) .

قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله »(٣) .

قال المناوي :

«من تواضع» لأجل عظمة «الله» تواضعًا حقيقيًا ناشئًا عن شهود عظمه الحق. فالتواضع للناس مع اعتقاد عظمة في النفس واقتدار ، ليس بتواضع حقيقي ، بل هو بالتكبر أشبه. «رفعه الله» لأن من أذل نفسه لله فيجازيه الله بأحسن ما عمل.

قال ابن الحاج : فمن أراد الرفعة فليتواضع لله ، فإن الرفعة لا تقع إلا بقدر النزول ، ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أسفل الشجرة صعد إلى أعلاها ، كأن سائلا سأله : ما صعد بك هاهنا وأنت قد نزلت تحت أصلها ، فقال لسان حاله : « من تواضع لله ، رفعه الله »(٤) .

وقال ﷺ : « اعلم أنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفع الله لك بها درجة ، وحطّ

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ، تحقيق د . أبي اليزيد العجمي ص٢٩٩ - ٣٠٢ طبع الوفاء ودار الصحوة .

(٢) نزهة المجالس، وأنس المُجالِس وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البر ، ص ٤٤٤- ٤٤٥ طبع مكتبة ابن تيمية .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٨ . وعند مسلم وأحمد : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٠٨) .

عنك بها خطيئة »[١] .

من تواضع لله رفعه ، والجزاء من جَنس العمل .

وأي رفعة فوق القرب من الله ، ألم يقل الله تبارك وتعالى : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ [العلق : ١٩] .

إلا رفع الله لك بها درجة ، أي منزلة عالية المقدار . فأكثر من الصلاة ترفع درجاتك ، وتمحى عنك سيئاتك .

قال الجنيد : ليس من طلب الله ببذل المجهود كمن طلبه من طريق الجود ، ولهذا قال المصطفى ﷺ لمن سأله أن يشفع له وأن يكون معه في الجنة « أَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود »[٢] .

وقال ﷺ : « ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمة بيد مَلَك ، فإذا تواضع قيل للملك : ارفع حكمته ، وإذا تكبّر قيل للملك : دع حكمته »[٣] .

قال المناوي :

«إلا في رأسه حكمة»: ما يجعل تحت حنك الدابة ، يمنعها المخالفة كاللجام ، والحنك متصل بالرأس . « بيد مَلَك » موكل به ، فإذا تواضع للحق والخلق « قيل للملك » مِنْ قِبَلِ الله تعالى : « ارفع حكمته » أي قدره ومنزلته ، يقال : فلان عالي الحكمة ، فرفعها كناية عن الإعذار . « فإذا تكبر قيل للملك : دع حكمته » كناية عن إذلاله ، فإن صفة الذليل تنكيس رأسه .

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك ، والبخاري في الأدب عن عبد الرحمن بن عوف ، ورواه الحاكم عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٨٠ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٢ / ٨) .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، والبزار عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٥٥١ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ٥٣٥ .

فثمرة التكبر في الدنيا الذِّلَّة بين عباد الله ، وفي الآخرة طينة الخبال ، وهي عصارة أهل النار[(١)] .

عن ابن مسعود- رضي الله عنه-:من تطاول تعظيمًا خفضه الله عز وجل، ومن تواضع لله تخشعًا رفعه الله[(٢)] .

٤ - الحياء

أول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان ، أما الوقاحة مذمومة بكل لسان ، إذ هي انسلاخ من الإنسانية ، واشتقاقها من حافر وقاح أي صلب .

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة   فأقدّ منها حافرًا للأشهب

وما أصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد   إلا تكمل فيه الشر واجتمعا

وعلى الإنسان إذا همّ بقبيح أن يتصور أجلّ مَنْ في نفسه حتى كأنه يراه ، فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه .

والذين يستحي منهم الإنسان ثلاثة : البشر ، وهم أكثر من يستحي منه ، ثم نفسه ، ثم الله عز وجل .

ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه ، فنفسه عنده أخس من غيره ، ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله فلعدم معرفته بالله عز وجل ، فإن الإنسان يستحي ممن يعظمه ، ويعلم أنه يراه أو يسمع نجواه فيبكته ، ومَنْ لا يعرف الله فكيف يستعظمه »[(٣)] .

قال ابن القيم: وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء . وقلة الحياء من موت القلب والروح ، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم .

---

(١) فيض القدير (٥ / ٤٦٦ - ٤٦٧) .

(٢) الزهد لابن حنبل (٢ / ١٠٥) .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

قال يحيى بن معاذ : من استحيا من الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب ، وهذا الكلام يحتاج إلى شرح،ومعناه : أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته . فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستحٍ خجل . فإنه إذا واقع ذنبا استحيا الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحالة لكرامته عليه ، فيستحي أن يرى مِنْ وليه ومن يكرم عليه ما يشينه عنده . وفي الشاهد شاهد بذلك . فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به ، وأحبهم إليه - من صاحب ، أو ولد ، أو مَنْ يحبه - وهو يخونه ؛ فإنه يلحقه من ذلك الإطلاع عليه حياء عجيب ، حتى كأنه هو الجاني وهذا غاية الكرم .

وأما حياء الرب تعالى من عبده : فذاك نوع آخر . لا تدركه الأفهام ، ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال ، فإنه تبارك وتعالى حيي كريمٌ يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا ، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام .

وكان يحيى بن معاذ يقول : سبحان من يذنب عبده ويستحيي هو . وفي أثر : من استحيا من الله استحيا الله منه »[١] والجزاء من جنس العمل .

وكقوله ﷺ في شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه : « أما أحدهم فأقبل فأقبل الله عليه . وأمَّا الآخر فاستحيا فاستحيا الله عز وجل منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عز وجل عنه » .

« استحيوا من الله تعالى حق الحياء ، مَنِ استحْيا الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوىً، وليذكر الموت والبِلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[٢] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٥٩ - ٢٦١) .

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٩٤٨ .

وقال ﷺ : « إن لكل دين خلقًا ، وإن خلق الإسلام الحياء »[1] .

وقال ﷺ : « ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه ، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه »[2] .

وقال ﷺ: «الحياء والإيمان قرنا جميعًا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»[3].

وقال ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير »[4] .

وقال ﷺ : « الحياء خير كله »[5] .

قال بعض الحكماء : من كسا الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه .

قال المناوي :

بهذا الحياء حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ميت في الدنيا شقي في الآخرة ، وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تناسب فكل يستدعي الآخر ، ويطلبه حثيثًا ، ومن استحيا من الله عند معصيته استحيا من عقوبته عند لقائه ، ومن لم يستحي من معصيته لم يستحي من عقوبته[6] .

والجزاء من جنس العمل . ومن استحيا من الله استحيا منه الصالحون .

٥ - العفة

هي أس الفضائل من القناعة والزهد وغنى النفس والسخاء ، وعدمها يعفي

---

(١) حسن: رواه ابن ماجة عن أنس وابن عباس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢١٤٥.

(٢) صحيح : رواه أحمد والبخاري في الأدب ، والترمذي ، وابن ماجة عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٣١ .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٩٥ .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه مسلم ، وأبو داود عن عمران بن حصين .

(٦) فيض القدير للمناوي (٦ / ٤٢٧ - ٤٢٩) .

على جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ، ومَنْ اتسم بسمة العفّة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل ، وسهّلتْ له سبيل الوصول إلى المحاسن .

ولا يكون الإنسان تام العفّة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر ، وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع ، دون الشهوة والهوى .

واعلم أنه لا يكون المتعفف عفيفًا إلا بشرائط ، وهي ألا يكون تعففه عن الشيء انتظارًا لأكثر منه ، أو لأنه لا يوافقه ، أو لجمود شهوته ، أو لاستشعار خوف من عاقبته ، أو لأنه ممنوع من تناوله ، أو لأنه غير عارف به لقصوره ، فإن ذلك كله ليس بعفّة بل هو إمّا اصطياد ، أو تطبب ، أو مرض ، أو خرم ، أو عجز ، أو جهل . وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عند الغضب ، ولهذا قيل : عبد الشهوة أذل من عبد الرقّ[1] .

قال ﷺ: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفّوا عن النساء تعف نساؤكم»[2] .

قال المناوي :

« بروا آباءكم وأمهاتكم » وكأنه اكتفى به عنه من قبيل ﴿ **سرابيل تقيكم**

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، والطبراني في الكبير ، والخطيب في تاريخ بغداد . والطبراني في الأوسط ، والحديث مروي عن ابن عمر وأنس وأبي هريرة وجابر وعائشة . قال المنذري : إسناده حسن ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد غير منسوب ، والظاهر أنه من المتكثرين من شيوخه فلذلك لم ينسبه . اهـ . وبالغ ابن الجوزي فجعله موضوعًا وحول الحديث كلام كثير ، وأمثل طرقه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر . قال ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة : رأيت بخط الحافظ ابن حجر أن رواية الطبراني بسند حسن .

الحر ﴾ وأراد بالآباء ما يشمل الأمهات تغليبًا كالأبوين ، فإنكم إن فعلتم ذلك تبرُّكم أبناؤكم ، وكما تدين تدان . وعفّوا عن نساء الناس فلا تتعرضوا لمزاناتهم ، فإنكم إن التزمتم ذلك تعف نساؤكم عن الرجال الأجانب ، لما ذكر .

قال الراغب : دخلت امرأة يزيد بن معاوية وهو يغتسل فقالت : ما هذا ؟ قال : جلدت عميرة ، ثم دخل وهي تغتسل ، فقال : ما هذا ؟ قالت : جلدني زوج عميرة[1] .

عفّوا تعفّ نساؤكم في المحرمِ	وتجنبوا ما لا يليق بمسلمِ
ياهاتكًا سبلَ الرجال وقاطعًا	سبل المودة عشت غير مكرمِ
لو كنت حرّا من سلالة ماجدٍ	ما كنت هتّاكًا لحرمةِ مسلمِ
مَنْ يزنِ يُزن به ولو بجداره	إن كنت يا هذا لبيبًا فافهمِ
مَنْ يزنِ في بيت بألفَيْ درهم	في بيته يزنى بغير الدرهمِ

قيل لأبي بكر المسْكي : إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام فما سببه ؟ فقال : والله لي سنين عديدة لم أستعمل المسك ، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليّ حتى أدخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب ، وراودتني عن نفسي فتحيرت في أمري فضاقت بي الحيل ، فقلت لها : إن لي حاجة إلى الطهارة . فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة ففعلت ، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها على جميع جسمي ، ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة فلما رأتني دَهَشَت ، ثم أمرت بإخراجي ، فمضيت واغتسلت ، فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام قائلًا يقول لي : فعلت ما لم يفعله أحدٌ غيرك ، لأطيبن ريحك في الدنيا والآخرة . فأصبحت والمسك يفوح مني ، واستمر ذلك إلى الآن[2] .

---

(١) فيض القدير (٣ / ٢٠٠) .

(٢) المواعظ والمجالس لابن الجوزي ص ٢٢٤ ، طبع دار الصحابة للتراث .

٦ - محبة المؤمنين

عظم الله تعالى المنّة بإيقاع المحبة بين أهل الملة فقال تعالى : ﴿ **وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنَّ الله ألف بينهم** ﴾ [الأنفال : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سيجعل لهم الرحمن ودًّا** ﴾ [مريم : ٩٦] .

أخي ، كلك لأخيك إلا ما حرّمه الله ورسوله ، ولا تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا إلّا ما حرمه الله ورسوله .

وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا ، وإذا تواصلوا تعاونوا ، وإذا تعاونوا عملوا ، وإذا عملوا عمروا ، وإذا عمروا عمروا[1] .

قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الغائب لغائب ، قال له الملك : ولك بمثل ذلك »[2] .

وقال ﷺ : « من دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثله »[3] .

قال المناوي :

ظاهره يشمل الغائب عن البلد وهو المسافر ، وعن المجلس قال له الملك الموكل بنحو ذلك « ولك مثل ذلك » أي أدعو الله أن يجعل لك بمثل ما دعوت به لأخيك[4] .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « زار رجل أخًا له في قرية فبعث الله له مَلَكا على مدرجته ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخًا لي في هذه القرية . فقال : هل له عليك من نعمة

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٦٤ .

(٢) صحيح : رواه ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٩ .

(٣) رواه مسلم ، والنسائي عن أبي الدرداء .

(٤) فيض القدير للمناوي (١ / ٣٤٣) .

تَرُبُّها ؟ قال : لا ، إلّا أني أحبه في الله ، قال : فإني رسول الله إليك أن الله أحبك كما أحببته »[١] .

قال الذهبي :

وهو من أحاديث الصفات التي تمر كما جاءت ، وشاهده في القرآن وفي الحديث كثير ، قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران: ٢٣١] وقال: ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلًا**﴾ [النساء: ١٢٥] لما أحبوا المؤمنين أحبهم الله .

لما أحبوا ربهم أحبهم الله ، والجزاء من جنس العمل .

٧ - الصبر

إن الله سبحانه وتعالى جعل الصبر جوادًا لا يكبو ، وصارمًا لا ينبو ، وجندًا لا يهزم ، وحصنًا حصينًا لا إيثلم .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة »[٢] .

وروى البخاري وأحمد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه - يريد عينيه - ثم صبر عوضته منهما الجنة » .

وعن رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا سلبت من عبدي كريمتيه ، وهو بهما ضنين ، لم أرض له بهما ثوابًا دون الجنة ، إذا حمدني عليهما »[٣] .

قال المناوي :

إن السرور يكنى عنه بقرة العين لما يشاهد المحبوب ، ويكنى عن الحزن بسخونها للمفارقة عنه .

---

(١) رواه مسلم ، وأحمد ، والبخاري في الأدب عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وابن حبان عن ابن عباس ، وأحمد عن أبي أمامة .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن العرباض ، وابن حبان في صحيحه ، والبزار وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٠١٠ .

« عوضته منهما الجنة » أي دخولها ؛ لأن فاقدهما حبيس ، فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة ، فياله من عوض ما أعظمه والالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا، والالتذاذ بالجنة باقٍ ببقائها .

قال الطيبي : ثم للتراخي في الرتبة ؛ لأن ابتلاء اللهِ العبدَ نعمة ، وصبره عليها مقتضٍ لتضاعف تلك النعمة .

وقال أيضًا : أحب أعضاء الإنسان إليه يحصل له بفقدهما من الأسف على فوت رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به . وقيل : إن أول من يعطيهم الله أجورهم الذين ذهبت أبصارهم ، ينادى يوم القيامة بالمكفوفين فيقال لهم : أنتم أحرى من ينظر إلينا ، ثم يستحي الله تعالى منهم ويقول لهم : اذهبوا إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية ، وتجعل بيد شعيب عليه السلام ، فيصير إمامهم ومعهم من ملائكة النور ما لا يحصي عددهم إلا الله ، يزفونهم كما تزف العروس ، فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف ، هذا فيمن صفته الصبر والحلم كابن عباس ، ومن ضاهاه من الأمة .

لما أصيب ابن عباس ببصره أنشد :

إنْ يذهبِ الله من عينيّ نورهما ... ففي لساني وقلبي للهدى نورُ

عقلي ذكّي وقولي غير ذي خطل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور[1]

٨ - ترك السؤال

قال ﷺ: «مَنْ يتقبل لي بواحدة، أتقبل له بالجنة لا يسأل الناس شيئًا»[2].

وقال ﷺ : « من يتكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا أتكفل له بالجنة »[3] .

---

(١) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٨٨ - ٤٨٩) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والنسائي وابن ماجة عن ثوبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧٩ .

(٣) صحيح: رواه الحاكم وأبو داود عن ثوبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨٠.

لا يسأل الناس شيئًا فيعطيه الله أعز السؤل وهو الجنة ، والجزاء من جنس العمل.

فكان ثوبان يسقط سوطه وهو راكب ، وربما وقع على عاتق رجل فيأخذه فيناوله ، فلا يأخذه منه حتى ينزل هو فيأخذه . اهـ من فيض القدير .

وقال ﷺ : « ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، وإنه من يستعف يُعفّه الله ، ومَنْ يستغن يغنه الله ، ومَنْ يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا ، وأوسع من الصبر » . رواه الشيخان وأحمد .

وقال رسول الله ﷺ : « من استغنى أغناه الله ، ومَنْ استعفّ أعفّه الله ، ومَنْ استكفى كفاه الله ، ومَنْ سأله وله قيمة أوقية فقد ألحف »[1] .

قال المناوي : « من استغنى بالله عمن سواه ، أغناه الله » أي: أعطاه ما يستغني به عن الناس ، ويخلق في قلبه الغنى ، فإن الغنى غنى النفس « ومن استعف » أي امتنع عن السؤال ، « أعفّه الله » بتشديد الفاء ؛ أي جازاه الله على استعفافه بصيانة وجهه ، ودفع فاقته ، « ومن استكفى » بالله ، « كفاه » الله ما أهمه ورزقه القناعة .

قال ابن الجوزي : لما كان التعفف يقتضي ستر الحال عن الخلق ، وإظهار الغنى عنهم ، كان صاحبه معاملًا لله في الباطن ، فيقع له الربح على قدر صدقه في ذلك .

وقال ابن التين : معنى قوله : « أعفه » : إما يرزقه من المال ما يستغني به عن السؤال ، وإما أن يرزقه القناعة .

وقال الحرالي : من ظن أن حاجته يسدها المال فليس برًّا ، إنما البر الذي أيقن أن حاجته إنما يسددها ربه ببره الخفيّ وجوده الوفيّ .

« ومن سأل » الناس ، « وله قيمة أوقية » من الوقاية ؛ لأن المال مخزون مصون ، أو لأنه يقي الشخص من الضرورة ، « فقد ألحف » أي سأل الناس

---

(١) صحيح : رواه أحمد والنسائي والضياء عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٠٣ .

إلحافًا ، تبرُّمًا بما قسم له .

مقصود الحديث الإشارة إلى أن في طلب الرزق من باب المخلوق ذلًا وعناءً ، وفي طلبه من الخالق بلوغ المنى والغنى ، قال بعض العارفين : من استغنى بالله افتقر الناس إليه .

إن الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسهِ ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كل مَا فوق البسيطة كافيًا فإذا قنعتْ فبعض شيء كافي[1]

٩ - نصرة المؤمنين ونصحهم

قال ﷺ : « مَنْ يَكُنْ في حاجة أخيه يكن الله في حاجته »[2] .

وفي رواية : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يشتمه ، من كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ... » .

قال المناوي :

« من يكن في حاجة أخيه » أي في قضاء حاجة أخيه في الدين ، « يكن الله في حاجته » الحاجة اسم لما يفتقر إليه الإنسان ، ومعناه على ظاهره ظاهر ، وكان لتقرير الخبر ، وتأتي بمعنى صار وزائدة وتامة ، وهنا لا تصح لواحد منها .

قال الأكمل : فينبغي أن الأولى بمعنى سعى ؛ لأن السعي في الحاجة يستلزم الكون فيها والثانية بمعنى قضى .

ورد بأن الاستمرار والانقطاع إنما يفهم من القرائن لا من كان ، وهنا الغرض بيان كون الأول سببا للثاني فقط ، فإن تكرر السبب تكرر المسبب وإلا فلا ، ولم يقل : من قضى حاجته ؛ إشعارًا بأن الله هو الذي يقضيها ، وليس للعبد إلا المباشرة ، والكون في الحاجة أعم من السعي فيها[3]. والجزاء من جنس العمل.

---

(١) فيض القدير (٦ / ٥٨) .

(٢) رواه الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي عن ابن عمر ، وأحمد عن مسلمة بن مخلد .

(٣) فيض القدير (٦ / ٢٤٤) .

وقال ﷺ : « من ردّ عن عرض أخيه ، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة »[1] .

قال المناوي :

« من رد عن عرض أخيه » في الدين ، أي رد على من اغتابه ، وشان من آذاه وعابه ، « رد الله عن وجهه » أي ذاته ، وخصه لأن تعذيبه أنكى في الإيلام ، وأشد في الهوان ، « النار يوم القيامة » جزاءً بما فعل ؛ وذلك لأن عرض المؤمن كدمه ، فكأنه سفك دمه ، ومن عمل على صون عرضه فكأنه صان دمه ، فيجازى على ذلك بصونه عن النار يوم القيامة إن كان ممن استحق دخولها . وإلا كان زيادة في رفعة درجاته في الجنة[2] .

والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « من ستر أخاه المسلم في الدنيا ، ستره الله يوم القيامة »[3].

قال المناوي : « من ستر أخاه المسلم في الدنيا » في قبيح فعله وقوله ، فلم يفضحه بأن اطلع منه على ما يشينه في دينه أو عرضه أو ماله أو أهله ، فلم يهتكه ، ولم يكشفه بالتحدث ، ولم يرفعه الحاكم بالشرط المار ، « ستره الله يوم القيامة » أي لم يفضحه على رءوس الخلائق ، بإظهار عيوبه وذنوبه ، بل يسهل حسابه ، ويترك عقابه ؛ لأن الله حيي كريم ، وستر العورة من الحياء والكرم ففيه تخلق بخلق الله ، والله يحب التخلق بأخلاقه[4] .

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٣٨.

(٢) فيض القدير (٦ / ١٣٥ - ١٣٦) .

(٣) رواه أحمد عن رجل ، وأحمد والحميدي عن أبي أيوب وعقبة ، وأحمد عن مسلمة ابن مخلد ، وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن الجارود عن أبي هريرة ، وأحمد والشيخان والترمذي عن ابن عمر ، وأحمد عن عائشة .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٤٩) .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ: «من نصر أخاه بظهر الغيب، نصره الله في الدنيا والآخرة»(١).

قال المناوي :

« من نصر أخاه » في الإسلام ، « بظهر الغيب » زاد البزار « وهو يستطيع نصره » ، « نصره الله في الدنيا والآخرة » جزاءً وفاقا ، ونصر المظلوم فرض كفاية على القادر إذا لم يترتب على نصره مفسدة أشد من مفسدة الترك(٢) .

قال رسول الله ﷺ : « من نفّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدنيا ، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، وَمَنْ يَسر على مُعْسِر ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلمًا ، ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، سهل الله له طريقًا إلى الجنّة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومَنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »(٣) .

قال المناوي :

« من نفس » ، أي أمهل وفرّج ، من تنفيس الخناق أي إرخائه ، وقال عياض : التنفيس المد في الأجل والتأخير أو محا عنه وأبرأه من الدين المكتوب عليه والإعسار من كرب الدنيا بل هو أعظمها فجوزي من نفّس بتفريج أعظم كرب الآخرة - عنه - وهو هول الموقف وشدائده بالإراحة من ذلك ، ورفعته إلى أشرف المقامات ، وقد يكون ثواب المندوب أكمل من ثواب الواجب(٤) .

---

(١) حسن : رواه البيهقي في سننه ، والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٥٠ ، والصحيحة رقم ١٢١٧ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٣٣٣) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

(٤) فيض القدير (٦/٢٣٣) بتصرف .

والجزاء من جنس العمل ، وما أشرفه من حديث .

قال ﷺ: «من يسّر على معسر ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة»[١] .

قال المناوي :

« من يسر على معسر » مسلم أو غيره بإبراء أو هبة أو صدقة أو نظرة إلى ميسرة ، وإعانة بنحو شفاعة أو إفناء يخلصه من ضائقة ، « يسر الله عليه » مطالبه وأموره ، « في الدنيا » بتوسيع رزقه وحفظه من الشدائد ومعاونته على فعل الخيرات ، وفي « الآخرة » بتسهيل الحساب والعفو عن العقاب ونحو ذلك من وجوه الكرامة والزلفى ، ولما كان الإعسار أعظم كرب في الدنيا لم يخصَّ جزاءه بالآخرة بل عممه فيهما[٢] .

والجزاء من جنس العمل .

١٠ - الصدق

إن تصدق الله يصدقك .

قال تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : ١١٧ - ١١٩] .

أخرج أحمد والبخاري ومسلم من طريق الزهري ، قال : أخبرني عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٩٠ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٤٣) .

كعب من بنيه حين عمي – قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام وما أحبّ أنَّ لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوًّا كثيرًا ، فجلّى للمسلمين أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ؛يريد الديوان .

قال كعب – رضي الله عنه – : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظنّ أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر[1]، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولا أقضي شيئًا ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إن أردت ، فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجدّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غازيًا والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، وقلت : الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئًا ، فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل

(١) أميل .

فأدركهم ، وليت أني فعلت ، ثم لم يُقدر لي ذلك ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله[1] ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » . فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر في عطفيه .. فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت : والله يا رسول الله ، ما علمنا عليه إلا خيرًا ، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك حضرني بثي[2] ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا ، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل ، حتى عرفت أني لم أنج منه بشيءٍ أبدًا ، فأجمعت صدقه . وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعًا وثمانين رجـلًا ، فقبل رسول الله ﷺ منهم علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت ، فلما سلّمت عليه تبسّم تبسُّم المغضب ، ثم قال : « تعال » . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه . فقال لي : « ما خلّفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ » . فقلت : يا رسول الله ، والله لو أني جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلًا ، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخط علي ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عقبى من الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قطّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال ﷺ : « أما هذا فقد صـدق ، فقم حتى يقضي الله فيك » . فقمت وبادرني

---

(١) يعني الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون ما ينفقون .   (٢) حزني .

رجال من بني سلمة واتبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك قد أذنبت ذنبًا قبل هذا ، لقد عجزت ألّا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ . قال : فوالله ، ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا ما قلت ؟ وقيل لهم مثلما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال ابن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا ، لي فيهما أسوة ، فمضيت حينما ذكروهما لي .

قال : ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا - أيها الثلاثة - مِنْ بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس - أو قال : تغيّروا لنا - حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبًا منه ، وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، فإذا تلفتُّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما ردّ علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة، أنشدك الله تعالى : هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدته فنشدته فسكت . فعدتُ فنشدته ، قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيّ[1] من أنباط الشام ممّن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتابًا من ملك غسّان ،

---

(١) النبط والأنباط ، والنبيط هم فلاحو العجم .

وكنت كاتبًا ، فقرأته فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضًا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربنها ، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن هلالًا شيخ ضائع ، وليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنك ، فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستاذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدري ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابّ .

قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى[1] على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدًا ، وعرفت أن قد جاء الفرج ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إليّ رجل فرسًا ، وسعى ساع من أسلم قِبَلي وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ ، فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، فاستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أؤم[2] رسول الله ﷺ يتلقاني

---

(١) أشرف عليه . (٢) أقصد .

الناس فوجًا بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب – رضي الله عنه – لا ينساها لطلحة .

قال كعب – رضي الله عنه – : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرُق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » . قلت : أمِنْ عندك يا رسول الله أم مِنْ عند الله ؟ قال : « لا ، بل مِنْ عند الله » وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن مِنْ توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ . قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله ، إنما أنجاني الله بالصدق ، وإنّ من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت . قال : فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه[1] الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم**﴾ إلى قوله: ﴿**وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة: ١١٧- ١١٩].

قال كعب : فوالله ، ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال : ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لِتُعْرِضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون**

(١) أنعم عليه .

لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٩٥ - ٩٦] .

قال كعب : وكنا خُلّفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

قال ابن كثير :

لما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب ، من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي مع سعتها، فسُدَّت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرّج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ، ومخرجًا . قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »[1] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

«إن في هذه القصة لأكبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين ،وتخشع لها قلوب

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ١٧٠) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

المتقين ، وكان الإمام أحمد لا يبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات ، وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها . وأيّ مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع ، وقلبه أن يجف ويرجف من الخوف إذا قرأ أو سمع هذا الخبر ، وتأمل ما فيه من العبر ، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل »[١] .

قال القشيري :

لما صدق منهم اللجاء تداركهم بالشفاء ، وأسقط عنهم البلاء ، وكذلك الحق يكوِّرُ نهار اليسر على ليالي العسر ، ويطلع شموس المحنة على نحوس الفتنة ، ويدير فلك السعادة فيمحق تأثير طوارق النكاية ، سنة منه – **تعالى** – لا يُبدِّلُها ، وعادة منه في الكرم يُجريها ولا يحوِّلها . يمطر سحائب الجود ، فيعود عودُ الحياة بعد يَبْسِه طَرِيًّا ، ويُرَدُّ وَرْدُ الأُنس عقب ذبوله غضًّا جَنِيًّا ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كنا كَمَنْ أُلْبِسَ أكفانَه ... وقُرِّب النعشُ من اللَّحْدِ
فجال ماء الرُّوح في وحشِهِ ... وردَّه الوصل إلى الورْدِ

ثم قال : استديموا في الدنيا تكونوا غدًا مع الصادقين في الجنة[٢] .

من صدق الله صدقه الله ، انظر إلى كعب بن مالك رضي الله عنه .

مع حرصه البالغ على رضا رسول الله ﷺ ، وهذا الرضا يومئذ يعز ويذل ، ويرفع ويخفض ، ويترك المسلم مرموقًا بالأنظار ، أو مهملا لا ينظر إليه إنسان ، مع هذا فإن مراقبة الله أقوى،وتقوى الله أعمق ؛ والرجاء في الله أوثق .

وكعب في لهفته ، وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض التي كان يعرف ، يتلمس حركة مِنْ بين شفتي الرسول ﷺ ، ويخالسه النظر ؛ لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها ، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ، ولم يكتب له الذبول والجفاف .

---

(١) تفسير المنار (١١ / ٧١ – ٧٢) .
(٢) لطائف الإشارات (٢ /٧٠ – ٧١) .

وبينما هو طريد شريد ، لا يلقي إليه مخلوق من قومه بكلمة - ولو على سبيل الصدقة - يجيئه من قبل ملك غسّان كتاب يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه، ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله، وما يزيد على أن يلقي بالكتاب إلى النار ، ويعد هذا بقية من البلاء ، ويصبرَ على الابتلاء .

وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجه ؛ لتدعه فريدًا طريدًا من الأنس كله ، مخلفًا بين الأرض والسماء ، فيخجل أن يراجع رسول الله ﷺ في امرأته ؛ لأنه لا يدري كيف يكون الجواب .

هذه صفحة ، والصفحة الأخرى هي صفحة البشرى . بشرى القبول ، بشرى العودة إلى الصفّ ، بشرى التوبة من الذنب ، بشرى البعث والعودة إلى الحياة ، بشرى يركض بها الفارس إلى صاحبها ، ويهتف بها راكب الجبل ليكون أسرع بشارة ، وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلًا لا ينساه الطريد الذي ردّ إلى الجماعة واتصلت بها وشائجه ، فهو في يوم كما قال عنه رسول الله ﷺ : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » قالها ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور ، كما قال كعب ، فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل الله توبة ثلاثة من أصحابه وردّهم مكرمين إلى جماعته[1] .

بعد الكربة واليأس والحرج والضيق يجيء الفرج .

تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ؛ ليتوبوا توبه عامة من كل ما مضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة في كل ما سيأتي[1] .

يقول ابن القيم :

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها ، وتوبة منه بعدها . فتوبته بين توبتين من ربه ، سابقة ولاحقة ، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا ، فتاب العبد ، فتاب الله عليه ثانيًا قبولًا وإنابة .

---

(١) الظلال (٣ / ١٧٣١ - ١٧٣٢) .

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء فيهتدي بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده ، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها . قال الله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ فهداهم أولًا فاهتدوا ، فزادهم هدًى ثانيًا .

والتوبة لها مبدأ ومنتهى . فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذي نصبه لعباده، موصلًا إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل** ﴾ .

ونهايتها : الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلًا إلى جنته ، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب . وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا** ﴾ [الفرقان : ٧١] .

قال البغوي وغيره : ﴿ **يتوب إلى الله متابًا** ﴾ يعود إليه بعد الموت ، متابًا حسنًا يفضل على غيره، فالتوبة الأولى، وهي قوله: ﴿**ومن تاب**﴾ رجوع عن الشرك . والثانية : رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة[١] .

والجزاء من جنس العمل .

١١ - المراقبة

عن عبد الله بن دينار ، قال : خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرّسنا ، فانحدر علينا راعٍ من جبل ، فقال له ابن عمر : أراعٍ ؟ قال : نعم ، قال : بعني شاة من الغنم. قال إني مملوك، قال: قل لسيدك: أكلها الذئب. قال: فأين الله عز وجل ! قال ابن عمر: فأين الله ! ثم بكى، ثم اشتراه بعد، فأعتقه .

وفي رواية ابن أبي روّاد ، عن نافع : فأعتقه ، واشترى له الغنم[٢] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣١٣ - ٣١٤) .

(٢) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٣٤١/٣)، وهو في المجمع (٣٤٧/٩) ونسبه للطبراني ، وقال : ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الله بن الحارث الحاطبي ، وهو ثقة انظر سير أعلام النبلاء (٢١٦/٣).

يعف عن شاة واحدة ، فتكون له كل الشّياه . والجزاء من جنس العمل .

١٢ - العفو

مرّت أحاديث العفو سابقا وفيها : « ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزًّا » .

وفيها : « ولا عفا رجل عن مظلمة ظلمها إلا زاده الله بها عزًّا » .

وفيها : « وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا » .

قال ابن القيم :

للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه .

ثم ذكر منها المشهد الثالث : مشهد العفو والصفح والحلم . فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزّته لم يعدل عنه إلا يعشى في بصيرته . فإنه « ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا » كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ ، وعلم بالتجربة والوجود ، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ .

هذا، وفي الصفح والعفو والحلم؛ من الحلاوة، والطمأنينة، والسكينة، وشرف النفس، وعزها، ورفعتها عن تشفيها بالانتقام:ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام .

ويهونه عليك : علمك بأن الجزاء من جنس العمل . فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوت عنه ، وأحسنت إليه ، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلّك ، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك ، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك ، فهذا لابد منه ، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها[1] .

عن أبي هريرة أن رجلًا شتم أبا بكر ، والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣١٨ - ٣٢٠) .

ﷺ يعجب ويتبسّم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي ﷺ ، وقام ، فلحقه أبو بكر ، فقال : يا رسول الله ، كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددتُ عليه بعض قوله غضبت وقمت . قال : « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله ، وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان » . ثم قال : « يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق ، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله عز وجل ، إلا أعز الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطيَّة يريد بها صلة ، إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلّا زاده الله عز وجل بها قلّة »[1] .

١٣ - الوفاء

عن ميمونة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أخذ دَينا وهو يريد أن يؤديه ، أعانه الله »[2] .

وقال ﷺ : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدَّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[3] .

وقال ﷺ : « ما من أحد يدّان دينا يعلم الله منه أنه يريد قضاءه ، إلا أداه الله عنه في الدنيا »[4] .

وقال ﷺ: «من ادان دينا ينوي قضاءه، أدّاه الله عنه يوم القيامة»[5] .

---

(١) رواه أحمد ، وابن ماجة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ؛ وحسّن سنده شعيب الأرناؤط ، انظر تحقيق سير أعلام النبلاء (١٧ / ٢٠٢) .

(٢) صحيح : رواه النسائي عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٧ .

(٣) رواه البخاري وأحمد ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

(٤) صحيح : رواه أحمد والنسائي ، وابن حبان عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٥٣ .

(٥) صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٢ .

١٤ - الجود والكرم

قال ﷺ : « أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عُرْيٍ كساه الله تعالى من خُضْر الجنة ، وأيُّمَا مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله تعالى يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلمًا على ظمإ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم »(١) .

قال المناوي : « أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على حالة عري كساه الله تعالى من خضر الجنة » أي : من ثيابها الخضر .

« أيما مسلم سقى مسلما على ظمإ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق » اسم من أسماء « المختوم » أي يسقيه من خمر الجنة الذي ختم عليه بمسك . قال التوربشتي : الرحيق الشراب الخالص الذى لا غش فيه ، والمختوم الذي يختم من أوانيها ، وهو عبارة عن نفاستها وكرامتها ، وهذا إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، والنصوص فيه كثيرة ، والمراد أنه يختص بنوع من ذلك أعلى ، وإلّا فكلّ من دخل الجنة كساه الله من ثيابها ، وأطعمه وسقاه من ثمارها وشرابها ، ويظهر أن المراد المسلم المعصوم ويحتمل إلحاق الذمي العاري الجائع به(٢) .

وفي المكارم وجزائها أحاديث أخر :

قال ﷺ : « منْ يتوكل لي ما بين لحيَيْه ، وما بين رجْلَيْه ، أتوكل له بالجنة »(٣) .

قال ﷺ : « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم ، ومَنْ يتحرّ الخير

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري ، وقال المنذري : رواه أبو داود والترمذي من رواية أبي خالد بن يزيد الدالاني ، وحديثه حسن . اهـ .
قال المناوي : ولينه ابن عدي . وضعف الحديث الشيخ الألباني .

(٢) فيض القدير (٣ / ١٤٢ - ١٤٣) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨١ .

يُعطهْ ، ومَنْ يتوقَّ الشر يُوقَّهْ »[١] .

وقال ﷺ : « من استنَّ خيرًا ، فاستُنَّ به ، كان له أجره كاملًا ، ومن أجور من استنّ به ، ولا ينتقص من أجورهم شيئًا ، ومن استنّ سنة سيئة فاستن به ، فعليه وزره كاملًا ، ومِنْ أوزار الذين استنوا به ، ولا ينتقص من أوزارهم شيئًا »[٢] .

وقال ﷺ : « من سَنَّ سنة حسنة عمل بها بعده ، كان له أجره ، ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنّ سنة سيئة فعمل بها ، كان عليه وزرها ومثل أوزارهم ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[٣] .

وأخيرًا .. أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة .

عن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »[٤] .

قال المناوي :

إنّ ما يفعله العبد من خير وشر في هذه الدار له نتائج تظهر في دار البقاء ؛

---

(١) حسن : رواه الدارقطني في الأفراد ، والخطيب في تاريخ بغداد عن أبي هريرة ، والخطيب في التاريخ عن أبي الدرداء ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٢٤ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٤٢ .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٩٠ ، وفي تخريج الترغيب (١ / ٤٨) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي جحيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٢ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن سلمان ، وعن قبيصة بن برمة ، وعن ابن عباس ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، والخطيب في تاريخ بغداد عن علي ، وأبي الدرداء ،=

لأنها محل الجزاء ، وجزاء كل إنسان بحسب عمله ، وكل معروف أو منكر يجازى عليه من جنسه ، وكل إنسان يحشر على ما كان عليه في الدنيا . اهـ[1].

* * *

= وأشار السيوطي إلى ضعفه في الجامع ، وعن ابن عباس، وقبيصة بن بُرْمة عند البخاري في الأدب المفرد .

قال المناوي في فيض القدير (٢ / ٤٤٠) :

قال ابن الجوزي : حديث لا يصح . قال أحمد:تركت حديث هشام بن لاحق - أي أحد رجاله - تركه أحمد وقوّاه النسائي ، وبقية رجاله ثقات . وقبيصة قال أبو حاتم : لا يصح له صحبة ، قال الذهبي : يعني حديثه مرسل انتهى . وفي التقريب : مختلف في صحبته ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين .

قال الهيثمي : وفيه علي بن أبي هاشم . وفي حديث ابن عباس عبد الله بن هارون القروي وهو ضعيف ذكره الهيثمي ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، والخطيب عن علي ، قال ابن الجوزي : لا يصح إذ فيه محمد بن الحسين البغدادي ، كان يسمي نفسه لاحقًا ، وقد وضع على رسول الله ﷺ ما لا يحصى.ذكره الخطيب ، وعن أبي الدرداء ، وفيه هند أم ابن قتيبة ، قال ابن الجوزي : مجهول اهـ .

قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على سير أعلام النبلاء (١٧/٥٩٥) : وفي الباب عن سلمان الفارسي عند البخاري في الأدب المفرد ، والطبراني ، وعن أبي موسى الأشعري عند الطبراني في الصغير (١/٧٣،٧٤) ، وعن ابن عمر عند البزار ، فالحديث صحيح بهذه الشواهد .

(١) فيض القدير للمناوي (٢ / ٤٤٠) .

الكبائر





□ الكبائر □

يا كثير السيئات ، غدًا ترى عملك ، يا هاتك الحرمات ، إلى متى تديم زللك ؟.

كَمْ من وعيدٍ يخرقُ الآذانا كأنَّما يُعنى به سوانا
أُصمّنا التفريط بل أعمانا

قال ابن الجوزي : لتعظمنَّ على أهل المخالفات الآفات ، ولتقطعنّ أفئدة المفرطين بالزفرات ، وليشتهرن الفاجر في الخلوات بالجَلَوات ، ولتَمُورنَّ السُّوق يوم السَّوْق إلى سُوق المحاسبات ، ولتسيلنَّ الدماء بعد الدموع على الوجنات ، وليتحسرنّ أهل المعاصي إذا لاحت درجات الجنّات ، وليناديَنَّ منادي الجزاء يخبر بتفاوت العطاء ووقوع السيئات : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ .

لا تَحْقِرَنّ من الآثام محتقرًا كلُّ امرىء سوف يُجزى بالذي اكتسبا
إذا أتيت المعاصي فاخش غايتها من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا[١]

وجزاء السيئات والكبائر من جنسها يلوح ذلك جليًّا إذا ضربت الأمثلة بذكر الكبيرة أو المعصية وذكر جزائها .

○ ١ - الشرك بالله ○

أكبر الكبائر ..

قال ﷺ : « أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور »[٢] .

---

(١) التبصرة (٢ / ٥٨) .

(٢) رواه البخاري عن أنس .

وقال ﷺ : « الكبائر تسع ، أعظمهنَّ إشراكٌ بالله ... »[(١)] .

وقال ﷺ : « من أكبر الكبائر الشرك بالله ، واليمين الغموس »[(٢)] .

وقال : « لا تشرك بالله شيئًا ، وإن قُطِّعتَ وحُرِّقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدًا ، فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذّمة ، ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر »[(٣)] .

قال الله تعالى : ﴿ **ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [الأحقاف : ٥ - ٦] .

قال الشيخ سيد قطب :

قد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة ؛ إمّا لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة ، وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرةً أو الشيطان .. وكلها لا تستجيب لداعيها أصلًا . أولا تستجيب له استجابة نافعة ، فالأحجار والأشجار لا تستجيب. والملائكة لا يستجيبون للمشركين. والشياطين لا تستجيب إلا بالوسوسة والإضلال . كلها لا تستجيب لداعيها أصلًا . أو لا تستجيب له استجابة نافعة ، ثم إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم ، تبرّأ هؤلاء وهؤلاء من عبادهم الضالين ، حتى الشيطان ، كما جاء في سورة أخرى ﴿ **وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من**

---

(١) حسن : رواه أبو داود والنسائي عن عمير ، ورواه الطحاوي والحاكم والبيهقي في السنن ،وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن أنيس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٧٦ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢١٦ .

سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [إبراهيم : ٢٢]. من أضل ممن يدعو من دون الله أحدًا في أي زمان وفي أي مكان ؟ وكل أحد كائنًا من كان لا يستجيب لمن يدعوه ، ولا يملك أن يستجيب ، وليس هناك إلا الله فعال لما يريد(١) .

قال تعالى : **﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا ﴾** [مريم : ٨١ - ٨٢] .

يخاطبون آلهتهم التي كانوا يعبدون ، ويسوون بينها وبين الخالق ، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى رتبة الخالق **﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾** [الشعراء : ٩٧ - ٩٨] .

وقال تعالى : **﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين هنالك تبلو كل نفس ما أسلفتْ وردّوا إلى الله مولاهم الحقِّ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾** [يونس : ٢٨ - ٣٠] .

وقال تعالى : **﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾** [النحل : ٨٦ - ٨٧] .

قال ابن كثير :

أخبر تعالى عن تبرُّؤ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها ، كما قال تعالى : **﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾** [العنكبوت: ٢٥] .

وقال تعالى : **﴿ ويوم يقول نادوا شركائِي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ﴾** [الكهف : ٥٢] .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٢٥٥ - ٣٢٥٦) .

ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين[١] .

ذلّوا واستسلموا يومئذ لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع **﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾** [النحل : ٨٧] .

يقول صاحب الظلال :

وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئًا في موقفهم العصيب **﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾** [النحل: ٨٨] فالكفر فساد، والتكفير فساد، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم، وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقًا[٢] .

يقول الله تعالى : **﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾** [المعارج: ٤٣ - ٤٤] .

يقول الشيخ سيد قطب :

هؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه ، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا ، لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب في الأعياد ، ويتجمعون حولها . فها هم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !

ثم تتم سماتهم بقوله : **﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾** فنلمح من خلال الكلمات سيماهم كاملة ، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة ، صورة ذليلة عانية ، لقد كانوا يخوضون ويلعبون ، فهم اليوم أذلاء مرهقون[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٥١٢) .
(٢) الظلال (٤ / ٢١٨٨) .
(٣) الظلال (٦ / ٣٧٠٣) .

يقول ابن كثير :

كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا يهرولون إلى النصب - الصنم - إذا عاينوه يوفضون ، يبتدرون أيهم يستلمه أولا ، وهذا مروي عن مجاهد ويحيى ابن أبي كثير وقتادة والضحاك، والربيع بن أنس. وقوله تعالى: ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾ أي خاضعة ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة[١].

المآل والنهاية :

في البخاري ومسلم من حديث رسول الله ﷺ « يجمع الله الناس ، فيقول : من كان يعبد شيئًا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت..» الحديث.

ثم إن هذه الآلهة الباطلة تتساقط في النار ، ويتساقط عبادها وراءها في السعير ، كما قال تعالى في فرعون : ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود** ﴾ [هود : ٩٨] .

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال : «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ...» الحديث[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يَطَّلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا يتَّبع كلُّ إنسان ما كان يعبد ؟ فيمثل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره[٣] ، ولصاحب النار[٤] ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون، فيطلع عليهم رب العالمين ....»[٥] الحديث .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٢٤) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية .

(٣) عباد الأصنام . (٤) المجوس .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨١.

٢ - قتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق

قال ﷺ : « أبغض الناس إلى الله ملحد[١] في الحرم ، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطَّلِبٌ دم امرىء بغير حق ليهريق دمه »[٢] .

وقال ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء »[٣] .

وقال ﷺ : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق »[٤] .

وقال ﷺ : « لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبهم[٥] الله عز وجل في النار »[٦] .

وقال ﷺ : « لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا »[٧].

وقال ﷺ : « لا يزال المؤمن معنقًا[٨] صالحًا ما لم يصب دمًا حرامًا ، فإذا أصاب دمًا حرامًا بلّح[٩] »[١٠].

---

(١) الذي يرتكب فيه ما حرّمه الله .

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن ابن مسعود .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجة عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٥٤ .

(٥) ألقاهم على وجوههم .

(٦) صحيح : رواه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة معًا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٢٣ .

(٧) رواه أحمد والبخاري عن ابن عمر .

(٨) طويل العنق ، الذي له سوابق في الخير .

(٩) بلّح : أي أعيا وانقطع .

(١٠) صحيح : رواه أبو داود عن أبي الدرداء ، وعن عبادة بن الصامت ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٥٧٠ .

وقال ﷺ : « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دمًا ، فيقول : يا رب ! سل هذا فيم قتلني ؟ حتى يدنيه من العرش »(١) .

وقال ﷺ : « يجيء المقتول يوم القيامة متعلقًا بقاتله ، فيقول الله : فيم قتلت هذا ؟ فيقول : في ملك فلان »(٢) .

قال ابن العربي : ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق ، والوعيد في ذلك ، فكيف بقتل الآدمي ، فكيف بالمسلم ، فكيف بالتقي الصالح(٣) .

قتل الحسين بن علي :

قال ﷺ : « حسين مني ، وأنا منه ، أحب الله من أحب حسينًا ، الحسن والحسين سِبْطان(٤) من الأسباط »(٥) .

وقال ﷺ : « إن الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا »(٦) .

وقال ﷺ : « أتاني جبريل ، فبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »(٧) .

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨٧ .

(٢) صحيح: رواه النسائي عن جندب، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨٨.

(٣) فتح الباري (١٢ / ١٩٦) .

(٤) يعني أمة من الأمم في الخير .

(٥) حسن : رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبخاري في الأدب المفرد عن يعلى بن مرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٤١ .

(٦) صحيح : رواه الترمذي عن ابن عمر ، والنسائي عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٦ .

(٧) صحيح : رواه ابن سعد عن حذيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣ .

وقال ﷺ : « أتاني ملك فسلم علي – نزل من السماء ، لم ينزل قبلها – فبشّرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[١] .

قتل سيد شباب أهل الجنة في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين ، بعث إليه عبيد الله بن زياد بعمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، ومعه شمر بن ذي الجوشن – قبحه الله – وكتب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد : أن حل بينهم – أي الحسين وأصحابه وآل بيته – وبين الماء كما فُعِل بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان[٢]، واعرض على الحسين أن يبايع هو ومن معه لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، فإذا فعلوا ذلك رَأَيْنَا رَأْيَنَا ، وجعل أصحاب عمر بن سعد يمنعون أصحاب الحسين من الماء ، وعلى سرية منهم عمرو بن الحجاج ، فدعا عليهم بالعطش فمات هذا الرجل من شدة العطش . والجزاء من جنس العمل .

وطلب الحسين منهم أحد أمرين : إما أن يرجع من حيث جاء ، وإمّا أن يدعوه يذهب في الأرض العريضة حتى ينظر ما يصير أمر الناس إليه .

ونادى عمر بن سعد في الجيش : يا خيل الله اركبي وأبشري ، ولما وصلوا إلى حيث مضارب الحسين أرسلوا بعشرين فارسًا ، فقال العباس بن علي : ما لكم ؟ فقالوا : جاء أمر الأمير ؛ إما أن تأتوا على حكمه ، وإما أن نقاتلكم . ولما رجع العباس إلى الحسين قال له : ارجع ، فارددهم هذه العشية ، لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة ونستغفره وندعوه، فقد علم الله مني أني أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، والاستغفار والدعاء ، وأوصى الحسين في هذه الليلة إلى أهله ، وخطب لأصحابه : من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدونني ، فامتنعوا . وقال له سعيد بن عبد الله الحنفي : والله لا نخليك حتى

(١) صحيح: رواه ابن عساكر عن حذيفة، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٩.

(٢) ومن الذي كان يدافع عن عثمان– رضي الله عنه– إلا الحسين والحسن على باب داره.

يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ ، والله لو علمت أني أقتل دونك ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتل عنك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك ، لأحببت ذلك ، وإنما هي قتلة واحدة .

وتكلم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضًا ، فقالوا : والله لا نفارقك ، وأنفسنا الفداء لك ، نقيك بنحورنا وجباهنا ، وأيدينا وأبداننا ، فإذا نحن قتلنا وفينا وقضينا ما علينا . وقال له أخوه العباس : لا أرانا الله يوم فقدك ، ولا حاجة لنا في الحياة بعدك ، وقال الحسين : يا بني عقيل حسبكم بمسلم أخيكم – وكان رسول الحسين إلى أهل العراق بعد أن كاتبوه أن يقدم عليهم ، وله عندهم المنعة ، فقتلوا رسوله مسلمًا – اذهبوا ، فقد أذنت لكم . قالوا : فما تقول الناس : إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ، لم نبرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، رغبة في الحياة الدنيا ، لا والله لا نفعل ، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد مَوْرِدَك ، فقبح الله العيش بعدك .

وفي ليلة عاشوراء جعل الحسين يقول :

يا دهر أفٍّ لك من خليلِ ... كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحب أو طالبٍ قتيلِ ... والدهر لا يقنع بالبديلِ
وإنما الأمر إلى الجليلِ ... وكل حي سالكُ السبيلِ

فأعادها مرتين أو ثلاثًا ، فقامت إليه زينب – رضي الله عنها – حتى انتهت إليه ، فقالت : واثكلاه !! ليت الموت أعدمني الحياة ، اليوم ماتت أمي فاطمة ، وعلى أبي ، وحسن أخي ، يا خليفة الماضي ، وثمال الباقي . فنظر إليها وقال : يا أخيّه ، لا يُذهبن حلمك الشيطان . فقالت : بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله ، أستقتل؟ وخرت مغشيًّا عليها، فقام إليها، فصبّ على وجهها الماء وقال : يا أخيّه، اتقي الله واصبري وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته ، ويميتهم بقهره وعزَّته ، ويعيدهم فيعبدونه وحده ، وهو فرد وحده ، واعلمي أن

أبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله ﷺ أسوة حسنة ، ثم حرّج عليها ألا تفعل شيئًا من هذا بعد مهلكه .

وبات الحسين وأصحابه طول ليلهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ، والحسين يقرأ : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** .. ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٨- ١٧٩] .

في صبيحة عاشوراء اغتسل الحسين ، وتطيب بمسك كثير ، ثم ركب على فرسه ، وأخذ مصحفًا فوضعه بين يديه ، ثم استقبل القوم رافعًا يديه يدعو : اللهم ، أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لي من كل أمر نزل ثقة وعدة ، فكم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقلُّ فيه الحيلة ، ويخذُل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، فأنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة فيه إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت وليّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل غاية .

ونادى الحسين : أيها الناس ، اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم . فأنصت الناس كلهم فقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس ، إن قبلتم مني وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وإن لم تقبلوا مني ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلّي ولا تنظرون** ﴾ [يونس:٧١]، ﴿**إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين**﴾ [الأعراف: ١٩٦] .

ثم شرع يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره وشرفه ، ويقول : راجعوا أنفسكم وحاسبوها . هل يصلح لكم قتال مثلي وأنا ابن بنت نبيكم ، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري ، وعلي أبي ، وجعفر ذو الجناحين عمي ، وحمزة سيد الشهداء عم أبي ، وقال لي رسول الله ﷺ ولأخي : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » ، فإن صدقتموني بما أقول فهو الحق ، فوالله ما تعمدّت كذبة منذ علمت أن الله يمقت على الكذب ، وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله

ﷺ عن ذلك ، جابر بن عبد الله ، وأبا سعيد ، وسهل بن سعد ، وزيد بن أرقم ، وأنس بن مالك يخبروكُمْ بذلك ، ويحكم ! أما تتقون الله ؟ أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ فقال عند ذلك شمر بن ذي الجوشن : هو يعبد الله على حرف ، إن كنت أدري ما يقول ؟ فقال له حبيب بن مطهر : والله يا شمر ، إنك لتعبد الله على سبعين حرفًا ، وأما نحن فوالله إنا لندري ما يقول ، وإنه قد طبع على قلبك ، ثم قال : يأيها الناس ، ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض ، فقالوا : وما يمنعك أن تنزل على حكم بني عمك ؟ فقال : معاذ الله ﴿ **إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [غافر :٢٧] ثم أناخ راحلته ، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها ، ثم قال : أخبروني ، أتطلبوني بقتيل لكم قتلته ؟ أو مالٍ لكم أكلته ؟ أو بقصاصة على جراحة ؟ فأخذوا لا يكلمونه ، فنادى : يا شبيث ابن ربعي ، يا حجار بن أبجر ، يا قيس بن الأشعث ، يا زيد ابن الحارث ، ألم تكتبوا إليّ أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب ، فاقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة ؟ فقالوا له : لم نفعل . فقال : سبحان الله ! والله لقد فعلتم . ثم قال : يأيها الناس ، إذ قد كرهتموني ، فدعوني أنصرف عنكم ، فقال له قيس بن الأشعث : ألا تنزل على حكم بني عمك ، فإنهم لن يؤذوك ، ولا ترى منهم إلا ما تحب ؟ فقال له الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن تطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر لهم إقرار العبيد .

فأقبلوا يزحفون نحوه ، وقد تحيز إلى جيش الحسين طائفة قريب من ثلاثين فارسًا من جيش العراق ، منهم الحر بن يزيد أمير مقدمة جيش ابن زياد ، فاعتذر إلى الحسين ، ثم تقدم بين يدي أصحاب الحسين فخاطب : يأهل الكوفة لأمِّكم الهبل[1] ، أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة الوسيعة التي لا يمنع فيها الكلب والخنزير ، وحلتم بينه وبين الماء الفرات الجاري الذي

---

(١) الهبل : الثكل .

يشرب منه الكلب والخنزير ، وقد صرعهم العطش ، بئس ما خلفتم محمدًا في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمإ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عمَّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه .

وقال أيضًا : ويحكم منعتم الحسين ونساءه وبناته الماء الفرات الذي يشرب منه اليهود والنصارى ، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، فهو كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا .

وقال لهم زهير بن القين : إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية ، فإن أنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، خلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، يذهب حيث يشاء، فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال له : اسكت ، أسكت الله نامتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك . فقال له زهير : إياك أخاطب ؟ إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحكم من كتاب الله آيتين ، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم . فقال له شمر : إن الله قاتلك وصاحبك بعد ساعة . فقال له زهير : أبالموت تخوفني ؟ فوالله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم . ثم إن زهيرًا أقبل على الناس رافعا صوته يقول : عباد الله ، لا يغرنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه ، فوالله لا ينال شفاعة محمد ﷺ قوم أهرقوا دماء ذريته ، وقتلوا من نصره وذبَّ عن حريمهم .

وشمر عمر بن سعد عن ساعده ، ورمى بسهم وقال : اشهدوا أني أول من رمى القوم ، وترامى الناس بالنبال ، وحمل رجل يقال له : عبد الله بن حوزة حتى وقف بين يدي الحسين ، فقال له : يا حسين ، أبشر بالنار ! فقال له الحسين : كلا ، ويحك إني أقدم على رب رحيم ، وشفيع مطاع ، بل أنت أولى بالنار . قالوا : فانصرف ، فوقصته فرسه فسقط ، وتعلقت قدمه بالركاب ، وكان قد سأل عنه فقال : أنا ابن حوزة . فرفع الحسين يده وقال : اللهم ، حزه إلى النار ، فغضب ابن حوزة ، وأراد أن يقحم عليه الفرس ، وبينه وبينه نهر ، فجالت به الفرس ، فانقطعت قدمه وساقه وفخذه ، وبقي جانبه الآخر متعلقا بالركاب ،

وشدّ عليه مسلم بن عوسجة فضربه فأطار رجله اليمنى ، وغارت به فرسه ، فلم يبق حجر يمر به إلا ضربه في رأسه حتى مات .

وكان جزاؤه من جنس قوله وعمله .

وكثرت المبارزة بين الفريقين ، والنصر في ذلك لأصحاب الحسين لقوة بأسهم ، فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة ، وحمل شمر ابن ذي الجوشن بالميسرة ، وقصدوا نحو الحسين فدافعت عنه الفرسان من أصحابه دفاعًا عظيمًا ، فأرسلوا يطلبون من عمر بن سعد طائفة من الرماة الرجّالة ، فبعث إليهم نحوا من خمسمائة ، فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلها حتى بقي جميعهم رجالة ، واستمر القتل في أصحاب الحسين ، ومنهم خبيب بن مطهر ، حمل عليه رجل من بني تميم فطعنه فوقع ، ثم ذهب ليقوم فضربه الحصين بن نمير على رأسه بالسيف فوقع ، ونزل إليه التميمي فاحتز رأسه ، وحمله إلى ابن زياد ، فرأى ابن حبيب رأس أبيه فعرفه ، فقال لحامله : أعطني رأس أبي حتى أدفنه ، ثم بكى ، قال : فمكث الغلام إلى أن بلغ أشده ثم لم تكن له همة إلا قتل قاتل أبيه ، قال : فلما كان زمن مصعب ابن عمير دخل الغلام عسكر مصعب فإذا قاتل أبيه في فسطاطه ، فدخل عليه وهو قائل فضربه بسيفه حتى برد .

والجزاء من جنس العمل .

وقتل كل أصحاب الحسين وجاء رجل من بني بَدّاء ، يقال له : مالك ابن البشير ، فضرب الحسين على رأسه بالسيف فأدمى رأسه ، وكان على الحسين برنس فقطعه ، وجرح رأسه ، فامتلأ البرنس دمًا ، فقال له الحسين : لا أكلت بها ولا شربت ، وحشرك الله مع الظالمين .

وكان أول قتيل قتل من أهل الحسين من بني أبي طالب علي الأكبر ابن الحسين بن علي ، قتلوا مع الحسين سبعة عشر رجلًا كلهم من أولاد فاطمة ، وعن الحسن البصري أنه قال : قتل مع الحسين ستة عشر رجلًا كلهم من أهل بيته ، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه ، وقال غيره : قتل معه من ولده

وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلًا : فمن أولاد علي - رضي الله عنه -: جعفر، والحسين، والعباس، ومحمد، وعثمان، وأبو بكر، من أولاد الحسين: علي الأكبر، وعبد الله، ومن أولاد أخيه الحسن ثلاثة: عبد الله، والقاسم، وأبو بكر بنو الحسن بن علي بن أبي طالب . ومن أولاد عبد الله بن جعفر اثنان : عون ، ومحمد، ومن أولاد عقيل: جعفر، وعبد الله وعبد الرحمن، ومسلم قتل قبل ذلك . فهؤلاء أربعة لصلبه، واثنان آخران هما: عبد الله بن مسلم بن عقيل ، ومحمد ابن أبي سعيد بن عقيل ، فكملوا ستة من ولد عقيل .

وقد اشتد عطش الحسين ، فحاول أن يشرب من ماء الفرات فما قدر ، بل مانعوه عنه، فخلص إلى شربة منه، فرماه رجل يقال له: حصين بن تميم بسهم في حنكه فأثبته ، فانتزعه الحسين من حنكه ، ففار الدم، فتلقاه بيديه ، ثم رفعهما إلى السماء، وهما مملوءتان دمًا، ثم رمى به إلى السماء، وقال : اللهم، أحصهم عددًا ، واقتلهم بددًا ، ولا تذر على الأرض منهم أحدًا .. ودعا عليهم دعاءً بليغًا .

يقول ابن كثير :

فوالله إن مكث الرجل الرامي له إلا يسيرًا حتى صبّ الله عليه الظمأ ، فجعل لا يروى ويُسقى الماء مبردًا ، وتارة يبرد له اللبن والماء جميعا ، ويسقى فلا يروى ، بل يقول : ويلكم ، اسقوني قتلني الظمأ . قال : فوالله ، ما لبث إلا يسيرًا حتى انقد[1] بطنه انقداد البعير[2] .

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن محمد الكوفي قال : كان رجل من بني أبان بن دارم يقال له : زرعة ، شهد قتل الحسين ، فرمى الحسين بسهم ، فأصاب حنكه ، فجعل يتلقى الدم ، ثم يقول : هكذا إلى السماء فيرمي به ، وذلك أن الحسين دعا بماء ليشرب ، فلما رماه حال بينه وبين الماء ، فقال : اللهم ظَمِّئْه !

---

(١) انقد : انشدخ .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ١٨٩) .

اللهم ظمئه ! قال : فحدثني من شهده وهو يموت ، وهو يصيح من الحرِّ في بطنه، والبرد في ظهره، وبين يديه المراوح والثلج، وخلفه الكانون ،وهو يقول : اسقوني أهلكني العطش ، فيؤتى بعُسٍّ عظيم فيه السَّويق أو الماء أو اللبن ، لو شربه خمسة لكفاهم ، قال : فيشربه ، ثم يعود ، فيقول : اسقوني ، أهلكني العطش . قال : فانقدّ بطنه كانقداد البعير(١) .

والجزاء من جنس العمل .

جعل شمر بن ذي الجوشن يحرضهم على قتل الحسين ويقول : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم . وجعل الحسين يشد على الرجال وهو يقول : أعلى قتلي تحابون ؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبدًا من عباد الله أسخط عليكم بقتله مني ، وايم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم .

وجعل - رضي الله عنه - يحمل من على يمينه حتى اندعروا عنه ، وهو كالليث الهصور قد قتل أولاده ، بل منهم من ذبح بين يديه ، وقتل أصحابه ، وما رأى الناس أربط منه جأشًا ، ولا أمضى جنانًا ، فحملت الرجال - بل والله الصعاليك - من كل جانب على الحسين ، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كتفه اليسرى ، وضرب على عاتقه ، ثم انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو ، ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع ، ثم نزل فذبحه ، وحزّ رأسه ، ثم دفع رأسه إلى خولي بن يزيد وجاء سنان بن أنس إلى فسطاط عمر بن سعد فنادى بأعلى صوته :

---

(١) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص٩٢ ، تحقيق وتعليق : مجدي السيد إبراهيم مكتبة القرآن .

أوقر ركابي فضة وذهبا أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمًّا وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فضربه عمر بن سعد بالسوط .

ثم حملوا رأس الحسين – رضي الله عنه – إلى عبيد الله بن زياد ، فوضع في طست فجعل ينكت بقضيب في أنفه ويقول : ما رأيت مثل هذا حسنا . وفي رواية : جعل ينكت فيه بقضيب بين ثناياه ساعة . فقال له زيد بن أرقم : ارفع هذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الثنيتين يقبلهما .

وأمر ابن زياد ، فنودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين ، الذي أراد أن يسلبهم الملك ، ويفرّق الكلمة عليهم ، فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي فقال : ويحك يابن زياد !! تقتلون أولاد النبيين، وتتكلمون بكلام الصديقين! فأمر به ابن زياد فقتل وصلب. ثم أمر برأس الحسين ، فنصب بالكوفة ، وطيف به في أزقتها ، ثم سيره مع زحر بن قيس ومعه أرؤس أصحابه إلى يزيد بن معاوية .

لما انتهت المعركة مروا بنساء أهل البيت على القتلى ، ورأوا الحسين وأصحابه مطرحين،هنالك بكته النساء ، وصرخن ، وندبت زينب أخاها الحسين وأهلها ، فقالت وهي تبكي: يا محمداه! يا محمداه! صلى عليك الله! وملك السماء! هذا حسين بالعراء! مزمل بالدماء! مقطع الأعضاء! يا محمداه! وبناتك سبايا! وذريتك مقتلة! تسفي عليها الصبا ! فأبكت والله كل عدو وصديق .

لما أُتي بالرأس بين يدي يزيد دمعت عينا يزيد ، وقال لعبد الله بن سمية ، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه ، كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، ورحم الله الحسين ، ثم قال : لما وضع الرأس بين يديه : أما والله لو أني صاحبك ما قتلتك ، ثم جعل ينكت بقضيب كان في يده في ثغره ، ثم أنشد قول الحسين

ابن الحمام المري الشاعر :

يفلقن هامًا من رجالٍ أعزّةٍ علينا وهمْ كانوا أعقّ وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمي : ارفع قضيبك ، أما والله لقد أخذ قضيبك هذا مأخذًا ، لقد رأيت رسول الله ﷺ يرشفه ، ثم قال : ألا أن هذا سيجيء يوم القيامة وشفيعه محمد ، وتجيء وشفيعك ابن زياد ، ثم قام فولى .

إخوتاه :

أيرجو معشر قتلوا حسينًا شفاعة جدّه يوم الحساب

ويح قاتل الحسين ! كيف حاله مع أبويه وجده ؟!!

لابد أن ترد القيامة فاطِمٌ وقميصها بدم الحسين ملطّخُ

ويلٌ لِمَنْ شفعاؤه خصماؤه والصُّور في يوم القيامة يُنفخُ

إخواني ، بالله عليكم من قبح علي يوسف بأي وجه يلقى يعقوب

ماذا تقولون إن قال النبي لكمْ ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأممِ

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم ضرّجوا بدمِ

ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكمْ أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمِ

لما أُسر العباس يوم بدر سمع رسول الله ﷺ أنينه فما نام ، فكيف لو سمع أنين الحسين ؟

جاءوا برأسك يابن بنت محمدٍ متزملا بدمائه تزميلا[1]

وكأنما بك يابن بنت محمدٍ قتلوا جهارًا عامدينَ رسولا

قتلوك عطشانًا ولم يتدبروا في قتلك القرآن والتنزيلا

ويكبّرون بأنْ قُتلتَ وإنما قتلوا بك التكبير والتهليلا

لما أسلم وحْشيّ قال له الرسول ﷺ : غيِّب وجهك عني . هذا والله والمسلم لا يؤاخذ بما كان في الكفر ، فكيف يقدر الرسول ﷺ أنْ يُبصر من

---

(١) تزمّل : تلفف .

قتل الحسين ؟

لقد جمعوا في ظلم الحسين ما لم يجمعه أحِد ، ومنعوه أن يرد الماء فيمنْ ورَد ، وأن يرحل عنهم إلى أي بلد ، وسبوا أهله وقتلوا الولد ، وما هذا حَدُّ دفع عن الولاية،هذا سوء معتقد .

نبع الماء من بين أصابع جده فما سقوه منه قطرة !

كان الرسول ﷺ من حب الحسين يقبل شفتيه ، ويحمله كثيرًا على عاتقيه ، ولما مشى طفلًا بين يدي المنبر نزل إليه ، فلو رآه مُلْقى على أحد جانبيه ، والسيوف تأخذه والأعداء حواليه ، والخيل قد وطئت صدره ومشت على يديه ، ودماؤه تجري بعد دموع عينيه ، لضجَّ الرسول ﷺ مستغيثًا من ذلك ولعزّ عليه .

روى ابن أبي الدنيا بسنده عن زيد بن جدعان قال : استيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع ، وقال : قتل الحسين والله ، فقال له أصحابه : لم يا بن عباس ؟ فقال : رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال:« أتعلم ما صنعت أمتي من بعدي ؟ قتلوا الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعهما إلى الله » . فكتب ذلك اليوم الذي قال فيه ، وتلك الساعة ، فما لبثوا إلا أربعة وعشرين يومًا حتى جاءهم الخبر بالمدينة أنه قتل في ذلك اليوم في تلك الساعة[1] .

وروى الترمذي عن سلمى قالت : دخلت على أم سلمة – وهي تبكي – فقلت : ما يبكيك ؟ فقالت : رأيت رسول الله ﷺ وعلى رأسه وعلى لحيته تراب ، فقلت : ما لك يا رسول الله قال : « شهدت قتل الحسين آنفًا » .

كربلاء زِلت كربًا وبَلَا ... ما لقي عندكِ أهل المصطفى

كم على تُرْبِك لمّا صُرِعوا ... من دم سالَ ومن دَمْع جرَى

يا رسول الله لو عايَنْتَهمْ ... وهمُ ما بين قَتْلٍ وسِبَا

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/١٧٤-٢٠٣) ، التبصرة (٢/١٧-١٨) .

من رَمِيض[١] يُمْنَع الظِّلَّ ومِنْ ... عاطشٍ يُسقى أنابيب القَنا
لرأت عيناك فيهم مَنْظرًا ... للحَشا شجوًا وللعينِ قَذَى
ليس هذا لرسول الله يا ... أمة الطغيان والمَيْنِ جَزا
غارس لم يَأْلُ في الغَرْس لهمْ ... فأذاقوا أهلَه مُرَّ الجَنَى
جَزروا جَزْرَ الأضاحي نَسْله ... ثم ساقوا أهلَه سَوْق الإما
هاتفاتٍ يا رسول الله في ... بُهر[٢] السعي وعثْرات الخطى
قتلوه بعد عِلْمٍ منهمُ ... أنه خامسُ أصحاب الكِسَا[٣]
يا جبالَ المجد عزًّا وعُلَا ... وبدورَ الأرض نورًا وسنا
جعل الله الذي نالكمُ ... سبب الوجْد طويلًا والبُكا
لا أرى حُزنكمُ يُنْسى ولَا ... رُزْأُكُم يُسْلَى ولو طال المدى[٤]

جزاء قتلة الحسين في الدنيا :

يقول ابن كثير :

أمَّا ما روي من الأحاديث والفتن التي أصابت من قتله فأكثرها صحيح ، فإنه قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة في الدنيا ، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض ، وأكثرهم أصابهم الجنون[٥] .

وقال أيضًا :

لاشك أن قتل قتلته كان متحتمًا ، والمبادرة إليه كان مغنمًا ، ولكن إنما قدره الله على يد المختار الكذاب الذي صار بدعواه إتيان الوحي إليه كافرًا ، وقد

---

(١) الرميض : من أصابته الرمضاء ، وهي شدة الحر بالهاجرة .
(٢) البهر : انقطاع النفس من الإعياء .
(٣) أي الذين غطاهم رسول الله ﷺ ببردته وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي » . وهم الرسول ﷺ ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين .
(٤) التبصرة (٢ / ١٨) .
(٥) البداية والنهاية (٨ / ٢٠٣) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . وقد قال تعالى في كتابه الذي هو أفضل ما يكتبه الكاتبون : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

وقال بعض الشعراء :

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم[1]

فهذا شمر بن ذي الجوشن - قبحه الله - هذا الأبرص الذي أغرى الناس بقتل الحسين ، يقتله أبو عمرة أمير حرس المختار ومن معه من الجنود ، شرع المختار يتتبع قتلة الحسين من شريف ووضيع فيقتله .

قال ابن كثير :

خطب المختار أصحابه فقال : ما ذنبنا نترك أقواما قتلوا حسينا يمشون في الدنيا أحياء آمنين ، بئس ناصرو آل محمد ، إني إذًا كذّاب كما سميتموني أنتم ، فإني بالله أستعين عليهم ، فالحمد لله الذي جعلني سيفًا أضربهم ، ورمحًا أطعنهم ، وطالب وترهم[2] ، وقائما بحقهم ، وإنه كان حقًّا على الله أن يقتل من قتلهم ، وأن يذلّ من جهل حقهم ، فسموهم ، ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم ، فإنه لا يسيغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم ، وأنفي مَنْ في المصر منهم ، ثم جعل يتتبع من في الكوفة - وكانوا يأتون بهم حتى يوقفوا بين يديه فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات ما يناسب ما فعلوا - ومنهم مَنْ حرّقه بالنار ، ومنهم من قطع أطرافه وتركه حتى مات ، ومنهم من يرمى بالنبال حتى يموت ، فأتوه بمالك ابن بشر فقال له المختار : أنت الذي نزعت برنس الحسين عنه ؟ فقال : خرجنا ونحن كارهون فامنن علينا ، فقال : اقطعوه ، يديه ورجليه ، ففعلوا به ذلك ثم تركوه يضطرب حتى مات ، وقتل عبد الله بن أسيد الجهني وغيره شر قتلة[3] .

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٧) .

(٢) الوتر : الثأر .

(٣) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٥) .

والجزاء من جنس العمل .

وأما خولي بن يزيد الأصبحي الذي احتز رأس الحسين[1] فقد بعث إليه المختار أبا عمرة صاحب حرسه ، فكبس بيته ، فخرجت إليهم امرأته ، فسألوها عنه ، فقالت : لا أدري أين هو ، وأشارت بيدها إلى المكان الذي هو مختف فيه - وكانت تبغضه من ليلة قدم برأس الحسين معه إليها وكانت تلومه على ذلك - فدخلوا عليه فوجدوه قد وضع على رأسه قوصرة[2]، فحملوه إلى المختار فأمر بقتله قريبا من داره ، وأن يحرق بعد ذلك .

وقتل حكيم بن فضيل السبنسي الذي سلب العباس بن علي بن أبي طالب .

وقتل يزيد بن ورقاء ، وكان قد قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل .

وقتل فيما بعد سنان بن أنس . والجزاء من جنس العمل .

وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الذين قتلوا الحسين .

عمر هذا الذي دعا عليه سعد بن أبي وقاص والده وكان مستجاب الدعوة : اللهم اقتله وأسِلْ دمه ، لما أسال دم غلام لسعد .

عمر هذا الذي استجار بعبد الله بن جعد بن هبيرة وكان صديقًا للمختار ، فأتى المختار فأخذ منه لعمر بن سعد أمانًا مضمونة أنه آمن على نفسه وأهله وماله ما أطاع ولزم رحله ومصره ، ما لم يحدث حدثا ، وأراد المختار ما لم يأت الخلاء فيبول أو يغوط .

وجعل عمر يتنقل من محلة إلى محلة ، ولما بلغ المختار انتقاله من موضع إلى موضع فقال : كلا والله ، إن في عنقه سلسلة ترده لوجهه إن يطر لأدركه دم الحسين فأخذ برجله . ثم أرسل إليه أبا عمرة فأراد الفرار منه ، فعثر في جبته ،

---

(١) قال هذا ابن كثير في البداية والنهاية (٨ / ٢٧٥) ، وورد عنده أيضًا أن فاعل ذلك هو سنان بن أنس .

(٢) وعاء من قصب يجعل فيه التمر .

فضربه أبو عمرة بالسيف حتى قتله ، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار ، فقال المختار لابنه حفص - وكان جالسًا عند المختار - فقال : أتعرف هذا الرأس ؟ فاسترجع ، وقال : نعم ، ولا خير في العيش بعده . قال : صدقت ، ثم أمر به فضربت عنقه ، ووضع رأسه مع رأس أبيه . ثم قال المختار : هذا بالحسين وهذا بعلي بن الحسين الأكبر ، ولا سواء[1] .

والجزاء من جنس العمل .

أما عبيد الله بن زياد رأس الفسق ، الذي كتب كتابًا لعمر بن سعد في قتل الحسين ؛ والذي قال لعمر بن سعد بعد قتل الحسين : أين الكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين ؟ فقال له : مضيت لأمرك وضاع الكتاب . فقال له ابن زياد : لتجيئن به . قال : ضاع . قال : والله لتجيئن به . قال : ترك والله يقرأ على عجائز قريش أعتذر إليهم بالمدينة ، أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها إلى سعد بن أبي وقاص لكنت قد أديت حقه . فقال عثمان ابن زياد أخو عبيد الله : صدق عمر والله . ولوددت والله أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة[2] إلى يوم القيامة وأن حسينا لم يقتل[3] .

وقد قتل عبيد الله بن زياد في يوم عاشوراء سنة سبع وستين ، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين .

ظفر به ابن الأشتر ، فقتله شر قِتلة . على شاطيء نهر الخاز ، قريبًا من الموصل بخمس مراحل ، بعد هزيمة جيشه أمام جيش ابن الأشتر ، ثم بعث ابن الأشتر برأسه إلى المختار ومعه رأس حصين بن نمير وشراحبيل بن ذي الكلاع ، وجماعة من رؤساء أصحابهم، فسرّ بذلك المختار .

لما جيء برأس ابن مرجانة وأصحابه طرحت بين يدي المختار فجاءت حية

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٦) .

(٢) خزامة : حلقة توضع في أنف البعير .

(٣) البداية والنهاية (٨ / ٢١٠) .

رقيقة ، ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت في فم ابن مرجانة وخرجت من منخره ، ودخلت في منخره وخرجت من فمه ، وجعلت تدخل وتخرج من رأسه مِنْ بين الرءوس .

وروى الترمذي عن عمارة بن عمير قال : لما جيء برأس عبيد الله وأصحابه فنصبت في المسجد في الرحبة ، فانتهيت إليها وهم يقولون : قد جاءت قد جاءت ، فإذا حية قد جاءت تخلل الرءوس حتى دخلت في منخري عبيد الله ابن زياد ، فمكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ، ثم قالوا : قد جاءت قد جاءت ، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثًا[١] .

مثلما فعل بالقضيب في فم ومنخري الحسين ، والجزاء من جنس العمل .

قال ابن كثير :

قال عبد الملك بن عمير : دخلت على عبيد الله بن زياد ، وإذا رأس الحسين بن علي بين يديه على ترس، فوالله ما لبثت قليلًا حتى دخلت على المختار بن أبي عبيد، وإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار على ترس ، ووالله ما لبثت إلا قليلًا حتى دخلت على مصعب وإذا رأس المختار بين يدي مصعب على ترس[٢] .

وكان جزاء عبيد الله بن زياد في الدنيا من جنس عمله ، والمرد إلى الله ، فيعاقبه بقتل ابن بنت النبي .

عن أبي الطفيل قال : عزلنا سبعة أرؤس ، وغطينا منها رأس عبيد الله ابن زياد ، فجئت فكشفتها فإذا حية في رأس عبيد الله تأكل[٣] .

سجع

على قوله تعالى : ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ [الإسراء : ٣٣] .

---

(١) البداية والنهاية (٢٨٩/٨) وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥٤٩/٣) . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حسن صحيح .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ١٩٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٤٨/٣-٥٤٩).

سبحان من رفع للحسين بقتله مكانا ، ودمغ من عاداه فعاد بعد العزّ مُهانا ، ما ضرّه حين الشهادة مَنْ أوسعه خذلانا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

هلك أهل الزَّيْغ والعناد ، وكأنهم ما ملكوا يومًا البلاد ، وعاد عليهم اللعن كما عاد على عاد ، أين يزيد ، أين ابن زياد ؟ كأنهما ما كانا لا كانا ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

تمتعوا أيامًا يسيرة ، ثم عادت أجنحة الملك كسيرة ، وبقيت سيرة الحسين أحسن سيرة ، ومَنْ عزّت عاقبته والسيرة ، فكأنْ لم يلقَ هوانا ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

مُزِّقوا والله كل ممزَّق ، وتفرقوا بالشتات أي متفرِّق ، وظنوا أنهم رفَوْا ما جَنَوْا فتخرّق ، إن ناصر المظلوم لا يتوانى ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

تعززوا على مثل الحسين وطالوا ، وظنوا بقاء الملك لهم بما احتالوا ، وكيل لهم من الذم أضعاف ما كالوا ، وعجّل قلعهم من السلطة فزالوا ، سلطانًا سلطانًا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا** ﴾ .

ويلهم لو دبروا أمرهم ، لرفعوا بطاعة الحسين قَدْرهم ، ملكوا أيامًا ثم بقي الخزي دهرهم ، اشتغلوا اليوم بتسبيحكم ودعوا ذكرهم ، أهوانا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾[1] .

أبو مسلم الخراساني :

وانظر إلى أبي مسلم الخراساني الذي قتل من عباد الله ماقتل ، وكان فاتكًا سفاكًا .

ذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه ، وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستمائة ألف صبرًا زيادة عن مَنْ قتل بغير ذلك .

---

(١) التبصرة (٢ / ١٨ - ١٩) .

وسئل عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد ، ولكن كان الحجاج شرًّا منه ، كتب إليه المنصور : احذر البغي أبا مسلم ، فإنه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم ، واحذر أن تكون سنة في الذين خلوا من قبلك ، ومثلة لمن يأتي بعدك .

وكتب هو إلى المنصور : إن أخاك السفاح ظهر في صورة مهديّ وكان ضالًا، فأمرني أن أجرّد السيف ، وأقتل بالظنة ، وأقدم بالشبهة ، وأرفع الرحمة ، ولا أقيل العثرة ، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم ، واستنقذني بالتوبة ، فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفورًا ، وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد .

وكتب إليه المنصور : أما بعد أيها المجرم العاصي ، إنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركًا ، ولأغواهما راكبًا ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش بطش الجبابرة ، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين .

ولما أدخلوه على المنصور جعل يعاتبه في أشياء صدرت منه ، فيعتذر عنها جيدًا ، حتى قال له : فلم قتلت سليمان بن كثير ، وإبراهيم بن ميمون ، وفلانا وفلانا ؟ قال : لأنهم عصوني وخالفوا أمري . فغضب عند ذلك المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل إذا عُصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني ؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله ، فتبادروا إليه ليقتلوه ، فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، استبقني لأعدائك . فقال : وأي عدو لي أعدى منك ؟! ثم زجرهم المنصور ، فقطعوه قطعا ، ثم أُلقي في دجلة .

ويروى أن المنصور لما قتله وقف عليه ، فقال : رحمك الله أبا مسلم ، بايعتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفينا لك ، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكمنا عليك حكمك على نفسك لنا .

ويقال : إن المنصور قال : الحمد لله الذي أرانا يومك يا عدو الله

قال ابن جرير : وقال المنصور عند ذلك :

زعمتَ أن الدَّين لا يُقتضى فاستوفِ بالكيلِ أبا مجرمِ
سُقيت كأسًا كنتَ تسقى بها أمرَّ في الحلق من العلقَمِ

وفي ذلك يقول أبو دلامة :

أبا مسلم ما غيّر الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبدُ
أبا مسلم خوّفتني القتل فانتحن عليك بما خوفتني الأسد الوردُ

ثم إن المنصور خطب في الناس بعد قتل أبي مسلم فقال : يأيها الناس ، لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر ، فتحل بكم النقم ، وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكث وغدر ، وفجر وكفر ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا .

وقال: فحكمنا فيه حكمه في غيره ممن شق العصا[1]. والجزاء من جنس العمل.

يوسف بن عمر :

قال الإمام الذهبي :

قال صالح بن طريف : لما قدم يوسف بن عمر العراق ، بكيت ، وقلت : هذا الذي ضرب وهب بن منبه حتى قتله .

قال الذهبي : يعني لما ولي إمرة اليمن ، ثم نقله الخليفة هشام إلى إمرة العراق ، وكان جبارًا عنيدًا مهيبًا ، ثم إنه عزل عن العراق ، عند مقتل الوليد الفاسق ، ثم ضربت عنقه ولله الحمد[2] والجزاء من جنس العمل .

المعتز ، والمعتمد على الله :

قال الذهبي في ترجمة المؤيد بالله :

---

(١) البداية والنهاية : (٧٠ - ٧٣) ، سير أعلام النبلاء (٦ / ٧٢) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤ / ٥٥٦) .

عقد له أخوه بولاية عهد الخلافة من بعده ، ودُعي له في الأمصار ، ثم بلغ المعتز عنه أمر فضربه ، وخلعه من العهد ، وحبسه يومًا ، ثم أُخرج ميتًا . فقيل : أُجلس في الثلج حتى مات بردًا ، وبعث به إلى أمه ، فبعثت تقول لقبيحة أم المعتز : عن قريب ترين المعتز ابنك هكذا .

قال الذهبي : كذا وقع ، وما أمهله الله[1] .

وقال الذهبي في ترجمة المعتمد على الله : وأما الصولي . فقال : بل عذبوه في حمام ، كما هو فعل بالمعتز ، حتى أقر بالأموال ثم خنق[2] .

قتل المعتز بعد أن أهانه الأتراك ، ولطموا وجهه ، وساموه سوء العذاب بأنواع المثلات ، وكانت أمه تدعو على صالح بن وصيف قاتله وتقول : اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري ، وقتل ولدي ، وبدّد شملي ، وأخذ مالي ، وغرّبني عن بلدي ، وركب الفاحشة مني - وكان قد تزوج بها - ثم يكون جزاء صالح بن وصيف من جنس عمله ، فقتل بعد سنة ٢٥٦ بعد طول اختفاء ، ورفع رأسه على رمح ، ونودي عليه في أرجاء البلد : هذا جزاء من قتل مولاه .

الحجاج بن يوسف الثقفي المبير :

قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثتِ الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها ، وجئنا بالحجاج ؛ لغلبناهم[3] .

قالت له أسماء لما دخل عليها بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير ، وقال لها : إن ابنك ألحد في هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم ، وفعل . فقالت : كذبت، كان بارًّا بوالديه، صوّاما قوّاما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذّاب » . فأما الكذاب فابن أبي عبيد - تعني المختار -

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٣٣) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٥٤١) .
(٣) البداية والنهاية (٩ / ١٤٣) .

وأما المبير فأنت .

أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدًا وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج ، وقيل : إنه لبث في سجنه ثِمانون ألفًا ، منهم ثلاثون ألف امرأة ، وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفًا .

وعن هشام بن حسّان : أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفًا .

كان عثمانيًّا أمويًّا ، يميل إليهم ميلًا عظيمًا ، ويرى أن خلافهم كفر ، ويستحل بذلك الدماء ، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم .

خطب الحجاج يومًا فقال : أيها الناس ، الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك يا حجاج ! ما أصفق وجهك وأقل حياءك ، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ خبت وضل سعيك . فقال للحرس : خذوه . فلما فرغ من خطبته قال له : ما الذي جرّأك علي ؟ فقال : ويحك يا حجّاج ، أنت تجترىء على الله ولا أجترىء أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترىء عليك ، وأنت تجترىء على الله رب العالمين ، فقال : خلوا سبيله .

وقتَل الحجاج سعيد بن جبير .

قال الإمام أحمد : قُتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال مفتقر - إلى علمه .

قال ابن كثير :

قال له الحجاج : والله لأقتلنك . قال : إني إذًا لسعيد كما سمتني أمي .

قال : فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا ، وكان إذا نام يراه في المنام، يأخذ بمجامع ثوبه . ويقول : يا عدو الله ، فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : مالي ولسعيد بن جبير ، مالي ولسعيد بن جبير[1] .

---

(١) البداية والنهاية (٩ / ١٠٣) .

قال الذهبي :

قال سليمان التيمي : كان الحجاج إذا أُتي بالرجل - يعني ممّن قام عليه - قال له : أكفرت بخروجك عليّ ؟ فإن قال نعم : خلّى سبيله . فقال لسعيد : أكفرت ؟ قال : لا . قال : اختر أي قتلة أقتلك . قال : اختر أنت فإن القصاص أمامك[1] .

قال ابن كثير :

أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله عز وجل .

قال الحجاج: إن الله خلق آدم وذريته من الأرض، فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا ثمارها، وشربوا أنهارها، وهتكوها بالمساحي والمرور، ثم أدال الله الأرض منهم ، فردهم إليها ، فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها ، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها ، وقطعتهم في جوفها ، وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحي والمرور .

فكيف بك يا حجاج وقد قتلت ابن حواري الرسول ﷺ وحفيد الصديق ، وقتلت سعيد بن جبير ؟!!

لما مات الحجاج سجد الحسن شكرًا لله . وقال : اللهمَّ ، أمتَّه ، فأذهب عنا سنته . ولما أخبر إبراهيم النخعي بموته بكى من الفرح .

أنشأت جارية له عند موته تقول :

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا والیوم يأمننا من كان يخشانا

بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت أبي عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن وكتب إليه : أما بعد .. فإني قد بعثت بآل أبي عقيل ، وهم شر بيت في العمل ، ففرّقهم في العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا ، وعليك السلام .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤ / ٣٣٨) .

قال ابن كثير : إنما نفاهم .

رأى الحسن البصري الحجاج في منامه : فقال له : أنت الحجاج ؟ قال : أنا الحجاج . قال : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلت بكل قتيل قتلته .

وكذا رواها الأصمعي عن أبيه .

والجزاء من جنس العمل .

قال الذهبي في ترجمته :

كان ظلومًا، جبارًا، ناصبيًّا، خبيثًا، سفاكًا للدماء، قد سقت من سوء سيرته في تاريخي الكبير ، وحصاره لابن الزبير في الكعبة ، ورميه إياها بالمنجنيق ، وإذلاله لأهل الحرمين ، وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله . فنسبُّه ولا نحبُّه ، بل نبغضه في الله ، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان[1] .

السُّمَيرمي :

الوزير الكبير، وزير السلطان محمود السلجوقي، شديد الوطأة، ذو عسف وظلم ، وسوء سيرة .

قتله بل ذبحه باطني .

قال الذهبي :

وقيل : إن الذي قتله عبد كان للمؤيد الطغرائي وزير السلطان مسعود ، فإن السميرمي قتل أستاذه[2] ظلمًا ، ونبزه بأنه فاسد الاعتقاد ، وكل قاتل مقتول[3] .

الخبيث صاحب الزنج :

المدعي أنه طالبي وهو كاذب . دخل جيشه البصرة سنة ٢٥٧هـ ، فقتل

---

(١) انظر ترجمة الحجاج ، في البداية والنهاية (٩/١٢٣ - ١٤٦) ، سير أعلام النبلاء (٤/٣٤٣) .

(٢) أي ، أستاذ هذا العبد ، وهو الطغرائي .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٤٣٣) .

من أهلها خلقًا، وأحرق الزنج جامع البصرة ودورًا كثيرة وانتهبوها ، ثم نادى فيهم إبرهيم بن المهلبي أحد أصحاب الزنجي : من أراد الأمان فليحضر ، فاجتمع عنده خلق كثير من أهل البصرة ، فرأى أنه قد أصاب فرصة فغدر بهم ، وأمر بقتلهم ، فلم يفلت منهم إلا الشاذّ . كانت الزنج تحيط بجماعة من أهل البصرة ، ثم يقول بعضهم لبعض : كيلوا – وهي الإشارة بينهم إلى القتل – فيحملون عليهم بالسيوف فلا يسمع إلا تشهدهم ، وضجيجهم وهم يقتلون ؛ أي صراخ الزنـج وضحكهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وهكذا كانوا يفعلون في كل محال بالبصرة في عدة أيام نحسات ، وهرب الناس منهم كل مهرب ، وحرقوا الكلأ من الجبل إلى الجبل ، فكانت النار تحرق ما وجدت من شيء من إنسان أو بهيمة أو آثار أو غير ذلك ، وأحرقوا المسجد الجامع ، وقتلوا جماعة كثيرة من الأعيان والمحدثين والعلماء .

روى ابن جرير عمن سمعه يقول : دعوت الله على أهل البصرة ، فخوطبت ، فقيل : إنما أهل البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها ، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة ، فأوّلت الرغيف القمر وانكساره انكسافه ، وقد كان هذا شائعًا في أصحابه حتى وقع الأمر طبق ما أخبر به .

قال ابن كثير :

ولا شك أن هذا كان معه شيطان يخاطبه ، كما كان يأتي الشيطان مسيلمة وغيره . قال : ولمّا وقع من الزنج بأهل البصرة ما وقع ، قال هذا الخبيث لمن معه : إني صبيحة ذلك دعوت الله على أهل البصرة ، فرفعت لي البصرة بين السماء والأرض ، ورأيت أهلها يقتلون ، ورأيت الملائكة تقاتل مع أصحابي ، وإني لمنصور على الناس ، والملائكة تقاتل معي ، وتثبت جيوشي ، ويؤيدوني في حروبي .

وبعد أن عاث في الأرض فسادًا وقتل من قتل، كتب إليه ولي عهد المسلمين الموفق أخو الخليفة المعتمد . ودعاه إلى الحق ، فلم يجبه استهانة به ، فركب إليه من فوره في جيوش عظيمة ، قريب من خمسين ألف مقاتل ، قاصدًا إلى المختارة

مدينة صاحب الزنج ، وجرت بينهم حروب عظيمة ، وما زالت الحروب ناشبة حتى انسلخت السنة وهم محاصرون للخبيث صاحب الزنج ، وظفر الموفق ببهبوذ بن عبد الله فقتله ، وكان ذلك من أكبر الفتح عند المسلمين ، وأعظم الرزايا عند الزنَج، وخرب الموفق بالله مدينة صاحب الزنج، واحتاز ما كان بها من الأموال ، وقتل من كان بها من الرجال ، وسبى من وجد فيها من النساء والأطفال ، ولما فرّ الخبيث وتحصنّ ببلدة أخرى أخرجوه منها ذليلًا ، ثم بعث السرايا والجيوش وراء صاحب الزنج ، فأسروا عامة من كان معه من خاصته وجماعته ، منهم سليمان بن جامع ، فاستبشر الناس بأسره ، وكبّروا الله وحمدوه فرحًا بالنصر والفتح ، وحمل الموفق بمن معه حملة واحدة على أصحاب الخبيث ، فاستحر فيهم القتل ، وما انجلت الحرب حتى جاء البشير بقتل صاحب الزنج ، وأتي برأسه مع غلام لؤلؤة الطولوني ، فلما تحقق الموفق أنه رأسه بعد شهادة الأمراء الذين كانوا معه من أصحابه خر ساجدًا لله ، وسجد ابن الموفق وقواده ، ومواليه وغلمانه شكرا لله ، وأكثروا حمد الله والثناء عليه ، وأمر الموفق برفع رأس الخبيث على قناة ، ونصبه بين يديه ، فتأمله الناس ، وعرفوا صحة الخبر، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله. وكان يومًا مشهودًا، وفرح المسلمون بذلك في المغارب والمشارق، وجيء بولده بانكلاني وأبان بن علي المهلبي مسعر حربهم مأسورين ، ومعهما قريب من خمسة آلاف أسير ، فتم السرور .

وسار الموفق إلى بغداد ، وقدّم ولده أبا العباس بين يديه ، ومعه رأس الخبيث يحمل ليراه الناس ، وكان يومًا مشهودًا ، وانتهت أيام صاحب الزنج المدعي الكذاب قبحه الله ، وللشعراء فيما كان من أمر الموفق ، وأمر المخذول أشعارٌ كثيرة منها :

أقول وقد جاء البشير بوقعة ... أعزّت من الإسلام ما كان واهيا
جزى الله خير الناسِ للناس بعدما ... أُبيح حماهمْ خيرَ ما كان جازيا
تفرّد إذْ لم ينصر الله ناصرٌ ... بتجديد دينٍ كان أصبح باليا
وتشديد ملك قد وهى بعد عزّه ... وإدراك ثاراتٍ تُبير الأعاديا

وردّ عمارات أزيلتْ وأُخربتْ ليرجع فيء قد تخُرّم وافيا
ويرجع أمصار أبيحت وأحرقت مرارًا فقد أمست قواءً عوافيا
ويُشفي صدور المؤمنين بوقعة يقرُّ بها منا العيون البواكيا
ويُتلى كتاب الله في كل مسجدٍ ويُلقى دعاء الطالبيين خاسيا

وقال آخر :

أين نجوم الكاذب المارقِ ما كان بالطِّبِّ ولا الحاذقِ
صبحه بالنحس سعدٌ بدا لسيّدٍ في قوله صادقِ
وذاق من كأس الردى شربةً كريهة الطعم على الذائقِ

وقال آخر :

يهوي إلى حرّ الجحيم وقعرها بسلاسل قد أوهنته ثقالِ
هذا بما كسبت يداهُ وما جنى وبما أتى من سيىء الأعمالِ[1]

والجزاء من جنس العمل .

بابك الخرمي :

هذا الشقي الثنوي الذي كان على دين ماني ومَزْدَك ، وكان يقول بتناسخ الأرواح ، ويستحل البنت وأمها .

قيل : كان ولد زنا ، وكانت أمه عوراء ، يقال لها : رومية العلجة ، وكان علي بن مزدكان يدعي أنه زنى بها ، وبابك منه .

وقيل: كانت صعلوكة من قرى أذربيجان، فزنى بها نبطي، فحملت منه ببابك، فرُبيِّ أجيرًا في القرية، وكان هناك قوم من الخُرَّمية لهم كبيران: جاوندان وعمران ، فتفرّس جاوندان النجابة في بابك ، فاكتراه من أمه ، فهويته زوجة جاوندان ، وأطلعته على الأسرار ، ثم قتل زوجها في محاربة لابن عمه ، فزعمت

---

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٧٥-٢٨٨) ؛ البداية والنهاية (١١/٤٥-٤٨) .

أن زوجها استخلف بابك ، فصدقها الجميع ، فأمرهم أن يقتلوا من وجدوه في الليل ، فأصبح عدة قتلى ، وانضاف إليهم كل شرير وقاطع طريق ، وصار أمر بابك إلى ما صار ، ولقد أخاف الإسلام وأهله ، وغلب على أذربيجان وغيرها ، وأراد أن يقيم الملة المجوسية . وكان هذا الشقي يدعو إلى الإباحية وظهر في أيامه المازيار بالمجوسية في طبرستان وعظم البلاء ، ولقد دخل مازيار في الإسلام وتسمى محمدًا ، وكان صاحب جبال طبرستان ، ولقد أعلن العصيان بطبرستان ، وطلع المعتصم .

وكان المعتصم والمأمون قد أنفقوا على حرب بابك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، ولقد جهز خلفاء بني العباس جيوشًا كثيرة إليه مع إفشين الحاجب ، ومحمد بن يوسف الثغري ، وأبي دلف العجلي وأقرانهم .

وفي سنة ٢٢٢هـ بعث المعتصم جيشه مع الإفشين ، وكانت نفقات الجيش ثلاثين ألف ألف درهم ، وأخذت البَذّ مدينة بابك اللعين ، واختفى في غيضة ، وأسر أهله وأولاده، وقطع دابر الخُرَّمية ، وبعد أن هرب أوقعه الله في يد الإفشين ، وسار به الإفشين إلى المعتصم بسامرا ، ولعناية المعتصم بأمر بابك وأخباره ، ولفساد الطريق بالثلج وغيره ، جعل من سامرّا إلى عقبة حلوان خيلًا مضمرة ، على رأس كل فرسخ فرسًا معه مُجرٍ مرتب ؛ فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه من واحد إلى واحد ، يدًا بيد ؛ وكان من خلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيه المرج ، فكان يركض فيها يوما أو يومين ، ثم تبدّل ويصير غيرها ، ويُحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابّة على رأس فرسخ ، وجعل لهم ديادبة على رءوس الجبال بالليل والنهار ، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر ؛ فإذا سمع الذي يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق ، فيأخذ الخريطة منه ، فجاء الخبر في أربعة أيام وذلك مسيرة شهر . ودخل بابك إلى سامرا ، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه بين الحائطين، فدخل إليه متنكرًا، ونظر إليه وتأمله ، وأراد المعتصم أن يُشهره ويريه الناس، فقال على أي شيء يحمل هذا؟ وكيف يشهر؟، فأمر بتهيئة الفيل، وأمر به فجعل

في قباء ديباج وقلنسوة سمّور مدورة ، وهو وحده ؛ وفي هذا قال الشاعر :

قد خُضب الفيل كعاداته يَحملُ شيطان خـراسانِ
والفيل لا تخضبُ أعضاؤه إلا لذي شأن من الشانِ

واصطف الناس سماطين ؛ وأُدخل بابك إلى أمير المؤمنين ، فأحضر جزارًا يقطع يديه ورجليه ؛ ثم أمر أن يحضر سيّافه ، فخرج الحاجب من باب العامة ؛ وهو ينادي : نودنود - وهو اسم سياف بابك - فارتفعت الصيحة بنودنود حتى حضر ، فدخل دار العامة ، فأمره أمير المؤمنين أن يقطع يديه ورجليه ، فقطعهما فسقط ، وأمر أمير المؤمنين بذبحه ، وشق بطنه ، ووجه برأسه إلى خراسان ، وصلب بدنه بسامرّا عند العقبة بموضع خشبةٍ مشهور ، وكان الإباحي بابك قد شرب الخمر ليلة قتله ، وكذا قتل أخوه ، وكان جزاء هذا اللعين الإباحي من جنس عمله .

يقول ابن جرير الطبري : كان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة إنسان ، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة إنسان[1] .

وقال الشعراء وأحسنوا في وصف ما منّ الله على المسلمين من الخير ، وتخريب البذّ بلاد بابك التي أضحت قيعانًا خرابًا ، قال أبو تمام :

قد كان عذُرة سؤددٍ فافتضّها بالسيف فحل الشرق الأفشينُ
فأعادها تعوي الثعالبُ وسْطها ولقد تُرى بالأمس وهي عرينُ
هطلت عليها من جماجم أهلها دِيَمٌ إمارتها طُلَى وشئـونُ
كان من المهُجْات قبل مفازة[2] عُسرًا فأضحت منه وهي معينُ

قال الذهبي : قيل إنه أباد من الأمة خلائق ، وبخط الإمام ابن الصلاح :

---

(١) تاريخ الطبري (٩ / ٢٢٠ - ٢٣٥) .
(٢) الفوز والفلاح .

أن قتلى بابك بلغوا ألف ألفٍ وخمسمائة ألفٍ ، وأُحصي قتلى أبي مسلم الخراساني ، فبلغوا ألفي ألف[1] .

كان للبابكية في جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم ، فإذا أطفئت سُرُجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال والنساء على تقدير من عَزّ بزّ .

والبابكية ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه شروين ، ويزعمون أن أباه كان من الزنج ، وأمه من بنات ملوك الفرس ، ويزعمون أن شروين كان أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء ، وقد بَنَوْا في جبلهم مساجد للمسلمين يُؤذن فيها المسلمون، وهم يعلمون أولادهم القرآن، لكنهم لا يصلون، ولا يصومون في شهر رمضان ، ولا يرون جهاد الكفرة .

ومن رحمة الله بالمؤمنين في السنوات التي تلتها أن الفرقة الإباحية الأخرى من الخرمدينية[2] نالها الذل والهوان في السنوات القليلة بعد قتل بابك ، فإنه لما أعلن مازيار خلع المعتصم والعصيان بطبرستان ، كتب المعتصم إلى عبد الله ابن طاهر بن الحسين يأمره بحربه ، فسيّر إليه عمه الحسن بن الحسين ، فكانت له معه حروب كثيرة ، وما زال حتى أسره وحمله إلى سامرا ، فضرب المازيار بالسوط حتى مات بعد أن شهر ، وصلب إلى جانب بابك ، وفيه يقول أبو تمام :

ولقد شفى الأحشاء من برحائها ... أن صار بابكُ جار مازيّار
ثانيه في كبد السماء ، ولم يكن ... لاثنين ثانٍ إذ هما في الغار[3]

وذهب الإباحي الظالم الغاشم الجبار .

ومن العجب أن مازيار هذا قال : إن الإفشين جعل أخاه يكتب إلى مازيار

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٢٩٧) .
(٢) في الفرق بين الفرق : أن الخرمدينية ظهروا في دولة الإسلام ، وهم فريقان بابكية ، ومازِيارية ، وكلتاهما معروفة بالمحمرة، انظر : الفرق بين الفرق ص٢٦٦ .
(٣) الفرق بين الفرق ص٢٦٦ - ٢٦٩ .

بنصر الدين الأبيض دين المجوسية ، وجيء به وقد ضرب إمام مسجد ومؤذن ألف سوط ؛ لأنهما وثبا على بيت أصنام بأشروسنة ، فرميا الأصنام وعملاه مسجدًا ، وقال موبذ ملك السند عن الإفشين : إنه يأكل المخنوقة ، ويحملني على أكلها ، ويقول : لحمها أرطب ، وكان أهل مملكته من الفرس يكتبون إليه : إلى الإله من عبده ، ولم يختتن ، ولم يحلق عانته قط ، وأراد الإفشين قتل المعتصم سمّا هو وقوّاده بعد أن أنفق عليه المعتصم ألفي ألف دينار ، فكان جزاؤه أن منع عنه الطعام حتى هلك ، ثم صُلِب ميتًا ، وأحرق مع أصنام عنده(١) .

يقول أبو تمام فيه :

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطفى سرَّ الزنادِ الواري

٣ - عقوق الوالدين

قال ﷺ : « رضا الرب في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما »(٢).

وقال ﷺ : « بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا : البغي والعقوق »(٣) .

وقال ﷺ : « اثنان يعجلهما الله في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين » .

قال المناوي :

« رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما » أي غضبهما الذي يخالف القوانين الشرعية ، فإن قيل : ما وجه تعلق رضا الله عنه برضا الوالد قلنا : الجزاء من جنس العمل ، فلما أرضى من أمر الله بإرضائه رضي الله عنه فهو من قبيل لا يشكر الله من لا يشكر الناس .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٣٠٠ - ٣٠٢) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٠١ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٠٧ .

قال الغزالي : وآداب الولد مع والده أن يسمع كلامه ، ويقوم بقيامه ، ويمتثل أمره ولا يمشي أمامه ولا يرفع صوته ، ويلبي دعوته ، ويحرص على طلب مرضاته ، ويخفض له جناحه بالصبر ، ولا يمنّ بالبر له ، ولا بالقيام بأمره ، ولا ينظر إليه شزرًا ، ولا يقطب وجهه في وجهه[1]. اهـ .

اعلم يا أخي ، أن العقوق ثكل من لم يثكل ، وعذاب رعف به الدهر ، وبلاء لا يقاومه الصبر .

روى ابن أبي الدنيا عن أبي قَزَعة ، رجل من أهل البصرة، قال: مررنا ببعض المياه التي بيننا وبين البصرة ، فسمعنا نهيق حمار ، فقلنا لهم : ما هذا النهيق ؟ قالوا : هذا رجل عندنا ، فكانت أمه تكلمه بالشيء ، فيقول : انهقي نهيقك . فكانت أمه تقول : جعلك الله حمارًا ، فلما مات ، نسمع هذا النهيق عند قبره كل ليلة[2].

وعن أبي عبد الرحمن الطائي قال : كان رجل من بني نهد قد كَبِرَ وضعُف ، يُكنَى أبا منازل ، وله ابن يقال له : مُنازل ، وكان له ولد صغار ، فكان إذا أصاب شيئًا أعطاهم إياه ، وكان يقبض عطاء أبيه ، وكان شيخًا كبيرًا ، فولد للشيخ بنون صغار ، فكان منازل يستأثر عليهم ، فلما خرج العطاء ، خرج منازل يقود أباه ، حتى أجلسه لقبض عطائه ، فلما نودي باسمه ، قام منازل ، فقال : أعطوني عطاءه ، فقام الشيخ فقال : أعطوني عطائي في يدي ، ففعلوا ، فحمل عطاءه ، ثم قام يتوكأ على مُنازل ، فقال مُنازل : هلم أحمله عنك قال : دعه ، فلما خلا له الطريق، فكّ يد أبيه، ثم أخذ العطاء، فذهب به، فانصرف الشيخ، وليس معه في يده شيء فقال له أهله وولده: ما صنعت؟ قال: أخذ منازل عطائي، ثم أنشأ يقول:

جَزَتْ رَحِمٌ بيني وبَيْن منازِلٍ ... جزاءً كما يستنجزُ الدَّيْنَ طالِبُهْ
ورَبَّيْتُه حتى إذا ما هو استوى ... كبيرًا وسادى عامل الرمح غارِبُهْ
تظَلَّمني مالي كذا وَلَوى يَدي ... لوى يَدَهُ الله الذي هُو غالبُهْ

فأصبح منازلٌ ملويا يده[3] .

---

(١) فيض القدير (٣٣/٤) . (٢) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص٨٤ .

(٣) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص١٠٤ - ١٠٥ ، والإصابة لابن حجر (٢١٢/٣) .

وذكر العلماء أن رجلًا كان عنده والد كبير ، فتأفّف من خدمته ومن القيام بأمره ، فأخذه وخرج إلى الصحراء ليذبحه ، فلما وصل إلى صخرة أنزله هناك فقال : يابني ، ماذا تريد أن تفعل بي ؟ قال : أريد أن أذبحك ، قال : إن أَبَيْتَ إلّا ذبحي فاذبحني عند الصخرة التالية ، أنا كنت قبلك عاقًا لوالدي ، وذبحته عند تلك الصخرة ، ولك يا بنيّ مثلها .

النضيرة بنت الساطرون صاحب الحضر :

الساطرون هو الضيزن بن معاوية صاحب الحضر ، وهو حصن على حافة الفرات ، وبداخله مدينة عظيمة .. أغار عليه سابور وحصره سنتين ، فأشرفت النضيرة بنت الساطرون فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلًا ، فدّست إليه أتتزوجني إن فتحت لك باب الحضر ؟ فقال : نعم ، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه ، وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب - ويقال : بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع - فولجوا منه إلى الحضر ، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخرّبه ، وسار بها معه فتزوجها ، فبينا هي نائمة على فراشها ليلًا إذ جعلت تململ لا تنام ، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس . فقال لها سابور : أهذا الذي أسهرك ! قالت : نعم . قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ، ويلبسني الحرير ، ويطعمني المخ ، ويسقيني الخمر . قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إليّ بذلك أسرع ، فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها .

كما كانت سببا في مقتل أبيها ..

والجزاء من جنس العمل .

قال عدي بن زيد :

والحضْرُ صابت عليه داهية ... من فوقه أيدٍ مناكبُها
ربّية لم توقّ والدَها ... لحينها إذ أضاع راقبُها

إذ عنقته صهباءَ صافيــة والخمر هل يهيم شاربهـا
فـأسلمـت أهـلهـا بليلـتها تظنِ أن الرئـيس خاطبهـا
فكان حظّ العروس إذ جشر[1] الصُّبْـــح دماءً تجري سبائبهـا
وخُرِّب الحضرُ واستبيح وقد أُحرق في خدرها مشاجبها[2]

فإياك والعقوق ، فإنه أحد الثكلين ، ولرُبَّ عقم أقرّ للعين . فحال العاقّ مع أبيه كالقلم الرّدِي ، والسيف الصَّدي ، يجهل أوصاف الإنصاف ، ويرضَعُ أخلافَ الخِلاف ، إن أقدم والده أحجم ، وإذا أعرب أعجم ، وإن أذكى أخمد ، ومتى شوى رَمّدْ ؛ مع أنه كفله منْذبٌ إلى أن شب ، وكان له ألطف من ربّى وربّ .

يصدق فيه قول القائل :

غذوتك مولودًا وَعُلْتُك يافعًا تُعَلّ بما أجنى عليك وتَنهلُ
إذا ليلةٌ ضاقتك بالسُّقم لم أبتْ لسقمك إلّا ساهـرًا أتملمـلُ
كأني أنا المطروقُ دونك بالذِي طُرِقت به دُوني فعيناي تهملُ
تخاف الرّدى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجّلُ
فلمّا بلغت السنّ والغاية التي إليها مدى ما كنتُ فيك أُؤمِّلُ
جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً كأنك أنتَ المُنْعِمُ المتفضلُ
فليتك إذْ لم ترعَ حقّ أبوّتي فعلتَ كما الجار المجاور يَفْعَلُ

الشاعر جرير بن عطية :

كان جرير بن عطية الشاعر أعقّ الناس بأبيه ، وكان بلال ابنه كذلك ، فراجع بلَالًا في الكلام ، فقال له بلال : الكاذب بيني وبينك فاعل بأمه ، فأقبلت أمّه عليه ، وقالت : يا عدو الله ، تقول هذا لأبيك ! فقال جرير : دعيه ، فكأنه سمعها مني وأنا أقولها لأبي[3] .

---

(١) جشر : طلع . (٢) البداية والنهاية (٢/١٦٨-١٧٠) .
(٣) شرح مقامات الحريري للشريشي (٤ / ٢٢٩) .

الحطيئة الشاعر :

كان عاقًا لأمه وأبيه ، كثير الهجاء حتى إنه هجا أباه وأمه ، وخاله وعمه ، ونفسه وعروسه ، فممّا قال في أمه قوله :

تنحّي فاقعديْ عني بعيدًا ... أراح اللهُ منك العالمينا
أغربالًا إذا استُودعت سِرًّا ... وكانونًا على المتحدثينا
جزاك الله شرًّا من عجوزٍ ... ولقّاك العقوقَ من البنينا

وقال في أبيه وعمه وخاله :

لحاك[1] الله ثم لحاك حقًّا ... أبًا ولحاكَ من عمٍّ وخالِ
فنعم الشيخ أنت لدى المخازي ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعت اللؤم لا حيّاك ربي ... وأبواب السفاهة والضلالِ

ومما قال في عروسه :

أطوف ما أطوف ثم آوي ... إلى بيت قعيدته لكاعِ

فلمّا كان عاقًّا لوالديه سلّطه الله على نفسه فهجاها ، وهذه والله أقذع من عقوق ولده له .

يقول في نفسه يذمها :

أبتْ شفتاي اليوم أن تتكلما ... بشَرٍّ فما أدرى لِمَن أنا قائلُهْ ؟
أرى لي وجهًا شوَّه اللهُ خلقهُ ... فقبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حاملُهْ

ويقال : أن عمر أراد أن يقطع لسانه، فشفعوا فيه حتى أطلقه .

والجزاء من جنس العمل .

أيها المضيِّعُ لآكد الحقوق ، المعتاض من بر الوالدين بالعقوق ، الناسي لِمَا يجبُ عليه ، الغافل عمّا بين يديه ، بر الوالدين عليك دين ، وأنت تتعاطاه باتباع الشين ، تطلب الجنة بزعمك ، وهي تحت أقدام أمك ، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج ، وكابدت عند الوضع ما يذيب المهج ، وأرضعتك من ثديها لبنًا ، وأطارت لأجلك وسنًا ، وغسلت بيمينها عنك الأذى ، وآثرتك على

---

(١) قبّحك ولعنك .

نفسها بالغِذا ، وصيّرتْ حجرها لك مهدًا ، وأنالتك إحسانًا ورفْدًا ، فإن أصابك مرض أوْ شكاية ، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلتْ مالها للطبيب ، ولوْ خُيّرتْ بين حياتك وموتها ، لطلبت حياتك بأعلى صوتها ، هذا وكم عاملتَها بسوء الخلق مرارًا ، فدعت لك بالتوفيق سرًّا وجهارًا ، فلما احتاجتْ عند الكبر إليك ، جعلتها مِنْ أهون الأشياء عليك ، فشبعتَ وهي جائعة ، ورويتَ وهي قانعة ، وقدَّمتَ عليها أهلك وأولادك بالإحسان ، وقابلت أياديها بالنسيان ، وصعب لديك أمرها وهو يسير ، وطال عليك عمرها وهو قصير ، هجرتها وما لها سواك نصير ، هذا ومولاك قد نهاك عن التأفف ، وعاتبك في حقها بعتاب لطيف ، ستعاقب في دنياك بعقوق البنين ، وفي أخراك بالبعد من رب العالمين ، يناديك بلسان التوبيخ والتهديد ﴿ **ذلك بما قدّمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ [الحج : ١٠][1] .

٤ - الانتحار

قال رسول الله ﷺ : « الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعنها يطعنها في النار »[2] .

وقال ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده ، يتوجأ[3] بها في بطنه ، في نار جهنم ، خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن شرب سَمًّا ، فقتل نفسه ، فهو يتحسّاه[4] في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدا ، ومَنْ تردى[5] من جبل ، فقتل نفسه ، فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا »[6] .

وروى مسلم عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال : « ليس على رجل نذر فيما لا يملك ، ولعن المؤمن كقتله ، ومَنْ قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذّب به يوم القيامة ، ومن ادّعى دعوى كاذبة ؛ ليتكثر بها - لم يزده الله إلا قلّة ، ومن حلف على يمين صبرٍ فاجرة » .

---

(١) الكبائر للذهبي ص٤٦، طبع دار الوعي حلب. (٢) رواه البخاري عن أبي هريرة.
(٣) يطعن . (٤) يشربه في تمهل ويتجرعه . (٥) رمى بنفسه .
(٦) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

وروى الإمام مسلم عن ثابت بن الضحاك قال : قال النبي ﷺ : « من حلف بملة سوى الإسلام كاذبًا فهو كما قال ، ومَنْ ذبح نفسه بشيء ذبح به يوم القيامة » .

والجزاء من جنس العمل .

قال الإمام النووي :

وأما قوله ﷺ: «فهو في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا». فقيل فيه أقوال:

أحدها : أنه محمول على مَنْ فعل ذلك مستحلًّا مع علمه بالتحريم ، فهذا كافر ، وهذه عقوبته .

والثاني : أن المراد بالخلود طول المدة والإقامة المتطاولة ، لا حقيقة الدوام ، كما يقال خلّد الله ملك السلطان .

والثالث : أنَّ هذا جزاؤه ، ولكن تكرّم سبحانه وتعالى فأخبر أنه لا يخلد في النار من مات مسلمًا[1] .

عن جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هل لك في حصن حصين ومنعة ؟ قال : حصن كان لدوس في الجاهلية ، فأبى ذلك النبي ﷺ للذي زخر الله للأنصار ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو ، وهاجر معه رجل من قومه ، فاجتَوَوا[2] المدينة ، فمرض فجزع ، فأخذ مشاقص[3] له، فقطع بها براجمه[4]، فشخبت[5] يداه حتى مات ، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه ، فرآه وهيئته حسنة ، ورآه مغطيًا يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك ؟ فقال غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ ، فقال : مالي أراك مغطيًا يديك ؟ قال : قيل لي : لن نُصلح منك ما أفسدت . فقصّها الطفيل على رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ: «اللهم وليديه فاغفر»[6].

قال النووي :

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢١٣/١).
(٢) كرهوا المقام بها لضجر ونوع سقم.
(٣) المشاقص جمع مِشقَص ، سهم فيه نصل عريض . وقال الجوهري : ما طال وعرض .
(٤) البراجم : جمع برجمة وهي مفاصل اليد .
(٥) شخبت يداه : سال دمهما ، وقيل : سال بقوة .
(٦) رواه مسلم .

باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر .

أما أحكام الحديث : ففيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة أن مَنْ قتل نفسه ، أو ارتكب معصية غيرها ، ومات من غير توبة فليس بكافر ، ولا يقطع له بالنار ، بل هو في حكم المشيئة ، وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليدُ قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار ، وفيه إثبات عقوبة بعض أصحاب المعاصي ، فإنّ هذا عوقب في يديه ، ففيه رد على المرجئة القائلين بأن المعاصي لا تضر . والله أعلم[١] اهـ .

٥ - أكل الرِّبا

قال ﷺ: «لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه هم فيه سواء»[٢].

وفي الصحيح عند أحمد والترمذي والحاكم : « لعن الله الربا ، وآكله ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهده وهم يعلمون » .

وقال ﷺ : « إن أبواب الربا اثنان وسبعون حوبًا[٣] ، أدناه كالذي يأتي أمه في الإسلام »[٤] .

وقال ﷺ : « أهون الربا كالذي ينكح أمه ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه »[٥] .

وقال ﷺ : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم - أشد عند الله من ستة وثلاثين زنية »[٦] .

---

(١) شرح النووي على مسلم (٣١٩/١). (٢) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

(٣) أي سبعون ضربا من الإثم « نهاية » .

(٤) صحيح: رواه الطبراني عن عبد الله بن سلّام، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٢٧ .

(٥) حسن : رواه أبو الشيخ في : التوبيخ ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٢٨ .

(٦) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن عبد الله بن حنظلة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٧٠ .

وقال ﷺ : « الربا اثنان وسبعون بابًا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه »(١) .

وقال ﷺ : « الربا ثلاثة وسبعون بابًا ، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم »(٢) .

وقال ﷺ : « الربا سبعون حوبًا ، أيسرها أن ينكح الرجل أمه »(٣) .

وقال ﷺ: «ما ظهر في قوم الربا والزنا، إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله»(٤).

وقال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»(٥).

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩] .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

في ضمن هذا الوعيد : أن المرابي محارب لله ولرسوله ، قد آذنه الله بحربه ، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا ، وقطع الطريق ، والسعي في الأرض بالفساد ؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض ، قاطع الطريق على الناس : هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم ، وهذا بامتناعه في تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها ، فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله ، وآذن هؤلاء إن لَم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله(٦) .

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣١.

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٣ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٥.

(٤) حسن : رواه أحمد عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥١٠ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٩٢ .

(٦) التفسير القيم ص١٧٢ .

قال تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله** ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

قال ابن كثير :

شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل ، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم ، وقيامهم منها لبعثهم ونشورهم ، فقال : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة ، إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا ، وقال ابن عباس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق . رواه ابن أبي حاتم ، وروي عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير ، والسديّ ، والربيع بن أنس ، ومقاتل ، نحو ذلك ، وحكي عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، ومقاتل أنهم قالوا في قوله : ﴿ **لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ يعني لا يقومون يوم القيامة ، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد والضحاك وابن زيد(١) اهـ .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

أما قيام آكلي الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، فقد قال ابن عطية في تفسيره : المراد تشبيه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع ، كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة قد جنّ .

أقول : وهذا هو المتبادر ، ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه ، وقالوا : إن المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث ، وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين ، وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .

أقول : والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قال ابن عطية ؛ لأنه إذا ذُكر القيام انصرف إلى النهوض المعهود في الأعمال ، ولا قرينة تدل على أن المراد به البعث .

---

(١) تفسيره ابن كثير (١ / ٤٨٢) .

أما ما قاله ابن عطية فهو ظاهر في نفسه ، فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضيرت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصودًا لذاته ، وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعي ، تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذي عليه أكثر الناس ويظهر ذلك في حركاتهم وتقلبهم في أعمالهم ، كما تراه في حركات المولعين بأعمال البورصة ، والمغرمين بالقمار ، يزيد فيهم النشاط والانهماك في أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس ، فإن التخبط من الخبط ، وهو ضرب غير منتظم ، وكخبط العشواء ، وبهذا يمكن الجمع بين ما قاله ابن عطية وما قاله الجمهور ذلك بأنه إذا كان ما شنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم ، كان لابد أن يبعثوا عليه ، فإن المرء يبعث على ما مات عليه ؛ لأنه يموت على ما عاش عليه ، وهناك تظهر صفات النفس الخسيسة في أقبح مظاهرها كما تتجلى صفات النفس الزكية في أبهى مجاليها[1] اهـ .

والجزاء من جنس العمل .

قال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب :

للمفسرين في الآية أقوال :

القول الأول : أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا ، وذلك كالعلامة المخصوصة بآكل الربا ، فيعرفه أهل الموقف بتلك العلامة أنه آكل الربا في الدنيا ، فعلى هذا معنى الآية : إنهم يقومون مجانين ، كمن أصابه الشيطان بجنون .

القول الثاني : قال ابن منبه : يريد إذا بعث الناس من قبورهم خرجوا مسرعين ، لقوله تعالى : ﴿ **يخرجون من الأجداث سراعا** ﴾ [المعارج : ٤٣] إلّا أكلة الربا ، فإنهم يقومون ويسقطون ، كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، وذلك لأنهم أكلوا الربا في الدنيا ، فأرباه الله في بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم ،

---

(١) تفسير المنار (٣ / ٩٤ – ٩٥) .

فهم ينهضون ويسقطون ، ويريدون الإسراع ولا يقدرون . وهذا القول غير الأول لأنه يريد أن أكلة الربا لا يمكنهم الإسراع المشي بسبب ثقل البطن ، وهذا ليس من الجنون في شيء .

القول الثالث : أنه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] وذلك لأن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات ، والاشتغال بغير الله ، فهذا هو المراد من مسّ الشيطان ، ومَنْ كان كذلك ، كان في أمر الدنيا متخبطًا ، فتارة الشيطان يجره إلى النفس والهوى ، وتارة الملك يجره إلى الدين والتقوى ، فحدثت هناك حركات مضطربة وأفعال مختلفة ، فهذا هو الخبط الحاصل بفعل الشيطان ، وآكل الربا لاشك أنه يكون مفرطًا في حب الدنيا متهالكًا فيها ، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك الحب حجابا بينه وبين الله تعالى ، فالخبط الذي كان حاصلًا في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة ، وأوقعه في ذل الحجاب وهذا التأويل أقرب عندي من الوجهين اللذين نقلناهما عمنّ نقلنا[1] .

خبط في الدنيا يورث خبطًا في الآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

قوله : ﴿ **لا يقومون** ﴾ حقيقة القيام : النهوض والاستقلال ، ويطلق مجازًا على تحسن الحال وعلى القوة ، من ذلك : قامت وقامت الحرب . فإنْ كان القيام المنفي هنا القيام الحقيقي فالمعنى : لا يقومون يوم يقوم الناس لرب العالمين ، إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ؛ أي إلا قيامًا كقيام الذي يتخبطه الشيطان ، وإن كان القيام المجازي ، فالمعنى إما على أن حرصهم ونشاطهم في معاملات الربا كقيام المجنون تشنيعا لجشعهم ، قاله ابن عطية ، ويجوز على هذا أن يكون المعنى تشبيه ما يعجب الناس من استقامة حالهم ووفرة مالهم وقوة تجارتهم ، بما يظهر من حال الذي يتخبطه الشيطان حتى تخاله قويًا سريع الحركة ، مع أنه لا يملك لنفسه شيئًا ، فالآية على المعنى الحقيقي وعيد لهم بابتداء تعذيبهم من وقت القيام

---

(١) مفاتيح الغيب (٣ / ٦٥٠ - ٦٥١) .

للحساب ، إلى أن يدخلوا النار ، وهذا هو الظاهر ، وهو المناسب لقوله : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا** ﴾ وهي على المعنى المجازي تشنيع أو توعد بسوء الحال في الدنيا ولُقيِّ المتاعب ومرارة الحياة تحت صورة يخالها الرائي مستقيمة[١] اهـ .

يقول صاحب الظلال :

إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط ، الذي لا ينال استقرارًا ولا طمأنينة ولا راحة ، وإذا كان هناك شك في الماضي ، أيام نشأة النظام الرأسمالي الحديث في القرون الأربعة الماضية ، فإن تجربة هذه القرون لا تبقى مجالًا للشك أبدا .

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم في أنحاء الأرض هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية ، باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية ، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية والإنتاج الصناعي في مجموعة من الضخامة في هذه الأقطار ، وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار ، ثم هو عالم الحروب الشاملة ، والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك ، إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التي لا تزيلها الحضارة المادية ولا الرخاء المادي ، ولا يُسْر الحياة المادية . وخفضها ولينها في بقاع كثيرة ، وما قيمة هذا كله إذا لم ينشيء في النفوس السعادة والرضا والاستقرار والطمأنينة . إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى حقيقة أن الناس في أكثر بلاد العالم رخاءً عاما في أمريكا وفي السويد – وفي غيرهما من الأقطار التي تفيض رخاءً ماديًّا – أن الناس ليسوا سعداء ، أنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء وأن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج ، وأنهم يغرقون هذا الملل في العربدة

---

(١) التحرير والتنوير (٣ / ٨١ – ٨٢) .

والصخب تارة وفي التقاليع الغريبة الشاذة تارة ، وفي الشذوذ الجنسي تارة ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب من أنفسهم ومن الخواء الذي يعشش فيها ، ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها ، فيهربون بالانتحار ، ويهربون بالجنون ، ويهربون بالشذوذ ، ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ، ولا يدعهم يستريحون أبدًا لماذا ؟؟.

السبب الرئيس هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكوسة ، على كل ما لديها من الرخاء المادي من زاد الروح ، من الإيمان ، من الاطمئنان إلى الله ، وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التي ينشئها ويرسمها الإيمان بالله ، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه ، ويتفرّع من ذلك السبب الرئيس الكبير بلاء الربا ، بلاء الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سويًّا معتدلًا ، بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها ، إنما ينمو مائلًا جانحًا إلى حفنة الممولين المرابين القابعين وراء المكاتب الضخمة في المصارف ، يقرضون وليس هدفهم سد مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع ، والتي تكلف دعمًا منتظمًا ورزقًا للجميع ، والتي تهيء طمأنينة نفسية للجميع ، ولكن هدفه إنتاج ما يحقق أعلى قدرًا من الربح ، ولو حطم الملايين ، وحَرَم الملايين ، وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق في حياة البشرية جميعًا ، وصدق الله العظيم : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ الآية[1] [البقرة: ٢٧٥].

آكل الربا يعذب في قبره ومعاده بجنس عمله :

وفي حديث سمرة بن جندب الذي رواه البخاري : « فأتينا على نهر - حسبت أنه كان يقول : « أحمر مثل الدم » - وإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة ، فيفغر فاه ، فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغرله فاه[2] فألقمه حجرًا » .

---

(١) الظلال (١/٣٢٦ - ٣٢٧) .

(٢) في رواية جرير بن حازم : « فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى =

وفي الحديث : « وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا »[١] .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : إنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر ، وإلقامه الحجارة ؛ لأن أصل الربا يجري في الذهب والذهب أحمر ، وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغني عنه شيئًا ، وكذلك الربا فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد والله من ورائه محقه[٢] .

فجزاء أكلهم أموال الناس بالباطل أنهم يعومون في ذلك النهر السيىء ، ويلقمون الحجارة ؛ لأنهم قد شبعوا منه في الدنيا جزاءً وفاقًا[٣] .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ :

إن السماحة الندية التي يحملها الإسلام للبشرية ، وظله الظليل الذي تأوي إليه البشرية المتعبة في هجير الأثرة والشح والطمع - لا يعرفها المناكيد الناشئون في هجير الجاهلية المادية الحاضرة ، ولا مذاق ولا طعم له في حسهم المتحجر البليد .

إن وحوش المرابين القابعين في زوايا ، يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذي تحل بهم المصائب ، فيحتاجون للمال : للطعام والكساء والدواء أو لدفن موتاهم ، فلا يجدون في هذا العالم المادي الكزّ الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء ، فيلجئون إلى أوكار الوحوش فرائس سهلة ، تسعى إلى الفخاخ

= الرجل بحجر في فيه ، وردّه حيث كان » ويجمع بين الروايتين أنه إذا أراد أن يخرج فغرفاه ، وأنه يلقمه الحجر برميه إياه . الفتح (١٢ / ٤٦٢) .

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح .

(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .

(٣) المعاصي وآثارها على الفرد والمجتمع ، تأليف : حامد المصلح ، تقديم : الشيخ عائض القرني ص١٧٦ - ١٧٧ .

بأقدامها ، تدفعها الحاجة ، وتزجيها الضرورة .

هؤلاء الذين كانوا حربًا على الناس ماذا يكون جزاؤهم ؟

حرب معلنة من الله ورسوله ، في صورة شاملة داهمة غامرة ، حرب على الأعصاب والقلوب ، حرب على البركة والرخاء ، حرب على السعادة والطمأنينة ، حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض ، حرب المطاردة والمشاكسة ، حرب الغبن والظلم ، حرب القلق والخوف ، وأخيرًا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول ، الحرب الساحقة الماحقة ، التي تأكل الأخضر واليابس جزاءً وفاقًا بما أثقلوا كاهل الناس بالضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم ، فعم الفقر والسخط ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدّامة ، فتقوم الحرب ! وأيسر ما يقع ، إن لم يقع هذا كله هو خراب النفوس ، وانهيار الأخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتحطم الكيان البشري من أساسه ، وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذرية الرغيبة ..

حرب بحرب ، والجزاء من جنس العمل .

مثلما خنقوا أنفاس البشرية وسحقوها سحقًا بالربا الملوث بدلًا من الاقتصاد الإسلامي، النظام القوي، والمنبت الطاهر الزكي، والحلم الندي الممثل في واقع أرضي.

قال ﷺ : « ما أحد أكْثَرَ من الرّبا ، إلّا كان عاقبة أمره إلى قلة »[1].

قال تعالى : ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

قال ابن كثير :

يذهبه ، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعذبه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿ **قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ [المائدة : ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ **ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم** ﴾ [الأنفال : ٣٧] ، وقال :

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٣٩٤ .

﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾[الروم : ٣٩] .

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ يمحق الله الربا ﴾ : وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « الربا وإن كثر فإلى قل »[1] [2] اهـ .

عن سمرة بن جندب – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « رأيت البارحة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي ، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ، ورجل قائم على رأسه بيده كلّوب من حديد ، فيدخله في شدقه ، فيشقه حتى يخرجه من قفاه ، ثم يخرجه فيدخله في شقه الآخر ، ويلتئم هذا الشدق فهو يفعل ذلك به ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت معهما ، فإذا رجل مستلقٍ على قفاه ، ورجل قائم بيده فِهر ، أو صخرة فيشدخ بها رأسه ، فيتدهده الحجر ، فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان ، فيصنع مثل ذلك ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت معهما ، فإذا بيت مبني على بناء التنور أعلاه ضيق ، وأسفله واسع ، يوقد تحته نار ، فيه رجال ونساء عراة ، فإذا أوقدت ارتفعوا ، حتى يكادوا أن يخرجوا ، فإذا أخمدت رجعوا فيها ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت ، فإذا نهر من دم ، فيه رجل ، وعلى شاطىء النهر رجل بين يديه حجارة ، فيقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا دنا ليخرج رمى من فيه حجرًا ، فرجع إلى مكانه ، فهو يفعل ذلك به ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت ، فإذا روضة خضراء ، وإذا فيها شجرة عظيمة ، وإذا شيخ في أصلها حوله صبيان ، وإذا رجل قريب منه بين يديه نار ، فهو يحشها ويوقدها ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود وصححه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٦ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٤٨٦) .

فصعدا بي في شجرة ، فأدخلاني دارًا ، لم أر دارًا قط أحسن منها ، فإذا فيها رجال شيوخ وشباب ، وفيها نساء وصبيان ، فأخرجاني منها ، فصعدا بي في الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل ، فيها شيوخ وشبان ، فقلت لهما : إنكما قد طوّفتماني منذ الليلة فأخبراني عمّا رأيت ، قالا : نعم .

أما الرجل الأول الذي رأيت ، فإنه رجل كذاب ، يكذب الكذبة ، فتحمل عنه في الآفاق ، فهو يصنع به مارأيت إلى يوم القيامة ، ثم يصنع الله تعالى به ما شاء .

وأما الرجل الذي رأيت مستلقيًا على قفاه ، فرجل آتاه الله القرآن فنام عنه بالليل ، ولم يعمل بما فيه بالنهار ، فهو يفعل به ما رأيت إلى يوم القيامة .

وأما الذي رأيت في التَّنور ؛ فهم الزناة وأما الذي رأيت في النهر ؛ فذاك آكل الربا ... »[1] الحديث .

وروَاية البخاري : كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه : « هل رأى أحد منكم من رؤيا ؟ » قال : فيقص عليه ما شاء الله أن يقص . وإنه قال لنا ذات غدَاة : « إنه أتاني الليلة آتيانِ ، وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي : انطلق . وإني انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرة ، لرأسه ، فيثلغ[2] رأسه ، فيتدهده[3] الحجر هاهنا ، فيتبع الحجر فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل به مثلما فعل به المرة الأولى » ، قال : «قلت لهما: سبحان الله، ما هذا ؟ قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر[4]

---

(١) رواه الشيخان وأحمد في مسنده عن سمرة .

(٢) يثلغ : أي يشدخه .

(٣) يتدهده : وفي رواية : « يتدأدأ » ، وفي رواية : « فيتدهدأ » كلٌّ بمعنى ، والمراد دفعه من علو إلى أسفل وتدهده إذا انحط ، وتدأدأ تدحرج وهو بمعناه .

(٤) يشرشر : أي يقطعه شقا ، والشدق : جانب الفم .

شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه - قال : وربما قال أبو رجاء - فيشق » قال : « ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثلما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل مثلما فعل المرة الأولى » . قال : « قلت : سبحان الله ما هذا ؟ قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنور ، وأحسب أنه كان يقول : فإذا فيه لغط وأصوات » . قال : « فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا »[1] . قال : « قلت لهما : ما هؤلاء؟ » قال : « قالا لي انطلق انطلق » قال : « فانطلقنا ، فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول : « أحمر مثل الدم » وإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة ، فيفغر له فاه ، فيلقمه حجرًا فينطلق ، يسبح ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغر له فاه ، فألقمه حجرًا » . قال : «قلت لهما: ما هذان؟». قال : «قالا لي: انطلق انطلق». قال : « فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة ، كأكره ما أنت راءٍ رجلًا مرآه ، وإذا عنده نار يحشها[2] ، ويسعى حولها » . قال : « قلت لهما : ما هذا ؟ » . قال : « قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة[3] ، فيها من كل لون ربيع ، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قط » . قال : « قلت لهما: ما هذا، ما هؤلاء؟». قال : «قالا لي: انطلق انطلق ، فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن». قال: «قالا لي: ارقَ، فارتقيت

---

(١) ضوضوا بغير الهمزة للأكثر ، وحكي الهمز ، أي رفعوا أصواتهم مختلطة ، قال في النهاية : الضوضاة : أصوات الناس ولغطهم ، وكذا الضوضى .

(٢) يحشها : يوقدها . قال الجوهري : حششت النار أحشها حشا أوقدتها ، وقال ابن العربي : حركها .

(٣) قال الداودي : غطاها الخصب - فوصفها بشدة الخضرة - تقول نخلة عتيمة طويلة .

فيها » . قال : « فارتقينا فيها ، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ ، وشطر كأقبح ما أنت راء » . قال : « قال لهم : اذهبوا فقعوا » . قال : « وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة » . قال : « قالا لي : هذه جنة عدن ، وهذاك منزلك » . قال : « فسما بصري صعدًا ، فإذا قصر مثل الربابة[1] البيضاء » . قال : « قالا لي : هذاك منزلك » قال : « قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذراني فأدخله ، قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله » . قال : « قلت لهما : فإني قد رأيت منذ الليلة عجبًا ، فما هذا الذي رأيت؟» قال : « قالا لي : أما إنا سنخبرك :

أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته ، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور ، فهم الزناة والزواني .

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر ، فإنه آكل الربا .

وأما الرجل الكريه المرآة ، الذي عند النار يحشها ويسعى حولها ، فإنه مالك خازن جهنم .

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة». قال: «فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ . « وأولاد المشركين . وأما القوم الذين كانوا شطرًا منهم حسن وشطرًا قبيح فإنهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا

---

(١) الربابة : السحابة البيضاء ، وكل سحابة منفردة دون السحاب ولو لم تكن بيضاء ، والسحابة التي ركب بعضها على بعض .

تجاوز الله عنهم »[١].

٦ - أخذ كتاب الله ثم رفضه والنوم عن الصلاة المفروضة

مرّ في حديث سمرة عقوبة رفض القرآن من العذاب في القبر .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة ، لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه ، فلما رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس .

وقال أيضًا : يحتمل أن يكون التعذيب على مجموع الأمرين ترك القراءة وترك العمل .

والجزاء من جنس العمل ، فلأن هذا الرجل رفض القرآن ، وجعله وراء ظهره ، وتثاقل عنه ، وكذلك عن الصلاة المكتوبة ، فلم يصلها مع عباد الله في جماعة المسلمين ، بل ثقل رأسه على الفراش ، فجزاؤه أن يثلغ ويرضخ هذا الرأس الذي هذا فعله وشأنه ، وهكذا يعذب إلى قيام الساعة ، فقد جاء في بعض الرويات « .. فيفعل به إلى يوم القيامة »[٢][٣] .

قيل للحسن : رجل يحفظ القرآن ثم لا يقوم به الليل . فقال : ذاك رجل يتوسد القرآن .. فكيف بمن تركه وأعرض عنه .

٧ - الكــذب

قال تعالى : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ [النحل : ١٠٥] .

---

(١) صحيح البخاري - كتاب التعبير باب تعبير الرؤيا ، بعد صلاة الصبح .

(٢) رواية رواها البخاري مع الفتح (٣ / ٢٥١) .

(٣) المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع ، تأليف حامد المصلح ص ١٧٥ .

قال ﷺ : « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »(١) .

وفي الحديث الصحيح : « وإن الكذب يهدي إلى الفجوز ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » .

وفي الحديث : « كان أبغض الخلق إليه الكذب »(٢) .

وقال ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا ، مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم ، والخيانة والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم ، حتى أن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا تواصلوا »(٣) .

اعلم يا أخي ، أن من أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب .

قال عمر بن عبد العزيز : ما كذبت منذ شددت عليّ إزاري .

قال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب : ما من خطيب إلا وتُعرض خطبته على عمله ، فإن كان صادقًا صدق وإن كان كاذبًا قرضت شفتاه بمقاريض من نار ، كلما قرضتا نبتتا ..

وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب ، حتى يخرج أحدهما صاحبه .

---

(١) حسن : رواه أبو داود والضياء عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٧٧ .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، ورواه أحمد وابن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٩٤ .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي بكرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨١ .

قال الليث بن سعد : كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فقال له : لو مسحت عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك ؟ فأقول : لا أفعل .

وعن خوات التيمي : جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له ، فانكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يا بُنّي ؟ فجلس الربيع وقال : أرضعتيه ! قالت : لا ، قال : ما عليك لو قلت : يا بن أخي فصدقت ؟[١] .

روى البخاري عن واثلة بن الأسقع قال ﷺ : « إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه ، أو يري عينيه في المنام ما لم تريا ، أو يقول عليّ ما لم أقل »[٢] .

وأخرج من حديث ابن عمر : « من أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تريا »[٣] .

وفي حديث سمرة بن جندب عقوبة الكذاب في القبر ، والجزاء من جنس عمله .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : لما كان الكاذب يساعد أنفه وعينه لسانه على الكذب بترويج باطله . وقعت المشاركة بينهم في العقوبة .

وقال ابن حجر أيضًا : قال ابن العربي : شرشرة شدق الكاذب إنزال العقوبة بمحل المعصية ، وعلى هذا تجرى العقوبة في الآخرة بخلاف الدنيا[٤] .

٨ - الزنـا

جعـل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنا شر سبيل ، فقال تعالى : ﴿ ولا

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣ / ١٤٥ - ١٥٠) .

(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .

(٣) فتح الباري (١٢ / ٤٦١) .

(٤) فتح الباري (١٢ / ٤٦١) .

تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

ومقيل أهلها في الجحيم شر مقيل ، ومستقر أرواحهم في البرزخ في تنور من نار ، يأتيهم لهبها من تحتهم ، فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا ، ثم يعودون إلى موضعهم ، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي ﷺ في منامه ، ويكفي في قبح الزنى أن الله سبحانه وتعالى - مع كمال رحمته - شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها ، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله ، ومن قبحه أن الله سبحانه وتعالى فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له ، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة ، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا ، وكنت فيمن رجمها .

يقول ابن القيم في عقوبة الزاني وأثر الزنى : ومنها الرائحة التي تفوح عليه ، يشمها كل ذي قلب سليم ، تفوح مِنْ فيه وجسده ، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ، ونادت عليه ، ولكن كما قيل :

كلٌّ به مثل ما بي غير أنهمُ ... مِنْ غيرة بعضهم للبعض عذّالُ

ومنها ضيقة الصدر وحرجه ، فإن الزناةَ يعاملون بضد مقصودهم ، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده ، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته ، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط ، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش - لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف أضعاف ما حصل له ، مع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته .

ومنها أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن ، والله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة ، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة ، فكذلك مَنْ تمتع بالصور المحرمة في الدنيا ، بل كل ما ناله العبد في الدنيا فإن

توسّع في حلاله ضيّق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه ، وإن ناله من حرام فاته نظيره يوم القيامة[١] .

قال ﷺ : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، فكان على رأسه كالظلة[٢] فإذا أقلع رجع إليه »[٣] .

وقال ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذّاب ، وعائل[٤] مستكبر »[٥] .

يقول ابن القيم :

اعلم أن الجزاء من جنس العمل ، والقلب المعلق بالحرام كلما همّ أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه ، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا . وفي بعض طرق حديث سمرة بن جندب الذي في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : « رأيتُ الليلة رجلين أتياني فأخرجاني ، فانطلقت معهما ، فإذا بيت مبني على مثل بناء التنور ، أعلاه ضيق ، وأسفله واسع ، يوقد تحته نار ، فيه رجال ونساء عراة ، فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا ، فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هم الزناة » .

فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا ، فإنهم كلما همّوا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا[٦] فيه وعادوا بعد

---

(١) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص٣٦٥ - ٣٦٨ ، طبع دار الكتاب العربي .
(٢) السحابة .
(٣) صحيح : رواه أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٠ .
(٤) فقير .
(٥) رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة .
(٦) قلبوا فيه ، وعادوا إليه بقبح وتنكيل .

أن كادوا يخرجون .

ولمّا كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه ، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته ورَوْحه رجعوا على حوافرهم ، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك . قال الله تعالى : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** ﴾ [السجدة : ٢٠] وقال في موضع آخر : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها** ﴾ [الحج : ٢٢] فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم ، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه ، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت ، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة ، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج من هناك ، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت ، وكان معذبًا به هناك ، كما كان قلبه معذبًا به في الدنيا ، فليس العشاق والفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار ، وإنما هم يعذبون فيها ، وفي البرزخ وفي القيامة ، ولكنَّ سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم ، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم ، فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى ، والدود يأكل جسومهم[(١)] اهـ .

كان سفيان الثوري يتمثل بهذين البيتين :

تفنى اللذاذة ممن ذاق صفوتها   من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها   لا خير في لذة من بعدها النار

يقول الحافظ ابن حجر في شرح حديث سمرة بن جندب : مناسبة العري لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا ؛ لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك ، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى[(٢)] .

قال ابن حجر في فوائد حديث سمرة بن جندب : قال الكرماني : مناسبة

(١) روضة المحبين ص ٤٤٠ - ٤٤١ .
(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .

العقوبات المذكورة فيه للجنايات ظاهرة إلا الزناة ففيها خفاء ، وبيانه أن العري فضيحة كالزنا ، والزاني من شأنه طلب الخلوة فناسب التنور ، ثم هو خائف حذر حال الفعل كأن تحته النار(١) . والجزاء من جنس العمل .

والتنور مناسب لسعار الشهوة ولهبها ، أما ترى أن العرب تقول رسيس العشق ، مِنْ رَسِّ الحمّى ورسيسها هو أول رمسها، فشبهوا رسيس العشق بحرارته وحرقته برسيس الحمى ، فكيف بنار الشهوة كما يقول عروة :

إذا وجدتُ أوار الحب في كبدي   أقبلتُ نحو سقاء القوم أبتردُ
هبني بَرَدْت ببرد الماء ظاهرَه   فمن لنار على الأحشاء تتقد

هذا في الحب فكيف في العشق وإتيان المحرم ؟ أعاذنا الله وإياكم .

قال المناوي :

من عقوبة الزاني ما لابد أن يعجل في الدنيا ، وهو أن يقع في الزنا بعض أهل داره حتما مقضيًّا ، وذلك لأن الزنا يوجب هتك العرض ، مع قطع النظر عن لزوم الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة فيكون سيئة وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فيلزم أن يسلط على الزاني من يزني به بنحو حليلته ، والله عزيز ذو انتقام ، فإن لم يكن للزاني من يزني به أو يلاط به من نحو حليلة أو قريب عوقب به بوجه آخر .

وعلم مما تقرر مكافأة الزاني بهتك عرضه بالزنا ؛ هبة لنفسه أو لشخص من أتباعه ، والظاهر أن المرأة كالرجل فإذا زنت عوقبت بزنا زوجها ، ووقوع الزنا في أبويها ، وحصول الغيرة لها ، ووقوع الزنا في أبويها . انتهى(٢) .

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر المهاجرين ، خصال خمس إذا ابتليتم بهنَّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهن .

---

(١) فتح الباري (١٢ / ٤٦٦) .

(٢) فيض القدير (٦ / ١٤٢ - ١٤٣) .

لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا .

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة ، وجور السلطان عليهم .

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوهم من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم .

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجلّ ، ويتحرّوا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم شديدًا »(١) .

وهذه معاملة بنقيض القصد ، من أراد اللذة في الحرام عُوقب بالأوجاع والأسقام ، جزاءً وفاقًا .

يقول الشنقيطي عن رجم الزاني المحصن ، وجلد الزاني البكر مائة جلدة والملحدون يقولون : إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية ، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان ؛ لقصور إدراكهم عن فهم حكمة الله البالغة في تشريعه .

والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى ؛ لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر ، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض ، وتقدير الحرمات ، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني ، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله ، ومن كان كذلك فهو نجس قذر لا يصلح للمصاحبة، فعاقبه خالقه الحكيم ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة ، وشر

---

(١) رواه البيهقي في سننه ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٥٥ ، والصحيحة رقم ١٠٦ .

أمثاله عن المجتمع ، ويطهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب ، وجعل قتلته أفظع قتله ؛ لأن جريمته أفظع جريمة والجزاء من جنس العمل .

وتشريع الحكيم الخبير جل وعلا - مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد ، وجلب المصالح ، والجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فظيع الجناية بعظيم العقاب جزاءً وفاقًا[(١)] .

٩ - التبرج وخلع المرأة ثيابها في غير بيتها

قال رسول الله ﷺ : « ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ستر ما بينها وبين الله »[(٢)] .

وقال ﷺ : « أيمّا امرأة وضعت ثيابها في غير بيت زوجها ، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عز وجل »[(٣)] .

قال المناوي :

« أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيتها » كناية عن تكشفها للأجانب ، وعدم سترها منهم ، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عز وجل ، لأنه تعالى أنزل لباسًا ليوارين به سوءاتهن وهو لباس التقوى ، وإذا لم يتقين الله ، وكشفن سوءاتهن ؛ هتكن الستر بينهن وبين الله تعالى ، وكما هتكت ستر نفسها ، ولم تصن وجهها ، وخانت زوجها يهتك الله سترها والجزاء من جنس العمل . والهتك : خرق الستر عما وراءه ، والهتيكة : الفضيحة[(٤)] .

---

(١) أضواء البيان (٣ / ٣٩٥ - ٣٩٦) .

(٢) رواه أبو داود والترمذي عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٨ ، وآداب الزفاف .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك ، عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٠٧ .

(٤) فيض القدير (٣ / ١٣٦ - ١٣٧) .

١٠ - إفطار رمضان بلا عذر ولا رخصة

عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا أنا نائم أتاني رجلان ، فأخذا بضَبْعَيَّ ، فأتيا بي جبلًا وعرًا ، فقالا : اصعد . فقلت : إني لا أطيقه . فقالا : إنا سنسهله لك . فصعدت ، حتى إذا كنت في سواء الجبل إذا بأصوات شديدة ، قلت : ما هذه الأصوات ؟ قالوا : هذا عواء أهل النار . ثم انطلق بي ، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم ، مشققة أشداقهم ، تسيل أشداقهم دمًا . قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يفطرون قبل تحلة صومهم »[1] .

« تحلة صومهم » : معناه يفطرون قبل وقت الإفطار .

إذا كان هذا فيمن يفطرون قبل الفطر ، فكيف بمن يفطرون ويأكلون من أول الفجر ؟ فكيف بمن يتعمدون ويجاهرون ؟

قال الذهبي :

عند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا عذر ، أنه شر من المكّاس ومدمن الخمر [2] .

١١ - شرب الخمر

قال ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، إن الله عز وجل لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها ، ومبتاعها

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي في « الكبرى » وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٩٩٥ .

(٢) الكبائر للذهبي ص ٥٧ ، طبع مكتبة السنة .

وساقيها ، ومسقيها »[١] .

وقال ﷺ : « إن الله لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها »[٢].

وقال ﷺ : « ثلاثة قد حرّم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذي يقر في أهله الخبث »[٣] .

وقال ﷺ : « ثلاثة لا تقربهم الملائكة : السكران ، والمتضمخ بالزعفران ، والجنب »[٤] .

وقال ﷺ : « الخمر أم الخبائث ، فمن شربها لم تقبل صلاته أربعين يومًا ، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية »[٥] .

وقال ﷺ : « الخمر أم الفواحش ، وأكبر الكبائر ، فمن شربها وقع[٦] على أمه ، وخالته ، وعمته »[٧] .

قال المناوي :

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٧٢ .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٣) صحيح : رواه أحمد عن ابن عمر ، وروراه الحاكم والضياء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٤) صحيح : رواه البزار عن بريدة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٥٥ .

(٥) حسن : رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٣٩ .

(٦) زنى .

(٧) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٤٠ .

« الخمر أم الفواحش » أي التي تجمع كل خبيث ، وإذا قيل : أم الخير فهي التي تجمع كل خير ، وإذا قيل : أم الشر فهي التي تجمع كل شر ، (وأكبرُ الكبائر) أي من أكبرها ، من شربها وسكر « وقع على أمه وخالته عمته » أي جامع الواحدة منهن يظن أنها زوجته وهو لا يشعر ومن ثم جعلها الله مفتاح كل إثم ، كما جعل الغناء مفتاح الزنا ، وإطلاق النظر في الصور مفتاح العشق ، والكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان ، والمعاصي مفتاح الكفر ، والكذب مفتاح النفاق ، والحرص مفتاح البخل ، وهذه أمور لا يصدق بها إلا من له بصيرة صحيحة ولب يعرف به ما في نفسه وما في الوجود من خير وشر . وقال المناوي أيضًا :

« الخمر أم الفواحش » الأخروية بل والدنيوية ، لأنها تصدع ، وتكثر اللغو على شربها ، بل لا يطيل شرابها إلا باللغو ، وهي كريهة المذاق ، ورجس ومن عمل الشيطان ، توقع العداوة والبغضاء ، وتصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وتستر العقل الذي هو نور الهدى ، وآلة الرشد ، ألا ترى حمزة - رضي الله عنه - لمّا زال عقله بها ، قال للمصطفى ﷺ : هل أنتم إلا عبيد أبي أو آبائي ؟ فجعله عبدًا لكافر . قال ابن العربي : وهذا قول إدّ ، وحديث إلى الكفر ممتد ، وعذره المصطفى ﷺ لزوال عقله بما كان مباحًا حينئذ ، ولو كان زواله بمحرم ما عذره ، ثم استقر الأمر على شدة التحريم .

وقال : ومن قبائحها وفضائحها أنها تذهب الغيرة ، وتورث الخزي والفضيحة والندامة ، وتلحق شاربها بأحقر نوع الإنسان وهم المجانين ، وتسلبه أحسن الأسماء والصفات ، وتسهل قتل الإنسان ، ومؤاخاة الشيطان ، وهتك الأستار ، وإظهار الأسرار ، وتدل على العورات ، وتهوّن ارتكاب الجرائم والقبائح ، وكم أهاجت من حرب ، وأفقرت من غنى ، وأذلت من عزيز ، ووضعت من شريف ، وسلبت من نعمة ، وجلبت من نقمة ، وفرّقت بين رجل وزوجه فذهبت بقلبه ، وراحت بلبه ، وكم أورثت من حسرة ، وأجرت من عبرة ، وأوقعت في بليّة ،

وعجّلت من منيّة ، وكم وكم ، ولو لم يكن من فواحشها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف واحد لكفى ، وآفاتها لا تحصى ، وفضائحها لا تستقصى ، وفي هذا القدر كفاية[1] .

عن ابن عمر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا ، ثم لم يتب منها حُرمها في الآخرة »[2] .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة »[3] .

قال ابن حجر :

قال الخطابي والبغوي في «شرح السنة»: معنى الحديث: لا يدخل الجنة ، لأن الخمر شراب أهل الجنة ، فإذا حرم شرابها دلَّ على أنه لا يدخل الجنة ، وقال ابن عبد البر : هذا وعيد شديد ، يدل على حرمان دخول الجنة .

ويحمل الحديث عند أهل السنة على أنه لا يدخلها ولا يشرب الخمر فيها إلَّا إن عفا الله عنه ، كما في بقية الكبائر وهو في المشيئة ؛ فعلى هذا فمعنى الحديث : جزاؤه في الآخرة أن يُحرمَهَا لحرمانه دخول الجنة إلا إن عفا الله عنه . قال : وجائز أن يدخل الجنة بالعفو ، ثم لا يشرب فيها خمرًا ولا تشتهيها نفسه ، وإن علم بوجودها فيها ، ويؤيده حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو . قلت : أخرجه الطيالسي وصححه ابن حبان . وقريب منه حديث عبد الله بن عمرو رفعه : « من مات من أمتي وهو يشرب الخمر حرم الله عليه شربها في الجنة » أخرجه أحمد بسند حسن ، وقد لخص عياض كلام ابن عبد البر ، وزاد احتمالًا آخر ، وهو أن المراد بحرمانه شربها أنه يحبس عن الجنة مدة إذا أراد الله عقوبته ، ومثله الحديث الآخر : « لم يرح رائحة الجنة »

---

(١) فيض القدير للمناوي (٣ / ٥٠٧ – ٥٠٨) .
(٢) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي ، وابن ماجة عن عمر .
(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٧ ، وكذا رواه الحاكم وابن عساكر عن ابن عمر .

قال : ومن قال : لا يشربها في الجنة بأن ينساها أو لا يشتهيها ، يقول : ليس عليه في ذلك حسرة ، ولا يكون ترك شهوته إياها عقوبة في حقه ، بل هو نقص نعيم بالنسبة إلى من هو أتم نعيمًا منه كما تختلف درجاتهم ، ولا يلحق من هو أنقص درجة حينئذ بمن هو أعلى درجة منه استغناء بما أعطى ، واغتباطًا له . وقال ابن العربي : ظاهر الحديث أنه لا يشرب الخمر في الجنة ولا يلبس الحرير فيها ، وذلك لأنه استعجل ما أمر بتأخيره ووُعِدَ به ، فحرمه عند ميقاته ، كالوارث فإنه يحرم ميراثه لاستعجاله . وبهذا قال نفر من الصحابة ومن العلماء وهو موضع احتمال وموقف إشكال ، والله أعلم كيف يكون الحال . وفصل بعض المتأخرين بين من يشربها مستحلًا فهو الذي لا يشربها أصلًا ؛ لأنه لا يدخل الجنة أصلًا ، وعدم الدخول يستلزم حرمانها ، وبين من يشربها عالمًا بتحريمها ، فهو محل الخلاف ، وهو الذي يحرم شربها مدة ولو في حال تعذيبه إن عذبَ ، أو المعنى أن ذلك جزاؤه إن جوزي ، والله أعلم[1] .

قال المناوي :

يحرم منها جزاءً وفاقًا ، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، فيا لها من حسرة وندامة ، حيث باع أنهارًا من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين[2] . والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة »[3] .

قال ﷺ : « من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب لم يتب الله

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٣٥) .

(٢) فيض القدير (٦ / ١٥٧) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وكذا رواه الحاكم في المستدرك وابن عساكر عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٧ .

عليه وسقاه من نهر الخبال »[1] .

شراب بشراب ، والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن مات دخل النار ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن مات دخل النار ، وإنْ تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن مات دخل النار ، وإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد كان حقًّا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة عصارة أهل النار »[2] .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر فاجلدوه ، فإن عاد الثانية فاجلدوه ، فإن عاد الثالثة فاجلدوه ، فإن عاد الرابعة فاقتلوه »[3] .

قال المناوي :

قال الحافظ:وقد استقر الإجماع على أن لا قتل فيه[4] .

قال ﷺ : « من مات وهو مدمن خمر ، لقي الله وهو كعابد وثن »[5] .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي عن ابن عمر ، وأحمد والنسائي والحاكم عن ابن عمرو، ورواه أبو عبيد في «الإيمان» وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٨، وتخريج المشكاة ٣٦٤٣ ، ٣٦٤٤ .

(٢) صحيح : أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٩ .

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والحاكم عن ابن عمر، وأبو داود والترمذي، والحاكم عن معاوية ، والبيهقي وأبو داود عن ذؤيب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٥ .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٥٨) .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٨٢٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٦٧٧ .

١٢ - الخيلاءِ والكِبْر

قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة »[١] .

وقال ﷺ : « بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه ، مرجل جُمته ، إذ خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[٢] .

وقال ﷺ : « خرج رجل ممن كان قبلكم في حلة له يختال فيها ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[٣] .

قال المناوي :

قيل : هو قارون . وقيل الهيزن - « يختال فيها » : من الاختيال ، وهو التكبر في المشي ، ولا يكون إلا مع سحب الإزار ونحوه ، فكأن المختال تخيل فضيلة في نفسه على غيره ، فاختال متكبرًا بها في مشيه على غيره ، فأمر الله الأرض فأخذته؛أي : ابتلعته . « فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » أي : يغوص في الأرض، ويضطرب ويتحرك في نزوله فيها، وهذا تحذير من الخيلاء وترهيب من التكبر[٤] .

فهذا الرجل الذي اختال بجسده ومشيته يعذب في البرزخ بجنس عمله ، فهو يتجلجل .

قال ابن فارس : أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد ، ويندفع من شق إلى شق ، فالمعنى : ينزل فيها مضطربًا متدافعًا .. ليس كمشيته على ظهرها .

---

(١) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن ابن عمر ، ورواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة .

(٣) رواه الترمذي عن ابن عمرو ، وأحمد والشيخان عن أبي هريرة .

(٤) فيض القدير (٣ / ٤٣٨) .

قال ابن حجر : ومقتضى هذا الحديث أن الأرض لا تأكل جسد هذا الكافر، فيمكن أن يلغز به فيقال: كافر لا يبلى جسده بعد الموت[١]. جزاءً وفاقًا، والعذاب حاصل لجسده .

وقال ﷺ : « من جرَّ ثوبه خيلاء ، لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[٢] .

وقال ﷺ: «إن الذي يجر ثوبه من الخيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[٣].

وقال ﷺ : « من جر إزاره ، لا يريد بذلك إلا المخيلة ، فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة »[٤] .

قال المناوي :

قال ابن عبد البر : مفهوم الحديث أن الجارّ لغير الخيلاء لا يلحقه الوعيد ، إلا أن جر القميص وغيره من الثياب مذموم بكل حال .

وقال النووي : لا يجوز الإسبال تحت الكعبين خيلاء فإن كان لغيرها كره[٥] اهـ .

هذا الذي يظن أن له قيمة ، ويتكبر ، يكون جزاؤه الهوان ، وأي هوان أعظم من عدم نظر الله إليه يوم القيامة ؟! والجزاء من جنس العمل .

عن ابن عمرو – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذلّ في كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٢٧٢) .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٣) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٤) رواه مسلم عن ابن عمر .

(٥) فيض القدير (٦ / ١١٢ – ١١٣) .

عصارة أهل النار طينة الخبال »[١] .

فهؤلاء المتكبرون الذين يظنون أنهم خرقوا الأرض أو نافسوا الجبال طولًا ، يحشرون كالنمل هوانًا ، يغشاهم الذّل ، ويساقون إلى سجن في النار ، ويُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال جزاءً وفاقًا .

ومن حديث ابن عباس عند الحارث : « خرج عنق من النار ، فأشرف على الخلائق، له عينان تبصران، ولسان فصيح فيقول: إني وكلت بثلاثة: إني وكلت بكل جبار عنيد ، فيلقطون من الصفوف لقط الطير حب السمسم .. » الحديث .

والجزاء من جنس العمل .

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «بينا رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[٢].

١٣ - الغلول

عن ابن طاوس عن أبيه قالَ : استعمل رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت على الصدقة ثم قال له : « اتقِ الله يا أبا الوليد ، لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله وله رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثؤاج »[٣] .

عن أبي مسعود الأنصاري قال : بعثني النبي ﷺ ساعيًا ، ثم قال : « انطلق أبا مسعود ! ولا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته »[٤] قال : إذًا لا أنطلق ؛ قال : « إذن لا أُكرهك » .

---

(١) قال ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية : موقوف ، إسناده حسن . انظر (٤ / ٣٧٥) حديث رقم ٤٦٢٩ من المطالب .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٦ / ٢٢٦) : تفرد به أحمد ، وإسناده حسن .

(٣) صحيح : رواه الحميدي في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن ، وإسناده صحيح على شرط مسلم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٧ .

(٤) صحيح : رواه أبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥١٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٥٧٦ .

الغُلول : هو الخيانة في المغنم أو في مال الدولة .

قال المناوي :

«بعير» يقع على الذكر والأنثى، وجمعه أبعر وأباعِر وبُعرَان. «تحمله» وفي رواية «على رقبتك». «له رغاء»: صوت الإبل. «خوار» صوت البقر. «ثؤاج»: صياح الغنم .

تنبيه :

قال حجة الإسلام : هذا الحمل حقيقي ، فيأتي به حاملًا له ، معذبًا بحمله وثقله يعدل الجبل العظيم ، مرعوبًا بصوته ، وموبخًا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد ، والملائكة تنادي : هذا ما أغله فلان بن فلان رغبة فيه وشحًّا .

وذهب بعضهم إلى أن الحمل عبارة عن وزر ذلك ، وشهرة الأمر ؛ أي يأتي يومَ القيامة ، وقد شهر الله أمره كما يشهر لو حمل بعيرا له رغاء ، أو بقرة له خوار .. إلخ .

ورده القرطبي بأنه عدول عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه ، وقد أخبر المصطفى بالحقيقة فهو أولى إذْ لا مانع .

وعورض بوجود المانع وهو أنه إذ غلّ ألف دينار مثلا فهي أخف من البعير ، وهو بالنسبة إليها حقير فكيف يعاقب الأخف جناية بالأثقل وعكسه ؟ .

وأجيب أن المراد بالعقوبة بذلك فضيحته على رءوس الأشهاد في ذلك الموقف العظيم ، لا بالثقل ولا بالخفة .

قال ابن المنير: أظن الحكام أخذوا تجريس السارق ونحوه من هذا الحديث ونحوه[(١)].

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إن الشَّملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم ، لم تُصبها المقاسم[(٢)]- لتشتعل عليه نارًا »[(٣)]. والجزاء من جنس العمل .

---

(١) فيض القدير (١٦ / ١٢٣) . (٢) أي لم تقتسم .

(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « لا إسلال[1] ولا غلول »[2] .

وقال ﷺ : « لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . ولا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاء له ثغاء ، يقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق[3] ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[4] ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك »[5] .

وقال ﷺ : « يأيها الناس إن هذا من غنائمكم ، أدُّوا الخيط والمِخْيط ، فما هو فوقُ ، فإن الغُلول عار على أهله يوم القيامة وشنار[6] ونار »[7] .

١٤ - السرقة

قال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا

---

(١) السرقة الخفية .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن عمرو بن عوف ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٤٦ .

(٣) يريد ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع ، وتخفق : تتحرك .

(٤) يعني الذهب والفضة .

(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٦) عيب وعار .

(٧) صحيح : رواه ابن ماجة عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٧٤٦ .

من الله والله عزيز حكيم ﴾ [المائدة : ٣٨] .

قال ابن حجر :

قدم السارق على السارقة ، وقدمت الزانية لوجود السرقة غالبا في الذكورية ، ولأن داعية الزنا في الإناث أكثر ، ولأن الأنثى سبب في وقوع الزنا إذ لا يتأتى غالبًا إلا بطواعيتها .

والسرقة : الأخذ خفية ، وعرفت في الشرع بأخذ شيء خُفْية ليس للآخذ أخذه ، قال ابن بطال : يقال لسارق الإبل : الخارب ، وللسارق في الميزان مخسر ، وللسارق في المكيال مطفف .

قال المازري ومن تبعه : صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها ، وخصّ السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب ، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها ، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر ، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حماية لليد ، ثم لما خانت هانت ، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعريّ في قوله :

يد بخمس مئين عَسْجَدٍ وُديت   ما بالها قطعتْ في ربع دينار ؟

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها ، وأرخصها   صيانة المال ، فافهم حكمة الباري

وشرح ذلك أن الدية لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي ، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال ، فظهرت الحكمة في الجانبين ، وكان في ذلك صيانة من الطرفين[1] .

لما كانت أمينة كانت ثمينة ، فلمّا خانت هانت ، والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « يأيها الناس ! إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فصلوا حتى تنجلي[2]، إنه ليس من شيء توعدونه إلا وقد رأيته في صلاتي هذه ، ولقد جيء بالنار حين

---

(١) فتح الباري (١٢ / ١٠٠) .   (٢) تظهر وتنكشف .

رأيتموني تأخرت ، مخافة أن يصيبني من لفحها ، حتى قلت : يارب وأنا فيهم ؟ ورأيت فيها صاحب المحجن[1] يجرّ قصبه[2] في النار ، كان يسرق الحاج بمحجنه ، فإنْ فُطن[3] به ؛ قال : إنما تعلّق بمحجني ! وإن غُفِل عنه ذهب به ، حتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ، ولم تتركها تأكل من خُشاش[4] الأرض ، حتى ماتت جوعًا ، وجيء بالجنة ، فذلك حين رأيتموني تقدمت ، حتى قمت في مقامي ، فمددت يدي ، وأنا أريد أن أتناول من ثمرها شيئًا لتنظروا إليه ، ثم بدا[5] لي أن لا أفعل »[6] .

قال ﷺ: «عرضت على الجنة، حتى لو مددت يدي تناولت من قطوفها، وعرضت عليّ النار ، فجعلتُ أنفخ ؛ خشية أن يغشاكم حرّها ، ورأيت فيها سارق بدنتي رسول الله ، ورأيت فيها أخا بني دعدع سارق الحجيج ، فإذا فُطن له قال : هذا عمل المحجن ، ورأيت فيها امرأة طويلة سوداء تعذب في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تسقها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت ، وإن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله ، فإذا انكسف أحدهما فاسعوا إلى ذكر الله عز وجل »[7] .

فهذا الذي كان يسرق خفية بمحجن أخرج الله ما خفي منه وهي أمعاؤه ، وعُذِّب بها ، فكان جزاؤه مناسبا لعمله .

---

(١) العصا الملتوية الطرف كالسنارة .

(٢) أمعاءه .

(٣) تنبه أحد لفعله .

(٤) هوام وحشرات .

(٥) ظهر لي .

(٦) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

(٧) صحيح : رواه النسائي عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٩٦ .

١٥ - قطع الطريق والمحاربة لله ولرسوله

قال تعالى : **﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾** [المائدة : ٣٣] .

فمجرد إخافته السبيل هو مرتكب الكبيرة ، فكيف إذا أخذ المال ؟ وكيف إذا جرح أو قتل أو فعل عدة كبائر ؟! مع ما غالبهم عليه من ترك الصلاة وإنفاق ما يأخذونه في الخمر والزنا[١] .

عن أنس – رضي الله عنه – قال : قدم على النبي ﷺ نفر من عُكل فأسلموا ، فاجتووا[٢] المدينة ، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فصحُّوا ، فارتدوا ، فقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل . فبعث في آثارهم فأتي بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا[٣] .

وعن أبي قلابة عن أنس – رضي الله عنه – قال : قدم رهط من عُكل على النبي ﷺ ، كانوا في الصفة ، فاجتووا المدينة ، فقالوا : يا رسول الله أبغنا[٤] رسْلًا[٥] ، فقال : ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ ، فأتَوْها ، فشربوا من ألبانها وأبوالها ، حتى صحّوا وسمنوا ، وقتلوا الراعي واستاقوا الذودَ ، فأتى النبي ﷺ الصريخ ، فبعث الطلب في آثارهم ، فما ترجّل النهار

---

(١) الكبائر للذهبي ص١٠٨ .

(٢) أي أصابهم الجوى ، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول ، يقال : اجتويت البلد : إذا كره المقام فيه .

(٣) رواه البخاري في كتاب الحدود باب المحاربين من أهل الكفر والردة .

(٤) اطلب لنا ، يُقال : أبغاه كذا طلبه له .

(٥) رسْلا : لبنا .

حتى أتي بهم ، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم ، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وما حسمهم ، ثم ألقوا في الحرّة يستسقون ، فما سقُوا حتى ماتوا[1] قال أبو قلابة : سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله .

قال ابن حجر :

قال ابن بطّال : ذهب البخاري إلى أن آية المحاربة نزلت في أهل الكفر والردة ، وساق حديث العرنيين ، وليس فيه تصريح بذلك ، ولكن أخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة حديث العرنيين وفي آخره قال : « بلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ..**﴾ الآية ، ووقع مثله في حديث أبي هريرة ، وممن قال ذلك الحسن وعطاء والضحاك والزهري ، قال : وذهب جمهور الفقهاء إلى أنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يسعى في الأرض بالفساد ويقطع الطريق ، وهو قول مالك والشافعي والكوفيين ، ثم قال : ليس هذا منافيًا للقول الأول ؛ لأنها وإن نزلت في العرنيين بأعيانهم لكن لفظها عام يدخل في معناه كل من فعل مثل فعلهم من المحاربة والفساد .

قلت : بل هما متغايران ، والمرجع إلى تفسير المراد بالمحاربة : فمن حملها على الكفر خصّ الآية بأهل الكفر ، ومن حملها على المعصية عمّم ، ثم نقل ابن بطال عن إسماعيل القاضي أن ظاهر القرآن وما مضى عليه عمل المسلمين يدل على أن الحدود المذكورة في هذه الآية نزلت في المسلمين ، وأما الكفار فقد نزل فيهم : ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب...**﴾ [محمد: ٤] إلى آخر الآية ، فكان حكمهم خارجًا عن ذلك ، وقال تعالى في آية المحاربة : ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ وهي دالة على أنّ من تاب من المحاربين يسقط عنه الطلب بما ذكر بما جناه فيها ، ولو كانت الآية في الكافر لنفعته المحاربة ، ولكان إذا أحدث الحرابة مع كفره اكتفينا بما ذكر في الآية ، وسلم من القتل ، فتكون الحرابة خففت عنه القتل ، وأجيب عن هذا الإشكال بأنه لا يلزم من إقامة هذه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود باب لم يُسْق المرتدون المحاربون حتى ماتوا .

الحدود على المحارب المرتد مثلًا أن تسقط عنه المطالبة بالعود إلى الإسلام أو القتل ، وقد تقدم في تفسير المائدة ما نقله المصنف عن سعيد بن جبير أن معنى المحاربة لله الكفر به ، وأخرج الطبري عن أنس في آخر قصة العرنيين . قال : فذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾ ثبت في الصحيحين أنهم كانوا من عكل وعرنية ، فقد وجد التصريح الذي نفاه ابن بطال .

قال ابن حجر :

المعتمد أن الآية نزلت أولًا فيهم ، وهي تتناول بعمومها من حارب من المسلمين بقطع الطريق ، لكن عقوبة الفريقين مختلفة .

فإن كانوا كفارًا يخير الإمام فيهم إذا ظفر بهم .

وإن كانوا مسلمين فعلى قولين :

أحدهما : وهو قول الشافعي والكوفيين ينظر في الجناية فمن قَتل قُتل ، ومن أَخَذَ المال قُطع، ومن لم يَقْتل أو لم يأْخذ مالًا نفي، وجعلوا «أو» للتنويع.

ثانيهما : وقال مالك : بل هي للتخيير ، فيتخير الإمام في المحارب المسلم بين الأمور الثلاثة ، ورجح الطبري الأول[(١)] .

واختلفوا في المراد بالنفي في الآية . فقال مالك والشافعي : يخرج من بلد الجناية إلى بلدة أخرى ، زاد مالك : فيحبس فيها . وعن أبي حنيفة بل يحبس في بلده ، وتُعُقب بأن الاستمرار في البلد ولو كان مع الحبس إقامة فهو ضد النفي ، فإن حقيقة النفي الإخراج من البلد ، وقد قرنت مفارقة الوطن بالقتل قال تعالى : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم** ﴾ وحجة أبي حنيفة أنه لا يؤمن منه استمرار المحاربة في البلدة الأخرى، فانفصل عنه مالك بأنه يحبس بها ، وقال الشافعي يكفيه مفارقة الوطن والعشيرة خذلانًا وذلًا[(٢)].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

---

(١) وهو المناسب لكون الجزاء من جنس العمل .

(٢) فتح الباري (١٢ / ١١٢ – ١١٣) .

قال علماؤنا : تقطع يده لأجل أخذ المال ، ورجله للإخافة ؛ لأن اليد هي العضو الذي به الأخذ ، والرجل هي العضو الذي به الإخافة ، أي المشي وراء الناس والتعرّض لهم .

والنفي من الأرض والإبعاد من المكان الذي هو وطنه ؛ لأن العرب كانوا إذا أخرج أحد من وطنه ذُلّ وخضدت شوكته ، قال امرؤ القيس :

.... به الذئب يعوى كالخليع المُعَيّلِ

وذلك حال غير مختصّ بالعرب ؛ فإن للمرء في بلده وقومه من الإقدام ما ليس له في غير بلده .

ثم قال رحمه الله :

ذهب جماعة إلى أنّ «أو» في الآية للتقسيم لا للتخيير ، وأن المذكورات مراتب للعقوبات بحسب ما اجترحه المحارب : فمن قتل قُتل وصلب ، ومَنْ لم يقتل ولا أخذ مالا عُزّر ، ومن أخاف الطريق نُفي ، ومن أخذ المال فقط قطع ، وهو قول ابن عباس وقتادة والحسن والسدي والشافعي(١) .

وعند ابن جرير : قطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ولم يحسمهم وتركهم يتلقمون الحجارة بالحرّة .

ومعنى يتلقمون الحجارة أي يضعون الحجارة في أفواههم من العطش ، كي تستدر الريق .

قال ابن حجر :

سمر أعينهم ، سمل أعينهم وهما بمعنى . قال عياض : سمر العين بالتخفيف كحلها بالمسمار المحمي ؛ فيطابق السمل ، فإنه فسر بأن يدني من العين حديدة محماة حتى يذهب نظرها ، فيطابق الأول بأن تكون الحديدة مسمارًا وفسّروا السمل أيضًا بأنه فقء العين بالشوك ، وليس هو المراد هنا .

وقال ابن حجر :

---

(١) التحرير والتنوير (٦ - ٧ / ١٨٤ - ١٥٥).

حكى ابن بطال عن المهلب أن الحكمة في ترك سقيهم كفرهم نعمة السقي ، التي أنعشتهم من المرض الذي كان بهم(١) .

قال: وفيه وجه آخر يؤخذ مما أخرجه ابن وهب من مرسل سعيد بن المسيب: أن النبي ﷺ قال لما بلغه ما صنعوا : « عطش الله من عطّش آل محمد الليلة » . قال : فكان ترك سقيهم إجابة لدعوته ﷺ .

قلت : وهذا لا ينافي أنه عاقبهم بذلك كما ثبت أنه سملهم ؛ لكونهم سملوا أعين الرعاة(٢) .

جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس العمل .

١٦ - قذف المحصنات

قال الله تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون** ﴾ [النور : ٤] .

وقال تعالى: ﴿**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين**﴾ [النور:٢٣- ٢٥].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »(٣) .

قال ابن حجر :

باب رمي المحصنات : أي قذفهنّ ، والمراد : الحرائر العفيفات ، ولا يختص بالمزوّجات ، بل حكم البكر كذلك بالإجماع .

---

(١) فإنهم لما أتوا رسول الله ﷺ ، وقد ماتوا هزلًا كما في رواية عبد الرزاق ، وعند ابن أبي حاتم : بهم جهد ، مصفرة ألوانهم ، عظيمة بطونهم .

(٢) فتح الباري (١٢ / ١١٤) .

(٣) متفق عليه رواه البخاري في صحيحه ، في كتاب الحدود باب رمي المحصنات عن أبي هريرة ، ورواه مسلم (٨٩) .

وقال أيضًا : تضمنت الآية الأولى حد القذف ، والثانية بيان كونه من الكبائر ، بناء على أن كل ما توعد عليه باللعن أو العذاب أو شرع فيه حد فهو كبيرة ، وهو المعتمد .

وقد انعقد الإجماع على أن حكم قذف المحصن من الرجال حكم قذف المحصنة من النساء ، واختلف في حكم قذف الأرقاء[1] .

قال الفخر الرازي : انعقد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا .

فالمراد بالرمي والقذف ليس الرمي بسرقة أو شرب خمر ، بل القذف بالزنا .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله :

إن ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات ، وهن العفيفات الحرائر ، ثيبات أو أبكارًا ؛ بدون دليل قاطع - يترك المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئًا بتلك التهمة النكراء ؛ ثم يمضي آمنًا ! فتصبح الجماعة وتمسي ، وإذا أعراضها مجرّحة ، وسمعتها ملوثة ، وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام ؛ وإذا كل زوج فيها شاكٌّ في زوجه ، وكل رجل فيها شاكٌّ في أصله ، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار ، وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق .

ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوّث ؛ وأن الفعلة فيها شائعة ، فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة ترددها ، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها !

ومِنْ ثَمَّ لا تُجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه ؛ والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجوّ الملوّث الموحي بارتكاب الفاحشة .

لهذا، وصيانةً للأعراض من التهجم، وحمايةً لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم ، شدّد القرآن الكريم في عقوبة القذف ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا - ثمانين جلدة- مع إسقاط الشهادة، والوصم بالفسق، والعقوبة الأولى جسدية، والثانية أدبية في وسط الجماعة ويكفي أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة ، وأن يسقط اعتباره بين الناس ، ويمشي بينهم متهمًا لا يوثق له بكلام !

---

(١) فتح الباري (١٢ / ١٨٨) .

والثالثة دينية، فهو منحرف عن الإيمان، خارج عن صراطه المستقيم، والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة ، وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء ؛ وفوق الآثار التي تترتب عليها في حياة الناس وطمأنينة البيوت .

وتظل العقوبات التي توقع على القاذف ، بعد الحد ، مصلتة فوق رأسه ، إلا أن يتوب : ﴿**إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم**﴾ [النور:٥].

وقد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء : هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها ، فيرفع عنه وصف الفسق ، ويظل مردود الشهادة ؟ أم أن شهادته تقبل كذلك بالتوبة ؛ فذهب الأئمة مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق .

وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة .

وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته ، وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف ، فحينئذٍ تقبل شهادته .

وأنا أختار هذا الأخير ؛ لأنه يزيد على التوبة إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف ، وبذلك يمحى آخر أثر للقذف . ولا يقال : إنه إنما وقع الحد على القاذف لعدم كفاية الأدلة ! ولا يحيك في أي نفس ممّن سمعوا الاتهام أنه ربما كان صحيحًا ؛ ولكن القاذف لم يجد بقية الشهود ، بذلك يبرأ العرض المقذوف تمامًا ، ويرد له اعتباره من الوجهة الشعورية بعد رده من الوجهة التشريعية ، فلا يبقى هنالك داعٍ لإهدار اعتبار القاذف المحدود التائب المعترف بما كان من بهتان[1] اهـ .

وانظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل ...

---

(١) الظلال (٤ / ٢٤٩٠ - ٢٤٩١) .

رد لشهادته ومن ثبت افتراؤه سقط الوثوق بكلامه ، هذا الذي قذف بدون إثبات قد دلّ على تساهله في الشهادة ، فكان حقيقًا بأن لا يؤخذ بشهادته ، فما ظنك إذا جلد ظهره بعد ذلك مثلما ألهب ظهور الحرائر بمرّ قوله ، فكيف إذا وصفوا بقول الله فوق ذلك : ﴿ **وأولئك هم الفاسقون** ﴾ للمبالغة في شناعة فسقهم ، حتى كأن ما عداه من الفسوق لا يعد فسقًا .

حتى ولو كان رقيقًا :

قال ﷺ : « من قذف مملوكه[1] بالزنا ، يقام عليه الحد يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال »[2] .

وقال ﷺ : « من قذف مملوكه وهو بريء مما قال ، جُلد يوم القيامة حدًّا ، إلا أن يكون كما قال »[3] .

قال ابن حجر في باب قذف العبيد من فتح الباري : إن على العبد إذا قذف نصفُ ما على الحر ، ذكرًا كان أو أنثى ، وهذا قول الجمهور . وعن عمر ابن عبد العزيز والزهري وطائفة يسيرة والأوزاعي وأهل الظاهر : حده ثمانون ، وخالفهم ابن حزم فوافق الجمهور .

ثم قال : قال المهلب : أجمعوا على أن الحر إذا قذف عبدًا لم يجب عليه الحد ، ودلّ هذا الحديث على ذلك .

قلت : في نقله الإجماع نظر ، فقد أخرج عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن نافع : سئل ابن عمر عمّن قذف أم ولد لآخر فقال : يضرب الحد صاغرًا . وهذا بسند صحيح ، وبه قال الحسن وأهل الظاهر . وقال ابن المنذر : اختلفوا فيمن قذف أم ولد : فقال مالك وجماعة : يجب عليه الحد ، وهو قياس قول الشافعي بعد موت السيد ، وكذا كل من يقول : إنها عتقت بموت السيد . وعن

---

(١) عبده أو أمته .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

الحسن أنه كان لا يرى الحد على قاذف أم الولد . وقال مالك والشافعي : من قذف حرًّا يظنه عبدًا وجب عليه الحد .

أما في الآخرة :

﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة...﴾ الآيات [النور : ٢٣] .

يقول سيد قطب :

لو أفلتوا من الحد في الدنيا فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة ، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود .

يجسّم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها ؛ وهو يصوّرها رميًا للمحصنات المؤمنات وهُنَّ غافلات غارّات ، غير آخذات حذرهن من الرمية ، وهُنَّ بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئًا ، لأنهن لم يأتين شيئًا يحذرنه ! فهي جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسّة . ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة ، لعنة الله لهم ، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، ثم يرسم ذلك المشهد الأخاذ : **﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾** [النور : ٢٤] فإذا بعضهم يتهم بعضًا بالحق ، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك ! وهي مقابلة في المشهد مؤثرة ، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني . **﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾** [النور : ٢٥] ويجزيهم جزاءهم العدل ، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق ، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون: **﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾**[1] [النور : ٢٥] اهـ .

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في شهادة الألسن والأيدي والأرجل يوم القيامة : تخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى : **﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾** [فصلت : ٢١] لأن لهذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنات ، فهم ينطقون بالقذف ، ويشيرون بالأيدي إلى

---

(١) الظلال (٤ / ٢٥٠٥) .

المقذوفات ، ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس للقذف[١] .

قال ابن كثير :

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خرج مخرج الغالب - المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولاسيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق ، رضي الله عنهما .

وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - قاطبة على أنّ من سبَّها بعد هذا ، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم[٢].

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا** ... ﴾ الآية قال : في شأن عائشة ، وأزواج النبي ﷺ ، وهي مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ الآية [النور : ٢٣ - ٢٥] قال : فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهمّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسّر به سورة النور فقوله : وهي مبهمة ، أي : عامة في تحريم قذف كل محصنة ، ولعنته في الدنيا والآخرة .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم في المسلمات، فله ما قال الله عز وجل، ولكن عائشة كانت إمام ذلك.

وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح[٣].

وللشيعة لعنهم الله نصيب وافر في الخوض في عائشة - رضي الله عنها - وقد قضى العليم الخبير أن كل شكل ينضم إلى شكله ، ويفعل أفعال مثله

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٨ - ١٩ / ١٩١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٣١-٣٢) . (٣) تفسير ابن كثير (٦/٣٢-٣٣) .

﴿ **والطيبات للطيبين** ﴾ فهي زوجة أطيب الطيبين ﷺ كساها الله بهذه الآيات من الشرف ما كساها ، وحلّاها برونقه من مزايا الفضلِ ما حلّاها ، فماذا يقول القذفة الأخابث أحفاد عبد الله بن سبأ .

إنَّ القلوب لأجناد مجندة ... لله في الأرض بالأهواء تعترفُ
فما تعارف منها فهوَ مؤتلفٌ ... وما تناكر منها فهو مختلفُ

وقد ابتليت الطاهرات العفيفات من نساء المسلمين في مصْرنا بكل علماني وقح ، أو عمائم الضرار ، فيقول الواحد منهم : إنهن لا يرتدين النقاب إلا لحالة نفسية ، أو كبت سعار جنسي ..

والذي تولى كبره في عصرنا وذهب إلى مزبلة التاريخ .. قال عن النقاب : إنه خيمة ، ثم بعد ذلك أتى إلى البيوت العفيفة يلفق ويروّج قصصًا كاذبة ، عن أمير مزواج ، وفتيات ونساء ليس لهن من هدف إلا فورة اللحم ، فابتلاه الله بمن تكلم في عرضه وبيته ، بل وفي ذاته ، بما تعف عنه الألسن المؤمنة التي رطبها ذكر الله ، ولكن ما عفّت ألسن مناوئيه من الشيوعيين والعلمانيين، فأطلقوا العنان في الكلام حول شذوذ الرجل ، وتكلموا عن شواطيء مارسيليا ، وكما تدين تدان ، والجزاء من جنس العمل .

ويسخر كل أفاك دعي ... ديوث من نساء المسلمينا
ويهزأ بالحرائر بالنقاب ... ولقد لبسته أم المؤمنينا
فلستم للنقاب وليس منكم ... فذا شرف لسكن الطاهرينا
وما عرف العفاف لكم طريقا ... وفاح الطهر من بيت الأمينا
أترمي بيوت طهر يالئيم ... وبيتك من زجاجٍ هشّ لينا
فسل مارسيليا تخبرك الدواهي ... بما فعل المغني اللعينا
تراقص كل غانية بمصر ... وتشرب رجس خمر القوم طينا
وسل عنك الحشيش بكل ربع ... أو الأفيون حب المجانينا
ستدري يا خبيث إذا التقينا ... حمارًا كنت أم فرسًا هجينا

١٧ - الريـاء

قال ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلبْ ثوابه من عنده ، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك »(١) .

وقال ﷺ : « من أكل برجل مسلم أُكلة ، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ، ومن اكتسى برجل مسلم ثوبًا ، فإن الله يكسوه مثله من جهنم ، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة »(٢) .

وقال ﷺ : « من سمَّع سَمّع الله به ، ومن راءى راءى الله به »(٣) .

وقال ﷺ : « من سمّع سَمّع الله به ، وَمَنْ راءى راءى الله به ، ومَنْ شاقّ شاقّ الله عليه يوم القيامة »(٤) .

وقال ﷺ : « مَنْ يرائي يُرائي الله به ، ومَنْ يُسَمِّعْ يُسمع الله به »(٥) .

---

(١) حسن : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي سعيد بن أبي فضالة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٦ ، وتخريج الترغيب (١/٧٥) ، وتخريج المشكاة ٥٣١٨ .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والحاكم في المستدرك عن المستورد بن شداد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٥٩ ، والصحيحة رقم ٩٣١ .
ومعناه : أن يذهب إلى عدو أخيه فيتكلم في أخيه بالقبيح ليطعمه ، والأُكلة : اللقمة .

(٣) رواه أحمد في مسنده ومسلم عن ابن عباس .

(٤) رواه أحمد ، والبخاري ، وابن ماجة عن جندب .

(٥) رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨٥ .

قال المناوي :

« من يرائي » أي يظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم ، وليس هو كذلك . « يرائي الله به » أي يظهر سريرته على رءوس الخلائق ؛ ليفتضح ، أو ليكون ذلك حظه فقط .

« ومن يسمع » الناس عمله ويظهره لهم ؛ ليعتقدوه ويبرّوه .

« يسمع الله به » يوم القيامة أي يظهر للخلق سريرته ويملأ أسماعهم مما انطوى عليه جزاءً وفاقًا »[1] .

وقال ﷺ : « من سمع الناس بعمله ، سَمّع الله به مسامع خلقه ، وصغّره وحقّره »[2].

لو أن المرائي أخبر الناس بطويته لحقروه ومقتوه ؛ لأنه جعل الله أهون الناظرين إليه ، وعظم شأن المخلوقين ، فجازاه الله بجنس عمله بأن صغّره وحقّره ، جزاءً وفاقًا .

وقال ﷺ : «من قام مقام رياءٍ وسمعة راءى الله به يوم القيامة وسَمّع»[3].

وقال ﷺ : « من قام مقام رياءٍ راءى الله به ، ومَنْ قام مقام سمعة سَمّع الله به »[4] .

وقال ﷺ : « ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء إلا سمع الله به على رءوس الخلائق يوم القيامة »[5] .

---

(١) فيض القدير (٦ / ٢٤٢) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح ، وأحمد والبيهقي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٣) رواه أحمد بإسناد جيد عن أبي هند الداري ، ورواه البيهقي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن ، حسنه المنذري ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٥) صحيح: رواه الطبراني بإسناد حسنه المنذري، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/١٧).

١٨ - النفـاق

قال ﷺ : « إنَّ من شرّ الناس عند الله يوم القيامة ذا الوجهين »[1] .

وقال ﷺ : « من شر الناس ذو الوجهين ؛ الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه »[2] .

وقال ﷺ : « من كان له وجهان في الدنيا ، كان له يوم القيامة لسانان من نار »[3] .

قال المناوي :

« من كان له وجهان في الدنيا » يعني من كان مع كل واحد من عدوين كأنه صديقه ، ويعد أنه ناصر له ، ويذم ذا عند ذا ، أو ذا عند ذا ، يأتي قومًا بوجه ، وقومًا بوجه على وجه الإفساد .

« كان له يوم القيامة لسانان من نار » كما كان في الدنيا له لسان عند كل طائفة .

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي :

---

(١) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٢٢٢ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٩٣ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن عمار .
وقال المناوي : رمز السيوطي لحسنه ، وقال الحافظ العراقي سنده حسن انتهى . لكن قال الصدر المناوي : فيه شريك بن عبد الله القاضي ، وفيه مقال : نعم رواه البخاري في الأدب المفرد بسند حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٧٢.

قال الغزالي : اتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات هذه منها ؛ نَعَمْ إن جامل كل واحد منهما وكان صادقًا لم يكن ذا لسانين ، فإن نقل كلام كل منهما للآخر فهو نمّام دون لسان ، وذلك شر من النميمة .

وقيل لابن عمر : إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره ، قال : كنا نعده نفاقا على عهد المصطفى - ﷺ[1] .

فهذا نفاق إذا كان غنيا عن الدخول على الأمير والثناء عليه فلو استغنى عن الدخول فدخل فخاف إن لم يثن عليه فهو نفاق ؛ لأنه المحوج نفسه إليه ، فإن استغنى عن الدخول لو قنع بقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورتهما فهو منافق ، وهذا معنى خبر حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب ، لأنه يحوج إلى رعايتهم ومداهنتهم ، أما أنه ابتلي به لضرورة ، وخاف إن لم يثن فهو معذور فإن اتقاء الشر جائز[2] .

قال ﷺ : « تجدون الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون خير الناس في هذا الشأن[3] أشدهم له كراهية ، قبل أن يقع فيه ، وتجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين : الذي يأتي هؤلاء بوجه ، ويأتي هؤلاء بوجه »[4] .

١٩ - يقولون ما لا يفعلون

قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتًا

---

(١) لفظ البخاري (٧١٧٨) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - : أن ناسًا قالوا له : إنا ندخل على أمرائنا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم به إذا خرجنا من عندهم . قال ابن عمر : كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٠٩) .

(٣) أي الإمارة .

(٤) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد عن أبي هريرة .

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[الصف : ٢ - ٣] .

قال ﷺ : « أكثر منافقي أمتي قرّاؤها »[١] .

والمراد حافظو القرآن الذين لا يعملون به ، وأراد بالنفاق : العملي منه .

قال المناوي :

بسطه بعضهم فقال : أراد نفاق العمل لا الاعتقاد ،.ولأن المنافق أظهر الإيمان بالله له وأضمر عصمة دمه وماله ، والمرائي أظهر بعلمه الآخرة وأضمر ثناء الناس وعرض الدنيا ، والقارىء أظهر أنه يريد الله وحده ، وأضمر حظ نفسه وهو الثواب ويرى نفسه أهلًا له ، وينظر إلى عمله بعين الإجلال ، فأشبه المنافق ، واستويا في مخالفة الباطن والظاهر[٢] .

قال زبيد اليامي : أسكتتني كلمة ابن مسعود عشرين سنة ، وهي : من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه[٣] .

قال ﷺ : « أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت وفَتْ ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء؟ ، قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويقرءون كتاب الله ولا يعلمون به »[٤] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، ورواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، ورواه الطبراني في الكبير ، وابن عدي عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢١٤ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٧٥٠ .

(٢) فيض القدير (٢ / ٨٠ - ٨١) .

(٣) أقوال مأثورة وكلمات جميلة ، لمحمد لطفي الصباغ ص١٠ طبع المكتب الإسلامي ونسبها لعيون الأخبار .

(٤) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس ، وحسنه في صحيح الجامع رقم ١٢٨ .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أيْ فلان ، ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[1] .

وفي رواية البخاري في كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر : «يجاء برجل فيطرح في النار، فيطحن[2] فيها كما يطحن الحمار برحاه، فيُطيف[3] به أهل النار فيقولون : أي فلان ، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : إني كنت آمر بالمعروف ولا أفعله ، وأنهى عن المنكر وأفعله » .

وفِي رواية عاصم : « وإني كنت آمركم بأمرٍ وأخالفكم إلى غيره ».

قال هلال بن العلاء : طلب العلم شديد ، وحفظه أشد من طلبه ، والعمل به أشد من حفظه ، والسلامة منه أشد من العمل به .

يأيها الرجل المعلم غيره هلّا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذى الضنا كيما يصح به وأنت سقيمُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أسامة بن زيد .

(٢) في رواية الكشميهني : « كما يُطحن الحمار » بضم أوله على البناء للمجهول ، وفي أخرى بفتح أوله ، وهو أوجه ، وتقدم في رواية « فتندلق أقتابه فيدور كما يدور الحمار » ، وفي رواية عاصم « فيستدير فيها كما يستدير الحمار » والأقتاب جمع قِتب وهي الأمعاء ، واندلاقها خروجها بسرعة .

(٣) أي يجتمعون حوله ، يقال : أطاف به القوم إذا حلقوا حوله حلقة ، وإن لم يدوروا ، وطافوا إذا داروا حوله ، وبهذا التقرير يظهر خطأ من قال : إنهما بمعنى واحد . اهـ من فتح الباري (١٣ / ٥٦) .

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
لاتنه عن خلق وتأتي مثلـه عار عليك إذا فعلت عظيمُ

٢٠ - الغدر والمكر والخديعة

قال ﷺ : « إذا اطمأنَّ الرجل إلى الرجل ثم قتله بعد ما اطمأن إليه ؛ نصب له يوم القيامة لواء غدر »[١] .

وقال ﷺ : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة ، فيقال : ألا هذه غدرة فلان بن فلان »[٢] .

وقال ﷺ : « ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته »[٣] .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة »[٤] .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة »[٥] .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء ينصب بغدرته »[٦] .

وقال ﷺ : « لواء الغادر يوم القيامة عند استه »[٧] .

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن عمرو بن الحمق ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٤ .

(٢) صحيح : رواه الطيالسي ، وأحمد عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٤٩ .

(٣) صحيح : رواه عن أبي سعيد عن ابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٣٩ .

(٤) رواه مسلم عن أبي سعيد .

(٥) رواه أحمد والشيخان عن أنس ، وأحمد ، ومسلم عن ابن مسعود ، ومسلم عن ابن عمر .

(٦) رواه البخاري عن ابن عمر .

(٧) صحيح : رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » عن معاذ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٠٨ .

وقال ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمان له ، ولا دين لمن لا عهد له »[١] .

قال المناوي عن الغادر :

«ينصب له يوم القيامة لواء غدر» أي بعلم يعرف به في ذلك الموقف الأعظم، تشهيرًا له بالغدر على رءوس الأشهاد ، فلما كان إنما يقع مكتومًا مستورًا اشتهر صاحبه بكشف ستره لتتم فضيحته وتشيع عقوبته، وذكر في رواية أخرى أن ذلك اللواء ينصب عند استه مبالغة في غرابة شهرته وقبيح فعلته وعلى هذا فاللواء حقيقي[٢].

وقال المناوي أيضًا :

يرفع له علم يوم القيامة خلفه ، تشهيرًا له بالغدر ، وإخزاءً وتفضيحًا على رءوس الأشهاد ، ينادي عليه في ذلك المحفل العظيم : ألا إن هذه غدرة فلان أي علامة على غدرة فلان ابن فلان ، ويرفع في نسبه حتى يتميز عن غيره تمييزًا تامًّا ، وظاهره أن لكل غدرة لواء ، فيكون للواحد ألوية بعدد غدراته ، وحكمة نصب اللواء أن العقوبة تقع غالبًا بضد الذنب، والغدر خفي، فاشتهرت عقوبته بإشهار اللواء[٣].

وإنما كان اللواء عند استه ؛ لتكون الصورتان مكشوفتين : الظاهرة في الأخلاق ، والباطنة في الخلق .

وقال ﷺ : « لكلّ غادر لواء يوم القيامة ، يرفع له بقدر غدرته ، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة »[٤] .

قال الذهبي في قتال مصعب بن الزبير للمختار :

قيل : كان المختار في عشرين ألفًا . ثم إن مصعبًا أساء فأمّن بقصر الإمارة خلقًا ، ثم قتلهم غدرًا .

جاء مصعب يزور ابن عمر فقال : أي عمّ ! أسألك عن قوم خلعوا الطاعة ، وقاتلوا حتى إذا غُلبوا تحصنوا ، وطلبوا الأمان ، فأُعطوا ، ثم قُتلوا . قال : كم العدد ؟ قال خمسة آلاف . فسبح ابن عمر ، ثم قال : يا مصعب !

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٥٦.

(٢) فيض القدير (١ / ٢٨٩) . (٣) فيض القدير (٢ / ٣٧٧) .

(٤) رواه مسلم عن أبي سعيد .

لو أن امرأً أتى ماشية الزبير ، فذبح منها خمسة آلاف في غداة أكنت تعده مسرفًا؟ قال: نعم. قال: فتراه إسرافًا في البهائم، وقتلت من وحد الله، أما كان فيهم مكره أو جاهل ترجى توبته ، اصبُب يا بن أخي من الماء البارد ما استطعت في دنياك[1].

وقال رجل لمصعب : من عفا ، عفا الله عنه ، ومن قتل لم يأمن القصاص .

وقتل مصعب ...

٢١ - الخيانة

قال ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا - مع ما يدخره له في الآخرة - من قطيعة الرحم ، والخيانة ، والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم إذا تواصلوا »[2].

قال الذهبي في ترجمة « المنتصر بالله » الخليفة العباسي :

ورد عنه أنه قال في مرضه : ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة ، عاجلت أبي فعوجلتُ ، وكان يُتهم بأنه واطأ على قتل أبيه ، فما أُمهل .

وجلس مرة للهو ، فرأى في بعض البسط دائرة فيها فارس عليه تاج ، وحوله كتابة فارسية ، فطلب من يقرأ ، فأُحضر رجل ، فنظر ، فإذا فيها :... فقطّب وسكت ، وقال : لا معنى له . فألحّ المنتصر عليه ، قال : فيها : أنا شِيرَوَيْه بن كسرى بن هرمز ، قتلت أبي ، فلم أُمتّع بالملك سوى ستة أشهر . قال : فتغير وجه المنتصر ، وقام .

قال جعفر بن عبد الواحد : قال لي المنتصر : يا جعفر ، لقد عُوجِلت ، فما أُذني بأُذني ، ولا أبصر بعيني .

وقال الذهبي أيضًا عن المنتصر بالله :

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣ / ٥٤٣ - ٥٤٤) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن أبي بكرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨١ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٩١٥ ، ٩٧٦ .

تحيلوا[١] إلى أن دسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه ، فأشار بفصده ، ثم فصده بريشة مسمومة ، فمات منها .

ويقال : إن ابن طيفور نسي ومرض، وافتصد بتلك الريشة ، فهلك[٢].

والجزاء من جنس العمل .

وقال الذهبي في ترجمة « ابن هبيرة » :

قال ابن الجوزي : استيقظ وقت السحر ، فقاء ، فحضر طبيبه ابنُ رشادة ، فسقاه شيئًا ، فيقال : إنه سمه ، فمات ، وسُقي الطبيب بعده بنصف سنة سمًّا ، فكان يقول : سَقَيْتُ ، فَسُقيت . فمات .

والجزاء من جنس العمل .

٢٢ - الظلم

للظالمين يقول ابن الجوزي :

أما سمعتم منادي ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا** ﴾ أما ينذركم إعلام ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة** ﴾ أما يفصم عرى عزائمكم ﴿ **وكم قصمنا من قرية** ﴾ أما يقصر من قصوركم ﴿ **وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ أما سمعتم هاتف العبر ينادي : ﴿ **فكلًّا أخذنا بذنبه** ﴾ .

يا هذا ، ظلمك لنفسك غاية في القبح ، ألا إنّ ظلمك لغيرك أقبح ، ويحك إن لم تنفع أخاك فلا تؤذه ، وإنْ لم تعطه فلا تأخذ منه ، لا تشابهنّ الحية ، فإنها تأتي إلى الموضع الذي قد حفره غيرها فتسكنه ، ولا تتمثلنّ بالعقاب في الحيوانات أخيار وأشرار كبني آدم ، فالتقط خير الخلال وخل خسيسها[٣] .

ذهبت لذات الظالمين بما ظلموا وبقي العار ، وداروا إلى دار العقاب وملك الغيرُ الدار ، وخلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار ، فلا مغيث ولا أنيس ، ولا رفيق ولا جار .

---

(١) أي الأتراك .
(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٣-٤٥) .
(٣) المدهش لابن الجوزي ص٥٥٠ - ٥٥١.

أما علموا أن الله جار المظلوم ممن جار ، فإذا قاموا يوم القيامة زاد البلاء على المقدار ﴿ **سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار** ﴾ لا يغرنك صفاء عيشهم كل الأخير أكدار ﴿ **إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ .

قال بعض الحكماء : أعجل الأمور عقوبة وأسرعها لصاحبها سرعة ظلم من لا ناصر له إلا الله ، ومجاورة النعم بالتقصير ، واستطالة الغني علي الفقير .

ويقول الشاعر :

فإن قلْتمُ إنا ظلمنا فلم نكن ... ظلمنا ولكنَّا أسأنا التقاضيَا

وقال آخر :

تأنّ ولا تعجل وكن مترفقًا ... وكن راحمًا للناس تُبْلَى براحمِ

وقال الشاعر :

إذا جار الأمير وكاتباه ... وقاضي الأرض داهن في القضاءِ

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لقاضي الأرضِ من قاضي السماءِ

وقال أبو العتاهية :

أما والله إن الظلمَ لؤمٌ ... وما زال المسيء هو الظلومُ

إلى ديّان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ

ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غدًا عند الإله مَنِ الملومُ

قال كعب لعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما –:ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء . فقال عمر : إلا مَنْ حاسب نفسه . قال كعب : والذي نفسي بيده إنها لكذلك إلا من حاسب نفسه ، ما بينهما حرف . يعني في التوراة .

خرج عمر بن العزيز يومًا ، فقال : ما شاء الله ! كان الوليد بن عتبة بالشام ، والحجّاج بالعراق ، وقرّة بن شريك بمصر ، وعثمان بن حيّان بالحجاز ، ومحمد بن يوسف باليمن ، امتلأت الأرض ظلمًا وجورًا .

قال محمود الورّاق :

إني وهبت لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له على علمي

ورأيته أسدى إليّ يدا ... فأبان منه بجهله حلمي

رجعت إساءته عليّ له حُسْنًا فعاد مضاعف الجرمِ
وغدوتُ ذا أجر ومحمدة وغدا بكسب الذم والإثمِ
فكأنما الإحسان كان له وأنا المسيء إليه في الحكمِ
ما زال يظلمني وأرحمه حتى بكيتُ له من الظلمِ[١]

تقول العرب للمسيء المفرط في الإساءة : هذا أظلم من حيّة ، وأظلم من ذئب ، ويقولون : أظلم من ورل[٢] .

سبحان الله .

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالمٌ إلا سيُبْلَى بظالمِ

ذلك أن الورل يقوى على الحيات كلها ، ويأكلها أكلًا ذريعًا ، وكل شدة يلقاها ذو جُحر من الحية تلقى مثل ذلك من الورل .

قال ﷺ : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »[٣] .

وقال ﷺ : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة »[٤] .

قال المناوي :

الظلم : هو مجاوزة الحد والتعدّي على الخلق ، وقال الراغب : هو لغةً وضع الشيء في غير موضعه المختص به بنقص أو زيادة أو عدول عن وقته أو مكانه ، وأقبح أنواعه ظلم من ليس له ناصر إلا الله ؛ قال ابن عبد العزيز : إياك ! إياك أن تظلم من لا ينتصر عليك إلا بالله !

إن الظلم في الدنيا ظلمات على أصحابه بمعنى أنه يورث ظلمة في القلب ، فإذا أظلم القلب تاه وتحير وتجبر ، فذهبت الهداية والبصيرة ، فخرب القلب ، فصار صاحبه في ظلمة يوم القيامة ، فالظلمة معنوية ، وقيل : حسية ، فيكون ظلمه

---

(١) نزهة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (١ / ٣٦٦ - ٣٦٩) .
(٢) الورل : دابة كالضب ، أو العظيم من أشكال الوزغ ، طويل الذنب صغير الرأس .
(٣) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٠ .
(٤) رواه الشيخان، والترمذي، عن ابن عمر.

ظلمات عليه فلا يهتدي في القيامة بسببه ، وغيره من المؤمنين يسعى نوره بين يديه . وإنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب ، فإذا سعى المتقون بنورهم احتوشت ظلمات ظلم الظالم ، فغمرته فأعمته ، حتى لا يغني عنه ظلمه شيئًا[1] .

ومن أحسن ما قيل :

إذا ظالم استحسن الظلم مذهبًا ... ولجّ عُتُوًّا في قبيح اكتسابِهِ
فكله إلى ريب الزمان فإنه ... ستبدي له ما لم يكن في حسابِهِ
فكم قد رأينا ظالمًا متجبرًا ... يرى النجم تيهًا تحت ظل ركابِهِ
فلما تمادى واستطال بظلمه ... أناخت صروف الحادثات ببابِهِ
وعوقب بالظلم الذي كان يقتفي ... وصبّ عليه الله سوط عذابِهِ[2]

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين »[3] .

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة »[4]. فهي سريعة الوصول .

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنه ليس دونها حجاب »[5].

وفي حديث أحمد عن أبي هريرة مرفوعًا : « دعوة المظلوم مستجابة ولو كان فاجرًا وفجوره على نفسه » . وإسناده كما في الفتح حسن .

قال المناوي :

« اجتنبوا دعوة المظلوم » وذلك مستلزم لتجنب جميع أنواع الظلم ، على

---

(١) فيض القدير (١ / ١٣٤) . (٢) فيض القدير (٢ / ٣٦٦) .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن خزيمة بن ثابت ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٦ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٨٦٨ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع عن ابن عمر رقم ١١٧ ، والصحيحة رقم ٨٦٩ .

(٥) حسن : رواه أحمد ، وأبو يعلى في مسنده ، والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٨ .

أبلغ وجه وأوجز إشارة وأفصح عبارة ؛ لأنه إذا اتقى دعاء المظلوم لم يظلم ، فهو أبلغ من قوله : لا تظلم . وهذا نوع شريف من أنواع البديع يسمى تعليقًا .

« فإنها تحمل على الغمام » أي يأمر الله برفعها حتى تجاوز الغمام - أي السحاب الأبيض - حتى تصل إلى حضرته تقدس ؛ وقيل : الغمام شيء أبيض فوق السماء السابعة ، فإذا سقط لا تقوم به السموات السبع ، بل يتشققن قال الله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : ٢٥] وعلى هذا فالرفع والغمام حقيقة ولا مانع من تجسيم المعاني(١) .

قال ﷺ: «أشد عذابًا للناس في الدنيا- أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة»(٢).

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « أشد الناس يوم القيامة عذابًا إمام جائر »(٣) .

قال سقراط : ينبوع فرج العالم الإمام العادل ، وينبوع خرابهم الملك الجائر .

قال المناوي :

« أشد الناس » أي من أشدهم « عذابًا للناس في الدنيا » أي بغير حق « أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة » فكما تدين تدان .

وفي الإنجيل : بالكيل الذي تكتال به يكال لك .

وقضيته أن لا يكون في النار أحد يزيد عذابه عليه ، ويعارضه الأخبار الآتية عقبه ، وآية ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر : ٤٦] وأجيب بأن الناس الذين أضيف إليهم أشد لا يراد بهم كل نوع ، بل من يشاركهم في ذلك المعنى المتوعد عليه بالعذاب ، ففرعون أشد الناس الزاعمين للإلهية عذابًا ،

---

(١) فيض القدير (١ / ١٤١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن الوليد ، والحاكم في المستدرك عن عياض بن غنم وهشام بن حكيم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٠٩ .

(٣) حسن : رواه أبو يعلي في مسنده ، والطبراني في « الأوسط » وأبو نعيم في الحلية عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠١٢ .

ومن يُقتدي به في ضلالةِ كفرٍ ، أشد عذابًا ممن يقتدى به في ضلالة بدعة ؛ والإمام الجائر الذي ولايته محيطة ، أشد عذابا من حاكم بلدة أو قاضيها . ومَنْ صور صورة تعبد - كما كانت تفعل الجاهلية ، وكما يفعل النصارى - أشد عذابًا ممن صورها لغير ذلك كالزينة . وهكذا ذكره القرطبي وغيره . وإلا فإبليس أشد عذابًا من هؤلاء ومن غيرهم . وكذا قابيل ، ومن قتل نبيًّا أو قتله نبي[1].

صاح هذي غربة الحــق ووعــد الأنبيــاءْ

وسْط أجلافٍ غلاظ وسْط سجن الأشقياءْ

وضياع الصدق دهرًا وذهــاب الشرفــاءْ

وبكاء الأرض شوقًا لندى هَذِي السمــاءْ

وظهور الفسق بحــرًا وهجير الكفر جــاءْ

وخنــوع القــوم ذلًّا وانمحى صوت الإباءْ

كيف يا صاح نسيت قتل أم هتك عرض ذبح طفل ودماءْ

سب دين، لعن حبر، قذف أخت قتل شيخ رافع اليد للسمــاءْ

يا دمائي لست مني إن جهلتِ أن ليل الكفر قبر الأتقيــاءْ

إن جهلتِ أنّ قومي ضيعوا عهــدًا وفجــرًا ضيعــوا أغلى نــداءْ

إن جهلت أنّ داري غبت عنها بلد الأبرار داري وهي مأوى الأنبياءْ

وغريب الدار لا ينسى جنانــا فاح فيها الطهر عطرًا .والضياءْ

جنة الفردوس قد هاج حنيني لــرؤى الحور ولقيا الشهــداءْ

سنة الرحمن في الناس ابتــلاء فلتخضبْ يا إلهي نحري الفاني الدماءْ

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا »[2] . والجزاء من جنس العمل .

وراوي هذا الحديث هو هشام بن حكيم ، ولما مرّ على أناس من الأنباط قد

---

(١) فيض القدير (١ / ٥١٦ - ٥١٧) .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود عن هشام بن حكيم ، وأحمد والبيهقي في الشعب عن عياض بن غنيم . وقال العراقي : إسناد أحمد صحيح .

أقيموا في الشمس ، وصُب على رءوسهم الزيت ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : يعذبون في الخراج أو الجزية. فقال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول.. وساقه[1].

فكيف بمن يعذب المسلمين !!!

إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا فكيف بمن يحبس المسلمين؟!

إن من عذب الناس عذّبه الله ، ﴿ **لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ [الفجر : ٢٥ - ٢٦] إن عذاب الله يتكلم ..

إن عذاب الله شديد ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ [الفرقان : ١٢] ﴿ **تكاد تميز من الغيظ** ﴾ [الملك : ٨] .

إن أسير الدنيا يومًا من الأيام تفك قيوده وتفصم كبوله ، أما أسير الآخرة فهو الأسير حقا ﴿ **إن لدينا أنكالًا وجحيمًا** ﴾ [المزمل : ١٢] ﴿ **خذوه فغلوه** ﴾ [الحاقة : ٣٠] ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ [الرحمن: ٤١].

سلسلة تجمع ما بين الناصية والقدم من الخلف .

جمع النواصي مع الأقدام صيّرهمْ ... كالقوس محنية من شده الوترِ

جزاءً وفاقًا بما عملوه وما فعلوه بالموحدين في دار الدنيا .

إن كنت لم تسمعْ فسلْ عما جرى ... مثلي ولا ينبيك مثل سجينِ

واسأل ثرى «الحربىّ» أو جدرانه ... كم من كسير فيه أو مطعونِ

وسل «العروسة» قُبّحت من عاهر ... كم من جريح عندها وطعينِ

واسأل «زنازين» الجليد تجبك عن ... فن العذاب ، وصنعةِ التلقين

بالنار أو بالزمهرير فتلك في ... حين ، وهذا الزمهرير بحينِ

يُلقى الفتى فيه ليالَي عاريًا ... أو شبه عارٍ في شتا «كانونِ»

وهناك يملي الاعتراف كما اشتهوا ... أوْلا ، فويل مخالف وحَرونِ

وسل «المقطم» وهو أعدل شاهد ... كم من شهيد في التلال دفينِ

قتلته طغمة مصر أبشع قتلة ... لا بالرصاص ولا القنا المسنونِ

---

(١) فيض القدير (٢ / ٣٠٤) .

بل علقوه كالذبيحة هُيئت للقطع والتمزيق بالسكينِ
وتهجدوا فيه ليالِيَ كلها جلد ، وهم في الجلد أهل فنونِ
فإذا السياط عجزن عن إنطاقه فالكي بالنيران خير ضمينِ
ومضت ليالي والعذاب مُسجَّر لفتى بأيدي المجرمين رهينِ
لم يعبئوا بجراحه وصديدها لم يسمعوا لتأوّهٍ وأنينِ
وجرى الدم الدفّاق يسطر في الثرى يا إخوتي ! استشهدت فاحتسبوني
لا تحزنوا ، إني لربي ذاهب أحيا حياة الحر لا المسجونِ
قولوا لأمي لا تنوحي واصبري أنا عند خالقي الذي يهديني
أنا إن حرمت وداعكم لجنازتي فملائك الرحمن لم يدعوني
إن لمْ يصلّ عليّ في الأرض امرؤٌ حسبي صلاتهم بعليين
وإذا حرمت العُرس في الدنيا فلي ما شئت فيها من حسانٍ عينِ
أماه حسبك أن أموت معذبًا في الله لا في شهوة ومجونِ

ويقول في موضع آخر :

أعرفت ما قاسيتُ في زنزانة كانت هي القبر الذي يؤويني ؟!
لا بل ظلمت القبر ، فهو لذي التقى روض، وتلك جحيم أهل الدينِ!
هي في الشتاء وبرده «ثلاجة» هي في هجير الصيف مثل أتونِ
نُلقى ثمانية بها أو سبعة متداخلين كعلبة السردينِ
هي منتدانا وهي غرفة نومنا وهي «البوفيه» وحجرة «الصالونِ»
هي مسجد لصلاتنا ودعائنا هي ساحة للعب والتمرينِ
وهي «الكنيف» وللضرورة حكمها ما الذنب إلا ذنب من سجنوني
هي كل مالي في الحياة فلم يعد في الكون ما أرجوه أو يرجوني
الأرض كل الأرض عندي أرضها أما السماء فسقفها يعلوني
فيها انقطعت عن الوجود فلم أعد أعنيه في شيء ولا يعنيني
لا أعرف .... عن دنيا الورى إلا من الأحلام لو تأتيني

ويقول :

من أجل ضبط وريقة أو إبرة ... ولغير شيء طالما استاقوني
وتجمعوا حولي ضواري همها ... نهشي .. وما لي حيلة تنجيني
إن نمت توقظني السياط سريعة ... فالنوم ليس يباح للمسجونِ !
وإذا تحدثنا لنذهب بالكرى ... حظروا الحديث عليّ كالأفيون
وإذا تلونا في المصاحف حرّموا ... حمل المصاحف وهي خير قرينِ
هذي سياستهمْ وتلك عقولهمْ ... عيشوا بغير تحرك وسكون !
إياكمو أن تشتكوا أو تألموا ... موتوا بغير توجع وأنينِ !
سدوا عليّ الباب كي أخلو إلي ... كتبي فلي في الكتْب خير خدينِ
وخذوا الكتاب، فإن أنستي مصحفٌ ... أتلوه بالترتيل والتلحينِ
وخذوا المصاحف، إن بين جوانحي ... قلبا بنور يقينه يهديني
الله أسعدني بظل عقيدتي ... أفيستطيع الخلق أن يشقوني ؟!
قالوا كِذَابًا : دعوة رجعية ... معزولة عن قرنها العشرينِ
الناس تنظر للأمام ، فما لهم ... يدعوننا لنعود قبل قرونِ
رجعية أنّا نغار لديننا ! ... ونقوم بالمفروض والمسنونِ
رجعية أنا نصون حريمنا ! ... بئس الحريم يكون غير مصونِ
رجعية أنا نذرنا أنفسًا ... لله تحيا ، لا لعيش دونِ !
رجعية أنا نربي جندنا ... للحق ، لا لتفاهة ومجونِ !
رجعية أن الرسول زعيمنا ! ... لسنا الذيول لـ «ماركس» و «لِنين»
رجعية أن الجهاد سبيلنا ... نعم الجهاد ذريعة التمكينِ
رجعية أن يحكم الإسلام في ... شعب يرى الإسلام أعظم دين!
أو ليس شرع الله ، شرع محمد ... أولى بنا من شرع نابليونِ ؟!
يارب ! إن تكُ هذه رجعية ... فاحشرنِ رجعيًّا بيوم الدينِ[1]

يقول رئيس دولة عربية لصحيفة السياسة الكويتية : أنا المعتقل الوحيد

---

(١) نونية القرضاوي .

في ... والجزاء من جنس العمل .

ثم يشرح ما يقصده قائلًا : أي واحد يتم اعتقاله لمدة ١٥ يومًا إذا ارتكب شيئًا ما .

أنا المعتقل الوحيد مدى الحياة، لا أستطيع الخروج إلا بحراسة، فقدت حريتي الشخصية، حقيقة أنا أجهدت تمامًا طيلة هذه الفترة[1]. والجزاء من جنس العمل.

قال ﷺ : « بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا ، البغي والعقوق » .

يقول سجين موحد :

إنْ كنت يا زنزان قد حرمتني ... من أنس أحبابي ومن أصحابي
أو كنت يا زنزان قد غيبتني ... عن مجلس الأخيار من أترابي
أو حزّ في نفسي فراق عشيرة ... أو هاجني الأشواق للأحبابِ
فلقد وجدت لديك خير أحبة ... من كل تالٍ قانت أوّاب
ووصلتني بالله في غسق الدجى ... أغفو لدى القيوم في محرابي
وجعلت زادي في النهار تلاوة ... من خير هدي للورى وكتابِ
إن كان حجمك في الحقيقة ضيقًا ... فلأنت في نفسي أعز رحابِ

ويقول آخر :

في ساعة السحر الجميـ ... ـل أتوا وقد كنا رقودْ
سرقوا الصلاة من المكا ... ن الحق في وقت السجودْ
سرقوا الأحاديث التي ... قد قالها خير الوجودْ
فلتسرقوا كتبي خذو ... ها واحرقوا بحثًا مفيدْ
أوْ راقبوا طفلًا صغيـ ... ـرًا هدّدوا هذا الوليد
روسية ماذا جنيـ ... ـتم بعدها غير الجمود
ماذا جنيتم واسألوا ... سيتا وأسلاك الحدودْ

---

(١) جريدة الشعب الصفحة الرابعة عشرة الثلاثاء ١١ جمادى الآخرة سنة ١٤١٢، ١٧ ديسمبر ١٩٩١ تحت عنوان أولاد البلد .

نحن يا مقداد أوفى للعقيـــدة بالعهـــودْ
بالعقيـدة سوف نمضي إخـوة حتـى نعـودْ
قالوا ستخرج من هنا وارجعْ فقبلتُ القيودُ
إنـي بغيـر عقيدتـي أحيـا كشيطَان مريدْ

وكتب آخر على لسان سجين في ليلة تنفيذ إعدامه :

أبتاه ماذا قد يخط بنانـي والقيـد والجلّاد ينتظرانـي
لم تبق إلا ليلة أحيا بهـا وأحس أن ظلامها أكفانـي
ستمـر لست أشك فـي هذا وتحمل بعدها جثمانـي
أبتاه إن طلع الصباح على الدنا وأضاء نور الشمس كل مكانِ
واستقبل العصفور بين غصونه يومًا جديدًا مشرق الألـوانِ
وسمعت أنغام التفاؤل ثـرة تجرى على فم بائع الألبانِ
وأتى يدق كما تعوّد بابنـا سيدق باب السجن جلّادانِ
وأكون بعد هنيهة متأرجحـا في الحبل مشدودًا إلى العيدانِ
ليكن عزاؤك أن هذا الحبل ما صنعته في تلك الربوع يدانِ
صنعوه في بلد يشع حضارة وتفيض منه مناهل العرفـانِ
أو هكذا زعموا وجيء به إلى بلد الجريح على يد الأعوانِ
وإذا سمعت نشيج أمي في الدجى تبكي شبابًا ضاع في الريعانِ
وتكتِّم الحسرات في أعماقها ألمًا تواريه عـن الجيـرانِ
فاطلب إليها الصفح عنى إنني لا أرتجي منها سوى الغفرانِ
ما زال في سمعي رنين حديثها ومقالها فـي رقـة وحنـانِ
أبنيّ إني قد غدوت عليلـة لم يبق لي جلد على الأحزانِ
فأذق فؤادي فرحة بالبحث عن بنت الحلال ودعك من عصياني
كـانت لهـا أمنيّـة مرجـوة يا حسن آمال لها وأماني
وإلى لقاء تحت ظل عدالة قدسيـة الأحكـام والميـزانِ

يقول ابن الجوزي :

اعلم أن الجزاء بالمرصاد ، إن كانت حسنة أو كانت سيئة .

ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح ، وربما جاءت العقوبة بعد مدة .

وقلّ من فعل ذنبًا إلا قوبل عليه ، قال الله عز وجل ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ [النساء : ١٢٣] .

آدم لم يسامح بلقمة ، ودخلت النار امرأة في قطة .

وأنت ....

تصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجي درج الجنان ونيل فوز العابدِ
ونسيت أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحدِ

يونس عليه السلام خرج عن قومه بغير إذنه، فالتقمه الحوت .

ونظر بعض العباد شخصًا مستحسنًا فقال له شيخه : ما هذا النظر ؟ ستجد غبّه . فنسي القرآن بعد أربعين سنة .

وقال آخر : قد عبت شخصا قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت بعض أسناني ، ونظرت إلى امرأة لا تحلّ لي ، فنظر إلى زوجتي من لا أريد .

وكان بعض العاقين ضرب أباه وسحبه إلى مكان ، فقال له الأب : حسبك إلى هاهنا سحبت أبي .

وقال ابن سيرين : عيرت رجلًا بالإفلاس فأفلست . ومثل هذا كثير من أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام ، أن المقتفي غضب عليه ، وأمر بأن يؤخذ منه عشرة آلاف دينار فقال : ما يؤخذ مني عشرة ، ولا خمسة ، ولا أربعة . قالوا : من أين لك ؟ قال : إني ظلمت رجلا فألزمته ثلاثة آلاف دينار ، فما يؤخذ مني أكثر منها . فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخليفة بإطلاقه ومسامحته في الباقي .

وأنا أقول عن نفسي : ما نزلت بي آفة ، أو غمّ ، أو ضيق صدر إلا بذنب أعرفه حتى يمكنني أن أقول : هذا بالشيء الفلاني .

فينبغي للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب ، فقلّ أن يسلم منه فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم ، ثم آثر لذة المعصية لحظة[1] .

وهذه قصة واقعية من أيامنا هذه ، ترسلها زوجة إلى جريدة الأهرام ، ونشرها محرر « بريد الجمعة » عبد الوهاب مطاوع في مقاله تحت عنوان « الضوء الأخير ! » .

دفعني للكتابة إليك بيتا الشعر اللذان قرأتهما في ردك على إحدى الرسائل ويقولان :

إنما الدنيا هبات　　وعوار مستردّهْ
شدة بعد رخاء　　ورخاء بعد شدهْ

فأردت أن أروي لك قصتي عسى أن تكون عبرة لغيري . فأنا زوجة وأم لفتاة بالسنة النهائية بإحدى الكليات النظرية ولابن شاب متزوج وَلَدَيْه طفلان ، وزوجي ضابط عسكري بالمعاش ، ونعيش في أحد أحياء القاهرة ، ومنذ أن بدأت حياتي مع زوجي ونحن نعيش حياة رغدة ، وقد استعنت طوال حياتي الزوجية على تربية أولادي بمربيات عديدة ، لا أتذكر عددهن من كثرتهن ، ولا عجب في ذلك ، فقد كانت كل واحدة منهن لا تمكث عندي أكثر من شهرين ، ثم تفرّ من قسوة زوجي العدواني بطبعه ، والذي لا أعرف هل اكتسب عدوانيته هذه خلال رحلة حياته أم أنها وراثية فيه ، فقد كان يتفننُ في تعذيب أي مربية تعمل عندنا ، ولا أنكر أني شاركته في بعض الأحيان جريمته .

ومنذ خمسة عشر عامًا ، وابنتي في السابعة من عمرها ، وابني في المرحلة الاعدادية جاءنا مزارع من معارف زوجي ، ومن أبناء بلدته ، يصطحب معه ابنته الطفلة ذات الأعوام التسعة ، فاستقبله زوجي بكبرياء وترفع . وقال المزارع

---

(١) صيد الخاطر .

البسيط : إنه أتى بابنته لتعمل عندنا مقابل عشرين جنيهًا في الشهر ووافقنا ، وترك المزارع المكافح طفلته الشقراء ، فانخرطت الطفلة في البكاء ، وهي تمسك بجلباب أبيها ، وتستحلفه ألا يتأخر عن زيارتها ، وألا ينسى أن يسلم لها على أمها وإخوتها ، وانصرف الرجل دامع العينين ، وهو يعدها بما طلبت . وبدأت الطفلة حياتها الجديدة معنا ، فكانت تستيقظ في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ طفلاي لتساعدني في إعداد طعام الإفطار لهما ، ثم تحمل الحقائب المدرسية ، وتنزل بها إلى الشارع ، وتظل واقفة مع ابنتي وابني حتى يحملهما أتوبيس المدرسة ، وتعود للشقة فتتناول طعام إفطارها وكان غالبًا من الفول بدون زيت ، وخبز على وشك التعفن ، وفي بعض الأحيان قد نجود عليها بقليل من العسل الأسود أو الجبن ، ثم تبدأ في ممارسة أعمال البيت من تنظيف وشراء الخضر والمسح ، وتلبية النداءات حتى منتصف الليل ، فتسقط على الأرض كالقتيلة وتستغرق في النوم . وعند أي هفوة أو نسيان أو تأجيل أداء عمل مطلوب ينهال عليها زوجي ضربا بقسوة شديدة ، فتتحمل الضرب باكية صابرة ، ورغم ذلك فقد كانت طفلة في منتهى الأمانة والنظافة والإخلاص لمخدوميها ، تفرح بأبسط الأشياء ، وتغني غناءً حزينا خافتا يعبر عن شوقها لبلدتها وأمها وإخوتها وهي تغسل الأطباق ، ورغم اعترافي بأني كنت شريكة لزوجي في قسوته على الخادمات ، وتفننه في تعذيبهن ، حتى أنه كان أحيانا يختلق الأسباب لضرب أي خادمة تعمل عندنا ، إلا أنه كانت تأخذني الشفقة في بعض الأحيان بهذه الفتاة ، لطيبتها ، وانكسارها وإخلاصها ، فأناشد زوجي ألا يضربها ، وأقول له : إنها قد كبرت وتعوّدت على طباعنا ، وتحمّلتنا كثيرًا فلا داعي للاستمرار في ضربها ، فكان يقول لي مقهقها : إنه لو لم يضربها فإنها ستطلب منه أن يضربها ؛ لأنها قد تعوّدت عليه ، وأن هذا « الصنف » من الناس لا تجدي معه المعاملة الطيبة ، واستمرت الفتاة تتحمل العذاب في صمت وصبر ، وأتذكر الآن بأنني حين كان العيد يأتي ويخرج طفلاي مبتهجين مهللين ، بينما تبقى هذه الطفلة التي تماثلهما في العمر تنظف وتغسل دون شفقة ، وبعد أن تنتهي من أعمالها الشاقة ترتدي فستانًا قديمًا لكنه نظيف ، لأنها

كانت تحرص على نظافة ملابسها البسيطة ، أما أبوها فلم تره تلك الطفلة إلا مرات معدودة بعد عملها عندنا ، فقد انقطع عن زيارتها بعد شهور ، وبدأ يرسل أحد أقاربه لاستلام أجرتها الشهرية ، كما لم تر أمها وإخوتها إلا في ثلاث مناسبات محددة ، الأولى حين مات شقيقها الأكبر في حادث عند عودته من الأردن ، وكانت الفتاة المحرومة تعلق أملًا كبيرًا على عودته ، وتحلم بأن ينتشلها من العذاب الذي تعانيه عندنا ، فإذا به يلقى مصرعه ، وتفقد آخر أمل لها فبكته بحرقة وسرًّا حتى لا يراها زوجي ، فتلقى عقابًا على يديه .

والمرة الثانية لم تكن تعطفا منا عليها ، وإنما كانت تخلصًا منها في الحقيقة فقد كانت مريضة بمرض معدٍ ، وخشينا على طفلينا من انتقال العدوى إليهما ، فأبعدناها إلى بلدتها بحجة أن ترى أمها وإخوتها .

وكانت المرة الثالثة عند وفاة أبيها بعد أن دخلت مرحلة الصبا ، واستقر الحزن والانكسار في قلبها .

وأرجو أن تصدقني يا سيدي ، إذ ليس لديّ ما يبرر أن أدعي شيئًا غير صادق ، وأنا كتبت لك بإرادتي ، إذا قلت أني أبكى الآن كلما تذكرت قسوة عقابنا لها إذا أخطأت أي خطأ ، وكان لابد أن تخطىء ، كأي طفلة ، وكأي إنسان ، فقد كان زوجي يصعقها بسلك الكهرباء ! وكثيرًا ما حرمناها من وجبة العشاء في ليالي البرد القاسية ، فباتت على الطوى جائعة . ولا أتذكر أنها نامت ليلة لمدة سنوات طويلة دون أن تبكي !

وسوف تتساءل ولماذا تحملت كل هذا العذاب ولم تهرب بجلدها من جحيمكم ؟ وأجيبك بأن الفتاة حين قاربت سن الشباب خرجت ذات يوم لشراء الخضروات ولم تعد ، فسأل زوجي البواب عنها ، وعرف إنها كانت تتحدث لفترات طويلة مع شاب يعمل لدى جزّار بنفس الشارع ، وأنه من المحتمل أن تكون قد اتفقت معه على أن يتزوجها وينتشلها من هذه الحياة ، فلم يمض أسبوع حتى كان نفوذ زوجي قد تكفل بإحضارها من مخبئها ، واستقبلناها عند عودتها استقبالًا حافلًا بكل أنواع العذاب، فقام زوجي بصعقها بالكهرباء، وتطوّع

ابني بركلها بعنف ، بينما بكت ابنتي وهي تقول لأبيها : حرام يا بابا حرام .. حرام .. ففقد سيطرته على نفسه واستدار إليها وضربها هي أيضًا ، وكانت المرة الأولى في حياتها التي يضربها فيها أبوها !

وعادت الفتاة لحياتها الشقية معنا ، واستسلمت لمصيرها ، واستمر الوضع كما كان عليه ، تخطيء أو تؤجل عمل شيء بعض الوقت ، فيضربها زوجي ضربًا مبرّحا ، ونخرج في الأجازات إلى منطقة الأهرامات لنستمتع بشيء من اللحم ، ونترك لها بقايا طعام الأسبوع لتأكله .. إلخ ثم شيئًا فشيئًا بدأنا نلاحظ عليها أن الأكواب والأطباق تسقط من يديها ، وأنها تتعثر كثيرًا في مشيتها ، فعرضناها على الطبيب فأكّد لنا أن نظرها قد ضعف جدًّا ، وأنه ينسحب تدريجيا ، وأنها لا ترى حاليًا ما تحت قدميها ، أي أنها أصبحت شبه كفيفة ، ورغم ذلك فلم نرحمها ، وظلت تقوم بكل أعمال نظافة المسكن ، وتخرج لشراء الخضر كما كانت تفعل ، بل وكثيرًا ما صفعتها إذا عادت من السوق بخضروات ليست طازجة وكثيرًا ما كانت تفعل لضعف بصرها الشديد ، فأشفقت عليها زوجة البواب ، فكانت تجلسها في مدخل العمارة وتذهب هي لشراء الخضروات لها ، حتى تنقذها من الإهانة والضرب ، واستمر الحال هكذا لفترة من الزمن ، ثم خرجت الفتاة ذات يوم من البيت بعد أن أصبحت كفيفة تقريبًا ، ولم تعد إليه مرة أخرى ، ولم نهتم بالبحث عنها هذه المرة .

ومضت السنوات فأحيل زوجي للتقاعد ، واستقبل حياة الفراغ ، وفقد المنصب والنفوذ – أسوأ استقبال فتضاعفت عصبيته وثوراته ، وانفلاتاته إلى حد غير محتمل ، ومع ذلك فقد تحملته بسبب عشرة السنين .

وتخرج ابني في الجامعة وعمل ، ثم أراد أن يخطب إحدى زميلاته ، فخطبناها له ، وهي فتاة رائعة الجمال ، وتزوجها وسعدنا بها واكتملت سعادتنا حين عرفنا أنها حامل ، ثم جاءت اللحظة السعيدة ، ووضعت مولودها فإذا بنا نكتشف لصدمتنا القاسية أنه كفيف لا يبصر ، وتحوّلت الفرحة إلى سحابة كثيفة من الحزن القاتم ، وبدأنا الرحلة الطويلة مع الأطباء بلا فائدة ، واستسلم ابني

وزوجته للأمر الواقع ، وانطفأ الأمل في قلبيهما ، وأدخلنا حفيدنا الموعود بالعناء حضانة للمكفوفين ، وقررت زوجة ابني ألا تحمل مرة أخرى خوفًا من تكرار الكارثة ، لكن الأطباء طمأنوها إلى أن هذا مستحيل ؛ لأنه لا توجد صلة قرابة بينها وبين زوجها تؤكد العوامل الوراثية ، وشجعوها على الحمل وإنجاب طفل آخر يعيد البسمة إلى حياتها وزوجها ، وشجعناها نحن أيضًا على ذلك على أمل أن يرزق ابننا بطفل طبيعي يخفف من حزنه وصدمته في طفله الأول . وحملت زوجة ابني ، وأنجبت طفلة جميلة شقراء انزلت إلى الحياة ، فتوقفت قلوبنا حتى زفّ الطبيب البشري بأنها ترى وتبصر ، كالأطفال العاديين ، وسعدنا بها سعادة مضاعفة ، وانهالت عليها وعلى شقيقها اللعب والملابس والهدايا ، وبعد سبعة شهور ، لاحظنا عليها أن نظرها مركز في اتجاه واحد لا تحيد عنه ، فعرضناها على أخصائي عيون للاطمئنان على سلامة عينيها ، فإذا به يصدمنا بحقيقة أشد هولا ، وهي أنها لا ترى إلا مجرد بصيص من الضوء ، وأنها معرضة أيضًا لفقد بصرها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ورأى زوجي ذلك ، فأصيب بحالة نفسية فسدت معها أيامه ، وكره كل شيء ، ثم تطورت حالته حتى نصحنا الطبيب بإدخاله مصحة نفسية لعلاجه من الاكتئاب ، وانقبض قلبي ، وأحسست بهموم الدنيا تطأ صدري بقسوة ، وفي ضيقي وأحزاني تذكرت فجأة الفتاة الكسيرة التي هربت من جحيمنا كفيفة بعد أن أمضت معنا عشر سنوات ذاقت خلالها أهوال الصعق بالكهرباء والضرب والهوان والحرمان ، وساءلت نفسي في جزع هل هذا عقاب السماء لنا على ما فعلنا بها ؟

وأصبحت صورة هذه الفتاة اليتيمة التي أهملنا علاجها وتسببنا في كف بصرها تطاردني في وحدتي ، وتعلق أملي في عفو ربي عما جنينا في أن أجد هذه الفتاة ، وأكفر عما فعلنا بها ، ورحت أسأل الجميع حتى دلنا أحد الجيران إلى مكانها ، وعلمنا أنها تعمل خادمة بأحد المساجد ، فذهبت إليها وأحضرتها لتعيش معي ما بقي لي من أيامي ، ورغم كل قسوة الذكريات فقد فرحت بسؤالي عنها وسعيي إليها لإعادتها ، وحفظت العشرة التي لم نحفظها ، وعادت معي تتحسس

الطريق وأنا أمسك بيدها . وفرحت بسماع صوت ابنتي الشابة التي طالما أحبتها هذه الفتاة الطيبة في طفولتها وصباها ، وبسماع صوت ابني الذي عرف الهمّ طريقه إلى قلبه ، واستقرت الفتاة معنا ، وأصبحت أرعاها بل وأخدمها هي وحفيديّ الكفيفين .. وأملي ودعائي لربي أن يغفر لي ما كان ، وأن أقول لمن نضبت الرحمة من قلوبهم : إن الله حيّ لا ينام ، فلا تقسوا على أحد فسوف يجيء يوم تطلبون فيه الرحمة من أرحم الراحمين ، وتندمون على ما فعلتم في قوتكم وجبروتكم ..

هذه هي قصتي يا سيدي التي دفعني بيتا الشعر اللذان قرأتهما في ردك لأن أرويها لك ، وأرجو أن يقرأها الجميع ويعتبروا بما فيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1] .

ثم رد المحرر عبد الوهاب مطاوع على هذه معلقًا :

وهكذا كان الجزاء دائمًا من جنس العمل ، ومع ذلك فما أكثر الخطايا والآثام ، وما أقل الاعتبار .

وأخرى مثلها من الواقع عن رجل كفيف رأس من رءوس المبتدعة في قرية من محافظتنا ، لا همّ عنده إلا محاربة السنة جهلًا منه وعنادًا .

تواترت أقوال أهل قريته أن هذا الرجل كُفّ بصره في سن متأخرة ، وأنه كان يذهب إلى الموالد ، ويمزح مع إخوانه في شبابه ، ويرميهم بالطعام في وجوههم . وكان شابًا جلدًا ، وكانت أمه تعمل بتجارة البيض وجمعه من القرى ، وهي كفيفة ، وتحتاج إلى مساعدته ، تستند عليه ، ويُريها الطريق ، لأنه كان سليم البصر ، فكان يهزأ بها ويأتي بها في الطريق ويوهمها بأن حفرة تصادفها في الطريق ، ويأمرها بالوثوب فتقفز المسكينة فتقع على الأرض ، فدعت عليه ، فكف بصره جزاءً وفاقًا والجزاء من جنس العمل .

ومن الجزاء من جنس العمل في هذا الباب ما رواه الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء عن طارق بن زياد ومولاه موسى بن نصير - رحمهما الله :

(١) جريدة الأهرام - بريد الجمعة الصفحة ١٦ تاريخ ١٥ / ١ / ١٩٩١ .

فقد كان طارق بن زياد مولى لموسى بن نصير ، وكان أميرًا على طنجة بأقصى المغرب ، فبلغه اختلاف الفرنج واقتتالهم ، وكاتبه صاحب الجزيرة الخضراء ليمده على عدوه ، فبادر طارق وعَدّى في جنده ، وهزم الفرنج ، وافتتح قرطبة ، وقتل صاحبها لذريق ، وكتب بالنصر إلى مولاه ، فحسده على الانفراد بهذا الفتح العظيم ، وتوعَّده ، وأمره ألَّا يتجاوز مكانه ، وأسرع موسى بجَيوشه فتلقاه طارق ، وقال : إنما أنا مولاك ، وهذا الفتح لك ، فأقام موسى ابن نصير بالأندلس سنتين يغزو ويغنم وقبض على طارق ، وأساء إليه ، ثم استخلف على الأندلس ولده عبد العزيز بن موسى .

قال الذهبي عن موسى بن نصير : استخلف ابنه بأفريقية ، وأخذ معه مائة من كبراء البربر ، ومائة وعشرين من الملوك وأولادهم ، فقدم مصر في هيئة ما سُمِع بمثلها ، فوصل العلماء والأشراف ، وسار إلى الشام ، فبلغه مرض الوليد ، وكتب إليه سليمان يأمره بالتوقف ، فما سمع منه ، فآلى سليمان إنْ ظفر به ليصلبنه، وقدم قبل موت الوليد ، فأخذ ما لا يحد من النفائس، ووضع باقيه في بيت المال ، وقُوِّمت المائدة بمائة ألف دينار .

وولي سليمان فأهانه ، ووُقِّف في الحر – وكان سمينا – فغشي عليه . وبقي عمر بن عبد العزيز يتألم له ، فقال سليمان : يا أبا حفص ! ما أظن إلا أنني خرجت من يميني[1] .

وجاء في سير أعلام النبلاء ، عن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، عمّ السفّاح المنصور :

كان بطلًا شجاعًا مهيبًا ، جبارًا عسوفًا ، سفاكًا للدماء . به قامت الدولة العباسية . سار في أربعين ألفًا أو أكثر ، فالتقى بالخليفة مروان بقرب الموصل فهزمه، ومزّق جيوشه، ولجّ في طلبه، وطوى البلاد حتى نازل دار الملك دمشق، فحاصرها أيامًا ، وأخذها بالسيف .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٦- ٥٠٢) .

وقتل بها إلى الظهر نحوًا من خمسين ألف مسلم من الجند وغيرهم، ولم يرقب فيهم إلّا ولا ذمة ، ولا رعى رحمًا ، ولا نسبًا . ثم جهّز في الحال أخاه داود بن علي في طلب مروان ، إلى أن أدركه بقرية بوصير من بلاد مصر ، فبيّته ، فقاتل المسكين حتى قُتل . وهرب ابناه إلى بلاد النوبة ، وانتهت الدولة الأموية .

ولما مات السفّاح ، زعم عبد الله أنه وليّ عهده ، وبايعه أمراء الشام ، وبويع المنصور بالعراق ، وندب لحرب عمه صاحب الدعوة أبا مسلم الخراساني ، فالتقى الجمعان بنصيبين ، فاشتد القتال وقتلت الأبطال ، وعظم الخطب ، ثم انهزم عبد الله في خواصه ، وقصد البصرة فأخفاه أخوه سليمان مدة ، ثم ما زال المنصور يلح حتى أسلمه ، فسجنه سنوات ، فيقال : حَفَر أساس الحبس ، وأرسل عليه الماء ، فوقع على عبد الله في سنة سبع وأربعين ومائة . فالأمر لله[1].

والجزاء من جنس العمل .

وكان سالم بن حامد نائب دمشق للمتوكل ، كان ظلومًا عسوفًا ، شدّ عليه طائفة من أشراف العرب ، فقتلوه بباب دار الإمارة يوم جمعة سنة بضع وثلاثين ومائتين ، فبلغ المتوكل فتنمّر ، وقال : مَنْ للشام في صولة الحجّاج ؟ فندب أفريدن التركي ، فسار في سبعة آلاف فارس . ورخص له المتوكل في بذل السيف ضحوتين ، وفي نهب البلد . فنزل ببيت لِهْيا[2]. فلما أصبح قال : يا دمشق ، أيش يحلُّ بك اليوم مني ، فقُدمت له بغلة دهماء ليركبها ، فضربته بالزوج على فؤاده فقتلته ، وردّ عسكره إلى العراق[3] .

وانظر إلى جزاء الظالمين وكيف كان من جنس عملهم ، يلوح واضحًا جليًّا في سيرة ومصير الخليفة العباسي القاهر بالله .

قال الذهبي :

كان فيه شر وجبروت وطيش ، بايعوه بعد المقتدر ، فصادر حاشية أخيه

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦ / ١٦١ - ١٦٢) .
(٢) قرية بغوطة دمشق .
(٣) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٦٢) .

وعذّبهم ، وضرب أم المقتدر بيده ، وهي عليلة ، ثم ماتت معلقة بحبل ، وعذّب أم موسى القهرمانة ، وبالغ في الإساءة ، فنفرت منه القلوب ، وقُبض على شيخ الحنابلة البَرْبَهَاري . ونهب القاهر دور مخالفيه ، وطيّن على ولد أخيه المكْتَفي بين خيطين ، ونادى بتحريم الغناء والخمر ، وكسر الملاهي ، وهو مع ذلك يشرب المطبوخ والسلاف ، ويسكر ويسمع القينات . وقتل أبا السرايا ابن حمدان ، وإسحاق النوبختي ألقاهما في بئر ، وطُمّت ؛ لكونهما زايداه في جارية قبل الخلافة . ثم خُلع وأكحل بمسمار لسوء سيرته وسفكه الدماء .

قال الصولي : كان أهوج ، سفاكًا للدماء ، كثير التلوّن ، قبيح السيرة ، مدمن الخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل ، وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل إنسانًا .

قال المسعوديّ : أخذ من مؤنس وأصحابه أموالًا كثيرة . فلما خلع طُولب بها فأنكر. وقف يومًا بالجامع بين الصفوف، وعليه جبة بيضاء، وقال: تصدقوا عليّ فأنا مَنْ قد عرفتم[١] .

نهب أموال الناس قسرا ، فآلت به الحال أن صار يستجدي الناس جزاءً وفاقًا .

قال ﷺ : « من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه ، خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »[٢] .

قال المناوي :

يُكلف نقل ما ظلم به إلى أرض المحشر، وفيه تحريم الظلم وتغليظ عقوبته، وإمكان غصب الأرض، وأنه من الكبائر، وأن مَنْ ملك أرضًا ملك سفلها إلى منتهى الأرض، وله منع غيره من حفر سرداب أو بئر تحتها وأن مَنْ ملك ظاهر الأرض ملك باطنها[٣].

وقال ﷺ : « مَنْ أخذ من الأرض شيئًا ظلمًا ، جاء يوم القيامة يحمل

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/٩٨-١٠١). (٢) رواه البخاري عن ابن عمر .
(٣) فيض القدير (٦/٤١) .

ترابها إلى المحشر »[١] .

قال المناوي في غاصب الأرض :

« يهوي به إلى أسفلها بالأخذ غصبًا لتلك الأرض . ويجعل كالطوق في عنقه على وزنه ﴿ سيطوّقون ما بخلوا به ﴾ [آل عمران : ١٨٠] ويعظم عنقه ليسعَ أو يطوّق إثم ذلك ويلزمه لزوم الطوق ، أو يكلف الظالم جعله طوقا ولا يستطيع ، فيُعذب بذلك ، فهو تكليف تعجيز للإيذاء لا تكليف ابتداء للجزاء ، ومثله غير عزيز كتكليف المصور نفخ الروح فيما صوّره ، فمن اعترضه بأن القيامة ليست بزمن تكليف لم يتأمل ، أو أن هذه الصفات تتنوع لصاحب هذه الجناية بحسب قوة هذه المفسدة وضعفها ، فيعذب بعضهم بهذا وبعضهم بهذا[٢] .

وقال ﷺ : « من أخذ من طريق المسلمين شيئًا جاء به يوم القيامة يحمله من سبع أرضين »[٣] .

وقال ﷺ : « من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين »[٤] .

وقال ﷺ : « أيما رجل ظلم شبرًا من الأرض كلّفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين ، ثم يُطوقه يوم القيامة حتى يقضى بين الناس »[٥] .

وقال ﷺ : « لا يأخذ أحدٌ شبرًا من الأرض بغير حقه ، إلّا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة »[٦].

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في الكبير عن يعلى بن مرّة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٠ ، والصحيحة رقم ٢٤٢ ، وتخريج الترغيب رقم ٥٤٣ .

(٢) فيض القدير (١ / ٤١ - ٤٢) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن الحكم بن الحرث ، وصححه السيوطي ، قال المناوي : قال ابن حجر : وإسناده حسن . وقال الهيثمي بعد ما عزاه للطبراني : فيه محمد بن عقبة السدسي وثقه ابن حبان ، وضعّفه أبو حاتم ، وتركه أبو زرعة .

(٤) رواه الشيخان وأحمد عن عائشة ، وعن سعيد بن زيد .

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن يعلى بن مرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧١٩ ، وتخريج المشكاة ٢٩٦٠ ، والصحيحة رقم ٢٤٠ .

(٦) رواه مسلم عن أبي هريرة .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ: « من ضرب بسوطٍ ظلمًا اقتص منه يوم القيامة »[١] .

وإن كان المضروب عبده .

٢٣ - تخويف أهل المدينة

إذا ذُكرت هذه الكبيرة ذكر معها يزيد بن معاوية ، ومسلم بن عقبة المزني الذي سماه السلف مسرف بن عقبة ، وذكر معها موقعة الحرة سنة ثلاث وستين ، فإن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية ، وولوا على قريش عبد الله بن مطيع ، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر ، فانتدب يزيد مسلم بن عقبة وأرسل معه عشرة آلاف فارس ، وقيل : اثنا عشر ألفا وخمسة عشر ألف رجل . فقال النعمان بن بشير : يا أمير المؤمنين ، وَلِّني عليهم أكْفِك . وكان النعمان أخا عبد الله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رواحة . فقال يزيد : لا ! ليس لهم إلا هذا الغشمة[٢] ، والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم ، وعفوي عنهم مرة بعد مرة . فقال النعمان: يا أمير المؤمنين! أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ. وقال له عبد الله بن جعفر : أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم ؟ قال : إن فعلوا فلا سبيل عليهم . وقال يزيد لمسلم بن عقبة : ادع القوم ثلاثا ، فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم ، وكفَّ عنهم ، وإلّا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا ظهرت عليهم ، فأبح المدينة ثلاثًا ، ثم اكفف عن الناس وقد كان ..

فقد اقتتلوا قتالًا شديدًا ثم انهزم أهل المدينة إليها . وقد قتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان ، منهم عبد الله بن مطيع وبنون له سبعة بين يديه ، وعبد الله بن حنظلة الغسيل ، وأخوه لأمه محمد بن ثابت بن شماس ، ومحمد ابن عمرو بن حزم ، وقد مرّ به مروان وهو مجندل ، فقال : رحمك الله فكم من سارية قد رأيتك تطيل عندها القيام والسجود . ثم أباح مسلم بن عقبة -

---

(١) صحيح : رواه البخاري في الأدب ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٠ ، وقال الهيثمي والمنذري : إسناده حسن .

(٢) الظالم .

قبّحه الله من شيخ سوء ما أجهله - المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد - لا جزاه الله خيرا - وقتل خلقًا من أشرافها وقرّائها ، وانتهب أموالًا كثيرة منها ، ووقع شر عظيم ، وفساد عريض . فكان ممن قتل بين يديه صبرًا معقل بن سنان ، ونتف لحية عمرو بن عثمان بن عفان . وأباح المدينة ثلاثة أيام ، يقتلون من وجدوا من الناس ، ويأخذون الأموال ، فأرسلت إليه سعدى بنت عوف المرية تقول له : أنا بنت عمّك ، فمر أصحابك ألا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا ، فقال لأصحابه : لا تبدءوا إلا بأخذ إبلها أولا . وجاءته امرأة فقالت : أنا مولاتك وابني في الأساري ، فقال : عجّلوه لها ، فضربت عنقه ، وقال : أعطوها رأسه ، أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي في ابنك؟ ، ووقعوا على النساء حتى قيل : إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج فالله أعلم .

قال هشام بن حسان : ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة[1] من غير زوج . وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم جابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدري .

وجيء بسعيد بن المسيب ، فقال له مسلم : بايع ! فقال : أبايع على سيرة أبي بكر وعمر ، فأمر بضرب عنقه ، فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله ، ولما انهزم أهل المدينة صاح النساء والصبيان ، فقال ابن عمر : بعثمان ورب الكعبة . سُئل الزهري كم كان القتلى يوم الحرة ، قال : سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ووجوه الموالي ، وممن لا أعرف من حرّ وعبد وغيرهم عشرة آلاف .

لما قتل أهل الحرّة هتف هاتف بمكة على أبي قبيس مساء تلك الليلة وابن الزبير جالس يسمع :

والصائمـون القانتـــو ن أولو العبادة والصلاحِ
المهتــدون المحسنـــو ن السابقون إلى الفـلاحِ

---

(١) هذه الحرة هي حرة واقم ، إحدى حرتي المدينة المنورة ، وهي تعرف اليوم بالحرة الشرقية .

ماذا بواقم والبقيـ ـع من الجحاجحة[١] الصباحِ
وبقاعِ يثرب ويحهـ ـنَّ من النوادب والصياحِ
قُتل الخيارُ بنو الخيا ر ذوي المهابة والسماحِ

فقال ابن الزبير ، يا هؤلاء ، قتل أصحابكم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ودخل مسلم بن عقبة المدينة ، فدعا الناس للبيعة على أنهم خول[٢] ليزيد بن معاوية ، ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء[٣] .

فكانت بنو أمية أول من بايعه . ثم دعا بني أسد بن عبد العُزَّى ، وكان عليهم حنقًا - إلى قصره ، فقال : تبايعون لعبد الله يزيد أمير المؤمنين ولمن استخلف بعده على أن أموالكم ، وأنفسكم خول له يقضي فيها ما يشاء .

وقال بعضهم : قال ليزيد بن عبد الله خاصة : بايع على أنك عبد العصا . فقال يزيد بن عبد الله بن زمعة : أيها الأمير إنما نحن نفر من المسلمين ، لنا ما للمسلمين ، وعلينا ما عليهم ، أبايع لابن عمي وخليفتي وإمامي على ما يبايع عليه المسلمون . فقال : الحمد لله الذي سقاني دمك ، والله لا أُقِيلُكَهَا[٤] أبدًا ، لعمري إنك لطعّان وأصحابك على خلفائك . فقدمه فضرب عنقه[٥] .

وسار مسلم بن عقبة أول المحرم سنة أربع وستين إلى مكة قاصدًا قتال ابن الزبير فلما بلغ ثنية هرشا بعث إلى رءوس الأجناد فجمعهم : فقال : إن أمير المؤمنين عهد إليّ إن حدث بي حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير

---

(١) الجحاجحة : الأسياد .

(٢) خدم وعبيد .

(٣) البداية والنهاية (٨/٢٢٢-٢٢٦) .

(٤) لن يصفح عنه .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد - القسم المتمم لتابعي أهل المدينة - دراسة د . زياد منصور ص ١٠٤ مكتبة العلوم والحكم بالمدينة .

السكوني ، ووالله لو كان الأمر لي ما فعلت. ثم دعا به فقال : انظر يا بن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به . ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز[1] ابن الزبير قبل ثلاث ، ثم قال : اللهم ، إني لم أعمل عملًا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، أحب إليّ من قتل أهل المدينة ، وأجزى عندي في الآخرة . وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقي ، ثم مات - قرحه الله - ودفن بالمسلك .

ثم أتبعه الله بيزيد بن معاوية فمات بعده في ربيع الأول لأربع عشرة ليلة خلت منه ، فما متعهما الله بشيء مما رَجَوْه وأمّلوه ، بل قهرهم القاهر فوق عباده ، وسلبهم الملك ، ونزعه منهم من ينزع الملك ممن يشاء[2] .

عن جعفر بن خارجة ، قال : خرج مُسرِّف من المدينة يريد مكة ، وتبعته أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زَمْعة يسير وراء العسكر يومين أو ثلاثة ، ومات مسرف فدفن بثنية المشلل ، وجاءها الخبر فانتهت إليه ، فنبشته ثم صلبته على ثنية المشلل[3] جزاءً وفاقًا .

قال ابن كثير :

وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشًا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام . وهذا خطأ كبير فاحش ، وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف ، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ، ودوام أيامه من غير منازع ، فعاقبه الله بنقيض قصده ، وحال بينه وبين ما يشتهيه ، فقصمه الله قاصم الجبابرة ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن**

---

(١) يقابل .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ٢٢٧ - ٢٢٨) .

(٣) الطبقات الكبرى - القسم المتمم لتابعي المدينة ص ١٠٥ .

أخذه أليم شديد ﴾[1] [هود : ١٠٢] .

والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « لا يكيد أهل المدينة أحد ، إلا انماع[2] كما ينماع الملح في الماء »[3] .

وقال ﷺ : « من أخاف أهل المدينة ، فقد أخاف ما بين جنبي »[4] .

وقال ﷺ : « من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله ، كما يذوب الملح في الماء »[5] .

وقال ﷺ : « من أخاف أهل المدينة ، أخافه الله »[6] .

والجزاء من جنس العمل .

هذا لم يرد نظيره لبقعة سواها ، فهم كالماء صفاءً ، يعاقب الله من أراد بسوء في الآخرة بأن يذيبهم في النار ، ولا يمهلهم الله في الدنيا ولا يمكن سلطانهم ، فمسلم بن عقبة هلك في منصرفه عنها ، ثم هلك يزيد مرسله على أثر ذلك .

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٢٥) .

(٢) ذاب .

(٣) رواه البخاري عن سعد .

(٤) رواه أحمد في مسنده عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٤ ، ورواه البخاري في التاريخ .

(٥) رواه أحمد ومسلم ، وابن ماجة عن أبي هريرة ، ومسلم عن سعد .

(٦) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه عن سعد ، ورواه ابن النجار ، وأحمد ، والحربي ، والنسائي، وابن عساكر، والدولابي عن السائب، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٣ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٢٣٠٤ .

٢٤ - سب الصحابة

قال ﷺ : « لعن الله من سب أصحابي »(١) .

وقال ﷺ : « من سب أصحابي فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين »(٢) .

وقال ﷺ : « لا تسبّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مدّ(٣) أحدهم ولا نصيفه »(٤) (٥) .

مَنْ سبّ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه طرده الله من رحمته ، وأبعده عن جنته ، وأورثه الذلة والهوان في الدنيا قبل الآخرة ، وهل يسبّ من أتى القرآن والإنجيل والتوراة بوصفهم والثناء عليهم .

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

---

(١) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٨٧ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦١ .

(٣) مكيال قدره نصف قدح مصري أو رطل وثلث حجازي .

(٤) نصفه .

(٥) رواه أحمد ، والشيخان ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي سعيد ، ورواه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة .

ولنأتِ إلى واقعة بين الحجاج بن يوسف الثقفي وبين أنس بن مالك - رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ وكيف أراد الحجاج ذل أنس فعاد الذل والشنار عليه ، وكان جزاؤه من جنس عمله .

دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له : إيه إيه يا أُنيس[١] يوم لك مع علي ، ويوم لك مع ابن الزبير ، ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة ، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة[٢] . فقال أنس : أياي يعني الأمير أصلحه الله ؟

قال : إياك أعني صك الله سمعك . قال أنس . إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت . ولا أي ميتة مت ، ثم خرج من عند الحجاج ، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبا ، وشفق عجبًا ، وتعاظم ذلك من الحجاج ، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك .

أما بعد : فإن الحجاج قال لي هُجرا ، وأسمعني نكرا ، ولم أكن لذلك أهلًا ، فخذ لي على يديه ، فإني أمتّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[٣] .

وفي رواية أخرى : كتب أنس إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه :

ولو أن رجلًا خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصارى أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم ، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة ، ولعرفوا

---

(١) للتصغير والتحقير .

(٢) الصّمغة : شيء يسيل من الشجر ويجمد عليها .

(٣) البداية والنهاية (٩ / ١٣٩) .

له ذلك ، ولو أن رجلًا خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود ، لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا ، وإني خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ورأيته ، وأكلت معه ، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضرّ بي وفعل وفعل .

قال محمد بن الزبير : أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي ، وبلغ به الغضب ما شاء الله(١) .

فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - وكان مصادقًا للحجاج - فقال له : دونك كتابيّ هذين ، فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فارفع كتابي إليه ، وأبلغه مني السلام ، وقل له : يا أبا حمزة ، قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك(٢) .

ولما دخل إسماعيل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحبًا برجل أحبه وكنت أحب لقاه ، فقال إسماعيل : أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به ، فتغيرَ لون الحجاج وخاف ، وقال : ما أتيتني به ؟ قال : فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضبًا عليك ، ومنك بعدًا ، قال : فاستوى الحجاج جالسًا مرعوبًا ، فرمى إليه إسماعيل بالطومار(٣) ، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق، وينظر إلى إسماعيل أخرى ، فلما فضّه قال : قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه ، فقال له إسماعيل : لا تعجل ! فقال : كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة(٤) .

وكان في الطومار :

---

(١) البداية والنهاية (٩ / ٦٩) .
(٢) أمتك : جاريتك .
(٣) الطومار : جمعها طوامير : الصحيفة .
(٤) آبدة : جمعها أوابد : الداهية الخالدة الذكر .

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف .

أما بعد : فإنك عبد طمّت بك الأمور ، فسموت فيها وعدوت طورك ، وجاوزت قدرك ، وركبت داهية إدًّا[١] ، وأردت أن تبدو لي فإن سوغتكها مضيت قدمًا ، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى ، فلعنك الله من عبد أخفش[٢] العينين ، منقوص الجاعرتين[٣]، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف ، وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل[٤]، يابن المستفرية بعجم[٥] الزبيب ، والله لأغمرنك غمر الليث الثعلب ، والصقر الأرنب ، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا ، فلم تقبل له إحسانه ، ولم تتجاوز له عن إساءته ، جرأة منك على الرب عز وجل ، واستخفافًا منك بالعهد ، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلًا خدم عزير بن عزرى ، وعيسى بن مريم لعظمته وشرّفته وأكرمته وأحبّته ، بل لوْ رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حواري المسيح لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين ، يطلعه على سرّه ، ويشاوره في أمره ، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله ، وإلا أتاك مني سهم بكل حتف قاضٍ ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون[٦] .

جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس العمل ، هذا في الدنيا ، فكيف في الآخرة ؟! رحمك الله يا عبد الملك ، وكافأك بالجنة .

---

(١) قاسية شديدة .

(٢) ضعيف .

(٣) مضرب الدابة .

(٤) موارد الشرب على الطريق .

(٥) بعود .

(٦) البداية والنهاية (٩ / ١٤٠ - ١٤١) .

وانظر أخي إلى عمران بن حِطّان الفاجر الخارجي يقول في رثاء عبد الرحمن ابن ملجم قاتل علي ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « إنه أشقى الآخرين » .

يقول عمران :

يا ضربة من منيب ما أراد بها إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوما فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

فردّ عليه عبد القاهر البغدادي :

يا ضربة من كفور ما استفاد بها إلا الجزاء بما يصليه نيرانا
إني لألعنه دينًا ، وألعن منْ يرجو له أبدًا عفوًا وغفرانا
ذاك الشقي لأشقى الناس كلهم أخفهم عند رب الناس ميزانا

أما كثير عزة الرافضي فيقول :

برئت إلى الإله من ابن أرْوَى ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عُمَرٍ برئت ومن عتيق غداة دعا أمير المؤمنينا

فرد عليه عبد القاهر البغدادي :

بَرِئْتَ من الإله ببغض قوم بهم أحيا الإلهُ المؤمنينا
وماضرّ ابن أروى منك بُغض وبُغض البرِّ دينُ الكافرينا
أبو بكر لنا حقًّا إمامٌ على رغم الروافض أجمعينا
وفاروق الورى عُمر ، بحقٍّ يقال له : أمير المؤمنينا

فما ظنك بالشيعة الإمامية الإثنا عشرية الذين يقولون : اللهم العن صنمي قريش جبتيهما وطاغوتيهما أبا بكر وعمر ، والعن ابنتيهما حفصة وعائشة .

ويقولون عن عمر : إنه كان به داء لا يشفى إلا بماء الرجال .

ويقولون عن عثمان : العبد اللكع .

بل ويكفرون الصحابة جميعهم إلا أربعة .

ولذا كفّرهم الإمام مالك بآخر آية من سورة الفتح .

بشار بن بُرْد

وهناك أعمى أعمى الله بصيرته وبصره ، كفر الصحابة أجمعين بل وكفّر

الأمة ، وهو بشار بن برد شاعر الإباحية الذي شبّب بالنساء .

يقول عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق في ذكر غلاة الرافضة من الكاملية : هؤلاء أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبي كامل ، وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي ، وكَفَر عليّ بتركه قتالهم ، وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب ، وروي أنه قيل له : ما تقول في الصحابة ؟ قال : كفروا ، فقيل له : فما تقول في علي ؟ فتمثل بقول الشاعر :

وما شر الثلاثة أمَّ عمرٍو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا

وحكى أصحاب المقالات عن بشار أنه ضم إلى ضلالته في تكفير الصحابة وتكفير علي معهم ضلالتين أخريين .

إحداهما : قوله برجعته إلى الدنيا قبل يوم القيامة .

الثانية : قوله بتصويب إبليس في تفضيل النار على الأرض .

واستدلوا على ذلك بقول بشار في شعر له :

الأرض مظلمة ، والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانتِ النارُ[1]

فردّ عليه صنوان الأنصاري في قصيدته التي قال فيها :

زعمت بأن النار أكرمُ عُنصرا ... وفي الأرض تحيا في الحجارة والزَّنْدِ
وفيها مقام الحل والركن والصفا ... ومستلم الحجاج من جنة الخلدِ
فيابن حليف الشؤم واللؤم والعمى ... وأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجوا أبا بكر ، وتخلع بعده ... عليًّا ، وتغزو كل ذاك إلى بُرْدِ
كأنك غضبان على الدين كله ... وطالب ذَحْلٍ لا يبيت على حقدِ
تواثب أقمارًا وأنت مُشَوَّه ... وأقرب خلق الله من نسب القردِ

هذا الذي كفّر الأمة قال فيه حماد عجرد :

ويا أقبح من قرد ... إذا ما عمي القردُ

---

(١) قال عمر بهاء الأميري :

إبليس من نار وآدم طينة ... والنار لا تسمو سمو الطين
النار تفنى ذاتها ومحيطها ... والطين للإنبات والتكوين

اتهم بالزندقة ، فضربه المهدي سبعين سوطًا ليقر ، فمات منها ، ويقال : إنه غرق .

يقول عبد القاهر البغدادي: وقد فعل الله به ما استحقه ، فأمر به المهدي حتى غرق في دجلة، ذلك له خزي في الدنيا، ولأهل ضلالته في الآخرة عذاب أليم[1].

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية ، وتنويعها عليهم ، بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى: ﴿**وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم...**﴾ إلى قوله : ﴿ **يَظْلمون** ﴾ [العنكبوت : ٣٨-٤٠] .

وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم ، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها ؛ اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها ، لتتم المناسبة ، ويكمل الشبه ، وهذا غاية الحكمة ، واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم ، كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية ، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم ، بل هم أخف الناس عقولًا ، وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا ، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين ، واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ، ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة ، يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه ، فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعا ، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ، ويقوم الإنسان عن رجيعه ، فيبادر إليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم ، فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم، فعادوهم وتبرءوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٠ / ١٥٣ / ١٥٤ ، الفرق بين الفرق ٥٤ - ٥٦ ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٦ - ٢٧ .

من النصارى واليهود والمشركين ، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار ، وصرحوا بأنهم خير منهم ، فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير ، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين . وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرًا ، فأكثر من أن تذكر هاهنا ، وقد أفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسي كتابًا(١).

٢٥ - الغيبة والوقيعة في الأعراض

قال ﷺ : « إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق »(٢).

وقال ﷺ : « لما عَرَج لي ربي عز وجل ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون(٣) وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم »(٤) .

قال المناوي :

قال الطيبي : لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات ، جعلها جزاء من يقع ، إشعارًا بأنهما ليسا من صفة الرجال ، بل هما من صفة النساء في أقبح حالة وأشوة صورة .

وقال الغزالي :

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية ص٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) صحيح : رواه الإمام أحمد وأبو داود عن سعيد بن زيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٢٢٠٣ .

(٣) يجرحونها ويشقونها .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٠ ، وفي صحيح الجامع رقم ٥٣٩٤ .

يحشر الممزق لأعراض الناس كلبًا ضاريًا ، والشره لأموالهم ذئبًا ، والمتكبر عليهم بصورة نمر ، وطالب الرياسة بصورة أسد ، وردت به الأخبار ، وشهد به الاعتبار وذلك أن الصور في هذا العالم غالبا على المعانِي ، وهذا وعيد شديد على الغيبة .

قال في الأذكار : والغيبة والنميمة محرمتان بإجماع المسلمين[1] .

قال الله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

قال الفخر الرازي :

الحكمة في هذا التشبيه هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه ، وهذا من باب القياس الظاهر ، وذلك أن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من هذا العاقل أكل لحوم الناس ، لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى ؛ لأن ذلك آلم .

ولما كان القول في الوجه يؤلم ، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم ، فأكل لحم الأخ وهو ميت أيضًا لا يؤلم ، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم ، كما أن الميت لو أحسّ بأكل لحمه لآلمه[2] .

قال القشيري : ليس تحصل الغيبة من الخلق إلا بالغيبة عن الحق .

وقال أبو حيان: قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: الغيبة إدام كلاب الناس[3].

هذا المشهد الذي ذكر في القرآن تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية .

ومن حديث أبي هريرة رفعه : « من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرِّب له يوم القيامة فيقال له : كله ميتا كما أكلته حيا . فيأكله ويكلح ويصيح »[4] والجزاء من جنس العمل .

---

(١) فيض القدير (٥ / ٢٩٨) .
(٢) مفاتيح الغيب (١٤ / ٣٩٢) .
(٣) نظم الدرر (١٨ / ٣٧٩) .
(٤) قاله ابن حجر في الفتح (١٠ / ٤٨٥) كتاب الأدب ، باب الغيبة .

قال ابن حجر : وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد بسند حسن عن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ ، فهاجت ريح منتنة ، فقال النبي ﷺ : « هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين »[١] .

٢٦ - تتبع عورات المسلمين

قال ﷺ : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيّروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنّ من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومَنْ تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته »[٣] .

والجزاء من جنس العمل .

أخي ، حاسب نفسك لنفسك ، فإن غيرها من الأنفس عليها حسيب غيرك .

وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك .

وقال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عين نفسه ، وكيف يعيب العورَ مَنْ هو أعور ..

قال شيخ الإسلام الأنصاري : وكل معصية عيّرت بها أخاك فهي إليك .

قال ابن قيم الجوزية : يحتمل أن يريد به : أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها . وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ :

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٤٨٥) .

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٦٢ ، وتخريج المشكاة رقم ٥٠٤٤ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود عن أبي برزة الأسلمي ، والترمذي وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٦١ ، وتخريج المشكاة رقم ٥٠٤٤ .

« من عَيَّر أخاه بذنب لم يمت قبل أن يفعله »[1] .

قال الإمام أحمد في تفسير هذا الحديث : بذنب قد تاب منه .

إن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه . وأشد من معصيته ، لما فيه من صَوْلة الطاعة ، وتزكية النفس ، وشكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب . وإن أخاك باء به ، ولعل كَسْرَته بذنبه ، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه ، والتخلص من مرض الدعوى ، والكبر والعجب ، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس ، خاشع الطرف ، منكسر القلب أنفع له ، وخير من صولة طاعتك ، وتكثرك بها والاعتداد بها ، والمنة على الله وخلقه بها ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلًا هو فيك ولا تشعر[2] .

وقد بلغ بالسلف توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شـرحبيل : لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه ؛ لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع[3].

وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوَكّل بالقول ؛ لو سَخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبًا .

وقال بكر بن عبد الله المزني : إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمّل عيّابًا ، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب ، وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره .

قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلًا ورعًا أشغله عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيمُ المريض يشغله عن وجعِ الناس كلهم وجعُهْ

---

(١) رواه الترمذي عن معاذ بن جبل ، وقال : حسن غريب ، وليس إسناده بمتصل . وهو منقطع .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ص١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) والعامة تقول في أمثالها : من عيّر أخاه بلبن الكلبة ، لا يموت إلا إذا رضعها .

وقال آخر :

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا　　فيهتك اللهُ سترًا عن مساويكَا
واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكروا　　ولا تعب أحدًا منهم بما فيكَا[١]

قال الذهبي :

حُبس محمد بن سيرين بدين ركبه . قال المدائني : كان سبب حبسه أنه أخذ زيتا بأربعين ألف درهم ، فوجد في زِقٍّ منه فأرة ، فظن أنها وقعت في المعصرة ، وصب الزيت كله . وكان يقول : إني ابتليت بذنب أذنبته منذ ثلاثين سنة . قال : فكانوا يظنون أنه عيَّر رجلًا بفقر[٢] .

وعن ابن سيرين قال : قلت مرة لرجل : يا مفلس ، فعوقبت[٣] .

قال إبراهيم بن هانىء : رأيت أبا داود يقع في يحيى بن معين ، فقلت له : تقع في مثل يحيى ؟ فقال : مَنْ جَرّ ذيول الناس ، جرّوا ذيله[٤] .

سمع أعرابي رجلًا يقع في الناس ، فقال : قد استدللتُ على عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس ؛ لأن الطالب لها يطلبها بقدر ما فيه منها .

قال الشاعر :

ويأخذ عَيْبَ الناس من عَيْبِ نفسه　　مُرادٌ لعمري ما أراد قريبُ

وقال آخر :

وأجرأ مَنْ رأيت بظهر غيب　　على عيب الرجال أخو العيوب

بعد موقعة الجمل يقال : إن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطلع في هودج عائشة - رضي الله عنها - فقال : والله ما أرى إلا حميراء . فقالت : هتك الله سترك ، وقطع يدك ، وأبدى عورتك . فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمي عريانًا في خربة من خرابات الأزد . اهـ من البداية والنهاية .

---

(١) تفسير القرطبي (٩ / ٦١٤٥ ، ٦١٤٧ ، ٦١٤٨) طبع دار الشعب .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤ / ٦١٣) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٤ / ٦١٦) ، الحلية (٢ / ٢٧١) .
(٤) سير أعلام النبلاء (١١ / ٩٤) .

وقال آخر :

فكل عيّاب له مَنْظَرٌ مُشْتَمِلُ الثوب على عَيْبِ

كان يقال : ظلم منك لأخيك أن تقول أسوأ ما تعلم فيه .

قال أبو عاصم النبيل : لا يذكر الناس بما يكرهون إلا سفلة لا دين لهم[١] .

٢٧ - الطعن في الأنساب وجحدها وإلصاق ما ليس منها بها

قال رسول الله ﷺ : « كفر بالله تبرؤ من نسب وإن دق »[٢] .

وقد قيل : لا أعلم نسبًا سلم من الطعن إلا نسب المصطفى ﷺ .

وقال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ، ولن يدخلها الله جنته ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله تعالى منه ، وفضحه على رءوس الأولين والآخرين يوم القيامة »[٣] .

قال المناوي :

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (١ / ٣٩٩ - ٤٠٠) .

(٢) حسن : رواه البزار عن أبي بكر - رضي الله عنه - وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٤٣٦١ .

(٣) رواه : أبو داود والنسائيّ ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم في مستدركه وصححه عن أبي هريرة قال ابن حجر في التخريج صححه الدارقطني في العلل مع اعترافه بتفرد عبد الله بن يونس عن سعيد المقبرى ، وأنه لا يعرف إلا به ، وقال في الفتح بعد ما عزاه لأبي داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن يوسف: حجازي ، ما روى عنه سوى يزيد بن الهاد .

« أيما امرأة ألحقت بقوم من ليس منهم » بأن تنسب لزوجها ولدها من غيره « فليست من الله في شيء » أي من الرحمة والعفو أو لا علاقة بينها وبينه ، ولا عندها من حكم الله وأمره ودينه شيء كأنه قال : هي بريئة من الله في كل أمورها ، ولن يدخلها الله جنته مع السابقين المحسنين بل يؤخرها ويعذبها ما شاء قال:« وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه » أي وهو يرى أنه منه ، ويتحقق ذلك ، كأنه يشاهد ذلك عيانًا وهو ينكره ، وعبّر بالجحود ليفيد مع الوعيد على النفي الوعيد على قذف الزوجة « احتجب الله تعالى منه » أي منعه رحمته وحرمه ، وهذا وعيد غليظ إذ لا غاية في النعيم أعظم من النظر إليه تقدس ، وهو الغاية القصوى، فويل لمن لم ينلها « وفضحه على ...» بجحوده ولده ، وهو يعلم أنه منه ، وإظهار كذبه على زوجته ، وقد ورد الوعيد الشديد في حق من انتفى من ولده في عدة أخبار ، منها خبر وكيع عن ابن عمر رفعه « من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا ، فضحه الله يوم القيامة »[١] ، وفيه الجرّاح والد وكيع مختلف فيه[٢] .

وقال ﷺ : « كفر بامرىءٍ ادّعاء نسبٍ لا يُعرف ، أو جحده ، وإنْ دقَّ »[٣] .

٢٨ - النياحة

قال رسول الله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت »[٤] .

---

(١) والجزاء من جنس العمل .

(٢) فيض القدير (٣ / ١٣٧) .

(٣) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن عمرو ، ورواه أحمد ، والطبراني في الأوسط والصغير وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٣٦٢ .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية ، لا يتركونهن؛ الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »[١] .

وقال ﷺ : « صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة : مزمار عند نعمة ، ورنّة عند مصيبة »[٢] .

والرنة : هي صرخة النائحة .

وقال ﷺ : « لعن الله الخامشة وجهها ، والشاقّة جيبها ، والداعية بالويل والثبور »[٣] .

وقال ﷺ : « كل نائحة تكذب إلا أم سعد »[٤] .

أم سعد بن معاذ قالت لما حملوا نعشه :

ويل أم سعد أضرّ أمه وجدًّا وسيدًا سدّ به مسدًّا

وقال ﷺ : « أنا بريء ممن حلق ، وسلق ، وخرق »[٥] .

أي حلق شعره عند المصيبة ، ولطم خده وصرخ ، وشقّ ثوبه .

وقال ﷺ : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها ؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب »[٦] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري .

(٢) حسن : رواه البزار والضياء عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩٥ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٦٨ .

(٤) صحيح : رواه ابن سعد عن محمود بن لبيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٣٩ .

(٥) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن أبي موسى .

(٦) رواه أحمد ، ومسلم عن أبي مالك الأشعري .

وقال ﷺ : « النياحة على الميت من أمور الجاهلية ، وإن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت ، فإنها تبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران ، ثم يعلى عليها بدروع من لهب النار »[١] .

وقال ﷺ : « أربع بقين في أمتي من أمر الجاهلية ، ليسوا بتاركيها ، الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، وإن النائحة إذا لم تتب قبل الموت جاءت يوم القيامة عليها سربال من قطران ، ودرع من لهب النار »[٢] .

قال المناوي :

« النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام » يعني تُحشر ، ويُحتمل أنها تقام حقيقة على تلك الحال بين أهل النار والموقف ؛ جزاءً على قيامها في النياحة . « يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » أي يصير جلدها أجرب حتى يكون جلدها كقميص على أعضائها ، والدرع قميص النساء ، والقطران دهن يدهن به الجمل الأجرب ، فيحترق لحدته وحرارته ، فيشتمل على لذع القطران وحرقته ، وإسراع النار في الجلد واللون الوحش ونتن الريح ، جزاءً وفاقًا ، فخُصّت بذلك الدرع ؛ لأنها كانت تجرح بكلماتها المؤنقة قلب المصاب ، وبلون القطرانِ لكونها كانت تلبس السواد في المآتم .

قال ابن العربي : وهذا الخبر ونحوه من الأخبار الوعيدية مجرية على الإطلاق في موضع ، ومقيدة بالمشيئة في آخر فيحمل المطلق على المقيد ضرورة ، إذ لو حمل على إطلاقه بطل التقييد ولم يكن له فائدة[٣] .

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٨٥.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، والحاكم عن أبي مالك الأشعري، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٨٨ .

(٣) فيض القدير (٦ / ٢٩٣) .

٢٩ - البغـي

قال تعالى : ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ [يونس : ٢٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب هو أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم » .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : لو بغى جبل على جبل ، لدُكَّ الباغي منهما .

أخذه الشاعر فقال :

لـو بغى جبـلٌ يومًا على جبلٍ   لـدُكَّ منـه أعاليـه وأسفَلُـهُ

وقال آخر :

ذر البغي إن البغي موبق أهله   ولم يَعْدمِ الباغي من الناس مصرعَا

قال بعض الحكماء : البغي من فروع الحسد ، وأقدم الناس على البغي مَنْ جهل المعرفة بسرعة نصر الله لمن بغى عليه .

وقالوا : ثلاثة عائدة على فاعلها : البغي والمكر والنكث .

وقال يزيد بن الحكم :

إن الأمـور دقيقُهَـا   مما يهيجُ به العظيمُ

والبغـي يصـرع أهلَـهُ   والظلم مرتعه وخيم

٣٠ - الفخر بالأحساب والأنساب

قال رسول الله ﷺ : « انتسب رجلان على عهد موسى ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان ، حتى عدّ تسعة فمَنْ أنت لا أمَّ لك ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ابن الإسلام ، فأوحى الله إلى موسى أنْ قل لهذين المنتسبَيْن: أمّا أنت أيها

المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم في النار ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة »[١] .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « لينتهينّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحمُ جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجُعَل[٢] الذي يُدَهْدِهُ[٣] الخرء[٤] بأنفه ، إن الله أذهب عنكم عِبيّة الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، الناس كلهم لآدم ، وآدم خلق من التراب »[٥] .

وفي رواية أخرى : « ليدعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أوْ ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن .

والجزاء من جنس القول والعمل. والعبية : هي الكبر .

٣١ - تكفير المسلمين ولعنهم

قال رسول الله ﷺ : « إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر؛ باء بها أحدهما »[٦].

وقال رسول الله ﷺ : « أيما امرىء قال لأخيه : كافر ؛ فقد باء بها

---

(١) صحيح : رواه النسائي ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء عن أُبي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٤ .

(٢) حيوان كالخنفساء ، يكثر في الأراضي المبتلة .

(٣) يدفعه فيتدحرج .

(٤) البراز .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وأحمد ، وأبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٣٥٨ .

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة ، وأحمد ، والبخاري عن ابن عمر .

أحدهما ، إن كان كما قال ، وإلّا رجعت إليه »(١) .

وقال ﷺ : « أيما رجل مسلم أكفر رجلًا مسلمًا ، فإن كان كافرًا ، وإلّا كان هو الكافر »(٢) .

وقال ﷺ : « ما أكفر رجل رجلًا قط إلا باء بها أحدهما »(٣) .

قال المناوي :

« إذا أكفر الرجل أخاه » أي نسبه إلى الكفر ، بأن قال : أنت كافر أو يا كافر أو قال عنه : فلان كافر . « فقد باء » أي رجع . « بها » أي بالمعصية المذكورة حكمًا ، يعني رجع أحدهما بمعصية إكفاره على حد ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين** ﴾ [سبأ : ٢٤] .

قال بعضهم : والجزم في هذا الخبر بأنه لابد أن يبوء بها أحدهما بينه قوله في الحديث التالي : « إن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه » . ومن ثم كانت هذه الرواية في قوة قضية منفصلة أقيم البرهان على صدقها ، بخلاف تلك إذ معناه كل مُكفِّرٍ أخاه ، فدائما إما أن يكفر القائل أو المقول له ، وبرهن على صدق ذلك بأنه إن كان كما قال وإلا كفر القائل(٤) .

والجزاء من جنس القول والعمل .

وكذا اللعن – لعن المسلم – إن لم يكن أهلًا يعود اللعن عليه ، بل لا يجوز لعن المعين وهذا مذهب أهل السنة والجماعة . فهناك فرق بين لعن النوع ولعن العين ، وكفر النوع وكفر العين .

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن ابن عمر .

(٢) رواه مالك ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، ورواه أبو داود عن ابن عمر .

(٣) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٢١ .

(٤) فيض القدير (١ / ٢٩٥) .

٣٢ - إسبال الإزار

وهو من الكبر كما مرّ من أحاديث في ذم الكبر .

« إن الله تعالى لا ينظر إلى مسبل إزاره »[1] .

«من أسبل إزاره في صلاته خيلاء ، فليس من الله في حل ولا حرام »[2].

« من جر ثوبه خيلاء ، لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[3] .

هذا الذي أسبل إزاره يريد نظر الناس إليه ، ويتيه على الناس ، يعاقبه الله بأن لا ينظر إليه ، وأي ذل فوق هذا !! فعوقب بنقيض قصده ، والجزاء من جنس العمل . وقال رسول الله ﷺ : « من وطىء على إزار خيلاء ، وطئه في النار »[4] .

قال المناوي :

يلبس مثل ذلك الثوب الذي كان يرفل فيه في الدنيا ، ويجره تعاظمًا ، في نار جهنم ، ويعذب باشتعال النار فيه جزاءً بما فعل[5] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والنسائي عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٥٩ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٨٨ .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٤) صحيح : رواه أحمد عن هبيب . قال الألباني : الأصل صهيب تبعا لأصله ، وهو خطأ . انطلى على المناوي فقيده بضم المهملة الرومي ! وحسنه السيوطي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٦٨ .

(٥) فيض القدير (٥ / ٢٣٧) .

٣٣ - لبس الحرير والذهب للرجل

قال رسول الله ﷺ : « إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوهما في الدنيا»[١] .

وقال ﷺ : «لا تلبسوا الحرير، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[٢].

وقال ﷺ : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[٣] .

قال المناوي :

من لبس الحرير من الرجال جزاؤه أن لا يلبسه فيها ؛ لاستعجاله ما أُمر بتأخيره ووعد به ، فَحُرِمه عند ميقاته ، كوارث قتل مورثه : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ [الأحقاف:٢٠] وهذا وعيد مقتضٍ لهذا الحكم ، وقد يتخلف لمانع ، وقد دلّت النصوص القرآنية على أن التوبة تمنع لحوق الوعيد ، وكذا الحسنات الماحية والمصائب المكفرة ، والدعاء ، والشفاعة ، بل وشفاعة أرحم الراحمين لنفسه ولمالك الجزاء إسقاطه[٤].

٣٤ - الشّرب في آنية الذهب والفضة

قال رسول الله ﷺ : « إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم »[٥] . وزاد في رواية : « إلا أن يتوب » .

وقال ﷺ : « الذي يشرب في آنية الفضة، إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم »[٦].

---

(١) رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم في المستدرك عن عقبة بن عامر ، وصححه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٥١ .

(٢) رواه مسلم عن ابن الزبير .

(٣) رواه الشيخان وأحمد ، والنسائي ، وابن ماجة .

(٤) فيض القدير (٦ / ٢١٨) .

(٥) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن أم سلمة ، وزاد الطبراني في الكبير : « إلا أن يتوب » .

(٦) رواه الشيخان عن أم سلمة .

وقال ﷺ : «من شرب في إناء فضة، فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم»(١).

وقال ﷺ : « من شرب في إناء من ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم »(٢) .

وقال ﷺ : « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، ولا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، فإنه لهم في الدنيا ، وهو لكم في الآخرة »(٣) .

قال الحافظ في الفتح :

« إنما يجرجر » بضم التحتانية وفتح الجيم وسكون الراء ثم جيم مكسورة ثم راء ، من الجرجرة وهو صوت يردده البعير في حنجرته إذا هاج نحو صوت اللجام في فك الفرس ، قال النووي : اتفقوا على كسر الجيم الثانية من يجرجر .

«في بطنه نار جهنم» وقع للأكثر بنصب نار عَلَى أن الجرجرة بمعنى الصب أو التجرع، فيكون «نار» نصب على المفعولية، والفاعل الشارب؛ أي يصب أو يتجرع، وجاء الرفع على أن الجرجرة هي التي تصوت في البطن، قال النووي: النصب أشهر ويؤيده رواية عثمان بن مرة عند مسلم بلفظ: «فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم»(٤).

فالذي يشرب في آنية الذهب والفضة يعاقب بتجرع وجرجرة النار في بطنه ، فصوت شرب الإنسان الماء في هذه الآنية في دار الدنيا يناسبه جرجرة النار يوم القيامة ، جزاءً وفاقًا .

قال الغزالي : كل من اتخذ النقد آنية فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالًا ممن كنزه ، فإنه كمن سخر الحاكم في نحو حياكة أو كنس .

قال ابن حجر :

في هذه الأحاديث تحريم الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة على كل مكلف ، رجلًا كان أو امرأة ، ولا يلتحق ذلك بالحلي للنساء ؛ لأنه ليس من

---

(١) رواه ابن ماجة عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٩٠ .
(٢) رواه مسلم عن أم سلمة .
(٣) رواه أحمد والشيخان ، والنسائي ، وأبو داود ، وابن ماجة والترمذي عن حذيفة .
(٤) فتح الباري (١٠ / ٩٩ - ١٠٠) .

التزين الذي أبيح لها في شيء ، قال القرطبي وغيره : في الحديث تحريم استعمال أواني الذهب ، والفضة في الأكل والشرب ، ويلحق بهما ما في معناهما مثل التطيب والتكحل وسائر وجوه الاستعمالات ، وبهذا قال الجمهور .

واختلف في اتخاذ الأواني دون استعمالها ، والأشهر المنع وهو قول الجمهور[١].

٣٥ - سماع الغناء والمعازف

قال ﷺ: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة. فيقولوا: ارجع إلينا غدا، فيُبَيِّتهم الله تعالى، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[٢].

يقول ابن القيم بعد ذكره لمستحلي الحرام بالحيلة ، وعقابهم بجنس عقوبات أمثالهم من العصاة : المسخ على صورة القردة والخنازير واقع في هذه الأمة ولابد ، وهو في طائفتين : علماء السوء الكاذبين على الله ورسوله ، الذين قلبوا دين الله وشرعه ، فقلب الله تعالى صورهم ، كما قلبوا دينه ، والمجاهرين المتهتكين بالفسق والمحارم . ومن لم يمسخ منهم في الدنيا مُسخ في قبره ، أو يوم القيامة ، وبكل حال فالمسخ لأجل الاستحلال بالاحتيال قد جاء في أحاديث كثيرة[٣] .

وقال المناوي :

قال ابن القيم : إنما مسخوا قردة وخنازير لمشابهتهم لهم في الباطن ، والظاهر مرتبط به أتم ارتباط ، وعقوبات الرب جارية على وفق حكمته وعدله[٤] .

---

(١) فتح الباري (١٠ / ١٠٠) .

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم ، ووصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعاليق ، والحديث صحيح متصل عند غيره كأبي بكر الإسماعيلي . والحديث صححه الحافظ وجمهور المحدثين كابن القيم وغيره ، ولا عبرة ولا التفات إلى تضعيف ابن حزم لهذا الحديث ، فإن البخاري لقي هشام بن عمار وسمع منه ، والبخاري أبعد خلق الله من التدليس .

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٤) فيض القدير (٥ / ٣٩٧) .

يقول ابن القيم رحمه الله :

الغناء يهيج النفوس إلى شهوات الغي ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح ، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومَليح ، فهو والخمر رضيعا لبان وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان، فإنه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وخليفه، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي لا يفسخ ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تنسخ ، وهو جاسوس القلب ، وسارق المروءة ، وسوس العقل ، يتغلغل في مكامن القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويَدُبُّ إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة ، والسخافة ، والرقاعة ، والرعونة ، والحماقة ، فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل ، وبهجة الإيمان ، ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله ، وقل حياؤه ، وذهبت مروءته ، وفارقه بهاؤه ، وتخلى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ، وثقل عليه قرآنه . فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ، ويضرب الأرض برجليه ، ويدق على أم رأسه بيديه ، ويثب وثبات الدِّباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوهُ الحزين، وتارة يزعق زعقات المجانين ، ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا	على طيب السماع إلى الصباحِ
ودارت بيننا كأس الأغاني	فأسكرت النفوس بغير راحِ
فلم تر فيهم إلا نشاوى	سرورًا ، والسرور هناك صاحي
إذا نادى أخو اللذات فيه	أجاب اللهو: حي على السماحِ
ولم نملك سوى المهجات شيئًا	أرقناها لألحاظ الملاحِ

فلعَمْرُ الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حُرّ أصبح به عبدا للصبيان ، والصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا ، وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارق والحشايا ، وكم من

معافى تعرّض له فأمسى ، وقد حلّت به أنواع البلايا .

فسل ذا خبرة يُنبيك عنه لتعلم كم خبايا في الزوايا
وحاذرْ إن شُغفت به سهامًا مُرَيّشة بأهداب المنايا
إذا ما خالطتْ قلبًا كئيبًا تمزق بين أطباق الرزايا
ويصبح بعد أن قد كان حرًّا عفيف الفرج ، عبدًا للصبايا
ويُعطى مَنْ به يُغنى غناء وذلك منه من شر العطايا

٣٦ - التَّشبُّه بالكافرين

قال رسول الله ﷺ : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »[(١)] .

قال المناوي :

أي حكمه كحكمهم ، وذلك لأن كل معصية من المعاصي ميراث أمة من الأمم التي أهلكها الله ، فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث قوم شعيب ، والعلو في الأرض ميراث قوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث قوم هود ، فكل من لبس من هؤلاء شيئًا فهو منهم وهكذا[(٢)] .

قال الذهبي :

قد أوجب الله عليك أن تدعو الله تعالى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة بالهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وقد قال رسول الله ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وأبو يعلى ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وصححه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ، وقال المناوي : قال الهيثمي : فيه عبد الرحمن بن ثابت عن ثوبان وثقه ابن المديني وأبو حاتم ، وضعّفه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، وذكره البخاري في الصحيح في الجهاد تعليقًا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٢٨ ، والإرواء ١٢٥٦ ، وحجاب المرأة ١٠٤ .

(٢) فيض القدير (٣ / ٢٠٤) .

ضالون »[١]، فكيف تطيب نفسك بالتشبه بقوم هذه صفتهم ، وهم حطب جهنم .

ولو قيل : تشبه بمسخرة لأنفت من ذلك وغضبت !! وأنت تشبه بأقلف عابد صليب ، فأين يُذهب بك إن فعلت ذلك إلّا إلى مقت الله وسخطه إن لم يغفر الله لك ، إن علمت أن نبيك محمدًا ﷺ كان يحض على مخالفة أهل الكتاب في كل ما اختصوا به .

حتى إن الشيب الذي هو نور الإسلام ، قال فيه رسول الله ﷺ : « من شاب شيبة في الإسلام ، كانت له نورًا يوم القيامة»[٢]. قد أمرنا نبينا بالخضاب؛ لأجل مخالفتهم فقال ﷺ : « إن اليهود لا يخضبون فخالفوهم »[٣] . ففرض علينا مخالفة ما اختصوا به في صور كثيرة .

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - أنه قال : « من صنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم ، حتى يموت وهو كذلك ، ولم يتب ، حشر معهم يوم القيامة » . رواه عوف عن المغيرة عن عبد الله[٤] .

وقال حذيفة - رضي الله عنه - : من تشبه بقوم فهو منهم ، ولا يشبه الزي الزيّ حتى يشبه الخُلقُ الخُلق .

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : لا يشبه الزي الزي حتى تشبه القلوب القلوب[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي وأحمد، وابن حبان، وفي سنده عباد بن حبيش، لم يرو عنه إلا راوٍ واحد ووثقه ابن حبان! وقال الحافظ: مقبول، وللحديث شواهد عدة موقوفة ومرفوعة، أوردها السيوطي في الدر المنثور فالحديث حسن. انظر التعليق ص٢١ على رسالة: تشبه الخسيس بأهل الخميس. ورواه الترمذي بلفظ «ضلال» عن عدي بن حاتم وهو صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي ، والحديث صححه الألباني في الصحيحة (٣ / ٢٤٨) .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والنسائي ، وابن ماجة ، وأحمد عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٩/٢٣٤)، وصحح إسناده ابن تيمية في الاقتضاء (٤٥٧/١).

(٥) تشبه الخسيس بأهل الخميس في رد التشبه بالمشركين للحافظ الذهبي تحقيق : علي حسن علي عبد الحميد طبع دار عمار .

قال ﷺ : «لتركبن سُنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضبّ لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه بالطريق لفعلتموه»(١).

٣٧ - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله : إيمان بالله ، ثم صلة الرحم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأبغض الأعمال إلى الله : الإشراك بالله ، ثم قطيعة الرحم »(٢) .

وقال ﷺ : « إذا عملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها »(٣) .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »(٤) .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه ، أوشك أن يعمهم الله بعقابه »(٥) .

وقال رسول الله ﷺ : «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام، والصلاة، والصدق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»(٦).

وقال رسول الله ﷺ: «إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة،

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٤٣ .

(٢) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده عن رجل من خثعم ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٤ .

(٣) حسن : رواه أبو داود عن العرس بن عميرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٢.

(٤) صحيح : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي بكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٦٩ .

(٥) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن أبي بكر ، ورواه الطحاوي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٧٠ .

(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن حذيفة .

وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »[١]. والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب »[٢] .

هؤلاء الذين تركوا الأمر بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ؛ مخافة الناس وعقاب الطغاة ، يبتليهم الله بعقاب فالله أحق أن يخشوه ، والجزاء من جنس العمل .

إلا لو كان الأمر فوق طاقته ، وقدرته ، بحيث يعرض نفسه ودينه وعرضه وماله للفتن .

قال ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه: يتعرض للبلاء لما لا يطيق»[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى يسأله: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقَّن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتُك وفَرقت من الناس »[٤] .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه ، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن سلمان وقبيصة وعن ابن عباس وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، وابن حبان عن جرير وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٦٢٥ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة عن حذيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٦٧٤ .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد، ورواه الحميدي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨١٤ ، والصحيحة رقم ٩٢٦ .

إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهواتِ استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة إما متكفلًا بعملها ، أو متقلدًا لتنفيذها ، مجددًا لهذه السنة الدائرة ، ناهضًا بأعبائها ، ومتشمرًا في إحيائها ، كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًّا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها[(١)] .

الآمرون بالمعروف ، الناهون عن المنكر عليهم أن يمضوا في هذا الطريق ، ويحتملوا تكاليفه ، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع ، وزادهم هو الإيمان ، وسندهم هو الله ، وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد ، وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفلّ ، وكل سند غير سند الله ينهار ![(٢)] .

إن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة وسمة لهذه الأمة ، وإن درست هذه الدعوة ، فقد حلّ عليها غضب ربها وعرّضت نفسها لانتقام العزيز الجبار فما استحق بنو إسرائيل اللعن إلا بتركهم النهي عن المنكر ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ [المائدة : ٧٩] .

وبيّن الله أن أحبارهم أثموا بتركهم النهي عن المنكر ، فقال تعالى : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وبيّن أنه أهلك القرون إلا قليلًا منهم كانوا ينهون عن الفساد ، فقال تعالى :

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢ / ٣٣٣) ، دار الريان للتراث .

(٢) الظلال (١ / ٤٤٨) .

﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ [هود: ١١٦] .

سئل حذيفة – رضي الله عنه – عن ميت الأحياء ، فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ، ولا بلسانه ، ولا بقلبه .

وقد كان سفيان إذا رأى المنكر ولم يغيره بال الدم .

وعند فساد الزمان وعدم الصبر على الأذى والفتنة في العرض والدين ، فليقدر الإنسان على نفسه فيقوم بها ، وينكر أحوال الغير بلسانه ، وبقلبه فإن البحر إذا انبثق فمن يقدر أن يسكره . فإذا لم يصل الأمر إلى هذا فلا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإلا فليسمع كيف يكون الجزاء من جنس العمل في هذا ؟.

يقول الإمام القدوة الزاهد العابد القوّال بالحق ، الأمّار بالعُرْف العمري أبو عبد الرحمن : إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله ، بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه ، ولا تأمر ، ولا تنهى خوفًا من المخلوق .

من ترك الأمر بالمعروف خوف المخلوقين، نُزِعت منه الهيبة، فلو أمر ولده، لاستخف به[1].

يرحم الله العمري الذي قال فيه مصعب الزبيري : « ما أدركت بالمدينة رجلًا أهيب منه ، وقدم الكوفة ليُخَوِّف الرشيد بالله ، فرجف لمجيئه الدولة ، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ، ما زاد من هيبته ، فرُدّ من الكوفة ولم يصل إليه[1].

عن علي بن حرب ، عن أبيه قال : مضى الرشيد على حمار ، ومعه غلام إلى العُمري ، فوعظه ، فبكى ، وغُشي عليه .

قال العمري رحمه الله : قال لي موسى بن عيسى : ينهى إلى أمير المؤمنين أنك تشتمه وتدعو عليه ، فبم استجزت هذا ؟ قلت : أما شتمه ، فوالله لهو أكرم عليّ من نفسي ، لقرابته من رسول الله ﷺ ، وأما الدعاء عليه ، فوالله ما قلت : اللهم ، إنه قد أصبح عبئًا ثقيلًا على أكتافنا ، فلا تطيقه أبداننا ، وقذًى في جفوننا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٧٥/٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٧٥/٨) .

فلا تطرِف عليه جفوننا ، وشجًى في أفواهنا لا تُسيغه حلوقنا ، فاكفنا مؤنته ، وفرِّق بيننا وبينه ، ولكن قلت : اللهم إن كان تسمى الرشيد ليرشد ، فارشده ، أو لغير ذلك فراجع به ، اللهم إن له في الإسلام بالعباس على كل مؤمن كفًّا ، وله بنبيك ﷺ قرابة ورحم ، فقربه من كل خير ، وباعده من كل سوء ، وأسعدنا به وأصلحه لنفسه ولنا. فقال موسى: رحمك أبا عبد الرحمن، كذاك لعمري الظن بك[1] .

٣٨ - نقص المكيال والميزان

قال رسول الله ﷺ : « خمس بخمس ، ما نقض قوم العهد[2] إلا سُلِّط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال والميزان إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين[3]، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر »[4] .

وفي الحديث : « ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤنة[5]، وجور[6] السلطان عليهم » .

فمن طفف فله الويل ، ومن طفف الميزان عوقب بجور الحاكم والسلطان ، وأخذوا بالجدب والقحط ، ولا يغنيهم من شيءٍ التطفيف ، والجزاء من جنس العمل .

٣٩ - أكل مال اليتيم

قال تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا** ﴾ [النساء : ٩-١٠] .

قال ابن كثير :

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٧٦/٨) .

(٢) عهد الله وعهد رسوله ﷺ .

(٣) مفردها سَنَة . وهي الجدب والقحط .

(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٣٥ .

(٥) ضيق النفقة .

(٦) ظلمة .

كما تحب أن تُعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذرياتهم إذا وليتهم .

والجزاء من جنس العمل .

ثم يقول عن أكل مال اليتيم الذي هو أحد السبع الموبقات :

ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلماً فإنما يأكل في بطنه نارًا ، أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب ، فإنما يأكلون نارًا تأجج في بطونهم يوم القيامة(١).

والجزاء من جنس العمل .

٤٠ - ترك الحكم بما أنزل الله

مرّ في الحديث : « وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر » .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا** ﴾ [طه : ١٢٤] .

ومرّ أيضًا في الحديث : « ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتخيروا(٢)؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم » جزاءً وفاقًا .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « حَدٌّ يُعْمل في الأرض ؛ خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا »(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرًا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون** ﴾ [المائدة : ٤٩-٥٠] .

---

(١) تفسير ابن كثير (١٩٤/٢) .

(٢) أي يطلبوا الخير والسعادة باتباعهم ما أنزل الله .

(٣) حسن : رواه النسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٢٥ .

والحكم بغير ما أنزل الله كذب وزور ، قال تعالى : ﴿ **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

والحكم بغير ما أنزل الله افتراء على الله ، قال تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالًا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون** ﴾ [يونس : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾ [النحل : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون** ﴾ [الزخرف : ٣٦-٣٩] .

خفافيش أعماها النهار بضوئه   ووافقها قِطع من الليل مظلمُ

وقال آخر :

مثل النهار يزيد أبصار الورى   نورًا ويعمي أعين الخفاش

إن البعد عن القرآن وحكمه انحطاط ، فالحكم بالقرآن واتباعه شرف وعلو : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

إن الذين جهلوا عمومية الإسلام وشموله من صبيان العلمانية ، وتلطخوا بوحل الغربُ ، إن طفوا فسماؤهم أقدام الغرب الكريهة الكارهة ، وإن غاصوا فمع الديدان والحشرات ، عليهم أن يقُوِّموا من جديد درجة انتمائهم إلى الإسلام العزيز الرفيع .

إذا أنت غُمّت عليك السماء   وضلت حواسك عن صبحها

فعشْ دودة في ظلام القبور   تغوص وتسبح في قيحها

ومن أعرض عن القرآن وحكمه فشا الفقر في دولته ، وجعل الله بأسهم بينهم شديدًا ، جزاءً وفاقًا ، فحكم الله أمن ، وحكم الله سلام ﴿ **أفغير دين الله**

يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا .. ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

والحكم بما أنزل الله عبودية لله وإيمان به ، ومن أعرض عنه عوقب بنقيض قوله : ﴿ **فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ [النحل : ٩٧] ونقيض قوله : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

٤١ - التخلف عن الغزو

قال تعالى مخبرًا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب ، الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم ، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ ، فاعتذروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ : ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًا أو أراد بكم نفعًا بل كان الله بما تعملون خبيرًا بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظنَّ السوء وكنتم قومًا بورًا** ﴾ [الفتح : ١١-١٢] .

هؤلاء لم يكن تخلفهم تخلف نفاق كما ذهب إلى ذلك الإمام ابن كثير رحمه الله ، وإنما تخلف جبن وهلع ، وكانوا يقولون : إن الرسول ﷺ وأصحابه أكلة رأس ، واعتقدوا أنهم سيقتلون ، وتستأصل شأفتهم ، وتستباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم مخبرًا ؛ فعاد البوار عليهم ، وصاروا هلكى فاسدين إذ حرموا من مصاحبة رسول الله في الحديبية ونعيم القرب منه .

فماذا كان جزاؤهم وهل كان من جنس عملهم ؟!! .

قال تعالى : ﴿ **سيقول لك المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلًا** ﴾ [الفتح : ١٥] .

قال ابن كثير :

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية ، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله رسوله

ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك ، معاقبة لهم من جنس ذنبهم ؛ فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا(١) .

أما القول ، بأن هذا التخلف تخلف نفاق ، وما ذهب إليه ابن زيد في قوله : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ قال : هو قوله : ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ [التوبة : ٨٣] فيه نظر ، لأن هذه الآية التي في « براءة » نزلت في غزوة تبوك ، وهي متأخرة عن صلح الحديبية ، وبدليل أن الله قال في الآيات التي بعد ذلك ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ الآية [الفتح : ١٦] فلو كانوا منافقين لما دعاهم للخروج .

٤٢ - غش المسلمين

قال رسول الله ﷺ : « من غشَّ فليس منا »(٢) .

وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا »(٣) .

وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا ، والمكر والخداع في النار »(٤)

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣١٩-٣٢٠) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٢.

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه في سننه عن أبي الحمراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٣ .

(٤) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ، وابن حبان ، والطبراني في الأوسط ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٤ .

ليس منا ؛ أي ليست أخلاقه من أخلاقنا .

وذهب الذهبي إلى أن الغش والمكر والخداع من الكبائر .

قال الإمام أحمدُ : حَدَّثَنا بَهْزٌ حدثنا حَمَّادُ بنُ سلَمَةَ أخبرنا إسحاقُ بن عبد الله عن أبي صالحٍ عن أبي هُريرةَ ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ رَجُلًا حَمَلَ مَعَهُ خَمْرًا في سَفِينَةٍ يَبِيعُهُ ومَعَهُ قِرْدٌ » .

قالَ : « فكَانَ الرَّجُلُ إذا بَاعَ الخَمْرَ شَابَهُ بِالْمَاءِ ثُمَّ بَاعَهُ » .

قَالَ : « فَأَخَذَ القِرْدُ الكِيسَ ، فَصَعِدَ بِهِ فَوْقَ الدَّقَلِ » .

قَالَ : « فَجَعَلَ يَطْرَحُ دِينارًا في البَحْرِ ودِينارًا في السَّفِينَة حَتَّى قَسَمَهُ »[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٠٦) ، ومن طريقه النقاش في فنون العجائب (رقم ٧٩) ، وإسناده صحيح .

بَهز : هو بَهْز بن أسد العَمِّي .

وإسحاق بن عبد الله : هو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة . وأخرجه أيضًا (٢/٣٣٥) ، ومن طريقه النقاش (٧٨) عن سليمان بن حرب ، و(٢/٤٠٧) عن عفان ؛ كلاهما عن حماد بن سلمة به .

وأخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٢/١٠٤-١٠٥) ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/٢٨) ؛ من طريق أبي حرة [واصل بن عبد الرحمن] عن الحسن عن أبي هريرة به .

وأبو حرة صدوق عابد يدلِّس ، وقد عنعن ، وروايته عن الحسن ضعيفة ؛ كما قال ابن معين.

وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٨٣) للبيهقي ، وقال : لا أعلم في رواته مجروحًا ، وروي عن الحسن مرسلًا .

التفسير :

- **شَابَهُ** : أي : خلطه ومَزَجَه .

- **الدَّقَلُ** : بالتحريك ؛ قال ابن الأثير : خشبةٌ يمدُّ عليها شراع السفينة ، وتسميها =

قال ابن الجوزي .

كان لبّان يخلط اللبن بالماء ، فجاء سيل فأهلك الغنم ، فجعل يبكي ويقول : اجتمعت القطرات فصارت سيلًا ، ولسان الجزاء يناديه : يداك أوكتا وفوك نفخ[1] .

فيا من معاصيه أكثر من أن تحصى ، ويا من رضي أن يطرد ويقصى ، يا دائم الزلل وكم ينهى ويوصى ، يا جهولًا بقدرهم ومثلهم لا يعصى .

ابك على قسوتك ، واندم على غفلتك ، وتذكر ظلمة حفرتك ، ويا دائم المعاصي خف من غب معصيتك ، ويا سيء الأعمال نح على خطيئتك ، نُح نَوْحَ نُوح ، تحيا حياة يحيى ، مجلسنا مأتم للذنوب ، فابكوا فقد حلّ منا البكا ، ويوم القيامة ميعادنا لكشف الستور وهتك الغطا .

إذا ما قال لي ربي ... أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي ... وبالعصيان تأتيني

فما قولي له لمًّا ... يعاتبني ويقصيني

ويقول آخر :

يا مَنْ تمتع بالدنيا وزينتها ... ولا تنام عن اللذات عيناهُ

أفنيت عمرك فيما لست تدركه ... تقول لله ماذا حين تلقاهُ

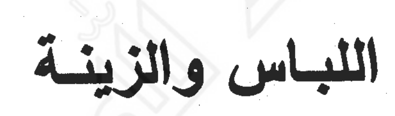
* * *

= البحريَّة الصَّارى .

الفوائد والعبر :

- **منها** : إثبات ذكاء بعض الأصناف من الحيوان ، ومنها هذا المعروف بمحاكاته للإنسان ؛ وتقليده له في أفعاله وسلوكه .

(١) اليواقيت الجوزية لابن الجوزي ص٦٨ تحقيق السيد عبد المقصود طبع مكتبة السنة .



اللبـاس والزينـة



◻ اللباس والزينة ◻

قال تعالى : ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوآتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون** ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

لقد كان العري وتكشف السوآت والخصف من ورق الجنة ثمرة لمعصية الله .

وفي مواجهة مشهد العري الذي أعقب خطيئة آدم ، ومواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية - يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم ويسّر لهم ، وشرع لهم اللباس الذي يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة بهذا الستر وجمالًا ، بدل قبح العري وشناعته .

واللباس قد يطلق على ما يواري السوأة ، وهو اللباس الداخلي . والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثياب ، كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال ، وهي كلها معانٍ متداخلة متلازمة .

قال تعالى ممتنًّا على عباده باللباس والزينة : ﴿ **وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ [النحل : ٨١] .

وقال تعالى : ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله ...** ﴾ الآية.

فهناك تلازم بين شرع الله اللباس ، لستر العورات والزينة ، وبين التقوى ، كلاهما لباس ، هذا يستر عورات القلب ويزينه ، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه ، وهما متلازمان ، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه . ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري ، العري من الحياء والتقوى والعري من اللباس وكشف السوأة ! .

إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم ؛ لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون - إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان ؛ ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر ، وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق . والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر ، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ! وفي تمكينهم منه بما يسّر لهم من الوسائل ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ .

إن الكثير من عمائم السلطات ، وصبيان العلمانية ، لم يرتقوا إلى ما تكلم به الصليبي ولي عهد بريطانيا تشارلز حين يقول : « من الأمور التي أثارت اهتمامي أني علمت أن عادة ارتداء النقاب ترجع إلى حد كبير إلى التقاليد البيزنطية والساسانية ، وليس إلى نبي الإسلام[1] وبعض النساء المسلمات وبخاصة جيل الشابات منهن اخترن مؤخرًا ارتداء النقاب ، أو غطاء الرأس كتعبير شخصي عن هويتهن الإسلامية لكن يجب علينا ألا نخلط بين الاحتشام في الملبس كما فرضه القرآن على الرجال والنساء على السواء وبين الأشكال الخارجية لعادة علمانية أو منزلة اجتماعية تستمد أصولها من مصادر أخرى غير الإسلام »[2].

ومع أنه يدس السم في العسل ، فظاهر كلامه خير ممن يقول : إن النقاب تعبير عن كبت جنسي، أو ما يقوله الزنادقة من لباس العفاريت، وأن من ترتديه فهي خيمة.

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم ؛ والدعوة السافرة لهم إلى العري الجسدي باسم الزينة والحضارة والمودة ! وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم ، والتعجيل بانحلالهم؛ ليسهل

---

(١) هذا كذب من تشارلز ، وشرف يحاول أن يدعيه .

(٢) من محاضرة لولي عهد بريطانيا ألقاها في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٩٣م . نقلًا عن مجلة الأزهر الجزء السابع السنة السادسة والستون رجب سنة ١٤١٤هـ ص١٠٠٢ تحت عنوان دراسة موضوعية في محاضرة الأمير تشارلز بقلم محمد محمد عتريس .

تعبيدهم لملك صهيون ويهود ! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين في صورة عواطف غامضة في أعماق النفوس ! فحتى هذه توجه لها معاول السحق بتلك الحملة الفاجرة الداعية إلى العري النفسي والبدني ، الذي تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان ! .

والزينة الإنسانية هي زينة الستر ، بينما الزينة الحيوانية . هي زينة العري .. ولكن الآدميين في هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية ، تَرُدُّهم إلى عالم البهيمية ، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!!! .

إن الذين يريدون تعرية المرأة من حجابها ونقابها يريدون تعريتها من تقواها وحيائها ، بل وتعريتها من دينها .

وهؤلاء لابد أن يعريهم ويفضحهم كل صادق .

حتى يعلم كل غافل أن هؤلاء الممسوخين المشوهين ما هم إلا صبيان لإباحية الغرب، وأقزام تُرمرم من فتات مدرسة العري الصليبية وتشرب من كؤوسهم الثمالة .

ينعق هنا الأقزام ، وتتصدى دولة صليبية كبرى لفتاة مسلمة تريد ارتداء الحجاب ، وتمنعها من دخول المدرسة ، دولة صليبية كفرنسا ترتعش من حجاب امرأة ، ارتدته لباسًا وريشًا تعبيرًا عن لباس التقوى لباطنها .

قمرٌ توشَّح بالسَّحابْ
غَبَشٌ تَوغَّلَ حَالِمًا بِفجاجِ غابْ
فجرٌ تَحَمَمَ بالندى
وأطلَّ من خلف الهِضابْ
الورد في أكمامِهِ
أَلَقُ اللآلىء في الصَدَفْ
سُرُجٌ تُرفرف في السَدَفْ
ضَحكاتُ أشرعةٍ يؤرجهُا العُبابْ
ومرافىءٌ بيضاءُ
تنبضُ بالنقاءِ العَذْبِ من خَلَلِ الضبابْ

من أيِّ سحرٍ جئتِ أيَّتُها الجميلهْ ؟
من أيِّ بارِقَةٍ نبيلهْ
هطلتْ رؤاكِ على الخميلةِ فانتشى عطرُ الخميلهْ؟
من أيِّ أفقٍ ذلك البردُ المتوّجُ باللهيبِ
وهذهِ الشمسُ الظليلهْ؟!
من أي نبْعٍ غافل الشفتينِ تندلع الورودُ ؟
من الفضيله
هي ممكناتٌ مستحيلهْ!
قمرٌ على وجه المياهْ
يَلُمّهُ العُشبُ الضيئلُ
وليسَ تُدْرِكهُ القِبابْ
قمرٌ على وجه المياهْ
سُكونُه في الاضطرابِ
وبُعْدهُ في الاقترابْ
غَيبٌ يَمُدُّ حُضورَهُ وَسْطَ الغيابْ
وطنٌ يَلُـمُّ شتاتَهُ في الاغترابْ
روحٌ مُجَنَّحةٌ بأعماقِ الترابْ!
وهي الحضارةُ كلُّها
تَنْسَلُّ من رَحِـم الخرابْ
وتقومُ سافرةً
لتختزِل الدُّنا في كِلمتين
(أنا النقابْ)
الحُسنُ أسفرَ بالحجابِ
فما لها حُجُب النفورْ
نزلَت على وجهِ السفورْ؟

واهًا ...
أرائحةُ الزهورِ
تَضيرُ عاصمة العطورْ ؟
أَتَعِفُّ عن رشْفِ الندى شَفَةُ البكورْ ؟
أيضيقُ دَوْحٌ بالطيورْ ؟؟
يا للغرابةِ !
لا غرابهْ
أنا بسمةٌ ضاقت بفرحتها الكآبه
أنا نغمةٌ جَرحَت خلُودَ الصمتِ
وازدرتِ الرتابَهْ
أنا وَقْدةٌ مَحَتِ الجليدَ
وعَبَّأَتْ بالرُّعْبِ أفئدة الذئابْ
أنا عِفَّةٌ وطهارةٌ بين الكلابْ
الشمسُ حائرةٌ
يدورُ شِراعُها وَسْطَ الظلامِ
بغير مرسى
الليلُ جَنَّ بأفْقها والصبحُ أمسى !
والوردةُ الفيحاءُ تصفعها الرياحُ
ويحتويها السيلُ دَوْسَا
والحانةُ السكرى تُصارعُ يقظتي
وتصُبُّ لي ألمًا ويأسَا
سأغادرُ المبغى الكبيرَ ولستُ آسى
أنا لستُ غانيةً وكأسَا !
نعلاكِ أوسعُ من فرنسا
نعلاكِ أطهرُ من فرنسا كلها

جَسَدًا ونَفْسَا
نعلاك أجملُ من مبادىءِ ثورةٍ
ذُكِرَتْ لِتُنْسَى
مُدِّي جذُورَك في جذورِكِ
واتركي أن تتركيها
قِرِّي بمملكة الوقارِ
وسَفِّهي المِلكَ السفيها
هي حرَّةٌ ما دامَ صوتكِ ملءَ فيها
وجميلةٌ ما دمتِ فيها
هيَ مالَها من مالِها شيءٌ
سوى (سِيدا) بَنِيها !
هي كُلُّها ميراثُكِ المسروقُ
أسفلتُ الدروبِ
حجارةُ الشرفاتِ
أوعيةُ المعاصِرْ
النفطُ ، زيت العطرِ
مسحوقُ الغسيلِ
صفائحُ العرباتِ
أصباغُ الأظافرْ
خَشَبُ الأسرَّةِ
زئبقُ المرآةِ
أقمشةُ الستائرْ
غازُ المدافىءِ
مَعدنُ الشَّفَراتِ
أضواءُ المتاجِرْ

وسِواهُ من خيرٍ يسيلُ بغيرِ آخِرْ
هي كُلها أملاكُ جَدّكِ
في مراكشَ
أو دمشقَ
أو الجزائرْ !
هيَ كُلُّها ميراثُكِ المغصوبُ
فاغتصبي كنوزَ الاغتصابْ
زاد الحسابُ على الحسابِ
وآنَ تسديدُ الحسابْ
فإذا ارتضتْ .. أهلًا
وإنْ لم ترض
فلترحَلْ فرنسا عن فرنسا
نفسِها
إن كانَ يزُعجهُا الحجابْ[1]

قال تعالى : ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ [الأعراف : ٣١-٣٣] .

من عجيب ما روي من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ، ووجه إليهم هذا الاستنكار الوارد في قوله تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله**

(١) قصيدة « الحسن أسفر بالحجاب » شعر أحمد مطر - نقلًا عن مجلة هاجر ملحق المختار الإسلامي لنساء المسلمين العدد الأول ربيع الأول ١٤١١هـ ص١٧ .

التي أخرج لعباده ... ﴾ ما رواه الكلبي قال : لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها .. فنزلت الآية .

فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ! ناس يطوفون ببيت الله عرايا ؛ فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التي يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء في الجنة ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ [الأعراف : ٢٢] فإذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين ، في زينة الله التي أنعم بها على البشر ؛ لإرادته بهم الكرامة والستر ؛ ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الإنسانية في سلامتها وجمالها الفطري ، وليتميزوا عن العري الحيواني .. الجسمي والنفسي .. إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله في زينة الله وفق فطرة الله عيروهم .

هكذا تصنع الجاهلية بالناس ، هكذا تمسخ فطرهم وأذواقهم ، وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ! وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس في هذا الأمر غير الذي فعلته بالناس في جاهلية المشركين العرب ؟ وجاهلية المشركين الإغريق ؟ وجاهلية المشركين الرومان ؟ وجاهلية المشركين الفرس ؟ وجاهلية المشركين في كل زمان وكل مكان ؟ .

ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعرّيهم من اللباس ، وتعريهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدّعي هذا رقيًّا وحضارة وتجديدًا ، ثم تعيّر الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات ، بأنهن رجعيات .. تقليديات .. ريفيات .

المسخ هو المسخ ، والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس ، وانقلاب الموازين هو انقلاب الموازين ، والتبجح بعد ذلك هو التبجح .. ﴿ **أتواصوا به بل هم قوم طاغون** ﴾ [الذاريات : ٥٣] .

وما الفرق كذلك في علاقة هذا العري ، وهذا الانتكاس ، وهذه البهيمية ، وهذا التبجح ، بالشرك ، وبالأرباب التي تشرع للناس من دون الله ؟ .

لئن كان مشركو العرب قد تلقوا في شأن ذلك التعري من الأرباب الأرضية التي تستغل جهالتهم وتستخف بعقولهم لضمان السيادة لها في الجزيرة ، فإن مشركي اليوم ومشركاته يتلقون في هذا عن الأرباب الأرضية كذلك .ولا يملكون لأمرهم ردًّا .

إن بيوت الأزياء ومصمميها ، وأساتذة التجميل ودكاكينها لهي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك .

إن هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مزرية ! صاغرة ، تطيع تلك الأرباب ، وإلا عُيّرت من بقية البهائم المغلوبة على أمرها .

ومن الذي يقبع وراء بيوت الأزياء ، ووراء دكاكين التجميل ، ووراء سعار العري والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والمجلات والصحف التي تقود هذه الحملة المسعورة ، الذي يقبع وراء هذه الأجهزة كلها يهود ، يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها .

إن قضية اللباس ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة ، ومنْ ثمَّ ذلك الربط بينها وبين قضية الإيمان والشرك في السياق .

إنها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى .

إنها تتعلق قبل كل شيء بالربوبية ، وتحديد الجهة التي تشرع للناس في هذه الأمور ، ذات التأثير العميق في الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة .

كذلك تتعلق بإبراز خصائص الإنسان في الجنس البشري .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون : ما للدين والزي ؟ ما للدين وملابس النساء ؟ ما للدين والتجميل ؟ إنه المسخ الذي يصيب الناس في الجاهلية في كل زمان وفي كل مكان!! .

ولأن هذه القضية التي تبدو فرعية ، لها كل هذه الأهمية في ميزان الله وفي حساب الإسلام لارتباطها أوّلًا بقضية التوحيد والشرك ، فإن السياق يعقب عليها بإيقاع مؤثر ، يوقع به عادة في مواقف العقيدة الكبيرة ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾[1] [الأعراف : ٣٤] .

---

(١) الظلال (٣/ ١٢٨٣-١٢٨٥) .

من لبس ثوب شهرة :

قال رسول الله ﷺ : « من لبس ثوب شهرة ، ألبسه الله يوم القيامة ثوبًا مثله ، ثم تلهب فيه النار »[(١)] .

قال المناوي .

« من لبس ثوب شهرة » أي : ثوب تكبر وتفاخر ، والشهرة هي التفاخر في اللباس المرتفع أو المنخفض للغاية .

« ألبسه الله يوم القيامة » التي هي دار الجزاء وكشف الغطاء .

« ثوبًا مثله » أي : يشمله بالذل ، كما يشمل الثوب البدن في ذلك الجمع الأعظم ، بأن يصغره في العيون ، ويحقره في القلوب ؛ لأنه لبس شهوة الدنيا ليفتخر بها على غيره فيلبسه الله مثله .

« ثم تلهب فيه النار » عقوبة له بنقيض فعله ، والجزاء من جنس العمل ، فأذله الله كما عاقب من أطال ثوبه خيلاء بأن خسف به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

ولبس الدنيء من الثياب يذمّ في موضع ويمدح في موضع ، فيذم إذا كان شهرة وخيلاء ، ويمدح إذا كان تواضعًا واستكانة ، كما أن لبس الرفيع منها يذم إذا كان للكبر أو للفخر .

ويمدح إذا كان تجملًا وإظهارًا للنعمة[(٢)] .

وقال ﷺ : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[(٣)] .

وقال ﷺ : « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[(٤)].

وقال ﷺ : « إن الذي يجر ثوبه من الخيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة »[(٥)].

---

(١) حسن : رواه أبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٠٢ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٦/ ٢١٨-٢١٩) .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجة عن أنس .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجة عن ابن عمر .

(٥) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن ابن عمر .

اللباس واللعن :

قال ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاقّ لوالِديه ، والديوث ، ورجلة النساء »[١]. أي : المترجلة من النساء .

وقال ﷺ : « لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل »[٢] .

وقال ﷺ : « لعن الله الرَّجُلة من النساء »[٣] .

وقال ﷺ : « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء »[٤] .

وقال ﷺ : « لعن الله المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء »[٥] .

وقال ﷺ : « ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ، ولا من تشبه بالنساء من الرجال »[٦] .

قال الحافظ في الفتح :

قال الطبري : لا يجوز للرجال التشبه بالنساء في اللباس والزينة التي تختص بالنساء ، ولا العكس . قلت : وكذا في الكلام والمشي . فأما هيئة اللباس

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٣٠٥٨ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٤٩٧١ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٧٢ .

(٤) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٧٦ .

(٥) صحيح : رواه البخاري في الأدب ، والترمذي عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٧٩ .

(٦) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٣٠٩ .

فتختلف باختلاف عادة كل بلد ، فرُبَّ قوم لا يفترق زي نسائهم من رجالهم في اللبس ، لكن يمتاز النساء بالاحتجاب والاستتار ، وأما ذم التشبه بالكلام والمشي فمختص بمن تعمَّد ذلك ، وأما من كان من أصل خلقته فإنما يؤمر بتكلف تركه ، والإدمان على ذلك بالتدريج ، فإن لم يفعل وتمادى دخله الذم ، ولا سيما إن بدا منه ما يدل على الرضا به . قال ابن التين : المراد باللعن في هذا الحديث من تشبه من الرجال بالنساء في الزي، ومن تشبه من النساء بالرجال كذلك ، فأما من انتهى في التشبه بالنساء من الرجال إلى أن يؤتى في دبره ، وبالرجال من النساء إلى أن تتعاطى السحق بغيرها من النساء ، فإن لهذين الصنفين من الذم والعقوبة أشد ممن لم يصل إلى ذلك ، وإنما أمر بإخراج من تعاطى ذلك من البيوت لئلا يفضي الأمر بالتشبه إلى تعاطي ذلك الأمر المنكر .

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة - نفع الله به - ما ملخصه : ظاهر اللفظ الزجر عن التشبه في كل شيء ، لكن عرف من الأدلة الأخرى أن المراد التشبه في الزي وبعض الصفات والحركات ونحوها ، لا التشبه في أمور الخير .

واللعن من علامات الكبائر .

قال : والحكمة في لعن من تشبه إخراجه الشيء عن الصفة التي وضعها عليه أحكم الحكماء ، وقد أشار إلى ذلك في لعن الواصلات بقوله : « المغيرات خلق الله »[1] فمن أخرج الشيء عن صفته طرد من رحمة الله جزاءً وفاقًا .

المترجلة لا ينظر الله إليها .

قال ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث ، وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى »[2] .

فالثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق الوالدين الذي حرم

---

(١) فتح الباري (١٠/٣٤٥-٣٤٦) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والنسائي والحاكم في مستدركه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٧١ .

والديه من نظر الرحمة إليهما والإقبال عليهما . والديوث الذي يرى الخبث في أهله ، والمترجلة من النساء التي تخرج على الفطرة ، وتسترعي انتباه ونظر الرجال إليها ، كذا لا ينظر الله إليها ، جزاءً وفاقًا .

والجزاء من جنس العمل .

من ترك اللباس تواضعًا لله :

قال رسول الله ﷺ : « من ترك اللباس تواضعًا لله ، وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها »[1] .

قال المناوي :

« من ترك اللباس » أي : لِبْس الثياب الحسنة ، وفي رواية « ترك ثوب جمال » « تواضعًا لله » أي : لا ليقال : إنه متواضع أو زاهد ونحوه والناقد بصير .

« وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » أي : يشهره بين الناس ، ويباهي به ، ويقال : هذا الذي صدرت منه هذه الخصلة الحميدة .

« حتى يخير من أي حلل الإيمان شاء يلبسها » ومن ثم كان النبي ﷺ يلبس الصوف ، ويعتقل الشاة .

ثم هذا إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، وأن التواضع الفعلي مطلوب كالقولي ، وهذا من أعظم أنواع التواضع ؛ لأنه مقصور على نفس الفاعل فمقاساته أشق بخلاف التواضع المتعدي ، فإن خفض الجناح ، وحسن التخلق أخف على النفس من هذا لرجوعه لحسن الخلق ، لكن بزيادة نوع كسر ولين جانب ، ولمّا أرادوا أن يغيروا زي عمر عند إقباله على بيت المقدس زجرهم وقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلن نلتمس العزّ بغيره[2] اهـ .

---

(١) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك عن أنس ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٢١ ، والصحيحة رقم ٧١٧ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٦/١٠١) .



القرآن والأذكار



القرآن والأذكار

أعذب مورد وردته عطاش القلوب ، موردُ الذكر والتوحيد ، وأطيبُ نسيم هب على مشامّ القلوب ، نسيمُ الأنس بالله عز وجل .

التلذذ بحلاوة مناجاة الله كؤوس رحيق الأرواح ، وذكر الله جلاء رمد العقول ، ودرر حمد الله ، لا يُرصَّعُ بها إلا تيجانُ مفارق الأسرارِ ، ومسكُ شكره لا يَعبق إلا في جيوب ثياب الأرواح ، وَوِرْدُ الثناء عليه لا يَطْلع إلا على شجر ألسن عباده المؤمنين .

إن ذكرت ربك بألسن حسن صنْعه ، فتح أقفال قلبك ، وإن ذكرته بألسن لطائف أسرار أمره ، فأنت ذاكر على الحقيقة ، وإن ذكرته بقلبك قرَّبَك من جنات رحمته ، وإن ذكرته بسرك ، أدناك من مواطن القدس ، وإن صدقت في حبه حملك بجناح لطفه إلى مقعد صدق .

ما عرف قدر جلاله من فتر لحظة عن ذكره ..

قال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذكره ، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه ، ولا طابت الجنة إلا برؤيته .

أبـدًا .. نفـوس الطالبيــ ـن إلى رياضكم تحـنُّ
وكذا القلوب بذكركـمْ بعـد المخافـة تطمئــنُّ
حنت بذكركم ... ومنْ يهوى الحبيب ولا يحنُّ؟!

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون »[1] .

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي ، قال المناوي في فيض القدير (٨٥/٢) : رمز المصنف لصحته ، وهو فيه تابع لتصحيح الحاكم له ، وقد اقتصر الحافظ ابن حجر في أماليه على كونه حسنًا، وقال الهيثمي بعد ما عزاه لأحمد وأبي يعلى: فيه « دراج » ضعفه جمع ، وبقية رجال أحد إسنادي أحمد ثقات .

كان أبو مسلم الخولاني كثير الذكر ، فرآه بعض الناس فأنكر حاله ، فقال لأصحابه : أمجنون صاحبكم ؟ فسمعه أبو مسلم فقال : لا يا أخي ، ولكن هذا دواء الجنون .

وقدْ شرطتُ على قومٍ صحبتُهُمُ لأنَّ قلْبي لكمْ من دونه غرضُ
ومن حديثي بكم قالوا : به مرضٌ فقلتُ: لا أذهب الله عني ذلك المرض

هو في شغل عن الناس بذكر ربه .

وشُغلت عن فهم الحديث سوى ما كانَ عنكَ فإنه شُغْلي
وأديمُ نحوَ محدّثي وجهي ليَرى أنْ قد عقلتُ وعندكمْ عقلي

فكيف يكون الجزاء من جنس العمل .. ؟.

قال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

قال الحسن البصري وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس : إن الله يذكر من ذكره ، ويزيد من شكره ، ويعذب من كفره .

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾ ﴿ **فاذكروني** ﴾ فيما افترضت عليكم ، ﴿ **أذكركم** ﴾ فيما أوجبت لكم على نفسي .

وعن سعيد بن جبير : ﴿ **فاذكروني** ﴾ بطاعتي ﴿ **أذكركم** ﴾ بمغفرتي ورحمتي .

وعن ابن عباس قال : ذكر الله إياكم ، أكبر من ذكركم إياه[(١)] .

ليس العجب من فقير يلجأ إلى غني ، ليس العجب من ضعيف يلجأ إلى قوي ، ليس العجب من قوله تعالى : ﴿ **فاذكروني**﴾ إنما العجب من قوله تعالى : ﴿ **أذكركم** ﴾ !! .

من نحن حتى يذكرنا الله عز وجل إن ذكرناه ...؟! .

إن ألستنا لتحتاج إلى ملايين المرات من الطهارة والتوبة ، حتى تنطق

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٨٢-٢٨٣) .

باسم الله فضلًا أن يذكرنا ربنا ومولانا ..

وما ذكرتكمُ إلا نسيتكــمُ نسيان إجلال لا نسيان إهمالِ
إذا تذكرت من أنتم وكيف أنا أجللت مثلكم يخطر على بالي[١]

يقول يحيى بن معاذ : يا غفول يا جهول ، لو سمعت صرير الأقلام في اللوح المحفوظ ، وهي تكتب اسمك عند ذكرك لمولاك ، لَمُت شوقًا إلى مولاك .

﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ والجزاء من جنس العمل .

يا هذا حفر النهر إليك، وإجراء الماء ليس عليك، أحضر ساقية ﴿فاذكروني﴾ إلى جنب بحر ﴿ أذكركم ﴾ ، فإذا بالغ فيها معول الكد ، فاضت عليك مياه البحر ، « فبي يسمع وبي يبصر » ، ألق بذر الفكر في أرض الخلوة ، واسق إليه ساقية من ماء الفكر ، لعلها تنبت لك شجرة « أنا جليس من ذكرني »[٢] .

قال رسول الله ﷺ : « ما جلس قوم يذكرون الله ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[٣] .

وقال ﷺ : « ما من قوم يذكرون الله ، إلا حفت بهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : عبدي ، أنا عند ظنك بي ، وأنا معك إذا ذكرتني »[٥] .

---

(١) جامع العلوم والحكم ٤١٩. (٢) المدهش لابن الجوزي ٢٣٧ .

(٣) رواه ابن حبان عن أبي سعيد وأبي هريرة معًا ، ورواه مسلم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٤٨٤ .

(٤) رواه الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة وأبي سعيد ، ورواه مسلم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٢٤ .

(٥) رواه الحاكم عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٢٠١ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢٠١٢ .

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يابن آدم ، إن ذكرتني في نفسك ، ذكرتك في نفسي وإن ذكرتني في ملأ ، ذكرتك في ملإٍ خير منهم ، وإن دنوت مني شبرًا ، دنوت منك ذراعًا ، وإن دنوت مني ذراعًا ، دنوت منك باعًا ، وإن أتيتني تمشي ، أتيت إليك أهرول »(١) .

وقال ﷺ : « قال الله تعالى : عبدي ، إذا ذكرتني خاليًا ، ذكرتك خاليًا ، وإن ذكرتني في ملإٍ ، ذكرتك في ملإٍ خير منهم وأكبر »(٢).

وقال ﷺ : « أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله تعالى ، وتلاوة القرآن ، فإن روحك في السماء ، وذكرك في الأرض »(٣) .

انظر إلى كرم الله الجواد ، الذي علا على كل من جاد ، وبه جاد كل من جاد .

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : لا يذكرني عبد في نفسه ، إلا ذكرته في ملإٍ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى»(٤).

فاذكروني أذكركم ، والجزاء من جنس العمل .

ياللتفضل الجليل الودود !! الله جل جلاله ، يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مُكافئًا لذكرهم له ، في عالمهم الصغير ، إن العبيد حين يذكرون ربهم ، يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة ، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة !! والله حين يذكرهم ، يذكرهم في هذا الكون الكبير ، وهو الله العلي الكبير ، أي تفضل ! وأي كرم !

---

(١) رواه أحمد عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٢١٣ .

(٢) رواه البيهقي عن ابن عباس ، ورواه البزار وأحمد عن أنس ، والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ، صحيح الجامع ٤٢٠٠ والصحيحة ١٠١١ .

(٣) رواه أحمد عن أبي سعيد ، وحسنه الألباني ، الروض النضير (٣٧٢/٢) ، والسلسلة الصحيحة ٥٥٥ ، صحيح الجامع ٢٥٤٠ .

(٤) رواه الطبراني عن معاذ ، وعن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٤٢١١ .

وأي فيض في السماحة والجود !.

« فاذكروني أذكركم » إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله ، الذي لا خازن لخزائنه ، ولا حاسب لعطاياه .. الفضل الفائض من ذاته بلا سبب ولا موجب ، إلا أنه هكذا هو سبحانه ، فيّاض العطاء .

إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ، ولا يعبر عن شكره إلا سجود القلب .

من نسيه الله فهو مغمور ضائع ، لا ذكر له في الأرض ، ولا ذكر له في الملأ الأعلى . ومن ذكر الله ، ذكره ، ورفع من وجوده ، وذكره في هذا الكون العريض .

لقد ذكر المسلمون الله فذكرهم ، ورفع ذكرهم ومكنهم من القيادة الراشدة ، ثم نسوه فنسيهم فإذا هم همل ضائع ، وذيل تافه ذليل ، والوسيلة قائمة ، والله يدعوهم في قرآنه الكريم ، فاذكروني أذكركم[1] .

وكنا عِظامًا فصرنا عظامًا وكنا نقوت فها نحن قوتُ

« فاذكروني أذكركم » ..

« فاذكروني » بالتذلل « أذكركم » بالتفضل .

« فاذكروني » بالانكسار « أذكركم » بالمبار .

« فاذكروني » باللسان « أذكركم » بالجنان .

« فاذكروني » بقلوبكم « أذكركم » بتحقيق مطلوبكم .

« فاذكروني » على الباب من حيث الخدمة « أذكركم » بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النعمة .

« فاذكروني » بتصفية السر « أذكركم » بتوفية البر .

« فاذكروني » بالجهد والعناء « أذكركم » بالجود والعطاء .

« فاذكروني » بوصف السلامة « أذكركم » يوم القيامة ، يوم لا تنفع الندامة .

---

(١) الظلال (١/١٤٠-١٤١) .

« فاذكروني » بالرهبة « أذكركم » بتحقيق الرغبة[1] .

« فاذكروني .. أذكركم » .

« فاذكروني » بالشوق والمحبة « أذكركم » بالوصل والقربة .

« فاذكروني » بالحمد والثناء « أذكركم » بالمنن والعطاء .

« فاذكروني » بالتوبة « أذكركم » بغفران الحوبة .

« فاذكروني » بالسؤال « أذكركم » بالنوال .

« فاذكروني » بلا غفلة « أذكركم » بلا مهلة .

« فاذكروني » بالندم « أذكركم » بالكرم .

« فاذكروني » بالمعذرة « أذكركم » بالمغفرة .

« فاذكروني » بالإرادة « أذكركم » بالإفادة .

« فاذكروني » بالتنصل « أذكركم » بالتفضل .

« فاذكروني » بالإخلاص « أذكركم » بالخلاص .

« فاذكروني » بالقلوب « أذكركم » بكشف الكروب .

« فاذكروني » باللسان « أذكركم » بالأمان .

« فاذكروني » بالافتقار « أذكركم » بالاقتدار .

« فاذكروني » بالاعتذار والاستغفار « أذكركم » بالرحمة والاغتفار .

« فاذكروني » بالإيمان « أذكركم » بالجنان .

« فاذكروني » بالإسلام « أذكركم » بالإكرام .

« فاذكروني » بالقلب « أذكركم » برفع الحجب .

« فاذكروني » ذكرًا فانيًا « أذكركم » ذكرًا باقيًا .

« فاذكروني » بالابتهال « أذكركم » بالاتصال .

« فاذكروني » بالتذلل « أذكركم » بعفو الذلل .

« فاذكروني » بالاعتراف « أذكركم » بمحو الاقتراف .

---

(١) لطائف الإشارات (١/١٣٨) .

« فاذكروني » بصفاء السر « أذكركم » بخالص البر .

« فاذكروني » بالصدق « أذكركم » بالرفق .

« فاذكروني » بالصفو « أذكركم » بالعفو .

« فاذكروني » بالتعظيم « أذكركم » بالتكريم .

« فاذكروني » بالتكثير « أذكركم » بالنجاة من السعير .

« فاذكروني » بترك الجفاء « أذكركم » بحفظ الوفاء .

« فاذكروني » بترك الخطاء « أذكركم » بأنواع العطاء .

« فاذكروني » بالجهد في الخدمة « أذكركم » بإتمام النعمة .

« فاذكروني » من حيث أنتم « أذكركم » من حيث أنا .

ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون .

هذا طعم الخبر .. فكيف طعم النظر ..؟! .

هذا سماع ذكره في دار الشقاء .. فكيف عند اللقاء ..؟! .

هذا في دار المحنة .. فكيف في دار النعمة ..؟! .

هذا وأنت على الباب .. فكيف إذا كشف الحجاب ..؟! .

هذا وقد ناديت .. فكيف إذا تجليت ..؟! .

يامن يذكِّرني بعهد أحبَّتي ... طابَ الحديثُ بذكرهمْ ويطيبُ
أعِدِ الحديث عليّ من جَنَبَاتِهِ ... إنَّ الحديث عن الحبيبِ حبيبُ
ملأ الضلوع وفاضَ عن أجنابها ... قلبٌ إذا ذُكِر الحبيب يذوبُ
ما زال يخفق ضاربًا بجناحه ... ياليت شعري، هل تطير قلوبُ؟!

سبحانك .. سبحانك « ارتفع إليك ثغاء التسبيح ، وصعد إليك وقار التقديس، سبحانك ذا الجبروت، بيدك الملك والملكوت، والمفاتيح والمقادير »[1].

وملأتُ كلي منك حتى لم أدعْ ... مني مكانًا خاليًا لسواكَ
والقلب فيكَ هيامه وغرامه ... والروح لا تنفك عن ذكراكَ

---

(١) مختصر العلو ص١٢٩ .

أو كما يقول :

لا عضو لي إلا وفيه صبابة فكأن أعضائي خُلِقْنَ قلوبَا

* * *

ولو مضى الكل مني لم يكن عجبًا وإنما عجبي للبعض كيف بقي ؟!!

أمر الحجاج بصلب ماهان العابد ، فرفع على خشبة وهو يسبح ويهلل ويعقد بيده ، حتى بلغ تسعًا وعشرين ، فبقي شهرًا بعد موته ، ويده على ذلك العقد مضمومة .

لتحشرنَّ عظامي بعدما بليت يوم الحساب وفيها حبكُمْ عَلِقَ

كان خالد بن معدان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة، سوى ما يقرأ من القرآن، فلما مات وضع على سريره ليغسل، فجعل يشير بأصبعه يحركها بالتسبيح[(١)].

وقيل لعمير بن هاني : ما نرى لسانك يفتر ، فكم تسبح كل يوم ؟ قال : مائة ألف تسبيحة إلا أن تخطىء الأصابع .

وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كانت عندنا امرأة بمكة تسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة فماتت ، فلما بلغت القبر اختلست من أيدي الرجال[(٢)].

يا ويح أنفسنا ، أين نحن من هؤلاء ؟! نستكثر تسبيحنا .. واعجبًا لنا .. نعد التسبيح بسبحة ؟ فهلا جعلنا لعد المعاصي أخرى ..

وتمضي رحلتنا مع الجزاء من جنس العمل ..

قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيانِ يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان[(٣)]، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ ، يحاجان عن أصحابهما ، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة »[(٤)].

---

(١) لهذه القصة إسناد منقطع في سير أعلام النبلاء (٤/٥٤٠) ، وهي في الحلية (٥/٢١٠)، وابن عساكر (٥/٢٦٠) بطريق أخرى .

(٢) جامع العلوم والحكم ٤١٧ .

(٣) الغيابة كل شيء يظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها « نهاية » .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبي أمامة .

انظر كيف يبدو الجزاء من جنس العمل واضحًا جليًّا في هذا الحديث .

قال المناوي : « اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه » أي : شافعًا بأن يتصور بصورة يراها الناس ، كما يجعل الله لأعمال العباد صورة ووزنًا لتوضع في الميزان ، فليعتقد المؤمن هذا وشبهه بإيمانه ؛ لأنه لا مجال للعقل فيه .

« الزهراوين » أي : النيرتين ، سميتا به ؛ لكثرة نور الأحكام الشرعية ، وكثرة أسماء الله تعالى فيهما ، أو لهدايتهما قارئهما ، أو لما يكون له من النور بسببهما يوم القيامة .

«والزهراوين» تثنية الزهراء، تأنيث أزهر، وهو المضيء الشديد الضوء[1].

وانظر إلى الحديث الآخر الذي يبين أن الجزاء من جنس العمل ..

قال رسول الله ﷺ : « الصيام والقرآن يشفعان في العبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أي رب ، إني منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه ، ويقول القرآن : رب ، منعته النوم بالليل فشفعني فيه ، فيشفعان »[2].

صح عن ابن مسعود أنه قال : سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، تلقاهن مَلَك فعرج بهن إلى الله عز وجل ، فلا يمر بملأ من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يُحَيَّى بهن وجه الرحمن عز وجل[3] .

وعن كعب : أنَّ سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لهن دوي حول العرش كدوي النحل ، يُذكر بصاحبهن .

وعن كعب أيضًا قال : إن للكلام الطيب حول العرش لدويًا كدوي النحل ، يذكر بصاحبه .

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) فيض القدير (٢/٦٣-٦٤) .

(٢) رواه أحمد ، والطبراني ، والحاكم والبيهقي عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٧٧٦ .

(٣) مختصر العلو ص١٢٩ قال ابن القيم : إسناده صحيح ، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « يُقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها »[١] .

والجزاء من جنس العمل .

أولياء الله تعالى .. الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ : « أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤوا ذكر الله تعالى »[٢].

لما ذكروا الله تعالى ، وشغلوا به ، فأعطاهم فوق ما أملوا ، أن كانت مجرد رؤيتهم تذكر بالله تعالى أو حتى مجرد ذكر حديثهم .

قال المناوي :

يعني أن عليهم مِن الله سيما ظاهرة ، تذكر بذكره ، فإن رؤوا ذكر الخير برؤيتهم ، وإن حضروا حضر الذكر معهم ، وإن نطقوا بالذكر فهم يتقلبون فيه كيفما حلوا، فمن كان بين يديْ ربه وآخرته، فإنما يفتتح إذا لقيك بذكره، ومن كان أسير نفسه ودنياه فإنما يفتتح إذا لقيك بدنيا ، فكل يحدثك عما يطلع قلبه فتنبه[٣].

كان الناس إذا رأوا أيوب السختياني في السوق ، كبروا لمخايل النور التي على وجهه .

ويقول جعفر : كنت كلما قسا قلبي نظرت إلى وجه محمد بن واسع .

قال بعض السلف : صحبت في طريقي رجلًا أسود فكان إذا ذكر الله تعالى ابيض[٤] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال:حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني .

(٢) رواه الحكيم عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٥٨٤ ، والصحيحة ١٦٤٦ : ابن صاعد ، وأبو نعيم والديلمي .

(٣) قال المناوي : ظاهر صنيع المصنف أنه لا يوجد مخرجًا لأشهر من الحكيم ولا أعلى ، وهو عجب، فقد رواه البزار عن ابن عباس، ورواه عن شيخه علي بن حرب الرازي، قال الهيثمي : لم أعرفه ، وبقية رجاله وثقوا ، ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن أبي وقاص ، وصححه الألباني ٢٥٨٤ .

(٤) التبصرة (٢/٣٧) .

إن لم تكن مع القوم في السحر، تلمّح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى، ترى في صحائف الوجوه، سطور القبول بمداد الأنوار، وجوه زهاها الحسن أن تتبرقعا.

انظر إلى العجب العجاب ، إلى رجل من هؤلاء الذين أوتوا ذكْر الله عز وجل ، حتى يُذكر الله تعالى بذكرهم .

الإمام القدوة الشهيد : أبو بكر النَّابُلسِي :

قال أبو ذر الحافظ : سجنه بنو عبيد ، وصلبوه على السُّنة ، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ويقول : كان يقول وهو يسلخ : ﴿ **كان ذلك في الكتاب مسطورًا** ﴾ [الإسراء : ٥٨].

قال ابن الجوزي : أقام جوهر القائد لابن تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي ، وكان ينزل الأكواخ ، فقال له : بلغنا أنك قلت : إذا كان مع الرجل عشرة أسهم ، وجب أن يرمي في الروم سهمًا وفينا تسعة ، قال : ما قلت هذا ، إذْ كان معه عشرة أسهم ، وجب أن يرميكم بتسعة ، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا ، فإنكم غيرتم الملة ، وقتلتم الصالحين ، وادعيتم نور الألوهية ، فشهرهُ ثم ضربه ، ثم أمر يهوديًا فسلخه .

قال معمر بن أحمد بن زياد الصوفي : أخبرني الثقة أن أبا بكر سُلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه ، فكان يذكر الله ويصبر ، حتى بلغ الصدر فرحمه السلَّاخ ، فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه ، وأخبرني الثقة أنه كان إمامًا في الحديث والفقه ، صائم الدهر ، كبير الصولة عند العامة والخاصة ، ولما سُلخ كان يسمع من جسده قراءة القرآن[1] .

أخذ الأجر على تعليم القرآن :

قال رسول الله : « من أخذ على تعليم القرآن قوسًا ، قلّده الله مكانها قوسًا من نار جهنم يوم القيامة »[2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/١٤٨-١٤٩) .

(٢) رواه أبو نعيم ، والبيهقي عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٨ ، والصحيحة ٢٥٦ .

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي :

أخذ بظاهره أبو حنيفة فحرّم أخذ الأجرة عليه، وخالفه الباقون قائلين: الخبر بفرض صحته منسوخ ، أو مؤول بأنه كان يحتسب التعليم . نعم ، الأولى كما قاله الغزالي الاقتداء بصاحب الشرع فلا يطلب على إفاضة العلم أجرًا ، ولا يقصد جزاء ولا شكورًا بل يعلم لله(١).

الصلاة على رسول الله ﷺ :

قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطّ عنه عشر خطيئات ، ورفع له عشر درجات »(٢).

وقال ﷺ : « من صلى عليّ واحدة ، صلى الله عليه بها عشرًا »(٣) .

وقال ﷺ : « من ذُكرت عنده فليصل عليّ ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرًا »(٤) .

وقال ﷺ : « أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فمن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشرًا »(٥) .

وقال ﷺ : « إن لله تعالى ملكًا أعطاه سمع العباد ، فليس من أحد يصلي عليّ ألا أبلغنيها ، وإني سألت ربي أن لا يصلي عليّ عبد صلاة إلا صلى عليه عشرَ أمثالها »(٦).

---

(١) فيض القدير (٦/٤٢) .

(٢) رواه البخاري وأحمد والنسائي والحاكم عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٢٣٥ ، تخريج المشكاة ٩٢٥ .

(٣) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٢٣٤ ، انظر الضعيفة ٣/١٩ .

(٤) رواه الترمذي عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٢٢ .

(٥) رواه البيهقي عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٢٢٠ والصحيحة ١٤٠٧ .

(٦) رواه الطبراني عن عمار بن ياسر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢١٧٢، والصحيحة ١٥٣٠ ، تخ أبو الشيخ .

وقال ﷺ : « إن ملكًا أتاني فقال : إن ربك يقول لك : أما ترضى أن لا يصلي عليك أحد من أمتك ، إلا صليت عليه عشرًا ، ولا يسلم عليك إلا سلمت عليه عشرًا ؟ قلت : بلى »[١] .

وقال ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلَّتْ عليه الشفاعة »[٢] .

وقال ﷺ : « أتاني جبريل فقال : يا محمد : أما يرضيك أن ربَّك عز وجل يقول : إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك صلاة إلا صليت عليه بها عشرًا ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك تسليمة إلا سلمت عليه عشرًا ، فقلت : بلى أي رب »[٣] .

وقال ﷺ: «من ذكرت عنده فخطئ الصلاة عليّ، خطيء طريق الجنة»[٤].

قال ابن القيم في جلاء الأفهام : هذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة أن الجزاء من جنس العمل ، فصلاة الله على المصلي على رسوله ، جزاء لصلاته هو عليه ، ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ﷺ ليست هي رحمة من العبد ؛ لتكون صلاة الله عليه من جنسها ، وإنما هي ثناء على الرسول ﷺ ، وإرادة من الله أن يعلي ذكره ، ويزيد تعظيمًا وتشريفًا ، والجزاء من جنس العمل ، فمن أثنى على رسول الله ﷺ جزاه الله من جنس عمله بأن يثني عليه ويزيد

---

(١) رواه النسائي عن أبي طلحة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢١٩٤ .

(٢) رواه أحمد ومسلم والثلاثة عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٢٦ .

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم والضياء عن أبي طلحة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٧١ . والصحيحة ٨٢٧

(٤) رواه ابن ماجة عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٢١ ، والصحيحة ٢٣٣٧ .

تشريفه وتكريمه ، فصح ارتباط الجزاء بالعمل ، ومشاكلته له ومناسبته له .

عجبت لمن يقول : ذكرت حبي وهل أنسى فأذكر من نسيت

فذكره ﷺ ، وذكر ما جاء به ، وحمد الله تعالى على إنعامه علينا ، ومنته بإرساله هو حياة الوجود وروحه ، كما قيل :

روح المجالس ذكره وحديثه وهدًى لكل ملدَّدٍ حيران

وإذا أضل بذكره في مجلس فأولئك الأموات في الحيان

اللهم ثبت أقدامنا على الصراط ، بصلاتنا على نبيك ﷺ .

الغيرة على القرآن :

حكى المبرد عن شيخه أبي عثمان المازني أنه قصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب « سيبويه » وبذل له مائة دينار ، فامتنع وردّه ، فقلت له : أترد هذا القدر مع شدة فاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله ، ولست أرى تمكين هذا الذميّ منها غيرة على القرآن .. فاتفق أن غنت(*) جارية بحضرة الواثق يقول العَرْجيّ :

أظلوم إن مصابكم رجلًا أهدى السلامَ تَحيةً ظلمُ

فاختلف أهل مجلسه في إعراب رجل ، فمنهم من قال : هو نصب ، وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية أصرّت على النصب ، وقالت : لقنني إياه كذلك شيخي أبو عثمان المازني ، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه ، قال : فلمّا مثلت بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : أي الموازن ؟ أمازنُ تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلّمني بكلام قومي فقال لي : بااسمك ؟ وقومي يقلبون الميم باءً والباء ميمًا ، فكرهت أن أواجهه بلفظة مكر فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، ففطن لما قصدته وأعجب به فقال : ما تقول في قول الشاعر :

أظلومُ إن مصابكم رجلًا أهدى السلام تحيَّةً ظلمُ

(*) الغناء محرم .

أترفع رجلًا أم تنصبه ؟ فقلت : الوجه النصب يا أمير المؤمنين ، فقال : ولِمَ ذلك ؟ فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيدًا ظلمٌ ، فرجلًا مفعول مصابكم ومنصوب به ، والدليل عليه أن الكلام معلَّق إلى أن تقول: «ظُلْم»، فَيَتِمّ، فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُنَيّة ، قال : فما قالت لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتا لا ترِمْ[1] عندنا ... فإنا بخير إذا لم تَرِمْ
ترانا إذا أضمرتك البلا ... دُ نُجفى وتُقْطَعُ منا الرَّحِمْ

قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقي بالله ليس له شريك ... ومِنْ عند الخليفة بالنجاح

فقال : علي النجاح إن شاء الله ، ثم أمر لي بألف دينار ، وردّني إلى البصرة مكرمًا ، فقال أبو العباس المبرّد : فلما عاد إلى البصرة قال لي : كيف رأيت يا أبا العباس ؟ رددنا لله مائة دينار فعوّضنا الله ألفًا[2] .

والجزاء من جنس العمل .

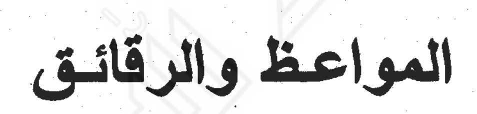
* * *

---

(١) رام مكانه : فارقه .

(٢) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص٤٥٤- ٤٥٥ .





المواعظ والرقائق



◻ المواعظ والرقائق ◻

قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن يعلم ماله عند الله ، فلينظر مالله عنده»[١].

قال المناوي :

« إن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه ، فمنزلة الله عند العبد في قلبه ، على قدر معرفته إياه وعلمه به ، وإجلاله وتعظيمه والحياء والخوف منه ، وإقامته لأمره ونهيه والوقوف عند أحكامه بقلب سليم ، ونفس مطمئنة ، والتسليم له بدنًا وروحًا وقلبًا ، ومراقبة تدبيره في أموره ولزوم ذكره والنهوض بأثقال نعمه ومننه ، وحسن الظن به ، والناس في ذلك درجات ، وحظوظهم بقدر حظوهم من هذه الأشياء ، فأوفرهم حظًّا منها أعظمهم درجة عنده وعكسه بعكسه .

وقال ابن عطاء : إذا أردت أن تعرف مقامك عنده ، فانظر ما أقامك فيه[٢].

قال أبو الدرداء : ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر ، يخلو بمعاصي الله فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين ، وقال سليمان التيمي : إن الرجل ليصيب الذنب في السرّ فيصبح وعليه مذلته !

وقال غيره : إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك عليه ، وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المجازي بذرات الأعمال في الدنيا قبل الآخرة ، ولا يضيع عنده عمل عامل ، ولا ينفع من قدرته حجاب ولا استتار ، فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله ، فإنه من

---

(١) رواه الدارقطني في الأفراد عن أنس ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وسمرة وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٨٢ ، انظر السلسلة الصحيحة رقم ٣٢١٠ .

(٢) فيض القدير (٤٩/٦) .

أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق ، ومن التمس محامد الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذامًّا له .

قال أبو سليمان : إن الخاسر من أبدى للناس صالح عمله ، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

ومن أعجب ما روي في هذا ما روي عن أبي جعفر السائح قال : كان حبيب أبو محمد تاجرًا يكري الدراهم ، فمرّ ذات يوم بصبيان فإذا هم يلعبون ، فقال بعضهم لبعض : قد جاء آكل الربا فنكّس رأسه ، وقال : يا رب أفشيت سرّي إلى الصبيان ، فرجع فجمع ماله كله ، وقال : يا رب إني أسير ، وإني قد اشتريت نفسي منك بهذا المال فأعتقني ، فلما أصبح تصدّق بالمال كله ، وأخذ في العبادة ، ثم مرّ ذات يوم بأولئك الصبيان ، فلما رأوه قال بعضهم لبعض:اسكتوا ، فقد جاء حبيب العابد ، فبكى وقال : يا ربّ أنت تذمّ مرّة وتحمد مرّة ، وكله من عندك[١].

مكتوب في الإنجيل : كما تدين تدان ، وبالكيل الذي تكيل تكتال[٢].

قال المناوي :

قال الزمخشري : سمي الفعل المجازي فيه باسم الجزاء .

وهنا الجزاء يعني كما تجازي تُجازىٰ ، وقيل : كما تصنعْ يصنع بك ، وبالكيل الذي تكيل تكتال .

وعليه قيل :

فإن كنت قد أبصرتَ هذا فإنما	يصدِّق قول المرء ما هو فاعلُهْ
ففيك إلى الدنيا اعتراض وإنما	يُكال لدى الميزان ما أنت كايلُهْ
وقد خانت الدنيا قرونًا تتابعوا	كما خان أعلى البيت يومًا أسافلُهْ[٣]

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص١٥٣ طبع مصطفى الحلبي .

(٢) رواه الديلمي في الفردوس عن فضالة بن عبيد .

(٣) فيض القدير (٣/٦) .

قال رسول الله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه »(١).

قال المناوي :

« من تاب » أي : رجع عن ذنبه بشرطه .

« قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » أي : قبل توبته ورضيها ، فرجع متعطفًا عليه برحمته ، وذلك لأن العبد إذا جاء في الاعتذار ، والتنصل بأقصى ما يقدر عليه قابله الله بالعفو والتجاوز(٢).

قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل ، أو كف عنه من السوء مثله ، ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم »(٣).

قال المناوي :

« ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل » قال الكرماني : أي ما أحد يدعو كائنًا بصفة إلا بصفة الإيتاء .

« أو كف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » فكل داع يستجاب له ، لكن تتنوع الإجابة ، فتارة تقع بعين ما دعا به ، وتارة بعوضه بحسب ما تقتضيه مصلحته وحاله . فأشار به إلى أن من رحمة الله بعبده أن يدعو بأمر دنيوي فلا يستجاب له ، بل يعوضه خيرًا منه ، من صرف سوء عنه أو ادخار ذلك له في الآخرة أو مغفرة ذنبه(٤).

قال رسول الله ﷺ : « كما لا يجتنى الشوك من العنب ، كذلك لا يُنَزَّلُ الفجارُ منازل الأبرار ، وهما طريقان ، فأيهما أخذتم أدركتم إليه »(٥).

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٢) فيض القدير (٦/٩٩) .

(٣) رواه أحمد والترمذي عن جابر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٥٤ .

(٤) فيض القدير (٥/٤٦٧) .

(٥) أخرجه ابن عساكر عن أبي ذر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٤٥٢ ، ورواه أبو نعيم .

وقال رسول الله ﷺ : « كما لا يجتنى الشوك من العنب ، كذلك لا ينزِّلُ الفجارُ منازل الأبرار ، فاسلكوا أي طريق شئتم ، فأي طريق سلكتم وردتم على أهله »[1].

قال المناوي :

فمن سلك طريق أهل الله ورد عليهم فصار من السعداء . ومن سلك طريق الفجار ورد عليهم وكان منهم ، فصار من الأشقياء والإنسان مع من أحب ومن تشبه بقوم فهو منهم ، والعبد يبعث على ما مات عليه[2].

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء »[3].

وقال ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن خيرًا فله ، وإن ظن شرًّا فله »[4].

قال المناوي :

« قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي إن ظن » بي « خيرًا فله » مقتضى ظنه « وإن ظن » بي « شرًّا » أي أني أفعل به شرًّا « فله » ما ظنه .

فالمعاملة تدور مع الظن ، فإذا حسن ظنه بربه وفى له بما أمل وظن ، والتطير سوء الظن بالله ، وهروب عن قضائه ، فالعقوبة إليه سريعة ، والمقت له كائن ألا ترى إلى العصابة التي فرت من الطاعون كيف أماتهم ؟[5] .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن يزيد بن مرثد مرسلًا ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٤٤٥١ .

(٢) فيض القدير (٥/٤٧) .

(٣) رواه الطبراني والحاكم عن واثلة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩٢ ، ابن المبارك وأحمد وابن حبان ، والدولابي ، انظر السلسلة الصحيحة ١٦٦٣ .

(٤) رواه أحمد عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩١ ، والصحيحة ١٦٦٣ وابن حبان .

(٥) فيض القدير (٤/٤٩١) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، إن خيرًا فخير ، وإنّ شرًّا فشر » .

قال المناوي :

« إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي » أي أعامله على حسب ظنه ، وأفعل به ما يتوقعه مني فليحسن رجاءه ، أو أنا قادر على أن أعمل به ما ظن أني أعامله به ، فالمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف والظن على بابه ، ذكره القاضي .

« إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ » أي إن ظن بي خيرًا أفعل به خيرًا ، وإن ظن بي شرًّا ، أفعل به شرًّا[1].

قال ابن القيم : وأعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظن به ، فإن من أساء الظن به ، ظن به خلاف كماله الأقدس ، وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ، ولهذا توعد عليه بما توعد به غيره فقال : ﴿ **عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم** ﴾ وقال : ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ [الفتح : ٦] / [فصلت : ٢٣] .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : يابن أدم تفرغ لعبادتي ، أملأ صدرك غنًى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شغلًا ، ولم أسد فقرك »[2].

قال المناوي :

« إن الله تعالى يقول : يابن آدم تفرغ لعبادتي » أي تفرغ عن مهماتك لطاعتي ، ولا تشتغل باكتساب ما يزيد على قوتك وقوت ممونك ، فإنك إن اقتصرت على ما لا بد منه واشتغلت بعبادتي « أملأ صدرك » أي قلبك الذي في صدرك . « غنى » وذلك هو الغنى على الحقيقة ؛ لأن ما هنا فيمن يهتم بما

---

(١) فيض القدير (٣١٢/٢) .

(٢) رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩١٠ .

زاد على كفاية نفسه وممونه على وجه الكفاية كما تقرر « وأسد فقرك » يعني تفرغ عن مهماتك لعبادتي أقض مهماتك ، ومن قضى الله مهماته استغنى عن خلقه لأنه الغني ، وهو المعنى بقوله : « أملأ صدرك غنى » وبما تقرر من أن المأمور به التفرغ عن اكتساب ما يزيد على الكفاية ، « وإن لم تفعل » ذلك « ملأت يديك شغلًا » خص اليدين ؛ لأن الاكتساب بهما « ولم أسدَّ فقرك » أي وإن لم تتفرغ لذلك واشتغلت بغيري ، لم أسد فقرك ؛ لأن الخلق فقراء ، على الإطلاق ، فتزيد فقرًا على فقرك ، وهو المراد بقوله : « ملأت يديك ... » إلخ ذكره الطيبي .

قال العلائي : أمر الله في هذا الخبر بالتفرغ لعبادته ومن جملة ذلك أن لا يكون القلب في شاغل عن الإقبال على طاعته[1].

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يابن آدم : قم إليّ أمش إليك ، وامش إليّ أهرول إليك »[2] .

قال المناوي :

معناه : أنك إذا تقربت إليه بالخدمة ، تقرب منك بالرحمة ، أنت تتقرب منه بالسجود ، وهو يتقرب منك بالجود »[3].

قال رسول الله ﷺ : « تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »[4].

قال المناوي :

«تعرّف» بشد الراء «إلى الله» أي: تحبب وتقرب إليه بطاعته، والشكر

---

(١) فيض القدير (٣٠٨/٢) .

(٢) رواه أحمد عن رجل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٢١٦ ، ورواه أحمد ، والبيهقي ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي هريرة ، وأحمد والبخاري عن أنس .

(٣) فيض القدير (٤٩١/٤) .

(٤) أخرجه أبو القاسم بن بشران في « أماليه » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٩٥٨ ، ورواه أحمد ، والطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم عن ابن عباس ، والآجري عن أبي سعيد .

على سابغ نعمته ، والصبر تحت مر أقضيته ، وصدق الالتجاء الخالص قبل نزول بليته ، « في الرخاء » أي في الدعة والأمن ، والنعمة وسعة العمر ، وصحة البدن ، فالزم الطاعات والإنفاق في القربات ، حتى تكون متصفًا عنده بذلك معروفًا .

« يعرفك في الشدة » بتفريجها عنك ، وجعله لك من كل ضيق مخرجًا ، ومن كل هم فرجًا ، بما سلف من ذلك التعرف ، كما وقع للثلاثة الذين أووا إلى الغار ، فإذا تعرفت إليه في الرخاء والاختيار جازاك عليه عند الشدائد والاضطرار بمدد توفيقه وخفي لطفه ، كما أخبر تعالى عن يونس عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ يعني قبل البلاء ، بخلاف فرعون لما تنكر إلى ربه في حال رخائه لم ينجه اللجأ عند بلائه قال : ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل** ﴾[١].

قال رسول الله ﷺ : « ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله تعالى من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتولى اللَّهُ عبدًا في الدنيا فيُوَلِّيه غيره يوم القيامة ، ولا يحبّ رجلٌ قومًا إلا جعله الله معهم ، والرابعة لو حلفت عليها رجوت أن لا آثم : لا يستر الله عبدًا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة »[٢].

قال المناوي :

« ثلاث أحلف عليهن » ، أي على حقيقتهن « لا يجعل الله تعالى من له سهم في الإسلام » من أسهمه الآتية « كمن لا سهم له » منها أي لا يساويه بها في الآخرة « وأسهم الإسلام » هي « ثلاثة الصلاة » أي المفروضات الخمس «والصوم» أي صوم رمضان «والزكاة» سائر أنواعها، فهذه واحدة من الثلاث، والثانية « لا يتولى الله عبدًا » من عباده « في الدنيا » فيحفظه ويرعاه ويوفقه ، « فيُوَلِّيه غيره يوم القيامة » ، بل كما يتولاه في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة

---

(١) فيض القدير (٣/٢٥١) .

(٢) رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم ، والبيهقي عن عائشة ، والطبراني عن أبي أمامة ، وأبو نعيم عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٠١٨ .

يتولاه في العقبى ، ولا يكله إلى غيره .

والثالثة « لا يحب رجلٌ قومًا » في الدنيا « إلا جعله الله » أي : حشره « معهم » في الآخرة فمن أحب أهل الخير كان معهم ، ومن أحب أهل الشر كان معهم والمرء مع من أحب ، « والرابعة لو حلفت عليها » كما حلفت على أولئك الثلاث ، « رجوت » أي : أملت « أن لا آثم » أي : لا يلحقني إثم بسبب حلفي عليها ، وهي « لا يستر الله عبدًا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة »(١).

قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل فقال : يا محمد ، عِش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزّه استغناؤه عن الناس »(٢).

قال المناوي :

« واعمل ما شئت » من خير « فإنك مجزي به » أي : مقضي عليك بما يقتضيه عملك .

ذكر الموت والمجازاة وخوف بما علم منه أن « من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره »(٣).

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : وعزتي وجلالي ، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين ، إن أمنني في الدنيا ، أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمّنته يوم أجمع عبادي »(٤).

قال المناوي :

فمن كان خوفه في الدنيا أشد ، كان أمنه يوم القيامة أكثر وبالعكس .

---

(١) فيض القدير (٣/٢٩٧) .

(٢) أخرجه الحاكم ، والبيهقي ، والشيرازي في الألقاب عن سهل بن سعد ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ٧٣ ، وأخرجه البيهقي عن جابر ، وأبو نعيم في الحلية عن علي ، انظر السلسلة الصحيحة ٨٧٩ .

(٣) فيض القدير (٤/١٠٢) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس ، وحسنه الألباني في صحيح =

قال القرطبي : فمن استحى من الله في الدنيا مما يصنع . استحى الله عن سؤاله في القيامة ، ولم يجمع عليه حياءين ، كما لم يجمع عليه خوفين .

وقال الحرالي : « نار الحق في الدنيا للمعترف رحمة من عذاب النار ، تفديه من نار السطوة في الآخرة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام يعطى الأمن يوم القيامة ، وما ذاك إلا من الخوف الذي كان علاه أيام الدنيا فلم يجتمع عليه خوفان »[١].

كتب عمر إلى معاوية : أما بعد ، فالزم الحق ، يُنزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى إلا بالحق[٢].

قال ذو النون :

كان العلماء يتواعظون بثلاث : من أحسن سريرته ، أحسن الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح أمر آخرته ، أصلح الله أمر دنياه[٣].

قال الذهبي : قال قتادة : كان هرم بن حبان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله ، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه وُدَّهم[٤].

قال الذهبي في ترجمة « الفضل بن مروان » :

كان بديع الخط، مُنشئًا، لم يزل في ارتقاء، والناس يحسدونه حتى نُكب، وأدّى أربعين ألف ألف درهم .

فكان المعتصم يقول : عصى الله ، وأطاعني ، فسلطني الله عليه[٥].

= الجامع ٤٢٠٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٧٤٢ ، ورواه ابن المبارك ، والبزار عن الحسن مرسلًا ، والبزار وابن صاعد عن أبي هريرة .

(١) فيض القدير (٤٩٥/٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٣٣/١١) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٤١/١٩) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٤٩/٤) . (٥) السِّيَر (٨٤/١٢) .

قال الذهبي في ترجمة « أبي الخير التِّينَاني » : ويقال : إن سبب قطع يده في تهمة ظهرت براءته منها : أنه اشتهى زعرورًا ، فقطع غصنا ، وكان عاهد الله أن لا يتناول لنفسه شهوة .

قال : فذكر عهده ، فرمى بالغصن ، ثم كان يقول : يدٌ قطعت عضوًا فقُطعتْ[1].

كان معروف الكرخي يبكي ويقول: يا نفس كم تبكين؟ أَخْلِصي تَخْلُصي[2].

وقال معروف رحمه الله : من كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومَنْ ماكره خدعه ، ومن توكل عليه منعه ، ومَنْ تواضع له رفعه ، كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله[3].

قال سعيد بن عبد العزيز : من أحسن فليرج الثواب ، ومن أساء فلا يستنكر الجزاء ، ومن أخذ عزًّا بغير حق أورثه الله ذلًّا بحق ، ومن جمع مالًا بظلم ، أورثه الله فقرًا بغير ظلم[4].

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه :

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني : أراد الله مني منفعة الخلق ، فقد أسلم علي يديّ أكثر من خمسمائة ، وتاب علي يديّ أكثر من مائة ألف ، وهذا خير كثير ، وترد علي الأثقال التي لو وُضعت على الجبال تفسّخت ، فأضع جنبي على الأرض ، وأقول : إن مع العسر يسرًا ، إن مع العسر يسرًا ، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني . وقال : إذا وُلد لي ولد أخذته على يدي ، وأقول:هذا ميت ، فأخرجه من قلبي ، فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئًا .

قال عبد الرزاق بن الشيخ : ولد لأبي تسعة وأربعون ولدًا ، سبعة وعشرون

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/١٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٤١/٩) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٤١/٩) .

(٤) السير (٣٦/٨) .

ذكرًا ، والباقي إناث[١].

والجزاء من جنس العمل ، يخرجهم من قلبه ، فيورثه الله كثرة الأولاد ، جزاءً وفاقًا ، ويُمتع بهم ، وتقر عينه بهم .

قال إبراهيم بن ديزيل : لما دُعي عفان للمحنة ، كنت آخذًا بلجام حماره ، فلما حضر ، عرض عليه القول فامتنع أن يجيب ، فقيل له : يُحبس عطاؤك قال : وكان يعطى في كل شهر ألف درهم . فقال : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ [الذاريات : ٢٢] فلما رجع إلى داره عذَله نساؤه ومن في داره ، قال : وكان في داره نحو أربعين إنسانًا ، فدق عليه داقّ الباب ، فدخل عليه رجل شبهتُه بسمّان أو زيّات ومعه كيس فيه ألف درهم ، فقال : يا أبا عثمان ثبّتك الله كما ثبّتَّ الدين ، وهذا في كل شهر[٢].

عن أبي سليمان : من اشتغل بنفسه شُغل عن الناس ، ومن اشتغل بربه ، شُغل عن نفسه وعن الناس[٣].

قال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل يقول : من أحبّ أن يذكر لم يذكر ، ومَنْ كره أن يُذْكر ذُكِر[٤].

قال سفيان بن عيينة : غضبُ الله الداء الذي لا دواء له ، ومن استغنى بالله ، أحوج الله إليه الناس[٥].

قال رسول الله ﷺ : « ما من امرىء يخذل امرأً مسلمًا في موطن يُنتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله تعالى في موطن يُحب فيه نصرته ، وما من أحد ينصر مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يُحب فيه نصرته »[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤٤٧/٢٠) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٤٥/١٠) ، تاريخ بغداد (٢٧١/١٢-٢٧٢) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٨٥/١٠) .
(٤) السير (٤٣٢/٨) . (٥) السير (٤٧٣/٨) .
(٦) رواه أحمد وأبو داود ، والضياء عن جابر ، وأبي طلحة بن سهل ، وحسنه الألباني =

قال المناوي :

« ما من امرئ يخذل » بذال معجمة مضمومة ، قال تعالى : ﴿ وإن يخذلكم ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

« امرءًا مسلمًا » أي : لم يحل بينه وبين من يظلمه ولا ينصره .

« في موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته » بأن يتكلم فيه بما لا يحل ، والحرمة هنا ما لا يحل انتهاكه ، قال الجوهري : انتهك عرضه : بالغ في شتمه .

« إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته » أي : في موضع يكون فيه أحوج لنصرته وهو يوم القيامة . فخذلان المؤمن حرام شديد التحريم ، دنيويًا كان مثل أن يقدر على دَفع عدو يريد البطش به ، فلا يدفعه . أو أخرويًا كأن يقدر على نصحه من غيه بنحو وعظ فيترك .

« وما من أحد ينصر مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته » وهو يوم القيامة[1] .

* * *

= في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٦ ، تخريج المشكاة ٤٩٨٣ ، ورواه الطبراني في الأوسط عن جابر وأبي أيوب الأنصاري .

(١) فيض القدير (٥/٤٧١) .



العِلْم



◻ العلم ◻

العلم جمال لا يخفى ، ونسب لا يُجفَى ، بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يُرى في المنام ، ولا يُورث عن الأعمام ، ولا يكتب للغلام .

فتوسل إليه بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، وإدمان السهر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ومتابعة السفر ، وركوب الخطر .

بحر لا يخوضه المُلّاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيّجه الرياح .

جبل لا يُتسنّم إلا بخطى الفكر ، وسماء لا تصعد إلا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد ، لا يصلح إلا للغرس ، ولا يغرس إلا في النفس ، ولا يسقى إلا بالدرس .

قال ﷺ : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، وعالمًا أو متعلمًا »[١].

وقال ﷺ : « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحبًا بوصية رسول الله وأفتوهم »[٢].

وقال ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »[٣].

وقال ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[٤].

---

(١) حسن : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، ورواه الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٠٨ .

(٢) حسن: رواه ابن ماجة عن أبي سعيد، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٤٥.

(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٩ .

(٤) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٨.

وقال ﷺ : « فضل العلم أحبّ إلي من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع »[١].

وقال ﷺ : « معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر »[٢].

وقال ﷺ : « من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه ، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومنْ جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره »[٣].

وقال ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العالم رضًا بما يطلب»[٤].

وقال ﷺ : « إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير »[٥].

والعلماء سرج للناس ومصابيح في الدنيا والآخرة ، أعلى من القمرين والنجوم ، مع أنها أرفع وأنور في المشارق والمغارب ؛ لأنها يحجبها الغمام ، ونور العلم لا يحجبه سبع سموات ، والشمس تغيب ليلًا ، والقمر يخفى نهارًا ، والعلم لا يغيب ليلًا ولا نهارًا ، بل هو هو ، وهو في الليل آكد ﴿ **إن ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأقوم قيلا** ﴾ [المزمل : ٦] .

---

(١) صحيح : رواه البزار والطبراني في الأوسط والحاكم عن حذيفة ، والحاكم عن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٠٩٠ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن جابر ، والبزار عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٥٩ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٦٠٦٠ .

(٤) صحيح : رواه الطيالسي عن صفوان بن عسال ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٥٢ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير والضياء عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٣٤ .

والقمران يفنيان والعلم لا يفنى ، والقمران ينكسفان والعلم لا ينكسف ، والقمران تارة يضران وتارة ينفعان ، والعلم ينفع ولا يضر بشرطه .

والقمران في السماء زينة لأهل الأرض ، والعلم في الأرض زينة لأهل السماء ، وهما في الفوق ويضيئان ما تحت ، والعلم في قلب المؤمن وهو في التحت ، ويضيء ما فوقه وتحته .

وبهما ينكشف وجود الخلق ، وبالعلم ينكشف وجود الخالق .

وضَوْءهما يقع على الوليّ والعدوّ ، والعلم ليس إلا للولي .

وشعاع الكواكب إلى أسفل ، وشعاع العلم يصعد إلى العلو .

والكواكب تطلع من خزانة الفلك ، والعلم يطلع من خزانة الملك .

والكواكب علامة ، والعلم كرامة .

والكواكب موضع نظر المخلوقين ، والعلم موضع نظر رب العالمين .

والكواكب نفعها في الدنيا ، والعلم نفعه في الدنيا والآخرة .

والشمس تسوّد الأشياء والعلم يبيضها .

والشمس تحرق ، والعلم ينجي .

والقمر يبلي الثياب ، والعلم يجدد المعارف لأولي الألباب .

وإنما كانوا كالمصابيح في الآخرة ؛ لأن الناس يحتاجون إلى العلماء في الموقف للشفاعة بل وبعد الدخول ، فينتفع بهم فيها كالمصابيح ولذا يقال : إن ذات العالم تكسى نورًا يضيء كالمصباح حقيقة ، ألا ترى أن هذه الأمة تدعى غرًّا محجلين من آثار الوضوء ، فالعالم يتميّز على آحاد المؤمنين بأن تصير جثته كلها مضيئة ، فنعمة العلم من أفخر النعم وأجزل القسم ، ومن أوتيه ، فقد أوتي خيرًا كثيرًا[1].

من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا :

قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به

---

(١) فيض القدير (١/١٠٧) .

طريقًا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ، ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ، ولا درهمًا ، إنّما ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، سهّل الله له طريقًا إلى الجنة »[٢].

وقال ﷺ : « ما خرج رجل من بيته يطلب علمًا إلا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة »[٣] .

قال المناوي :

« من سلك طريقًا » حسية أو معنوية ، ونكّره ليتناول أنواع الطريق الموصلة إلى تحصيل أنواع العلوم الدينية .

والمعنى سهل الله له بسبب العلم طريقًا من طرق الجنة ، وذلك لأن العلم إنما يحصل بتعب ونصب ، وأفضل الأعمال أحزمها ، فمن تحمل المشقة في طلبه سهلت له سبل الجنة سيما إن حصل المطلوب ، قال ابن جماعة : والأظهر أن المراد أن يجازيه يوم القيامة بأن يسلك به طريقًا لا صعوبة له فيه ولا هول ، إلى أن يدخله الجنة سالمًا ؛ فأبان أنّ العلم ساعد السعادة ، وأسّ السيادة ،

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والنسائي ، والترمذي ، وابن ماجة ، وأبو داود ، وابن حبان عن أبي الدرداء وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٧٣ ، تخريج الترغيب (٥٣/١) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٧٤ .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن عائشة ، ورمز السيوطي لحسنه ، قال المناوي : وليس كما قال فقد ضعفه الهيثمي بأن فيه هاشم بن عيسى وهو مجهول وحديثه منكر انتهى ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٩٣ .

والمرقاة إلى النجاة في الآخرة ، والمقوم لأخلاق النفوس الباطنة والظاهرة ، فهو نعم الدليل ، والمرشد إلى سواء السبيل ، وتقديم الظرفين للاختصاص ؛ لأن تسهيل طريق الجنة خاص بالله ، وغيره في مقابلته كالعدم ؛ لأنه في حقه غير مفيد ، وكذا بالنسبة لسببه ، فإن غير هذا السبب من أسباب التسهيل كالعدم ؛ لأنه أقوى الأسباب المسهلة ، وفيه حجة باهرة على شرف العلم وأهله في الدنيا والآخرة ، لكن الكلام في العلم النافع لأنه الذي يترتب عليه الجزاء المذكور كما تقرر(١).

من كتم علمًا :

قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يحفظ علمًا فكتمه ، إلّا أتى يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار »(٢).

وقال ﷺ : « مَنْ سُئل عن علم فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »(٣).

قال المناوي :

« من سئل عن علم » علمه قطعًا ، وهو علم يحتاج إليه سائل في أمر دينه ، وقيل : ما يلزم عليه تعليمه كمريد الإسلام يقول : علمني الإسلام ، والمفتي في حلال أو حرام ، وقيل : هو علم الشهادتين .

« فكتمه » عن أهله .

« ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » أي أدخل في فيه لجامًا من نار ، مكافأة له على فعله حيث ألجم نفسه بالسكوت في محل الكلام .

فالحديث خرج على مشاكلة العقوبة للذنب ؛ وذلك لأنه سبحانه أخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

---

(١) فيض القدير (٦/١٥٤) .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٩ .

(٣) صحيح : رواه أحمد، والنسائي، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦٠ ، وتخريج المشكاة ٢٢٣ .

وفيه حث على تعليم العلم ؛ لأن تعلم العلم إنما هو لنشره ، ودعوة الخلق إلى الحق ، والكاتم يزاول إبطال هذه الحكمة ، وهو بعيد عن الحكيم المتقن ، ولهذا كان جزاؤه أن يلجم تشبيهًا له بالحيوان الذي سخر ومنع من قصد ما يريده ، فإن العالم شأنه دعاء الناس إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم(١).

وقال ﷺ : « أيما رجل آتاه الله علمًا فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »(٢).

وقال ﷺ : « من كتم علمًا عن أهله ، أُلجم يوم القيامة لجامًا من نار »(٣).

قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [البقرة : ١٧٤].

قال ابن كثير :

إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نار تأجج في بطونهم يوم القيامة ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة وذلك لأنه غضبان عليهم ؛ لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب(٤).

قال البقاعي :

لما كانوا بعدوا عن مواطن الرحمة ببخلهم بما لا ينقصه الإنفاق أشار إليهم بأداة البعد فقال : ﴿ **أولئك** ﴾، وفي خطاب النبي ﷺ به إشعار بوقوع ذلك من طائفة من أمته حرصًا على الدنيا .

---

(١) فيض القدير (٦/١٤٦) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧١١ .

(٣) صحيح : رواه ابن عدي في الكامل عن ابن مسعود، وابن حبان في صحيحه والحاكم عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/٢٩٥ .

﴿ ما يأكلون في بطونهم إلا النَّار ﴾ وفي ذكره بصيغة الحصر نفي لتأويل المتأول ولما قدم الوعيد في الثمن لكونه الحامل على الكتم ، أتبعه وعيد نفس الكتم ، فقال : ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي من كلّمه أقبل كل شيء عليه كلامًا يدل على مرضى ؛ لكونهم لم يكلموا الناس بما كتب عليهم .

﴿ ولا يزكيهم ﴾ أي يطهرهم من دنس الذنوب أو يثني عليهم ، أو ينمي أعمالهم بما يحصل لهم من الميثاق في يوم التلاق ، كما يزكي بذلك من يشاء من عباده ؛ لأنهم كتموا عن العباد ما يزكيهم .

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ لما أوقعوا فيه الناس من التعب ؛ بكتمهم عنهم ما يقيمهم على المحجة السهلة .

﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ ما أشد حبسهم أنفسهم ، أو ما أجرأهم على النار التي أكلوها في الدنيا فأحسوا بها في الآخرة .

أوّل مأكلهم نار وآخر أمرهم عذاب وترجمة حالهم عدم المغفرة(١).

ويصور قلم الأستاذ محمد رشيد رضا في المنار حال أولئك الذين كتموا دينهم ، ورفعوا طينهم .

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقعُ

يتكلم عن الذين كتموا العلم الإلهي ابتغاء الدنيا من اليهود والنصارى فما حصلوها ، ثم يعرّج على عمومية الآيات فيقول : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا ﴾ ، أي الذين يخفون شيئًا مما أنزل الله في كتابه ، فلا يبلغونه للناس مهما يكن موضوعه ، أو يخفون معناه عنهم بتأويله ، أو تحريفه ، أو وضع غيره في موضعه برأيهم ، واجتهادهم ، ويستبدلون بما يكتمونه ثمنًا قليلًا من متاع الدنيا الفاني ، كالرشوة والجعل على الفتاوى الباطلة ، أو قضاء الحاجات عند الله تعالى وغير ذلك من المنافع المؤقتة إذ اتخذوا الدين تجارة ، والثمن القليل منه ، ما قاله المفسر من استفادة الرؤساء من المرءوسين ومنه عكسه (قال

---

(١) نظم الدرر (٢/٣٥٣) .

شيخنا) هذا النوع من البيع والشراء في الدين عام في الرؤساء الضالين من جميع الأمم ، ومنه ما كان رؤساء اليهود يلاحظونه زمن التنزيل وهو حفظ ما بيدهم الذي يتوهمون أنه يفوتهم بترك ما هم عليه من التقاليد ، واتباع ما أنزل الله بدلًا منها .

ماذا كان شأن اليهود في زمن البعثة ؟ ذل واضطهاد من جميع الأمم ولا سيما النصارى ، فقد كانوا يسومونهم سوء العذاب ، ومنعوهم من دخول مدينتهم المقدسة ، وأكرهوهم في بعض البلاد على التنصر .

ماذا كان شأن النصارى في زمن البعثة ؟ فقر حاضر ، وذل غالب ، وحجر على العقول ، ومنع للحرية في الرأي والعلم ، وتحكم في الإرادة ، وسيطرة على خطرات القلوب وأهواء النفوس كان هذا عامًّا في كل قطر وكل مملكة ، وكان بين الطوائف بعضها مع بعض حروب تشب ، وغارات تشن ، ودماء تسفك ، وحقوق تنتهك ، وكانوا على هذا كله يتوهمون أن الإسلام سيخرجهم من سعادة إلى شقاء ، ومن نعمة إلى بلاء ، هب أن بعضهم كان له شيء من المال ، وبقية من الجاه ، أليس هو من فخفخة الدنيا الزائلة ، ألم يكن منغصًا بالخوف عليه والمنازعة فيه ؟ هب أنه كان لبعض شعوبهم طائفة من القوة ، ألم تكن تشبه الزوبعة تعصف ولا تلبث أن تزول ؟ نعم إن ما كان يغر هؤلاء وهؤلاء لم يكن موضعًا للغرور ؛ لأنه متاع حقير ، وثمن قليل ، وهو غير قائم على أساس ثابت ، ولذلك زال بظهور الإسلام وانتشاره ، وتقوضت تلك السلطة ، واندكت صروح تلك العظمة ، وأجلي اليهود من جزيرة العرب ، وزال ملك غيرهم من كل بلاد رفضوا فيها دعوة الإسلام ، وهذا شأن الباطل لا يثبت أمام الحق .

وقال المفسرون : إن هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب ؛ لأن الغرض تقرير الحكم ، وهو عام كما يدل لفظه ، وكما يليق بعدل الله تعالى رب العالمين .

كل ثمن يؤخذ عوضًا عن الحق فهو قليل ، إن لم يكن قليلًا في ذاته ، فهو قليل في جنب ما يفوت آخذه من سعادة الحق الثابتة بذاتها ، والدائمة بدوام

المحافظة على الحق ، ولو دام للمبطل ما يتمتع به من ثمن الباطل إلى نهاية الأجل - وما هو إلا قصير - فماذا يفعل ، وقد فاتته سعادة الروح ونعيم الآخرة باختياره الباطل على الحق ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد يعترض الناظر في التاريخ ما قرره الأستاذ الإمَام في هذا المقام من ذهاب عز الذين قاوموا دعوة الإسلام ، وكتموا الحق من اليهود والنصارى بأن عيشة اليهود كانت بعد الإسلام خيرًا منها قبله ؛ لأنهم كانوا مضطهدين مقهورين بحكم النصارى الشديد وتعصبهم الفاحش ، فساوى الإسلام بينهم ، وبين النصارى والمسلمين ، وأعطاهم كمال الحرية في دينهم ودنياهم فحسنت حالهم في الشرق والغرب وكثر ما بأيديهم ولم يقل ، وأن المسلمين لم يقووا على جميع نصارى أوربا فبقي لكثير من الممالك سلطانها وما تتمتع به ، وكذلك بعض الممالك الوثنية وهم أعرق في الباطل من النصارى ؟.

والجواب عن ذلك أن يهود الحجاز هم الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ، ويكتمون ما عرفوا من نعته ويظاهرون المشركين عليه ، فهم الذين قاوموا الحق بالباطل ، فلقوا جزاءهم الذي تم بجلائهم من جزيرة العرب أو الحجاز .

أما يهود سورية وغيرها (كالأندلس) فقد كانوا يساعدون الدعوة الإسلامية ودعاتها حتى من لم يؤمن منهم ليخلصوا من ظلم النصارى واستبدادهم فيهم ، فنالوا من حسن الجزاء بمقدار قربهم من الحق ، ولو آمنوا وقبلوا الحق كله ، وأيدوه لذاته ظاهرًا وباطنًا ؛ لأوتوا أجرهم مرتين ، وجزاءهم ضعفين ، وكانوا أئمة وارثين وسادة عالين .

وأما الذين سلم لهم ملكهم ومتاعهم فلم يكن لهم ذلك بضعف حق الإسلام عن باطلهم ، فإن الذين حاولوا فتح ما وراء الأندلس من أوربا لم يكن غرضهم كلهم نشر دعوة الحق ، وإنما كان غرضهم عظمة الملك والغنائم ، وليس من الحق أن يعتدي قوم على قوم لأجل سلب ما في أيديهم ، فإن المعتدي مبطل ، والمدافع محق في الدفاع عن نفسه وبلاده ، وإن كان مبطلًا في عمله واعتقاده ، فهو جدير بأن يكون له الظفر إذا أخذ أهبته ، وأعد له عدته .

ثم يقول الشيخ محمد رشيد رضا ناقلًا عن شيخه محمد عبده في وصف حال اليهود : كانوا يشعرون بجاذبين متعاكسين : جاذب الحق الذي عرفوه ، وجاذب الباطل الذي ألفوه ، ذلك يحدث لهم هزة وتأثيرًا ، وهذا يحدث لهم استكبارًا ونفورًا ، وقد غلب عقولهم ما عرفوا ، وغلب قلوبهم ما ألفوا ، فثبتوا على ما حرفوا وانحرفوا ، وصاروا إلى حرب عوان ، بين العقل والوجدان ، يتصورون الخطر الآجل ، فيتنغص عليهم التلذذ بالعاجل ، ويتذوقون حلاوة ما هم فيه ، فيؤثرونه على ما سيصيرون إليه ، أليس هذا الشعور بخذل الحق ونصر الباطل ، واختيار ما يفنى على ما يبقى ، نارًا تشبُّ في الضلوع ؟ أليس ما يأكلونه من ثمن الحق ضريعًا لا يسمن ولا يغني من جوع ؟ بلى فإن عذاب الباطن أشد من عذاب الظاهر كما يومىء إليه قول الشاعر :

دخول النارِ للمهجورِ خيرٌ … من الهجرِ الذي هو يتقيهِ
لأن دخوله في النار أدنى … عذابًا من دخول النَّارِ فيهِ[1]

يقول صاحب الظلال رحمه الله :

والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولًا أهل الكتاب ، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذي يعلمونه ، ويشترون به ثمنًا قليلًا ، إما هو النفع الخاص الذي يحرصون عليه بكتمانهم للحق ، والمصالح الخاصة التي يتحرونها بهذا الكتمان ، ويخشون عليها من البيان ، وإما هو الدنيا كلها – وهي ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضا الله ، ومن ثواب الآخرة .

﴿ **ما يأكلون في بطونهم إلا النار** ﴾ [البقرة : ١٧٤].

وكأنما هذا الذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نارٌ في بطونهم !.

وكأنما هم يأكلون النار ! وإنها لحقيقة حين يصيرون إلى النار في الآخرة ، فإذا هي لهم لباس ، وإذا هي لهم طعام !.

---

(١) تفسير المنار (٢/١٠٢-١٠٦) .

وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة ، ويدعهم في مهانة وازدراء ، لا كلام ولا اهتمام ولا تطهير ولا غفران .

﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة** ﴾ [البقرة : ١٧٥] .

فكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة ! ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب ، فما أخسرها من صفقة وأغباها ! ويالسوء ما ابتاعوا وما اختاروا ! وإنها لحقيقة ، فقد كان الهدى مبذولًا لهم فتركوه ، وأخذوا الضلالة . وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب ..

﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾ [البقرة : ١٧٥] .

فيالطول صبرهم على النار ، التي اختاروها اختيارًا ، وقصدوا إليها قصدًا .

فياللتهكم الساخر من طول صبرهم على النار !!

وإنه لجزاء مكافىء لشناعة الجريمة ، جريمة كتمان الكتاب الذي أنزله الله ؛ ليعلن للناس ، وليحقق في واقع الأرض ، وليكون شريعة ومنهاجًا ، فمن كتمه فقد عطله عن العمل ، وهو الحق الذي جاء للعمل .

﴿ **ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق** ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

فمن فاء إليه فهو على الهدى ، وهو في وفاق مع الحق ، وفي وفاق مع المهتدين من الخلق ، وفي وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل .

﴿ **وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد** ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

شقاق مع الحق ، وشقاق مع ناموس الفطرة ، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولقد كانوا كذلك ، وما يزالون ، وتلحق بهم كل أمة تختلف في كتابها . فلا تأخذ به جملة ، وتمزقه تفاريق .. وعد الله الذي يتحقق على مدار الزمان واختلاف الأقوام ، ونحن نرى مصداقه واقعًا في هذا العالم الذي نعيش فيه[1].

ويرحم الله شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك حين يقول :

---

(١) الظلال (١/١٥٧-١٥٨) .

رأيت الذنوب تميت القلوبَ ويورثك الذلَّ إدمانهُا
وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانُها
لقد رَتع القوم في جيفةٍ يبين لذي العقل إنتانُها

من تعلم العلم للدنيا :

قال رسول الله ﷺ : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو يماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار »[1].

وقال ﷺ : « من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله في النار »[2].

وقال ﷺ : « من تعلم العلم ليباهي به العلماء ، أو يماري به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله جهنم »[3].

وقال ﷺ : « من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عوضًا من الدنيا ، لم يجد عرْف الجنة يوم القيامة »[4].

قال المناوي :

« من طلب العلم ليجاري به العلماء » أي يجري معهم في المناظرة والجدال ؛ ليظهر علمه رياءً وسمعة « أو ليماري به السفهاء » أي يحاججهم ويجادلهم مباهاة وفخرًا .

---

(١) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن عمر ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٨ .

(٢) حسن : رواه الترمذي عن كعب بن مالك ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٩ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٤ .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٥ ، وتخريج اقتضاء العلم ١٠٢ .

قال القاضي : المجاراة المفاخرة من الجري ؛ لأن كلًّا من المتفاخرين يجري مجرى الآخر ، والمماراة المحاجة والمجادلة من المرية وهو الشك ، فإن كلًّا منهما يشك فيما يقوله صاحبه أو يُشكِّكه بما يورده على حجته ، أو من المريء ، وهو مسح الحالب الضرع ليستنزل منه اللبن ، فإن كلًّا من المتناظرين يستخرج ما عند صاحبه ، والسفهاء الجهال فإن عقولهم ناقصة مرجوحة بالإضافة إلى عقول العلماء .

« أدخله الله النار » جزاء بما عمل .

وإنما كان المراء وما معه سببًا لدخولها لظهور نفوسهم في طلب القهر والغلبة ، وهما من صفات الشيطنة[1].

وقال المناوي أيضًا :

قال ابن عطاء : جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه ، وسببًا في تحصيل العقوبة لديه ، ولا يغرنَّك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر ، وفي الخبر : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . ومثل من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا والرفعة فيها كمن رفع العذرة بملعقة من الياقوت ، فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه .

قال السيد السمهودي : وقد جرت العادة الإلهية بتمييز هذا القسم من المنتسبين للعلم عمن يعتني به منهم ، بإظهار ما يخفيه من مضمراته ، وكشف ما يستره من عوراته ، سيما المنهمك في الدنيا ، المستعبد لأهلها ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ [الأنفال : ٣٧] أوحى الله إلى داود لا تجعل بيني وبينك عالمًا مفتونًا فيصدك عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادي[2].

فطالب العلم رياء وجدالًا وشهرة يحقره الله بأن يكون من أهل النار جزاءً وفاقًا ، ومن صرف العلم عمَّا أريد له وهو الجنة وطلب الدار الآخرة ؛ صُرِف

---

(١) فيض القدير (١٧٦/٦) .
(٢) فيض القدير (١٠٧/٦) .

عن عرف الجنة جزاءً وفاقًا .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الفضيل بن عياض : لأن أطلب الدنيا بطبل ومزمار خير لي من أن أطلبها بعمل الآخرة .

فيا أخي ، لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به ، وإلّا فهو وبال عليك يوم القيامة ، والعلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في قوله ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من في السمٰوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء » .

إنه لما كان العالِم سببًا في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصورًا على هذا ، وكانت نجاة العباد على يديه - جوزي من جنس عمله ، وجُعل مَنْ في السمٰواتِ والأرض ساعيًا في نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له ، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين ، فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم . وقد قيل : إن مَن في السمٰوات ومن في الأرض ، المستغفرين للعالم ، عام في الحيوانات ؛ ناطقها وبهيمها ، طيرها وغيره ، ويؤكد هذا قوله : « حتى الحيتان في الماء وحتى النملة في جحرها » .فقد قيل : سبب هذا الاستغفار أنّ العالم يعلّم الخلق مراعاة هذا الحيوانات ، ويعرّفهم ما يحلّ منها وما يحرم ، ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها ، وركوبها والانتفاع بها ، وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وأرفقها بالحيوان ، والعالم أشفق الناس على الحيوان ، وأقومهم ببيان ما خُلق له . وبالجملة فالرحمة والإحسان التي خلق بهما ولهما الحيوان ، وكتب لهما حظُّهما منه، إنما يُعرف بالعلم، فالعالم معرّف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم . والله أعلم[١].

فرضي الله عن العلماء جزاء خدمة دينهم ، وإرضاء ربهم .

وما أُغمضت منهم العيون لوداع هذه الدار الفانية حتى تلقتهم رحاب

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (١/٦٤-٦٥) .

الخلد ، واستقبلتهم حورها في الدار الباقية ، فلَقُوا التكريم والهناء ، ونسوا الشقاء والبلاء ، فكان لهم كما قيل :

هناء مَحَا ذاك العزاءَ المقدَّما فما عبس المحزون حتى تَبسَّمَا[1]

ولِلَّهِ ما أحلى قول الجرجاني :

يقولون لي : فيك انقباضٌ وإنما رأَوْا رجلًا عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحجَمَا
أرى النّاسَ من داناهُمُ هانَ عندهم ومن أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفسِ أُكرِما
ولم أقضِ حَقَّ العلم إن كنتُ كلَّما بدا مَطْمَع صَيَّرتُه لِيَ سُلَّمَا
وما زِلتُ مُنحازًا بِعِرْضي جانبًا عن الذُّلِّ أعتَدُّ الصِّيانة مَغْنَمَا
إذا قيل : هذا مَنْهَل قلتُ : قد أَرى ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا
أُنزِّهُهَا عن بعض ما لا يَشينها مَخَافَة أقوال العِدَا : فيمَ أو لِمَا؟
فأصْبحُ عن عَيْبِ اللئيم مُسلَّمًا وقد رُحْتُ في نفس الكريم مُعَظَّما
وإني إذا ما فاتني الأمرُ لم أَبِتْ أُقلِّبُ كَفِّي إثْرَهُ مُتنَدِّما
ولكنه إن جاء عَفْوًا قبِلْتُه وإن مالَ لم أُتبِعْهُ : هَلَّا ولَيْتَمَا
وأَقبِضُ خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ إذا لم أَنَلْها وافِر العِرضِ مُكْرَما
وأُكرِمُ نفسي أن أُضاحِكَ عابسًا وأنْ أَتلَقَّى بالمديحِ مُذَمَّما
وكم طالبٍ رِقِّي بنُعْماهُ لم يَصِل إليه وإن كان الرئيس المُعَظَّما
وكم نِعمةٍ كانت على الحُرِّ نِقْمَةً وكم مَغْنمٍ يَعتدُّهُ الحُرُّ مَغْرَما
ولم أَبتذِل في خِدمة العلم مُهْجَتي لأَخدُمَ من لاقَيْتُ لكِنْ لأُخْدَما
أَأَشْقَى به غَرْسًا وأَجنيهِ ذلةً إذًا فاتِّباعُ الجهلِ قد كان أحزما
وإني لَرَاضٍ عن فَتى مُتعَفِّفٍ يَرُوحُ ويَغْدُو ليس يملكُ دِرهَما
يَبيتُ يُراعي النجم من سُوء حالِهِ ويُصبحُ طَلْقًا ضاحِكًا مُتَبَسِّما
ولا يَسأَلُ المُثْرِين ما بأَكُفِّهِمْ ولو مات جُوْعًا عِفَّةً وتكرُّما

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل ، لعبد الفتاح أبي غدة ص٣٧٨-٣٨٨ ، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .

فإن قلتَ : زَنْدُ العلمِ كابٍ ، فَإنما كَبَا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوهُ صانَهُمْ ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لعُظِّما
ولكنْ أهانوهُ فهانُـوا ودَنَّسُوا مُحيَّاهُ بالأطماع حتى تجهَّما !
وما كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يستفِزُّني ولا كلُّ من لاقَيْتُ أرضَاهُ مُنْعِما
ولكن إذا ما اضطرَّني الضُّرُّ لم أبِتْ أُقلِّبُ فِكري مُنْجِدًا ثم مُتْهما

من خدم العلم خدمه الناس .

من خدم المحابر دانت له المنابر .

من صان العلم صانه العلم .

ومن أهان العلم هان على الناس .

* * *

الخلافــة والإمــارة



□ الخلافة والإمارة □

وهذا باب مهم من مهمات الدين، وقد مرّ بك في حديث لرسول الله ﷺ: « ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم شديدًا » .

قال ابن القيم :

تأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم ، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه ، كيف يسلّط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء ، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها .

أعمالكم عُمّالكم :

يقول ابن القيم :

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم ، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم فإن استقاموا استقامت ملوكهم ، وإن عدلوا عدلت عليهم ، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم ، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك ، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم ، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه ، وضربت عليهم المكوس والوظائف ، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة ، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم ، وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلّا من يكون من جنسهم ، ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك ، فلما شابوا شابت

لهم الولاة ، فحكمة الله تأبى أن يولى علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر ، بل ولاتنا على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم ، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها ، ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ، ظاهرة وباطنة فيه ، كما في الخلق والأمر سواء ، فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئًا من أقضيته وأقداره عارٍ عن الحكمة البالغة ، بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب ، ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها ، كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس ، وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادف ظلام الليل طار وسار :

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولازمها قطع من الليل مظلم[١]

ويرحم الله عليَّ بن أبي طالب لما قال له أحد الخارجين عليه : لم كثرت الفتن في عصرك ، ولم تكثر في عهد الصديق ؟؟ قال :

لأن الصديق كان أميرًا على مثلي ، وأنا اليوم أمير على أمثالكم .

قال ابن كثير عن الحجاج بن يوسف الثقفي : وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة ، وخذلانهم لهم ، وعصيانهم ومخالفتهم ، والافتيات عليهم .

عن الحسن قال : قال علي بن أبي طالب : اللهم ، كما ائتمنتهم فخانوني ، ونصحت لهم فغشّوني ، فسلّط عليهم فتى ثقيف الذيّال الميّال ، يأكل خضرتها ، ويلبس فروتها ، ويحكم فيها بحكم الجاهلية . قال يقول الحسن : وما خلق الحجاج يومئذ[٢].

وكان الحسن يقول عن الحجاج : إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٥٣- ٢٥٤). (٢) البداية والنهاية (٩/١٣٨) .

(٣) البداية والنهاية (٩/١٤٢) .

والعقوبة لا تغير بالسيف وإنما تُغيّر بالتوبة ، ولذلك لما رأى الحسن رجلًا يدعو على الحجاج قال له : أخاف إن مات الحجّاج أن يولى عليكم القردة والخنازير . كما تكونوا يولّ عليكم ، وواقع الأمة التي اتخذت كتاب ربها وراءها ظهريًّا ، وتفشت فيها المعاصي ، وشكا ضوء النهار وظلمة الليل والكرام الكاتبون من ظهور البدع والفجور والفاحشة فسلّط الله عليهم مَنْ سامهم سوء العذاب من العلمانيين وصبيان الغرب ، فما رقبوا في الأمة إلًّا ولا ذمة وما ظالم إلا سُيبلى بظالم ، وصارت الأمة وحكامها بغالًا للغرب ..

نعم .. هذه الأمة الإمعة التي نسيت كتاب ربها ، وقلدت الغرب في فجوره وشذوذه ، وظهرت فيها الحانات والمراقص والمسارح والعري واختلاط الحابل بالنابل ، ابتلاها الله بحكام من جنس أعمالهم ، فساقوهم سوق البهائم إلى مستنقع الوحل والرذيلة، وضيعوا هم والأمة أمجاد الكرام وصدق فيهم قول القائل:

في السلم كأسٌ وسيجارٌ وغانيةٌ ... وساحة الحرب في الهيجا إذاعاتُ
وقادة العرب أموات بلا كفنٍ ... فهل يحرر أرضَ القدس أمواتُ

وقول الشاعر :

كوكبَ الشرق ! ضاع قومي لمّا ... تاه في حبك القطيع وهاما
وإذا الشعر بالكؤوس تغنّى ... « والنواسي عانق الخيّاما »
وأنين الكمان صار أذانًا ... في حمى البيت والنديم إمامًا
لا تغني الخيّام يا «كوكب الشرق» ... وتسقى من راحتيه المداما
ففلسطين لا تحب السكارى ... ورُبَى القدس لا تريد النياما
ولو ان الخيّام يُبعث حيًّا ... هوت الكأس من يديه حطامًا(١)

وقال الشاعر :

ضاع قومي في الحادثات وذلّوا ... وتمادوا في خسّة وصغارِ

---

(١) في رحاب الأقصى يوسف العظم ص٢١٥-٢١٦ المكتب الإسلامي .

بين ذلٍّ يمليه صوت يمين وهوانٍ يمليه سوط اليسارِ
أسكرتهم خمر الضلال فباتوا في ضياع بصحبة الخمارِ
وطووا راية الجهاد سكارى وتلهوا بالطبل والمزمارِ

وقال الشاعر :

قد هجرنا منابع الخير فينا وارتوينا من كل نبع مكدرْ
وطمسنا مشاعل النور جهلًا وتبعنا الضلال ينهى ويأمرْ
والجموع الحيرى يضللها الكفـ ـرُ فتلهو بكل حقٍّ وتسخرْ

وقال الشاعر عن هذه الأمة :

وبعثرت رايات أمجادها ونكّست في العار أعلامها
واستسلمت للكفر مذعورة وضيعت في التيه إسلامها
وألّهت جلادها وانثنت تسجد للسوط الذي سامها
فكيف نرجو النصر في غفلة يا أمة تصنع أصنامها

وقال الشاعر :

قسّموها قطعان ذُلٍّ مهين ورموا جمعها بشر سهامِ
فقطيع «لينين» يحمى حماه وقطيع يعتزُّ « بالعم سامِ »
وقطيع بات الرغيف هواه شارد اللب حائر الأفهامِ
ليس يدري من أمره غير دنيا ملئت بالطبول والأعلامِ
والزغاريد في الكوارث تعوى والهتافات في الليالي الدوامي
نام فيك الرعاةُ حتى استكانوا فهنيئًا لعصبة النوام
وأقاموا على الهوان وذلّوا يالقومي من ضيعة الحكام
أمة الذل والمهانة قومي وعلى الذل والمهانة نامي

ويقول الشاعر :

الزقّ والرّق والمزمار عدتنا والخصم عدته علم وآلاتُ
وشرعة الله في القرآن نهجرها وشرعة الخصم تلمود وتوراةُ
تقود أمتنا في الحرب غانية والجيش في الزحف قد ألهته مغناةُ

كم بدَّدوا المال هدرًا في مباذلهم وفي ليالي الخنا ضاعت مروءاتُ
في كل يوم متاهات تضيعنا وفي الكوارث تطوينا متاهاتُ
يا سوأة العمر في تاريخ أمتنا لقد بدتْ منكمُ للعين سوءاتُ
من يزرع اليوم شرًّا فالحصادُ غدًا وقدرة الله للطغيان مِذراتُ

وإذا أردت الجزاء من جنس العمل يلوح جليًّا ، فانظر الرعاة والرعية وسل ملاهي أوربا وأندية قمارها عن الكبار بل الأقزام .

فلا الصّدّيق يرعاها بحزم ولا الفاروق يورثها فعالهْ
ولا عثمان يمنحها عطاءً ويُرخص في سبيل الله مالَهْ
ولا سيف صقيل من علي يفيئنا إلى « عدن » ظلالهْ
ولا زيد يقود الجمع فيها لحرب أو يعدُّ لها رجالهْ
ولا القعقاع يهتف بالسرايا فتخشى ساحة الهيجا نزالهْ
ولا حطين يصنعها صلاح طوى الجبناء في خور هلالهْ
سرى صوت المؤذن في حمانا وقد فقدت مآذننا بلالهْ
وشعب ضائع في كل أرضْ وجل مناه أن يرضى « جَمالَهْ »
وحادي الركب بوم أو غراب وقد قاد الجموعَ « أبو رغالهْ »
يرمرم من فتات الكفر قوتًا ويلعق من كؤوسهم الثمالهْ
يقبِّل راحة الطاغوت حينا ويلثم دونما خجل نعالَهْ
وهَمُّ الجمع ثوب أو رغيف و «صك» من رصيد أوْ «حوالهْ»
وألقاب يتيه بها قرود وليس لها معانٍ أو دَلالهْ
« سعادتُهْ » شقاء في شقاء وقد رفعت « معاليه » السفالهْ
« سيادته » يقيمُ على هوان « سماحته » يعيش مع الضلالهْ
« فخامته » هزيل ليس يدري بأن الناس قد فضحوا هزالهْ
و « دولته » يعيش مع الأماني ويخشى أن تفاجئه الإقالهْ

قال رسول الله ﷺ : « ستكون أئمة من بعدي يقولون فلا يرد عليهم

قولهم ، يتقاحمون في النار كما يتقاحم القردة »[١].

قال المناوي :

« ستكون أئمة من بعدي » أي يقعون فيها كما يقتحم الإنسان الأمر العظيم ، وتقحمه رمى نفسه بلا روية وتثبت ، كما يتقاحم القردة .

قال بعضهم : إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق ، وانصبغ بذلك صبغة تامة ، صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغيرهما ، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدون خفية ، ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرًا جليًّا عند مَنْ له فراسة ، فيرى على صور الناس مسخًا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها باطنًا ، فقلّ أن ترى مختالًا مكّارًا مخادعًا إلا على وجهه مسخة قرد ، وأنْ ترى شَرِها نَهِمًا إلّا وعلى وجهه مسخة كلب ، فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط[٢].

الخلافة في قريش :

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان »[٣].

وعن أبي هريرة يرفعه : « الناس تبع لقريش في هذا الشأن »[٤].

وقال ﷺ : «إن قريشًا أهل أمانة، لا يبغيهم العثرات إلا كبه الله لمنخريه»[٥][٦].

---

(١) حسن : رواه أبو يعلى ، والطبراني في « الكبير » عن معاوية ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٠٩ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤/١٠٠) .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) أخرجاه في الصحيحين .

(٥) أي صرعه وألقاه على وجهه يعني أذله وأهانه ، وخص المنخرين جريًا على قولهم : رغم أنفه .

(٦) حسن : رواه ابن عساكر عن جابر ، والبخاري في الأدب المفرد ، والطبراني في الكبير عن رفاعة بن رافع ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع .

وقال ﷺ : « فضل الله قريشًا بسبع خصال ، لم يُعطها أحد قبلهم ، ولا يُعْطاها أحد بعدهم ، فضل الله قريشًا أني منهم ، وأن النبوة فيهم ، وأن الحجابة فيهم ، وأن السقاية فيهم ، ونصرهم على الفيل ، وعبدوا الله عشر سنين ، لا يعبد غيره ، وأنزل الله فيهم سورة من القرآن لم يُذكر فيها أحد غيرهم ﴿ لإيلاف قريش ﴾ »[1] [قريش : ١].

والحجابة هي حجابة الكعبة ، وهي حفظها واستلام مفاتيحها .

وقال ﷺ : « فضّل الله قريشًا بسبع خصال ، فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين ، لا يعبدُ الله إلا قريش ، وفضّلهم بأنهم نصرهم يوم الفيل ، وهم مشركون ، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين، وهي ﴿لإيلاف قريش﴾، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والحجابة، والسقاية »[2].

قال ﷺ : « من أهانَ قريشًا أهانه الله »[3].

قال المناوي : « أي من حل بأحد من قريش هوانًا جازاه الله بمثله ، وقابل هوانه بهوانه ، ولكن هوان الله أشد وأعظم »[4].

وقال ﷺ : « من يرد هوان قريش أهانه الله »[5].

قال المناوي :

---

(١) حسن : رواه البخاري في التاريخ، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في «الخلافيات» عن أم هانىء ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٥ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في « الأوسط » عن الزبير بن العوّام ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٤ .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والحاكم في المستدرك عن عثمان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٨٨ .

(٤) فيض القدير (٦/ ٩) .

(٥) صحيح : رواه أحمد، والترمذي، والحاكم عن سعد، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨٩ .

هذا أعظم من الخبر المار « من أهان قريشًا ... » لأنه جعل هوان الله لمن أراد هوانها ، لكنه إنما خَرج مخرج الزجر والتغليظ ؛ ليكون الانتهاء عن أذاهم أسرع امتثالًا ، وإلا فحكم الله المطرد في عدله أنه لا يعَاقب على الإرادات[1].

وقال رسول الله ﷺ : « من أجلّ سلطان الله ، أجلّه الله يوم القيامة »[2].

قال المناوي :

أراد بسلطان الله الإمـام الأعظم ، أو المراد بسلطانه ما تقتضيه نواميـس الإلهية ، وهذا خبر أو دعاء مفهومه أن من أهانه أهانه الله[3].

وقال ﷺ : « من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله »[4].

قتل ذو النورين عثمان بن عفان أمير المؤمنين :

الجهلة البغاة المتعنتون الخونة الظلمة المفترون الذين حاصروا أمير المؤمنين عثمان ، وضيّقوا عليه قبل قتله ، حتى منعوه الميرة والماء والخروج إلى المسجد ، ولهذا خاطبهم بما خاطبهم به من توسعة المسجد وهو أول من منع منه ، ومنْ وقفه بئر رومة على المسلمين وهو أول من مُنعْ ماءها ، ومن أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وذكر أنه لم يقتل نفسًا ، ولا ارتد بعد إيمانه ، ولا زنى في جاهلية ولا إسلام ، بل ولا مسّ فرجه بيمينه بعد أن بايع بها رسول الله ﷺ ، وفي رواية بعد أن كتب بها المفصل . ثم ذكر لهم من فضائله ومناقبه ما لعله ينجع فيهم بالكف عنه ،

---

(١) فيض القدير (٢٤٣/٦) .

(٢) حسن : رواه الطبراني عن أبي بكرة ، وأحمد ، وابن أبي حاتم ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٢٧ .

(٣) فيض القدير (٢٩/٦) .

(٤) حسن : رواه الترمذي عن أبي بكرة، والطيالسي، وأحمد، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٨٧ .

فأبوا إلا الاستمرار على ما هم عليه من البغي والعدوان ، ومنعوا الناس من الدخول إليه والخروج من عنده ، حتى اشتد عليه الحال ، وضاق المجال ، ونفد ما عنده من الماء ، فاستغاث بالمسلمين في ذلك ، فركب علي بنفسه وحمل معه قربا من الماء فبالجهد حتى أوصلها إليه بعد ما ناله من جهلة أولئك كلام غليظ ، وتنفير لدابته ، وإخراق عظيم بليغ ، وكان قد زجرهم أتم الزجر ، حتى قال لهم فيما قال : والله إن فارس والروم لا يفعلون كفعلكم هذا لهذا الرجل ، والله إنهم ليأسرون فيطعمون ويسقون ، فأبوا أن يقبلوا منه حتى رمى بعمامته في وسط الدار وجاءت أم حبيبة راكبة بغلة وحولها حشمها وخدمها ، فقالوا : ما جاء بك ؟ فقالت : إن عنده وصايا بني أمية ، لأيتام وأرامل ، فأحببت أن أذكره بها ، فكذّبوها في ذلك ونالها منهم شدة عظيمة ، وقطعوا حزام البغلة ، وندّت بها ، وكادت أن تسقط عنها، وكادت تقتل لولا تلاحق الناس فأمسكوا بدابتها ، ووقع أمر كبير جدًّا ، ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم في الخفية ليلًا[1].

عن حميد بن هلال ، قال : لما حُصِر عثمان – رضي الله عنه – أتته أم المؤمنين فجاء رجل، فاطّلع في خدرها، فجعل ينعتها للناس، فقالت: ما له قطع الله يده، وأبدى عورته، قال: فدخل عليه داخل، فضربه بالسيف، فاتّقى بيمينه، فقطَعها، فانطلق هاربًا آخذًا إزاره بفيه أو بشماله ، باديًا عورته[2] والجزاء من جنس العمل .

واستخلف عثمان – رضي الله عنه – في هذه السنة على الحج عبد الله ابن عباس ، فقال له عبد الله بن عباس : إن مقامي على بابك ، أحاجف[3] عنك أفضل من الحج ، فعزم عليه ، فخرج بالناس إلى الحج ، واستمر الحصار بالدار حتى مضت أيام التشريق ورجع اليسير من الحج ، فأخبر بسلامة الناس ، وأخبر

---

(١) البداية والنهاية (٧/١٩٥-١٩٦) .

(٢) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص٦٨ ، تحقيق : مجدي السيد إبراهيم – مكتبة الفرقان .

(٣) أدافع عنك .

أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفوكم عن أمير المؤمنين . وبلغهم أيضًا أن معاوية قد بعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة ، وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد نفذ آخر مع معاوية بن خديج ، وأن أهل الكوفة قد بعثوا القعقاع بن عمرو في جيش ، وأن أهل البصرة بعثوا مجاشعًا في جيش ، فعند ذلك صمموا على أمرهم وبالغوا فيه ، وانتهزوا الفرصة بقلة الناس وغيبتهم في الحج ، وأحاطوا بالدار ، وجدّوا في الحصار ، وأحرقوا الباب ، وتسوّروا من الدار المتاخمة للدار ، كدار عمرو بن حزم وغيرها ، وحاجف الناس عن عثمان أشد المحاجفة ، واقتتلوا على الباب قتالًا شديدًا ، وتبارزوا وتراجزوا الشعر في مبارزتهم ، وجعل أبو هريرة يقول : هذا يومٌ طاب الضراب فيه . وقتل طائفة من أهل الدار وآخرون من أولئك الفجار ، وجرح عبد الله بن الزبير جراحاتٍ كثيرة ، وكذلك جرح الحسن بن علي ومروان بن الحكم فقطع إحدى علباويه[1]، فعاش أوقص[2] حتى مات . وقتل من أعيان أصحاب عثمان ، زياد بن نعيم الفهري ، والمغيرة بن الأخنس ، ونيار بن عبد الله الأسلمي ، في أناس وقت المعركة ، ولما رأى عثمان ذلك عزم على الناس لينصرفوا إلى بيوتهم ، فلم يبق عنده أحد سوى أهله ، فدخلوا عليه من الباب ، ومن الجدران وفزع عثمان إلى الصلاة وافتتح سورة طه ، وكان سريع القراءة ، فقرأها والناس في غلبة عظيمة ، قد احترق الباب والسقيفة التي عنده ، وخافوا أن يصل الحريق إلى بيت المال ، ثم فرغ عثمان من صلاته وجلس وبين يديه المصحف .

ودخل عليه محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته ، فقال له عثمان : لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها ، فتركه وانصرف مستحييًا نادمًا ، فاستقبله القوم على باب الصفة فردّهم طويلًا حتى غلبوه ، فدخلوا وخرج محمد راجعًا ، فأتاه رجل بيده جريدة يقدمهم حتى قام على عثمان فضرب بها رأسه فشجّه ، فقطر دمه على المصحف حتى لطّخه ، ثم تعاوروا عليه فأتاه رجل فضربه على الثدي بالسيف ،

---

(١) العلباء : عصب العنق . (٢) الوقص : قصر العنق .

ووثبت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجة عثمان فصاحت وألقت نفسها عليه ، وقالت : يا بنت شيبة أيقتل أمير المؤمنين ؟ وأخذت السيف فقطع الرجل يدها ، وانتهبوا متاع الدار ، ومرّ رجل على عثمان ورأسه مع المصحف فضرب رأسه برجله ونحاه عن المصحف وقال : ما رأيت كاليوم وجه كافر أحسن ولا مضجع كافر أكرم . وما تركوا في داره شيئًا - حتى الأقداح - إلا ذهبوا به . وفي رواية : جاء رجل من كِنْدة من أهل مصر ، يلقب حمارًا ، ويكنى بأبي رومان وقال قتادة : اسمه رومان ، وقال غيره : كان أزرق أشقر ، وقيل : كان اسمه سودان بن رومان المرادي .

وعن ابن عمر قال : كان اسم الذي قتل عثمان أسود بن حمران ضربه بحربة وبيده السيف صلتًا ، قال : ثم جاء فضربه به في صدره حتى أقعصه ، ثم وضع ذباب السيف في بطنه ، واتكأ عليه وتحامل حتى قتله ، وقامت نائلة دونه فقطع السيف أصابعها ، رضي الله عنها .

وروى ابن عساكر عن ابن عون أن كنانة بن بشر ضرب جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد ، فخرّ لجنبيه ، وضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خر لجنبه فقتله ، وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق ، فطعنه تسع طعنات ، وقال : أما ثلاث منهن فللّه ، وست لما كان في صدري عليه .

وثبت من غير وجه أن أول قطرة من دمه سقطت على قوله تعالى : ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [البقرة : ١٣٧] ويروى أنه كان قد وصل إليها في التلاوة حين دخلوا عليه ، وليس ببعيد فإنه كان قد وضع المصحف يقرأ فيه القرآن .

وروى ابن عساكر أنه لما طعن قال : بسم الله توكلت على الله ، فلما قطر الدم قال : سبحان الله العظيم .

وفي رواية أخرى : كان أول من دخل عليه رجل يقال له : الموت الأسود ، فخنقه خنقًا شديدًا حتى غشي عليه ، وجعلت نفسه تتردد في حلقه ، فتركه وهو يظن أنه قتله . ثم دخل عليه آخر ومعه سيف فضربه به فاتقاه بيده فقطعها،

فقيل: إنه أبانها، وقيل: بل قطعها ولم يبنها، إلا أن عثمان قال: والله إنها أول يد كتبت المفصل، فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية: **﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾** ثم جاء آخر شاهرًا سيفه ، فاستقبلته نائلة بنت الفرافصة لتمنعه منه ، وأخذت السيف فانتزعه منها فقطع أصابعها .

وفي رواية أن الغافقي بن حرب تقدم إليه فضربه بحديدة في فيه ، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله ، فاستدار المصحف ثم استقر بين يدي عثمان - رضي الله عنه - وسالت عليه الدماء ، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف فمانعته نائلة فقطع أصابعها فولت فضرب عجيزتها بيده وقال : إنها لكبيرة العجيزة ، وضرب عثمان فقتله ، فجاء غلام عثمان فضرب سودان فقتله ، فضرب الغلام رجل يقال له : قترة ، فقتله .

وذكر ابن جرير أنهم أرادوا حزّ رأسه بعد قتله ، فصاح النساء وضربن وجوههن ، فيهن امرأتاه نائلة وأم البنين ، وبناته ، فقال ابن عديس : اتركوه اتركوه ، ثم مال هؤلاء الفجرة على ما في البيت فنهبوه ، وذلك أنه نادى منادٍ منهم : أيحلّ لنا دمه ولا يحلّ لنا ماله ، فانتهبوه ثم خرجوا فأغلقوا الباب على عثمان وقتيلين معه ، فلما خرجوا إلى صحن الدار وثب غلام لعثمان على قترة فقتله ، وجعلوا لا يمرون على شيء إلّا أخذوه حتى استلب رجل يقال له كلثوم التجيبي ، ملاءة نائلة ، فضربه غلام لعثمان فقتله، وقتله الغلام أيضًا، وانتهبوا مال بيت المال.

ولم يكتف البغاة الخوارج بقتله بل لما رفع السرير أراد بعضهم رجمه ، وإلقاءه عن سريره ، وعزموا على أن يدفن بمقبرة اليهود بدير سلع ، حتى بعث علي - رضي الله عنه - إليهم من نهاهم عن ذلك .

ثم قال ابن كثير :

وذكر الواقدي أن عمير بن ضابي نزا[1] على سريره ، وهو موضوع للصلاة عليه ، فكسر ضلعًا من أضلاعه وقال : أحبست ضابيًا حتى مات في السجن،

---

(١) قفز ووثب .

وقد قتل الحجاج فيما بعد عمير بن ضابي هذا[١] .

وقال البخاري في التاريخ : حدثنا موسى بن إسماعيل عن عيسى بن منهال ثنا غالب عن محمد بن سيرين قال : كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول : اللهم اغفر لي ، وما أظن أن تغفر لي . فقلت : يا عبد الله ما سمعت أحدًا يقول ما تقول ، قال : كنت أعطيت لله عهدًا إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته ، فلما قتل وضع على سريره في البيت والناس يجيئون يصلون عليه ، فدخلت كأني أصلي عليه ، فوجدت خلوة فرفعت الثوب عن وجهه ولحيته ولطمته ، وقد يبست يميني . قال ابن سيرين : فرأيتها يابسة كأنها عود .

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن شيخ من بني راسب قال : كنت أطوف بالبيت ، فإذا رجل أعمى يطوف بالبيت ويقول : اللهم اغفر لي ، وما أراك تفعل. قال: فقلت: أما تتقي الله! قال: إن لي شأنًا، آليت أنا وصاحب لي لئن قتل عثمان لنلطمن حرّ وجهه ، فدخلنا عليه ، وإذا رأسه في حجر امرأته ابنة الفرافصة ، فقال لها صاحبي : اكشفي عن وجهه ، قالت : لم ؟ قال : ألطم حر وجهه ، قالت : أما تذكر ما قال فيه رسول الله ﷺ ، قال فيه كذا ، وقال فيه كذا ، قال : فاستحيى صاحبي فرجع ، فقلت لها : اكشفي عن وجهه ، قال: فذهبت تدعو عليّ، فلطمت وجهه، فقالت: ما لك! يَبَّس الله يديك، وأعمى بصرك ، ولا غفر لك ذنبك . قال : فوالله ما خرجت من الباب ، حتى يبست يدي ، وعمي بصري ، وما أرى الله يغفر لي ذنبي .

وعن سفيان بن عيينة ، عن طعمة بن عمرو ، وكان رجلًا قد يبس وشحب من العبادة ، فقيل له : ما شأنك . قال : إني كنت حلفت أن ألطم عثمان ، فلما قتل جئت فلطمته ، فقالت لي امرأته : أشلّ الله يمينك ، وصلّى وجهك النار ، فقد شلّت يميني ، وأنا أخاف[٢].

رضي الله عن عثمان أمير البررة ، وقتيل الفجرة ، مخذول من خذله ،

---

(١) البداية والنهاية (٧/١٩٩-٢٠٠) .

(٢) مجابو الدعوة ص٦٧-٦٨ .

منصور من نصره .

ولما وقع هذا الأمر العظيم ، الفظيع الشنيع ، أسقط في أيدي الناس ، فأعظموه جدًّا ، وندم أكثر هؤلاء الجهلة الخوارج بما صنعوا ، وأشبهوا من تقدمهم ممّن قصّ الله علينا خبرهم في كتابه العزيز ، من الذين عبدوا العجل في قوله تعالى : ﴿ **ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ١٤٩] .

ولما بلغ الزبير مقتل عثمان ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم ترحم على عثمان وبلغه أن الذين قتلوه ندموا فقال : تبا لهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ [يّس : ٤٩] . وبلغ عليًّا قتله فترحم عليه ، وسمع بندم الذين قتلوه فتلا قوله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين** ﴾ [الحشر : ١٦] ، ولما بلغ سعد ابن أبي وقاص قتل عثمان استغفر له وترحم عليه ، وتلا في حق الذين قتلوه : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا** ﴾ [الكهف : ١٠٣] . ثم قال سعد : اللهم ! أندمهم ثم خذهم .

وقد أقسم بعض السلف بالله إنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولًا . رواه ابن جرير .

وهكذا ينبغي أن يكون لوجوه منها دعوة سعد المستجابة كما ثبت في الحديث الصحيح .

وقال بعضهم : ما مات أحد منهم حتى جُنّ[(١)].

قال حذيفة بن اليمان : اللهم : إن كان قتل عثمان بن عفان خيرًا فليس لي فيه نصيب ، وإن كان قتله شرًّا فأنا منه بريء ، والله لئن كان قتله خيرًا

---

(١) البداية والنهاية (٩/١٩٧-١٩٨) .

ليحلبنه لبنًا ، وإن كان قتله شرًّا ليمتص به دمًا .

قال ابن عباس : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء .

عن سعيد بن المسيب قال : كانت المرأة تجيء في زمان عثمان إلى بيت المال ، فتحمل وقرها وتقول : اللهم بدل ، اللهم غير . فقال حسان بن ثابت حين قتل عثمان - رضي الله عنه -:

قلتم بدِّل فقد بدَّلكم سنّة حرّى وحربًا كاللهبْ
ما نقمتم من ثياب خلقة وعبيدٍ وإماءٍ وذهبْ

سمع عبد الله بن سلام رجلًا يقول لآخر : قتل عثمان بن عفان فلم ينتطح فيه عنزان ، فقال ابن سلام : أجل ! إن البقر والمعز لا تنتطح في قتل الخليفة ، ولكن ينتطح فيه الرجال بالسلاح ، والله لتقتلن به أقوام ، إنهم لفي أصلاب آبائهم ما ولدوا بعد .

وقال أبو بكرة : لأن أخرَّ من السماء إلى الأرض أحبّ إليّ من أن أشرك في قتل عثمان .

وقالت عائشة حين قتل عثمان : تركتموه كالثوب النقيّ من الدنس، ثم قتلتموه.

وفي رواية : ثم قربتموه ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش ؟ فقال لها مسروق : هذا عملك ، أنت كتبت إلى الناس تأمريهم أن يخرجوا إليه ، فقالت : لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ؛ ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا . وهذا إسناد صحيح إليها .

وقال أبو مسلم الخولاني حين رأى الوفد الذين قدموا من قتله : إنكم مثلهم أو أعظم جرمًا ، أما مررتم ببلاد ثمود ، قالوا : نعم ! قال : فأشهد أنكم مثلهم ، لخليفة الله أكرم عليه من ناقته .

وقال الحسن : لو كان قتل عثمان هدًى لاحتلبت به الأمة لبنًا ، ولكنه كان ضلالًا فاحتلبت به الأمة دمًا .

عن الشعبي قال : ما سمعت من مراثي عثمان أحسن من قول كعب ابن مالك :

فكفّ يديه ثم أغلق بابه — وأيقن أن الله ليس بغافلِ
وقال لأهل الدار لا تقتلوهُمُ — عفا الله عن كل امرىء لم يقاتلِ
فكيف رأيت الله صبَّ عليهمُ الـ — ـعداوة والبغضاء بعد التواصلِ
وكيف رأيت الخير أدبر بعده — عن الناس إدبار النعامِ الجوافلِ

وقال حسان :

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به — يقطّع الليل تسبيحًا وقرآنا
لتسمعنّ وشيكًا في ديارهمُ — الله أكبر يا ثارات عثمانًا

وقال أيضًا :

إن تمسِ دارُ ابن أروى منه خاوية — باب صريع وباب محرق خربُ
فقد يصادف باغي العرفِ حاجتهُ — فيها ويأوي إليها المجد والحسبُ
يا معشر الناس أبدوا ذات أنفسكم — لا يستوي الصدق عند الله والكذبُ

وقال راعي الإبل النميري :

عشية يدخلون بغير إذن — على متوكّل أوفى وطابا
خليل محمد ووزير صدق — ورابع خير من وطىء الترابا[1]

كان محمد بن أبي بكر ممن اشترك في حصار عثمان ومنع الماء عنه ، وبعد أن تولى إمرة مصر من قبل علي بن أبي طالب أرسل إليه معاوية عمرًا لينتزعها منه ، ودارت حرب بين أنصار علي ومعاوية كانت الغلبة فيها لأنصار معاوية « وتفرق أصحاب محمد بن أبي بكر ورجع يمشي ، فرأى خربة فأوى إليها ، ودخل عمرو بن العاص فسطاط مصر وذهب معاوية بن خديج في طلب محمد بن أبي بكر فمر بعلوج في الطريق فقال لهم : هل مرّ بكم أحد تستنكرونه ؟ قالوا : لا : فقال رجل منهم : إني رأيت رجلًا جالسًا في هذه الخربة ، فقال : هو هو ورب الكعبة : فدخلوا عليه فاستخرجوه منها وقد كاد يموت عطشًا » .

وقد سألهم محمد بن أبي بكر أن يسقوه شربة من الماء فقال معاوية :

---

(١) البداية والنهاية (٩/٢٠٣-٢٠٦) .

لاسقاني الله إن سقيتك قطرة من الماء أبدًا ، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائمًا محرمًا فتلقاه الله بالرحيق المختوم .

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن محمد بن أبي بكر نال من معاوية بن خديج هذا ومن عمرو بن العاص ومن معاوية ومن عثمان بن عفان أيضًا ، فعند ذلك غضب معاوية بن خديج ، فقدمه فقتله ، ثم جعله في جيفة حمار ، ثم أحرقه بالنار(١).

مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

قال ابن كثير :

كان أهل الشام بعد التحكيم يسمون معاوية الأمير ، وكلما ازداد أهل الشام قوة ضعف جأش أهل العراق ، هذا وأميرهم علي بن أبي طالب خير أهل الأرض في ذلك الزمان ، أعبدهم وأزهدهم ، وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل ، ومع هذا كله خذلوه وتخلوا عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت ، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن ، فكان يكثر أن يقول : ما يحبس أشقاها ، أي ما ينتظر ؟ ما له لا يقتل ؟ ثم يقول : والله لتخضبن هذه ويشير إلى لحيته مِنْ هذه ويشير إلى هامته ، فقال عبد الله بن سبع : والله يا أمير المؤمنين لو أن رجلًا فعل ذلك لأبدنا عورته : فقال أنشدكم بالله أن يقتل غير قاتلي ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ألا تستخلف ؟ فقال : لا ولكن أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ . قالوا : فما تقول لربك إذا لقيته وقد تركتنا هملًا ؟ قال : أقول : اللهم ! استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم ، فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم(٢).

قال ابن كثير :

ذكر ابن جرير وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس : أن ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن بن عمرو ، المعروف بابن ملجم الحميري ، ثم

(١) البداية والنهاية (٧/٣٢٦-٣٢٧) .
(٢) البداية والنهاية (٧/٣٣٥-٣٣٦) .

الكندي حليف بني حنيفة من كندة المصري وكان أسمر حسن الوجه وفي وجهه أثر السجود . والبرك بن عبد الله التميمي . وعمرو بن بكر التميمي أيضًا اجتمعوا فتذاكروا قتل علي إخوانهم من أهل النهروان فترحموا عليهم . وقالوا : ماذا نصنع بالبقاء بعدهم ؟ كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد ، وأخذنا منهم ثأر إخواننا ؟ فقال ابن ملجم : أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب وقال البرك : وأنا أكفيكم معاوية ، وقال عمرو بن بكر : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص ، فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينقص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه ، فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يبيت كل واحد منهم صاحبه في بلده الذي هو فيه .

فأما ابن ملجم فسار إلى الكوفة فدخلها ، وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها ، فبينما هو جالس في قوم من بني الرباب يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها : قطام بنت الشجنة ، قد قتل علي يوم النهروان أباها وأخاها ، وكانت فائقة الجمال مشهورة به ، وكانت قد انقطعت في المسجد الجامع تتعبد فيه ، فلما رآها ابن ملجم سلبت عقله ونسي حاجته التي جاء لها ، وخطبها إلى نفسها فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم وخادمًا وقينة . وأن يقتل لها علي بن أبي طالب قال : فهو لك ووالله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل علي ، فتزوجها ودخل بها ثم شرعت تحرضه على ذلك ، وندبت له رجلًا من قومها ، من تيم الرباب يقال له : وردان ، ليكون معه ردءًا ، واستمال عبد الرحمن بن ملجم رجلًا آخر يقال له : شبيب بن نجدة الأشجعي الحروري ، قال له ابن ملجم : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال : وما ذاك ؟ قال : قتل علي ، فقال : ثكلتك أمك ، لقد جئت شيئًا إدًّا كيف تقدر عليه ؟ قال : أكمن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه ، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا ، وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا . فقال : ويحك لو غير عليّ كان أهون عليّ ؟ قد عرفت سابقته في الإسلام وقرابته من

رسول الله ﷺ، فما أجدني أنشرح صدرًا لقتله. فقال: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان ؟ فقال : بلى. قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا. فأجابه إلى ذلك بعد لأي ، ودخل شهر رمضان فواعدهم ابن ملجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت ، وقال : هذه الليلة التي واعدت أصحابي فيها أن يثأروا بمعاوية وعمرو ابن العاص ، فجاء هؤلاء الثلاثة وهم مشتملون على سيوفهم ، فجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي ، فلما خرج جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة ، ويقول : الصلاة الصلاة فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق ، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه[1] ، فسال دمه على لحيته - رضي الله عنه - ولما ضربه ابن ملجم قال : لا حكم إلا لله ليس لك يا علي ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد** ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

ونادى علي : عليكم به ، وهرب وردان فأدركه رجل من حضرموت فقتله ، وذهب شبيب فنجا بنفسه وفات الناس ، ومسك ابن ملجم وقدّم عليٌّ جعدة بن هبيرة بن أبي وهب ، فصلى بالناس صلاة الفجر ، وحمل عليّ إلى منزله ، وحمل إليه عبد الرحمن بن ملجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف - قبحه الله - فقال له : أي عدوّ الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى قال : فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحًا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه ، فقال له علي : لا أراك إلا مقتولًا به ، ولا أراك إلّا من شر خلق الله، ثم قال : إن مت فاقتلوه ، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به .

وروى الإمام عن أبي يحيى قال : لما ضرب ابن ملجم عليًّا قال لهم : افعلوا به كما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل برجل أراد قتله . فقال : « اقتلوه ثم أحرقوه » .

وقد روى أن أم كلثوم قالت لابن ملجم وهو واقف : ويحك ! لم ضربت أمير المؤمنين ؟ قال : إنما ضربت أباك . فقالت : إنه لا بأس عليه . فقال : لم تبكين ؟ والله لقد ضربته ضربة لو أصابت أهل المصر لماتوا أجمعين ، والله لقد

---

(١) الجانب الأعلى من الرأس .

سممت هذا السيف شهرًا ، ولقد اشتريته بألف وسممته بألف[1].

يقول ابن كثير :

استحضر الحسن بن علي عبد الرحمن بن ملجم من السجن ، فأحضر الناس النفط والبواري ليحرقوه ، فقالوا لهم أولاد علي : دعونا نشتفي منه ، فقطعت يداه ورجلاه ، فلم يجزع ولا فتر عن الذكر ، ثم كحلت عيناه وهو في ذلك يذكر الله ، وقرأ سورة اقرأ باسم ربك إلى آخرها ، وإن عينيه لتسيلان على خده ، ثم حاولوا لسانه ليقطعوه ، فجزع من ذلك جزعًا شديدًا ، فقتل عند ذلك وحرّق بالنار قبحه الله[2].

قال رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بأشقى الناس رجلين ؟ أُحَيْمُر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا عليّ على هذه ، حتى يبلّ منها هذه »[3].

قال ابن مياس المرادي :

فلم أر مهرًا ساقهُ ذو سماحة   كمهر قطام بيّنا غير معجم
ثلاثة آلاف وعبدٌ وقينَة   وقتلُ علي بالحسام المصمَّمِ
فلا مهرَ أغلى من عليٍّ وإنْ غلا   ولا فتْك إلا دون فتك ابن ملجمِ

وقد عزى ابن جرير هذه الأبيات إلى ابن شاس المرادي ، وأنشد له ابن جرير في قتلهم عليًّا :

ونحن ضربنا مالكَ الخير حيدرًا   أبا حسن مأمومةً فتقطَّرا
ونحن خلعنا ملكه من نظامه   بضربة سيفٍ إذْ علا وتجبرا
ونحن كرام في الهياج أعزّة   إذا الموتُ بالموت ارتدى وتأزرا

وقال عمران بن حطان الخارجي :

---

(١) البداية والنهاية : (٣٣٨/٧-٣٤١) .

(٢) البداية والنهاية : (١٤/٨) .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك ، عن عمار بن ياسر ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٨٦ .

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يومًا فأحسن أوفى البرية عند الله ميزانًا

وردّ عبد القاهر البغدادي :

يا ضربة من كفورٍ ما استفاد بها إلا الجزاء بما يصليه نيرانا
إني لألعنه دينًا ، وألعنُ من يرجو له أبدًا عفوًا وغفرانا
ذاك الشقي لأشقى الناس كلهم أخفهم عند رب الناس ميزانا

أشقى الآخرين قاتل علي جزاءً وفاقًا .

عن مصعب بن سعد ، أن رجلًا نال من عليّ ، فنهاه سعد ، فلم ينته ، فقال سعد : أدعو الله عليك ، فلم ينته ، فدعا الله عليه ، فما برح حتى جاء بعير نادٌّ أو ناقة نادَّة فخبطته حتى مات[1].

ما توجبه الولاية :

قال رسول الله ﷺ : « اللهم ، من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به »[2].

قال المناوي :

« اللهم من ولي من أمر أمتي » أمة الإجابة ، ولا مانع من إرادة الأعم هنا . «شيئًا» من الولاية كخلافة وسلطنة وقضاء وإمارة ونظارة ووصاية وغير ذلك. « فشق عليهم » أي حملهم على ما يشق عليهم ، أو أوصل المشقة إليهم بقول أو فعل فهو من المشقة التي هي الإضرار ، لا من الشقاق الذي هو الخلاف . « فاشقق عليه » أي أوقعه في المشقة ، جزاءً وفاقًا . « ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم » أي عاملهم باللين والإحسان والشفقة . « فارفق به » أي افعل به ما فيه الرفق له مجازاة له بمثل فعله .

وهذا دعاء مجاب ، وقضيته لا يشك في حقيقتها عاقل ولا يرتاب ، فقلما

---

(١) مجابو الدعوة ص٧٢ .
(٢) رواه مسلم .

ذا ولاية عسف وجار وعامل عيال الله بالعتو والاستكبار ، إلا كان آخر أمره الوبال ، وانعكاس الأحوال ، فإن لم يعاقب بذلك في الدنيا قصرت مدته ، وعجل بروحه إلى بئس المستقر سقر .

ولهذا قالوا : الظلم لا يدوم وإن دام دمر ، والعدل لا يدوم وإن دام عمر .

وهذا كما ترى أبلغ زجر عن المشقة على الناس ، وأعظم حث على الرفق بهم ، وقد تظاهرت على ذلك الآيات والأخبار .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من إمام أو وال يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة ، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته »[1].

قال المناوي :

« ما من إمام أو وال » يلي من أمور الناس شيئًا « يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة » أي يمنعهم من الولوج عليه وعرض أحوالهم عليه ، ويترفع عن استماع كلامهم « إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » يعني منعه عما يبتغيه ، وحجب دعاءه عن الصعود إليه جزاءً وفاقًا[2].

وقال ﷺ : « ما من أمير عشرة ، إلّا وهو يُؤتى به يوم القيامة مغلولًا ، حتى يفكه العدل ، أو يوبقه الجور »[3].

قال المناوي :

«ما من أمير عشرة» أي : فما فوقها «إلا وهو يؤتى يوم القيامة» للحساب. « ويده مغلولة » أي والحال أن يده مشدودة إلى عنقه « حتى يفكه العدل أو

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي عن عمرو بن مرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٢ والصحيحة رقم ٦٣٠ .

(٢) فيض القدير (٥/٤٧٠) .

(٣) صحيح : رواه البيهقي في سننه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٧١ ، والصحيحة ٣٤٤ .

يوبقه الجور » أي يهلكه الظلم .

لا يفكه من الغل إلا الهلاك بمعنى أنه يرى بعد الفك ما الغل في جنبه السلامة ، كما قال تعالى : ﴿ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ : « من ولي من أمور المسلمين شيئًا ، فاحتجب دون خلّتهم ، وحاجتهم ، وفقرهم ، وفاقتهم ، احتجب الله عنه يوم القيامة ، دون خلته ، وحاجته ، وفاقته ، وفقره »[2].

قطيع نحن والجزّار راعينا

ومنفيون نمشي في أراضينا

ونحمل نعشنا قسرًا بأيدينا ونعرب عن تعازينا لنا فينا

فوالينا أدام الله والينا ! رآنا أمة وسطا

فما أبقى لنا دنيا ولا أبقى لنا دينا

ولاة الأمر ما خنتم ولا هنتم ولا أبديتم اللينا

ففي تهديدكم حينا.. وفي تنديدكم حينا سحقتم أنف أمريكا

ولو نقلت سفارتها .. معاذ الله لو نقلت لضيّعنا فلسطينا

ولاة الأمر هذا النصر يكفيكم ويكفينا

تهانينا تهانينا

اللهم إن ولاتنا قد أصبحوا عبئًا ثقيلًا على أكتافنا ، فلا تطيقهم أبداننا ، وقذى في جفوننا فلا تطرق عليهم جفوننا ، وشجًى في أفواهنا لا تسيغهم حلوقنا ، فاكفنا مؤنتهم ، وفرّق بيننا وبينهم .

* * *

---

(١) فيض القدير (٥/٤٧٣) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود ، وابن ماجة ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الحاكم وقال : هذا إسناد شامي صحيح ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : هو كما قالا ، انظر صحيح الجامع ٩٤٧١ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٦٢٩ .





الزُّهد



□ الزُّهد □

الدنيا هزيلة زهيدة ، فهوّن من شأنها ، وارفع نفسك عنها .

قال تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ [الحديد : ٢٠].

قال صاحب الظلال :

الحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي ، وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحسّ أمرًا عظيمًا هائلًا ، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدُو شيئًا زهيدًا تافها . وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة ! لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر ، هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل .

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ويستعد له : ﴿ **وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا ، إنها حساب .. وجزاء .. ودوام .. يستحق الاهتمام .

﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ [الحديد : ٢٠] .

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ؛ كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع . وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة ، حقيقة يقصد بها القرآن تصحيح المقاييس الشعورية ، والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض .

ومن ثم يدعوهم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي ، للغاية التي تستحق السباق .

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض ﴿ **جنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ [الحديد : ٢١][(١)].

قال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ [هود : ١٥-١٦] .

قال سيد قطب رحمه الله :

من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ، ويتمتع بها في أجل محدود ، ولكن ليس له في الآخرة إلا النَّار ؛ لأنه لم يقدم للآخرة شيئًا ، ولم يحسب لها حسابًا ، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا ، ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن ، وحابط وهي صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم في الدنيا وهو مؤدٍ إلى الهلاك ![(٢)] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

أولئك الموصوفون بما ذكر ليس لهم في الآخرة إلا دار العذاب المسماة بالنار ؛ لأن الجزاء فيها كالجزاء في الدنيا على الأعمال[(٣)].

قال القشيري :

أولئك الذين خابت آمالهم ، وظهرت لهم بخلاف ما احتسبوا آلامهم ، حبطت أعمالهم ، وحاق بهم سوء حالهم[(٤)].

---

(١) الظلال (٣٤٩٢/٦) .
(٢) الظلال (١٨٦٢/٤) .
(٣) تفسير المنار (٤٨/١٢) .
(٤) لطائف الإشارات (١٢٩/٢) .

وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا** ﴾ [الإسراء : ١٨-١٩] .

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة** ﴾ يعني الدنيا ﴿ **عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ، ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبته دخول النار ﴿ **مذمومًا مدحورًا** ﴾ أي مطردًا مبعدًا من رحمة الله[١] .

قال القشيري :

من رَضيَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقي عن نفيس الآخرة ، ثم لا يحظى إلا بقدر ما اشْتمَّهُ ، ثم يكون آنس ما به قلبًا وأشد ما يكون به سكونًا ؛ ثم يُختطف عن نعمته ، ولا يخصه بشيء مما جمع من كرائمه ، ويمنعه من قربه في الآخرة ، ولقد قيل :

يا غافلًا عن سماع الصوت ... إن لم تبادر فهو الفوتُ
من لم تزُل نعمته عاجلًا ... أزاله عن نعمته الموتُ[٢]

يقول الشيخ سيد قطب :

وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق ، فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات . ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم .

والذي يريد الآخرة إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض

---

(١) تفسير القرطبي (٣٨٥١/٦) .
(٢) لطائف الإشارات (١٤/٤) .

هو الهدف والغاية . ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبدًا لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا ، فالذي يريد الآخرة ، ويسعى لها سعيها ، ينتهي إليها مشكورًا ، يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء .

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسوّاه ، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء ، وإن استقرت على الأرض قدماه .

والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم ، ومجال الأرض ضيق ، ورقعة الأرض محدودة ، فكيف بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاول . كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ؟ .

فمن شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضل الضخم ، فهو هناك في الآخرة . هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل[1].

قال رسول الله ﷺ : « أقصر من جشائك ، فإن أكثر الناس شبعًا في الدنيا أكثرهم جوعًا في الآخرة »[2].

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا في الآخرة »[3].

---

(١) الظلال (٢٢١٩/٤) .

(٢) حسن : رواه الحاكم في المستدرك عن أبي جحيفة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٠ ، والصحيحة رقم ٣٤٢ .

(٣) حسن : رواه أبو نعيم في الحلية عن سلمان ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٢١٠ .

وقال رسول الله ﷺ لعمر : « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة »[1].

وقال رسول الله ﷺ : « حلوة الدنيا مرّة الآخرة ، ومُرّة الدنيا حلوة الآخرة »[2].

قال المناوي :

يعني لا تجتمع الرغبة فيها والرغبة في الله والآخرة بها ، ولا يسكن هاتان الرغبتان في محل واحد ، وإلا طردت إحداهما الأخرى ، واستبدت بالمسكن ، فإن النفس واحدة ، والقلب واحد ، فإذا اشتغلت بشيء انقطع ضده[3].

ويحتمل أن يكون المراد : حلوة الدنيا : ما تشتهيه النفس في الدنيا، مرة الآخرة : أي يعاقب عليه في الآخرة ، ومرّة الدنيا : ما يشق عليه من الطاعات ، حلوة الآخرة:أي يثاب عليه في الآخرة .

وقال رسول الله ﷺ : « من جعل الهموم همًّا واحدًا ؛ همّ المعاد ، كفاه الله سائر همومه ، ومَنْ تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أي أوديتها هلك »[4].

قال إدريس الحداد :

كان أحمد بن حنبل إذا ضاق به الأمر ، آجر نفسه من الحاكة . فسوّى لهم ، فلما كان أيام المحنة وصُرف إلى بيته ، حُمِل إليه مال ، فردّه وهو محتاج إلى رغيف ، فجعل عمه إسحاق يحسُب ما يردّ ، فإذا هو خمسمائة ألف . قال :

---

(١) رواه الشيخان ، وابن ماجة عن عمر .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مالك الأشعري ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٥٠ ، والصحيحة ١٨١٧ .

(٣) فيض القدير (٣/٣٩٦) .

(٤) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم عن ابن عمر وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٦٥ .

فقال : يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لما تركناه[١].

عن ابن المسيب قال : من استغنى بالله ، افتقر الناس إليه ، وعلى الطرف الآخر .

قال أبو بكر السدوسي : لما وُلدتُ دخل أبي على أمي ، فقال : إن المنجمين قد أخذوا مولد هذا الصبي ، وحسبوه فإذا هو يعيش كذا وكذا ، وقد حسبتها أيامًا ، وقد عزمت أن أعدّ لكل يوم دينارًا ، فأعد لي حُبا وملأه ، ثم قال أعدّي لي حُبًّا آخر فملأه استظهارًا ، ثم ملأ ثالثًا ودفنهم .

قال أبو بكر : وما نفعني ذلك مع حوادث الأيام ، وقد احتجت إلى ما ترون .

قال أبو بكر بن السقطي : رأيناه فقيرًا ، يجيئنا بلا إزار ، ونسمح عليه ، ويُبَرُّ بالشيء بعد الشيء[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « من كانت همّه الآخرة ، جمع الله له شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا راغمة ، ومن كانت همّه الدنيا ، فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة ؛ علي ، وعمار ، وسلمان »[٥].

عن سفيان : مَنْ يبرّ بالدنيا ، نزع خوف الآخرة من قلبه[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/٣٠٠) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٥/٣١٣) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن زيد بن ثابت ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٢ ، والصحيحة رقم ٩٤٨ .

(٤) رواه مسلم عن ابن عمرو .

(٥) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٥٩٤ .

(٦) سير أعلام النبلاء (٧/٢٦٨) .

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة »(١).

قال ابن القيم : والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها تعجيل من أجل الآخرة وتضييق من سعتها .

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : لما كان يوم أحد أشرف النبي ﷺ على الشهداء الذين قتلوا يومئذ ، فقال : « إني شهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم » .

وفي الصحيحين عن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال : هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا ، منهم مصعب بن عمير - رضي الله عنه - قتل يوم أحد ، وترك بردة ، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ، ونجعل على رجليه شيئًا من الإذخر ، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها .

وفي الصحيحين عن قيس بن أبي حازم قال : دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات ، فقال : إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ، ولم تنقصهم الدنيا ... وذكر الحديث .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ، ويبقى لهم الثلث ، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم » .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : ما أوتي عبد من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان كريمًا .

فاحذر الدنيا يا أخي ، فإنها كما قال يحيى بن معاذ : خمر الشيطان مَنْ سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى ، نادمًا بين الخاسرين.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ابن القيم في عدة الصابرين .

وعن عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تتخذوا الدنيا ربا ، فتتخذكم الدنيا عبيدًا ، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وإن صاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة »[١].

وعنه : « ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا وليط[٢] قلبه منها بثلاث : شغل لا ينفك عناؤه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا يدرك منتهاه ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذه بعنقه »[٣].

* * *

(١) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ص٢١ مكتبة القرآن .
(٢) أي التصق بقلبه .
(٣) ذم الدنيا ص٢٢ ، والإحياء (٣/١٩٨).



الجنـائـز



الجنائز

جدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقرّه ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده ، ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلّع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار ولا تربص إلا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ، ويراها في أهل القبور ، فإن كل ما هو آت قريب ، والبعيد ما ليس بآت ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب ، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر في المنبهات عليه[١].

فاحذر الموت فإنه الخطب الأفظع ، والأمر الأشنع ، والكأس التي طعمها أكره وأبشع ، الهادم للذات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكريهات .

وبين يدي الموت رسل من أمراض وأوصاب وأشجان ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء »[٢].

وقال ﷺ : « ما اختلج[٣] عرق ولا عين إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر »[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٧٥) .

(٢) صحيح : رواه سعيد بن منصور في سننه ، وأبو نعيم في الحلية عن مسروق مرسل بسندٍ صححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٥٩٣ .

(٣) اختلج : اضطرب وارتعد .

(٤) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط والضياء عن البراء وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٣٩٧ .

وقال ﷺ : « ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق »(١).

وعن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم »(٢) .

والمؤمن الذي يبتليه الله بمرض فلا يشكو الله عز وجل إلى عوّاده ، ولو بأنين أدبًا مع الله عز وجل ولسان حاله يقول :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحمُ

فماذا يكون جزاؤه ؟

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عوّاده أطلقته من إساري ، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ، ودمًا خيرًا من دمه ، ثم يستأنف العمل »(٣).

وقال ﷺ : « ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله الحفظة : اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير ما كان يعمل ، ما دام محبوسًا في وثاقي »(٤).

قُطع إصبع امرأة فتح الموصلي فضحكت ، فقيل لها : يقطع إصبعك وتضحكين؟؟ فقالت : حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها .

وإذا ابتلى الله عبده بحمى فصبر ، فهي حظه من النار جزاءً وفاقًا .

قال ﷺ : « أبشر فإن الله تعالى يقول : هي ناري ، أسلطها على عبدي

---

(١) صحيح : رواه أحمد والضياء عن عبادة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٨ .

(٢) حسن : رواه الترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم في مستدركه عن عقبة بن عامر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٣١٦ .

(٣) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي في سننه، وصححه الألباني في صحيح الجامع والصحيحة رقم ٢٧٢ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٣٧.

المؤمن في الدنيا ؛ لتكون حظه من النار يوم القيامة »[١].

وقال ﷺ : « الحمى حظ المؤمن من النار يوم القيامة »[٢].

وقال ﷺ : « الحمى حظ كل مؤمن من النار »[٣].

وقال ﷺ : « الحمى كير من جهنم ، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار »[٤].

وقال ﷺ : « الحمى كير من جهنم ، وهي نصيب المؤمن من النار »[٥].

قال المناوي :

أي أنها تسهل عليه الورود حتى لا يشعر به أصلًا .

وقال : أي أنها تكفر ما يوجب من النار ، وهي سوط الجزاء الذي أهل الدنيا بأجمعهم مضروبون به .

وقال : « الحمى كير من نار جهنم » فإذا ذاق لهيبها في الدنيا لا يذوق لهب جهنم في الأخرى .

وقال أيضًا : « الحمى كير من جهنم » أي حقيقة أرسلت منها إلى الدنيا ، نذيرًا للجاحدين ، وبشيرًا للمقربين[٦].

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢ .

(٢) صحيح : رواه ابن أبي الدنيا عن عثمان ، ورواه ابن عساكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨١ .

(٣) صحيح : رواه البزار عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٢ ، والصحيحة رقم ١٨٢١ .

(٤) حسن : رواه أحمد عن أبي أمامة ، ورواه الطحاوي ، وأبو بكر الشافعي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٣ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي ريحانة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٥ .

(٦) فيض القدير (٤٢١/٣ ، ٤١٩/٣) .

قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ولد العبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة ، وسموه بيت الحمد »[١].

قال المناوي :

قال الطيبي : رجع السؤال إلى تنبيه الملائكة على ما أراد الله من التفضل على عبده الحامد ؛ لأجل تصبره على المصائب ، وعدم تشكّيه ، بل إعداده إياها من النعم الموجبة للشكر ، ثم استرجاعه ، وأن نفسه ملك لله وإليه المصير .

وقال أولًا : ولد عبدي أي فرع شجرته ، ثم ترقى إلى « ثمرة فؤاده » أي نقاوة خلاصته ، فإن خلاصة المرء الفؤاد ، والفؤاد إنما يعتد به لمكان اللطيفة التي خلق لها فحقيق لمن فقد تلك النعمة ، فتلقاها بالحمد ، أن يكون هو محمودًا حتى المكان الذي يسكنه ولذلك ، قال : « فيقول الله تعالى » لملائكته أو لمن شاء من خلقه : « ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة » يسكنه في الآخرة « وسموه بيت الحمد » .

موت الأولاد فلذ الأكباد ومصابهم من أعظم مصاب ، وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب ، يا له من صدع لا يشعب ، يوهي القوى ويقوي الوهى ، ويوهن العظم ، ويعظم الوهن ، مرّ المذاق ، صعب لا يطاق ، يضيق عنه النطاق ، شديد على الإطلاق ، لا جرم أن الله تعالى حث فيه على الصبر الجميل ، ووعد عليه بالأجر الجزيل ، وبنى له في الجنة ذاك البناء الجليل[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « الرقوب التي لا يموت لها ولد »[٣].

---

(١) رواه الترمذي عن أبي موسى ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٨٠٧ ، والسلسلة الصحيحة ١٤٠٨ .

(٢) فيض القدير (١/٤٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا عن بريدة ، ورواه البزار والحاكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٥٥٠ ، وأحكام الجنائز ١٦٤ .

قال المناوي :

لا ما تعارفه الناس أنها التي لا يعيش لها ولد ، فإنه إذا مات ولدها قبلها تلقاها من أبواب الجنة ، فأعظم بها من منّة[١].

وقال ﷺ : « الرقوب التي لا فرط لها »[٢].

نزول الموت وأحواله[٣]:

احذر أن يفضحك ميراثك يوم موتك ، من صفّى صُفِّيَ له ، ومن كدّر كُدِّر عليه ، فمن كان على الخير في حياته لقي الخير عند مماته .

قال رسول الله ﷺ : « من مات على شيء بعثه الله عليه »[٤] .

قال المناوي :

أي يموت على ما عاش عليه .

ورسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله » . قيل : كيف يستعمله ؟ قال : « يفتح له عملًا صالحًا بين يديْ موته حتى يرضى عليه من حوله »[٥].

وقال ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيرًا عسله » . قيل : وما عسله ؟ قال : « يفتح له عملًا صالحًا قبل موته ثم يقبضه عليه »[٦].

---

(١) فيض القدير (٤/٥٧) .

(٢) صحيح : رواه البخاري في التاريخ عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٥٠ .

(٣) انظر جمعي عن الموت المسمَّى بـ « سكب العبرات للموت والقبر والسكرات » .

(٤) صحيح : رواه أحمد والحاكم عن جابر وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤١٩ .

(٥) صحيح : رواه أحمد والحاكم عن عمرو بن الحمق ، ورواه ابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠١ .

(٦) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي عِنَبَة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٤ .

وقال رسول الله ﷺ : « من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »[١].

قال ابن قيم الجوزية :

إن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بليّة خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى ، والإنابة إليه ، والجمعية عليه ، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ، ولا يطاوعه لسانه لذكره ، وإنْ ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه ، فينحبس القلب على اللسان ، بحيث يؤثر الذكر ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور ، بل إنْ ذكر أو دعا ذكر بقلب لاهٍ ساهٍ غافلٍ ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ، ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي ، كمنْ له جند يدفعون عنه الأعداء ، فأهمل جنده ، وضيّعهم وأضعفهم ، وقطع أخبارهم ، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة .

هذا ، وثَمَّ أمر أخوف من ذلك ، وأدهى منه وأمرّ ، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى ، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة ، كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين ، أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم: قل : لا إله إلا الله فقال : آه آه لا أستطيع أن أقولها .

وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله . فقال : شاه رخ[٢] غلبتك ثم قضى .

وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله . فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تنتنا حتى قضى .

وقيل لآخر ذلك فقال : ما ينفعني ما تقول ، ولم أدع معصية إلا ركبتها ، ثم قضى ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك فقال : وما يغني عني ، وما أعرف أني صليت لله صلاة ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة وعن عبادة .

(٢) اسمان لحجرين من أحجار الشطرنج ؛ لأنه كان في حياته مفتونًا بلعبه .

ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك فقال : هو كافر بما تقول وقضى .

وقيل لآخر فقال : كلما أردت أن أقولها ، ولساني يمسك عنها .

وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول : لله فلس ، لله فلس ، لله حتى قضى .

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله ، وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشتري جيد ، هذه كذا حتى قضى .

فسبحان الله !! كم شاهد الناس من هذا عِبرًا ، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم .

فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان ، واستعمله فيما يريد من معاصي الله ، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله ، وعطّل لسانه عن ذكره ، وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه ، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع ، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته ، فإن ذلك آخر العمل ، فأقوى ما يقوم عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة ، فمن ترى يسلم على ذلك ، فهناك ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ [إبراهيم : ٢٧].

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله قلبه عن ذكره ، واتبع هواه وكان أمره فرطًا ؟ فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه ، متعبد لهواه ، أسير لشهواته ، ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة عن طاعته ، مشتغلة بمعصيته أن يوفق للخاتمة بالحسنى .

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين ، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان : ﴿ **أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾ [القلم : ٣٩-٤٠] .

كما قيل :

يا آمنا مع قبح الفعل منه أَهَلْ أتاك توقيع أمن أنت تملكـه؟
جمعت شيئين : أمنا واتباع هوًى هذا ، وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرّطت في الزرع وقت البذر من سفه فكيف عند حصاد الناس تدركه ؟
هذا ، وأعجب شيء فيك زهدك في دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه إذًا بالله ؟ أنت ، أم الـ ـمغبون في البيع غبنًا سوف تدركه

لما نزل الموت بأبي شجاع فناخسرو بن عضد الدولة لم يسمع منه إلا قوله: ﴿ **ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه** ﴾[1] .

ويروى أنه قال قبل ذلك شعرًا يمدح به نفسه ؛ منه قوله :

ليس شرب الراح إلا في المطر وغناء من جوار في السحرْ
غالبـات سالبـات للنُّهى ناعمات في تضاعيف الوترْ
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح مَنْ فاق البشرْ
عضد الدولـة وابـن ركنها ملك الأملاك غلّاب القدرْ

قال أبو منصور الثعالبي : لم يفلح بعد هذا البيت[2] جزاءً وفاقًا .

انظر إلى المسيء العاصي الذي كان يتعلل بعسى ولعلّ ، ويرى جنده الأقلّ ، وحزبه الأقلّ ، وناصره الأذلّ ، فلا يرعوي ولا يزدجر ، ولا يفكر ولا يعتبر ، ولا ينظر ولا يستبصر ، حتى إذا وقعت رايته ، وقامت قيامته ، وهجمت عليه منيته، وأحاطت به خطيئته، فانكشف له الغطاء، وتبدت له موارد الشقاء، صاح واخيبتاه ! واثكل أماه ! واسُوء منقلباه !.

هيهات هيهات ، ندم والله حيث لا ينفعه الندم ، وأراد التثبيت بعدما زلّت

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي تحقيق د . محمد جميل غازي من ص١٣٠ - ١٣٣ ، طبع المدني .

(٢) العاقبة في ذكر الموت والآخرة لعبد الحق الأشبيلي تحقيق خضر محمد خضر ص١٣٠ مكتبة دار الأقصى الكويت .

به القدم ، فخرّ صريعًا لليدين والفم ، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم[(١)].

في سنة (٥٥٠) هـ كان أحمد بن الحريزي يُعذّب الناس بين يديه ، يعلق الرجال بأرجلهم والنساء بثديهنّ ، ويومىء إلى الجلاد : الرأس ، الوجه . ودخل الحمام فدخل عليه ثلاثة ، فضربوه بالسيوف حتى قطّعوه ، فحمل إلى بغداد ودفن بها ، فأصبح وقد خسف بقبره[(٢)] جزاءً وفاقًا .

وانظر نهاية شخصية كويتية كانت تسابق الشيطان إلى المعاصي والآثام ، فلم تكن هناك معصية قديمة أو حديثة إلا وكان هذا الشاب سباقًا إليها ، بل كان يدعو أصدقاءه لفعلها ، حتى مات ولم يجاوز عمره الثلاثين عامًا .

فقد كان همه الكأس والغانية ، ثم تطوّر حاله إلى الحشيش والمخدرات ، فجاء اليوم الذي ودّع فيه الحياة ، فشرب في ذلك اليوم شربًا كثيرًا حتى سكر ، فلم يكد يميّز بين سماء أو أرض ، وزاد في شربه حتى تناول المخدّر ، وأخذ يلتهم منه حتى تَقَيَّأ ما في بطنه كله ، ومات بعد ذلك .

وشخصية كويتية دائمة السفر إلى بلاد جنوب شرق آسيا كل صيف ، وبالأخص إلى دولة « تايلاند » ، فقد كان صاحب القصة متزوجًا ولديه أطفال ، وعمره لم يناهز الثلاثين عامًا ، إلّا أنه ما زال على عادته القديمة ، لا يفكر إلا في شهواته وملذاته سواء أكانت في الحلال أم في الحرام ، لقد سافر من دولة « الكويت » ووجهه أبيض من بياض البيض ، وكله شباب وقوة ، وفي إحدى الليالي الساهرة هناك تعرّف على راقصة عاهرة ، فرافقها إلى إحدى الشقق ، وكان بانتظاره ملك الموت ، فما إن قرب منها وجاءت اللحظة الحاسمة نادى المنادي : الرحيل الرحيل .. فقبضه ملك الموت ، ورجع إلى بلده محملًا بالتابوت ، وفتح التابوت ، وإذا بالمفاجأة الكبرى ، وهي أن وجهه أصبح لونه أسود من سواد القار، هكذا أخبرني أقرب الناس إليه، فالجزاء من جنس العمل، ومن حسنت

---

(١) كناية عن الموت .

(٢) شذرات الذهب للعماد الحنبلي (١٥٥/٤) .

بدايته حسنت نهايته ، وهذا جزاء من أساء بدايته فأسيئت نهايته[1].

قال الإمام عبد الحق الأشبيلي في كتابه العاقبة : مر بعض الصالحين بيهودي ميت قد أوصى أن يدفن ببيت المقدس ، فقال : أيكابر هؤلاء الأقدار ؟ أما علموا أنهم لو دفنوا في الفردوس الأعلى ، لجاءت لظى بأنكالها حتى تأخذه إليها ، وتنطلق به معها .

ثم قال رحمه الله عن سوء الخاتمة : ربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ، ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ، ونصيب من الافتراء ، فملك قلبه ، وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ، ولا نجعت فيه موعظة ، فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن أعاد عليه وأعاد .

يروى أن بعض رجال الناصر بن علناس نزل به الموت ، فجعل ابنه يقول له : قل:لا إله إلا الله ، فقال : الناصر مولاي ، فأعاد عليه ، فأعاد هو ثم أصابته غشية ، فلما أفاق قال : الناصر مولاي ، ثم قال لابنه : يا فلان ، الناصر إنما يعرفك بسيفك فالقتل القتل . ثم مات .

وقيل لآخر وقد نزل به الموت : قل : لا إله إلا الله فقال : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا ، والجنان الفلاني افعلوا فيه كذا .

هذا فيما حدثت عنه ولم أشهده ، وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحدثه في الديوان الذي وقع فيه هذا الحديث أن رجلًا نزل به الموت ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية : ده يازده دوازده ، تفسير عشرة أحد عشر اثنا عشر ، كان هذا الرجل من أهل العمل والديوان ، فغلب عليه الحساب والميزان .

كما روي أن رجلًا نزل به الموت ، فقيل له : قل:لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمّام منجاب ؟.

---

(١) الوقت عمار أو دمار (ج٢/٨٤-٨٧). جاسم محمد بدر المطوع ، دار الدعوة بالكويت.

وهذا الكلام فيه قصة ؛ وذلك أن رجلًا كان واقفًا على باب داره ، وكان بابها يشبه باب حمام ، فمرّت به جارية لها منظر ، وهي تقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال لها : هذا حمام منجاب ، وأشار إلى داره ، فدخلت الدار ، فدخل وراءها ، فلما رأت نفسها معه في داره وليست بحمام ، علمت أنه خَدَعها ، فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة في تلك الدار ، وقالت له : يصلح أن يكون عندنا ما يطيب به عيشنا ، وتقر به عيوننا . فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين ، وبكل ما تشتهين ، وخرج فتركها في الدار ولم يغلقها ، وتركها مفتوحة على حالها ، ومضى فأخذ ما يصلح لها ، ورجع ودخل الدار ، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم يجد لها أثرًا ، فهام الرجل بها ، وأكثر الذكر لها ، والجزع عليها ، وجعل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول :

يا ربَّ قائلةٍ يومًا إذا بلغت ... أين الطريق إلى حمام مَنْجابِ

وبعد أشهر مرّ في بعض الأزقة ، وهو ينشد هذا البيت ، وإذا بجارية تجاوبه من طاقٍ وتقول :

هلّا جعلتَ لها إذْ ظفرتَ بها ... حرْزًا على الدارِ أو قُفْلًا على البابِ

فزاد هيمانه واشتد هيجانه ، ولم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر . فنعوذ بالله من المحن والفتن .

ويروى أن رجلًا عشق شخصًا ، واشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه حتى وقع لما به ، ولزم الفراش من أجله ، وتمنع ذلك الشخص واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعوده ، فأُخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمّه ، وجعل ينتظر الميعاد الذي ضُربَ له ، فبينا هو على ذلك إذ جاءه الماشي بينهما ، وقال : إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع ، فَرغّبت إليه وكلّمته في إنجاز وعده ، والوفاء بعهده ، فقال : إني أخاف الفضيحة ، ولا أدخل مداخل السوء والرّيب ، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم ، وسألته فأبى وانصرف ، فلما سمع البائس هذا سقط في يده ، وعاد إلى أشد مما كان به ، وبدت علائم الموت وأماراته عليه .

قال الراوي : فسمعته يقول وهو في تلك الحال :

سلم يا راحة العليلِ وبُرْءَ داءِ المُدْنِفِ[١] النحيلِ
لقاك أشهى إلى فؤادي من رحمةِ الخالق الجليلِ

فقلت له : يا فلان ، اتق الله ، فقال : قد كان ، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه[٢] .

وفي عصرنا هذا ممثل عاش عمره في السينما وعلى خشبة المسرح، فمات عليه.

وممثل آخر مُهرِّج ، كان يمثل دور الميت فحرّكوه على خشبة المسرح فإذا هو ميت . والجزاء من جنس العمل .

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

ومن مات على شيء بعثه الله عليه .

وهذي نماذج من وفيّات السباقين إلى الرحمن ، تبين كون الجزاء من جنس العمل .

فهذا سعد بن معاذ يقول عن جرحه الذي مات به : اللهم افجره ؛ أي شوقًا إليك ، فيهتز عرش الرحمن فرحًا بموته .

وهذا حنظلة بن أبي عامر ، يخرج للجهاد ويترك فراشه وزوجه ، ملبيًا نداء رسول الله ﷺ فيصاب فتغسله الملائكة .

والربيع بن خثيم حليف الخوف والأحزان والأشجان ، تدخل عليه ابنته وهو في السياق فتقول : واكرب أبتاه ، فيقول لها : بل قولي : وافرحاه ، واطرباه ، لقي أبي الخير .

وربعي بن حِراش ، الذي عاهد الله ألا يراه ضاحكًا في دار الدنيا ، يبتسم على مغسله . انتهت الدنيا بأحزانها ، وأقبلت الآخرة بسرورها . والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الذي ثقل عليه المرض .

(٢) العاقبة للأشبيلي ص١٧٨/١٨٠ .

ومحمد بن المنكدر ، الذي عرفته الليالي متهجدًا باكيًا ، وكانت أمه تستعين عليه بأخيه عمر بن المنكدر وأبي حازم حتى يكف عن البكاء طوال الليل ، فلما جاءه الموت أتى صفوان بن سليم إليه ، فما زال يهوّن عليه الأمر ، وينجلي عن محمد ، حتى لكأن وجهه المصابيح ، ثم قال له محمد : لو ترى ما أنا فيه لقرّت عينك . ثم قضى رحمه الله[١].

وهذا عامر بن عبد الله بن الزبير ، الإمام الرباني الذي اشترى نفسه من الله ست مرات ؛ يعني يتصدق كل مرة بديته .

والذي قال فيه الإمام مالك : ربما انصرف عامر من العتمة ، فيعرض له الدعاء ، فلا يزال يدعو إلى الفجر .

سمع المؤذن وهو يجود بنفسه ، فقال : خذوا بيدي . فقيل : إنك عليل . قال : أسمع داعي الله ، فلا أجيبه ؟! فأخذوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب فركع ركعة ، ثم مات[٢].

وشيخ الشافعية ابن الإسماعيلي ، إسماعيل بن شيخ الإسلام أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي ، وكان إمام زمانه في الفقه وأصوله ، مع الورع الثخين ، والمجاهدة والنصح للإسلام ، والسخاء وحسن الخلق .

تُوفي إكرامًا من الله له في صلاة المغرب ، وهو يقرأ ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ففاضت نفسه ، رحمه الله[٣].

وشيخ الإسلام ، الفقيه نصر المقدسي الشافعي ، صاحب التصانيف والأمالي ، حكى عنه تلميذه الفقيه نصر الله المصيصي أنه قبل موته بلحظة سمعه وهو يقول : يا سيدي أمهلوني ، أنا مأمور وأنتم مأمورون ، ثم سمعت المؤذن بالعصر ، فقلت : يا سيدي ، المؤذن يؤذن ، فقال : أجلسني ، فأجلسته فأحرم بالصلاة ، ووضع

---

(١) الثبات عند الممات ص ١٤١، ١٤٢ .

(٢) انظر ترجمه عامر في السير (٥/٢١٥-٢٢٠) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/٨٧-٨٨) .

يده على الأخرى وصلى ، ثم تُوفي من ساعته ، رحمه الله[١].

والإمام الزبيدي العابد الواعظ ، محمد بن يحيى بن علي القرشي .

قال ابن عساكر : قال ولده إسماعيل : كان أبي في كل يوم وليلة من أيام مرضه يقول: الله الله، نحوًا من خمسة عشر ألف مرة، فما زال يقولها حتى طَفِيء[٢].

والإمام الحافظ عبد الغني المقدسي ، العابد الأثري ، علم الحفاظ . قال له ابنه أبو موسى في مرض موته ، ما تشتهي ؟ فيقول : أشتهي الجنة ، أشتهي رحمة الله . لا يزيد على ذلك ، أشتهي النظر إلى وجه الله سبحانه .

وجاء جماعة يعودونه ، فسلموا ، فردّ عليهم ، وجعلوا يتحدثون ، فقال : ما هذا ؟ اذكروا الله ، قولوا : لا إله إلا الله ، فلما قاموا جعل يذكر الله بشفتيه ، ويشير بعينيه ، فقمت لأناول رجلًا كتابًا من جانب المسجد ، فرجعت وقد خرجت روحه[٣].

وشيخ الإسلام حماد بن سلمة ، قال عفان : قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة ، لكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير ، وقراءة القرآن ، والعمل لله تعالى منه .

وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي : لو قلت لكم : إني ما رأيت حماد ابن سلمة ضاحكًا لصدقت ، كان مشغولًا ؛ إما أن يحدث ، أو يقرأ ، أو يسبح ، أو يصلي ، قد قسم النهار على ذلك . قال يونس بن محمد المؤدب : مات حماد بن سلمة في الصلاة في المسجد[٤].

والجنيد رحمه الله ، يقول الجريري واصفًا وفاته : كنت واقفًا على رأس الجنيد في وقت وفاته ، وهو يقرأ القرآن ، فقلت له : ارفق بنفسك . فقال لي :

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/١٤٢-١٤٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/٣١٦ -٣١٩) .

(٣) سير أعلام النبلاء ، ترجمة الحافظ (٢١/٤٤٣-٤٧١) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٧/٤٤٤-٤٥٦) .

يا أبا محمد ، أرأيت أحدًا أحوج إليه مني في هذا الوقت ، وها أنا ذا تطوى صحيفتي ، وكان قد ختم القرآن الكريم ، ثم بدأ بالبقرة فقرأ سبعين آية ثم مات ، رحمه الله .

وشيخ الإسلام ابن قدامة ، الذي لا يكاد يسمع دعاءً إلا حفظه ودعا به ، يموت وهو عاقد على أصابعه يسبح[(١)].

وعبد الله بن أبي السرح يموت وهو يصلي .

والإمام أبو الحسن علي بن مسلم بن محمد الفقيه ، توفي وهو ساجد في صلاة الفجر ، في ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة[(٢)].

والإمام إبراهيم بن هانىء النيسابوري ، صاحب الإمام أحمد ، الذي قال الإمام أحمد لولده : لستُ أطيق ما يطيق أبوك ؛ يعني من العبادة[(٣)]. والذي كان عرف بكثرة صومه ، انظر إلى خاتمته يرويها لنا أحد أصحابه : حضرت وفاة أبي إسحاق النيسابوري ، فجعل يقول لابنه إسحاق : ياإسحاق ، ارفع الستر . قال : يا أبت ، الستر مرفوع . قال : أنا عطشان . فجاءه بماء قال : غابت الشمس ؟ قال : لا . قال : فردّه ، ثم قال : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ [الصافات : ٦١] ، ثم خرجت روحه[(٤)] .

أبو جعفر القارىء ، أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات ، واسمه يزيد ابن القعقاع المدني ، والذي قرأ عليه نافع ، وحدث عنه مالك بن أنس ، وكان يقرىء قبل وقعة الحرة ، والذي مسحت على رأسه أم سلمة ، ودعت له ، وكان يصلي خلف القراء في رمضان ، يلقنهم يؤمر بذلك .

قال نافع : لما غُسِّل أبو جعفر ، نظروا ما بين نحره إلى فؤاده كورقة المصحف ، فما شك من حضره أنه نور القرآن[(٥)] .

---

(١) شذرات الذهب ، لابن عماد الحنبلي (٥/٢٨) .
(٢) طبقات الشافعية ، للسبكي (٤/٢٨٣) .
(٣) تاريخ بغداد (٦/٢٠٦) .
(٤) تاريخ بغداد (٦/٢٠٦) .
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/٢٨٧ ، ٢٨٨) .

وأسد الشام عبد الله اليونيني ، الذي كان دائم الذكر كثيره ، يحكي ابن كثير كيف كان موته فيقول : انصرف من الصلاة ، فقال للشيخ داود المؤذن ، وكان يغسل الموتى : انظر كيف تكون غدًا ، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ، ويتذكر أصحابه ، ومن أحسن إليه ، ولو بأدنى شيء ، يدعو لهم ، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ، ثم استند يذكر الله وفي يده سبحة[1]. فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ، ولم تسقط السبحة من يده ، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك ، فقال : لو بنينا عليه بنيانًا ، هكذا يشاهد الناس منه آية ، فقيل له : ليس هذا من السنة ، فنحي وكفن ، وصلي عليه ، ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى ، رحمه الله[2].

وانظر إلى حسن الخاتمة ، وكيف يكون الجزاء من جنس العمل فيما يحكيه الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في تباريحه .

حدثني أخي الشيخ محفوظ الشنقيطي ، مدير عام العلاقات بمجمع الملك فهد للمصحف الشريف ، عن شيخ القرّاء بالمجمع الشيخ عامر السيد عثمان رحمه الله تعالى أنه فقد حباله الصوتية في السنوات السبع الأخيرة من حياته ، وكان يدرّس تلاميذه القراءة فلا يفصح لهم إلا بشهيق وإيماء ، ثم مرض مرض الوفاة ، وكان طريح السرير الأبيض بالمستشفى ، ففوجيء أهل المستشفى بالرجل المريض فاقد الحبال الصوتيه يقعد ويدندن بكلام الله ، بصوت جهوري جذاب ، مدة ثلاثة أيام ختم فيهنّ القراءة، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ثم أسلم الروح إلى بارئها.

قال أبو عبد الرحمن : وكان خال أبي وابن عم جدي عمر بن محمد العقيل ، رحمهم الله ، مؤذنًا بمسجدنا الحسيني خمسة وثلاثين عامًا ، أدركت منها ربع قرن ، لم يتخلف عن فرض واحد لحرّ أوقرّ ، ومات في الرياض وعمره

---

(١) جوّزها ابن تيمية ، وللشيخ الألباني كُتيب في أنه لا يصح فيها حديث .

(٢) البداية والنهاية (١٣/١٠١) .

تسعون عامًا ، وكان مقعدًا ، فلما حضرته الوفاة بعد صحوة الموت وجده ابنه محمد واقفًا بعد أن كان مقعدًا ، يصدح بجمل الأذان : الله أكبر .. إلخ .

وأهل الرقائق والوعظ يذكرون كثيرًا من هِجِّيرى الشيوخ إذا خرفوا ، وأحسنهم هجيرى من كان سلوكه حميدًا ، ونيته سليمة ، ومعتقده محققًا ، فإنه يلهج بما كان عليه من النور والضياء[١].

حسن الظن بالله :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن خيرًا فله ، وإن ظن شرًّا فله »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء »[٥].

نزول الموت وأحواله :

قال الله تعالى :

﴿ فأما إن كان من المقربين فَرَوْح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين

---

(١) المجلة العربية ، العدد ١٧١ ، ص٧٠-٧١ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٠١ .

(٣) رواه أحمد عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩١ .

(٤) رواه مالك والبخاري وأحمد والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن واثلة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩٢ .

فنزلٌ من حميم وتصلية جحيم ﴾ [الواقعة : ٨٨-٩٤] .

قال ابن كثير :

﴿ **فأما إن كان من المقربين** ﴾ ﴿ **فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ أي فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما في حديث البراء أن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة ، في الجسد الطيب ؛ كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ **فروح** ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة ، وكذا قال مجاهد : إن الروح الاستراحة ، وقال أبو حرزة : الراحة من الدنيا . وقال سعيد بن جبير والسدي : الروح : الفرح .

وعن مجاهد ﴿ **فروح وريحان** ﴾ جنة ورخاء ، وقال قتادة : فروح : فرحمة وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : وريحان : ورزق .

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك ، من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن .

﴿ **وجنة نعيم** ﴾ وقال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين ، حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه .

﴿ **فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ فإذا بُشِّر بذلك أحب لقاء الله عز وجل ، والله تعالى للقائه أحب .

﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ قال البخاري : أي مُسَلَّم لك أنك من أصحاب اليمين .

﴿ **فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ؛ أي لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، وهذا معنى حسن ويكون ذلك كقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**

تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلًا من غفور رحيم ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢](١).

عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «يُبعث كل عبد في القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه ، والمنافق على نفاقه »(٢).

وقال رسول الله ﷺ : « إذا حُضر المؤمن ، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي راضية مرضيًا عنك ، إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان ؛ فيخرج كأطيب ريح المسك ؛ حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا ، حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما أطيب هذا الريح التي جاءتكم من الأرض ! فيأتون به أرواحَ المؤمنين ، فَلَهُمْ أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه فإنه كان في غم الدنيا ، فإذا قال : أما أتاكم ؟ قالوا : ذُهب به إلى أمه الهاوية . وإن الكافر إذا حُضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك ، إلى عذاب الله ، فيخرج كأنتن ريح جيفة ، حتى يأتوا بها باب الأرض ، فيقولون : ما أنتن هذه الريح ! حتى يأتوا بها أرواح الكفار »(٣).

وقال ﷺ : « إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان ، يصعدان بها – فذكر من ريح طيبها – ويقول أهل السماء : روح طيبة ، جاءت من قِبل الأرض ، صلى الله عليك ، وعلى جسدٍ كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه – فذكر من نتنها – ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، فيقال : انطلقوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٠١/٤ – ٣٠٢) .

(٢) رواه أحمد ، وقال ابن كثير في التفسير ،(٤١٦/٤): إسناد صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

(٣) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن أبي هريرة ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٤ .

به إلى آخر الأجل »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السِّقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت . فينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيّب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : ربِّ أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ؛ اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود[1] من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا . فيُستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ [الأعراف : ٤٠] فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحًا ، فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ؛ فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، فينادي منادٍ من السماء : أن كذب عبدي ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له بابًا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها[2] ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : ربِّ لا تقم الساعة »[3] .

فانظر كيف يلوح الجزاء من جنس العمل واضحًا جليًّا ، كيف يتمثل له عمله أنيسًا له ، أو موحشًا له في قبره .

---

(١) عود من الحديد ، ساخن .

(٢) ريحها الشديدة الحرارة .

(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان والضياء عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٧٢ .

فإما خاتمة بيضاء كعَمَله الحسن ، وملائكة بيض الوجوه ، وكفن من حريرة بيضاء ، وريح طيبة ، كنفسه وروحه الطيبة ، ويأتيه عمله حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، للمؤمن طيب العمل .

وإن كان سيىء العمل أسوده ، فخاتمة سوداء كعمله الأسود ، وملائكة سود الوجوه ومسوح ، وريح جيفة ، ويأتيه عمله قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، للعاصي سيىء العمل . جزاءً وفاقًا .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحًا قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقول : فلان . فيقال:مرحبًا بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى » .

فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان فيقال : لا مرحبًا بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر .

فيجلس الرجل الصالح في قبره ، غير فزع ولا مشغوف[١] ، ثم يقال له : فيم كنت ؟ فيقول : كنت في الإسلام . [فيقال له : ما هذا الرجل ؟ فيقول : محمد رسول الله ﷺ ، جاءنا بالبينات من عند الله] فصدقناه ، فيقال له : هل رأيت الله ؟ فيقول : ما ينبغي لأحد أن يرى الله[٢] . فيفرج له فرجة قبل النار ،

---

(١) مذعور . (٢) أي : يقظة في الدنيا .

فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا ، فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله تعالى ، ثم يفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها ، وما فيها ، فيقال له : هذا مقعدك ، ويقال له : على اليقين كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله .

ويجلس الرجل السوء في قبره فزعًا مشغوفًا ، فيقال له : فيم كنت ؟ فيقول : لا أدري . فيقال له : ما هذا الرجل ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون قولًا فقلته . فيفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : انظر إلى ما صرف الله عنك ، ثم يفرج له فرجة إلى النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا فيقال : هذا مقعدك ، على الشك كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله[1].

فالصالح يقال له : على اليقين كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله . وجزاؤه من جنس عمله ، والطالح يقال له : على الشك كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله . وجزاؤه من جنس عمله .

إذا كان الرجل صالحًا « يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ، ثم ينوّر له فيه ، ثم يقال : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » .

ينور له فيه كنور عمله ، والجزاء من جنس العمل ؛ « يملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون »[2] .

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ غَسَّل ميتًا فستره ، ستره الله من الذنوب ، ومن كفنه كساه الله من السندس »[3].

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي : يحتمل أن يكون المراد ستر عورته ، ويحتمل أن المراد ستر

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٦٤ .

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي وهو صحيح .

(٣) رواه الطبراني عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٧٩ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢٣٥٣ .

ما يبدو له من علامة ردية ؛ كظلمة ، ويحتمل الأمرين وهو أظهر .

« ومن كفنه كساه الله من السندس » قال النووي : فيه أنه يسن إذا رأى الغاسل ما يعجبه أن يذكره ، وإذا رأى ما يكره لا يحدث به ، وهكذا أطلقه أصحابنا ، لكن قال صاحب البيان : لو كان الميت مبتدعًا معلنًا ببدعته ، فينبغي ذكر ما يكره منه ؛ زجرًا للناس عن البدعة[1].

أخي ، لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربعك ، ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم ، ولا تبت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور .

أخي ، إن الموتى لم يبكوا من الموت ، ولكنهم يبكون من حسرة الفوت ، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها ، ودخلوا دارًا لم يتزودوا لها ، فأي ساعة مرّت على من مضي ؟ وأي ساعة بقيت علينا ؟ .

أخي ، إن الآمال تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان تحت التراب تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد ، يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات ، ويسلي عن اللذات ، ويرغب في الباقيات الصالحات .

أخي ، اعمل ما وجدت سبيلًا للعمل ، وما دمت في فسحة ومَهَل ، ومهدّ المضجع ، ووطىء لذلك المصرع.

فياهذا سترحل عن قريب ... إلى قوم كلامهمُ السكوتُ

* * *

(١) فيض القدير (٦/١٨٥) .



القيامة الجنة والنار



□ يوم القيامة □

هذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كوّرت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت . قد وصف الله بعض دواهيها ، وأكثر من أساميها ؛ لتقف على كثرة معانيها[١].

توضع الموازين ، وتنشر الدواوين ، بُرزت الجحيم ، وأُغلي الحميم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسعرت النيران ، وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان .

فيأيها الإنسان ، ما غرّك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق ، فقارفت الفجور ، وظننت أن يوم الفصل بعيد ، وأن الجزاء ليس من جنس العمل ، وربك يا غافل ليس بظلام للعبيد .

قال تعالى : ﴿ **ومن يهدِ الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرًا** ﴾ [الإسراء : ٩٧] .

قال ابن كثير :

وقوله : ﴿**عميًا**﴾ أي لا يبصرون. ﴿**وبكمًا**﴾ يعني لا ينطقون. ﴿**وصمًّا**﴾ لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال ، جزاء لهم ، كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًّا عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك ، أحوج ما يحتاجون إليه[٢].

---

(١) إحياء علوم الدين (٥٤٩/٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (١٢٠/٥ - ١٢١) .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

وهذا جزاء مناسب للجرم؛ لأنهم روجوا الضلالة في صورة الحق، ووسموا الحق بسمات الضلال، فكان جزاؤهم أن حُوّلت وجوههم أعضاء مشي، عوضًا عن الأرجل.

ثم كانوا ﴿**عميًا وبكمًا**﴾ جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن.

﴿ **وصمًّا** ﴾ جزاء امتناعهم عن سماع الحق ، كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾ [فصلت : ٥] ، وقال عنهم : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه : ١٢٦] وقال عنهم: ﴿**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى**﴾ [الإسراء : ٧٢] ؛ أي من كان أعمى عن الحق فهو في الحشر يكون محرومًا من متعة النظر ، وهذه حالتهم عند الحشر(١).

قال تعالى : ﴿ **ومن أعرض عن ذِكْري فإن له معيشة ضَنْكًا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه :١٢٤- ١٢٦].

قال ابن كثير :

يقول : ﴿ **رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ ؟ أي : في الدنيا ، ﴿ **قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ ؛ أي لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها ، بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك نعاملك معاملة من ينساك ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾(٢).

فإن الجزاء من جنس العمل .

قال ابن جرير :

قال الله حينئذٍ للقائل له : ﴿ **لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ :

---

(١) التحرير والتنوير (٢١٧/١٥) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣١٧/٥) .

فعلتُ ذلك بك ، فحشرتك أعمى ، كما أتتك آياتي ، وهي حججه وأدلته ، وبيانه الذي بيّنه في كتابه ، ﴿ **فنسيتها** ﴾ يقول : فتركتها وأعرضت عنها ، فكذلك اليوم ننساك فتتركك في النار[١].

قال ابن القيم :

﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمي البصر ، وأنه جوزي من جنس عمله ، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله ، وعميت عنه بصيرته ؛ أعمى الله بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب ، كما ترك هو الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته ، عمى بصره في الآخرة ، وعلى تركه ذكره . تركه في العذاب[٢].

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

والإشارة في ﴿ **كذلك أتتك آياتنا** ﴾ راجعة إلى العمى المضمن في قوله : ﴿ **لم حشرتني أعمى** ﴾ ؛ أي مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها ، كنت نسيت آياتنا حين أتتك ، وكنت تعرض عن النظر في الآيات حين تُدعى إليه ، فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاءً وفاقًا[٣].

قال سيد قطب :

﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ وذلك ضلال من نوع ضلالته في الدنيا ، وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولى ، حتى إذا سأل : ﴿ **رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ ؟ كان الجواب : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾.

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه ، وهو أنفسُ شراء وذخر ، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له ؛

---

(١) تفسير الطبري (٢٣١/٨) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٥/١) التفسير القيم ص٣٦١ .

(٣) التحرير والتنوير (٣٣٢/١٦) .

فلم يبصر من آيات الله شيئًا ، فلا جرم يعيش معيشة ضنكًا ويحشر في يوم القيامة أعمى[١].

قال القشيري :

من كان بحالة لقي الله بها ، فمن كان في الدنيا أعمى القلب ، يحشر على حالته ، ومن يعش على جهل يحشر على جهل ، ولذا يقولون : ﴿ **مَنْ بعثنا من مرقدنا** ﴾ [يس : ٥٢] إلى أن تصير معارفهم ضرورية ، وكما يتركون اليوم النذير في آياته، يُتركون غدًا في العقوبة من غير رحمة على ضعف حالاتهم»[٢].

جرت سنته بأن يجازي كلًّا بما يليق بحاله ، فما أسلفه لنفسه سيلقى غبَّه على الخير خيرًا ، وعلى الشر شرًّا .

قال تعالى : ﴿ **يوم يُكشف عن ساقٍ ويدعَون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون** ﴾ [القلم : ٤٢-٤٣] .

قال ابن كثير :

﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾ أي في الدار الآخرة ، بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه ، مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون ، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود ، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر ، في صور الرجال ، يغشاهم الذل في كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بُولُس ،

---

(١) الظلال (٤/٢٣٥٥-٢٣٥٦) . (٢) لطائف الإشارات (٢/٤٨٦) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/) .

تعلوهم نار الأنيار ، يُسقون من عصارة أهل النار ، طينة الخبال »(١).

قال رسول الله ﷺ : « أَخْنَعُ الأسماءِ عند الله يوم القيامة رجل تَسمَّى ملك الأملاك لا مالك إلا الله »(٢).

قال المناوي :

« أخنع » أي : أفحش .

«الأسماء» أي: أقتلها لصاحبه، وأهلكها له؛ يعني أدخلها في الخنوع؛ وهو الذل والضعة والهوان .

« عند الله يوم القيامة » قيّد به مع كونه في الدنيا كذلك ؛ إشعارًا بترتب ما هو سبب عنه من إنزال الهوان وحلول العذاب .

« رجل » أي : اسم رجل ، وقال القرطبي : المراد بالاسم المسمى .

« تسمى » أي : سمى نفسه ، أو سماه غيره فأقره ورضي به .

« ملك الأملاك » أو ما في معناه ، نحو شاهٍ شاهان ، أو شاهان شاه .

وقال القرطبي : وحاصل الحديث أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق ، لما ثبت في الفطرة أنه « لا مالك » لجميع الخلائق .

« إلا الله » ، فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالى ، فعوقب على ذلك من الإذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق .

وقال الطيبي : فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى في رداء كبريائه ، واستنكف أن يكون عبده ؛ لأن وصف المالكية مختص بالله لا يُتجاوز ، والمملوكية بالعبد لا تتجاوزه ، فمن تعدى طوره فله في الدنيا الخزي والعار ، وفي الآخرة الإلقاء في النار(٣).

---

(١) حسن : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي عن ابن عمرو ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٧٨٩٦ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

(٣) فيض القدير (١/ ٢٢٠-٢٢١) .

وعيدُ منكري الرؤية :

قال تعالى : ﴿ **كلَّا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ [المطففين : ١٥] .

قال ابن القيم بعد ذكر هذه الآية :

قد تقدم قوله تعالى : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم لمحجوبون** ﴾ ، وقول عبد الله ابن المبارك : ما حَجَب الله عنه أحدًا إلا عذّبه ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون** ﴾ [المطففين : ١٦-١٧] قال : بالرؤية . وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ، ليست فيها سحابة ؟ » قالوا : لا ، قال : « هل تُضَارّون في رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فيه سحابة ؟ » قالوا : لا ، قال : « فوالذي نفس محمد بيده ، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . فيلقى العبدَ فيقول : أي قُلْ، ألم أكرمْك، وأسوِّدك ، وأزوّجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأُذرك ترأس وترفع ؟ فيقول : بلى ، أي ربي . فيقول : أفظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول لا . فيقول : أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثاني فيقول : أي قل ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وترفع ؟ فيقول : بلى ، أي ربي ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول : إني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يا ربِّ ، آمنت بك وبكتبك ورسلك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذًا ، ثم يقال له : الآن نبعث شاهدًا عليك ، فيتفكر في نفسه : مَنْ الذي يشهد عليّ ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي ، فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه » .

فاجمعْ بين قوله : « إنكم سترون ربكم » وقوله لمن ظن أنه غير ملاقيه : « فإني أنساك كما نسيتني » . وإجماع أهل اللغة على أن اللقاء المعاينة بالأبصار ، يحصل لك العلم بأن منكري الرؤية أحق بهذا الوعيد .

ومن تراجم أهل السنة على هذا الحديث : بابٌ في الوعيد لمنكري الرؤيه ،

كما فعل شيخ الإسلام وغيره ، وبالله التوفيق[١].

فمن أنكر الرؤيه لا يرى ربه جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس القول والعمل .

أفسحر هذا ؟ :

قال تعالى : ﴿ **أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ [الطور : ١٥- ١٦] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

تنبيه المخاطبين على فساد رأيهم ، إذ كذبوا بالحشر والعقاب ، فرأوا ذلك عيانًا .

وفرع على هذا التنبيه تنبيه آخر على ضلالهم في الدنيا بقوله : ﴿ **أفسحر هذا** ﴾ ، إذا كانوا حين يسمعون الإنذار بيوم البعث والجزاء يقولون : هذا سحر ، وإذا عرض عليهم القرآن قالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فللمناسبة بين ما في صلة الموصول من معنى التوقيف على خطئهم ، وبين التهكم عليهم بما كانوا يقولونه ، دخلت فاء التفريع ، وهو من جملة ما يقال لهم المحكي بالقول المقدر : تجزون مثل عملكم لا أكثر منه ، فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء ، كما انتفى الظلم عن أصله ، ولهذه الخصوصية لم يعلق معمول الفعل بالباء ، إذ جعل الجزاء بمنزلة نفس الفعل[٢].

قال الشيخ سيد قطب عن الكافرين :

حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : ﴿ **هذه النار التي كنتم بها تكذبون** ﴾ [الطور : ١٤] .

وبينما هم في هذا الكرب ، بين الدّع والنار التي تواجههم على غير إرادة منهم ، يجيئهم الترذيل والتأنيب ، والتلميح إلى ما سبق منهم من التكذيب ﴿**أفسحر**

---

(١) حادي الأرواح ص٣٤١-٣٤٢ .

(٢) التحرير والتنوير (١٧/٤٣-٤٥) .

هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ ؟ فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التي يرونها كذلك سحر ؟! أم إنه الحق الهائل الرعيب ؟! أم إنهم لا يبصرون هذه النار ، كما كانوا لا يبصرون الحق في القرآن الكريم ؟! وحين ينتهي هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس : **﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾** وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة ، من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب واقع ، ما له من دافع . وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر ، سواء صبر عليه أم هلع ، والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع ، فلا تغيير فيه ولا تبديل[1].

النـــار :

تأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ، ينتظرون حقيقة أنبائها ، وتشفيع شفعائها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى أشفق البُرآء من سوء المنقلب . وخرج المنادي من الزبانية قائلًا : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره في سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ، ويقولون له : **﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾** [الدخان : ٤٩] فأسكنوه دارًا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ، ويوقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك ، وما لهم منها فكاك ، قد شُدّت أقدامهم إلى النواصي ، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك ،

---

(١) الظلال (٦/٣٣٩٦) .

قد حق علينا الوعيد . يا مالك ، قد أثقلنا الحديد ، يا مالك ، قد نضجت منا الجلود ، يا مالك ، أخرجنا منها فإنا لا نعود ، فتقول الزبانية : هيهات لات حين أمان ! ولا خروج لكم من دار الهوان . لا ينجيهم الندم ، ولا يغنيهم الأسف فهم غرقى في النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران ، وسرابيل القطران ، وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضائقها ، ويتحطمون في دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها ، تغلي بهم النار كغلي القدور ، ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتتقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها، كسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، أعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، غُلَّت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم ، وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطأون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيبٌ سار في بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم[1].

فالعجب منك حين تضحك ولست تدري بما سبق القضاء في حقك ، وإلى أي الدارين موردك ، فاعرض نفسك على الآيتين تعرف مستقرك من الدارين : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم** ﴾ [الانفطار : ١٣- ١٤] .

قال تعالى : ﴿ **لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظالمين** ﴾ [الأعراف : ٤١].

قال ابن جرير :

يقول جلّ ثناؤه: لهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴿**من جهنم مهاد**﴾ وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع كالفراش الذي يُفرش ، والبساط الذي يُبسط . ﴿ **ومن فوقهم غواش** ﴾ وهو جمع غاشية ، وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم .

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٥٦٣-٥٦٤) .

وإنما معنى الكلام : لهم من جهنم مهاد ، من تحتهم فُرُش ، ومن فوقهم منها لُحُف ، وإنهم بين ذلك[١].

قال القشيري :

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا ، فتدنَّسَ بالغفلة باطنهم ، وتلوث بالزّلة ظاهرهم ، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم ، فمن فوقهم عذاب ، ومن تحتهم عذاب ، وكذلك من جوانبهم ، في القلب من ضيق العيش ، واستيلاء الوحشة ما يفي ويزيد على الكل[٢].

قال تعالى : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ [الأعراف : ٤٦] .

قال ابن كثير :

قال ابن جرير : وهو السور الذي قال الله تعالى : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ [الحديد : ١٣] ، وهو الأعراف الذي قال الله تعالى : ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾[٣].

قال القشيري :

ذلك الحجاب الذي بينهما حصل من الحجاب السابق ، لمَّا حُجبوا في الابتداء في سابق القسمة عما خُصّ به المؤمنون من الزلفة والقربة ؛ حُجبوا في الانتهاء عما خُصّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال : حجاب ، وأيّ حجاب ! لا يُرفع بحيلة ، ولا تنفع معه وسيلة ، حجاب سبق به الحكم ، قبل الطاعة والجُرم[٤].

قال تعالى : ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا أولئك أصحاب النار هم في خالدون** ﴾ [يونس : ٢٧].

---

(١) تفسير ابن جرير (٥/١٨٢) .

(٢) لطائف الإشارات (١/٥٣٤) .

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٤١٣) .

(٤) لطائف الإشارات (١/٥٣٦) .

قال ابن جرير :

يقول تعالى ذكره : ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ في الدنيا ، فعصوا الله فيها ، وكفروا به وبرسوله ، ﴿ جزاء سيئة ﴾ من عمله السيىء الذي عمله في الدنيا ﴿ بمثلها ﴾ من عقاب الله في الآخرة(١).

قال ابن كثير :

لما أخبر الله تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ، ويزدادون على ذلك ، عَطَف بذكر حال الأشقياء ، فذكر عدله تعالى فيهم ، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها ، لا يزيدهم على ذلك(٢).

قال القرطبي :

ومعنى هذه المثلية أن ذلك الجزاء مما يعد مماثلًا لذنوبهم ؛ أي غير مظلومين ، وفعل الرب غير معلّل بعلة(٣).

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ جزاءً وفاقًا ، لا يزدادون على ما يستحقون بسيئاتهم من العذاب شيئًا(٤).

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ فكانت هي الربح الذي خرجوا به من صفقة الحياة ! هؤلاء ينالهم عدل الله ، فلا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزداد عليهم السوء ، ولكن ﴿ جزاء سيئة بمثله ﴾(٥).

قال القشيري :

والذين كسبوا السيئات ، وعملوا الزلّات ، لهم جزاء سيئة مثلها ، والباء

---

(١) تفسير الطبري (٦/١٠٩) .
(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٠٠) .
(٣) تفسير القرطبي (٥/٣١٧١) .
(٤) تفسير المنار (١١/٣٥١) .
(٥) تفسير الظلال (٣/١٧٧٩) .

في ﴿ **بمثلها** ﴾ صلة ؛ أي للواحد واحد . سيمُوا ذل الحجاب ، ومُنوا بتأييد العذاب، وأصابهم هوان البعاد، وآثار الحجاب على وجوههم لائحة، فإن الأسرة تدل على السريرة[١].

قال تعالى : ﴿ **إن جهنم كانت مرصادًا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابًا لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا جزاءً وفاقًا** ﴾ [النبأ : ٢١-٢٦].

قال ابن كثير :

وقوله تعالى: ﴿**جزاءً وفاقًا**﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا . قاله مجاهد وقتادة وغير واحد[٢].

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابًا وكذبوا بآياتنا كذابا** ﴾ [النبأ : ٢٧- ٢٨]

فإن ذلك أصل إصرارهم على الكفر ، وهما أصلان :

أحدهما : عَدَمِيّ ، وهو إنكار البعث .

والآخر : وجودي ، وهو نسبتهم الرسول ﷺ والقرآن للكذب .

فعوقبوا على الأصل العدمي بعقاب عدمي ، وهو حرمانهم من البرد والشراب . وعلى الأصل الوجودي بجزاء وجودي ، وهو الحميم يراق على أجسادهم ، والغساق يمر على جراحهم[٣].

قال سيد قطب :

﴿ **جزاء وفاقًا** ﴾ يوافق ما أسلفوا وما قدموا[٤].

وقال تعالى عن أصحاب الشمال : ﴿ **في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مُترفين** ﴾ [الواقعة : ٤٢- ٤٥] .

---

(١) لطائف الإشارات (٩٢/٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤٦٥/٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٨/٣٠) .

(٤) الظلال (٦/٨-٣٨) .

قال البقاعي :

كانوا في الدنيا في سعة من العيش ، منهمكين في الشهوات ، مستمتعين بها ، متمكنين منها ، لترامي طباعهم إليها ، فأعقبهم ما في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف عدم الاعتبار والاتعاظ في الدنيا ، والتكبر على الدعاة إلى الله ، وفي الآخرة شدة الألم ، لرقة أجسامهم المهيئة للترف بتعودها بالراحة ؛ بإخلادها إليها وتعويلها عليها[1] .

فجازاهم بطعام كانت تأنف منه البهائم في دار الدنيا ، وهو الزقوم ؛ الشجرة المنتنة البشعة المنظر ، يملئون منه البطون ، يشربون عليه من الحميم ، الذي ضوعف إحماؤه ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، جزاءً وفاقًا .

الجنـــة :

لمّا علم الموفَّقون ما خُلقوا له ، وما أريد بإيجادهم ، فإذا عَلَمُ الجنة قد رُفع لهم ، فشمَّروا إليه ، وإذا صراطها المستقيم قد وضح ، فاستقاموا عليه ؛ علموا أن الربح ، كل الربح ، إذا حُشروا إلى الرحمن وفدًا ، والخسران كل الخسران إذا سيقوا إلى جهنم وردًا؛ فأوقفوا اللحظات والسكنات، ووجيب القلوب والأنفاس على الجنة حتى نالوها .

فهم في روضات الجنة يتقلبون ، وعلى أسرتها تحت الحِجَال يجلسون ، وعلى الفرش التي بطائنها من إستبرق يتكئون ، وبالحور العين يتنعمون ، وبأنواع الثمار يتفكهون ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاءً بما كانوا يعملون[2].

ينظرون إلى وجه الملك الكريم ، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم ،

---

(١) نظم الدرر (٢١٣/١٩) .

(٢) حادي الأرواح ص٧ .

لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون ، وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، لا يخافون ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون .

فياعجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ، ويتهنأ بعيش دونها .

تالله لقد نودي عليها في سوق الكساد ، فما قلّب ولا استَامَ إلا أفرادٌ من العباد ، فواعجبا لها . كيف نام طالبها ؟ وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها ؟ وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ؟ وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها ؟ وكيف قرّت دونها أعين المشتاقين ؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين ؟ وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين ؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين[1].

والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان ، لكان جديرًا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وألا يؤثر عليها الحظ الفاني الخسيس ، ولا يبيع جنة عرضها الأرض والسمٰوات بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات . ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم ، بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم . وسماع الخطاب من الرحمن ، بسماع المعازف والألحان . والجلوس على منابر اللؤلؤ والزبرجد في يوم المزيد ، بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد .

يقول يحيى بن معاذ : تَرْك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشد ، وترك الدنيا مهر الآخرة .

وقال: في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس ، فياعجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ، ويترك العز في طلب ما يبقى[2].

قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [يونس : ٢٦] .

---

(١) حادي الأرواح ص٧ .

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٥٧٧) .

قال ابن كثير :

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا ، بالإيمان والعمل الصالح ، أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾[١] [الرحمن : ٦٠] .

قال ابن جرير :

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الحسنى والزيادة ، اللتين وعدهما المحسنين من خلقه ، فقال بعضهم : الحسنى هي الجنة ، جعلها الله للمحسنين من خلقه جزاء . والزيادة عليها : النظر إلى الله تعالى[٢].

قال الرازي :

وقال صاحب الكشاف : المراد : المثوبة الحسنى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾[٣].

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم إلى صراط الإسلام ، فوصلوا بالسَّير عليه إلى غايته ، وهي دار السلام ؛ أي للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى ؛ أي التي تزيد في الحسن على إحسانهم[٤].

قال سيد قطب :

فأما الذين أحسنوا ؛ أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام ، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (١٩٨/٤) .
(٢) تفسير الطبري (١٠٤/٦) .
(٣) تفسير مفاتيح الغيب (٣٣٨/٨) .
(٤) تفسير المنار (٣٥٠/١١) .
(٥) الظلال (١٧٧٩/٣) .

المقربون من أهل الجنة :

بعد أن ذكر الله جزاءهم في سورة الواقعة قال تعالى : ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ [الواقعة : ٢٤] .

قال الإمام البقاعي في كتابه نظم الدرر :

لما أبلغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء ، دلّ على أن أعمالهم كانت كذلك ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فقال تعالى : ﴿ **جزاء** ﴾ أي فعل لهم ذلك لأجل الجزاء ، ﴿ **بما كانوا** ﴾ جبلّة وطبعًا ﴿ **يعملون** ﴾ أي يجددون عمله على جهة الاستمرار[1] اهـ .

قال تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورًا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلًا ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديرًا ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلًا عينًا فيها تسمى سلسبيلًا** ﴾ [الإنسان : ١١- ١٨].

قال الزمخشري :

﴿ **ولقّاهم نضرة وسرورًا** ﴾ أي أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه ، وسرورًا في القلوب .

﴿ **بما صبروا** ﴾ بصبرهم على الإيثار .

﴿ **جنة وحريرًا** ﴾ المعنى : وجزاهم بصبرهم على الإيثار ، وما يؤدي إليه من الجوع والعري بستانًا فيه مأكل هنيّ ، وحريرًا فيه ملبس بهي ؛ يعني أن هواءها معتدل ، لا حرّ شمس يحمي ، ولا شدة برد تؤذي .

قال البقاعي :

ولما كان فعلهم هذا خالصًا لله ، سبب عنه جزاءهم ، فقال مخبرًا أنه دفع

---

(١) نظم الدرر (٢٠٥/١٩) .

(٢) الكشاف للزمخشري (١٦٩/٤) .

عنهم المضار ، وجلب لهم المسار : ﴿ **فوقاهم الله** ﴾ أي الملك الأعظم ، بسبب خوفهم ﴿**شر ذلك اليوم**﴾ أي العظيم، وأشار إلى نعيم الظاهر بقوله: ﴿**ولقاهم**﴾ أي تلقية عظيمة ، فيه وفي غيره ﴿ **نضرة** ﴾ أي حسنًا ونعمة تظهر على وجوههم ، وعيشًا هنيئًا ، وإلى نعيم الباطن بقوله : ﴿ **وسرورًا** ﴾ أي دائمًا في قلوبهم ، في مقابلة خوفهم في الدنيا وعبوس الكفار في الآخرة وخزيهم .

وأشار إلى المسكن بقوله : ﴿ **وجزاهم بما صبروا** ﴾ أي بسبب ما أوجدوه من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة ، واجتناب المعصية ، ومنع أنفسهم الطيبات ، وبذل المحبوبات ﴿ **جنة** ﴾ أي بستانًا جامعًا يأكلون منه ما يشتهون ، جزاء على ما كانوا يطمعون ، ولما ذكر ما يكسو الباطن ، ذكر ما يكسو الظاهر فقال : ﴿ **وحريرًا** ﴾ أي هو في غاية العظمة .

وقال : ﴿ **تذليلًا** ﴾ أي سهل تناولها تسهيلًا عظيمًا ، لا يَرُدُّ اليد عنها بُعْدٌ ولا شوك ، لكل من يريد أخذها على أي حالة كان من اتكاء وغيره ، فإن كانوا قعودًا تدلت إليهم ، وإن كانوا قيامًا وكانت على الأرض ارتقت إليهم ، وهذا جزاء لهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لأمر الله .

﴿ **ويطاف** ﴾ أي من أيّ طائف ، لكثرة الخدم .

﴿ **عليهم بآنية** ﴾ جمع إناء ؛ جزاء على طوافهم على المحتاجين بما يصلحهم[1].

قال ابن القيم :

قال تعالى : ﴿ **ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلًا عينًا فيها تسمى سلسبيلًا** ﴾ فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صرفًا ، أن شراب الأبرار يمزج منها ؛ لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله ، فأخلص شرابهم ، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينًا يشرب بها**

---

(١) نظم الدرر (٢١/١٤١-١٤٢) .

المقربون ﴾ [المطففين : ٢٢-٢٨] .

فأخبر سبحانه عن مزاج شرابهم بشيئين : بالكافور في أول السورة ، والزنجبيل في آخرها ، فإن في الكافور من البرد وطيب الرائحة ، وفي الزنجبيل من الحرارة وطيب الرائحة ، وما يحدث لهم باجتماع الشَّرابين ، ومجيء أحدهما على أثر الآخر حالة أخرى ، أكمل وأطيب وألذ من كل منهما بانفراده ، ويعدل كيفية كل منهما بكيفية الآخر ، وما ألطف موقع ذكر الكافور في أول السورة ، والزنجبيل في آخرها ، فإن شرابهم مزج أولًا بالكافور ، وفيه من البرد ما يجيء الزنجبيل فيعدله .

والظاهر أن الكأس الثانية غير الأولى ، وأنهما نوعان لذيذان من الشراب ، أحدهما : مزج بكافور . والثاني : مزج بزنجبيل ، وأيضًا فإنه سبحانه أخبر عن مزج شرابهم بالكافور وبرده في مقابلة ما وصفهم به من حرارة الخوف ، والإيثار ، والصبر ، والوفاء بجميع الواجبات التي نبه على وفائهم بأضعفها ، وهو ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر على الوفاء بأعلاها ، وهو ما أوجبه الله عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا** ﴾ فإن في الصبر من الخشونة وحبس النفس عن شهواتها ما اقتضى أن يكون في جزائهم من سعة الجنة ، ونعومة الحرير ما يقابل ذلك الحبس والخشونة ، وجمع لهم بين النضرة والسرور ، وهذا جمال ظواهرهم ، وهذا حال بواطنهم ، كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام ، وبواطنهم بحقائق الإيمان ، ونظيره قوله في آخر السورة : ﴿**عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة** ﴾ [الإنسان : ٢١] فهذه زينة الظاهر ، ثم قال : ﴿ **وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا** ﴾ فهذه زينة الباطن ، المطهر لهم من كل أذى ونقص .

ونظيره قوله تعالى لأبيهم آدم عليه السلام : ﴿ **إن لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ [طه : ١١٨-١١٩] فضمن له ألّا يصيبه ذل الباطن بالجوع ، ولا ذل الظاهر بالعري ، وألا يناله حَرُّ الباطن بالظمأ ، ولا حر الظاهر بالضحى[١].

---

(١) حادي الأرواح ص١٨٤-١٨٥ .

يقول ابن القيم :

وشرابهم من سَلْسَبيل مزجه الـ ... كافورُ ذاك شرابُ ذي الإحسانِ
هذا شرابُ أولي اليمين ولكن الْـ ... أبـرارُ شُرْبُهُـمُ شرابٌ ثـانِ
يُدْعى بتسنيمٍ سنامٌ شُرْبُهُـمْ ... شِرْبُ المقرَّبِ خيرةَ الرحمنِ
صَفّى المُقربُ سعْيَه فصفا له ... ذاك الشرابُ فتلك تَصفِيَتانِ
لكنّ أصحاب اليمين فأهل مزْ ... جٍ بالمباح وليس بالعصيـان
مُزِجَ الشرابُ لهم كما مزجوا هُمُ الْـ ... أعمالَ ذاك المزج بالميـزانِ[١]

ولباسهم فيها حرير :

قال رسول الله ﷺ : « إن كنتم تحبون حِلْية الجنة وحريرها ، فلا تلبسوهما في الدنيا »[٢].

قال المناوي :

« إن كنتم تحبون حلية الجنة » زينتها ، والمراد حلي الذهب والفضة .

« وحريرها ، فلا تلبسوهما في الدنيا » فإن من لبسهما من الرجال ، ومثلهم الخَنَاثَى في الدنيا لم يلبسهما في الآخرة ، كما في خبر آخر ، ويحرم على الرجل والخُنْثى حلي النقدين ، والحرير لغير ضرورة أو حاجة[٣].

نكاح أهل الجنة :

قال ابن القيم : وأكمل الناس فيه أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام ، فكما أن من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، ومن أكل في صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة ، كما قال النبي ﷺ : « إنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة »

---

(١) النونية لابن قيم الجوزية .

(٢) رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣٣٨ ، وتخريج المشكاة رقم ٤٤٠٤ ، وصحيح الجامع رقم ١٤٥١ .

(٣) فيض القدير (٣/٣٥-٣٦) .

فمن استوفى طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حرمها هناك . ومن ترك اللذة المحرمة لله استوفاها يوم القيامة أكمل ما تكون ، ومن استوفاها هنا حرمها هناك ، أو نقص كمالها ، فلا يجعل الله لذة من أوضع في معاصيه ومحارمه كلذة من ترك شهوته لله أبدًا[1].

أولئك يجزون الغرفة :

قال تعالى : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقّون فيها تحية وسلامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٥] .

قال ابن القيم : تأمل كيف جعل جزاءَهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله ، الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوءِ خطاب الجاهلين لهم ، فبُدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم[2].

وقال تعالى : ﴿ **والملائكة يدْخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] .

قال ابن الجوزي : تعبوا فأريحوا ، وزهدوا فأبيحوا ، زال نَصَبُهم ، وارتفع تعبهم ، وحصل مقصودهم ، ورضي معبودهم[3].

سماع أهل الجنة :

قال رسول الله ﷺ : « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ، ما سمعها أحد قط ، [إن مما يغنين : نحن الخيرات الحسان ، أزواج قومٍ كرام ، ينظرن بقرة أعيان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا يَمُتْنَه ، نحن الآمنات فلا يخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنه] »[4].

---

(١) حادي الأرواح ص٢٤٠ .

(٢) حادي الأرواح ص١٤٢ .

(٣) التبصرة (٢/٢١٤-٢١٥) .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر ، وأبو نعيم ، والضياء في صفة الجنة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٥٧ ، والروض النضير ٤٩٦ .

وفي الصحيح من فوائد سمويه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الحور العين لتغنين في الجنة ويقلن: نحن الحور الحسان، خُبِّئْنا لأزواج كرام ».

قال المناوي:

إن أزواج أهل الجنة زاد في رواية: « من الحور ».

« ليغنين أزواجهن بأحسن أصواتٍ، ما سمعها أحد قط » أي بأصوات حسان، ما سَمع في الدنيا مثلها أحد قط[1].

فمن أراد سماع الحور فلينزهِ سمعه عن غناء أهل الفجور، جزاءً وفاقًا.

يقول ابن القيم رحمه الله:

قال ابنُ عباسٍ ويُرْسِلُ ربنا ... ريحًا تهزُّ ذوائبَ الأغصانِ
فتُثير أصواتًا تَلَذ لِمسمع الْـ ... إنسانِ كالنَّغماتِ بالأوزانِ
يالذةَ الأسماع لا تتعوضي ... بلذاذةِ الأوتار والعيدانِ
أوَمَا سمعت سماعهم فيها غنا ... ءالحور بالأصوات والألحانِ
وَاهًا لذيّاك السماعِ فإنه ... مُلئت به الأذنان بالإحسانِ
وَاها لذيّاك السماعِ وطيبه ... من مثل أقمارٍ على أغصانِ
وَاها لذيّاك السماعِ فكم به ... للقلب من طربٍ ومن أشجانِ
وَاها لذيّاك السماعِ ولم أقل ... ذيّاك تصغيرًا له بلسانِ
ما ظن سامعه بصوتٍ أطيب الْـ ... أصوات من حور الجنان حسانِ
نحن النواعم والخوالد خيِّرَا ... تٌ كاملات الحسن والإحسانِ
لسنا نموت ولا نخاف وما لنا ... سخطٌ ولا ضِغْنٌ من الأضغانِ
طوبى لمنْ كُنَّا له وكذاك طو ... بى للذي هو حظنا لفظانِ
في ذاك آثار رُوين وذكرها ... في الترمذي ومعجم الطبراني
ورواه يحيى شيخ الأوزاعيّ تفـ ... ـسيرًا للفظة يُحْبرون أغانِ

---

(١) فيض القدير (٢/٤٢٣).

نزِّه سماعَك إن أردت سماع ذيَّـــــاك الغنا عن هذه الألحانِ
لا تؤثر الأدنى على الأعلى فَتُحْـ ـرم ذا وذا ياذِلَّةَ الحرمـانِ(١)

قال تعالى : ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ [المطففين : ٣٤-٣٦].

قال ابن كثير :

﴿ **فاليوم** ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ **الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك .

﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ أي إلى الله عز وجل ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، وليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟! .

يعني قد جُوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله(٢) .

قال القرطبي :

﴿ **من الكفار يضحكون** ﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا(٣).

قال ابن جرير :

﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ يقول تعالى ذكره : هل أُثيب الكفار ، وجُزُوا ثواب ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين ، من سخريتهم منهم ، وضحكهم بهم ، بضحك المؤمنين منهم في الآخرة ، والمؤمنون على الأرائك ينظرون ، وهم في النار يعذبون(٤).

---

(١) النونية لابن القيم .
(٢) تفسير ابن كثير (٤٧٢/٤) .
(٣) تفسير القرطبي (٧٠٥٩/١٠) .
(٤) الطبري (١١٢/١٢) .

قال محمد الطاهر عاشور :

وأفادت فاء السببية في قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ أن استهزاءهم بالمؤمنين في الدنيا كان سببًا في جزائهم بما هو عليه من نوعه في الآخرة ، إذ جعل الله الذين آمنوا يضحكون من المشركين ، فكان جزاءً وفاقًا[١].

قال سيد قطب :

﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ . والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل : ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ ؟ .

أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب ما فعلوا ؟ وهم لم يجدوا الثواب المعروف من الكلمة ، فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا ، فهو ثوابهم إذن . ويا للسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام[٢].

قال القاضي أبو السعود :

﴿ يضحكون ﴾ وتقديم الجار والمجرور تحقيقًا للقصر والمقابلة ؛ أي فاليوم هم من الكفار يضحكون ، لا الكفار منهم ، كما كانوا يفعلون في الدنيا .

﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ فإنه صريح في أن ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم في الدنيا ، فلابد من المجانسة والمشاكلة حتمًا ، والتثويب والإثابة والمجازاة[٣].

قال البقاعي :

﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير (٢١٤/٣٠) .

(٢) الظلال (٣٨٦١/٦) .

(٣) تفسير أبي السعود (١٣٠/٩) .

﴿ يضحكون ﴾ قصاصًا وجزاء ، حين يرون ما هم فيه من الذل ، سرورًا بحالهم ، شكرًا لله على ما أعطاهم من النجاة من النار والنقمة من أعدائهم . قال أبو صالح : تفتح لهم الأبواب ، ويقال : اخرجوا ، فيسرعون ، فإذا وصلوا إلى الأبواب غلقت في وجوههم ، وردوا على أقبح حال ، فيضحك المؤمنون . ويالها من خيبة وخجلة ، وسواد وجه ، وتعب قلب ، وتقريع نفس من العذاب بالنار ، وبالشماتة والعار .

﴿ هل ثُوب ﴾ بناه للمفعول لأن الملذذ مطلق مجازاتهم .

﴿ الكفار ﴾ أي وقع تثويب العريقين في الكفر ؛ أي إعطاؤهم الثواب والجزاء على أنهى ما يكون .

﴿ ما كانوا ﴾ أي نفس فعلهم بما هو لهم كالجبلات .

﴿ يفعلون ﴾ بدواعيهم الفاسدة ، ورغباتهم المعلولة .

وقد علم أن لهم الويل ، الذي افتتحت السورة بالتهديد لمن يفعل فعل من لا يظن أنه يجازى على فعله ، وآخرها فيمن انتقص الأعراض في خفاء ، وأولها فيمن انتقص الأموال كذلك ، وجفاء العدل والوفاء ، والله الهادي للصواب ، وإليه المرجع والمآب[1].

يقول ابن القيم :

ضحكوا من الكفار يومئذٍ كما	ضحكوا هُمُ منهم على الإيمانِ
وأثابهم نظرًا إليه ضِدَّ ما	قد قَالَهُ فيهمْ أولو الكفرانِ
فلذاك فسّرها الأئمة أنه	نظر إلى الرب العظيمِ الشأنِ
للّهِ ذاك الفهمُ يؤتيه الذي	هو أهله مَنْ جادَ بالإحسانِ
والله لولا رؤية الرحمن في الـ	ـجناتِ ما طابت لذي العرفانِ
أعلى النعيمِ نعيمُ رؤية وجهه	وخطابه في جنة الحيوانِ
وأشدُّ شيء في العذاب حجابه	سبحانه عن ساكني النيران

(١) نظم الدرر (٢١/٣٣٣-٣٣٤) .

وإذا رآه المؤمنون نَسُوا الذي هم فيه مما نالتِ العَيْنانِ
فإذا توارى عنهمُ عادوا إلى لذاتهم من سائرِ الألوان
فلهم نعيمٌ عند رؤيتهِ سوى هذا النعيمِ فحبَّذا الأمرانِ
أَوَما سمعت سؤالَ أعرفِ خلقه بجلالة المبعوثِ بالقرآنِ
شوقًا إليه ولذة النظر التي بجلال وجه الرب ذي السلطانِ
فالشوقُ لذةُ روحه في هذه الدُّنيا ويوم قيامةِ الأبدانِ
تلتذ بالنظر الذي فازت به دون الجوارحِ هذه العينانِ
والله ما في هذه الدنيا ألذُّ من اشتياق العبد للرحمنِ
وكذاك رؤية وجهه سبحانه هي أكمل اللذات للإنسانِ[1].

اللهم إنا نسألك لذة العيش بعد الموت ، وحسن النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك .

* * *

(١) النونية لابن القيم .



احفظ الله يحفظك



□ احفظ الله يحفظك □

عن ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا ، فقال : « يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف »(١) .

وبلفظ آخر عن ابن عباس قال : كنت رديف النبي ﷺ فقال : « يا غلام - أو يا غليم - ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ فقلت : بلى . فقال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جفّ القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه . واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرًا »(٢) .

---

(١) رواه أحمد والترمذي ، واللفظ له . وأبو يعلى في مسنده ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق حنش الصنعاني عن ابن عباس ، وإسناده حسن .

(٢) إسناده حسن : رواه أحمد ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وفي الأسماء والصفات من طريق حنش أيضًا .
قال ابن رجب في نور الاقتباس : وأجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس . وهو إسناد حسن لا بأس به . نور الاقتباس ، لابن رجب الحنبلي تحقيق محمد بن ناصر العجمي ص٣٢،٣٣ .

قال الإمام أبو الفرج في كتابه صيد الخاطر .

تدبرت هذا الحديث فأدهشني ، وكدت أطيش . ثم قال : فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث ، وقلة الفهم لمعناه .

يقول الشيخ عائض القرني : « **احفظ الله يحفظك** » لا تزال تكرر هذه الكلمة ، ما دام في الأرض إسلام ، وما دام في الأرض مسلمون .

مَنْ يتق الله يحُمد في عواقبِهِ ويكفه شرَّ من عزّوا ومنْ هانُوا
من استجار بغير الله في فزعٍ فإن ناصرَه عجزٌ وخذلانُ
فالزم يديك بَحبلِ الله معتصمًا فإنه الركنُ إن خانتك أركانُ

« احفظ الله يحفظك » قال ابن رجب الحنبلي : يعني أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله ، فإن الجزاء من جنس العمل[1].

وقال رحمه الله : يعني احفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب ، وعند حدوده ، فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أُمر به إلى ما نهي عنه ، فدخل في ذلك فعل الواجبات جميعًا ، وترك المحرمات كلها . وذلك كله يدخل في حفظ حدود الله ، كما ذكره الله في قوله : ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ [التوبة : ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ **هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ مَنْ خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** ﴾ [ق : ٣٢ ، ٣٣] وفُسِّر الحفيظ هٰهنا بالحافظ لأوامر الله ، وفُسِّر بالحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها ، وكلاهما يدخل في الآية .

ومَن حفظ وصية الله لعباده وامتثلها فهو داخل أيضًا ، والكل يرجع إلى معنى واحد . فأمره ﷺ لابن عباس أن يحفظ الله يدخل فيه هذا كله[2].

ومن أعظم ما يجب حفظه من المأمورات الصلوات الخمس ، ولقد سمى الله سبحانه المواظبة على الصلاة وأدائها حفظًا ، فقال سبحانه : ﴿ **والذين هم على**

---

(١) نور الاقتباس ص٣٩ طبع دار الأقصى ، الكويت .

(٢) نور الاقتباس ص٣٥ .

صلاتهم يحافظون ﴾ [المعارج : ٣٤] فمن حفظ الصلاة في أوقاتها وخشوعها وخضوعها وجماعتها حفظه الله يوم يضيع الناس . كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو مطعون ، وفي سكرات الموت ، وعيناه تهراق بالدموع يقول : الله الله في الصلاة ، لاحظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، من حفظ الصلاة حفظه الله ، ومنْ ضيَّع الصلاة ضيَّعه الله[1].

حفظ الأَيْمان :

ومما أمر الله تعالى بحفظه حفظ الأيمان ، قال تعالى : **﴿ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴾** [المائدة : ٨٩] .

وكان السلف كثيرًا ما يحافظون على الأيمان ، فمنهم من كان لا يحلف بالله ألبتة ، ومنهم من كان يتورع حتى يكفر عما شك في الحلف فيه .

ووصى الإمام أحمد عند موته أن يخرج عنه كفارة يمين . وقال : أظن أني حنثت في يمين حلفتها .

وقد روي عن أيوب – عليه السلام – كان إذا مر باثنين يحلفان بالله ذهب فكفّر عنهما يمينهما ؛ لئلا يأثما وهما لا يشعران . ولهذا لما حلف على ضرب امرأته مائة جلدة ، أفتاه الله بالرخصة لحفظه لأيمانه وأيمان غيره[2].

حفظ القلب :

ومن حِفْظ الله تعالى ، حفظ العبد لقلبه من الشهوات والشبهات . وحفظه بالذكر والطاعة يُسلم قلبه لله سبحانه ليهديه سواء السبيل **﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾** [ق : ٣٧] .

قلب سلم من الشك والشرك ، سلم من الرياء والنفاق ، والكبر والعجب ، والحقد والحسد، وامتلأ بالصدق والمراقبة، والتوكل والخوف، والتوحيد والإخلاص، مراد الله القلب الفقيه المبصر **﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب**

---

(١) احفظ الله يحفظك ، لعائض القرني ص٣٥ ، ٣٦ طبع دار الوطن للنشر .
(٢) نور الاقتباس ص٣٧ .

التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦] .

وقال تعالى : **﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمَعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾** [الأعراف : ١٧٩] .

حفظ العبد لسانه :

يقول القرني : من حِفْظ العبد لربه أن يحفظ لسانه ، واللسان هذا أمره عجيب ، فكم هتك من عِرْض ، كم أوقع في معصية ، كم لطّخ من سمعة ، وكم هدم من بيت .

من حِفظ المرء للسانه أن يوجهه لكل ما يخدم هذا الدين ، والذبّ عن حياضه .

ها هو ذا حسان بن ثابت رضي الله عنه كان يحفظ الله تعالى بِشِعْره وبقصائده ، فحفظه الله . كان يمدح الدعوة ، ويمدح الرسول ﷺ ، وقد قال في سبّ مشركي قريش :

زعَمتْ سَخِينة[1] أن ستَغْلب ربها ... فليُغْلبنّ مغلِّب الغَلّابِ

كان رسول الله ﷺ يقربه ويرفعه على المنبر ، وقال له : « اهجهم » أو قال : « هَاجهم ، وجبريل معك »[2] .

فكان رضي الله عنه يهجوهم ويقول :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ

أتهجوه ولست له بكفءٍ ... فَشرُّكما لخيركما الفداءُ

قال الزهري : أفخر بيت قالته العرب ، بيت حسّان في بدر :

وبيوم بدر إذ يصد وجوههم ... جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

---

(١) سخينة : مسبة لقريش ؛ لأن قريشًا تحب هذه الأكلة، فالعرب إذا سبّت قريشًا قالت : سخينة .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد .

فهو قائد الشعراء إلى الجنة ؛ لأنه حفظ الله تعالى .

وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه أتى إلى رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول الله ،

فثبّتَ الله ما آتاك من حَسَنٍ تثبيت موسى ونصرًا كالذي نُصِرا

باع نفسه ، كما يقول ابن القيم ، يوم العقبة ، والبيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن تفرقا فقد وجب البيع .

وهو القائل في مدح الرسول ﷺ :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيَّنةٌ كانت بديهته تنبيك بالخبر

ذهب إلى مؤتة ، فلما أتت ساعة الصفر نزل وخلع درعه ، وأخذ سيفه وقال :

أقسمتُ يا نفس لَتنزِلنَّهْ لتنزلنَّ أو لتكرهنَّهْ
إن أجلب الناسُ وشدوا الرنَّهْ ما لي أراك تكرهين الجنَّةْ
هل أنت إلا نطفةٌ في شَنَّةْ

ودّع الرسول ﷺ وبكى ، ولما التفت إلى المدينة وهو على فرسه قال :

خَلَف السلامُ على امرىءِ ودّعته في النَّخل خيرِ مودّعٍ وخليلِ

لما قالوا له : نراك على خير . قال : لا .

لكنني أسأل الرحمنَ مغفرة وطعنة ذات فَرغٍ تقذف الزَّبَدا
حتى يقال إذا مرّوا على جَدثي يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا

فكان الصحابة إذا مروا بقبره ، يسلمون عليه ، ثم يقولون : يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا . قتل هناك ابن رواحة ، وذهبت روحه إلى الجنة .

وفي المقابل امرؤ القيس ، حامل لواء الشعراء إلى النار ، ضيّع شبابه في المعصية ، فضيّعه الله !! ما عرف إلا النساء والخمر فضاع .

القروي : أحد الشعراء المنحرفين اللبنانيين الفجرة ، نزل في دمشق فحملوه على الأكتاف ، وصفقوا له فقال :

هَبوا لي دينًا يجعل العرب أمةً وسِيروا بجثماني على دين برهمِ

أيا مرحبًا كفرًا يوحّد بيننا وأهلًا وسهلًا بعده بجهنم

فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأهانه، فمات في حمام، وما عُلم به إلا بعد أيام، وقد أصبح جيفة كالكلب.

إيليا أبو ماضي، الشاعر الفاسد يقول:

جئت لا أعلم من أين؟ ولكني أتيت ولقد أبصرت قدّامي طريقًا فمشيت

وسأبقى سائرًا إن شئت هذا أم أبيت لست أدري لست أدري

قلنا له: لا دريت ولا تليت، وتوليت وعصيت، وأذنبت وأخطأت وتعاليت[1].

وكذا من حفظ العبد لربه أن يحفظه في سمعه، وأن يحفظه في بصره، وأن يحفظه في بطنه، وفرجه، وسائر جوارحه، وأن يسخرها لطاعة الله قبل أن تشهد عليه يوم القيامة. ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ [النور: ٢٤].

احفظ الله يحفظك:

وحفظ الله لعبده يتضمن نوعين:

أحدهما:

حفظه له في مصالح دنياه؛ كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله.

حفظه من مكر الأعداء.

وحفظه من كيد الطغاة.

ونصره على الأعداء.

حفظه للجوارح.

تسخير الدواب والسباع وحفظه من شرها.

وتسخير الجمادات.

والنوع الثاني من الحفظ:

وهو أشرفهما وأفضلهما؛ حفظ الله لعبده في دينه، فيحفظ عليه دينه

---

(١) احفظ الله يحفظك، شريط للشيخ عائض القرني.

وإيمانه في حياته من الشبهات المردية ، والبدع المضلة ، والشهوات المحرمة ؛ ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإسلام .

أما حفظه له في مصالح دنياه

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي »[١] .

ومنْ حفظ الله للعبد أن يحفظه في صحة بدنه ، وقوته وعقله ، وماله .

قال بعض السلف : العالم لا يخرف .

وقال بعضهم : من جمع القرآن مُتِّع بعقله .

وكان أبو الطيب الطبري قد جاوز المائة سنة ، وهو ممتع بعقله وقوته ، فوثب يومًا من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة ، فعوتب على ذلك ، فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر[٢] .

وعكس هذا أن الجنيد رأى شيخًا يسأل الناس فقال : إن هذا ضيّع الله في صغره ، فضيعه الله في كبره .

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وكان أبوهما صالحًا ﴾ [الكهف : ٨٢] أنهما حُفظا بصلاح أبيهما[٣] .

نبيان يبنيان جدارًا لغلامين كان أبوهما صالحًا هل بعد هذا حفظ .

---

(١) أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قال .

(٢) البداية والنهاية (١٢/٨٠) وسير أعلام النبلاء .

(٣) نور الاقتباس ، لابن رجب الحنبلي ص٣٩-٤١ .

قال محمد بن المكندر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده ، وقريته التي هو فيها ، والدويرات التي حولها ، فما يزالون في حفظ من الله وستر .

وقال ابن المسيب لابنه : يا بني ، إني لأزيدن في صلاتي من أجلك ؛ رجاء أن أحفظ فيك ، وتلا هذه الآية ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه[1]، وعقب عقبه .

احفظ الله يحفظك :

عن حميد بن هلال عن رجل قال : أتيت النبي ﷺ فإذا هو يريني بيتًا فقال : « إن امرأة كانت فيه ، فخرجت في سرية من المسلمين ، وتركت ثنتي عشرة عنزًا لها ، وصيصيتها ، كانت تنسج بها » قال : « ففقدت عنزًا من غنمها وصيصيتها ، فقالت : يا رب ، إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه ، وإني قد فقدت عنزًا من غنمي وصيصيتي ، وإني أنشدك عنزي وصيصيتي » . قال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة مناشدتها ربها تبارك وتعالى . قال رسول الله ﷺ : « فأصبحت عنزها ومثلها وصيصيتها ومثلها ، وهاتيك ، فائتها فاسألها إن شئت » قال : قلت : بل أصدقك[2].

احفظ الله يحفظك :

وتذكرْ حفظ الله ليوسف بن يعقوب ، يعقوب الصابر الذي قال : فالله خير حافظًا ، وهو أرحم الراحمين .

قال الحسن البصري : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة ، لم يفارق الحزن قلبه ، ودموعه تجري على خديه ، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب[3].

---

(١) نور الاقتباس ص٤١ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٦٧) ، وإسناده جيد ، وقال الهيثمي في المجمع : ورجاله رجال الصحيح . والصيصية هي : الصنارة التي يغزل بها وينسج .

(٣) احفظ الله يحفظك ، للشيخ عائض القرني ص٢٠ .

وحفظ الله لعمر بن عبد العزيز في أولاده ؛ ما خلّف لهم مالًا ، فصاروا من أغنى الأغنياء .

احفظ الله يحفظك :

قال عروة بن الزبير : بلغت أسماء مائة سنة لم يسقط لها سن ولم يُنكر لها عقل[١].

احفظ الله يحفظك :

كان شيبان الراعي يرعى غنمًا في البرية ، فإذا جاءت الجمعة خطّ عليها خطًّا ، وذهب إلى الجمعة ثم يرجع وهي كما تركها[٢].

وكان بعض السلف في يده الميزان ، يزن بها دراهم ، فسمع الأذان ، فنهض ونفضها عن الأرض وذهب إلى الصلاة ، فلما عاد جمعها فلم يذهب منها شيء[٣].

احفظ الله يحفظك :

كتب بعض السلف إلى أخيه : أما بعد ، فإنه من اتقى الله **فقد** حفظ نفسه ، ومن ضيّع تقواه فقد ضيّع نفسه ، والله الغني عنه .

احفظ الله يحفظك :

ومن عجيب حفظ الله تعالى لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى ، وساعية في مصالحه ، كما جرى لسفينة ، مولى النبي ﷺ[٤].

عن ابن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم ، أو أسر ، فانطلق هاربًا يلتمس الجيش ، فإذا هو بالأسد ، **فقال** : يا أبا الحارث[٥]، أنا مولى رسول الله ﷺ ، كان من أمري كَيْتَ وكَيْتَ فأقبل

---

(١) الإصابة (٨/٨) .

(٢) حلية الأولياء (٣١٧/٨) .

(٣) نور الاقتباس ص٤٢-٤٣ .

(٤) نور الاقتباس ص٤٣-٤٤ .

(٥) كنية الأسد .

الأسد له بصبصة[١] حتى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتًا أهوى إليه ، ثم أقبل يمشي إلى جنبه ، حتى بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد[٢].

وكان إبراهيم بن أدهم نائمًا في بستان ، وعنده حية في فمها طاقة نرجس فما زالت تذب عنه حتى استيقظ .

فمن حفظ الله حفظه من الحيوانات المؤذية بالطبع ، وجعل تلك الحيوانات حافظة له[٣].

ورويت هذه الحكاية عن مالك بن دينار قال : نمت في حديقة فاستيقظت من نومي ، وأنا في الحديقة ، وإذا بحيّة أخذت زهرة في فمها ، وهي تزيل الذباب والبعوض عن وجهي[٤].

احفظ الله يحفظك :

هذا شيخ الإسلام أبو الحسن الزاهد بنان الحمّال أنكر يومًا على ابن طولون شيئًا من المنكرات ، وأمره بالمعروف ، فأمر به فألقي بين يدي الأسد ، فكان الأسد يشمّه ويحجم عنه ، فأمر برفعه مِنْ بين يديه ، وعظّمه الناس جدًّا ، وسأله بعض الناس عن حاله حين كان بين يدي الأسد . فقال له : لم يكنْ عليّ بأس . قد كنت أفكر في سؤر السباع واختلاف العلماء فيه ، هل هو طاهر أم نجس[٥]؟!.

احفظ الله يحفظك :

أما تسخير الجمادات :

فهذا العلاء الحضرمي يقف بجيش المسلمين أمام النهر ويقول : اللهم إنا

---

(١) تحريك الذنب .

(٢) قال الألباني في تخريج المشكاة حديث رقم ٥٩٤٩ : رواه الحاكم بنحوه ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

(٣) نور الاقتباس ص ٤٤ .

(٤) احفظ الله يحفظك ، لعائض القرني ص٢٧ .

(٥) البداية والنهاية (١١/١٦٩) .

جندك ، ونقاتل في سبيلك ، فاحملنا كيف شئت ، ثم يدفع فرسه فيخوض الماء هو والجيش ، فوالله ما ابتلّ لهم سرج .

وهذا أبو ريحانة الصحابي الجليل ، وقد ركب البحر في إحدى المعارك ، فضاعت إبرته ، وكان يخيط بها ثوبه ، فقال : اللهم ردّ علي إبرتي ، فرآها على الموج[١] .

وانظر إلى حفظ الله لكليمه موسى ؛ بأن سخر البحر لحفظه ، وهو رضيع ، أنجاه الله من التلف بالتلف ... الآلاف من الجنود يبحثون عنه ، ويُذبَّح من الأطفال بسببه ما يذبَّح ، ويتمنى فرعون لو يجده ، فينجيه الله من ذبح فرعون وجنوده بالبحر ثم يُربّى في حجر فرعون .

لا تُدبِّر لك أمرًا فأولي التدبير هلكَى
سَلِّم الأمر تجدنـا نحن أولى بك منكا

احفظ الله يحفظك :

التقى خالد بن الوليد بالروم ، وظن أن عدد الروم يتناسب مع جيشه الذي كان عدده اثنين وثلاثين ألفًا ، وجيش الروم كان عدده مائتين وثمانين ألفًا ، وفي الصباح ومع طلوع الشمس ، أقبلت كتائب الروم تتهدر ، وقبيل المعركة قال أحد المسلمين لخالد : يا خالد ، ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، اليوم نفرّ إلى جبل أجاوسلي ، فدمعت عينا خالد ، وقال : بل إلى الله الملتجأ ، قُلْ : ما أكثر المسلمين ، وأقل الروم !! لوددت أن الأشقر[٢] براء من توجيه[٣]، وأن الروم أضعفوا العدد . وما أتت ثلاثة أيام إلا وقد أوقع الروم في كربة وفي سحق ومحق ، لا يعلمه إلا الله ، وانتصر عليهم[٤] .

(١) انظر المقامات الجلية ، لابن سيد الناس .
(٢) فرسه .
(٣) أي مرضه .
(٤) احفظ الله يحفظك ، للقرني ص١٨ ، ١٩ .

احفظ الله يحفظك

ذكر بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح الدين الأيوبي في معرض حديثه عن وقعة الرمل، فقال: ومن نوادر هذه الموقعة أن مملوكًا كان للسلطان يُدعى سراسنقر، وكان شجاعًا، قد قتل من أعداء الله خلقًا عظيمًا، وفتك فيهم، فأخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم، فمكروا به، وتجمعوا له، وكمنوا له، وخرج إليه بعضهم، وتراءوا له، فحمل عليهم حتى صار بينهم، ووثبوا عليه من سائر جوانبه، فأمسكوه، وأخذ واحد بشعره، وضرب الآخر رقبته بسيفه، فإنه كان قتل له قريبًا، فوقعت الضربة في يد الماسك بشعره، فقطعت يده، وخلّى عن شعره، فاشتد هاربًا حتى عاد إلى أصحابه، وأعداء الله يشتدون عَدْوًا خلفه، فلم يلْحقه منهم أحد، وعاد سالمًا ولله الحمد[1].

احفظ الله يحفظك:

حُكي أن رجلًا أخذ رداء الشيخ أبي بكر الكتاني في حال صلاته، ولم يشعر بذلك؛ لشغل قلبه بالله تعالى، فلمّا باع السارق، وأراد أن يسلم الرداء إلى المشتري يبست يده، فرجع بالرداء إلى أبي بكر الكتاني ويده شلّاء يابسة، فأخبر الشيخ بذلك، فدعا وقال: إلهي عبدك ردّ إلي ما أخذ منّي، فاردد عليه ما أخذت منه. فعادت يده سليمة كما كانت.

حُكي أن سارقًا دخل حجرة رابعة العدوية - رحمها الله - فأخذ شيئًا من متاعها، فلما قصد الخروج لم يجد سبيلًا، فعاد فوضع المتاع فوجد سبيلًا، هكذا فعل ثلاثًا، فنودي: إنا نحفظ بيتها، والله خير حافظًا[2].

احفظ الله يحفظك:

قال الحكم بن أبان عن أبي مكي: إذا حضر الرجل الموتُ يقال للملك:

---

(١) صفحات مشرقة من حياة السابقين، جمع وتصنيف نذير محمد مكتبي ص٢١ طبع دار البشائر الإسلامية. نقلًا عن النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص١١٧.

(٢) صفحات مشرقة من حياة السابقين ص٢٢ نقلًا عن محاسن الإسلام للإمام أبي عبد الله البخاري ص٦٤-٦٥.

شم رأسه . قال : أجد في رأسه القرآن ، قال : شم قلبه . قال : أجد في قلبه الصيام . قال : شم قدميه . قال : أجد في قدميه القيام . قال : حفظ نفسه فحفظه الله عز وجل[١] .

احفظ الله يحفظك :

ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب أن النبي ﷺ علمه أن يقول عند منامه : « اللهم إن قبضت نفسي فارحمها ، وإنْ أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

احفظ الله يحفظك :

قال مسروق : من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه[٢].

احفظ الله يحفظك :

ومَنْ ضيّع الله ضيّعه الله بين خلقه ، حتى يدخل عليه الضرر ممن كان يرجو نفعه ، ويصير أخص أهله به وأرفقهم به يؤذيه ، كما قال بعضهم : إني لأعصي الله فأجد ذلك في خُلق دابتي وامرأتي .

من فارق سُدّة سيده ، لم يجد لقدميه قرارًا أبدًا .

احفظ الله يحفظك :

ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه أن العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا - إما الولايات أو التجارات أو غير ذلك - فيحول الله بينه وبين ما أراد لما يعلم له من الخيرة في ذلك ، وهو لا يشعر مع كراهته لذلك .

قال ابن مسعود : إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة ، حتى ييسر له ، فينظر الله إليه فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فإني إن يسّرته له

---

(١) نور الاقتباس ص٤٥ نقلًا عن ابن أبي الدنيا .

(٢) نور الاقتباس ص٥٢ .

أدخلته النار ، فيصرفه الله عنه ، فيظل يتطير ، يقول : سبقني فلان ، دهاني فلان ، وما هو إلا فضل الله عز وجل[١].

عن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال : قال رَسول الله ﷺ : « إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه »[٢] .

وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب بابًا من أبواب الطاعات ، ولا يكون فيه خيرة ، فيحول الله بينه وبينه صيانة له ، وهو لا يشعر[٣].

* * *

فاللهم أصلحنا لك .

اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه ، فحل بيننا وبين معاصيك .

اللهم يا ولي الإسلام وأهله ، مَسِّكْنا بالإسلام حتى نلقاك عليه .

اللهم إني أسالك من فضلك ورحمتك ، فإنه لا يملكها إلا أنت[٤].

اللهم اجعل ذكرك شعارنا ودثارنا ، ونومنا وقرارنا ، واشغلنا به عن الدنيا وأهلها .

اللهم ارزقنا حلاوة الطاعة وعزها ، وانقلنا إليها من المعصية وذلها .

اللهم متع قلوبنا بذكر جلالك ، وسهِّرْنا عمّا نامت عنه عيون الغافلين .

اللهم اجعلنا لخصائص أصفيائك أصحابًا ، وللتائبين المعتكفين ببابك أحبابًا .

اللهم اعقد قلوبنا بحبل محبتك ، واجعل العيون منّا فوّارة بالعبرات ، والصدور منا محشوة بالحرقات .

---

(١) نور الاقتباس ص٤٩ .

(٢) صحيح : رواه أحمد عن محمود بن لبيد ، ورواه الحاكم في مستدركه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ١٨١٠ .

(٣) نور الاقتباس ص٥٠ .

(٤) حديث صحيح : رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود .

اللهم ولا تشغلنا شغل من شغله عنك ما أراد منك ، إلا أن يكون لك .

اللهم املأ قلوبنا بك فرحًا، وألسنتنا لك ذكرًا، وجوارحنا فيما يرضيك شغلًا.

اللهم امح عن قلبي كل ذكر إلا ذكرك ، وكل حب إلا حبك ، وكل ود إلا ودك ، وكل إجلال إلا إجلالك ، وكل رجاء إلا لك ، وكل خوف إلا منك ، وكل رغبة إلا إليك ، وكل رهبة إلا لك ، وكل سؤال إلا منك .

اللهم استعملنا على النحو الذي تحب ، وأدم ذلك لنا ، وأكد على ذلك عزائمنا ، واشدد عليها نياتنا ، وأصلح لها سرائرنا ، وابعث لها جوارحنا ، وكن ولي توفيقنا وزيادتنا وكفايتنا .

اللهم هب لنا ما وهبت لصفوتك وأوليائك وأهل طاعتك من دائم الذكر لك ، وخالص العمل لوجهك على أكمله وأدومه وأصفاه وأحبه إليك .

اللهم إنا نسألك لذة العيش بعد الموت ، وحسن النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك .

اللهم إن لم أكن أهلًا أن أبلغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل أن تبلغني ، فإن رحمتك وسعت كل شيء ، وأنا شيء ، فلتسعني رحمتك ، يا أرحم الراحمين .

اللهم إن رجالًا قد أطاعوك فيما أمرتهم ، وانتهوا عما نهيتهم .

اللهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك ، فوفقني .

اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك ، وهو التوحيد ، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك ، وهو الكفر ، فاغفر لي ما بينهما .

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

سيد بن حسين العفاني

فهرس المراجع

(أ) التفسير

١ – تفسير الطبري : لابن جرير الطبري – طبعة ابن تيمية .

٢ – تفسير الطبري : لابن جرير الطبري – مطبعة مصطفى الحلبي .

٣ – تفسير الطبري : تحقيق : محمود شاكر – طبع دار المعارف .

٤ – تفسير ابن كثير : لابن كثير – كتاب الشعب .

٥ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن: لأبي السعود– طبعة محمد علي صبيح.

٦ – زاد المسير : لابن الجوزي – المكتب الإسلامي .

٧ – روح المعاني والسبع المثاني : للعلّامة الألوسي – طبع دار الفكر .

٨ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية. تحقيق : أحمد الملاح – طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٩ – الكشاف : للزمخشري .

١٠– محاسن التأويل : لجمال الدين القاسمي .

١١– أضواء البيان : للشنقيطي – مكتبة ابن تيمية .

١٢– لطائف الإشارات : للقشيري – طبع دار الكتاب العربي .

١٣– في ظلال القرآن : للشيخ سيد قطب – دار الشروق .

١٤– تفسير المنار : للشيخ محمد رشيد رضا .

١٥– نظم الدرر : للبقاعي .

١٦– التحرير والتنوير : للشيخ محمد طاهر عاشور – تونس .

١٧– التفسير القيم : لابن القيم – طبع أنصار السنة .

١٨– تفسير غرائب القرآن : للقمي النيسابوري .

(ب) السنة

١ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري : لابن حجر – طبع السلفية .
٢ – شرح مسلم : للنووي – دار الشعب .
٣ – تحفة الأحوذي في شرح سنن االترمذي: للمباركفوري – طبعة الهند .
٤ – تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي – طبع المكتبة السلفية بالمدينة .
٥ – عون المعبود شرح سنن أبي داود : للطيب أبادي .
٦ – بذل المجهود سنن أبي داود .
٧ – حاشية السيوطي على النسائي .
٨ – مختصر سنن أبي داود : للمنذري، ومعه معالم السنن : للخطابي – مكتبة أنصار السنة .
٩ – سنن ابن ماجه : تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
١٠– مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه .
١١– موارد الظمآن في زوائد ابن حبان .
١٢– مسند أحمد بن حنبل: تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر– طبع دار المعارف.
١٣– الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني على أبواب البخاري : للساعاتي .
١٤– صحيح ابن خزيمة : تحقيق : د. مصطفى الأعظمي والشيخ الألباني – المكتب الإسلامي .
١٥– مجمع الزوائد : للهيثمي – مكتبة القدسي .
١٦– المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية : لابن حجر – المكتب الإسلامي .
١٧– صحيح الترغيب والترهيب : للألباني – المكتب الإسلامي .
١٨– صحيح الجامع الصغير : للألباني – المكتب الإسلامي .
١٩– السلسلة الصحيحة : للألباني – المكتب الإسلامي .
٢٠– صحيح سنن الترمذي : للألباني – المكتب الإسلامي .
٢١– صحيح سنن أبي داود : للألباني – المكتب الإسلامي .

٢٢- صحيح سنن النسائي : للألباني - المكتب الإسلامي .
٢٣- صحيح سنن ابن ماجه : للألباني : المكتب الإسلامي .
٢٤- مشكاة المصابيح: للتبريزي، تحقيق: الشيخ الألباني- المكتب الإسلامي.
٢٥- فيض القدير : للمناوي .
٢٦- شرح السنة : للبغوي، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - المكتب الإسلامي .
٢٧- المستدرك : للحاكم - الطبعة الهندية .
٢٨- مختصر المستدرك : لابن الملقن ، تحقيق : سعد بن حميد .
٢٩- المعجم الكبير : للطبراني، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي .
٣٠- السنن الكبرى : للبيهقي .
٣١- المصنف : لعبد الرزاق الصنعاني .
٣٢- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي .
٣٣- الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر - دار الكتاب العربي .
٣٤- شرف أصحاب الحديث : للخطيب البغدادي .
٣٥- طبقات الحنابلة : لأبي يعلى - طبعة دار المعرفة ببيروت .
٣٦- سير أعلام النبلاء : للذهبي .
٣٧- تذكرة الحفاظ : للذهبي .
٣٨- تجريد أسماء الصحابة .
٣٩- لسان الميزان : لابن حجر .
٤٠- ميزان الاعتدال : للذهبي .
٤١- الاستيعاب : لابن عبد البر .
٤٢- النهاية في غريب الحديث : لابن الأثير .

(جـ) الرقائق

١ - النونية : لابن القيم .
٢ - مدارج السالكين : لابن القيم - طبع أنصار السنة .
٣ - إغاثة اللهفان : لابن القيم .

٤ – روضة المحبين : لابن القيم .
٥ – المدهش : لابن الجوزي .
٦ – التبصرة : لابن الجوزي .
٧ – اقتضاء العلم العمل : للخطيب البغدادي .
٨ – صيد الخاطر : لابن الجوزي .
٩ – الفوائد : لابن القيم .
١٠– المقامات العلية : لابن سيد الناس .
١١– الذريعة إلى مكارم الشريعة : للأصفهاني .
١٢– المواعظ والمجالس : لابن الجوزي .
١٣– مجابو الدعوة : لابن أبي الدنيا .
١٤– الكبائر : للذهبي – طبع مكتبة السنة .
١٥– إحياء علوم الدين : للغزالي .
١٦– نزهة المجالس وأنس المجالس : لابن عبد البر .
١٧– مفتاح دار السعادة : لابن القيم .
١٨– جامع العلوم والحكم : لابن رجب .
١٩– ذمُّ الدنيا : لابن أبي الدنيا .
٢٠– الجواب الكافي : لابن القيم، تحقيق : محمد جميل غازي .
٢١– العاقبة في ذكر الموت والآخرة: لعبد الحق الأشبيلي، تحقيق: خضر محمد خضر.
٢٢– صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم : لعبد الفتاح أبي غدة .
٢٣– الوقت عمار أو دمار : جاسم بدر المطوع .
٢٤– الثبات عند الممات : لابن رجب .
٢٥– نور الاقتباس من مشكاة ابن عباس – طبع دار الأقصى الكويت .
٢٦– صفحات مشرقة من حياة السابقين : جمع وتصنيف : نظير محمد .
٢٧– لطائف المعارف : لابن رجب .
٢٨– قصص واقعية لبعض الموتى : لمجموعة من العلماء « شريط » .
٢٩– شارع الأشواق إلى مصارع العُشَّاق : لابن النحاس .

٣٠- أحكام الجهاد وفضائله : لعز الدين بن عبد السلام .
٣١- التذكرة : للقرطبي .
٣٢- فضل العلم : لمحمد سعيد رسلان .
٣٣- تذكرة السامع والمتكلم : لابن جماعة .
٣٤- مواعظ ومواقف للعلماء الصالحين أمام الحكام والسلاطين : لأحمد رضوان .
٣٥- الآداب الشرعية : لابن مُفلح .
٣٦- الزهد : لابن حنبل .
٣٧- الرقائق : لمحمد أحمد الراشد .
٣٨- حادي الأرواح : لابن القيم .
٣٩- الآداب : للخلال .
٤٠- اليواقيت الجوزية : لابن الجوزي .
٤١- مختصر قيام الليل : لمحمد بن نصر المروزي والمقريزي .
٤٢- تلبيس إبليس : لابن الجوزي .
٤٣- اللطائف : لابن الجوزي .
٤٤- مفاتيح الغيب .
٤٥- الزهد لابن المبارك .
٤٦- احفظ الله يحفظك : لعائض القرني .

(د) التاريخ

١ - البداية والنهاية : ابن كثير .
٢ - النهاية في الفتن والملاحم : ابن كثير .
٣ - الروض الأُنُف : للسهيلي .
٤ - صور من حياة الصحابة : عبد الرحمن رأفت الباشا .
٥ - سلسلة معارك الإسلام الفاصلة : لبشاميل .

٦ – طبقات الشافعية : للسبكي .
٧ – سيرة ابن هشام .
٨ – الكامل : لابن الأثير .
٩ – سمط النجوم العوالي .
١٠– السيرة الحلبية .
١١– عصر الدول والإمارات : شوقي ضيف .
١٢– تاريخ الطبري .
١٣– مناقب الإمام أحمد : لابن الجوزي .
١٤– الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية .
١٥– العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية : لابن عبد الهادي .
١٦– الطبقات الكبرى : لابن سعد .
١٧– الطبقات الكبرى – القسم المُتمِّم لتابعي أهل المدينة .
١٨– شذرات الذهب : للعماد الحنبلي .
١٩– الإبادة : لأحمد رائف .
٢٠– رسائل ابن حزم .
٢١– الذخيرة : لابن بسَّام .

(هـ) عقيدة

١ – كتاب السنة : للإمام عبد الله بن أحمد .
٢ – مصرع التصوف : للبقاعي ، تحقيق : الوكيل .
٣ – العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ .
٤ – القيامة الصغرى : لعمر سليمان الأشقر .
٥ – شفاء العليل : لابن القيم .
٦ – القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى : لابن عثيمين .
٧ – معارج القبول : للشيخ حافظ بن حكمي .

٨ – العقيدة في الله : للأشقر .
٩ – البهائية : إحسان إلهي ظهير .
١٠– القاديانية : إحسان إلهي ظهير .
١١– الفرق بين الفرق : لعبد القاهر البغدادي .
١٢– شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : للالكائي .
١٣– درْء التعارض : لابن تيمية .
١٤– مجموع فتاوى ابن تيمية .
١٥– مختصر الصواعق المرسلة : لابن القيم .
١٦– مختصر العلو : للذهبي .
١٧– الرجل الصنم : لضابط تركي .

(و) فقه

١ – المجموع : للنووي .
٢ – الجامع لمسائل المدونة .
٣ – الفتاوى السعدية للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي .

(ز) لغة

١ – قيامة الثأر : محمود حسن إسماعيل .
٢ – الأعمال الكاملة : لمحمود حسن إسماعيل .
٣ – تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين – طبع دار المعارف .
٤ – نفحات ولفحات : للقرضاوي .
٥ – نونية القرضاوي .
٦ – ديوان الأرض المباركة : للنحوي .
٧ – ديوان ابن الفارض .



فهرس أطراف الحديث

المعرف بأل من حرف الألف

حرف الباء

المعرف بأل من حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

المعرف بأل من حرف الحاء

حرف الخاء

المعرف بأل من حرف الخاء

حرف الدال

المعرف بأل من حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

المعرف بأل من حرف الراء

حرف الزاي

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

المعرف بأل من حرف القاف

حرف الكاف

المعرف بأل من حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

المعرف بأل من حرف الميم

حرف النون

المعرف بأل من حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

المعرف بأل من حرف الواو

حرف لا

حرف الياء

يُسلِّم الصغير	أبو هريرة	صحيح	٤٤٩/١
يقال لقارىء القرآن	ابن عمرو	حسن	٣٤٢/٢
يقول العبد يوم القيامة	أنس	صحيح	٢٠/١
يملأ عليه خضرًا	أبو هريرة	صحيح	٤٤١/٢
يؤتى بالعبد	أبو هريرة، أبو سعيد	صحيح	٥٥/١

المعرف بأل من حرف الياء

اليهود مغضوب عليهم	عديّ بن حاتم	صحيح	٣٠٢/٢

* * *

فهرس الموضوعات

* * *